كليـــة الآداب والعلوم الإنسانيـــة – مراكش
FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES– MARRAKECH
MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD

تكوين الدكتوراة:

"مدارك الاجتهاد في المستجدات الإنسانية المعاصرة"

أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراة

في موضوع:

"الهدايات القرآنية ومستجدات العصر:

سورة النور من الآية ﴿27﴾ إلى آخر السورة وفي

سورة الفرقان من الآية ﴿1﴾ إلى الآية ﴿20﴾"

[دراســـة تطبيقيـــة]

تحت إشراف فضيلة الدكتور
إبراهيـــم رضـــا

إعداد الطالب الباحث
أحمد الريفي

الموسم الدراسي: 1442–1443هـ (2021 – 2022)
رقم التسجيل: 180319

بسم الله الرحمن الرحيم

أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراة

في موضوع:

"الهدايات القرآنية ومستجدات العصر:

سورة النور من الآية (27) إلى آخر السورة وفي سورة

الفرقان من الآية (1) إلى الآية (20)"

[دراسة تطبيقية]

تحت إشراف فضيلة الدكتور
إبراهيم رضا

إعداد الطالب الباحث
أحمد الريفي

شكـــر وتقديـــر

لقد ورد في الحديث الشريف: ((**لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ**))([1])

فبعد شكر الله عز وجل وحمده والثناء عليه بما هو أهله جَلَّ في عُلاه، أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان إلى كل من مَدَّ يَدَ العوْن والمساعدة من قريب أو بعيد في سبيل إخراج هذا البحث المتواضع إلى حيز الوجود، وأخص بالذكر المشرف عليه: **فضيلة الدكتور إبراهيم رضا** حفظه الله، الذي تحمل الإشراف عليه منهجاً ومضموناً؛ بصبره علي، وحرصه على إتمامه، مع كرم أخلاقه وسعة صدره وعلمه، وجميل تواضعه وحلمه، فقد كان لتوجيهاته القيِّمة، وإرشاداته النَّيِّرة، الأثر الكبير في تذليل عقباته، حتى قام واستقام، بفضل تقويماته وتسديداته، وتصويباته وإرشاداته، فجزاه الله عني وعن العلم وأهله خير الجزاء وأحسنه وأوفره.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

1 أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، 392/13. حديث رقم: 8019. وأبو داود في سننه، باب في شكر المعروف، 188/7. حديث رقم: 4822. وإسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير الربيع ابن مسلم –وهو الجمحي– فمن رجال مسلم. وعبد الرحمن هو ابن مهدي، ومحمد بن زياد هو القرشي الجمحي مولاهم. وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" 22/9 من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، بهذا الإسناد. وينظر: تحقيق المسند: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون)

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان، والصلاة والسلام على من أرسله الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فإنَّ القرآن الكريم هو أعظم كتاب، أنزله الله سبحانه وتعالى على أشرف رسول، وجعله موعظة وشفاء لما في الصدور، وهدىً ورحمة للمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ [يونس: 57]

وإنَّ هداية القرآن الكريم هي أعظم الهدايات، وأقومها وأوضحها، وأقواها وأكملها؛ فمن اهتدى بهداه، كان أكمل الناس، وأهداهم سبيلا، وأقومهم طريقة في جميع أموره.

ومن الأهداف السامية لتلك الهدايات؛ إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتحقيق الشفاء للأمة على مستوى الفرد أو الجماعة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ٩ ﴾ [الإسراء: 9] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾ [المائدة: 15، 16]

والقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا تحصى معانيه وفوائده، فقد نهلت منه أمة الإسلام منذ أن أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا يزال المجال مفتوحًا لاستخراج الهدايات الربانية، والفوائد الإيمانية، والأسرار التشريعية من معينه الصافي، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ ولا عجب في ذلك فهو المعجزة الخالدة التي تخاطب القلوب والعقول، وإعجازه باقٍ ما بقيت الدنيا، ومن صور إعجازه تدفق عطائه، وتجدد آياته وهداياته.

والأمة في أمس الحاجة -لا سيما في عصرنا هذا- إلى هدايات القرآن الكريم المنهاجية، وتمثلها في واقعها العملي؛ فإنَّ كل كمال ديني، أو دنيوي، عاجل، أو آجل، مفتقرٌ إلى تلك الهدايات محتاج إليها؛ إذ إنها لازمة لكل صلاح وإصلاح في هذه الأرض، سواء كان كذلك في مجال العقيدة، أو العبادة، أو الأخلاق، أو المعاملات، أو غير ذلك من سائر جوانب الحياة، وبهذه الهدايات تتحقق السعادة الحقيقية للعباد على وجه الأرض.

وإنني بعد أن يسر الله تعالى لي ولوج هذا التكوين بمركز دراسات الدكتوراة: (مدارك الاجتهاد في المستجدات الإنسانية المعاصرة) في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة القاضي عياض بمراكش، فقد اخترت هذا الموضوع: (**الهدايات القرآنية ومستجدات العصر: سورة النور من الآية: 27 إلى آخر السورة، وفي سورة الفرقان من الآية 1-إلى الآية 20: دراسة تطبيقية**) ليكون عنواناً

لبحثي في هذا التكوين المبارك المعطاء، وليكون هذا البحث محاولة للتعرف على هذا الموضوع من خلال دراسته، والدخول إلى عالم الْهُدَى القرآني؛ تأصيلا، ودراسة، وتحقيقاً، وتمثلا، لاستكناه ما فيه من الهدايات وأسرار الآيات، مما له علاقة بواقع الأمة ومستجداته.

أهمية الموضوع:

إن من المقاصد الكبرى، والغايات الأسمى، التي جاء القرآن الكريم ليبلغها إلى البشرية جمعاء، أنه هو سر حياتها، ونور قلبها، وبَصيرةُ نفسها وروحها، وسبيل سعادتها: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:122] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى: 52]

فلا حياة للأمة إلا بروح القرآن وهديه، ولا بصيرة لقلبها ونفسها إلا بنوره وبصائره: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام: 104]

ولا نجاة لها من الضلال والشقاء؛ في الدنيا والآخرة، إلا باتباع هداه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: 123]

ولا شك أن لهذا الكتاب العظيم من الأسرار الإلهية، والهدايات الربانية ما لاينتهي، لأنه كلام الله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: 109]

ولذلك كان التعامل مع القرآن الكريم؛ تلاوة، وحفظاً، ومدارسةً، وتدبراً، وفهماً، كل ذلك –على جلالة قدره تعبداً وسيراً إلى الله تعالى– إنما هو من أجل الاستهداء بهداياته، والاستنارة بأنواره، وذلك بما تمثله هذه الهدايات، من الهدى المنهاجي (من أجل إبصار لآيات الطريق)([1]) كما قال تعالى عن هُدَى القرآن ووظيفته: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: 52]

وبناء على هذا يمكن إجمال أهمية البحث في هذا الموضوع في النقاط الآتية:

- أنَّ فيه جمعًا لما تفرق في كتب التفسير وغيرها في مجال الهدايات، وضمًّا لشتاتها في موضع واحد؛ للاستفادة المثلى منها، لأنها ثمرة التفسير لكتاب الله عز وجل.

---

1 هذه العبارة هي جزء من عنوان كتاب: (بلاغ الرسالة القرآنية: من أجل إبصار لآيات الطريق) للشيخ فريد الأنصاري رحمه الله تعالى.

- أنه يعنى باستنباط هدايات جديدة من كتاب الله تعالى الذي لا تنقضي عجائبه وفوائده، وصياغتها بصورة واضحة وميسرة يستفيد منها المسلمون في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وفكرهم؛ حيث إنَّ إبراز الهدايات القرآنية الربانية لم يأخذ حقه في بعض كتب التفسير.

- أنَّ فيه إبرازًا لجوانب البلاغة القرآنية التي هي مناط إعجاز القرآن، وتوظيف ذلك في خدمة الهدايات القرآنية.

- أنه يعنى بجعل التفسير يلامس قضايا الواقع، ويضع حلولًا مناسبة لمشكلاته، وفق هدايات القرآن الكريم، لا سيما في زمن التطور العلمي والتقني وتسارع الاكتشافات البحثية.

- أنَّ في استنباط هدايات القران الكريم لفت الانتباه إلى فحوى النص القرآني، وإرشاد مبتغيه -استدلالًا أو استنباطًا- إلى اعتبار هدايات النصّ وروحه ومقصده عند الأخذ به.

- أن قضية الهدايات القرآنية هي أعظم مقصد من مقاصد التفسير من الناحية العملية، فما اهتم المسلمون بتفسير كتابه الله وبيانه؛ إلا لأجل هذا الغرض، وهو تقريب هدايات القرآن وبصائره الإيمانية، والتعبدية، والخلقية، للناس ليهتدوا به في واقعهم.

- إن هدايات القرآن الكريم هي السبيل الوحيد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الجهل بالله، إلى العلم به وجلاله وجماله، ومن الضنك والشقاء إلى الفوز والفلاح، ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة... فما أخرج الله هذه الأمة للناس -يوم أن أخرجها- من مواتها إلا بهدايات القرآن، ولن تعود لحياتها ومجدها، وعزها ونصرها، إلا بهداه كذلك إن شاء الله تعالى.

أسباب اختيار الموضوع:

يعود اختيار هذا الموضوع للأسباب الآتية:

- هناك جهود ضخمة عظيمة ومقدرة لعلماء الأمة عبر التاريخ في مجال التفسير، لكن بعض تلك الجهود اختلط فيها الصحيح بالسقيم، والقوي بالضعيف، ثم بعضها بقي ضمن دائرة معينة لا تستفيد منه الأمة، وطلاب العلم في هذا السياق.. وهذا يتطلب دراسة منتقاة تأخذ الصحيح وتدع السقيم، وتتجنب الخلل، وتكمل النقص، لا سيما في مجال هدايات القرآن الكريم التي هي أهم أهدافه، وأعظم مقاصد تفسيره.

- لا يزال علم التفسير في حاجة لمزيد من الدراسات، ومن ذلك بذل الجهود لإبراز جوانب الهدايات القرآنية والمقاصد التفسيرية؛ حيث إنها لم تجد الحظ من العناية الكافية من خلال كتب التفسير القديمة والحديثة؛ فقد كان جلُّ اهتمام المفسرين منصبًّا بالجملة على بيان المعاني –على ما لها من الأهمية– أما الهدايات والمقاصد فإنها تذكر ضمنًا، وهذا يتطلب إبرازها في دراسة خاصّة بها.

- حاجة هذا العصر لربط واقعه بمعاني القرآن وهداياته؛ حتى تعود الأمة لمجدها وعزها كما كانت عليه يوم أن كان القرآن هاديًا وشافيًا لعللها وأمراضها.

- الحاجة الملحة إلى رؤية علمية مثلى، تقوم على أصح الطرق في الفهم والاستنباط، وتأخذ من كل منهج واتجاه في التفسير أحسنه، ويتم من خلالها كتابة الهدايات القرآنية؛ لتكون موردًا عذبًا للمهتدين بهديه القويم، ومقصداً للمتدارسين لِهُداه المستقيم.

- ربط الأحكام القرآنية بالمقاصد التربوية والإيمانية، واستخراج الأخرى من مواضيع لم تنصب عليها جهود من درس آيات الأحكام في القرآن الكريم، نتيجة للتقسيم الثلاثي المعهود: التوحيد، والقصص، والأحكام.

- الانتقال من الاشتغال حول النص القرآني، بذكر علومه ومعارفه.. على أهمية ذلك، –وهو لا شك مدخل أساسي، وشرط ضروري، للدخول إلى عالم النص القرآني وروحه– إلى الاشتغال داخل النص القرآني، وفرق كبير بين من يشتغل حول النص، ومن يشتغل داخل النص، فالاشتغال داخل النص، انشغال بالنص في الواقع، والبحث عن تصريف آياته؛ آية، آية، والاهتداء بهداياها، هداية، هداية، وحكمة، حكمة. أما الاشتغال حول النص، فهو انشغال بأوصاف النص، ومفاهيمه، (علوم ومعارف النص) والبقاء داخل هذه الدائرة، دون الانتقال إلى دائرة الغاية. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان، يشتغلون داخل النص، (الوحي) ذلك أن الاشتغال حول النص (علوم النص/ القرآن) طرأ كوسيلة للعودة إلى داخل النص.. ومن هنا قسم العلماء العلوم الشرعية إلى: علوم وسيلة، وعلوم غاية... فلا ينبغي أن تشغلنا الوسيلة عن الغاية.

- ما تتضمنه سورتا: (**النور**) و(**الفرقان**) من الهدايات القرآنية، والأنوار الربانية، والأسرار الإلهية، والتوجيهات الإيمانية والتشريعية، والتربوية والخلقية، في مختلف مجالات الحياة: الأسرية، والاجتماعية، والدعوية، وغيرها.. مِمَّا لو تَمثَّلتْه الأمة وتحققت به عملياً لخرجت مما تخبط فيه من ضنك وشقاء.

أهـداف البـحـث:

- إبراز ما في آيات القرآن الكريم من هدايات ومقاصد؛ بصورة تقرب فهم القرآن للناس فهماً عملياً، بطريقة ميسرة، ومنهجية علمية. من خلال الإفادة من الجهود السابقة للعلماء في التفسير، وتقدير هذه الجهود العظيمة لعلمائنا بإبرازها في هذه الهدايات المستخلَصة.

- إظهار ما في القرآن الكريم من جوانب الإعجاز والأسرار، في ألفاظه وعباراته، وتراكيبه؛ بما يظهر جماليات القرآن في هذا المجال الرحب، وسبر أعماقه وأغواره. ذلك أنه إذا كانت المعاني والأحكام القرآنية تؤخذ من جمله وآياته، (تركيباً) فإن لطائفها الإيمانية، وأسرارها الهداياتية، تؤخذ من ألفاظه وعباراته (إفراداً) ذلك أن أكثر الطائف القرآنية مودعة في ألفاظه وكلماته.

- ربط الواقع بمعاني القرآن الكريم وهداياته، وتفعيل دوره في معالجة مشكلات الفرد، والأسرة، والجماعة، والأمة؛ تحقيقاً لمقصد نزول القرآن، وهو: الاستهداء بهداياته، عند النّظر فيه؛ تدبراً، ومدارسة، وتفسيراً، وبالتالي عند تنزيل أحكامه في واقع الأمة، في مختلف المجالات: العقدية، والتعبدية، والأخلاقية، والعلمية، وغيرها.

- تيسير تحقيق سبل الهدايات القرآنية نظرياً وعملياً، لكل من يبحث عنها، وذلك بالعمل على ربط الأمة بالقرآن الكريم من خلال خطوات عملية واضحة ويسيرة، للإجابة عن سؤال: كيف نتعامل القرآن الكريم قصد استخراج هداياته للتحقق بها والتخلق بآثارها وأنوارها.

- فتح آفاق جديدة في التدبر والاستنباط لمعاني القرآن الكريم ومقاصده، في مجالات قَلّ من يقف معها لأجل هذا الغرض، فمجالات التدبر في آيات القرآن الكريم أوسع مما نتصور.

- الوقوف على جوانب من الهدايات القرآنية، دراسة، وتطبيقاً، في سورتي: **(النور)** و**(الفرقان)** -الآيات التي في حدود البحث- للاهتداء بهديهما القويم.

- بيان عظمة القرآن الكريم من خلال استخراج هداياته، وأسرار آياته، وقبسات أحْكامه وحِكَمه، إذ غالباً ما ما يغلب علينا ونحن نتعامل مع القرآن الكريم -دراسة وفهماً وتفسيراً- النظر إلى جانب الأحكام المجردة عن أسرارها وأنوارها وهداياتها، مما يفوت علينا الإحساس الإجلالي والجمالي للقرآن الكريم وموضوعاته، المتمثل في هذه المقاصد والحِكم للآيات وهداياتها.

حـدود البحث:

ستكون الدراسة التطبيقية في هذا البحث من خلال سورتي: (**النور**: من الآية: 27 إلى آخر السورة. و**الفرقان**: من الآية: 1 إلى: 20)

الدراسات السابقة:

لم يتطرق أحد من الباحثين -في حدود اطلاعي- إلى إفراد الهدايات القرآنية عموماً، وفي سورتي: (النور) و(الفرقان) خصوصاً(1) بدراسة علمية مفصلة، إلا ما كان من إشارات عابرة، ولطائف، أو فوائد تذكر -عرضاً- في بعض كتب التفسير، تذيل بها الآيات المفسرة عند الانتهاء منها، وتأتي هذه الدراسة لتحاول إثارة هذا الموضوع لفتح مجالاته وآفاقه، علّها أن تكون سبباً لدراسات أخرى في هذا السياق؛ بحثاً وتطويراً.

سؤال البحث:

يعود سؤال هذا البحث إلى محاولة الإجابة، أو المشاركة في هذه الإجابة عن التساؤل القديم الجديد، ألا وهو: منهج التعامل مع القرآن الكريم بما هو كتاب هداية شاملة، وذلك بما يستجد في كل زمان ومكان من مستجدات تتطلب تعاملا خاصاً مع هذا الكتاب قصد الاستهداء بهداياته، وذلك بما يمثله هذا الكتاب العظيم من (الهدى المنهاجي) مِنْ (أجل إبصار لآيات الطريق) قصد ربط الواقع ومستجداته بمعاني القرآن الكريم وهداياته، ومن ثم تفعيل دور هدايات القرآن

---

1 هناك بعض الكتب والأبحاث حول سورة النور من مثل: (انشراح الصدور في تدبر سورة النور: سليمان بن إبراهيم اللاحم – تفسير سورة النور: أبو العلى المودودي -تفسير سورة النور: عبد الهادي التازي– التربية القرآنية في سورة النور: أنور أحمد أعمير – أسوار العفاف: قبس من سورة النور: عصام بن صالح العويّد – التنشئة الاجتماعية في سورتي النور والأحزاب: بحث للماجستير: نسرين إسماعيل حسن).. لكن المتأمل في هذه الدراسات والأبحاث يجدها كلها منصبة على جوانب معينة من مثل: الأحكام الأسرية، أو الآداب الاجتماعية، ثم إنها لم تخرج عن سياق ما هو مقرر في كتب التفسير، بمعنى لم تقف عند جوانب الهدايات المستنبطة من هذه السورة. أما بخصوص سورة الفرقان فإن أحسن ما يمكن ذكره في هذا السياق هو ما قدمه الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله في مشروعه القرآني القيم: مجالس القرآن: (مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ)، فقد درس هذه السورة -سورة الفرقان- ضمن سور أخرى، لكن اهتمامه كان -بعد البيان العام لآيات السورة- متجهاً نحو رسائلها المنهاجية العامة، وكيف يتلقاها المؤمن للدخول تحت ابتلاءاتها، وهو عمل يقرب أو يشبه مفهوم (الهدايات الكلية للسورة) كما أوردناه في مبحث خاص في هذه الدراسة، وطريقته أنه يذكر بعد تفسير وبيان كل مقطع، عنواناً يسميه: الهدى المنهاجي، ويفرعه إلى رسائل كلية عامة. ولا يقف مع كل آية من آيات السورة لاستنباط هداياتها.

ومقاصده في معالجة مشكلات الفرد، والأسرة، والجماعة، بفتح آفاق جديدة في المدارسة والتدبر والاستنباط، وذلك من خلال دراسة تطبيقية لسورتي: (**النور**) (من الآية 27 إلى نهايتها) و(**الفرقان**) (من الآية1 إلى 20)

الجديد الذي يقدمه هذا البحث:

- هذا الموضوع يعبر عن دراسة خاصة في مجال التفسير، تفيد مما كتبه المفسرون وغيرهم من العلماء في مجالات أخرى عن آيات القرآن، قديمًا وحديثًا؛ للخروج بهدايات آيات الكتاب العزيز وحِكَمه وأسراره ومقاصده، وجمعها في سياق آياتها موضوع الدراسة، من باب خدمة هذا التراث التفسيري العظيم من هذا الجانب؛ جانب الهدايات القرآنية المستنبطة.

- إضافة ما يوفق الله تعالى إلى استنباطه، بعد الاستعانة بالله جلَّ جلاله، ثم الاستنارة بما دونه مفسرو القرآن وعلماء الأمة.

- بيان أن علوم اللغة هي الباب الذي يُدخَل منه إلى استكناه أسرار القرآن ولطائفه، وأنوار معارفه وفوائده، وفقه معانيه ومقاصده، وذلك من خلال معرفة لغة القرآن ومعانيه، وفقه مفرداته، وعلم نحوه وغريبه..، ولهذا كان لزاماً على مَن يريد أن يبحر في بحر أسراره، ويسبح في فلك أنواره، من الإمام بأصولها –اللغة–، والاطلاع على أسرارها والوقوف على تعليلاتها، وقد قال الإمام السهيلي رحمه الله في هذا السياق –سياق استكناه أسرار القرآن وفوائده وهداياته– (لا يطمع في الاستبصار والاستكثار من فوائده ونضاره، والاستبحار في فنون فوائده ومباحث أغواره، إلا بعد معرفة باللسان الذي أنزل به القرآن، ولغة النبي صلى الله عليه وسلم الذي أحلنا عليه في البيان، فإنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: 4] وقال سبحانه: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ [الشعراء:195] فإذا كانت صناعة الإعراب مرقاة إلى علوم الكتاب، لا يُتَوَلَّجُ فيها إلا من أبوابه، ولا يتوصل إلى اقتطاف زهراتها إلا بأسبابه، فواجب على الناشئين تحصيل أصولها، وحتم على الشادين البحث عن أسرارها وتعليلها)(1)

- بيان أن عطاء القرآن الكريم لا ينتهي أبداً، وأنه يتعدد بتعدد مقاصد المتعاملين معه، فمن بحث عن الأحكام وأسرارها وجد ذلك، ومن بحث عن الأخلاق ومقاصدها وجد ذلك أيضاً، ومن بحث عن الهدايات الربانية والأسرار الإلهية وجدها كذلك، وهكذا...

---

1 نتائج الفكر، ص27

- السعي لربط الواقع بهدي القرآن الكريم، وخاصة ما يتعلق بهدايات سورتي: (**النور**) و(**الفرقان**) بهدف تقويم هذا الواقع وإصلاحه من خلالها.

المنهج المتبع في البحث:

المنهج المتبع في البحث هو (المنهج الاستقرائي التحليلي الاستنباطي)، من خلال دراسة الآيات القرآنية الداخلة ضمن حدود البحث لاستنباط الهدايات القرآنية منها، وذلك بعد الدراسة النظرية الشاملة للسورتين محل البحث.

وسأتبع في البحث مجموعة من الخطوات الإجرائية، من أهمها:

1) الالتزام -في استخلاص الهدايات- بأحسن طرق التفسير التي ذكرها العلماء، وهي بيان القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين، ثم بما يوافق لغة العرب.
2) الاعتماد على الأحاديث والآثار الصحيحة في بيان القرآن بالسنة، وبأقوال الصحابة والتابعين، وتجنب الروايات الموضوعة والضعيفة.
3) الرجوع لما كتب في التفسير بمختلف مدارسه واتجاهاته المختلفة، ومحاولة الاستفادة من ذلك بما يتوافق مع قواعد الترجيح والاختيار في جمع وكتابة الهدايات القرآنية. مع تجنب الأقوال الشاذة أو المردودة، والآراء المرجوحة والضعيفة في التفسير.
4) الالتزام بمنهج الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء الراسخين، في تناول الهدايات القرآنية.
5) الالتزام بأصول التفسير وقواعده في الاختيار والترجيح في استنباط الهدايات القرآنية.
6) تجنب تفريعات علوم العقيدة، والفقه، وغيرها -إلا ما كان فيه زيادة بيان للآية- في استخراج الهدايات القرآنية، وعدم الخروج عن دلالة النص القرآني.
7) اعتماد القراءات القرآنية في استخراج الهدايات، وخصوصاً إذا كانت هذه القراءة، أو تلك تضيف معنى جديداً للآية، فإن تعدد القراءات بمثابة تعدد الآيات.
8) إذا أُخِذت الهداية من كتب التفسير كما هي دون تصرف، يُحال عليها بذكر اسم الكتاب المأخوذة منه، وإذا أعيدت صياغة معناها، يُحال عليها ب: (يُنظَر التفسير الفلاني)
9) إذا كان وجه دلالة الهداية من الآية واضحاً، -بأي وجه من أوجه الدلالة المعروفة- فلا يذكر تنصيصاً، إلا إذا كان عكس ذلك، فهنا يذكر بيان وجه الدلالة.
10) الاعتماد في كتابة الآيات على الرسم العثماني، برواية حفص عن عاصم

11) عزْو الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية في متن البحث، وإذا تكرر ذكر الآية في الصفحة نفسها فسأكتفي بعزوها في المرة الأولى.

12) تخريج الأحاديث الشريفة تخريجًا علميًّا موجزًا، فإذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما فسأكتفي بهما، وإذا كان في غير الصحيحين أو أحدهما، فإني سأذكرُ تخريجَه من بقية كتب الحديث المعتبرة، مراعيًا عدم الإطالة، والبعد عن الإكثار في ذكر المصادر التي خرّجته، ولكني أذكرُ طرفًا منها، مع بيان درجة الحديث من خلال ذِكر كلام أهل الاختصاص، قدر المستطاع.

13) الترجمة لأهم الأعلام الواردة في البحث ترجمة موجزة، وعدم الترجمة للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومشهوري الصحابة رضوان الله عنهم، والأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى؛ لشهرتهم، وكذا مَن ذاع صيته وعمت شهرته من العلماء، وعدم الإحالة إلى مكان الترجمة إذا ورد ذكر علَمٍ مرة أخرى.

14) ضبط ما يحتاج إلى ضبط بالشكل، بحسب ما يوضح السياق قدر الإمكان.

15) توثيق النصوص المنقولة من مصادرها الأصيلة، إلا ما كان منقولا بالوساطة وتعذر الوصول إلى الأصل.

16) المعوَّل عليه في معرفة طبعات المصادر والمراجع، هو الفهرس الخاص بذلك آخر الرسالة.

خطة البحث:

وقد استقام هذا البحث على: مقدمة، وتمهيد، وقسمين، وخاتمة، وفهارس، وهي كما يأتي:

المقدمة: وتشمل أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، وحدوده، والدراسات السابقة، والمنهج المتبع في البحث، وخطة البحث، وهي ما مر معنا.

التمهيد: وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالهدايات القرآنية.

المبحث الثاني: أهمية الهدايات القرآنية.

المبحث الثالث: منهج العلماء في استخراج الهدايات القرآنية.

المبحث الرابع: إطلاقات العلماء للهدايات القرآنية، وطرق تناولهم لها.

القسم الأول: الهدايات القرآنية في سورة النور من الآية: (27) إلى آخر السورة، ويتكون من بابين :

البـــاب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات سورة النور، ويتكون من فصلين:

الفـــصـــــل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.

المبحث الأول: اسم السورة.

المبحث الثاني: فضائل السورة.

المبحث الثالث: أحوال نزول السورة.

الفصـــــــل الثـــــاني: معاني السورة ومقاصدها.

المبحث الأول: مقاصد السورة العامة.

المبحث الثاني: معاني مفردات السورة من الآية (27) إلى آخر السورة.

المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هدايات السورة.

البـــاب الثـــاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة النور من الآية (27) إلى آخر السورة، وربط ذلك بواقع الأمة، ويتكون من ثلاثة فصول:

الفصـــــل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في السورة.

المبحث الأول: الهدايات الخاصة بآيات السورة، من الآية (27) إلى آخر السورة.

المبحث الثاني: الهدايات الكلية في السورة، من الآية (27) إلى آخر السورة.

الفصـــل الثـــــاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها.

المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة.

المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة.

المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها.

الفصـــــل الـــثـــالث: واقع الأمة في ضوء هدايات السورة، وأثر ذلك عليها.

المبحث الأول: واقع الأمة من هدايات آيات السورة.

المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة.

المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة.

القسم الثاني: الهدايات القرآنية في سورة الفرقان إلى الآية (20) ويتكون من بابين:

الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات سورة الفرقان، ويتكون من فصلين:

الفصـــــل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.

المبحث الأول: اسم السورة.

المبحث الثاني: فضائل السورة.

المبحث الثالث: أحوال نزول السورة.

الـــفـــصـــــل الثـــــاني: معـــاني الســـورة ومقـــاصـــدها.

المبحث الأول: مقاصد السورة العامة.

المبحث الثاني: معاني مفردات السورة من الآية: (1- 20)

المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هدايات السورة.

الـــبـــــاب الـــثـــاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة الفرقان إلى الآية (20) وربط ذلك بواقع الأمة، ويتكون من ثلاثة فصول:

الفصـــل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في السورة.

المبحث الأول: الهدايات الخاصة بآيات السورة، من الآية (1-20)

المبحث الثاني: الهدايات الكلية في السورة، من الآية (1- 20)

الفصـــل الثـــاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها.

المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة.

المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة.

المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها.

الفـــصـــل الـــثـــالث: واقع الأمة في ضوء هدايات السورة، وأثر ذلك عليها.

المبحث الأول: واقع الأمة من هدايات آيات السورة.

المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة.

المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة.

الخـــاتمـــة: وفيها أهم النتـــائج والتـــوصيات.

الفهارس: وتتضمن الآتي:

- فهرس الآيات القرآنية محل البحث

فهرس الأحاديث والآثار.

- فهرس أسماء الأعلام الواردة في البحث.

- فهرس المصادر والمراجع.

- فهرس الموضوعات.

التمهيد

وفيه أربعة مباحث

الأول: التعريف بالهدايات القرآنية

الثاني: أهمية الهدايات القرآنية

الثالث: منهج العلماء في استخراج الهدايات القرآنية

الرابع: إطلاقات العلماء للهدايات القرآنية، وطرق تناولهم لها

المبحث الأول

التعريف بالهدايات القرآنية

تمهيد:

إن التعريف بالهدايات عموماً، وبالهدايات القرآنية خصوصاً، -والذي يعني الوقوف على أصل هذه العبارة ومعانيها ومصدرها من حيث اللغة، ثم مضمونها ومعانيها ونتائجها ومقاصدها من حيث الاصطلاح، ومن حيث ورودها في القرآن الكريم كذلك، وعلاقة تعريفها اللغوي والاصطلاحي بمفهومها القرآني...- هو الذي يدلنا على أهميتها وقيمتها في هذا السياق، وذلك نظراً لما أضافه القرآن الكريم من دلالات واسعة وعميقة؛ لمفهوم الهدايات على ما هو موجود في معاجم اللغة، مع الدقة، والتنوع، والشمول، والاستيعاب لمجالاتها، في سياقاتها المتعددة والمتنوعة.

ومن هنا كان الوقوف مع هذا المبحث التعريفي للهديات القرآنية ودراستها، هو بمثابة المدخل الأساس للمباحث الآتية، من مثل: أهمية الهدايات القرآنية، ومنهج العلماء في استخراجها، وإطلاقاتهم لها، وطرق تناولهم إياها...

- **الهدايات لغة:**

الهدايات جمع هداية، والهداية والهُدَى مصدران لقولهم: هدى يهدي، وهما مأخوذان من مادة: **(هَـــ ، دَ، ى)** والتي تدل على أصلَيْن: قال ابن فارس([1]): (الهاء، والدال، والحرف المعتل، أصلان، أحدهما: التقدم للإرشاد، والآخر: بعثه لَطَفٍ، فالأول قولهم: هديته الطريق هداية، أي تقدمته لأرشده، وكل متقدم لك هادٍ، والأصل الثاني: الهَدِيَّةُ وهي ما أهديت من لَطَفٍ إلى ذي مودة، يقال: أَهديتُ أُهدي إهداءً، ومن هذا الباب: الهدْيُ والهَدِيُّ: ما أهدي من النَّعَم إلى الحرم قربة إلى الله سبحانه وتعالى)([2])

---

1 الإِمَامُ العَلاَّمَةُ، اللُّغَوِيُّ المحَدِّثُ، أَبُو الحُسَيْنِ، أَحْمَدُ بنُ فَارِسِ بنِ زَكَرِيَّا بن مُحَمَّدِ بنِ حَبِيْبٍ القَزْوِيْنِيُّ، المعْرُوفُ بِالرَّازِيِّ، المَالِكِيُّ، اللُّغَوِيُّ، نَزِيْلُ هَمَذَان. أصله من قزوين، وأقام مدة في همدان، ثم انتقل إلى الري، فتوفي فيها وإليها نسبته، (توفي سنة: 395هـــ) من أشهر مؤلفاته: معجم مقاييس اللغة، ومجمل اللغة. (ينظر معجم الأدباء لياقوت الحموي 4/ 80)

2 معجم مقاييس اللغة، مادة (هـــ، د، ى)

وقال الراغب الأصفهاني([1]): الهداية: دلالة بلُطْف، من ذلك هوَادي الوحْشُ أيْ مُتَقَدِّماتُها الهادية لغيرها، وخُص ما كان دلالة ب(**هَدَيْتُ**) وما كان إعطاءً ب: (**أهديتُ**)، والهدى والهداية في موضوع اللغة واحد، كما مر، لكن قد خَص الله عز وجل لفظة: (**الهدى**) بما تولاه وأعطاه، واختص هو به، دون ما هو إلى الإنسان نحو قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2] وقوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ ۝٥﴾ [البقرة: 5] (**والاهتداء**) يختص بما يتحراه الإنسان على طريق الاختيار إما في الأمور الدنيوية، أو الأخروية، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ ۝٩٧﴾ [الأنعام: 97] وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾ [البقرة: 53]([2])

وقال الجوهري([3]): الهُدَى: الرشاد والدلالة، يؤنث ويذكر، يقال: هداه الله للدين هدىً، والهدى في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة: 26] أي لم يبين لهم، والْهَداء مصدر قولك: هُديت المرأة إلى زوجها هَداءً وقد هُديت إليه، ويقال: هَدَى هَدْيَ فلان أي سار سيرته، وفي الحَديث: ((وَاهْدُوا هَدْيَ عَمَّار))([4]) أيَ سيروا سيرته، والتَّهادي أن يُهْدِيَ بعضهم إلى بعض، وفي الحديث الصحيح: ((تهادوا تحابوا))([5])([6])

---

1 أبو القاسم الحسين بن محمد ابن المفضل الأصبهاني، الملقب بالراغب، صاحب التصانيف، قال عنه الذهبي: كان من أذكياء المتكلمين، أصله من أصفهان، وعاش ببغداد (وتوفي سنة 502هـ) من أشهر مصنفاته: الذريعة إلى مكارم الشريعة، والمفردات في غريب القرآن. وهو من أعظم ما صنف في بابه. (ينظر السير، 121/18)

2 معجم مفردات ألفاظ القرآن، 540

3 أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (نسبة إلى مدينة فاراب كازاخستان حاليا) إمام في اللغة وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، من أشهر مصنفاته تاج اللغة وصحاح العربية والمعروف اختصارا ب(الصحاح) (توفي سنة: 393هـ) كان ثاني من حاول الطيران بعد عباس ابن فرناس، ومات بسبب ذلك. (ينظر سير أعلام النبلاء،80/17)

4 أخرجه الإمام أحمد في مسنده (مسند حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه) والترمذي في سننه، حديث رقم: (3663)، وابن حبان في صحيحه برقم: (6902). وهو حديث حسن بطرقه وشواهده، وهذا إسناد لين من أجل سالم المرادي –وهو سالم بن عبد الواحد، ويقال: ابن العلاء، أبو العلاء الأنعمي– فقد اختلف فيه، فوثقه الطحاوي في (شرح المشكل) وأبو الحسن العجلي، وابن حبان، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه. وضعفه ابن معين والنسائي في (ضعفائه) (229)، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح، غير أبي عبد الله المدائني متابع ربعيٍّ، فلم يرو عنه غير عمرو بن هرم، وذكره ابن حبان في (الثقات) 667/7-668. والحديث بتمامه هو: ((إِنِّي لَسْتُ أَدْرِي مَا قَدْرُ بَقَائِي فِيكُمْ، فَاقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي – يُشِيرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ – وَاهْدُوا هَدْيَ عَمَّارٍ وَعَهْدَ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ)) (ينظر –مفصلا– تعليق الشيخ شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون على مسند الإمام أحمد)

5 الصحاح، باب الواو والياء، مادة: (هدى) 6/ 2533.

6 أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (594)، وابن عدي في (الكامل) 1424/4، والبيهقي في (السنن) 169/6، وفي (الشعب) (8976)، والمزي في ترجمة ضمام بن إسماعيل من (تهذيب الكمال) 313/13-314 من طريق ضمام بن=

وقال ابن منظور([1]): (هو من هداه يهديه هُدىً وهدْياً وهِدايةً وهَدْيةً. والهُدى ضد الضلال، وهو الرشاد والبيان، لازم ومتعدٍّ، يقال: هداه الله الطريق، وهي لغة الحجاز، ولغة غيرهم يتعدَّى بالحرف فيقال: هداه إلى الطريق وللطريق، أي بينه له وعرَّفه به. وهداه الله إلى الإيمان وللإيمان أي أرشده إليه. وهُديَ هَدْيَ فلان سار سيرته، وهَدَى فلاناً تَقدَّمَه. وهَدَى الشيءِ تَهْدية وهو لا يَهَدِّي إلا أن يُهْدَى: أي لا يقدر أن ينتقل من مكانه إلا أن ينقلوه. ومعنى يهَدِّي: لا يهتدي. والهُدَى: مؤنث ويذكر، يقال: هو على الهدى، وسل الله الهدى: أي الدلالة على الرشاد، والهدى: النهار أيضاً.([2])

استنتاج وتعقيب على التعريف اللغوي:

هذا هو الأصل الجامع الذي تدور عليه كلمة (**الهدايات**) في أصلها اللغوي، كما ذركه أهل اللغة في معاجمهم؛ وما يمكن ملاحظته واستنتاجه من هذا التعريف اللغوي ما يلي:

أولا: نَبّه الراغب رحمه الله في تعريفه للهداية إلى أن: ما كان منها **دلالة،** قد خص ب(هَدَيْتُ) وما كان **إعطاءً** ب:(أهديتُ) كما خَص الله عز وجل لفظة: (**الهدى**) بما تولاه وأعطاه واختص هو به، دون ما هو إلى الإنسان، نحو قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[البقرة: 2] (**والاهتداء**) يختص بما يتحراه الإنسان على طريق الاختيار إما في الأمور الدنيوية، أو الأخروية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا ۝٩٧ ﴾ [الأنعام:97] وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾ [البقرة: 53]

ولا شك أن هذا التنبيه من الراغب رحمه الله فيما يخص الفرق بين: (**الهدى**) و(**الاهتداء**)، له أهميته، وله آثاره ونتائجه، في التعامل مع الهدايات القرآنية، فهماً، واستدلالا، واستنباطاً. كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

=إسماعيل، عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة ولفظه: ((تهادوا تحابوا)). وإسناده حسن. كما ذكر الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند، والشيخ الألباني في تخريج الأدب المفرد للبخاري.

1 محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، الإمام اللغوي الحجة. من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري .ولد بمصر، وقيل بطرابلس الغرب سنة 630هـ خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة .ثم ولي القضاء في طرابلس ثم عاد إلى القاهرة. توفي 711هـ من أشهر مؤلفاته: لسان العرب. (ينظر الأعلام للزركلي،7/ 108)

2 لسان العرب، مادة: (هـ د ى)

ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢ ﴾ [النمل: 91،92]

وهذا التنبيه إنما اقتنصه الراغب رحمه الله من سياقات لغة القرآن الكريم، وهو يتميز في هذا عن باقي أهل اللغة، كما قال الزركشي([1]) رحمه الله عنه في حديثه عن السياق: (وطريق التوصل إلى فهمه: النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب، ومدلولاتها واستعمالاتها، بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب (**المفردات**) فيذكر قيْداً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ؛ لأنه اقتنصه من السياق)([2])

ثانياً: ذكر ابن منظور أن فعل (**هدى**): لازم ومتعدٍّ، يقال: هداه الله الطريق، وهي لغة الحجاز، ولغة غيرهم يتعدَّى بالحرف فيقال: هداه إلى الطريق وللطريق، أي بينه له وعرَّفه به. وهداه الله إلى الإيمان وللإيمان أي أرشده إليه.

قلت: واللغتان معاً ورد بهما القرآن الكريم فيما يخص فعل: (**هدى**) كونه لازماً ومتعدياً، حسب السياق، والمعنى المراد. كما في عدد من الآيات القرآنية، لا يسع المجال لذكرها هنا، وستأتي أمثلة لذلك في قول الإمام ابن كثير عند التعريف الاصطلاحي، ولا شك أن لذلك نتائج وآثاراً في طبيعة الهدايات القرآنية وأنواعها وأهدافها، أعني من حيث ورود فعل (**هدى**) متعدياً ولازماً في القرآن الكريم حسب السياق.

ثالثاً: نستنتج من خلال ما تقدم في التعريف اللغوي، أن الهداية تأتي بمعانٍ، منها: **التقدم، الإرشاد، البيان، الدلالة بلطف، العطاء، التعريف بالشيء، القصد والوجهة، السيرة، البحث والتحري** ... لكنها ترجع عند أهل اللغة إلى معنيين أساسيين هما:

المعنى الأول: يدل على الدلالة، والإرشاد، والبيان؛ وهذا يضاف إلى الله تعالى، والقرآن، والرسل عليهم السلام، والعِباد، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ

---

1 هو محمد بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين، مصري المولد والوفاة، ولد وأخذ عن الشيخين جمال الدين الأسنوي، وسراج الدين البلقيني، ورحل إلى حلب فأخذ عن الشيخ شهاب الدين الأذرعي، وسمع الحديث بدمشق وغيرها، وكان فقيهاً أصولياً أديباً فاضلاً، درس وأفتى، وكان أكثر اشتغاله بالفقه وأصوله وعلوم الحديث والقرآن والتفسير، وقد ترك فيها أكثر من ثلاثين مصنفاً، توفي سنة سنة 745هـ من أشهر مؤلفاته: (البرهان في علوم القرآن، التذكرة في الأحاديث المشتهرة، النكت على ابن الصلاح) وغيرها.. توفي بمصر سنة 794هـ. (ينظر شذرات الذهب 6/335، 336)

2 البرهان في علوم القرآن،2 / 172

صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت: 17] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ [الإسراء: 9] وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: 52]

المعنى الثاني: يدل على التوفيق، والثبات، والتأييد؛ وهذا المعنى تفرد به الله سبحانه، ومنه قوله جلّ شأنه: ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [البقرة: 172] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: 56]

رابعاً: اعتبر ابن فارس رحمه الله تعالى أن معنى: **التقدم للإرشاد** أصلا أولا تتفرع عنه بقية المعاني. وهو ما ذكره وأكّده الإمام ابن عطية([1]) رحمه الله في تفسيره، حيث قال رحمه الله: (الهداية في اللغة: الإرشاد؛ لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد، وكلها إذا تُؤمِّلت رجعت إلى الإرشاد)([2])

– الهدايات اصطلاحاً:

التعريف الاصطلاحي للهداية والهدى، ينبني على التعريف اللغوي لهما، إذ الجذر والأصل اللغوي لكلمة (**الهدى**) هو الذي يعطينا الدلالة الاصطلاحية، مع إضافة معنى خاص يوضح المراد العملي لمفهوم الهداية أو الهدى، حسب المقصود منها في سياقاتها المتعددة، عامة وخاصة.

وسأكتفي في هذا التعريف بإيراد بعض أقول العلماء التي ذُكِرت في هذا السياق، سياق شرح كلمة (**الهداية**) أو (**الهدى**) تفسيراً لها للدلالة على المفهوم الاصطلاحي والشرعي المقصود لها عملياً، ثم أصوغ –بناء على هذه الأقوال المبيِّنة للهداية– تعريفاً اصطلاحياً مركباً منها.

قال الجرجاني([3]): (الهداية الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقيل: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب)(1)

---

1 عبد الحقّ بن غالب بن عبد الرحمن–وقيل عبد الملك– بن غالب بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطيّة المحارِبيّ الغرناطي المالكي، أبو محمد، الإمام، العلامة، شيخ المفسرين، كان إماماً في الفقه، وفي التفسير، وفي العربية. ولد 480هـ نشأ في بيت علم وفضل، فأبوه غالب كان أكبر علماء غرناطة، وعليه قرأ عليه كتب الحديث والتفسير والفقه واللغة والأدب. وتوفي سنة 542هـ من أشهر مؤلفاته: المحرر الوجيز في التفسير. (سير أعلام النبلاء (19/ 587)، طبقات المفسرين (1/ 265).

2 المحرر الوجيز، 1/ 65

3 علي بن محمد بن علي الحنفي، المعروف بالشريف الجرجاني، ولد سنة 740 هـ، ودرس في شيراز. ولما دخلها تيمورلنك سنة 789 هـ. فرّ الجرجاني إلى سمرقند، ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمورلنك، فأقام إلى أن توفي سنة 816هـ له=

وقال الراغب -كما مر معنا-: (**الهداية**: دلالة بلُطْفٍ) فقوله: (**بلطف**) دال على المعنى الاصطلاحي الأدق الذي ينصرف إلى الكيفية والطريق العملي للهداية.

وقد جمع عبد الرؤوف المناوي([2]) بين تعريفي: الراغب، والجرجاني فقال: (الهداية دلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب)([3]) فأضاف قيد (التوصيل إلى المطلوب)

وأضاف الكفوي([4]) تنبيهاً وتوضيحاً جيداً لهذا التوصيل أو الإيصال، فقال: (الهداية هي الدلالة على طريق من شأنه الإيصال إلى المطلوب سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء، أم لم يحصل)([5]) بمعنى ليس بالضرورة أن يحصل هذا الوصول بالفعل وقت الاهتداء.. فقد يحصل بعده بزمن بعد التأمل والنظر، أو لا يحصل أصلا.

ولذلك قال ابن القيم([6]): (الهداية هي البيان والدلالة ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق)([7])

وبناء على ما سبق يمكن صياغة التعريف الاصطلاحي للهداية كالآتي:

=نحو خمسين مصنفا، منها: التعريفات، شرح مواقف الإيجي، ومقاليد العلوم، وتحقيق الكليات، وشرح السراجية، في الفرائض، ورسالة في تقسيم العلوم. (ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة 2/ 196.)

1 التعريفات، 277.

2 محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، زين الدين، ولد سنة 952هـ عاش في القاهرة، وتوفي بها سنة 1031هـ من أشهر مصنفاته: التوقيف على مهمات التعاريف، وفيض القدير شرح الجامع الصغير، وشرح شمائل الترمذي وغيرها. (ينظر الأعلام للزركلي 6/ 204، 205)

3 التوقيف على مهارات التعاريف، ص 343. لعبد الرؤوف المناوي، (توفي:1031هـ تحقيق: جلال الأسيوطي)

4 هو أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، كان من قضاة الأحناف. عاش وولي القضاء في (كفه) بتركيا، وبالقدس، وببغداد. وعاد إلى إستانبول فتوفي بها، سنة: 1094هـ ودفن في تربة خالد. من أشهر مؤلفاته: الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، وله كتب أخرى بالتركية (الأعلام للزركلي، 2/ 38)

5 الكليات 952.

6 أبو عَبْدِ اللهِ شَمْسُ الدِّينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكرِ بْنِ أيوبَ بْنِ سَعْدِ الزُّرْعِيّ الشهير ب (ابْنِ قَيِّمِ الجُوزِيّة) نسبة إلى والده الذي كان قيماً على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن، ولد رحمه الله سنة 691هـ، تتلمذ على كبار العلماء، منهم والده، وابن تيمية، وغيرهما، كان فقيهاً ومحدّثاً ومفسّراً وواحداً من أبرز أئمّة المذهب الحنبلي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، توفي رحمه الله سنة 751هـ. من أشهر مؤلفاته: زاد المعاد في هدي خير العباد، وإعلام الموقعين، ومدارج السالكين. (ذيل طبقات الحنابلة 447/2 لابن رجب)

7 فتح الباري، الحافظ ابن حجر العسقلاني، 211/1.

"الهداية هي: الإرشاد والبيان، والدلالة بلطف على سلوك طريق من شأنه الإيصال إلى المطلوب، سواء حصل الوصول بالفعل وقت الاهتداء والبيان، أم بعده، أم لم يحصل"

وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أضرب:

الأول: الهداية التي عم بها كل مكلف، من العقل، والفطنة، والمعارف الضرورية، بل عم بها كل شيء وكل مخلوق حسب احتماله، كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: 50]

الثاني: الهداية التي جعلت للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، والمقصود بقوله: ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾ [الأنبياء: 73]

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعني بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد:17] ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ [التغابن:11]

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة، وهو المعني بقوله: ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِىَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: 43]

وهذه الهدايات الأربع مرتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة.([1])

قال الحافظ ابن كثير([2]) رحمه الله: (الهداية: الإرشاد والتوفيق، وقد تُعَدَّى الهداية بنفسها كما في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة: 6] فتُضمَّنُ معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا. ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد: 10] أي بينا له الخير والشر.

---

1 بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، الطحاوي، 5/ 313-314.(تحقيق محمد علي النجار، عبد العليم)

2 هو الحافظ المؤرخ المفسر عماد الدين أبو الفداء: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء القرشي البصروي، ثم الدمشقي. ولد بمجدل من أعمال دمشق سنة (701هـ) حفظ القرآن الكريم وختم حفظه، وقرأ القراءات وبرع في التفسير، وحفظ متن "التنبيه" في الفقه الشافعي، وحفظ مختصر ابن الحاجب، وتفقه على الشيوخ برهان الدين الفزاري، وكمال الدين ابن قاضي شهبة، وابن تيمية. توفي في شعبان سنة (774هـ) من أشهر مؤلفاته: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية، (ينظر ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي، 112/1. والأعلام للزركلي، 320/1)

وقد تُعَدَّى ب (إلى) كما في قوله تعالى: ﴿ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ ﴾ [النحل: 121] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة. وقد تُعَدَّى باللام كقوله تعالى عن أهل الجنة ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف: 43] أي وَفَّقَنا وجعَلَنا له أهلاً.([1])

خلاصة واستنتاج:

قال الطاهر ابن عاشور([2]): (والهدى الشرعي هو الإرشاد إلى ما فيه صلاح العاجل الذي لا ينقض صلاح الآجل. وأثر هذا الهدى هو الاهتداء، فالمتقون يهتدون بهديه، والمعاندون لا يهتدون لأنهم لا يتدبرون)([3])

وهذا الذي ذكره الإمام الطاهر بن عاشور رحمه الله لمعنى (**الهداية**) جامع لما ورد في تعريفها الاصطلاحي، فقد جمع فيه بين أصل الهداية وجهتها: (الهدى **الشرعي**) وطريقتها: (**الإرشاد**...) وغايتها: (صلاح **العاجل الذي لا ينقض صلاح الآجل**) وأثرها العملي الذي يترتب على حالة الإنسان تجاهها: (**الاهتداء**) وهو ثمرة الهداية. فالمتقون يهتدون بهديه، -أي الهدى القرآني- والمعاندون لا يهتدون لأنهم لا يتدبرون.

الهدى والهداية في القرآن الكريم:

أجمعت كتب الوجوه والنظائر في القرآن الكريم أن لفظ (**الهدى**) وما اشتق منه أكثر الألفاظ وجوهاً، وقد ذكر له مقاتل بن سليمان البلخي([4]) في (**الأشباه والنظائر**) ويحيى بن سلام في (**التصاريف**) والسيوطي في (**الإتقان**) سبعة عشر وجهاً، وذكر ابن الجوزي في (**نزهة الأعين**

---

1 تفسير القرآن العظيم، 1/ 29.

2 هو العلامة المفسر محمد الطَّاهر بن محمد بن محمد الطَّاهر بن عاشور، ولد في تونس من أسرة علمية عريقة، تنحدر من الأندلس، وذلك سنة (1296) هـ الموافق (1879) م، برز في عدد من العلوم ونبغ فيها، كعلم الشريعة واللغة والأدب، وكان متقناً للُّغة الفرنسية، وعضواً مراسَلاً في مجمع اللغة العربية في دمشق والقاهرة، تولى مناصب علمية وإدارية بارزة كالتدريس، والقضاء، والإفتاء، وتم تعيينه شيخاً لجامع الزيتونة. ألف عشرات الكتب في التفسير، والحديث، والأصول، واللغة، وغيرها، أشهرها: تفسيره المسمَّى: "التحرير والتنوير" و"مقاصد الشريعة. توفي في تونس سنة (1394) هـ، الموافق (1973) م، عن عمر يناهز 98 عاماً (ينظر كتاب: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور: بلقاسم الغالي)

3 التحرير والتنوير،1 / 225

4 مقاتل بن سليمان البلخي، أبو الحسن، كبير المفسرين، يروي عن مجاهد، والضحاك، وابن بريدة، وعطاء، وابن سيرين، وعمر بن شعيب، وغيرهم. توفي رحمه الله سنة (150هـ) أو بعدها. (سير أعلام النبلاء 154/7)

النواظر) أربعة وعشرين وجهاً انفرد فيها بعشرة أوجه، وانفرد مقاتل وابن سلام والسيوطي بثلاثة، ومن ثم تصبح جملة الأوجه سبعة وعشرين وجهاً.([1])

لكن المتأمل في هذه الوجوه التي ذكرها هؤلاء وغيرهم من العلماء لكلمة **(الهدى)** في القرآن الكريم يجدها محتاجة إلى دراسة مرة أخرى لإعادة النظر على الأقل في بعضها، (لأن منهم من ذكر معاني محتملة لكنها بعيدة([2]) وبعضها غير راجح([3]) وبعضها فيه نظر([4]) وبعضها الحاكم فيها هو السياق..)([5])

على أن أهم ما ينبغي ذكره من هذه الوجوه والمعاني القرآنية لكلمة **(الهدى)** في سياقنا هذا مما له علاقة بهذه الدراسة هو ما يأتي:

1) الإلهام: يأتي الهدى بمعنى الإلهام، وهو الإلهام الفطري، الذي جعله في كل مخلوقاته، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى:3] وقال سبحانه: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه: 50]

2) الإرشاد والدلالة: يأتي الهدى بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52] بمعنى تدل وترشد. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِى لِلَّتِى هِىَ أَقۡوَمُ ۝٩ ﴾ [الإسراء: 9] بمعنى يدل ويرشد.

3) البيان: يأتي الهدى بمعنى البيان قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ ﴾ [البقرة: 5] أي على بيان من ربهم. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ ﴾ [الليل: 12] قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: يعني البيان.

---

1 ينظر موسوعة نظرة النعيم، 3570/8 كلمة: (الهدى)

2 مثال ذلك تفسير الهدى بمعنى الموت على الإسلام، كما فعل ابن الجوزي في قوله تعالى: (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) – طه82– وهو بعيد، قال البيضاوي: (ثم استقام على الهدى المذكور) أنوار التنزيل، 64/4

3 مثال ذلك تفسير الهدى بمعنى التقديم، كما فعل ابن الجوزي في قوله تعالى: (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) الصافات23– لأن قول الجمهور أن المراد به التهكم، ومن فسره، فسره بالإرشاد والدلالة.

4 مثال ذلك تفسير الهدى بمعنى التوبة كما فعل ابن الجوزي في قوله تعالى: (إنا هدنا إليك) – الأعراف156– وهي من مادة (هَوَدَ) التي بمعنى الرجوع وهي تختلف عن مادة (هَدَى).

5 نقلا عن كتاب: الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية، 1/ 27-28.

4) **الدليل والبينة:** يأتي الهدى بمعنى الدليل والبينة، قال الله تعالى: ﴿ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ [طه: 10] أي من يهديني إلى الطريق ويدلني عليها. وقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ﴾ [الحج: 8] قال ابن كثير رحمه الله: (أي بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى)([1])

5) **العلم والمعرفة:** يأتي الهدى بمعنى المعرفة، قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ ﴾ [النساء: 98] أي لا يعرفون سبيلا. وقال سبحانه: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل: 16] يعني يعلمون ويعرفون السبيل.

6) **التعليم:** يأتي الهدى بمعنى التعليم قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء: 26] وقد يراد بالآية البيان والإرشاد.

7) **الصواب:** يأتي الهدى بمعنى الصواب والاستقامة والسداد، قال تعالى: ﴿ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ [العلق: 11] أي على الجادة والاستقامة.

8) **التوفيق:** يأتي الهدى بمعنى التوفيق، وانشراح الصدر للخير، وما يقر في القلب من الإيمان والعمل، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: 56]

9) **السنة والاقتداء:** يأتي الهدى بمعنى السنة والاقتداء، قال تعالى: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف: 22] يقول مقتدون مستنون بسنتهم. وقال سبحنه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام: 90] يقول بسنتهم في التوحيد اقتده.([2])

10) **الطريق الواضح:** يأتي الهدى بمعنى الطريق الواضح، قال تعالى: ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الحج: 67] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود.([3])

11) **الثبات والزيادة:** يأتي الهدى بمعنى الثبات والزيادة على الشيء، والزيادة فيه، ومنه طلب الهداية للمهتدي في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة: 6]

---

1 تفسير القرآن العظيم، 399/5.

2 ينظر الوجوه والنظائر للدامغاني308/1

3 تفسير القرآن العظيم، 5/ 401

12) الدعوة: يأتي الهدى بمعنى الدعوة، قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: 159] والمعنى في الآيات الدعاء.([1])

13) الإصلاح: يأتي الهدى بمعنى الإصلاح قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: 52] لا يصلحه.([2])

استنتاج وتعقيب:

من خلال الاستقراء والتتبع نجد أن كلمة "**الهدى**" جاءت في القرآن الكريم بمعان تتوافق مع اللغة، لكن القرآن الكريم أضاف على معنى الهداية في اللغة معانٍ تتناسب مع مصدرها، وهو الله الهادي سبحانه، الذي أنزل كتاباً هو: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: 2] وهذه المعاني هي: **الإلهام، والتوفيق، والثبات، والزيادة.** وهي كلها من الله تعالى، بخلاف المعاني الأخرى التي قد تأتي من العبد، كالبيان، والمعرفة، والإرشاد، والتعليم وغيرها...

وفي هذا بيان إلى أن الله تعالى هو وحده مصدر الهدى، حتى في المعاني التي قد تأتي من الإنسان، فالأصل فيها من الله وحده، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: 8،9] فذكر (ما به اكتساب العلم وما به الإبانة عن المعلومات، بما يرشد الفكَر إلى النظر والبحث، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ فاستكمل الكلام أصول التعلم والتعليم، فإن الإنسان خلق محباً للمعرفة محباً للتعريف، فبمشاعر الإدراك يكتسب المشاهدات وهي أصول المعلومات اليقينية، وبالنطق يفيد ما يعلمه لغيره، وبالهدى إلى الخير والشر يميز بين معلوماته ويمحصها)([3])

قال الزجاج: (الهادي هو الذي هدى خلقه إلى معرفته وربوبيته وهو الذي هدى عباده إلى صراطه المستقيم)([4])

ومن هنا فلا يكون الوصول إلى الهدى إلا بما دلَّ عليه هو سبحانه من آيات وعلامات.([5])

---

1 ينظر إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، للدامغاني،474/1، والبرهان في علوم القرآن، للزركشي: (من معاني الهدى في القرآن الكريم)

2 نقلا عن كتاب: الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية 36/1 (بتصرف)

3 التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور، 30/ 354

4 تفسير أسماء الله الحسنى، لأبي إسحاق الزجاج، 64

5 ينظر مجالس القرآن، للشيخ فريد الأنصاري 1/ 114.

وفيه إشارة لمقام الربوبية الحقَّة، ومقام العبدية الحقيقية فالعبد عبد، والرب رب، كما قال الله سبحانه: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: 125]

قال الزمخشري رحمه الله: (أن يلطف به، ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف)(1)

قال ابن عطية رحمه الله : (هو تسهيل الإيمان وتحبيبه وإعداد القلب لقبوله وتحصيله)(2) أي ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر: 22](3)

الفرق بين: (الهدى) و (الهداية) و (الاهتداء) في اللغة والقرآن الكريم.

أولا: (**الهدى**) و(**الهداية**): يأتيان بمعنى واحد، فهما مصدر لفعل: (**هَدَى**) قال الراغب الأصفهاني: (والهدى والهداية في موضوع اللغة واحد)(4) وقال الأزهري في تهذيب اللغة: (يقال: هداه يهديه هدىً وهداية)(5)

وهكذا ورَدَا في القرآن الكريم، فقد ورد لفظ (الهدى) بمعنى الهداية، كما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: 15، 16] فالفعل: يهديهم مصدره هداية وهدىً.

ثانياً: أما الفرق بين: لفظ (**الهُدَى**) ولفظ (**الاهتداء**) فهو أن الأول من فعل (**هدى**) وهو خاص بالله تعالى، أما الثاني فيأتي غالباً لما تحراه الإنسان وطلبه عن طريق الاختيار...

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: (قد خص الله تعالى لفظة (**الهدى**) بما تولاه وأعطاه، واختص هو به دون ما هو إلى الإنسان، وذلك نحو: ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة: 2] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة: 5] إلى آخر الآيات التي أوردها الراغب ...

---

1 الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام الزمخشري 8/.345

2 المحرر الوجيز، 2/ 342

3 تفسير القرآن العظيم، 2/ 168.

4 المفردات في غريب القرآن، 519.

5 تهذيب اللغة، 6/.380

والاهتداء يختص بما يتحرّاه الإنسان على طريق الاختيار، إما في الأمور الدنيوية، أو الأخروية، وهو ثمرة الهداية، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام:97] وقال سبحانه أيضاً: ﴿ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ ﴾ [النساء: 98] إلى آخر الآيات التي ذكرها رحمه الله.([1])

تعريف الهدايات القرآنية في الاصطلاح:

بناء على ما سبق، فالتعريف الاصطلاحي للهدايات القرآنية -بما هي فعل خاص بالله تعالى، فهو مصدرها جل جلاله، من خلال وحيه المنَزَّل على رسوله صلى الله عليه وسلم، لتحقيق مقصود هذه الهداية فيما يخص سيْر العباد إليه، عبر صراطه المستقيم، من بيان له، وإرشاد لمعالمه، وإلهام وتوفيق وتثبيت لأتباعه.. لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة- فهي:

الدلالات المبينة لإرشادات القرآن الكريم، التي توصل لكل خير وتمنع من كل شر.([2])

شرح التعريف:

ف(**الدلالات**) ما به يتوصل إلى معرفة الشيء من أمارات وعلامات، مما به يَبين ويظهر ويُعلم أمره، قال ابن فارس: (دَلَّ: الدَّالُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا إِبَانَةُ الشَّيْءِ بِأَمَارَةٍ تَتَعَلَّمُهَا.. دَلَلْتُ فُلَانًا عَلَى الطَّرِيقِ. وَالدَّلِيلُ: الْأَمَارَةُ فِي الشَّيْءِ. وَهُوَ بَيِّنُ الدَّلَالَةِ وَالدِّلَالَةِ)(3)

ومما يدل على هذا السياق، أي سياق التعريف الاصطلاحي للهدايات القرآنية الشاملة لألفاظه ومعانيه، ما ذكره الراغب الأصفهاني رحمه الله: (الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى)([4]) فالدلالة إذن هي: أساليب ووسائل وطرق وكيفيات.([1])

---

1 المفردات، 519.

2 ينظر كتاب: الهدايات القرآنية: دراسات تأصيلية 44/1) وقد عرّفها د. محمد صالح سليمان بقوله: "**المقصود بالهدايات القرآنية: ما يستفاد من معاني الآيات من إرشادات وتوجيهات للفرد والمجتمع يحصل بها الاهتداء لسعادة الدنيا والآخرة**" (ينظر مفهوم التفسير: بين صلب التفسير وتوابعه، ص، 109. بحث مقدم للمؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه. بالشارقة: 2011م)

3 معجم مقاييس اللغة، 259/2

4 المفردات في غريب القرآن، 171

و(**المبينة**) من البيان الذي هو: ما بُيِّنَ به الشيء من الدلالة وغيرها، وبان الشيء بياناً اتضح.([2]) ذلك أن الهدف من الدلالة إظهار وإيضاح الهداية للعمل، ولتمييزها عن طرق الضلال؛ وهذا هو المتفق مع مهمة الرسل عليهم السلام وأتباعهم، التي هي بيان هدايات القرآن الكريم للناس، وهو الذي يكون في مقدورهم، وما يجب عليهم، وبعد التبيين تكون المؤاخذة لمن تخلف عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ ١١٥﴾ [النساء: 115] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾[محمد: 25] خلافاً لهداية التوفيق والسداد، وجعل الهدى في القلب، فهذه من الله تعالى وحده، علماً بأن السبيل إلى الثانية يكون بعد معرفة الأولى، ولا فائدة للهداية الأولى بدون الثانية فهي وسيلة لها...)([3])

ولذلك قال ابن القيم رحمه الله -في هذا الصدد-: (الهداية هي البيان والدلالة ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق.([4])

(**لإرشادات**) قال ابن فارس: (الرَّاءُ، وَالشِّينُ، وَالدَّالُ، أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى اسْتِقَامَةِ الطَّرِيقِ. فَالْمَرَاشِدُ: مَقَاصِدُ الطُّرُقِ. وَالرُّشْدُ وَالرَّشَدُ: خِلَافُ الْغَيِّ. وَأَصَابَ فُلَانٌ مِنْ أَمْرِهِ رُشْدًا وَرَشَدًا وَرِشْدَةً. وَهُوَ لِرِشْدَةٍ خِلَافُ لِغَيَّةٍ)([5])

والإرشادات هي: (الغاية التي يتوصل إليها بهذا العلم؛ ولأن الهدايات القرآنية في مصطلح الدراسات القرآنية هي مجرد الإرشاد إلى الخير، سواء حصل اتباع الخير أم لم يحصل فهي هداية)([6])

---

1 اقتصرت الدراسات التأصيلية للهدايات القرآنية، في تعليقها على تعريف الأصفهاني ل:(الدلالة) بقولها: فهي تبين الوسائل والطرق والكيفيات. 45/1 وقد أضَفْتُ (الأساليب) لما لها من علاقة بألفاظ القرآن الدالة على معنى الهداية، كما أشار إليها الأصفهاني في المفردات.

2 لسان العرب، مادة (بين).

3 كتاب: الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية 1/ 45 (بتصرف يسير)

4 فتح الباري، 211/1.

5 معجم مقاييس اللغة، مادة (رشد)

6 ينظر كتاب: الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية، 1/ 45.

كما قال أبو البقاء الكفوي: (الهداية هي الدلالة على طريق من شأنه الإيصال إلى المطلوب سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء أم لم يحصل)([1])

قال الراغب الأصفاني رحمه الله: (ولما كانت الهداية والتعليم يقتضيان شيئين: تعريفاً من المعرِّف، وتعرُّفاً من المعرَّف، وبهما يتم الهداية والتعلم، فإنه متى حصل البذل من الهادي والمعلِّم و لم يحصل القبول صحَّ أن يقال: لم يهتد و لم يعلِّم اعتباراً بعدم القبول الذي هو تمام الهداية والتعليم، وصح أن يقال: هَدَى وعلَّم اعتباراً ببذله، فإذا كان كذلك صحَّ أن يقال: إن الله لم يهد الكافرين والفاسقين من حيث إنه لم يحصل القبول الذي هو تمام الهداية والتعليم، وصحَّ أن يقال: قد هداهم وعلَّمهم من حيث إنه حَصَلَ البذل الذي هو مبدأ الهداية)([2])

(**القرآن الكريم**) ويشمل في سياق التعريف كل ما يتعلق بألفاظه، وكلماته([3]) ومعانيه، وجُمله وآياته، منطوقاً، ومفهوماً، من خلال آياته وموضوعاته وسوره، ومن هنا كانت الهدايات القرآنية بعضها دلَّ عليه ظاهر النص، وبعضها استنبطها العلماء بعد تدبر وإعمال فكر فيه.([4]) بل كل ألفاظ القرآن، وكلماته، وجمله، من حيث هي كلام الله تعالى، فهي هداية، لكونها كلمات الله تحمل من الأنوار الربانية، والأسرار الغيبية، ما لا ينتهي ولا ينقضي.

(**التي توصل**) لأن هداية الإرشاد في أصلها جاءت لتدل وتوصل الإنسان إلى مطلوبه، وهو الهداية إلى الصراط المستقيم، المتمثل في معرفة الحق والعمل به، فهي موصلة إليه: إرشاداً، ولا يمكن الوصول إلى الهدى بغيرها.([5])

---

1 الكليات 952.

2 المفردات في غريب القرآن، ص، 540 (الهدى)

3 لا شك أن لألفاظ القرآن وكلماته، أسراراً وأنواراً، لا من حيث طبيعتها اللغوية وتعبيراتها المصطلحية، ولا من حيث ترتيبها في جملها وآياتها، ويكفي أنها من كلمات الله، يقول ابن عطية رحمه الله: (إذ ترتبت اللفظة من القرآن علم الله بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول.. وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد) (ينظر المحرر الوجيز، 38/1)

4 ينظر كتاب الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية، 1/ 46.

5 نفسه،1/ 46.

قال أبو البقاء الكفوي: (الهداية عند أهل الحق: الدلالة على طريق من شأنه الإيصال إلى المطلوب سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء أم لم يحصل)([1])

(لكل خير) لأن القرآن الكريم إنما جاء ليهدي بهديه للتي هي أقوم، فيما يحقق سعادة الدنيا والآخرة، فلا يهدي إلا إلى الخير والمعروف.([2]) في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ۝٩ ﴾ [الإسراء: 9] أي للحال التي هي أقوم الحالات في كل شيء، وهذا من لطائف حذف الموصوف هنا لتبقى هدايته الأقوم مطلقة. ولذلك قال الزمخشري رحمه الله تعالى: (وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه.)([3])

(وتمنع عن كل شر) لأن وصف القرآن الكريم بكونه: ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ يعني بمفهوم المخالفة أنه يمنع عن كل شر، فما من سبيل يؤدي إلى الشر أو الاقتراب منه، إلا وحذر منه القرآن ومن اتباعه، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣ ﴾ [الأنعام: 153]

وقد تكون الهداية في كلمة قرآنية واحدة، وقد تكون في آية قرآنية، وقد تجتمع جملة هدايات في الآية الواحدة، أو في آيات الموضوع الواحد في السورة، وقد تكون الهدايات مستنبطة من مجموع آيات السورة، أو من الموضوع، أو اللفظ القرآني الواحد، ولا تخلو آية قرآنية ولو كانت من كلمة واحدة من هداية ظاهرة أو مستنبطة، بل قد تجد فيها عشرات الهدايات؛ لأن الآية مع ما فيها من هدايات، هي في الوقت نفسه تدل على وجوده جل وعلا؛ لأن من لوازم القول أن يكون له قائل، وتدل على علمه وحكمته ورحمته، لما حوته من هَدْي محكم، يسدد لكل خير وصلاح.([4]) كما قال الله تعالى عن المشركين لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترل عليه ربه آيات تدل على صدقه: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ ﴾ [العنكبوت:51]

---

1 الكليات 952.

2 كتاب الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية، 1/ 47.

3 الكشاف، 2/ 651

4 ينظر كتاب: الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية، 1/ 47.

خلاصة التعريف الاصطلاحي للهدايات القرآنية:

إن هذه المعاني والتوجيهات التي احتواها التعريف الاصطلاحي للهدايات القرآنية، تتناسب مع (الْهُدَى المنهاجي)([1]) العملي للقرآن الكريم، من حيث هو رسائل وبلاغات، وبصائر وبينات، (من أجل إبصار لآيات الطريق) وهي التي تلائم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وأتباعهم وورثتهم من العلماء والدعاة المخلصين.

(فهذه الدلالة بلطف، أوهذا البيان الرفيق، أو هذا الإرشاد الحكيم، كل ذلك من محتويات الهدى أو الهداية)([2]) ومعانيها وأهدافها في القرآن الكريم، ومقاصدها ووظائفها في الخلق، والتي تحقق كل خير وتيسر الطريق إليه، وتمنع من كل شر وتحذر من الاقتراب من سُبله، لمن أراد اتّباعها والاهتداء بأنوارها وأسرارها ورحماتها، كما قال تعالى في هذا المعنى في آية جامعة مانعة: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[الأنعام: 53،54]

1 هذه العبارة هي لشيخنا الدكتور الشاهد البوشيخي حفظه الله، يكثر من ذكرها في سياق حديثه عن هُدَى القرآن، وقد جعلها عنواناً لكتاب له وهو: (نظرات في الهدى المنهاجي في القرآن الكريم)

2 نظرات في الهدى المنهاجي في القررآن الكريم، من خلال السور حسب ترتيب النزول، د. الشاهد البوشيخي،13 (بتصرف)

المبحث الثاني

أهمية الهدايـات القرآنية

إن أهمية الهدايات القرآنية من جهتها الخاصة، -كلقب على هذا العلم الذي سبق تعريفه-، يمكن حصرها في أمور أربعة، وهي:

الأمر الأول: أن موضوعها هو القرآن الكريم:

فالله تعالى وصف القرآن الكريم بأنه هدىً، ﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ ﴿١١﴾ ﴾ [الجاثية: 11] ويهدي للتي هي أقوم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء: 9] وذكر أن غاية نزوله هي الهداية، هداية للناس، هداية بيان ودلالة وإرشاد: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة: 185] وأنه هدىً للمتقين، هداية إلْهام وإنْعام، وتوفيق وتأييد: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة: 2]

فما من سبيل للسعادة في الدنيا والآخرة إلا وبابه القرآن الكريم، فهو مصدر كل خير، وينبوع كل فضل، ونور كل بصيرة؛ عقيدة، وشريعة، وأخلاقاً، فهو -كما قال الإمام الشاطبي رحمه الله- تعالى: (كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر)([1]) قال الله تعالى ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة:2،1] قال الطبري رحمه الله: (كأنه قال: لا شك في ذلك الكتاب أنه من عند الله هُدًى للمتقين)([2]) قال البغوي رحمه الله: (أي هو هدى، أي رشد وبيان لأهل التقوى)([3]) وقال الشنقيطي رحمه الله : (ومعلوم أن المراد بالهدى في هذه الآية الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق، لا الهدى العام، الذي هو إيضاح الحق)([4]) فهو الهدى القويم الذي به قوام الأمور واستقامتها، وهو النور العظيم الكاشف لكل ظلمات الحياة والقلوب، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: 15،16] وهو

---

1 الموافقات في أصول الشريعة، 144/4

2 جامع البيان في تأويل القرآن، 1/ 229.

3 تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم) 1/ 160

4 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 10/1

كذلك بصائر للمستبصرين، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: 104] وهو حبل الله المتين الذي أمرنا سبحانه وتعالى بالاعتصام به، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: 103] وهو الروح الذي تحيا به الأمة الحياة الحقيقية؛ حياة السعادة، قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: 52] قال ابن القيم رحمه الله: (فسماه روحاً لما يحصل به من الحياة، وجعله نوراً لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان، فحيثما وُجِدت هذه الحياة بهذا الروح وُجِدت الإضاءة والاستنارة، وحيثما وُجدت الاستنارة والإضاءة وُجِدت الحياة، فمن لم يقبل هذه الروح فهو ميت مظلم)([1])

ويدل على فضل وأهمية الهدايات القرآنية، أن كل ما ثبت للقرآن من فضائل ومنزلة، فهي ثابتة لهداياته المستخرجة بصورة صحيحة، حيث جعل الله فيها الكفاية للهدى والحق والكمال، وكل ما كان الناس في حاجة إليه؛ لصلاح دينهم ودنياهم قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكوت: 51]

قال السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: (هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته لم ينه عنه بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسايرة إرشاداته وهداياته وأحكامه لكل حال، وكل زمان، بحيث لا تصلح الأمور إلا به، فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى فإنه رحمة له وخير، فلذلك قال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وذلك لما يحصل فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية)([2])

1التفسير القيم 123/2 عن كتاب: الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، 75/1

2 تيسير الكريم الرحمن، 635.

الأمر الثاني: صفاتها

لقد وصف الله تعالى هدايات القرآن الكريم، بأوصاف جليلة عظيمة، تدل كل صفة منها على جليل وعظيم آثارها، على الفرد، والمجتمع، ووظائفها ومقاصدها في النفس، والعقل، والروح.

وسأذكر أهمها مع التعليق على كل صفة باختصار شديد، بما يبين سر تسميتها، وآثارها. في سياق الهدايات، فمن هذه الصفات الجليلة:([1])

أ- هدايات القرآن الكريم روح:

وصف الله القرآن من حيث هو هداية للإنسان، قلباً وعقلاً، بالروح، وهذا الوصف من أعجب أوصاف الهدايات القرآنية وألطفها، فالروح هو سر الحياة وسببها، وإنما وصف الله هدايات القرآن بذلك لأنها سبب حياة هذه الأمة، من حيث هي أمة، وسبب حياة القلوب، فلا يموت قلب خالطت نبضَه آياتُ القرآن الكريم وأنوارها وهداياتها، ولا حياة لقلب خلي منها([2]) فبهداياته تحيى القلوب وتستجيب لربها، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ ﴾ [الشورى: 52]

قال الإمام القرطبي: (وسماه روحاً لأن فيه حياةً من موت الجهل.. وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض)([3]) وقال أبو السعود: ﴿ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ (هو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلةِ الروحِ للأبدانِ حيثُ يُحيِيها حياةً أبديةً)(4)

---

1 ذكر كتاب: (الهدايات القرآنية: دراسات تأصيلية) أن من صفات الهدايات القرآنية أنها: هدايات قيمة، وهدايات كريمة، وهدايات ميسرة.. إلخ. وأحسب أن هذه الأوصاف تصدق بالقصد الأول على القرآن الكريم نفسه، من حيث مصدره..، وأن ما ذكرتُه في هذا البحث من أوصاف وصفات هو الأوفق والأنسب للدلالة على آثار الهدايات القرآنية ووظائفها، ومقاصدها في هذا السياق، صفة، صفة، من حيث آيات القرآن الكريم وموضوعاتها الهداياتية في مجالاتها المتعددة.

2 ينظر بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق، 23، 24 فريد الأنصاري.

3 الجامع لأحكام القرآن، 16/ 54

4 إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 35/8

ب- هدايات القرآن الكريم نور:

وصف الله تعالى هدايات القرآن من حيث آثارها، في كثير من الآيات، بالنور، فنور هذه الهدايات هو الذي يرشد مَن كَتَبَ الله له الهداية قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: 52] فقوله تعالى: ﴿ نَّهْدِى ﴾ بمعنى نرشد([1]) وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: 173]

والنور هو سر إبصارِ القلوب، وإنما تبصر القلوب بنور هدايات القرآن الكريم، ومحل نور هدايات القرآن هو قلب المؤمن، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور: 35] ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ مثل هداه في قلب المؤمن.(2)

ويؤيد هذا المعنى حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي، وقلب تمده مادتان، مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما)(3) فقلب المؤمن سراجه نور القرآن وهداه.

ج- هدايات القرآن بصائر:

من الأوصاف التي وصف الله تعالى بها هدايات القرآن الكريم كذلك؛ أنها بصائر من عنده لعباده ليهتدوا ببصائرها: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: 20] والبصائر جمع بصيرة، والبصيرة هي الآية والعلامة الدالة، التي من خلالها نبصر الطريق، وسُمِيت هدايات القرآن وآياته بذلك لأنها تُبَصِّر الناسَ حقائقَ الوجود، وتدلُّهم على الله تعالى، إذ آياته

---

1 ينظر المحرر الوجيز، 44/4

2 جامع البيان في تأويل القرآن، 179/19.

3 رواه ابنُ أبي شيبة في مصنفه، (36/11 و108/15) عن أبي معاوية، عن الأعمش، بهذا الإسناد، من حديث حذيفة موقوفاً. ورواه أحمد في مسنده مرفوعاً، (مسند أبي سعيد الخدري،208/17) وأورده ابن كثير في (تفسيره) تفسير قوله تعالى: (الله نور السماوات والأرض) [النور: 35]، والسيوطي في (الدر المنثور) عند تفسير قوله تعالى: (وقالوا قلوبنا غُلْف) [البقرة: 88]، وجوّدا إسناده! ورواه أبو نعيم في (الحلية) 385/4. والموقوف أصح من المرفوع. (ينظر التفصيل: مسند الإمام أحمد، بتحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون)

بصيرةٌ ومبْصرة، أي مشعة بالنور، فهي مضيئة في نفسها مضيئة لغيرها، فلا يضل من أبصرها وأبصر من خلالها، كما قال تعالى في سورة الإسراء -عن ضوء النهار ونوره-: ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الإسراء: 12] وهكذا هي آيات القرآن لأنها هدايات مشعة بالأنوار، من حيث الإبصار النفسي والقلبي، هادية لمن أراد السلامة في السير إلى الله تعالى من خلال منازل هدايات آياته: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام: 104]

قال أبو جعفر: ﴿ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ ﴾ أي: ما تبصرون به الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر. ثم نقل قول ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ ﴾ قال: (البصائر: الهدى، بصائر في قلوبهم لدينهم، وليست ببصائر الرؤوس. وقرأ قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [سورة الحج: 46] وقال: إنما الدين بصره وسمعه في هذا القلب)(1)

د، هـ – هدايات القرآن الكريم موعظة، وشفاء:

وقد وصفها الله تعالى بذلك فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: 56] أي القرآن من حيث هو هداية.

وهذان الوصفان من ألطف الأوصاف، وأبلغ الصفات، فهدايات القرآن، موعظة للقلوب تتعظ بها، وتعتبر بآياتها وبيِّناتها، فما زاغ قلب اتعظ بعظات هدايات القرآن الكريم، لأنها مواعظ ربانية؛ ونصائح رحمانية، تذكر الموعوظ بالعواقب، وبما يصلح سرائره وسيرته، بما فيها من الترغيب والترهيب، والتبشير والتخويف، والوعد والوعيد، والزجر عن المعاصي وبيان عاقبتها الوخيمة، والترغيب والتحبيب في الطاعة وبيان خاتمتها الْمَرْضية السليمة.

وفيها كذلك شفاء للقلوب والنفوس من أدوائها وأمراضها المفضية إلى الضنك والشقاء، كالظلم والجهل، والشرك، والرياء، والنفاق، والحسد، والضغينة، والبغضاء...فما مرض قلب خلطت بشاشته هدايات القرآن وأنواره.

---

1 جامع البيان في تأويل القرآن، 23/12

قال ابن القيم رحمه الله: (فلم يترل الله سبحانه من السماء شفاء قط، أعم، ولا أنفع، ولا أعظم، ولا أنجع، في إزالة الداء من القرآن)([1]) وقد تحدث رحمه الله عن أنواع هجر القرآن، وجعل منها: هجر الاستشفاء به من أمراض النفوس وأدواء القلوب، فقال: (وَالنوع الْخَامِس هجر الِاسْتِشْفَاء والتداوي بِهِ فِي جَمِيع أمراض الْقلب وأدوائها فيطلب شِفَاء دائه من غَيره ويهجر التَّدَاوِي بِهِ)([2])

و- هدايات القرآن رحمة:

وصف الله تعالى هدايات القرآن الكريم كذلك بأنها رحمة، فقال تعالى: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: 56] أي نعمة لِلْمُؤْمِنِينَ، خصهم بها لأنهم المنتفعون بالإيمان.([3])

والرحمة هي ما يحصل من الخير والفضل والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدى به، فالهدى أجلّ الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين. وإذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور.([4]) ولذلك قال سبحانه بعدها مباشرة: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس: 57] وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة: فضل الله الإيمان، ورحمته القرآن([5]) وقال ابن كثير: (أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى..)([6])

ز- هدايات القرآن بركة:

وصف الله تعالى هدايات القرآن كذلك بالبركة في كثير من الآيات منها قوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: 154]

فهدايات القرآن مباركة، لأن أصلها من عند العظيم سبحانه الذي تبارك وتعاظم خيره وتكاثرت بركته، ومنها تتريله لهذه الهدايات القرآنية: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[الفرقان: 1] وهي مباركة لأنها ناشئة عن تلاوة مباركة، وتدبر مبارك، واتباع مبارك، وعمل مبارك، ومن ثم فهي

---

1 التفسير القيم، 31/2

2 الفوائد، 82

3 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 353/8

4 تفسير السعدي، 366/1

5 الجامع لأحكام القرآن، 353/8

6 تفسير القرآن العظيم، 275/4

مباركة لمن اتبعها، لأنها من الله تبارك وتعالى، ولذلك كانت كثيرة الخير، وكثيرة المنافع الدينية والدنيوية، في توجيهاتها وإرشاداتها، ومقاصدها وأغراضها، فمن أراد البركة في العمل، والبركة في العمر، فعليه بالاهتداء بهدايات القرآن، فما حُرِم بركات الحياة من جعلها طريقاً إلى الله تعالى واتبعها: تلاوة، وتدبراً، واستهداء وعملا، ففيها الخيرات جميعها، والنفع كله، في الدنيا والآخرة.

ن- هدايات القرآن ذكْرٌ وتذْكرة:

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣ ﴾ [الزمر: 23] فقد وصف سبحانه هدى القرآن بأنه ذكر.

وَوَصْفُ هدايات القرآن ب (**الذكر**) له معنيان:

أحدهما: أنها ذكر من الله تعالى لعباده، يذكرهم من خلالها بنعمه وآلائه، ويعرفهم تكاليفه وأوامره، ويذكّرهم بما يجب عليهم أن يتجنّبوه ليتّقوا سخطه وعقابه؛ ويذكّرهم بما ينفعهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ويذكرهم بحقيقة الدنيا، وبما ينتظرهم بعد الموت من أهوال يوم القيامة والوقوف بين يدي الله للحساب والجزاء؛ ثم يذكّرهم بسبيل سعادتهم، وأسباب فوزهم برضوان الله تعالى، وما ينتظرهم من ثواب عظيم ومقام كريم عند مليك مقتدر.

والثاني: أنها ذكر وشرف وعزة لمن آمن بها، واهتدى بهديها، واتبع سبيلها، قال ابن كثير: (يقول تعالى منبهًا على شرف القرآن، ومحرضًا لهم على معرفة قدره: ﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠ ﴾ [الأنبياء: 10] قال ابن عباس: شَرَفُكم)(1)

وهدايات القرآن كذلك تذكرة لمن يخشى الله تعالى، وتبصرة لذوي العقول السليمة، لتبصر بها الطريق، وتتذكر حينما تُذَكّر بها وبإرشاداتها، كما قال تعالى -مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم وأمّته-: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣ ﴾ [طه: 2،3]

إلى غير ذلك من الأوصاف التي وصف الله بها الهدايات القرآنية، وهي تتضمن لمن تأملها كل السمات والخصائص التي تحيى بها القلوب والنفوس، وتستنير ببصائرها العقول والأرواح، وتسعد

1 تفسير القرآن العظيم، 334/5

بسببها الإنسانية في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ ﴾ [طه 123،124]

قال القرطبي: في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى ﴾ أي رشداً وقولاً حقاً ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ يعني الرسل والكتب. ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه، أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا هذه الآية: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ...﴾ من قرأ واتبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي ﴾ أي ديني، وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه)([1])

فهذه بعض الأوصاف؛ أو أهمها، والتي وصف الله بها هدايات القرآن الكريم، من حيث هو رسالة ربانية غيبية، لها آثارها، على كيان الإنسان؛ عقله، وروحه، ونفسه، ولها كذلك آثارها، على الفرد، والمجتمع، من حيث وظائفها ومقاصدها.

الأمر الثالث: غاياتها

لا شك أن للهدايات القرآنية غايات أسمى، ومقاصد عظمى، وإن من أعظم هذه الغايات والمقاصد؛ أنها هي السبيل الوحيد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الجهل بالله، إلى العلم به وجلاله وجماله، ومن الضنك والشقاء، إلى الفوز والفلاح في الدنيا، والآخرة... قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: 1]

فما أخرج الله هذه الأمة للناس -يوم أن أخرجها- من مواتها إلا بهدايات القرآن، ولن تعود لحياتها ومجدها، وعزها ونصرها، إلا بهداه كذلك بإذن الله تعالى. كما قال سبحانه: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ

1 الجامع لأحكام القرآن، 258/11

ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: 15،16] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ [الإسراء: 9]

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى: (ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين جل وعلا ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ أي: الطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب.. وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال، لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة...)([1])

فما أحوج الأمة إلى هذه الهدايات القرآنية التي هي أقوم وأسدُّ وأصوب، في جميع مناحي حياتها المختلفة والمتعددة؛ عقدياً وتشريعياً وأخلاقياً، واجتماعياً وسياسياً، واقتصادياً.. وخاصة في عصرنا هذا والذي كثرت مشكلاته، وتعددت أزماته، وتعقدت انحرافاته.

فالقرآن الكريم إنما نزل ابتداء وانتهاء لهداية البشرية وتذكيرها بربها، كما قال تعالى: ﴿طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣﴾ [طه: 1-3]

الأمر الرابع: أثرها البليغ في نفوس الأفراد والجماعة:

إن مما يدل على أهمية الهدايات القرآنية وجليل قدرها؛ ما تركته من عظيم الأثر، وجميل النفع على الفرد والجماعة، منذ بزوغ شمس رسالاتها، وانبعاث نور أسرارها، بنزول الروح الأمين جبريل عليه السلام، على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بآياتها الأولى، فحوَّلت العرب من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الذلة إلى العزة، ومن الضلال إلى الهداية، ومن التفرق والشتات إلى الوحدة والوئام، قال الله تعالى -ممتناً على عباده-: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران: 103]

1 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 17/3

قال أبو بكر الباقلاني([1]) رحمه الله تعالى في أثر القرآن في العباد والبلاد: (ولو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبق الأرض أنواره، وجلل الآفاق ضياؤه، ونفذ في العالم حكمه، وقبل في الدنيا رسمه، وطمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرواق، ممدود الأطناب، مبسوط الباع، مرفوع العماد، ليس على الأرض من يعرف الله حق معرفته، أو يعبده حق عبادته، أو يدين بعظمته، أو يعلم علو جلالته، أو يتفكر في حكمته، لكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره من أنه نور، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى: 52])([2])

فلم يكن لهذه الأمة ذكر، ولا كان لها في التاريخ وجود واعتبار، إلا يوم أن جاءت هدايات القرآن الكريم لإخراجها من الظلمات إلى النور: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: 1] فما أخرجها الله يوم أن أخرجها خير أمة للناس إلا بهداه، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ١١٠﴾ [آل عمران: 110] ولن تعود لحياتها ومجدها، وخيْريّتها وعزها ونصرها، إلا بهداه كذلك إن شاء الله تعالى.

---

1 الإمام العلامة، أوحد المتكلمين، مقدم الأصوليين، القاضي أبو بكر، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم، البصري، ثم البغدادي، ابن الباقلاني، صاحب التصانيف، كان يضرب المثل بفهمه وذكائه، وقد ذكره القاضي عياض في "طبقات المالكية" فقال: هو الملقب بسيف السنة، ولسان الأمة، المتكلم على لسان أهل الحديث، وطريق أبي الحسن، من أشهر مؤلفاته: "إعجاز القرآن" و"الانتصار للقرآن" مات في ذي القعدة، سنة ثلاث وأربعمائة، وصلى عليه ابنه حسن، وكانت جنازته مشهودة. (ينظر سير اعلام النبلاء، 11/13-13)

2 إعجاز القرآن، 187

المبحث الثالث

منهج العلماء في استخراج الهدايات القرآنية

تمهيد:

إن القرآن الكريم كتاب هداية ودليلها وطريقها، ولذلك كان آية الآيات، وأعظم الهدايات، ولذلك قال تعالى عنه في هذا السياق: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 51]

وتحقيق الاهتداء بالهدايات القرآنية هو ثمراتها المرجوة، وهو الهدف والغاية المنتظرة من التعامل من القرآن الكريم؛ تلاوة، وتدبراً، ومدارسة، وفهماً، وتفسيراً، ذلك لأن هذا الكتاب وصَفَه مترله سبحانه بأنه هدىً: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2] وعرّف بوظيفته وغايته التي أنزله من أجلها بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ۝٩﴾ [الإسراء: 9]

ومن هنا اجتهد العلماء كل حسب تخصصه ومجاله، قديماً وحديثاً وهم يتعاملون مع القرآن الكريم، في مناسبات مختلفة، قصد استخراج هداياته والوصول إليها، من خلال وسائل وطرق متعددة، اجتهدوا في استنباطها وتأصيلها وتقعيدها من القرآن الكريم نفسه، وما يختص به من علوم، ذلك أن قضية الهدايات القرآنية تتجاوز مسألة الاستنباط فهي أعم منه؛ لأن علم الهدايات القرآنية يشمل الدلالات الظاهرة والخفية، (فالهدايات تتجه نحو توظيف المعاني الظاهرة والخفية في الدلالات والإرشادات.. بينما اتجاه الاستنباط هو نحو المعاني الخفية والدقيقة، من وراء الكلمات، وتحتاج إلى مقومات ونظر)([1])

والمقصود بهذا المبحث هو النظر في أشهر الطرق والخطوات التي يسلكها العلماء للوصول إلى استخراج الهدايات من الآيات.

ولا يعني هذا أن لكل عالم طريقاً، أو مسلكاً منها، وإنما المقصود أن العلماء استخدموا هذه الطرق: إما مجتمعة، أو متفرقة؛ بحسب ما يقتضيه المقام والسياق، وهي متنوعة، وتعبر عن مدى اجتهاد العلماء وتنوع طرقهم في النظر التدبري للقرآن الكريم، واستخراج لطائفه وهداياته.

---

1 ينظر: كتاب الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية 1/ 58

ويمكن إجمال هذه الوسائل، أو الطرق التي اعتمدها العلماء في منهجهم لاِستخراج الهدايات القرآنية فيما يلي:

أولا: الاعتماد على دلالات الألفاظ:

والمقصود بدلالة الألفاظ ما ترشد إليه الألفاظ من المعاني.. والكلام حول دلالة الألفاظ وأقسامها، عند علماء التفسير، والأصول، واللغة، مما يطول، لكنها في الجملة يمكن إرجاعها إلى قسمين:

القسم الأول: دلالة المنطوق، وقد تكون نصاً، أو ظاهراً، أو مؤولاً، مطابقة أو تضمناً.

القسم الثاني: دلالة المفهوم، وتنتظم معها دلالة الاقتضاء، والإشارة، والإيماء، والتنبيه، واللزوم.

على اختلاف في هذه الاصطلاحات والتقاسيم وتفريعاتها باختلاف مذاهب العلماء؛ وهذه الدلالات هي أول ما ينظر فيه مستنبط الهدايات، ومستخرج أسرار آيات القرآن. ومن هنا يجب عند تدبر القرآن الكريم، والاهتداء بعظاته وأحكامه وحِكَمه؛ إعطاء الألفاظ حقَّها من الدلالة، وتوفيتها ما لها من المعاني، سواء في ذلك الأسماء، أو الأفعال، أو حروف المعاني بأنواعها، ولا شك أنه باب من أوسع أبواب فهم القرآن، إذ لا شك أن ألفاظ القرآن الكريم؛ تركيباً، وترتيباً، إفراداً، وجمعاً، تحمل من الهدايات والأسرار ما لا تحمله ألفاظ البشر: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ ﴾ [الكهف: 109]

ولا شك أن الناظر في هذا إنما يصدر في كل ذلك من الضوابط، والأصول الجامعة، التي تضبط له فهمه.([1])

قال ابن القيم رحمه الله: (الواجب فيما علق عليه الشرع الأحكام، من الألفاظ والمعاني، ألا يتجاوز بألفاظها ومعانيها، ولا يقصر بها، ويعطي اللفظ حقه، والمعنى حقه؛ وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط في كتابه، وأخبر أنهم أهل العلم)([2])

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذه الدلالات قد تجتمع أنواع منها في آية واحدة.

---

1 ينظر كتاب: الهدايات القرآنية، دراسة تاصيلية، 2/ 505

2 إعلام الموقعين عن رب العالمين، 1/ 172

قال الزمخشري رحمه الله: (وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين، وفيها أوفر نصيب للمؤمنين، تدبراً لها واعتباراً بموردها)([1])

قال ابن عاشور رحمه الله -معلقاً-: (يعني أنها في شأن الكافرين من دلالة العبارة، وفي شأن المؤمنين من دلالة الإشارة)([2])

ومن جميل ما يذكر في هذا السياق، سياق الوقوف على اللفظ القرآني والنظر فيه وكثرة تأمله، وما يترتب عليه؛ ما ذكره الشيخ السعدي رحمه الله حيث قال: (والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني، فإذا فهمتها فهماً جيداً، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها، وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه، حتى تصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة، فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كله حق ولا بد)([3])

وهكذا فإن الألفاظ القرآنية تحتاج إلى سبر أغوارها، والوقوف مع دلالاتها لاستخراج معانيها وهداياتها، وكل ذلك إنما يتوقف بعد -تقوى الله والاستعانة به سبحانه- على الإحاطة بمعرفة قواعد اللغة العربية، وبلاغة اللسان العربي، مع الاطلاع على علوم القرآن وقواعد التفسير.

ثانياً: الالتفات إلى تنوع الأساليب:

إن أهم ما يتفرّد به القرآن الكريم في عرض هداياته هو: أسلوبه المتميز في خطاب دعوته، وبيان آياته، وبلاغ رسالاته، بل هذا هو محل إعجازه للعرب حينما طلب منهم بأن يأتوا بسورة من مثله، فلم يستطيعوا، فهو تحدٍّ لهم فيما له تعلق بنظمه وبيانه، أي طبيعة هذا النظم وهذا البيان، الذي يخالف نظم البشر وبيانهم.

---

1 تفسير الكشاف، 3/ 302.

2 التحرير والتنوير، 37/1

3 القواعد الحسان لتفسير القرآن، 32

وحول الأسلوب البلاغي للقرآن الكريم يقول الإمام الزركشي([1]) رحمه الله تعالى: (اعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا ذوو بصيرة تستقصيه، وهو أرق من الشعر، وأهول من البحر، وأعجب من السحر، وكيف لا يكون؟! وهو المطلع على أسرار القرآن العظيم، الكافل بإبراز إعجاز النظم المبين، بما أودع من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما تضمنه في الحلاوة، وجلله في رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه، وجزالتها، وعذوبتها، وسلاستها)([2])

وأساليب القرآن في عرض هداياته كثيرة ومتنوعة، منها: أسلوب الاستفهام بمعانيه المتعددة، وأسلوب التوكيد بنوعيْه، وأسلوب التكرار بقسميْه، وأسلوب الطباق والمقابلة بصوره المتنوعة، وأسلوب الالتفات بحسب أنواعه، وأسلوب التقديم والتأخير بصوره، وأسلوب الجدل والحوار، وأسلوب ضرب الأمثال، وأسلوب القصص، وأسلوب التحدي والإعجاز، أسلوب الترغيب والترهيب([3]).. وغيرها.

ولا شك أن لكل أسلوب من هذه الأساليب القرآنية، دلالته وفائدته في مجال الهدايات، وذلك لما لهذه الأساليب من الأغراض البلاغية، والمقاصد البيانية، والأسرار الربانية.

ثالثاً: النظر في اختلاف القراءات:

إن الاختلاف في القراءات القرآنية إنما هو اختلاف تنوع، وليس اختلاف تضاد وتناقض، كما قرر ذلك العلماء، لأن الأصل فيه هو التيسير؛ التيسير في التلاوة، والتيسير في التدبر والفهم، والتيسير في الاستنباط والبيان، وهذا من المقاصد الجليلة والجميلة، لاِختلاف القراءات...

ولذلك كان هذا الاختلاف هو بمثابة تعدد الآيات، ف(تنوع القراءات، يقوم مقام تعدد الآيات وذلك ضرب من ضروب البلاغة، يبتدئ من جمال الإيجاز، وينتهي إلى كمال الإعجاز،

---

1 هو الإمام العلامة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الفقيه الأصولي، المحدث المفسر، الشافعي المذهب، التركي الأصل، المصري المولد والوفاة، كان مولده سنة: 745هـ، رحل إلى حلب وأخذ عن الشيخ شهاب الدين الاذرعي، وأخذ عن علماء حلب، وسافر إلى دمشق وسمع الحديث من شيوخها. من أشهر مؤلفاته: البرهان في علوم القرآن، والبحر المحيط في أصول الفقه، توفي رحمه الله في الثالث من شهر رجب سنة 794هـ (ينظر إنباء الغمر بأبناء العمر، للحافظ ابن حجر العسقلاني، 139/3، والأعلام، لخير الدين الزركلي، 60/6)

2 البرهان في علوم القرآن، 382/2

3 ينظر هذه الأساليب وصورها وأقسامها وأمثلتها القرآنية في كتاب الهدايات القرآنية: دراسات تأصيلية، 1/ 297- 363

أضف إلى ذلك ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة، على أن القرآن الكريم كلام الله، وعلى صدق مَن جاء به وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء وتضاد، ولا إلى تهافت وتخاذل، بل القرآن كله على تنوع قراءته، يصدق بعضه بعضاً، ويبين بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض، على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير، وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم، وذلك من غير شك يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف.. ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف)([1])

وإذا كان ذلك كذلك؛ فلا شك أن لتعدد القراءات في الكلمات القرآنية، أثراً عظيماً في إثراء وتعدد هداياتها وأسرارها، إذ كل قراءة -في الغالب- تحمل هداية أو هدايات، لا تتعارض مع هداية القراءة الأخرى، بل تتكامل وتكتمل، كما سنرى ذلك إن شاء الله في الدراسات التطبيقية.

رابعاً: التأمل في مجموع أدلة الكتاب والسنة:

لقد اتفق علماء أصول الفقه على أن النظر في أدلة الشريعة، قصد استخراج أحكامها، لا يتم على الوجه الأكمل، إلا بجمع نصوصها والتأليف فيما بينها، ثم النظر في أسبابها وسياقاتها، والتمييز بين دلالاتها ومقاصدها، للوصول إلى حكم شرعي صحيح المعنى، سليم من المعارضة.

والنظر إلى القرآن الكريم لاستنباط هداياته، واستخراج أسراره وأنواره، لا يخرج عن هذه القاعدة وهذا الأصل، بل النظر إليه من هذه الجهة -جهة استخراج هداياته- هو أحوج ما يكون إلى استحضار هذا المعنى؛ معنى النظر إلى مجموع أدلته، واستحضار أحوال نزوله، وسياق ذلك وأسبابه، لأن السبب العام والأعظم لنزول القرآن الكريم إنما هو تحقيق الهداية للتي هي أقوم، وهذا لن يتأتى إلا بالنظر الكلي لمجموع أدلة الكتاب والسنة، إذ هدايات القرآن الكريم شاملة لجميع نصوصه الكلية والجزئية، ولجميع معانيه الظاهرة والخفية، ولجميع مواضيعه العقدية والتشريعية والخلقية.

---

1 مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، 1/ 149(بتصرف يسير)

خامساً: الصدور من أصول الشريعة ومقاصدها:

وهي قاعدة عظيمة، وأصل كل تعامل مع القرآن الكريم، قصد فهمه واستخراج أحكامه وهداياته، فلا ينبغي أن يكون في استنباط شيء من هذه الهدايات والفوائد والمعاني، مما يتناقض مع أصول الشريعة الإسلامية ومقاصدها العامة.

ومقاصد الشريعة العامة التي يجب مراعاتها والنظر إليها في هذا السياق، قسمان، كما قال الشاطبي رحمه الله: **أحدهما** يرجع إلى قصد الشارع. **والآخر** يرجع إلى قصد المكلف.

فالأول: يعتبر من جهة قصد الشارع في وضع الشريعة ابتداء، ومن جهة قصده في وضعها للإفهام، ومن جهة قصده في وضعها للتكليف بمقتضاها، ومن جهة قصده في دخول المكلف تحت حكمها.

والثاني: يرجع إلى مقاصد المكلف في التكليف بها([1]) وهذا لا يجوز أن يتناقض مع المقصد الأول، أو يعود عليه بالإبطال، فالشريعة إنما جاءت بهداياتها لمصالح العباد في العاجل والآجل.

ومن ثم فالعمل على استخراج الهدايات القرآنية لا بد وأن يستحضر هذه الأصول والمقاصد، إذ الشريعة (مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه، وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون وهداه الذي به اهتدى المهتدون)([2])

ولذلك لم يغب (عن نظر العلماء وهم يستنبطون الهدايات من القرآن الكريم، ضرورة انتظامها في أصول الشريعة وقواعدها، وعدم مخالفة شيء منها)([3]) وخاصة إذا استحضرنا أن كثيراً من الهدايات يُعتمَد في استنباطها على دلالة المفهوم، وما يتضمنه من دلالة الاقتضاء، والإشارة،

---

1 الموافقات في أصول الشريعة، 2/ 7-8

2 إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، 3/ 3

3 ينظر كتاب: الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 2/ 519

والإيماء، والتنبيه، واللزوم، وغير ذلك... وهذه كلها يجب أن تنتظم ظمن أصول الشريعة وقواعدها.

سادساً: استحضار حكم التشريع وأسراره:

إن حِكَم التشريع وأسراره في سياق الهدايات القرآنية، هي أخص وأدق من مقاصد التشريع عموماً، والتي يتحدث عنها علماء أصول الفقه ومقاصد الشريعة، إذ هذه لا يصل إليها إلا من ثوَّر الآيات تثويراً، وهي تسري في ألفاظ القرآن ومعانيه، وأفراده وجمله، فلها تعلق بالكلمات والجمل والآيات، ولذلك للمتبحر في علوم البلاغة القرآنية، -مع تحقيق مقام التقوى-؛ النصيب الأوفر من تذوقها وإحكامها (وهي من أكثر ما يهدي المستنبط للوصول إلى الهداية؛ فكلما استحضرها عند تدبره للآيات، تجلت له أنواع من الهدايات)([1]) وظهر له من أسرار الآيات وأنوارها، ما لا يظهر لغيره، وخاصة في أوقات صفاء النفس وهدوئها، وهي تتدبر القرآن الكريم وتُثَوِّر آياته.

ومقتضى تدبر القرآن الكريم، يقتضي الغوص في معانيه ودقائقه وأسراره، والوقوف عند عجائبه، وإدامة النظر فيه، واستنباط حكمه وعظاته، وهذا كله يستلزم استحضار هذه الحِكَم الربانية في التشريع والإرشاد والهدايات.

سابعاً: النظر في أوجه الإعراب والاستفادة منها:

لا شك أن معرفة إعراب القرآن أمر في غاية الأهمية، وخاصة ما يتعلق ببعض الآيات التي تتوقف معرفتها وإزالة إشكالها، على تقديرها، بإعرابها الذي يزيل هذا الإشكال ويفيد المعنى الصحيح.

قال ابن جني في الخصائص: (الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ)([2])

قال ابن منظور:(أَعْرَبَ الكلام وأعرب به: بَيَّنَهُ...)([3])

---

1 نفسه، 2/ 522

2 الخصائص، 36/1

3 لسان العرب مادة: (عرب)

وقال الراغب في المفردات: (إعراب الكلام: إيضاح فصاحته، وخص الإعراب في تعارف النحويين بالحركات والسكنات المتعاقبة على أواخر الكَلِم)([1])

ومن هنا فلا يخفى على أحد أهمية استحضار قواعد الإعراب في توضيح المعنى الذي تنشده الآيات القرآنية وبيان ما تقصده من دلالات وهدايات.

وإذا كان الإعراب فرعاً عن المعنى كما يقول علماء اللغة فإن (في القرآن الكريم معانٍ كثيرة يتوقف فَهمها على إعراب ألفاظها لمعرفة الفاعل من المفعول، والصفة من الموصوف، والمبتدأ من الخبر، وغير ذلك مما يحتاج إليه المفسِّر في الوقوف على المعنى المراد، ويستطيع من خلال معرفة وجوه الإعراب أيضًا أن يُصحِّح مِن أقوال المفسِّرين ما يراه صحيحًا، أو يُرجِّح ما يراه راجحًا؛ مستدلًّا على سلامة قوله بقاعدة أو بأكثر من قواعد الإعراب)([2])

وفي هذا الصدد يقول الإمام الزمخشري رحمه الله: (وإن آثار الإعراب عديدة الحصى، ومن لم يتق الله في تنزيله، فاجترأ على تعاطي تأويله، وهو غير معرب: فقد ركب عمياء، وخبط عشواء، وقال ما هو تقول وافتراء وهراء، وكلام الله منه براء)([3])

ومن هنا فإن لمعرفة الإعراب والاستفادة من وجوهه، في الكلمات، والجمل القرآنية، آثاراً كبيرة وفوائد جليلة في استخراج الهدايات وتنوعها وتعددها.

ثامناً: فهم الآيات من خلال أحوال النزول:

إن من خصائص نزول القرآن الكريم، أنه نزل منجّماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومفرّقاً في مدة الرسالة النبوية، في حوالي ثلاث وعشرين سنة، وذلك في أحوال مختلفة، ومناسبات متباينة، وقد أشار القرآن الكريم إلى الحكمة من هذا التنزيل المنجّم، في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: 106]

ومن حِكم ومقاصد نزول القرآن منجماً، تيسير قراءته وتدبره وفهمه.

---

1 مفردات ألفاظ القرآن، مادة (عرب) ص328

2 الموسوعة القرآنية المتخصصة، 573/1

3 المفصل في صنعة الإعراب، 4/1

ومن هنا فإن الاهتمام بأحوال نزول القرآن الكريم، وفهْم الآيات من خلال ذلك يعين على فهْم معانيها، واستخراج أنواع هداياتها.

والمقصود بأحوال النزول ما هو أعم من السبب الخاص، فهو يشمل أسباب النزول، وزمان النزول، ومكانه، والواقع الذي نزلت فيه الآيات، كحالة الخوف أو الأمن، والقوة أو الضعف، والحالة الاجتماعية، ومنه المجتمع المكي والمدني، وما لكل واحد منهما من خصائص، فهذه الأحوال تُلهم المتدبر بعضاً من المعاني، التي قد لا يدل عليها ظاهر اللفظ.

قال الزركشي رحمه الله تعالى -عن فوائد أسباب النزول-: (ومنها: الوقوف على المعنى، قال الشيخ أبو الفتح القشيري: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز، وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا)([1])

وهكذا فإن استحضار واستصحاب أحوال النزول عموماً، والاستئناس بأسباب النزول خصوصاً، مما يعين على استخراج الهدايات، والاهتداء إلى أصوبها وأصحّها إلى القصد من سياق الآية وجوّها العام. مع استحضار قاعدة أن: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) مما يوسع جانب الهدايات في الآية المدروسة وشمولها وعمومها وتنوعها.

تاسعاً: النظر في المناسبات:

قال ابن فارس في معجمه: (النون، والسين، والباء، كلمة واحدة قياسها اتصال شيءٍ بشيء، ومنه النَّسب سُمِّي لاتصاله وللاتصال به)([2])

ويقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: والنسب والنسبة: اشتراك من جهة أحد الأبوين، وذلك ضربان: نسب بالطول؛ كالاشتراك بين الآباء والأبناء، ونسب بالعرض؛ كالنسبة بين بني الإخوة وبني الأعمام؛ قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان: 54]([3])

---

1 البرهان في علوم القرآن، 22/1

2 معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة (ن س ب)

3 المفردات في غريب القرآن، 801. مادة (نسب)

قال الزركشي رحمه الله: (واعْلَمْ أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول، ويُعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يُناسب فلانًا؛ أي: يَقرُب منه، ويُشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل؛ كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنًى رابط بينهما، وهو القرابة)([1])

ويعرف في الاصطلاح بأنه:(علم تُعرف منه عِللُ ترتيب أجزاء القرآن، وهو سر البلاغة)([2])

ويقول الزركشي نقلاً عن ابن العربي رحمهما الله تعالى: (هو ارتباط آي القرآن بعضها ببعض؛ حتى تكون كالكلمة الواحدة، مُتسقة المعاني، منتظمة المباني)([3])

وإذا كان انشغال أكثر البلاغيين والمفسرين؛ كالجرجاني، وصاحب الكشاف، وصاحب التحرير والتنوير، وغيرهم – بالنظم داخل الآية القرآنية المفردة غالبًا، أو بين الآيات المتجاورة، فإن علم التناسب ينظر إلى النظام الرابط بين أجزاء السورة جميعها، بل يمتد إلى القرآن كله.([4])

و لم يكن هذا العلم يتجاوز مجرد الإشارات واللفتات، بين ثنايا كتب التفسير، و لم يظهر علماً مستقلا، إلا مع الإمام الجليل أبي بكر النيسابوري([5]) رحمه الله تعالى، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، فإنه أول من أظهر علم المناسبة، إذ كان يهتم به في درسه، ويقول إذا قرئت عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بتلك المعاني)([6])

---

1 البرهان في علوم القرآن، 1/ 35.

2 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، 1/ 6.

3 البرهان في علوم القرآن، 1/ 36.

4 التناسب في سورة البقرة، للدكتور طارق مصطفى محمد، ص، 14

5 هو الإمامُ الحافظُ العلاّمةُ، شيخُ الإسلام، أبو بكر محمّد بن إبراهيم بن المنذر بن الجارود النّيسابوريُّ الفقيه نزيل مكة. اختلف في تاريخ ولادته، فقيل: وُلد في حدود موت الإمام أحمد بن حنبل، أي سنة 241هـ، كما اختلف في تاريخ وفاته، والأكثر على أنه توفي سنة 318هـ من أشهر مؤلفاته: الإجماع: وهو مطبوع. الإشراف على مذاهب أهل العلم، كتاب التّفسير، وغيرها من المؤلفات، بعضها مطبوع والبعض الآخر لا زال مخطوطاً. (ينظر تذكرة الحفاظ 782/3، سير أعلام النبلاء: 924/41، لسان الميزان 28/5، شذرات الذهب 280/2)

6 مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، لعادل بن محمد أبي العلا،21، نقلا عن كتاب: الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية 531/2

ثم استوى هذا "العلم" على سوقه واشتد عوده، مع الإمام برهان الدين البقاعي(1) في كتابيه: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" و"مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور"

وهذا العلم يعتبر مفتاح معرفة حِكَم القرآن ودُرره وهداياته، ومن خلاله يهتدي المفسر لِاستخراجها. قال الزركشي رحمه الله: (وقد قلّ اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط)(2)

ولا نبالغ إذا قلنا بأن كثيراً من المناسبات القرآنية هي في حد ذاتها عبارة عن لطائف وهدايات، كما أشار إلى ذلك الإمام الرازي رحمه الله. وكما قال الشيخ عبد الحميد الفراهي: (ولَمَّا كان أكثر الحِكَم ومعالي الأمور مَخبوءة تحت دلالات النظم، فمَن ترك النظر فيه ترَك من معنى القرآن مُعظمَه)(3)

عاشراً: التأمل في اقتران أسماء الله الحسنى:

وهذا له علاقة وثيقة بما قبله، وهو جزء منه -أي النظر في المناسبات- فالتأمل في اقتران أسماء الله الحسنى في الآية أو الآيات، وعلاقة ذلك بما قبلها وما بعدها، ووجوه هذا الاقتران، كل ذلك يذكر في (علم المناسبات) كالمناسبة بين جزء الآية وصدرها، والمناسبة بين ختام الآية وصدرها، والمناسبة بين صدر الآية وخاتمة التي قبلها مباشرة، والمناسبة بين ختام الآية والآية التي قبلها مباشرة، والمناسبة بين صدر الآية وما قبلها من الآيات عموماً، وهكذا، وما لذلك من أهمية وآثار جليل في استخراج الهدايات القرآنية المناسِبَة لكل مناسَبة...

وإنما أُفرد هذا الموضوع هنا -أي التأمل في اقتران أسماء الله الحسنى- لأهميته، فأسماء الله تعالى حسنى، أي: بالغة في الكمال؛ لتضمنها لصفات الجلال.

قال ابن القيم رحمه الله: (أسماء الرب تبارك وتعالى، دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى؛ إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها، لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح وكمال)(4)

---

1 أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط البقاعي، مؤرخ، وأديب، ومفسر، ولد في سهل البقاع وسكن دمشق، ثم رحل إلى بيت المقدس، والقاهرة، ثم عاد إلى دمشق وتوفي بها سنة: 885هـ، من أشهر مؤلفاته: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور. (ينظر الأعلام للزركلي، 56/1)

2 البرهان في علوم القرآن، 1/ 36

3 دلائل النظام، ص 38.

4 مدراج السالكين، 28/1

ومن هنا فما مِن اسم من أسماء الله تعالى خُتِمت به آية من الآيات، إلا وله مناسبة في ارتباطه بتلك الآية من حيث مضمونها ومقصودها.

وتزداد قوة دلالة هذه الأسماء والصفات ومعانيها كلما اجتمعت، وهو سر اجتماعها في أكثر الآيات، مناسبة لسياقها.

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله أيضاً: (فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر)([1])

الحادي عشر: النظر في مقاصد القرآن الكريم:

علم مقاصد القرآن الكريم وسوره من العلوم الاستنباطية الحديثة ([2]) ولذلك لا نجد تعريفاً محدداً لمقاصد القرآن الكريم -كمركب إضافي، ولقب لفن من فنون علوم القرآن- عند علمائنا الأقدمين من المفسرين وغيرهم، وإنما وردت إشارات هنا وهناك في مقدمات التفسير، أو في الحديث عند تفسير بعض الآيات، أو في الحديث عن علوم القرآن؛ وهم يستعملونها للدلالة على محاور القرآن وقضاياه الكبرى، كقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى: (القرآن الكريم يشتمل على ثلاثة أشياء: التوحيد، والأخبار، والديانات، ولهذا كانت سورة الإخلاص ثلثه، لأنها تشتمل التوحيد كله)([3]) وقول الإمام الرازي رحمه الله: (إن مقصود القرآن، تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر لله تعالى)([4])

ويرى أبو بكر ابن العربي أن: (أم علوم القرآن ثلاثة: توحيد، وتذكير، وأحكام...)([5])

وقال السيوطي في الإتقان: (ولما كانت سورة الفاتحة هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده)([6]) فنبه على أن الفاتحة اشتملت على جميع مقاصد القرآن الركريم.

---

1 مدراج السالكين، 58/1.

2 ينظر كتاب: الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 538/2.

3 الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 5/ 1919

4 مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) 1/ 179

5 الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 5/ 1919

6 المرجع نفسه: 1/ 690

وقد برز الحديث عن مقاصد القرآن في عصرنا الحديث مع ظهور المدرسة التفسيرية التجديدية، ورموزها؛ من أمثال: الشيخ محمد رضا في (تفسير المنار)، والإمام الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير).. وغيرهم، لكن الملاحظ أن هؤلاء لم يضعوا تعريفاً دقيقاً لمقاصد القرآن، وقد اهتموا بذكر هذه المقاصد وعدِّها، أكثر من اهتمامهم بتعريف جامع لمقاصد القرآن كمركب إضافي.

ويمكن تعريف مقاصد القرآن الكريم بأنها: (القضايا الأساسية، والمحاور الكبرى التي دارت عليها سور القرآن الكريم وآياته، تعريفاً برسالة الإسلام، وتحقيقاً لمنهجه في هداية البشر)([1])

كما يمكن إجمال هذه المقاصد حسب القرآن نفسه في الآتي:

مقصد توحيد الله وعبادته: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ٣﴾ [هود1- 3] ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزمر1،2]

مقصد الهداية الدينية والدنيوية للعباد: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ١٨٥﴾ [البقرة: 185] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ٩﴾ [الإسراء9:] ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾ [الجن: 1، 2]

مقصد التزكية وتعليم الكتاب والحكمة: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]

مقصد الرحمة والسعادة: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٢﴾ [الإسراء: 82]

---

1 جهود العلماء في استنباط مقاصد القرآن الكريم، الدكتور مسعود بودوخة، ص، 4 بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه. بالشارقة. (10- 12جمادى الأولى 1432هـ- 14-16 أبريل 2011م

مقصد إقامة الحق والعدل: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ٢٥ ﴾ [الحديد: 25] ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ٤٨ ﴾ [المائدة: 48](1)

ويمكن حصر هذه المقاصد في ثلاثة كبرى، وهي:

1. **التعريف بالله الخالق سبحانه.**
2. **التعريف بوظيفة العباد في هذه الحياة.**
3. **التعريف بمآل الإنسان بعد هذه الحياة.**

فهذه المقاصد هي التي تتعلق بها جميع الهدايات القرآنية، واستحضار هذه المقاصد واستصحابها، أساس لاستخراج الهدايات القرآنية واستنباطها(2) إذ فما من هداية من هدايات القرآن الكريم، في جميع مجالات الهديات القرآنية، وفي كل آيات القرآن الكريم وسوره، من الفاتحة إلى الناس إلا وهي تهدف إلى خدمة هذه المقاصد الثلاثة، والمتدبرُ لسورة (الفاتحة) التي هي أم القرآن وخلاصته يرى ذلك جلياً، وإنما القرآن تفصيل لما ورد من إجمال في الفاتحة، ولذلك كانت هي أعظم سورة في القرآن، وهي القرآن كما جاء في الحديث الصحيح.(3)

---

1 جهود الأمة في مقاصد القرآن الكريم، الدكتور أحمد الريسوني، ص: 4،5 بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه. بالشارقة. (10- 12جمادى الأولى 1432هـ- 14-16 أبريل 2011م)

2 ومن هنا حرص معظم المفسرين على ذكر مقاصد القرآن أو محاوره - على اختلاف في الاسم كما مر معنا- بين يدي التفسير ومقدماته، وذلك لاستحضارها في تدبر وفهْم القرآن الكريم وتفسيره واستخراج هداياته وحكمه وعظاته.

3 عنْ أَبِي سَعِيد بْن الْمُعَلَّى قَالَ كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجد فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجبْهُ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي. فَقَالَ: ((أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {اسْتَجِيبُوا للَّه وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ} ثُمَّ قَالَ لِي لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ= =السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ أَلَمْ تَقُلْ: لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَالَ: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ)) البخاري: كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب حديث رقم: 4474.

الثاني عشر: النظر في السياق القرآني:

يقول ابن دقيق العيد رحمه الله – في حديثه عن مركزية السياق في فهم النصوص– (إن السياق طريق إلى بيان المجمَلات، وتعيين المحتمَلات، وتنزيل الكلام على المقصود منه، وفهم ذلك قاعدة كبيرة من قواعد أصول الفقه...)([1])

ومن المعلوم أن سياق الكلام يدل على مراد المتكلم، ولا يكفي مجرد اللفظ، وما يجوز حمله عليه في اللغة؛ ولذلك يعد السياق القرآني من أهم مقومات المفسر، كما ظهر ذلك من خلال اختيارات المفسرين.([2])

وقد ظهر مصطلح السياق ومفهومه وأهميته في فهم القرآن، واستحضاره عند تدبره وتفسيره، منذ وقت مبكر، فهذا الإمام الشافعي، يخصص باباً في كتابه (الرسالة) فيقول رحمه الله تعالى: باب الصنف الذي يبين سياقه معناه: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأعراف: 163] فابتدأ جل ثناؤه ذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر، فلما قال: ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ دل على أنه إنما أراد أهل القرية، لأن القرية لا تكون عادية ولا فاسقة بالعدوان في السبت ولا غيره، وأنه إنما أراد بالعدوان أهل القرية الذين بلاهم بما كانوا يفسقون. وقال: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنبياء: 11،12] وهذه الآية في مثل معنى الآية قبلها، فذكر قصم القرية، فلما ذكر أنها ظالمة؛ بَان للسامع أن الظالم إنما هم أهلها دون منازلها التي لا تظلم، ولما ذكر القوم المنشئين بعدها وذكر إحساسهم البأس عند القصم أحاط العلم أنه إنما أحس بالبأس من يعرف البأس من الآدميين)([3])

---

1 إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، 216/2

2 الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 541/2.

3 الرسالة، 64 -62

بل لقد ظهر التأكيد على استحضار السياق والنظر إليه في فهم القرآن الكريم قبل الإمام الشافعي، فقد روي عن تلميذ ابن عباس مسلم بن يسار البصري([1]) رضي الله عنهما، أنه قال: (إذا حدثت عن الله؛ فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده)([2])

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن: تبين له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه، فهذا منشأ الغلط من الغالطين؛ لاسيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية، فإن هؤلاء أكثر غلطاً من المفسرين المشهورين؛ فإنهم لا يقصدون معناه كما يقصد ذلك المفسرون)([3])

قال الزركشي رحمه الله: (وطريق التوصل إلى فهمه: النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب، ومدلولاتها واستعمالاتها، بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب (المفردات) فيذكر قيداً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ؛ لأنه اقتنصه من السياق)([4])

ولذلك كلما تأمل المستنبط في سياق الآيات، وطوّف نظره في سباقها ولحاقها، انفتحت له جملة من معالم الهدايات، وأسرار الدلالات.([5])

الثالث عشر: الاستفادة من آثار الصحابة والتابعين:

لا شك أن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، هم أعلم الأمة بعد رسولها بكتاب ربها، لقربهم من المنبع، ومعرفتهم باللسان العربي، فكان لزاماً على كل من أراد النظر في كتاب الله تعالى، تدبراً واستنباطاً؛ أن يصدر من معينهم، ولا يتجاوز ما ثوروه من درر القرآن، وهداياته وأسراره.

---

1 هو أبو عبد الله مسلم بن يسار البصري، مولى بني أمية، وقيل مولى بني تيم من موالي طلحة رضي الله عنه. ومن تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما، أحد فقهاء التابعين، قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: (القدوة الفقيه، الزاهد، أبو عبد الله البصري، كان ثقة، فاضلاً، عابداً ورعاً، توفي عام 100هـ، وقيل: 101 [انظر: سير أعلام النبلاء، 4/ 510 – 514])

2 فضائل القرآن، للقاسم بن سلام، 229.

3 مجموع الفتاوى، 15/ 94 نقلا عن الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 541/2

4 البرهان في علوم القرآن،172/2

5 ينظر كتاب: الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 542/2

مع ما عُرفوا به رضي الله عنهم من صفاء في الفطرة، وسليقة في اللسان، ورِقّة في القلب، وعُمق في العلم، وبُعْد عن التكلف، فبهم حَفِظَ الله دينه وكتابه، وهم في هذا الأمر بين مكثر ومقل؛ وشراب مختلف ألوانه.

قال مسروق بن الأجدع([1]) رحمه الله: (لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فوجدتهم كالإخاذ (الغدير من الماء) فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المئة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله ابن مسعود من ذلك الإخاذ)([2])

وعلم الهدايات في إطاره العام، لا بد أن يلحظ فيه ذلك، وإن كانت آحاده وتفاصيله غير متناهية، وقد تعامل جماعة من المفسرين على هذا المقتضى.([3])

الرابع عشر: التدبر في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم في الصلوات وبعض الأحوال والأوقات:

لا شك أن أفقه الناس على الإطلاق، وأبصرهم بكتاب الله تعالى، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف لا وقد نزل به جبريل عليه السلام على قلبه، ومن هنا فقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة: 67] يقتضي قطعاً تبليغ الألفاظ المترلة، وتبليغ معانيها، حسب المطلوب.

ومن فقه رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم، وفقهه لأحوال الناس، وفقهه لطريقة التبليغ زماناً ومكاناً؛ ما يتعلق بقراءته للقرآن الكريم في أحواله المختلفة، سواء في الصلاة، أو في الخطبة، أو غيرها، كقراءته: (السجدة) و(الإنسان) في فجر يوم الجمعة، وسورتي: (الجمعة) و(المنافقون) في صلاة الجمعة. وخطبته في الجمعة بقراءة (سورة ق) وغيرها. وكذلك ما أمر

---

1 هو مسروق بين الأجدع بن مالك بن أمية بن عبد الله بن مرة بن سلمان بن معمر بن الحارث بن سعد بن عبد الله بن وادعة بن عمر بن عامر الهمداني، يقال: إنه سُرِقَ وهو صغير ثم وُجد فسمي مسروقًا، من كبار التابعين وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، سكن الكوفة وجلس يُفتي الناس، ويقضي بينهم دون أن يتخذ على ذلك أجرًا، وقد توفي سنة 62 هـ، وقيل سنة 63 هـ، وعمره 63 سنة. (سير أعلام النبلاء، 4/ 64)

2 المدخل إلى السنن الكبرى، ص 16.

3 كتابك الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 545/2

بقراءته صلى الله عليه وسلم في بعض الأحوال والمناسبات؛ كأمره بقراءة سورة الكهف يوم الجمعة مثلا.

ولا شك أن تأمل هذه الأحوال في الهدي النبوي في قراءته صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم له أهمية جليلة وعظيمة في استنباط الهدايات القرآنية، والوقوف على الأسرار الربانية، فربط النبي صلى الله عليه وسلم القراءة لهذه السور بهذه الأزمنة وترغيبه في ذلك وحثه عليه؛ هو نوع من البيان لهداياتها العملية، والمناسبة شرط، ولكل مقام مقال.

الخامس عشر: النظر في دلائل رسم المصحف:

أكثر العلماء على أن الرسم القرآني توقيفي لإجماع الصحابة عليه، وذهب بعضهم إلى أنه اجتهادي([1])

وبعيداً عن هذا الخلاف فإن ما يهمنا هنا هو أن العلماء والمفسرين قد استنبطوا جملاً من الأسرار والهدايات من خلال التأمل في دلائل رسم القرآن الكريم، فقد تكون الكلمة الواحدة يختلف رسمها من موضع لآخر فيدل ذلك على هداية من الهدايات، كما في كلمة (نعمة) فقد وردت التاء مربوطة ومفتوحة([2]) ومثلها كلمة (سنة). وكذلك زيادة حرف كالواو، والألف، والياء، في بعض الكلمات في موضع وحذفها في موضع آخر. كل ذلك لا شك أن له حكماً وأسراراً وهدايات، علمها من علمها وجهلها من جهلها. وهذا من إعجاز القرآن الكريم المتعلق برسمه، والذي يحتوي معاني وأسراراً، فلا يقال عنه: هذه مجرد زيادة هنا ونقص هناك.

وهذا التفريق في كتابة كلمة واحدة مثل كلمة: (سنة) و(نعمة) وغيرهما، حسب المواضيع، فيه دلالة واضحة على أن الرسم القرآني أمر توقيفي، لأنه يشير إلى خصائص اللفظ القرآني وإعجازه بلاغة ورسماً، مع ما في ذلك من ترغيب وحث على تدبر كلمات القرآن وهيئاتها، وما لذلك من دلالات مختلفة على معانيها باختلاف رسمها من موضع لآخر.

وتشير قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه في جمع القرآن الكريم، إلى أن رسم القرآن أمر توقيفي لعلاقته بلسان قريش لفظاً وكتابة، فقد ربط رضي الله عنه بين عربية اللسان والقلم -أي

---

1 ينظر البرهان في علوم القرآن، للإمام الزركشي 379/1

2 ينظر كتاب: الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 2/ 549

كتابتها-كما في صحيح البخاري، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: فَأَمَرَ عُثْمَانُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ أَنْ يَنْسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ وَقَالَ لَهُمْ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي عَرَبِيَّةٍ مِنْ عَرَبِيَّةِ الْقُرْآنِ، فَاكْتُبُوهَا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ بِلِسَانِهِمْ فَفَعَلُو)(1)

السادس عشر: ربط الآيات بالواقع وتنزيلها عليه:

إن القرآن الكريم نزل ليكون منهج حياة للبشر، ومن خصائصه العالمية والشمول، فهو شامل لكل زمان ومكان، ولكل مجالات الحياة، كما هو شامل لكيان الإنسان كله؛ عقله، ورحه، وجسده.

ولا ريب أن القرآن الكريم يشتمل على أصول وكليات، تندرج تحتها جميع الفروع والجزئيات، تصديقاً لقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: 89] وقوله جل وعلا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]. قال الإمام الشاطبي رحمه الله: (فالقرآن على اختصاره جامع، ولا يكون جامعًا إلا والمجموع فيه أمور كليات؛ لأن الشريعة تمت بتمام نزوله لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴿٣﴾﴾ [المائدة: 3])(2)

ولذلك فإن هدايات القرآن الكريم لا تنقضي، فهي معانٍ خالدة، تزداد تجلياً كلما اقتضاها الواقع، وأسعفتها اللغة، وهذا من معاني قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴿١٩﴾﴾ [الآية: 19]

قال الشيخ عبد الحميد ابن باديس رحمه الله: (إن القرآن كتاب الدهر، ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن)(3)

وقد نزل القرآن الكريم منجماً لحكم كثيرة، منها: معالجة الواقع، كما قال ابن كثير رحمه الله: (نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معادهم ومعاشهم)(1)

---

1 البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب، حديث رقم: 4984.

2 الموافقات في أصول الشريعة،4/ 181

3 مجالس التذكير، 377

وقال الطاهر ابن عاشور نقلا عن الوزير رحمهما الله: (إن القرآن لو لم يترل منجماً على حسب الحوادث، لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال، ومناسبتها للمقام، وذلك من تمام إعجازها)([2])

وعلماء التفسير يتفقون على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهي قاعدة دالة على مراعاة الواقع، كلما تغيرت أحواله وملابساته.

وبناء على ما سبق نجد المحققين من المفسرين، في استخراجهم للهدايات، والدروس والعظات، يتأثرون بالواقع ربطاً وتفسيراً، تفاعلاً مع القرآن الكريم الذي جاء حاكماً ومهيمناً.([3])

السابع عشر: تأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم الكونية المطابقة لظواهر القرآن:

وهذا من أعظم الطرق للوصول إلى الهدايات القرآنية، والحقائق الإيمانية، المتعلقة بعالمي الغيب والشهادة، الدالة على الحق والهادية إلى الرشد، كما قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: 53]

قال الزمخشري رحمه الله: (ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك، أن القرآن تترل عالم الغيب، الذي هو على كل شيء شهيد، أي مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق، وأنه من عنده، ولو لم يكن كذلك؛ لما قوي هذه القوة، ولما نصر حاملوه هذه النصرة)([4])

وقد أُثِر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن الكريم، قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد، يعنون أنه آتٍ، وأن الآتي به حوادث الزمان، ووقائع الأكوان.([5])

إن (النظر في مكتشفات العلوم التجريبية والكونية، ومطابقتها لظواهر القرآن الكريم، هو ما يسمى بالبحث في الإعجاز العلمي للقرآن)([1]) ولقد اعتبره العلماء لوناً من ألوان التفسير، فيه فتح

---

1 تفسير القرآن العظيم، 567/1

2 التحرير والتنوير، 19/ 20

3 كتاب: الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية،2/ 552 بتصرف يسير.

4 الكشاف، 973/25

5 مجالس التذكير، لابن باديس، 377

جديد، وتجديد في طريق الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى دين الله تعالى)([2]) ولذلك وظفه كثير من العلماء والمفسرين في استخراج الهدايات القرآنية، واللطائف التشريعية، لأمْر الله تعالى بالنظر والتفكر في خلق السموات والأرض وما فيهما من آيات، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: 190-191] وهذا النظر والتفكر يفتح للذهن مسارح التأملات؛ لاستخراج الهدايات.

وكل ما يساعد من حقائق العلم على تعميق فهمنا لمعاني القرآن الكريم، واستخراج هداياته، هو ما يجب الأخذ به. وكم في القرآن الكريم من آية إذا مستها يد العلم أبانت أسرارها وأظهرت إعجازها. ذلك أن القرآن الكريم له أسلوبه الحكيم في الدلالة على آيات الله في الكون.([3])

والعلماء القوّامون على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا يتلقونها بالفكر الخامد والفهم الجامد، إنما يترقبون من سنن الله في الكون، وتدبيره في الاجتماع، ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم.([4])

---

1 كتاب: الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 2/ 555

2 ينظر الموسوعة القرآنية المتخصصة، 694

3 ينظر الموسوعة القرآنية المتخصصة، 696

4 كتاب: الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية،2/ 555 (بتصرف يسير)

المبحث الرابع

إطلاقات العلماء للهدايات القرآنية، وطرق تناولهم لها

تمهيد:

لا شك أن تعامل علماء التفسر مع القرآن الكريم؛ تدبراً، ومدارسة، وفهماً، وتفسيراً، قصد استنباط الأحكام الشرعية، واستخراج الهدايات القرآنية، في مجالاتها المتعددة؛ اتسم بالضبط والدقة ووضوح العبارة، في اختيار الألفاظ والمصطلحات المعبرة والدقيقة، والدالة على مراد الله تعالى من كتابه في خطابه لعباده، سواء كان ذلك في مجال العقيدة والإيمان، أو مجال أحكام العبادات والمعاملات، أو مجال القيم والأخلاق، وسواء كان ذلك عن طريق القصص، أو الأمثال، أو الأخبار، أو عن طريق الترغيب والترهيب، أو عن طريق الأحكام، أو غيرها من الأساليب والوسائل التي استعملها القرآن الكريم في عرض هداياته.

هذا الضبط والدقة في اختيار الألفاظ والمصطلحات المعبرة عن الهدايات القرآنية، وطرق تناولها من قِبل علماء التفسير -بمختلف مدارسهم واتجاهاتهم- تجلى في تعبيراتهم وإطلاقاتهم التي يعبرون بها عن الهدايات القرآنية، أثناء استنباطهم لها. وهذا الإطلاق في طريقة التناول للهداية، له علاقة وثيقة بمعناها من حيث اللغة والاصطلاح، ومن حيث سياقاتها القرآنية الواردة فيها. وهذه الإطلاقات وألفاظ التناول تدور في الغالب حول سبعة ألفاظ أو مصطلحات.([1])

وسأذكر هذه الألفاظ أو المصطلحات، التي أطلقها العلماء في تناول الهداية والتعبير عنها، من خلال تفاسيرهم، مع ذكر مثال لكل واحدة منها للبيان، وترك مقام التفصيل للأمثلة التطبيقية في السورتين: (**النور**) و(**الفرقان**) موضوع البحث، مع التعليق باختصار على كل لفظ أو مصطلح من هذه الألفاظ والمصطلحات وعلاقته بلفظ **الهداية:**

1 حسب ما ذكر في كتاب: الدراسة التأصيلية للهدايات القرآنية. وقد تكون أكثر من ذلك، لكن هذه أشهرها.

أولا: الدلالة:

يقولون **تدل** هذه الآية على كذا، ودلت هذه الآية على كذا. من ذلك قول ابن العربي رحمه الله تعالى: في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ [الحجر: 24] (هذا يدل على فضل أول الوقت في الصلاة خاصة، وعلى فضل المبادرة إلى سائر الأعمال والمسارعة إليها عامة)(1)

ولفظ (**الدلالة**) هو نفسه الذي تعنيه كلمة (**الهداية**) في اللغة، والاصطلاح، كما قال الراغب رحمه الله في مفرداته: (الهداية: دلالة بلطف، ومنه الهدية)([2]) بل إن كل معاني الهداية ترجع إليه، كما مر في مبحث التعريف بالهدايات.

ثانياً: الإرشاد:

يقولون ترشد هذه الآية إلى كذا، وأرشدت هذه الآية إلى كذا. ومن ذلك: قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة: 85] والذي أرشدت إليه هذه الآية الكريمة، وهذا السياق، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة.(3)

ومصطلح (**الإرشاد**) هو مما تعنيه لفظة (الهداية) قال الجوهري: (الهُدى: الرشاد والدلالة، يؤنث ويذكر، يقال: هداه الله للدين هدىً، والهدى في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة: 26] أي لم يبين لهم، والهِداء مصدر قولك: هديت المرأة إلى زوجها هَداءً وقد هُدِيت إليه، ويقال: هَدَى هَدْيَ فلان أي سار سيرته، وفي الحديث: ((واهدوا هدْي عمَّار)) أي سيروا سيرته، والتَّهادي أن يُهْدِيَ بعضهم إلى بعض، وفي الحديث ((تَهَادُوا تَحَابُّوا))([4])

---

1 أحكام القرآن، 125/5

2 المفردات في غريب القرآن، مادة (هدى)

3 تفسير القرآن العظيم 395/1

4 الصحاح للجوهري، باب الواو والياء، مادة: (هدى) 6/ 2533.

ثالثاً: الفائدة:

يقولون تفيد هذه الآية كذا، وأفادت كذا. مثاله: قول الجصاص رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ [البقرة: 226] (ومما تفيد هذه الآية من الأحكام، ما استدل به منها محمد بن الحسن على امتناع جواز الكفارة قبل الحنث)([1])

و(**الفائدة**) جمعها فوائد. قال الزمخشري رحمه الله: (أفدت منه خيراً واستفدته. وفادت له من عندنا فائدة أي حصلت)([2])

والفائدة لها علاقة بلفظ الهداية، من حيث إنها ثمرتها ونتيجتها، فالفائدة هي ما يحصل ويستفاد من الخير، ويقتنص من جليل المعارف، ويستنبط من دقة الأحكام والحِكَم، ولا شك أن أصل كل خير، وعلم ومعرفة وحكمة، هو حصول الهداية واستفادتها.

وقد ألف ابن القيم رحمه الله كتاباً أسماه (**الفوائد**) وهو عبارة عن مجموعة من الحِكم والهدايات، والأسرار والأنوار المستنبطة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ولو سمّاه (**الهدايات**) لما خرج عن مضمون ومقصود ما ذُكر فيه.

رابعاً: البيان:

يقولون تبيّن هذه الآية كذا، وبيّنت هذه الآية كذا... مثال ذلك: قول الإمام الجصاص رحمه الله في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: 120] (قد بينت هذه الآية وجوب الخروج على أهل المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته إلا المعذورين، ومن أذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم في القعود؛ ولذلك ذم المنافقين الذين كانوا يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القعود في الآيات المتقدمة)([3])

---

1 أحكام القرآن، 2/ 54-55.

2 أساس البلاغة، 4434/2، مادة (ف ي د)

3 أحكام القرآن، 2/ 371

ولفظ (**البيان**) من الألفاظ التي دلت عليه كلمة (الهداية) قال ابن القيم: (الهداية هي البيان والدلالة ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة)(1) بمعنى أن البيان هو وسيلة الهداية وغايتها، فلا هداية بدون بيان، ولا بيان بدون الدلالة عليه، والاهتداء إليه. كما قال تعالى:﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [آل عمران: 138]

خامساً: الإشارة:

يقولون تشير هذه الآية إلى كذا، **وأشارت** هذه الآية لكذا.. ومن الأمثلة على ذلك: قول أبي حيان رحمه الله في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النساء: 103] وهذه الآية تشير إلى أن القضاء في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إنما هو قضاء صلاة الخوف.(2)

ولفظ: (**الإشارة**) يستعمل في التعبير عما يؤخذ من إشارة اللفظ لا من اللفظ عينه، عند فهم النصوص الشرعية، وإشارات الألفاظ باب من أبواب استنباط الهدايات القرآنية، وذلك لما تحمله الألفاظ القرآنية من الأسرار والهدايات في إشاراتها.

قال الإمام السّرخسي([3]) رحمه الله: (والثابت بالإشارة ما لم يكن السِّياق لأجله، لكنه يعلم بالتأمل في معنى اللفظ من غير زيادة فيه ولا نقصان، وبه تتم البلاغة ويظهر الإعجاز)([4])

وقال الإمام الغزالي رحمه الله: (ونعني به –أي ما يؤخذ من إشارة اللفظ– ما يتبع اللفظ من غير تجريد قصد إليه، فكما أن المتكلم قد يفهم بإشارته وحركته في أثناء كلامه ما لا يدل عليه نفس اللفظ فيسمى إشارة فكذلك قد يتبع اللفظ ما لم يقصد به ويبني عليه)([5])

---

1 فتح الباري، 211/1.

2 تفسير البحر المحيط، 357/3

3 محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي. فقيه أصولي حنفي. ينسب إلى سرخس؛ بلدة قديمة من بلاد خراسان. أخذ الفقه والأصول عن شمس الأئمة الحلواني. كان عالمًا عاملاً ناصحًا للحكام. سجنه الخاقان بسبب نصحه له. ولم يقعده السجن عن تعليم تلاميذه؛ فقد أملى كتاب المبسوط –وهو أكبر كتاب في الفقة الحنفي مطبوع في ثلاثين جزءاً– وهو سجين في الجبّ، كما أملى شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن. توفي: 483هـ (ينظر الجواهر المضية،3/ 78)

4 أصول السرخسي، 236/2

5 المستصفى من علم الأصول، لأبي حامد الغزالي،194/2

سادساً: الفهم:

يقولون يفهم من هذه الآية كذا، وفُهِم من قوله تعالى كذا.. ومن أمثلته قول الشنقيطي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ١٧٣﴾ [البقرة: 173] (فيفهم من الآية أن الباغي والعادي كلاهما متجانف لإثم، وهذا غاية ما يفهم منها)([1])

و(الفهم) درجة فوق العلم والفقه، فليس كل عالم فَهِماً، فالفهم أدق في استنطاق المعاني والأسرار باستخدام القرائن والسياقات الداخلية والخارجية للنص، مع صفاء القلب وطهارة النفس.

قال الحكيم الترمذي: (والفهم هو العارض الذي يعرض في القلب من النور، فإذا عرض انفتح بصر القلب فرأى صورة ذلك الشيء، فالانفتاح هو الفقه، والعارض هو الفهم)([2])

ولذلك لم ترد لفظة (الفهم) في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، في قصة تحكيم سليمان عليه السلام: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ٧٩﴾ [الأنبياء: 78] فالفهم عطاء رباني، وهبة إلهية زائدة على العلم المكتسب، يعطيها الله لِمَن صفا قلبه، وطهرت نفسه، وخلصت سريرته. ولذلك غالباً ما يعبر المفسرون بلفظة (الفهم) فيما يدق استنباطه والْتِقاطه من حِكَم وأسرار الآيات وهداياتها، كما سنرى في الدراسة التطبيقية عن شاء الله.

سابعاً: الأخذ:

يقولون يؤخذ من هذه الآية كذا، وأخذ من هذه الآية كذا.. مثاله: قول ابن عاشور رحمه الله: (يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ ٤٧﴾ [الكهف: 47] أن فناء العالم يكون بالزلازل)([3])

ولفظة (**الأخذ**) تعني: التناول، قال الرازي في مختاره: (أَخَذَ) تَنَاوَلَ وَبَابُهُ نَصَرَ)([4]) والمقصود بها في سياق تفسير الآيات ما تتناوله من هدايات: من هذا المعنى أو ذاك، ظاهراً كان أو خفياً.

---

1 أضواء البيان، للشنقيطي، 96/3

2 نوادر الأصول، الترميذي الحكيم ص77. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

3 التحرير والتنوير،43/1

4 مختار الصحاح، مادة (أ خ ذ)

وعلاقة (الأخذ) بالهدايات؛ أنَّ من معانيه: الاستخراج والاستنباط، فهو وسيلتها وسبب الوصول إليها تدبراً ومدارسةً.

وهناك ألفاظ أخرى يطلقها المفسرون في طرق تناولهم لتفسير الآيات واستخراج الهدايات، لكن لم يكثر استعمالها كهذه، ثم إن هذه هي التي لها علاقة بدلالة الهداية، ودلالة التعبير عن استنباطها.

القسم الأول

الهدايات القرآنية في سورة النور

من الآية (27) إلى آخر السورة

ويتكون من بابين

البـاب الأول

مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات سورة النور

ويتكون من فصليْن

الفصـــل الأول

اسم السورة، وفضلها، وأحوال نـزولها

وهـي المباحث التـي يتكون منها هذا الفصل:

المبحث الأول: اسم السورة

المبحث الثانـي: فضائل السورة

المبحث الثالث: أحوال نـزول السورة

المبحث الأول

اســم الســورة

تمهيد:

لا شك أن القرآن الكريم هو أعظمُ كتاب وأجلُّه وأشرفُه، لأنه كلام الله ووحيه، الدالُّ على عظمة منَزِّله، وعلى الطريق الموصل إليه، ومن هنا كثرت أسماؤه وأوصافه(1) للدلالة على مقاصده ووظائفه في مجال الهدايات، ثم تعددت سوره، لتحمل كل سورة منه اسماً ووصفاً دالاً على موضوعها ومضمونها، مبرزاً لشخصيتها ووحدتها، كاشفاً عن هدفها ومقصودها، ولا شك أن لذلك أيضاً علاقة بمجال هداياتها وأسرارها، ذلك أنه قد تقرَّرَ أن الأسماء قوالب للمعاني، وأنَّ بين الأسماء ومسمياتها من الارتباط والتناسب والقرابة ما لا يخطئه ناظر ومتدبر.

قال ابن القيم : (فلما كانت الأسماء قوالبَ للمعاني، ودالةً عليها، اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباطٌ وتناسبٌ، وألاّ يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي المحض، الذي لا تعلّق له بها، فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك، والواقع يشهد بخلافه، بل للأسماء تأثيرٌ في المسميات، وللمسميات تأثّر عن أسمائها في الحسن والقبح، والخفة والثقل، واللطافة والكثافة، كما قيل:

وَقَلَّمَا أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ = إِلاَّ وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لَقَبِه.

ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقرابة، ما بين قوالب الأشياء وحقائقها، وما بين الأرواح والأجسام، عَبَرَ العقل من كل منهما إلى الآخر)(2)

قلت: إذا كان هذا بين الأسماء ومسمياتها، وقوالب الأشياء وحقائقها عموماً، فكيف إذا تعلق الأمر بالقرآن الكريم وسوره، التي هي بلاغ الرسالات الإلهية، وألفاظ الهدايات الربانية.

ومن هنا بحث العلماء، ودرسوا قضية أسماء السور القرآنية، وعلاقتها بموضوعاتها ومقاصدها، والتناسب بين السور وموضوعاتها، وبين السور فيما بينها، سابقها ولاحقها.(3)

---

1 من ذلك: الفرقان، والكتاب، والذكر، والروح، والنور، والبصائر، وغيرها...

2 زاد المعاد في هدي خير العباد، 323/2،.324

3 منهم: برهان الدين البقاعي في كتابيْه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) و (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور)

وكان أول شيء وقفوا عنده في هذا السياق هو: قضية أسماء السور القرآنية، هل هي توقيفية أم اجتهادية؟

أسماء السور القرآنية توقيفية أم اجتهادية؟

ذهب جمهور العلماء على أن تسمية السور القرآنية هو أمر توقيفي، أي من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر من الوحي الإلهي.

قال الإمام الطبري: (لِسوَر القرآن أسماءٌ سمّاها بها رسول الله صلى الله عليه وسلم)(1)

وقال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: (ثبت أن جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار)(2)

ومن الأحاديث التي استند إليها العلماء في القول بتوقيفية أسماء السور، ما يلي:

الحديث الأول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ)(3)

ففي هذا الحديث الصحيح، التصريح بتسمية كل من سورة الفاتحة، وسورة البقرة.

الحديث الثاني: عن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا

1 جامع البيان عن تاويل القرآن، 100/1

2 الإتقان في علوم القرآن، 52/1

3 مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، حديث رقم: 1913

فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ)). قَالَ مُعَاوِيَةُ بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ..(1)

فهذا الحديث كما هو واضح وصريح، سمى فيه النبي صلى الله عليه وسلم سورتيْ: البقرة وآل عمران بالاسم.

الحديث الثالث: عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ))(2)

الحديث الرابع: فيه تسمية سورة الكهف، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ((مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ))(3)

الحديث الخامس :حَدِيثِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ القَارِيِّ، أَنَّهُمَا سَمِعَا عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، يَقُولُ: (سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَؤُهَا عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ، لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلاَةِ، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لَهُ: كَذَبْتَ فَوَاللَّهِ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُوَ أَقْرَأَنِي هَذِهِ السُّورَةَ، الَّتِي سَمِعْتُكَ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقُودُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا، وَإِنَّكَ أَقْرَأْتَنِي سُورَةَ الفُرْقَانِ، فَقَالَ: ((يَا هِشَامُ اقْرَأْهَا)) فَقَرَأَهَا القِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((هَكَذَا أُنْزِلَتْ)) ثُمَّ قَالَ: ((اقْرَأْ يَا عُمَرُ)) فَقَرَأْتُهَا الَّتِي أَقْرَأَنِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((هَكَذَا أُنْزِلَتْ)) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ))(4)

والشاهد من الحديث قول عمر رضي الله عنه: (يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا..) وهناك أحاديث عن سور أخرى.

---

1 مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث رقم: 804.

2 البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل وسورة البقرة، حديث رقم: 5009

3 مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة الكهف وآية الكرسي حديث رقم: 1919

4 البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب من لم ير بأساً أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وكذا رقم:5041

الحديث السادس: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّه قَدْ شِبْتَ. قَالَ: ((شَيَّبَتْنِي (هُودٌ) وَ(الْوَاقِعَةُ) (وَالْمُرْسَلَاتُ) وَ (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) و(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ))(1)

وبالجملة فإن أسماء سور القرآن منها ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم صراحة، كالفاتحة والبقرة، وآل عمران، والنساء، والكهف، والفرقان، وبعض من سور المفصل... وغيرها مما ذكرنا بعضه في هذه الأحاديث، ومنها ما ثبت عن الصحابة، كما ثبت عن ابن مسعود –مثلا– من حديث عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَزِيدَ بْنِ قَيْسٍ، قال: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالكَهْفِ، وَمَرْيَمَ، وَطه، وَالأَنْبِيَاءِ: ((إِنَّهُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي))(2) وغيره من الصحابة.

فاتفاق الصحابة رضي الله عنهم على هذه الأسماء وغيرها، يدل على أنها توقيفية من النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام الطاهر بن عاشور رحمه الله: (وأما أسماء السور فقد جُعلت لها من عهد نزول الوحي، والمقصود من تسميتها تيسير المراجعة والمذاكرة)([3])

وهناك أسماء إضافية لسُوَر من القرآن الكريم، (وردت عن بعض الصحابة رضي الله عنهم، أو التابعين، بحيث نجد لبعض السور أكثر من اسم، والظاهر من صنيعهم أنهم كانوا يراعون مضامين السور في تسميتها)(4) كما روى سَعِيد بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ التَّوْبَةِ، قَالَ: آلتَّوْبَة قَالَ: (بَلْ هِيَ الْفَاضِحَةُ مَا زَالَتْ تَنْزِلُ، وَمِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنْ لَا يَبْقَى مِنَّا أَحَدٌ، إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا)، قَالَ: قُلْتُ: سُورَةُ الْأَنْفَالِ، قَالَ: (تِلْكَ سُورَةُ بَدْرٍ) قَالَ: قُلْتُ: فَالْحَشْرُ قَالَ: (نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ)(5)

فهذه إذن وغيرها لا شك أنها اجتهادية، وقد توسع فيها بعض المفسرين، وقصدهم من ذلك إبراز ما تتحدث عنه السورة وتؤكده وتقرره بشكل أساسي حتى أصبح هو موضوعها وعنوانها.

---

1 الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الواقعة، حديث رقم: 3609، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم: 3723

2 البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن رقم 4994

3 التحرير والتنوير، 88/1.

4 الإتقان 1/ 193.

5 مسلم، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر. حديث رقم: 7743.

وقد تسمى السورة بأكثر من اسم، كحال سورة الفاتحة، التي بلغ بها الإمام السيوطي إلى نيف وعشرين اسماً، كما ذكر ذلك في كتابه الإتقان.(1)

علاقة أسماء السور بمضامينها ومقاصدها:

ولأسماء السور القرآنية وجه اختصاص بما سميت به، وذلك غالباً ما يكون بما تختص به السورة من خصائص وسمات، وتتميز به من مقاصد وأغراض، وأحكام وغايات.

قال الإمام البقاعي رحمه الله تعالى: (وقد ظهر لي أن اسم كل سورة مترجِم عن مقصودها، لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه..)(2)

وقال الإمام الزركشي رحمه الله تعالى: (ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم، أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز، كتسمية سورة البقرة لذكر قصة فيها، وتسمية سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من أحكام النساء)(3)

سبب تسمية (سورة النور) بهذا الاسم:

عُرفت هذه السورة بهذا الاسم (النّور) ولا يُعرف لها اسم آخر، وقد جاء ذكرها بهذا الاسم وانفرادها به في عدد من الأحاديث، من ذلك:

ما أخرجه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما –في قصة الملاعنة– قوله :(فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦﴾ [النور: 6](4)

1 ينظر الإتقان في علوم القرآن، 148/1.

2 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 1/ 11

3 البرهان في علوم القرآن، 340/1

4 مسلم، كتاب اللعان، باب اللعان، حديث رقم: 3819

وما أخرجه أحمد، وأبو داود، وصححه الحاكم، عن أمّ المؤمنين عائشة رضي االله عنها - تمدح نساء الأنصار-: ((لَمّا نَزَلَتْ سُورَةُ النُّورِ عَمَدْنَ إِلَى حُجَزِ أَوْ حُجُوزِ مَنَاطِقِهِنّ فَشَقَقْنَهُ ثُمّ اتّخَذْنَ مِنْهُ خُمُرًا))(1)

وسميت هذه السورة بسورة (**النور**) لذكر هذا الاسم الجليل الجميل فيها، في آية عجيبة عظيمة، في مَثَلٍ عظيم جليل جميل، -وتكرّر في هذه الآية ثلاث مرات- وهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ ٣٥ ﴾[النور: 35]

وذكر في المرة الرابعة في آية أخرى من السورة، وهي قوله تعالى: ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾[النور: 40]

ومن هنا كانت تسمية هذه السورة بهذا الاسم الجميل الجليل لما فيها من الأنوار الربانية العظيمة، والأسرار والحِكَم الإلهية الجميلة، التي تجلت في مقاصدها التشريعية، وآدابها التربوية، وأخلاقها الاجتماعية، فهي نور للفرد، ونور للأسرة، ونور للمجتمع، ونور للأمة في طريق السير إلى الله تعالى وتحقيق مرضاته، وذلك بما احتوت عليه من هدايات نورانية في شتى مجالات الحياة، فهي (نور على نور) فبنورها بدَّدَ الله ظلام الجهل الكثيف؛ ظلام الكذب، والبهتان، وظلام الكفر والنفاق، وظلام الاتهام والوقوع في الأعراض... وأنار بهداها طريق المسلمين، في عقيدتهم، وعباداتهم، وأخلاقهم، في نفوسهم وأسرهم ومجتمعهم.

1 أحمد، مسند الأنصار، باب حديث السيدة عائشة. وأبو داود في السنن، كتاب اللباس، باب في قوله تعالى: {يدنين عليهن من جلابيبهن} والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور، وقال: حديث صحيح.

ترتيبها وعدد آياتها:

أ- ترتيبها: فقد اختلف العلماء في ذلك على أقوال، أهمها:

الأول: أنّ سورة النور نزلت بعد سورة النصر وقبل سورة الحج، فيكون ترتيب النزول هكذا: (سورة النصر) ثمّ (سورة النور) ثمّ (سورة الحج) وهذا الرأي هو قول أكثر علماء التفسير اعتماداً على عدّة روايات بعضها حسن الإسناد.(1)

الثاني: أنّها نزلت بعد سورة الحشر وقبل سورة الحج، فيكون ترتيب النزول هكذا: (الحشر) ثمّ (النور) ثمّ (الحجّ) وقال بهذا الرأي ابن الجوزي والمحلّي رحمهما االله.(2)

الثالث: وهو أنّها نزلت بعد سورة (الحشر) وقبل سورة (المنافقون) فيكون ترتيب النزول هكذا: (الحشر) ثمّ (النّور) ثمّ (المنافقون) وهذا ما ذهب إليه الأستاذ دروزة في كتابه: التفسير الحديث، لكنه استدرك بعد هذا بقوله: (ولما كنا رجحنا نزول سورة الحشر قبل سورة الأحزاب وقدمناها عليها فقد صار ترتيبها بعد سورة البيّنة مباشرة على)(3)

والقول الأول هو الراجح عند أكثر العلماء.

ب- عدد آياتها: أما عدد آيات سورة النور فقد اختلف فيه، فهو في عدّ أهل مكة والمدينة اثنتان وستون آية، وفي عدّ البقية (الشام، الكوفة، البصرة) أربع وستون آية، وفي عد حمص، ثلاث وستون آية.

وسبب هذا الاختلاف هو أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يقف على رؤوس الآية تعليماً لأصحابه أنها رؤوس آية، حتى إذا علموا ذلك وصل الآية بما بعدها طلباً لتمام المعنى، فيظن بعض الناس أن ما وقف عليه النبي صلى الله عليه وسلم ليس فاصلة، فيصلها بما بعدها معتبراً أن الجميع

---

1 ينظر البرهان للزركشي،194/1.وبصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي:97/1-99. وقد نسب هذا الترتيب لكل من الماوردي والنيسابوري. الإمام السيوطي (في الإتقان،1/ 38-41 -77- 79)

2 فنون الأفنان، لابن الجوزي ص، 126. وتفسير الجلالين، محمد بن أحمد المحلي، (ت864/هـ)

3 التفسير الحديث، 8 /353

آية واحدة، والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها، وذلك سهل في القرآءة لأنه لا يترتب عليه في القرآن لا زيادة ولا نقص(1)

موضوع السورة ومحورها الرئيس:

أما المحور الذي تدور عليه السورة فهو محور (**التربية**) التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وترقى إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة، التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة، والهدف واحد في الشد واللين، هو تربية الضمائر واستجاشة المشاعر ورفع المقاييس الخلفية للحياة حتى تشق وتتصل بنور الله وتتداخل الآداب النفسية الفردية، وآداب البيت والأسرة، وآداب الجماعة والقيادة، بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله متصلة كلها بنور واحد هو نور الله سبحانه)(2) ولذلك عظّم الله إنزالها بتخصيصه بالذكر، ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا ۝١﴾ [النور: 1] رغم أنها داخلة في هذا الكل العظيم المترل وهو: القرآن العظيم، من الفاتحة إلى الناس، وذلك لما احتوت عليه هذه السورة من الآيات البينات المبصرات، في الأحكام والآداب الخاصة، والتي اقتضت أن يخصها كذلك بذكر الإنزال الخاص بعد الخاص ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ ﴾ رغم أنه داخل في الإنزال الأول: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا ﴾وذلك لما تمثله هذه الأحكام والآداب من سياج الحفظ، وتاج الكرامة والشرف، الذي يرقى بالمجتمع إلى مصاف عباد الله المكَرّمين.

1 ينظر مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني 1/ 380

2 في ظلال القرآن، سيد قطب، 18/ 2486

المبحث الثاني

فضـائل السـورة

لا شك أن لسورة النور فضائل عظيمة، ومنازل كريمة، دلت عليها -على العموم- موضوعاتها وقضاياها، وأهدافها، ومقاصدها، والتي ستكون محور الدراسة في فصول ومباحث قادمة من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

هذا وإن مطلع السورة وافتتاحها الفريد، يُشير إلى فضلها ومنزلتها، ومكانة ما تتضمّنه من أحكام بيِّنات، وحِكم هاديات، وآداب وهدايات، ومقاصد وأنوار مبصرات: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ [النور: 1]

قال سيّد قطب رحمه الله: (هذا مطلع فريد في القرآن كلّه، الجديد فيه كلمة: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ والمقصود بها -فيما نعلم- توكيد الأخذ بكلّ ما في السورة على درجة سواء، ففرْضيّة الآداب والأخلاق فيها كفرْضيّة الحدود والعقوبات)(1)

وفي هذه السورة أنس وشعور بالطمأنينة لأن المؤمن يرتاح للعفة والطهر، ويشمئز من الفحش وسوء الظن والاتهام.(2)

كما دل على فضائل هذه السورة -على الخصوص- ما ورد من أحاديث وآثار تدعو إلى الاهتمام بها، وتعلمها، وتعلم أحْكامِها وحِكَمها وآدابها، وهذه الأحاديث والآثار تتفاوت وتتباين في صحتها، وتدل بمجموعها على مدى اهتمام الصحابة والسلف الصالح بها، وسأذكر من هذه الآحاديث والآثار أهمها وأصحها:

أولاً: أخرج الحاكم في المستدرك عن المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أنّه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (تعلموا سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة المائدة، وسورة الحج، وسورة النور، فإنّ فيهنّ الفرائض)(1)

---

1 في ظلال القرآن، 2487/18

2 ينظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الشيخ وهبة الزحيلي، 119/18

ثانياً: أخرج سعيد بن منصور في السنن أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (تعلّموا سورة براءة، وعلّموا نساءكم سورة النور)(2)

ثالثاً: أخرج عبد الرزاق الصنعاني في المصنّف أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكتب إلى الآفاق: (لا تَدْخُلنّ امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ الحَمّامَ إِلاّ مَنْ سَقم، وَعَلِّمُوْا نِسَاءَكُم سُورَةَ النُّور)(3)

رابعاً: أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد –مرسلاً– أنّ رسول االله صلى الله عليه وسلم قال: ((عَلِّمُوْا رِجَالَكُمْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ، وَعَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّور))(4)

خامساً: أورد السيوطي في الدر المنثور: أنّ حَارِثَةَ بْنَ مُضَرِّبٍ(5) قال: (كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن تعلّموا سُوْرَةَ النِّسَاءِ والأَحْزَابِ والْنُّوْر) (6)

سادساً: قيام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في موسم الحج خطيباً في الحجيج بهذه السورة حيث جعل يقرأها ويفسرها على الحجيج آية آية، فعن شقيق قال: (..ثم خطب ابن عباس وهو على الموسم، فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسّر، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت)(7)

---

1 المستدرك على الصحيحين، 429/2كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور، حديث رقم:3493 وقال: حديث صحيح. وقد أقرّه الذهبي، (ينظر الذهبي، تلخيص المستدرك.)

2 السنن، كتاب التفسير، حديث رقم: 1003. وإسناده صحيح؛ فقد أخرجه سعيد بن منصور عن: هشيم وفضيل بن عياض وخالد بن عبد االله عن حصين بن عبد الرحمن عن أبي عطية الهمداني. وكلّ هؤلاء قد وثّقهم ابن حجر، ينظر: (تقريب التهذيب: 658، 170، 189، 448، 574 ،241.)

3 المصنّف، 295/1 باب الحمام للنساء، رقم: 1133وإسناده حسن. (ابن حجر: تقريب التهذيب)

4 شعب الإيمان، 469/2 فصل: فضائل السور والآيات، ذكر السبع الطوال، حديث رقم: 2428. وهو ضعيف، ففي إسناده خصيف بن عبد الرحمن الجزري أبو عون، ضعّفه أحمد، وذكره ابن حبان في المجروحين، والذهبي في الضعفاء وقال: تركه جماعة، واحتجّ به جماعة آخرون، وقال ابن حجر: صدوق سيء الحفظ. (ينظر المجروحين، لابن حبان. 287/1 وتقريب التهذيب، لابن حجر ص،193)

5 حارثة بن مضرِّب العبدي الكوفي، تابعي ثقة. (ينظر ترجمته في الإصابة، لابن حجر 162/2.)

6 الدر المنثور، 124/6.

7 المستدرك، الحاكم، 618/3 معرفة الصحابة، باب: ذكر عبد االله بن عباس، رقم: 6290وقد صححه، وأقرّه الذهبي. رقم: 6292 عن أبي وائل قال: (حججت أنا وصاحب لي وابن عباس على الحجّ، فجعل يقرأ سورة النور ويفسّرها، فقال صاحبي ياسبحان االله ماذا يخرج من رأس هذا الرجل لو سمعت هذا الترك لأسلمت) قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد.

فهذه الآثار والآحاديث تدل على ما لهذه السورة الكريمة من منزلة كريمة، ومكانة عظيمة عند الصحابة وسلفنا الصالح رضي الله عنهم، وذلك لما احتوت عليه من أسرار ربانية، وأنوار إلهية، وهدايات إيمانية، ترشد الفرد، والأسرة، والمجتمع، إلى سعادة الدنيا والآخرة، وتحصن المجتمع المسلم من كل نوازع الشر والفساد؛ ومن جميع دسائس ووساوس النفس والشيطان والهوى، وتبنيه على دعائم من الحصانة والنظافة.

المبحث الثالث

أحوال نزول السورة

أولا: نوعها ومكان نزولها:

سورة النور من السور المدنية، كما تفصح عن ذلك طبيعة موضوعاتها التشريعية المفصلة، والدقيقة، ودروسها التربوية العميقة، فيما يخص أخلاق الأسرة، والمجتمع، وعلاقة كل منهما بالآخر، وضوابط هذه العلاقة، وحدودها، وشروطها، وأحكامها وآدابها، وقد أجمع المفسرون على ذلك، وأن جميع آياتها مدنية.

قال الطاهر ابن عاشور: (سورة النور مدنيّة باتّفاق أهل العلم، وقد وقع في نسخ تفسير القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ [النور:58] في المسألة الرابعة من تفسيره للآية كلمة (وهي مكيّة) أي الآية، فنسب بعض المفسّرين إلى القرطبي أنّ تلك الآية مكيّة، مع أنّ سبب نزولها الذي ذكره القرطبي صريح في أنّها نزلت بالمدينة؛ حيث روى أنّ رسول االله صلى الله عليه وسلم بعث غلاماً من الأنصار، يُقال له مُدْلج بن عمرو([1]) إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه، فوجده نائماً قد أغلق عليه الباب، فدقّ عليه الغلام الباب فناداه ودخل، فاستيقظ عمر رضي الله عنه وجلس فانكشف منه شيء، فقال عمر رضي الله عنه: (وَددت أنّ االله تعالى نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول إلينا في هذه الساعات إلاّ بإذن، ثم انطلق إلى رسول االله صلى االله عليه وسلم فوجد هذه الآية قد أُنزلت، فخرّ ساجداً شكراً لله تعالى)([2])

ثمّ إنّ القرطبي نفسه يقول في أوّل تفسير السورة: (وهي مدنيّة بالإجماع، فلعلّ تحريفاً طرأ على النسخ من تفسير القرطبي، وأنّ صواب الكلمة: (وهي محكمة) أي غير منسوخ حكمها، خاصّة وأنّ الكلمة جاءت بعد سياق ردّه على القول بأنّ الآية منسوخة. ويؤيّد ما قلنا أنّ هذه العبارة موجودة في تفسير ابن عطيّة حيث يقول: (وهذه الآية محكمة، قال ابن عبّاس: تركها

---

1 مدلج بن عمرو السلمي حليف بني عبد شمس، صحابي شهد جميع المشاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم، (توفي سنة 50 للهجرة) (ينظر ترجمته عند ابن عبد البر، ت463/هـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب.)

2 معالم التنزيل، البغوي، 355/3. وزاد المسير، لابن الجوزي 373/5.والجامع لأحكام القرآن، القرطبي 304/12. وإرشاد العقل السليم، أبو السعود، 6 /193.

الناس) ومن المعلوم أنّ القرطبيّ ينقل كثيراً عن تفسير ابن عطيّة([1]) ونخلص من هذا وغيره؛ إلى أن سورة النور سورة مدنية، وهو ما اتفق عليه أهل العلم، وأجمع عليه المفسرون.

ثانياً: الجو العام لتاريخ ووقت نزول سورة النور:

إن الذي ثبت حول نزول سورة النور أنها لم تَنْزل دفعة واحدة، بل نزلت نجوماً مفرقة، وفي أوقات مختلفة، حسب الحوادث والموضوعات التي تعالجها السورة، والتي كانت سبباً في نزول آياتها وأحكامها، ويتبين ذلك من خلال أحكام الآيات الآتية:

- **قوله تعالى:** ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾ [النور: 3]

فقد أخرج الترمذي وأبو داود والنَّسَائي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال: كان رجل يُقال له مرثد(2) بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بغيٌ بمكة يُقال لها عناق، وكانت صديقة له، وأنه كان وعد رجلاً من أَسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي بجنب الحائط فلما انتهت إليَّ عرفت، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً هَلُمَّ فبت عندنا الليلة. قال: قلت: يا عناقُ حرم اللَّه الزنا، قالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أُسراءَكم، قال: فتبعني ثمانية، وسلكت الخندمة فانتهيت إلى كهف أو غار فدخلت، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا فظل بولهم على رأسي، وعماهم اللَّه عني، قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككتُ عنه أكبُلَه فجعلت أحمله ويعينني حتى قدمت المدينة فأتيت رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقلت: يا رسول اللَّه أنكح عناقاً؟ مرتين، فأمسك رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يردَّ عليَّ شيئاً حتى نزلت: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ

1 تفسير التحرير والتنوير، 139/18.

2 مرثد بن أبي مرثد، بن الحصين الغنوي، واسمه كناز، يرجع نسبه إلى قبيلة بني غنى، ولد بمكة، ودخل الإسلام وهو صغير، صحابي هو وأبوه، وكانا حليفين لحمزة بْن عبد المطلب، آخى رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبين أوس بْن الصامت أخي عبادة بن الصامت، شهد مرثد وأبوه جميعا بدراً وأُحداً، وقتل يَوْم الرجيع شهيداً، فِي صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من مهاجر رَسُول اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم إلى المدينة. (ينظر الاستيعاب، 1383/3)

إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ ﴿٣﴾ فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يا مرثد؛ الزاني لا ينكح إلا زانيةً أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك فلا تنكحها))(1)

فهذا الصحابي مرثد بن أبي مرثد رضي الله عنه استشهد في شهر صفر من السنة الثالثة، في حادثة الرجيع،(2) فيكون نزول أوائل سورة النور قبل ثلاث سنوات من هذا التاريخ، والأقرب ما ذكره الطاهر بن عاشور أن ذلك كان في أواخر السنة الأولى أيام كان المسلمون يتلاحقون للهجرة وكان المشركون جعلوهم كالأسرى.(3)

- **قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦﴾ [النور: 6] إلى آخر الآيات

عن سهل بن سعد(4) -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن عويمراً العجلانيَّ(5) جاء إلى عاصم بن عدي الأنصاري فقال له: يا عاصم، أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه، أم كيف يفعل؟ سل لي يا عاصم عن ذلك رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسأل عاصم عن ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكره رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسائل وعابها، حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما رجع عاصمٌ إلى أهله، جاءه عويمر فقال: يا عاصم، ماذا قال لك رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال عاصم: لم تأتني بخير، قد كره رسول

---

1 الترميذي، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور، حديث رقم: 3177، وأبو داود كتاب النكاح، بَابٌ فِي قَوْلِه تَعَالَى: {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً} حديث رقم: 2051. والنسائي، كتاب النكاح، باب تزويج الزانية، حديث رقم: 3228.

2 السيرة النبويّة، ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، ت213/هـ تحقيق: طه عبد الرؤوف، والطبقات الكبرى، 48/3 لابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري، ت230/هـ

3 التحرير والتنوير18/ 139.

4 سهل ابن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة، الإمام، الفاضل، المعمر بقية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو العباس الخزرجي الأنصاري الساعدي، وكان أبوه من الصحابة الذين توفوا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. كان سهل يقول: (شهدت المتلاعنين عند رسول الله وأنا ابن خمس عشرة سنة) روى سهل عدة أحاديث، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة. وكان من أبناء المائة، ذكر عدد كبير وفاته في سنة إحدى وتسعين. (ينظر سير أعلام النبلاء، 423،422/3)

5 صاحب اللعان، قال الطبري: عويمر بْن الْحَارِث بْن زَيْد بن حارثة بن الجلد العجلاني، هو الذي رمى زوجته بشريك بْن سحماء، فلاعن رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهما، وذلك فِي شعبان سنة تسعٍ من الهجرة، وَكَانَ قدم تبوك فوجدها حبلى، ثُمَّ قَالَ بعد ذَلِكَ: وعاش ذَلِكَ المولود سنتين ثُمَّ مات، وعاشت أمّه بعده يسيرا. (ينظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، 1226/3)

اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسألة التي سألته عنها، قال عويمر: واللَّه لا أَنتهي حتى أسأله عنها، فأقبل عويمر حتى أتى رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسط الناس، فقال: يا رسول اللَّه أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه، أم كيف يفعل؟ فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((قد أنزل اللَّه فيك وفي صاحبتك فاذهب، فَأْتِي بها)) قال سهل: (فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما فرغا قال عويمر: كذبت عليها يا رسول اللَّه إن أمسكتها، فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال ابن شهاب فكانت سنةَ المتلاعنيْن)(1)

- وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أنه قال: ذُكر التلاعن عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال عاصم بن عدي في ذلك قولاً، ثم انصرف فأتاه رجل من قومه يشكو إليه أنه قد وجد مع امرأته رجلاً، فقال عاصم: مما ابتليتُ بهذا إلا لقولي، فذهب به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بالذي وجد عليه امرأته، وكان ذلك الرجل مصفرًّا، قليل اللحم، سَبْطَ الشعر، وكان الذي ادعى عليه أنه وجده عند أهله خَدْلاً آدم كثير اللحم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اللهم بيِّن)) فجاءت شبيها بالرجل الذي ذكر زوجها أنه وجده، فلاعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهما. قال رجل لابن عبَّاسٍ في المجلس: هي التي قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لو رجمتُ أحدًا بغير بينة رجمتُ هذه)) فقال: لا تلك امرأة كانت تظهر في الإسلام السوء))(2)

- وأخرج مسلم عن عبد اللَّه بن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أنه سئل عن المتلاعنين أيفرق بينهما؟ قال: سبحان اللَّه. نعم إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان. قال: يا رسول اللَّه أرأيت أن لو وجد أحدنا امرأته على فاحشة كيف يصنع؟ إن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك. قال: فسكت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يجبه. فلما كان بعد ذلك أتاه فقال: إن الذي سألتك عنه قد ابتليتُ به. فأنزل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ هؤلاء الآيات في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ...﴾ فتلاهن عليه ووعظه وذكَّره وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب

---

1 البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} حديث رقم: 4745. ومسلم كتاب اللعان، باب اللعان حديث رقم: 3816.

2 البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين} حديث رقم: 4748. ومسلم كتاب اللعان، باب اللعان، حديث رقم: 3833.

الآخرة، قال: لا والذي بعثك بالحق ما كذبتُ عليها، ثم دعاها فوعظها وذكرها وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. قالت: لا والذي بعثك بالحق إنه لكاذب، فبدأ بالرجل فشهد أربع شهادات باللَّه إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة اللَّه عليه إن كان من الكاذبين. ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات باللَّه إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب اللَّه عليها إن كان من الصادقين. ثم فرق بينهما.(1)

وفي رواية للبخاري ومسلم عنه –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال: فرّق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أخويْ بني العجلان وقال: ((اللَّه يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب)) فأبيا، فقال: ((اللَّه يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب)) فأبيا فقال: ((اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ، فَأَبَيَا، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا))(2)

وأخرج البخاري عن ابن عبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– : أن هلال بن أُمية قذف امرأته عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بشريك بن سحماء فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ)) فقال: يا رسول اللَّه، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((الْبَيِّنَةُ وَإِلاَّ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ)) فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فليترلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فترل جبريل وأنزل عليه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ ﴾ [النور:6- 9] فانصرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب)) ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة)(3)

قال ابن عبَّاسٍ: (فتلكأت ونكصت، حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ

---

1 مسلم كتاب اللعان، باب اللعان، حديث رقم: 3819.

2 البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين} حديث رقم: 4748. ومسلم كتاب اللعان، باب اللعان، حديث رقم: 3822.

3 البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله...} حديث رقم: 4747.

الإليتين، خدلَّجَ الساقين، فهو لشريك بن سحماء)) فجاءت به كذلك، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((لولا ما مضى من كتاب اللَّه لكان لي ولها شأن))(1)

فهذه الروايات تؤكد أن هذه الآيات نزلت في هلال بن أمية، وعويمر العجلاني، ولا مانع كما ذكر العلماء من أن يكون للآية الواحدة عدة أسباب. (وفي التحقيق أنهما قصتان حدثتا في وقت واحد أو متقارب،(2) والراجح أن هذه الحادثة كانت في أواخر السنة التاسعة للهجرة بعد القفول من غزوة تبوك، وقد عرفت تلك السنة عند المؤرخين بسنة الملاعنة)(3)

- **قوله تعالى:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ ﴿١١﴾ ﴾ [النور:11] إلى آخر الآيات.

عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: (كان رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي، فخرجت مع رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدما نزل الحجاب فأنا أُحمل في هودجي وأُنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول اللَّه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي من جَزْع ظَفَار قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه. وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلهن اللحم، إنما تأكل العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها دلّ ولا مجيب، فأممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ. فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين

---

1 البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى {ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله...} حديث رقم: 4747.

2 ذهب الزرقاني رحمه الله في تحقيقه للمسألة بأنّ الآيات نزلت في هلال أوّلاً، ثمّ جاء عويمر فأفتاه الرسول صلى الله عليه وسلم بالآيات التي نزلت في هلال... (ينظر: الزرقاني: مناهل العرفان، 1/ 85)

3 تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، 2/29الإمام السيوطي، (ت911/هـ)

رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد اللَّه بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يَرِيبُنِي في وجعي أني لا أعرف من رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي. إنما يدخل عليَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسلم ثم يقول: ((كيف تيكم)) ثم ينصرف، فذاك الذي يريبني ولا أشعر، حتى خرجت بعدما نقهت، فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع، وهو متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا. فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة، فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً. قالت: أي هنتاه، أو لم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -تعني- سلم ثم قال: ((كيف تيكم)) فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن لي رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فواللَّه لقلما كانت امرأة قط وضيئة، عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان اللَّه، ولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي، فدعا رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فأشار على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود. فقال: يا رسول اللَّه، أهلك وما نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول اللَّه لم يضيق اللَّه عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بريرة فقال: ((أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟)) قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستغدر يومئذ من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على المنبر: ((يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي)) فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويومًا، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع، يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي. قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني. قالت: فتشهد رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين جلس، ثم قال: ((أما بعد، يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك اللَّه، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري اللَّه وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى اللَّه تاب اللَّه عليه)) قالت: فلما قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالته قلص دمعي، حتى ما أحسن منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما قال: قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت لأمي: أجيبي رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قالت: ما أدري ما أقول لرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قالت: فقلت، وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني واللَّه لقد علمت: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، واللَّه يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، واللَّه يعلم أني منه بريئة لتصدقني، واللَّه ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف قال: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ). قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي. قالت: وأنا حينئذٍ أعلم أني بريئة، وأن اللَّه مبرئي ببراءتي، ولكن واللَّه ما كنت أظن أن اللَّه مترل

في شأني وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم اللَّه فيَّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوم رؤيا يبرئني اللَّه بها. قالت: فواللَّه ما رام رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي يترل عليه. قالت: فلما سري عن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سري عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: ((ياعائشة، أما اللَّه -عَزَّ وَجَلَّ- فقد برأك)) فقالت أمي: قومي إليه، قالت: فقلت: واللَّه لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنزل اللَّه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ... ﴿١١﴾ ﴾ العشر الآيات كلها)(1)

فهذه الآيات كما هو واضح نزلت في شأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين رماها أهل الإفك والنفاق بما تَقَوَّلُوا عليها من الكذب والبهتان، وقد كان ذلك كما صحت الروايات واتفقت بعد الرجوع من غزوة بني المصطلق، وقد كان ذلك في شعبان من السنة السادسة للهجرة على الأرجح.(2)

- **قوله تعالى:** ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور:22]

- روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله مما قالوا، فقال أبو بكر الصديق، -وكان ينفق على مسطح لقرابته منه- (واللَّه لا أُنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الآية. قال أبو بكر: (بلى والله إني لأُحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أَنزعها عنه أبداً)(3)

---

1 البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ، بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} حديث رقم: 4750. ومسلم كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، حديث رقم: 7196.

2 السيرة النبويّة، 252/4. لابن هشام، وتاريخ الأمم والملوك، للطبري، (ت310/هـ) 2/ 108. وفتح الباري، لابن حجر، 471/8-472.

3 البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ، بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} حديث رقم: 4750. ومسلم كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، حديث رقم: 2770.

وهذه الآية نزلت بعد آيات الإفك مباشرة كما يفيد ذلك حديث عائشة رضي الله عنها في البخاري، بل قد ذكرها البخاري في قصة واحدة -قصة الإفك- مع آيات الإفك، ولم يفصل بينهما.

- **قوله تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾ [النور: 27]

روى الطبري وغيره عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: (يارسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل عليّ، وإنه لا يزال يدخل على رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال فكيف أصنع؟ فنزلت الآية. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يارسول الله أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام؟ ليس فيها ساكن، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ ٢٩ ﴾ [النور29](1)

وسياق هذه الآية وموضوعها ومفهومها يوضح أنها نزلت بعد آيات الحجاب. وأنها متأخرة النزول، والدليل على ذلك أن مفهوم هذا الحكم وتطبيقه لم يكن معروفاً عند بعض الصحابة كعمر رضي الله عنه الذي هو أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما في قصته مع عبد الله بن أنيس، فعن أبي سعيد الخدري قال: سلم عبد الله بن قيس على عمر بن الخطاب ثلاث مرات فلم يأذن له فرجع فأرسل عمر في أثره فقال: لم رجعت؟ قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إذا سلم أحدكم ثلاثاً فلم يجب فليرجع)). قال عمر: لتأتين على ما تقول ببينة وإلا لأفعلن بك كذا وكذا غير أنه قد أوعده، قال: فجاء أبو موسى الأشعري ممتقعًا لونه وأنا في حلقة جالس، فقلنا: ما شأنك؟ فقال: سلمت على عمر، فأخبرنا خبره، فهل سمع أحد منكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: نعم كلنا قد سمعه، قال فأرسلوا معه رجلا منهم حتى أتى عمر فأخبره بذلك. ورواه بسر بن سعيد عن أبي سعيد الخدري، وفيه: قال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاَثاً فَلَمْ يُؤْذَن لَهُ فَلْيَرْجِعْ))(2)

---

1 جامع البيان في تأويل القرآن، 111/18. وأسباب النزول للواحدي، 186. ولباب النقول للسيوطي، 158/1.

2 أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان، باب: التسليم والاستئذان ثلاثاً، حديث رقم: 6245. ومسلم كتاب الآداب، باب الاستئذان حديث رقم: (2135).

- **قوله تعالى**: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النور33]

أخرج مسلم عن جابر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال: (إن جارية لعبد اللُّه بن أبى ابن سلول يُقال لها مسيكة. وأخرى يُقال لها أُميمة فكان يكرههما على الزنا. فشكتا ذلك إلى النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فأنزل اللَّه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾إلى قوله: ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وفي لفظ آخر لمسلم عنه –رضي الله عنه– قال: كان عبد اللُّه بن أُبي ابنُ سلول يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً فأنزل الله –عزَّ وجلَّ–: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾(1)

والراجح أن هذه الآية نزلت في أواخر السنة الثانية للهجرة، بعد غزوة بدر الكبرى. فقد رُوي أنّ رجلاً من قريش أُسِرَ يوم بدر وكان ابن أُبَي بن سلول أسَره، فكان الأسير القرشي يريد جارية لابن أُبَي على نفسها وكانت مسلمةً تمتنع منه لإسلامها، وكان ابن أُبَي يُكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل من القرشي فيطلب فداء ولده، فَشَكَتْ ذلك فأنزل االله تعالى قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

- **قوله تعالى**: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النور62-64] إلى نهاية السورة.

جاء في سبب نزولها: أنّه لّما أقبلت قريش عام الأحزاب، وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون في حفرالخندق، أبطأ رجال من المنافقين وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير علم من رسول االله صلى الله عليه وسلم ولا إذن، فأنزل االله تعالى هذه الآيات. ومن المعلوم أن الراجح عند أهل السير، أن هذه الغزوة كانت في السنة الخامسة للهجرة.(2)

1 مسلم كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء} حديث رقم: 7738.

2 ينظر: أحكام القرآن لابن العربي، 1410/3، والمحرر الوجيز لابن عطية، 197/4 وزاد المعاد لابن القيم، 269/3

وهكذا يتبين لنا من هذه خلال هذه المسائل ووقائعها، أن نزول سورة النور كان منجماً ومفرقاً خلال مدةِ: ما بين السنة الثانية، أو أواخر السنة الأولى، والسنة التاسعة للهجرة النبوية، بما يقارب ثمانية أعوام.

هذا ويحتمل أن يكون بعض فصول هذه السورة نزلت قبل بعض فصول في سور متقدمة عليها في الترتيب، حيث روي أن وقعة المريسيع مع بني المصطلق التي كان حديث الإفك في مناسبتها وقعت قبل وقعة الخندق، مع أن وقعة الخندق، أو الأحزاب ذكرت في سورة الأحزاب.(1)

1 ينظر طبقات ابن سعد، 3/ 104- 108، والتفسير الحديث، 8/ 352

الفصـــل الثـــاني

معاني السورة ومقاصدها

المبحث الأول: مقاصد السورة العامة

المبحث الثاني: معاني مفردات السورة من الآية (27) إلى آخر السورة

المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هدايات السورة

المبحث الأول

مقاصد السورة العامة

تمهيد: حول تعريف المقاصد.

لغة: المقاصد: جمع مقصد، وهو مصدر ميمي لـــ: (قصد)

والقصد: استقامة الطريق. وقصد يقصد قصداً، فهو قاصد. و قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ ۞ ﴾ [النحل: 9] أي على الله تبيين الطريق المستقيم، و الدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة... وطريق قاصد: سهل مستقيم... والقصد: العدل، وفي الحديث الصحيح: ((الْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا))([1]) أي عليكم بالقصد من الأمور في القول و الفعل.. والقصد: الاعتماد والأم، وأصل هذه المادة: التوجه والنهوض نحو الشيء.([2])

والمعنى نفسه أورده الفيروزآبادي([3]) في قاموسه المحيط([4]) وكذلك الرازي في مختار الصحاح.([5])

وإذا كان القرآن الكريم، من حيث هو رسالة ربانية قائمة على إثبات مقاصد معينة،([6]) لتكون هي أساس وظيفته التي نزل من أجل تحقيقها في هذه الحياة، فلا شك أن يكون لكل سورة منه مقصد عام معين، إذ السورة القرآنية وِحدة موضوعية، لها سماتها وشخصيتها وموضوعاتها الرئيسة، التي تعالجها وتدور حولها، لتحقيق هذا المقصد العام المحدد والمعين؛ ف(مقصد السورة

---

1 البخاري، كتاب الرقاق، بَابُ القَصْدِ وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى العَمَلِ، حديث رقم 6463 والحديث بتمامه هو: ((لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ)) قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا))

2 لسان العرب، مادة (ق ص د)

3 محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي، عالم لغويّ نحويّ. ولد سنة: 729 بمدينة كارزين، جنوبي شيراز، انتقل إلى الشام، وسمع من ابن قيم الجوزية، وتقي الدين أبي الحسن السبكي الكبير، توفي بزبيد باليمن سنة 817هـــ، من أشهر مؤلفاته: القاموس المحيط. (الأعلام للزركلي، 146/7. وشذرات الذهب في أخبار من ذهب 186/9)

4 القاموس المحيط، مادة (قصد)

5 مختار الصحاح مادة (ق ص د)

6 مر معنا تعريف "مقاصد القرآن" وأنواع هذه المقاصد والهدف منها.

ليس هو موضوعات السورة، فالسورة قد تتطرق لعدة مواضيع -كالعقائد والتوحيد، والصلاة، والبعث والجزاء، والجنة والنار...- وأما المقصد فهو: الموضوع الأكبر الجامع لكل هذه الموضوعات)([1])

قال محمد عبد الله دراز([2]) رحمه الله: (إنّك لتقرأ السورة الطويلة المنجّمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حُشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جُمعت عفواً، فإذا هي لو تدبّرت بنيةٌ متماسكةٌ قد بُنيت من المقاصد الكليّة على أُسُس وأصول، وأقيم على كلّ أصل منها شعبٌ وفصول، لتلتقي كلّها حول معانٍ تتسق فيما بينها كما تتسق الحجرات في البنيان، وتلتحم ببعضها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، وتؤدّي بمجموعها غرضاً خاصّاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضويّة)([3])

علْم مقاصد السور:

يعتبر علم مقاصد السور من العلوم الجليلة التي لها تعلق بالقرآن الكريم وتدبره، وذلك لما له من دور عظيم في بيان وتحقيق الغاية والمقصد من نزول القرآن الكريم، ألا وهو: الاهتداء بهديه، من خلال تدبره، والذي يعني فيما يعنيه؛ النظر إلى مقاصده وما تهدي إليه، فهناك علاقة وطيدة، وصلة وثيقة، بين مقاصد القرآن ومقاصد سوره؛ وبين تدبره واستخراج هداياته، وقد كان هذا العلم حاضراً عند علمائنا السابقين، وهم يفسرون كلام الله تعالى، وإن لم يسموه بهذا الاسم، كما قال الزجاج رحمه الله عند حديثه عن سورة الأنعام: (وإن أكثرها احتجاج على مشركي العرب، على من كذب بالبعث والنشور)([4]) فهذه إشارة واضحة منه إلى مقصد السورة.

---

1 علم مقاصد السور وأثره في تدبر القرآن الكريم، 46: عبد المحسن المطيري.

2 محمد بن عبد الله دراز العالم الأزهري الفقيه والأديب، من هيئة كبار العلماء بالأزهر وُلد في قرية محلة دياي، بمحافظة كفر الشيخ سنة 1312 هـ - 1894 م. نشأ في بيت علم وصلاح، فوالده الشيخ عبد اللّه دراز-شيخ علماء دمياط- هو صاحب الشرح على الموافقات للشاطبي. حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة. عُرف من صغره بالفطنة والذكاء والتفوق، كما عُرف بحسن الخُلُق في الحديث والحلم والتواضع، كان رحمه الله يقرأ سُدس القرآن يومياً، مواظباً على ذلك. تُوفي رحمه الله في باكستان أثناء حضوره المؤتمر الإسلامي في يناير سنة 1958م من أشهر مؤلفاته: النبأ العظيم، ودستور الأخلاق في القرآن. (ينظر: من أعلام الفكر المعاصر: محمد عبد الله دراز، بحث منشور بشبكة الألوكة لرجب عبد المنصف تاريخ النشر: 28/9/2011م 1432/11/1 هـ)

3 النبأ العظيم، ص، 155

4 معاني القرآن وإعرابه، 2/ 227

والشيء نفسه يقال عن الإمام الرازي في حديثه عن السورة نفسها -سورة الأنعام- فقد قال رحمه الله تعالى: (فهذه السورة مشتملة على دلائل التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، وإبطال مذهب المبطلين والملحدين)([1])

بل لقد ورد ذكر لكلمة (مقصد) عند بعض المفسرين في حديثهم عن السورة وما تدور حوله السورة، كما قال الإمام القرطبي([2]) رحمه الله تعالى-مثلاً- في تفسيره عن سورة النور: (مقصود هذه السورة: ذكر أحكام العفاف والستر)([3])

وكما فعل الإمام الغرناطي([4]) أيضاً في حديثه عن سورة القمر: (سورة القمر بأسرها، مقصودها: تذكير كفار العرب من قريش بغيرهم، بما أنزل بمن تقدمهم من مكذبي الأمم)([5])

ويعد الإمام البقاعي رحمه الله تعالى أول من تنبه لأهمية هذا العلم، في التعامل مع القرآن الكريم وسوره، لاستنباط أغراضها ومقاصدها، والوقوف على معانيها ومضمونها، فأفرده بالتأليف في كتابه: (**مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**) وقد قال رحمه الله في مقدمة كتابه هذا: (فإن كل سورة لها مقصد واحد، يُدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها...)

وقال رحمه الله -في تعريف علم مقاصد السور-:(علم يعرف منه مقاصد السور، وموضوعه آيات السور، كل سورة على حيالها)([6])

---

1 مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، 12/ 471

2 هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي شمس الدين القرطبي، ولد بقرطبة أوائل القرن السابع الهجري (ما بين 600و610هـ وعاش بها ثم انتقل إلى مصر وتوفي بها سنة (671هـ) وهو فقيه مفسر، من أشهر مؤلفاته: (الجامع لأحكام القرآن) و(التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة) (طبقات المفسرين للسيوطي، ص، 92)

3 الجامع لأحكام القرآن، 158/12

4 هو أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الأندلسي الغرناطي ولد يوم التاسع من ربيع الثاني عام 693 هـ بغرناطة، فقيه، أصولي، مفسر، مات شهيداً في معركة طريف الشهيرة التي دارت رحاها بالأندلس في جمادى الأولى سنة (741هـ) من أشهر مؤلفاته: (التسهيل لعلوم التنزيل) و(القوانين الفقهية) (ينظر الأعلام للزركلي، 325/5)

5 ملاك التأويل، 460/2

6 مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 1/ 155

تعريف مقاصد السورة أو السور:

وبناء على ما تقدم فمقاصد السورة، أو السور هي: محاورها الأساسية، ومعانيها الرئيسة، التي تعالجها وتدور حولها من خلال أساليب متعددة([1]) ومواضيع متنوعة([2]) للوصول إلى الغرض الأكبر، والمقصد العام الجامع لكل هذه الموضوعات والمعاني.

يقول صاحب الظلال: (يلحظ من يعيش في ظلال القرآن، أن لكل سورة من سوره، شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حيٍّ مُمَيَّز الملامح والسمات والأنفاس! ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص، يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو)([3])

فهناك إذن مقاصد أساسية للسورة، ويمكن أن تسمى بالمحاور، أو غيرها من الأسماء، بحيث تدور كل معاني السورة الكلية والجزئية حولها. وهناك المقصد العام للسورة الجامع لهذه المقاصد والمحاور.

المقصد العام للسورة

وبناء عليه يمكن تعريف المقصد العام للسورة بأنه هو: موضوعها الرئيسي الجامع والكلي، والذي ترجع إليه كل معانيها ومضامينها، وموضوعاتها التفصيلية، (فإليه مجرى الكلام، وهو المحصول والمقصود منه، فليس من أجزائه الترتيبية، ولكنه يسري فيه كالروح والسر، والكلام شرحه وتفصيله، وإنتاجه وتعليله)([4])

وهكذا فإن لكل سورة موضوعاً يشكّل محورها الذي تلتفّ حوله كل أطرافها، ولعل في تسميتها بالسورة ما يشير إلى هذه الإحاطة بغرضها وفكرتها المحورية.([5])

---

1 مما يتعلق بطبيعة الأساليب وطرق البيان المستعملة، لغوياً وبلاغياً، وكذا ترغيباً وترهيباً، وقصاً وتمثيلا ...

2 عقدية وخلقية وتعبدية وغيرها ...

3 في ظلال القرآن، 1/ 27، 28.

4 دلائل النظام، عبد الحميد الفراهدي الهندي، 73

5 ينظر الوحدة الموضوعية في القرآن 40-42 أحمد أبو زيد. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط. مطبعة النجاح، الدار البيضاء ط: 1. 1992

ومما تجدر الإشارة إليه أن طريقة استخراج المقصد العام لكل سورة مسألة اجتهادية، إلا إذا كان منطوقاً وظاهراً ومصرحاً به، لكن المتفق عليه، أن لكل سورة مقصدها الجامع العام، وكلما أحكم المتدبر النظر في آيات السورة، واستجمع معانيها، وربط بين أجزائها وفصولها، كلما كان استنباطه للمقصد وذكره له؛ معبراً وقاصداً وجامعاً لمعاني السورة، ومحققاً لغرضها الأساسي والأصلي.

وعلى هذا فقد تختلف صياغة المقصد الكلي للسورة، من متدبر لآخر -كما سنرى في مقصد سورة النور- لكن المعنى العام للمقصد يبقى واحداً.

المقصد العام لسورة النور:

إن الناظر والمتأمل في سورة النور انطلاقاً من مُفتتحها، وانتهاء بخاتمتها، وجمْعاً لموضوعاتها، وأحكامها، وربطاً لأجزائها وفصولها، وتأملا وتدبراً في ألفاظ ومفردات آياتها([1]) يرى أن مقصدها العام والكلي هو أحد هذه المعاني التي ترمي إلى غاية واحدة:

- **ذكر أحكام العفاف والستر.**

وقد ذكر لها هذا المقصد الإمام القرطبي في تفسيره، قال رحمه الله تعالى: (مقصود هذه السورة: ذكر أحكام العفاف والستر)([2])

- أو: **حفظ كرامة الأسرة وقيمة الشرف.**

قال أبو زهرة (لو سميت سورة الأسرة لكانت جديرة بهذا الاسم)([3])

- أو: **أسس التربية الخُلقية والاجتماعية النظيفة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع الإسلامي والأسرة المسلمة.([4])**

- أو: **تربية المجتمع المسلم بوضع دستور لوقايته من الانحراف والتفكك الداخلي.**

---

1 لا شك أن لكل سورة من سور القرآن الكريم؛ مفردات ومصطلحات خاصة بها، تتميز بها عن غيرها، ومن خلالها ينظر إلى ملامحها وشخصيتها، ذلك أن لهذه المصطلحات والمفردات دوراً في إبراز وحدتها السياقية، ومقصدها العام والكلي الجامع.

2 الجامع لأحكام القرآن، 158/12

3 زهرة التفاسير المجلد العاشر، أبو زهرة، ص 5130

4 التيسير في أحاديث التفسير، المكي الناصري 4/ 246

وذلك لأن السورة أقامت تنظيماً كاملاً لبناء المجتمع الإسلامي على الفقه والطهارة، وأقامت سياجاً منيعاً حول المحارم التي يخاف المسلم من الوقوع فيها([1])

فهذا هو المعنى العام للسورة، ومقصودها الأعظم، وإن اختلفت العبارة، في صياغته كما هو ملاحظ فإنه يتفق في النهاية في المعنى الواحد الذي هو المقصد الكلي الجامع للسورة، ولذلك يمكن جمع ما سبق من عبارات وصياغتها في المقصد الآتي:

- بناء أسس الإيمان ومبادئه التربوية والخُلقية والاجتماعية التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم، لتحصينه من التفكك الداخلي، ووقايته من الانحراف الخارجي.

موضوعات السورة الرئيسية:

انطلاقاً من المقصد العام للسورة، فإن الموضوعات الأساسية والرئيسة التي تتفرع عن هذا المقصد وتعالجها السورة في عرض أحكامها وقضاياها تتجلى فيما يأتي:

أولا: التنويه بشأن السورة الكريمة لما تحتوي عليه من أنوار التشريع وأحكامه وآدابه، التي فرضها الله عز وجل، وإظهار أدلة التوحيد وأنوار برهانه الكونية والشرعية.

ثانياً: بيان أحكام الجرائم الأخلاقية التي تهدد طهارة المجتمع، وتعمل على تفكيكه أسرياً، من مثل الزنا، وقذف المحصنات، وعقوبة ذلك، وأحكام اللعان، مع عرض مثال من واقع المسلمين يبين خطورة جريمة القذف وآثاره على الفرد والجماعة، وخطورة تلقي الإشاعات والأخبار بدون روية وتثبت.. وهو: حادثة الإفك التي رميت بها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وتبرئة الله تعالى لها لمنزلتها عنده سبحانه، وصوناً لعرض النبوة، وقطعاً لدابر الإشاعة المغرضة.

ثالثاً: بيان لمجموعة من الوسائل التي تحصّن المجتمع وتحفظ الأسرة من كل الفواحش والجرائم الخلقية، من مثل: النهي عن الانسياق وراء الإشاعات المغرضة، والنهي عن اتباع خطوات الشيطان ووساوسه، مع التزام آداب الاستئذان ووجوبه عند دخول البيوت لما لها من حرمة، باستثناء الأماكن العامة، والأمر بغض البصر، وحفظ الفروج، ونهي النساء عن إبداء الزينة، والأمر بتزويج الأيامى، والحض على العفاف، والترغيب بمساعدة المكاتبين، والتحذير من

1 محتويات سور القرآن الكريم، أحمد بن عبد الله الطويل. ص، 185

البغاء، وتقرير قاعدة الاستئذان للخدم والأطفال في الأوقات الثلاثة التي تعتبر عورات للبيوت، مع التذكير بمراقبة العليم الحكيم، السميع العليم سبحانه وتعالى.

رابعاً: بيان أن أحكام الله تعالى نور للمجتمع، وهداية له من ظلام الفواحش والمحرمات والانحرافات، فهي نور للقلوب والدُّروب، وللأفعال والجوارح، وأن الناس تجاه هذا النور فريقان:

فريق انعكس هذا النور على قلوبهم وأعمالهم، وهم المؤمنون الذين استجابوا لله ولأحكامه، فوعدهم بالتمكين في الأرض، وتحقيق الأمن والرحمة في الدنيا والآخرة.

وفريق اضطربت أحوالهم وأظلمت قلوبهم، وهم الكافرون والمنافقون الذين أعرضوا عن هذا النور، وتشبثوا بالسراب...

خامساً: بيان لتسبيح الكائنات والمخلوقات لله سبحانه، مع عرض بعض مظاهر ربوبية الله تعالى وبديع خلقه، وآثار قدرته في الملك والملكوت، خلقاً وتدبيراً.

سادساً: عودة في أواخر السورة لبيان بعض الأحكام الخاصة بالأسرة، كحكم استئذان الموالي، والأطفال في البيوت، في الأوقات الثلاثة، مع رفع الحرج عن القواعد من النساء في وضع ثيابهن شرط تجنب التبرج بالزينة، مع تفضيل استعفافهن لأنه خير وأمان لهن.

سابعاً: بيان لذوي الأعذار الذين يُرفع عنهم الحرج في كل ما يشق عليهم من أمر العبادات والعادات، مع الإذن للأقارب والأصدقاء في الاجتماع والأكل من بيوت بعضهم البعض، جميعاً أو أشتاتاً، تيسيراً ورفعاً للحرج عليهم.

ثامناً: بيان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وتعظيم مجلسه، والأدب معه، والنهي عن الانصراف عنه إلا بإذنه، والتحذير من عصيانه وعدم توقيره بالتهديد على ذلك.

تاسعاً: إعلان ملكية الله تعالى المطلقة لكل شيء، وعلمه المحيط بأمور العباد وأحوالهم، ورجوعهم إليه سبحانه يوم المعاد للمحاسبة والجزاء.

فهذه أهم المحاور التي تضمنتها سورة النور وعملت على معالجتها من خلال أحكامها وموضوعاتها الرئيسة، مع ذكر موضوعت أخرى لا شك أن لها علاقة بهذه الموضوعات على المستوى الإيماني والعقدي، وكذا الأخلاقي من مثل آيات الله في الكون، والأدلة على وجود الله تعالى، من تقلّب الليل والنهار، وإنزال المطر والبَرَد، وخلق السماوات والأرض، وخلق الدوابّ ذات الأنواع المختلفة، وخضوع كل ما في الكون لله تعالى توحيداً وتسبيحاً.

المبحث الثاني

معاني مفردات السورة من الآية (27) إلى آخر السورة

تمهيد:

لا شك أن مِن بين ما تتميز به سورة النور، هو ما اشتملت عليه من مفردات لغوية خاصة، ومصطلحات ومفاهيم قرآنية فريدة، في سياق موضوعاتها المتعددة، ومضامينها المتميزة؛ قصد تحقيق مقاصدها وهداياتها. وسأعمل في هذا المبحث على بيان معاني هذه المفردات في سياق هداياتها، مركزاً على ما هو غريب منها، وما تفردت به السورة، مراعياً أصول معانيها اللغوية، واستعمالاتها القرآنية في سياق موضوعها الْهِداياتية. ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴿٢٧﴾ ﴾: الاستئناس في اللغة: الاستئذان، أي تستأذنوا، والاستئذان الاستعلام، تقول آذنته بكذا أي أعلمته، وكذا آنست منه كذا وكذا علمت منه، وكذلك ﴿ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء: 6] أي علمتم.([1]) قال ابن فارس: (وآنست الصوت: سمعتهُ. وآنستُه: علمتهُ) (2) فيكون معنى: تَسْتَأْنِسُوا: تستعلموا مَن في الدار؛ بالتنحنح والكلام الذي يدل على الاستئذان، وقيل: تَسْتَأْنِسُوا: تستبصروا، أي: تطلبون من يبصركم، فتستأذنوه. والإيناس: الإبصار.(3)

قال الزمخشري: (تستأنسوا فيه وجهان، أحدهما: أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش، لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أذن له استأنس فالمعنى: حتى يؤذن لكم..، والثاني أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف: استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً. والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال، هل يراد دخولكم أم لا.([4])

---

1 معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، 39/4

2 مجمل اللغة، مادة (أنس)

3 باهر البرهان فى معاني مشكلات القرآن، 966/2.

4 الكشاف، 3/ 226

قوله تعالى: ﴿ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴿٢٩﴾ ﴾: لا أهل لها ولا سُكّان فيها، فليست مسكناً لأحد، فهي خاوية، كالفنادق ومناخات الرّحال للسّابلة، والمنازل المبنية للنزول وإيواء المتاع فيها، واتقاء البرد والحر. وقيل أيضاً بيوت التجار وحوانيتهم في الأسواق.(1)

قوله تعالى: ﴿ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴿٣٠﴾ ﴾: الغَضُّ: النّقصان من الطّرف، والصّوت، وما في الإناء. يقال: غَضَّ وأَغَضَّ، قال تعالى: ﴿ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾(2) وفي المصباح: (غض الرجل صوته وطرفه ومِن صوته ومن طرفه غضاً، من باب قتل، خفض، ومنه يقال غض من فلان غضاً وغضاضة إذا انتقصه...)(3)

قلت: وما ذكره صاحب المصباح بمعنَيْه -أي الخفض، أو التنقيص- هو ما تحتمله اللفظة في سياقها كما سنراه إن شاء الله في الدراسات التطبيقية من خلال هدايات الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴿٣١﴾ ﴾ (بخمرهن) جمع خمار، وهي المِقْنَعَةُ؛ سميت بذلك لأن الرأس يُخَمَّرُ بها، أي يُغطَّى، وكل شيء غطَّيْتَه فقد خَمَّرْتَهُ، والخَمْرُ ما واراك من شجر.(4) وسمي المسكر خمراً لأنه يغطي العقل.

قال الراغب في مفرداته: (خَمَرَ: أصل الخمر ستر الشيء، ويقال لما يُسْتَر به خِمارٌ، لكن الخمار صار في التعارف اسماً لما تغطي به المرأة رأسها، وجمعه خُمُرٌ، قال تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور31](5) أمر لهن بالاختمار على أيسر ما يكون، دون التطوق بالخمار، وإرسالها بحيث يغطي نحورهن(6)

---

1 المناخات: المواضع التي تناخ فيها الإبل، وهي مواضع بروكها. والسابلة: أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حوائجهم. (ينظر اللسان مادة: (نوخ) و (سبل)

2 المفردات، مادة: (غض)

3 المصباح المنير، 449/2 أحمد بن محمد بن علي الفيومي، مادة (غ ض ض)

4 نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، للإمام أبي بكر محمد بن عزيز السجستاني، باب الخاء المضمومة، ص323.

5 معجم مفردات ألفاظ القرآن، 178

6 باهر البرهان فى معاني مشكلات القرآن، لأبي الحسن علي بن الحسين النيسابوريّ الغزنوي، أبو القاسم، الشهير ب (بيان الحق).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴿٣١﴾ ﴾ : الإبداء هو الإظهار والإبراز، أي إظهار ما كان خفياً وإبرازه، ومن ذلك قولهم: بدا لي الأمر أي ظهر لي بعد ما كان خفياً، وأبديت رأيك أي أظهرته. والمعنى هنا: لا يبدين زينَتَهُنَّ الباطِنَةَ، نحو المِخْنَقَةِ والْخلْخَال والدُّمْلُجُ والسِّوار. والتي تُظْهَرُ هي الثيابُ والوَجْهُ([1])

ويدل هذا التعبير (الإبداء) على أن المنهي عن إظهاره من الزينة هو ما قصدت منه صاحبته إظهاره، وتكلفت من أجل ذلك، أما ما ظهر دون قصد، أو كان مما لا يمكن الاحتراز من إظهاره، فلا حرج في ظهوره.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴿٣١﴾ ﴾: أرب: الإِرْبَةُ والإِرْبُ: الحاجةُ. وَفِيه لُغَاتٌ: إِرْبٌ وإِرْبَةٌ وأَرَبٌ ومَأْرُبةٌ ومَأْرَبَة. وَفِي حَدِيث عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا: (كَانَ رسولُ اللَّه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمْلَكَكُمْ لإِرْبه)([2]) أَي لحاجَته، تَعْنِي أَنه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ أَغْلَبَكم لِهَواهُ وحاجته أَي كَانَ يَمْلِكُ نَفْسَه وهَواهُ. ([3])

فالإِرْبَةُ الحاجَةُ، ومعناه هَهُنَا غير ذَوي الحاجات([4]) كناية عن الحاجة إلى النكاح، يريد الأتباع الذين ليست لهم إربة في النساء، أي حاجة، مثل الخصِيّ، والخُنثى، والشيخ الهرم.([5]) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (مَآرِبُ) [طه: 18]: (حَاجَةٌ)، قَالَ طَاوُسٌ: (غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ) [النور: 31]: (الأَحْمَقُ لَا حَاجَةَ لَهُ فِي النِّسَاءِ)([6])

وأكثر القراء على خفض (غَيرِ) بالصفة للتابعين. ومن نصب كَان استثناءً، والمعنى: لا يُبْدِينَ زِينَتَهُن إلا للتابعين، إلا ذَا الإِرْبَةِ.([7])

---

1 معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، 4/ 39.

2 البخاري، كتاب الصيام، باب المباشرة للصائم، حديث رقم: 1927.

3 ينظر لسان العرب، مادة: أرب

4 معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، 4/ 42.

5 ينظر غريب القرآن، لابن قتيبة، 1/ 303.

6 البخاري، كتاب الصيام، باب المباشرة للصائم، حديث رقم: 1927.

7 مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، لأبي العلاء أحمد الكرماني الحنفي.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ ﴿٣١﴾ ﴾ لا تضربن رجلها بالأخرى فيسمع صوت الخلخال. فذلك قوله: ﴿ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ ﴾([1]) قَالَ قَتَادَةُ: (كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَضْرِبُ بِرِجْلَيْهَا إِذَا مَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ لِيُسْمَعَ قَعْقَعَةُ الْخُلْخَالَيْنِ، فَنُهِينَ عَنْ ذَلِكَ).([2])

قوله تعالى: ﴿ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ ﴾: جمع أيّم، والأيّم عند أهل اللغة من لا زوج لها كانت بكراً أم ثيّباً([3]) وقال الفراء([4]): (يعني الحرائر. والأيامى القرابات نَحو البنت والأخت وأشباههما)([5]) وقال ابن الجوزي: الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء([6]) وهذا الذي ذكره ابن الجوزي هو الذي ذكره ابن فارس في معجمه، قال رحمه الله تعالى: (الْأَيِّمُ: الْمَرْأَةُ لَا بَعْلَ لَهَا وَالرَّجُلُ لَا امْرَأَةَ لَهُ.([7]) يعني في الأحرار والحرائر بقرينة قوله وإمائكم. وقد قيل للرجل الذي لا زوج له، وذلك على طريق التشبيه بالمرأة فيمن لا غناء عنه لا على التحقيق.([8])

قوله تعالى: ﴿ مِنۡ عِبَادِكُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾ يقول: من عبيدكم وإمائكم. يعني مماليككم.([9]) يقال: عَبْدٌ وعِبادٌ وعَبيدٌ، كما يقال: كَلْبٌ وكِلابٌ وكَليبٌ.([10])

قوله تعالى: ﴿ فَكَاتِبُوهُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾ المكاتبة في الإسلام حددها فارس اللغة الإمام الشافعي بقوله: (المكاتبة لفظة وضعت لعتق على مال مُنَجّم إلى أوقات معلومة، يحل كل نجم لوقته المعلوم، وإنما سميت نجوماً لأن العرب في باديتها وأوَّليّتها لم يكونوا أهل حساب. ثم قال: وسميت الكتابة كتابة

---

1 معاني القرآن للفراء، 250/2.

2 تفسير القرآن لابن أبي زمنين، 232/3

3 إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، 93/3.

4 هو أبو زكرياء يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور بن مروان الأسلمي الديلمي الكوفي المعروف بالفراء، لقب به لأنه كان يفري الكلام أي يصلحه، ولد بالكوفة سنة: 144هـ ثم انتقل إلى بغداد، من أشهر النحاة وأكثرهم اطلاعا على فنون النحو واللغة والأدب. من أشهر مؤلفاته: معاني القرآن، الوقف والابتداء، الجمع والتثنية في القرآن، المذكر والمؤنث ... توفي رحمه الله سنة 207هـ في بغداد وقال بعضهم في طريقه إلى مكة. (ينظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لابن الأنباري. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان)

5 معاني القرآن للفراء 251/2.

6 تذكرة الأريب في تفسير الغريب (غريب القرآن الكريم)257/1. لابن الجوزي)

7 معجم مقاييس اللغة لآبن فارس، مادة (أَيَـــمَ).

8 المفردات، مادة (أيم)

9 معاني القرآن للفراء 251/2.

10 ينظر غريب القرآن، لابن قتيبة 1/ 304 .

في الإسلام، لأن المكاتب لو جمع عليه المال في نجْم واحد لشق عليه، فكانوا يجعلون ما يكاتب عليه نجوماً شتى في أوقات شتى، ليتيسر عليه تحمل شيء بعد شيء ويكون أسلم من الغرور.. فلما كانت الكتابة متضمنة لنجم بعد نجم سميت كتابة)([1]) وكِتابَةُ العَبْدِ: ابتياع نفسه من سيّده بما يؤدّيه من كسبه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾[النور: 33]([2])

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴿٣٣﴾ ﴾ (فتياتكم) أي إماؤكم على الزنا([3]) قال الزجاج: (أي لا تكرهوهن على البغاء ألْبتَّةَ، وليس المعنى: لا تكرهوهن إنْ أَرَدْن تَحَصُناً. وإن لم يرِدْن فَلَيْس لنا أَنْ نُكْرِهَهُنَّ)([4]) و ﴿ ٱلْبِغَآءِ ﴾ والبغي تجاوز الحد، وطلب ما ليس لك، (وبَغَى الجرح: تجاوز الحدّ في فساده وبَغَتِ المرأة بِغَاءً: إذا فجرت، وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها.)([5])

قوله تعالى:﴿ ءَايَٰتٍۭ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ يقال: آية مُبيَّنَة اعتباراً بمن بيّنها، وآية مُبيِّنَة اعتباراً بنفسها، وآيات مبيِّنات ومبيَّنات.([6]) وقوله تعالى هنا: ﴿ ءَايَٰتٍۭ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي هاديات واضحات في نفسها موضحات لغيرها، على القراءتين، بفتح الياء وكسرها، فالآية هي البصيرة والعلامة الدالة الواضحة والموضحة، ولذلك وصفها الله بأنها مُبيِّنات ومُبيَّنات، أي بينات في نفسها مبينات لغيرها.

والبَيِّنَة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة، وسمي الشاهدان في الدعاوى بيّنة، لقوله عليه السلام: ((البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر))([7])

قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴿٣٥﴾ ﴾ قال ابن منظور: نور: فِي أَسماء اللَّه تَعَالَى: النُّورُ؛ وهُوَ الَّذِي يُبْصِرُ بنُورِه ذُو العَمَاية ويَرْشُدُ بهُدَاهُ ذُو الغَوايَة، وَقِيلَ: هُوَ الظَّاهِرُ الَّذِي به كُلُّ ظُهُور، وَالظَّاهِرُ فِي نَفْسِه المظْهِر لغَيْرِه يُسَمَّى نُورًا.. والنُّور مِنْ صِفَاتِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) قِيلَ فِي تفسيره: هادي أَهل السماوات والأَرض، وَقِيلَ: مَثَلُ نُورِه

---

1 الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، للأزهري، 430/429، نقلا عن كتاب (الكلمات القرآنية في الحقل الإسلامي، ص110 عبد العال سالم مكرم)

2 المفردات، مادة (كتب)

3 نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، للإمام أبي بكر محمد بن عزيز السجستاني. باب الفاء المفتوحة، ص354.

4 معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، 4/ 40.

5 المفردات، مادة (بغي)

6 المفردات، مادة (بين)

7 البيهقي في السنن، بَابُ: الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، حديث رقم: 21201. وأصله عند البخاري، في كتاب الشهادات.

كَمشْكاة فيها مصْباح؛ أَي مَثَلُ نُورِ هُدَاهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ كَمشْكَاة فيهَا مصْبَاحٌ. والنُّورُ: الضِّيَاءُ. وَالنُّورُ: ضِدُّ الظُّلْمَةِ. وَفِي الْمُحْكَمِ: النُّور الضَّوْءُ، أَيًّا كَانَ، وَقِيلَ: هُوَ شُعَاعُهُ وَسُطُوعُهُ، وَالْجَمْعُ أَنْوارٌ ونِيرانٌ؛ واسْتَنار بِهِ: اسْتَمَدَّ شُعاعَه. ونَوَّرَ الصبحُ: ظَهَرَ نُورُه.([1])

قوله تعالى: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ المشكاة: الكوة فِي الْحَائِط غير نَافِذَة مِنْهُ، فَهُوَ أجمع للضوء. وقيل: هو موضع الفتيلة المشتعلة من الزجاجة. (2) وقيل هي الحديدة أو الرصاصة التي يوضع فيها الزيت، وقيل هي العمود الذي يوضع على رأسه المصباح، وقيل ما يعلق فيه القنديل من الحديدة، وفي القاموس وشرحه: المشكاة كل كوة غير نافذة وكل ما يوضع فيه أو عليه المصباح، وقيل المشكاة حبشية معربة.([3])

وقد قال ابن منظور تعليقاً على قول النجاشي: -عن القرآن والتوراة- (إِنَّ هَذَا وَالَّذي جَاءَ به مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاة وَاحِدَة) ([4]) المِشْكاةُ: الكَوَّةُ غَيْرُ النافذة، وَقِيلَ: هِيَ الْحَدِيدَةُ الَّتِي يعلَّق عَلَيْهَا القِنديلُ، أَراد أَن الْقُرْآنَ والإِنجيل كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وأَنهما مِنْ شيءٍ واحدٍ.([5])

قوله تعالى: ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴿٣٥﴾ ﴾: منسوب إلى الدّر في حسنه وصفائه(6) ومن قرأ: (دِرِّيءٌ) بالهمز وكسر الدال، فإنه من الكواكب الدَّرارئ وهن: اللائي يَدْرَأْن عليك، أي يطلُعن. وتقديره: فِعِّيلٌ، من (دَرَأْتُ) أي دفعتُ.([7]) وفي المختار: (الدرء الدفع وبابه قطع، ودرأ طلع مفاجأة وبابه خضع، ومنه كوكب دِرِّيءٌ كسكيت لشدة توقده وتلألؤه، ودريّ بالضم منسوب الى الدر، وقرىء دريء بالضم والهمزة ودريء بالفتح والهمز، وتدارأتم وتدافعتم واختلفتم)([8])

---

1 ينظر لسان العرب، مادة (نور)

2 المرجع نفسه. 997/2.

3 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6/ 605، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش.

4 أخرجه الإمام أحمد في مسنده، من حديث جعفر بن أبي طالب في قصته المشهورة عند محاورته للنجاشي، برقم 22498، والحديث إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن إسحاق، فقد روى له مسلم متابعة، وهو صدوق حسن الحديث. (ينظر تعليق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون على مسند الإمام أحمد، 170/37)

5 ينظر لسان العرب، مادة (شكا)

6 معاني القرآن للزجاج: 4/ 44، وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة،305

7 غريب القرآن لابن قتيبة، 1/ 305.

8 مختار الصحاح، مادة (درأ)

قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي أنها ليست من شجر الشرق دون الغرب، ولا من شجر الغرب دون الشرق، لأن ما اختص بأحد الجهتين أقل زيتاً وأضعف، ولكنها شجر ما بين الشرق والغرب كالشام لاجتماع القوتين فيه. وهو قول ابن شجرة وحكى عن عكرمة.([1]) أو مَعْنَاهُ: لَا شرقية كلهَا، وَلَا غربية كلهَا، هِيَ شرقية وغربية، وَهُوَ أحسن مَا يكون من الشّجر تطلع عَلَيْهَا الشَّمْس، وتغرب عَلَيْهَا الشَّمْس.([2])

قوله تعالى: ﴿يَوْمَا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ بلوغها إلى الحناجر (والأبصار) بالشخوص والزرقة والرد على الأدبار(3) وقال الزجاج([4]): (ومعنى تَتَقلَّبُ أي تَرْجُفُ وَتَجفُ من الجَزَعِ والخَوْفِ، ومعناه أَن مَنْ كَانَ قلبُه مُوقناً بالبعث والقيامَة ازداد بَصيرَةً، ورأى ما يحبُّه مما وُعِدَ بِهِ، ومن كان قلبه على غير ذلك رأى ما يُوقِنُ مَعَهُ بِأمْرِ القِيامة والبعْثِ، فَعَلِمَ ذلك بقلبه وشاهده بِبَصَرِه، فذلك تَقَلبُ القلوب والأبْصَار)(5)

قوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴿٣٩﴾﴾ بِقِيعَةٍ: جمع: قاع. كجار وجيرة(6) وأهلُ النظر من أصحاب اللغة يذكرون: أن (القِيعة) جمع (القاع)؛ قالوا: والقاعُ واحدٌ مذكر، وثلاثةٌ: أقْواعٌ، والكثيرةُ منها: قِيعانٌ وقِيعةٌ.([7])

وقال الزجاج في معانيه: (والقيعة والقاع ما انبسط من الأرض ولم يكن فيه نبات فالذي يسير فيه يَرَى كأن فيه ماءً يَجْرِي وذلك هو السراب.)(8) والسّراب: شعاع يتكثف فيتسرّب

---

1 عن تفسير الماوردي (النكت والعيون): 3/ 130، وضعف هذا القول الفخر الرازي في تفسيره بقوله: (وهذا ضعيف لأن من قال: الأرض كرة لم يثبت المشرق والمغرب موضعين معينين، بل كل بلد له مشرق ومغرب على حدة، ولأن المثل مضروب لكل من يعرف الزيت، وقد يوجد في غير الشام كوجوده فيها) 23/ 237.

2 ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، 378.

3 باهر البرهان فى معاني مشكلات القرآن، لأبي الحسن (علي) بن الحسين النيسابوريّ، الشهير بـــ (بيان الحق) 1003/2.

4 هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، ولد ببغداد سنة 241هـــ كان في فتوته يخرط الزجاج، ثم مال إلى النحو فأصبح عالما بالنحو واللغة، ومات ببغداد سنة 311هـــ من أشهر مؤلفاته: معاني القرآن وإعرابه، تفسير أسماء الله الحسنى. (ينظر الأعلام للزركلي، 1/ 40)

5 معاني القرآن وإعرابه، 47/4

6 معاني القرآن للفراء، 245/2 وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 305، ومعاني القرآن للنحاس: 4/ 540. واللسان: مادة (ق و ع).

7 غريب القرآن لابن قتيبة، 305/1 .

8 معاني القرآن وإعرابه،4/ 47.

ويجري كالماء تخيّلا(1) والسّراب فيما لا حقيقة له كالشّراب فيما له حقيقة، قال تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: 39](2)

قوله تعالى: ﴿ بَحۡرٍ لُّجِّيّٖ ﴾ مضاف إلى اللّجة وهو معظم البحر(3) ولِأَنَّهُ يَتَرَدَّدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ. يُقَالُ الْتَجَّ الْبَحْرُ الْتِجَاجًا. وَفِي الْحَدِيثِ الشريف: ((مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ إِذَا الْتَجَّ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ))(4) ولُجَّةُ البحر بالضّم: تردّد أمواجه، ولُجَّةُ الليل تردّد ظلامه، ويقال في كلّ واحد لَجَّ والْتَجَّ، و﴿ بَحۡرٍ لُّجِّيّٖ ﴾ منسوب إلى لجّة البحر.(5)

وقال النحاس: ﴿ بَحۡرٍ لُّجِّيّٖ ﴾وهو منسوب إلى اللج، وهو وسط البحر، قال أبي بن كعب: الكافر كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومصيره إلى ظلمة.(6)

قوله تعالى: ﴿ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ ﴾ مصطفة الأجنحة في الهواء(7) والصَّفُّ: السَّطْرُ المسْتَوي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ معروفٌ، وَجَمْعُهُ صُفُوفٌ. وصَفَفْتُ الْقَوْمَ فاصْطَفُّوا إِذَا أَقمتهم فِي الْحَرْبِ صَفّاً.. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَالصَّافَّات صَفًّا) قِيلَ: الصَّافَّات الملائكةُ مُصْطَفُّونَ فِي السَّمَاءِ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ تَعَالَى؛ وَمِثْلُهُ: (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ).. وصَفَّتِ الطيرُ فِي السَّمَاءِ تَصُفُّ: صَفَّتْ أَجنحتها وَلَمْ تُحَرِّكْهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ باسِطاتٍ أَجْنِحَتها.(8)

قوله تعالى:﴿ يُزۡجِي سَحَابًا ﴾ التَّزْجِيَةُ: دَفْعُ الشّيء لينساق، كَتَزْجِيَةِ رديء البعير، وتَزْجِيَةِ الرّيح السّحاب، قال: ﴿يُزۡجِي سَحَابًا﴾(9) زَجَّى الشيءَ وأَزجاه: ساقَه ودَفَعه. والرِّيحُ تُزجِي

---

1 اللسان مادة (س، ر، ب)

2 المفردات، مادة (سرب)

3 ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 67. وغريب القرآن، لليزيدي: 273.

4 معجم مقاييس اللغة، لابن فارس مادة (لَجَّ)

5 المفردات، مادة (لج)

6 معاني القرآن، 4/ 542

7 باهر البرهان فى معاني مشكلات القرآن، لأبي الحسن (علي) بن الحسين النيسابوريّ، الشهير بـــ (بيان الحق) (المتوفى: بعد 553هـــ)، 1006/2

8 ينظر لسان العرب، مادة (صفف)

9 المفردات، مادة: (زجا)

السَّحابَ أَي تَسُوقُه سَوْقاً رَفِيقًا([1]) يقال: أزجى الإبل إزجاء. وأطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض بتقدير الله تعالى الشبيه بالسوْق حتى يصير سحاباً كثيفاً.([2]) ويزجي الله السحاب يسوقه إلى حيث يريد سبحانه. ومنه: البضاعة المزجاة: التي يزجيها كل أحد لا يرضاها. والسحاب يكون واحدا كالعماء، وجمعا كالرباب.([3]) ومعنى تأليف الواحد: أنه يكون قزعا فيضم بعضه إلى بعض. وجاز بينه وهو واحد، لأنّ المعنى بين أجزائه، كما قيل في قوله: بين الدّخول فحومل.([4])

قوله تعالى: ﴿ رُكَامًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ركم: الرَّكْمُ: جَمْعُكَ شَيْئًا فَوْقَ شَيْءٍ حَتَّى تَجْعله رُكاماً مَرْكُومًا كَرُكَامِ الرَّمْلِ وَالسَّحَابِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْءِ المرْتكِم بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ. رَكَمَ الشَّيْءَ يَرْكُمُه إِذا جَمَعه وأَلقى بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، وَهُوَ مَرْكُومٌ بعضُه عَلَى بَعْضٍ. وَشَيْءٌ رُكامٌ: بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: (ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً) يَعْنِي السَّحَابَ.([5]) والركام: مشتق من الركم. والركم: الجمع والضم. ووزن فُعال وفُعالة يدل على معنى المفعول. فالركام بمعنى المركوم كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الطور: 44]([6])

قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴿٤٣﴾ ﴾ الْوَدْقُ: مَصْدَرُ وَدَقَ السَّحَابُ يَدِقُ وَدْقًا، وَمِنْهُ اسْتَوْدَقْتُ الْفَرَسَ([7]) والْوَدْقُ: الْمَطَرُ شَدِيدُهُ وَضَعِيفُهُ. سمي ودقًا لخروجه من السحاب يقال: ودقت سُرَّتُه إذا خرجت. وحرب ذات وَدْقَيْنِ أي شديدة تشبه بسحابة ذات مطرتين شديدتين، وسحابة وادِقةٌ.([8])

---

1 ينظر لسان العرب، مادة (زجا)

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 351

3 قوله: "كالرباب" في الصحاح: الرباب- بالفتح- سحاب أبيض. (ع)

4 قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لامرئ القيس مطلع معلقته. (ينظر الكشاف، للزمخشري، 245/3)

5 ينظر لسان العرب، مادة (ركم)

6 ينظر التحرير والتنوير، 351/18

7 البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، 29/8

8 كتاب العين، للفراهيدي، 198/5، مادة: (ودق)

وقوله: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ خلل السَّحاب: مخارج القطر، والجميع: الخلال، وخلال: جمع خَلَل، مثل جَبَل وجبال وقوله: ﴿مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ من أضعافه.([1]) أي يخرج من خلال المطر كأنه غبار، وقد يعبر به عن المطر. كما قال الراغب.

قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ ﴾ : فيها تقديران: أحدهما: وهو قول الفراء: أن الجبال في السَّماء من برد خلقة مخلوقة، كما تقول في الكلام: الآدمي من لحم ودم، ف(من) هاهنا تسقط فتقول: الآدمي لحم ودم، والجبال برد..([2]) الثاني: قال الزجاج: المعنى من جبال برد فيها كما تقول: هذا خاتم في يدي من حديد، المعنى: هذا خاتم حديد في يدي.([3])

قال أبو علي: مفعول الإنزال على هذا التقدير محذوف، حذف للدلالة عليه والتقدير: ويترل من السماء من جبال برد فيها برداً، فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه كما قال تعالى ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: 48]([4])

ومعنى ﴿ بَرَدٖ ﴾ حجارة تنعقد من الثلج.([5]) والبَرَدُ: حبُّ الْغَمَامِ، تَقُولُ مِنْهُ: بَرُدَت الأَرض. وبُرِدَ الْقَوْمُ: أَصابهم البَرَدُ، وأَرض مَبْرُودَةٌ كَذَلِكَ. وَقَالَ أَبو حَنِيفَةَ: شَجَرَةٌ مَبْرودة طَرَحَ البَرْدُ وَرَقَهَا. وقوله تعالى: ﴿ بَرَدٖ ﴾ فيها قولان: أَحدهما وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ أَمثال جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ، وَالثَّانِي وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا بَرَداً؛ وَمِنْ صِلَةٍ.([6])

قوله تعالى: ﴿سَنَا بَرۡقِهِۦ ٤٣﴾: السَّنَا: مَقْصُورٌ مِنْ ذَوَاتِ الواو وهو الضوء. قَالَ الشَّاعِرُ:

يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ.

يُقَالُ: سَنَا يَسْنُو سَنًا، وَالسَّنَا أَيْضًا نَبْتٌ يُتَدَاوَى بِهِ، وَالسَّنَاءُ بِالْمَدِّ الرِّفْعَةُ وَالْعُلُوُّ.([7])

---

1 ينظر تهذيب اللغة، للأزهري 6/ 572 مادة (خل). ولسان العرب، مادة (خلل). ومعاني القرآن، للزجاج 4/ 49.

2 معاني القرآن، 2562 - 2587.

3 معاني القرآن وإعرابه، 49/4

4 ينظر التفسير البسيط، 16/ 323 أبو الحسن بن علي الواحدي النيسابوري

5 إعراب القرآن، لأبي القاسم الأصفهاني الملقب بقوام السنة، 273/1

6 ينظر لسان العرب، مادة (برد)

7 تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، 28/8.

سنا: سَنَت النارُ تَسْنُو سَناءً: عَلا ضَوْءُها. والسَّنا، مقصورٌ: ضوءُ النارِ والبرْقِ.. وَقَدْ أَسْنَى البرْقُ إِذَا دَخلَ سَناهُ عليكَ بيتَك أَو وقَع عَلَى الأَرض أَو طَارَ فِي السَّحابِ. قَالَ أَبو زَيْدٍ: سَنا البرْق ضَوْءُه مِنْ غَيْرِ أَن ترَى البرْقَ أَو تَرَى مَخرَجَه فِي موْضِعه.([1])

والسنى مقصور وهو اللمع، فإذا كان من الشرف والحسب فهو ممدود. والأصل واحد؛ لأن معناهما الإشراق، تقول: ما رأيت سنى ناره، أي: التماعها.([2])

و﴿سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ ضَوء بَرْقِه، وقرئت (سَنَا بُرْقِه يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) على جَمْعِ بُرْقَةٍ وبُرْق، والفرق بين بُرْقِه -بالضم- وبَرْقِه بالفتح؛ أن البرق المقدارُ من البرق، والبرقَةُ أن يبرق الشيء مَرةً واحِدةً، كما تقول: غَرفْتُ غَرفَةً وَاحِدةً تريد مَرة وَاحِدةً.([3]) والبَرْقُ: لمعان السحاب.

قال قَتَادَةَ: يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ قَالَ: لَمَعَانُ الْبَرْقِ يَكَادُ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ..([4])

قوله تعالى: ﴿يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ ٥٠﴾الحَيْفُ: المَيْلُ فِي الحُكم، والجَوْرُ والظُّلم. حافَ عَلَيْهِ فِي حُكْمه يَحِيفُ حَيفاً: مالَ وجارَ؛ وَرَجُلٌ حائفٌ مِنْ قَوْمٍ حَافَةٍ وحُيَّفٍ وحُيُفٍ. الأَزهري: قَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ يُرَدُّ مِنْ حَيف النّاحِلِ مَا يُرَدُّ مِنْ جَنَفِ المُوصِي، وحَيْفُ الناحِلِ: أَن يَكُونَ لِلرَّجُلِ أَولاد فيُعْطِي بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ، وَقَدْ أُمر بأَن يسوِّي بَيْنَهُمْ، فَإِذَا فضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَقَدْ حَافَ. وَجَاءَ بَشيرٌ الأَنصاريُّ بِابْنِه النُّعمان إِلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ نَحَلَه نَحْلًا وأَراد أَن يُشْهِدَه عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: ((أَكُلَّ وَلَدِكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَه؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْهَد عَلَى حَيْفٍ، وَكَمَا تُحِبّ أَن يَكُونَ أَولادُك فِي برِّك سَوَاءً فسَوِّ بَيْنَهُمْ فِي العَطاء.))([5]) وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ، أَي يَجُورَ.([6]) والحيف: الجور، أي يجور الله عليهم ورسوله.([7])

---

1 ينظر لسان العرب، مادة (سنا)

2 ينظر الكامل، للمبرد، 220/1

3 معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، 50/4.

4 : تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم. 2619/8

5 البخاري، كتاب الهبة، باب الهبة للولد، حديث رقم: 2586 ومسلم، كتاب الهبات، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة، حديث رقم: 4262

6 ينظر لسان العرب، مادة (حوف)

7 درج الدرر في تفسير القرآن الكريم، عبد القاهر الجرجاني، ص، 370

قوله تعالى: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ٥٨ ﴾أوقات من أوقات الخلوة(1) أي: هذه الأوقات ثلاث عورات لكم، وسمَّى هذه الأوقات عورات؛ لأن الإنسان يضع فيها ثيابه، فتبدو عورته.([2]) قال الراغب: (والعَوارُ والعَوْرَةُ: شقّ في الشيء كالثّوب والبيت ونحوه. قال تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٖۛ﴾ [الأحزاب: 13]، أي: متخرّقة ممكنة لمن أرادها، ومنه قيل: فلان يحفظ عَوْرَتَهُ، أي: خلله، وقوله: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴾ ، أي: نصف النهار، وآخر الليل، وبعد العشاء الآخرة.([3])

قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٦٠ ﴾القواعد جمعِ قاعد، بدون هاء، وهي التي قعدت عن الزواج، وقيل: قعدن عن الحيض، والحَبَل. وفي المصباح: (وقعدت المرأة عن الحيض أسنت وانقطع حيضها فهي قاعد بغير تاء والجمع قواعد وقعدت عن الزوج فهي لا تشتهيه.([4]) ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا ٦٠ ﴾أي لاَ يُرِدْنهُ، ولا يَرْجُونَه.([5])

قال ابن قتيبة: (ولا أراها سميتْ قاعداً، إلا بالقعود. لأنها إذا أسَنَّتْ: عجزتْ عن التَّصرُّف وكثرة الحركة، وأطالت القعودَ؛ فقيل لها: (قاعدٌ) بلا هاء؛ ليُدلَّ بحذف الهاء على أنه قعودُ كبَرٍ. كما قالوا: (امرأةٌ حاملٌ) بلا هاء؛ ليُدلَّ بحذف الهاء على أنه حمل حَبَلٍ. وقالوا في غير ذلك: قاعدةٌ في بيتها، وحاملةٌ على ظهرها.([6])

قوله تعالى: ﴿ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ ٦٠ ﴾ مظهرات للزينة ومبرزات لها، وحقيقة التبرج تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم: سفينة بارج أي لا غطاء عليها.. والتبرج إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال.([7])

وامرأَة بَرْجاءُ: بَيِّنَةُ الْبَرَجِ، ومنه قِيلَ: ثَوْبٌ مُبَرَّجٌ للمُعَيَّنِ مِنَ الحُلَلِ. والتَّبَرُّج: إِظهار المرأَة زينتَها ومحاسنَها لِلرِّجَالِ. وتَبَرَّجَتِ المرأَةُ: أَظهرت وَجْهَها. وإِذا أَبدت المرأَة مَحَاسِنَ جِيدِهَا

---

1 نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، للإمام أبي بكر محمد بن عزيز السجستاني، (ت330هـــ) تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي. باب العين المفتوحة، ص329.

2 مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، لأبي العلاء أحمد الكرماني الحنفي (ت بعد 563هـ) 302/1

3 ينظر مفردات القرآن، مادة (عور)

4 المصباح المنير، مادة (ق، ع، د)

5 معاني القرآن وإعرابه، 53/4

6 غريب القرآن، 1/ 308 (تحقيق أحمد صقر)

7 ينظر مختار الصحاح مادة: (برج)

وَوَجْهِهَا، قِيلَ: تَبَرَّجَتْ.. والتَّبرُّجُ: إِظهار الزِّينَةِ وَمَا يُسْتَدعَى بِهِ شَهْوَةُ الرَّجُلِ.. والتَّبَرُّجُ: إِظهار الزِّينَةِ لِلنَّاسِ الأَجانب، وَهُوَ الْمَذْمُومُ، فأَما لِلزَّوْجِ فَلا.([1])

قوله تعالى: ﴿ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗا ٦١ ﴾ مجتمعين، أو متفرقين مُتَوَحّدين. ونصب (جميعاً) على الحال.([2]) أي حال كونكم على هذه الصورة، أو تلك؛ مجتمعين، أو متفرقين متوحدين.

وكان المسلمون يتحرَّجون من مؤاكلة أهل الضُّرِّ، خوفًا من أن يَستأثِرُوا عليهم، ومن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في مأكلهم، وزيادةِ بعضهم على بعض. فوسَّع الله عليهم.([3])

قوله تعالى: ﴿ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ ٦٣ ﴾ (يتسللون) أي يخرجون من الجماعة واحداً واحداً، كقولك: سَلَلْتُ كذا، إذا أخرجته منه([4]) ويَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا، يَلُوذُ هَذَا بِذَا وَيَسْتَتِرُ ذَا بِذَا وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: ((يَلُوذُ بِهِ الْهُلَّاكُ)) أَي يَسْتَتِرُ بِهِ الْهَالِكُونَ وَيَحْتَمُونَ.([5]) وقوله تعالى: ﴿لِوَاذًا﴾ اللوذ بالشيء الاستتار والاحتصان به كاللواذ مثلثة والليا‌ذ والملاوذة والإحاطة كالإلاذة وجانب الجبل وما يطيف به ومنعطف الوادي والجمع أ ينظر لسان العرب، مادة لواذ([6]) وهو على معنى لاَوَذْتُ لِوَاذاً، فهو من فعل (**لاَوَذَ**) وليس من فعل: (**لاذ**). ومعنى لِوَاذاً ههنا الخلاف، أي يُخَالِفُونَ خلافاً.([7]) ويروغون روغان الثعالب.

قال ابن فارس: يُقَالُ: لاَذَ بِهِ يَلُوذُ لَوْذًا وَلاَذَ لِيَاذًا، وَذَلِكَ إِذَا عَاذَ بِهِ مِنْ خَوْفٍ أَوْ طَمَعٍ. وَلاَوَذَ لِوَاذًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ ٦٣ ﴾ [النور: 63] وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ إِذَا أَرَادَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مُفَارَقَةَ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لاَذَ

---

1 ينظر لسان العرب، مادة (برج)

2 معاني القرآن وإعرابه، 4/ 42

3 غريب القرآن، 308/1 ، 309(تحقيق أحمد صقر)

4 نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، باب الياء المفتوحة، ص496.

5 ينظر لسان العرب، مادة (لوذ)

6 ينظر القاموس المحيط، مادة (لاذ)

7 معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، 56/4

بِغَيْرِهِ مُتَسَتِّرًا ثُمَّ نَهَضَ. وَإِنَّمَا قَالَ لِوَاذًا لأَنَّهُ مَنْ لاَوَذَ وَجَعَلَ مَصْدَرُهُ صَحِيحًا، وَلَوْ كَانَ مِنْ لاَذَ لَقَالَ لِيَاذًا، وَاللَّوْذُ: مَا يُطِيفُ بِالْجَبَلِ، وَالْجَمْعُ أَلْوَاذٌ)([1])

قوله تعالى: ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أصل الفَتْنِ: إدخال الذّهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: 13] أي: عذابكم.([2]) فالفتنة هي الاختبار والابتلاء، والمراد بها هنا محنة، أو مكروه، وبلاء في الدنيا بقَسْوَةُ الْقَلْبِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ، أَوْ طَبْعٌ عَلَى الْقُلُوبِ..([3]) وهذا من أعظم وأخطر نتائج مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا، مع ما ينتظر صاحبها من أليم العقاب في الآخرة.

---

1 معجم مقاييس اللغة، مادة (لاوذ)

2 مفردات القرآن، مادة (فتن)

3 ينظر البحر المحيط، 8 / 76

المبحث الثالث

المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هداياتها من الآية (27) إلى آخر السورة

تمهيد:

مرّ معنا في مبحث: (**مقاصد السورة**) الحديث عن موضوعاتها الرئيسة، وأحكامها الأساسية، وسيكون الحديث هنا إجمالياً دون الدخول إلى تفاصيل التفسير، وسأقوم بتقسيم هذه الآيات في بيان معناها الإجمالي إلى تسعة مقاطع،([1]) حسب ما ظهر لي من موضوعاتها الرئيسة، ومحاورها الأساسية، وهي قابلة لغير هذا التقسيم حسب الدراسة والتدبر؛ زيادة أو نقصاناً، وسأضع لكل مقطع عنواناً مناسباً وجامعاً بإذن الله تعالى.

المقطع الأول: من الآية: 27 إلى الآية: 29

آداب الاستئذان وحرمة البيوت وأهلها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ... إلى قوله تعالى: وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾

تبتدئ هذه الآيات بنداء رباني لطيف، نداء من الله تعالى لعباده المؤمنين بنهيهم عن الدخول إلى بيوت غيرهم بغير استئناس وبدون استئذان، لما في ذلك من سوء أدب مع أهلها، الذين قد يكونون على حالة لا ينبغي أن يطلع عليها غيرهم، فإن للبيوت عورات، ولها حرمات، إلا أن يكون هذا الدخول بعد أدب الاستئذان، ثم إِذْن من أهلها، وإلا فمجرد الاستئذان لا يخول الدخول إلى البيوت، كما أن الدخول إلى البيوت بغير استئذان وسيلة للوقوع في المحرمات، التي أقلُّها ما يوجبه من الشك والريبة في هذا الداخل، (والقصد من تشريع هذه الآداب صون قاعدة الحرية، والاحتفاظ بالأسرار الشخصية، والترفع عن المباذل والدناءات وسفساف الأمور، ووضع الحواجز والموانع التي تمس العورات والأعراض، وتتعلق بخصوصيات الإنسان)([2]) ومن هنا شرع الاستئذان الذي هو خير للداخل وللمدخول عليه، لما يحققه من مصالح لكلا الطرفيْن، فضلا عن كونه من مكارم الخلاق وآداب الإسلام، ولذلك قال تعالى: ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ وهذا كله إنما تطهير للمجتع المسلم، وتحصين ووقاية له من الوقوع فيما يكون سبباً للزنا والفواحش، ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ

---

1 تم استخلاص هذا المعني الإجمالي من أهم مصادر كتب التفسير القديمة، مع بعض المراجع الحديثة، وهي محال عليها في الهامش.

2 يُنظر التفسير الوسيط للزحيلي، 1743/2

أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ استئصالا لجميع أسباب الشر والفتنة، فإن لم يؤذن لكم وطلب منكم الرجوع وعدم الدخول، فارجعوا، واقبلوا ذلك بنفس راضية مطمئنة، (فالرجوع أفضل من الإلحاح وتكرار الاستئذان والقعود على الباب، وأطهر من التدنيس بالمشاحة على الدخول لما في ذلك من سلامة الصدر، والبعد عن الريبة والفرار من الدناءة)([1]) أما ما وجد من بيوت خالية غير مسكونة كالخانات وحوانيت التجار ومناخات الرّحال للسّابلة، فهذه لا حرج ولا اثم في دخولها بدون استئناس أو استئذان، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ وَعِيدٌ لِلَّذِينِ يَدْخُلُونَ الْبُيُوتَ غَيْرَ الْمَسْكُونَةِ مِنْ أَهْلِ الرِّيبِ.([2])

المقطع الثاني: من الآية: 30 إلى الآية: 31

الأمر بغض البصر، وضوابط اللباس الشرعي للمرأة المسلمة، وحدود إبداء زينتها عند المحارم وغير المحارم.

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾... إلى قوله تعالى: وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾

هذا أمر الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول لمن آمن به وصدق بما أنزل عليه: كفُّوا من أبصاركم، ولا تنظروا إلى ما لم يُبح لكم النظر إليه، فإن النظر سهم من سهام إبليس، وهو بريد للزنا، وفي الحديث: ((لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الثَّانِيَةُ))([3]) واحفظوا فروجكم من أنْ تقعوا في ارتكاب ما حُرِّم عليكم من الفواحش، فإن في غض البصر وحفظ الفرج، خيراً للعبد وأطهر لقلبه وأنقى لدينه، وأرضى لربه، وإلا: (فإن الله تام العلم بكل ما يصدر عن الناس من أفعال، وهذا تهديد ووعيد. وخلافاً للمعتاد في أن خطاب الرجال يتناول النساء، أفرد الله النساء أيضا بالأمر بغض الأبصار في النظر إلى الرجال، وبحفظ الفروج من الفواحش والشذوذ، حفاظاً على الحرمات والأعراض، وتوفيراً للحرية المنظمة أو المنضبطة، وإبعاداً عن تلويث السمعة، وحفظاً للصحة والكمال الإنساني)(4) ثم زادت الآيات بأمر النساء بالتزام ضوابط معينة في لباسهن وحركتهن، وعلاقتهن بمن حولهن من الرجال، وحدود التعامل مع

---

1 فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير، للإمام الشوكاني، 20/4

2 البحر المحيط لأبي حيان، 38/8

3 شرح معاني الآثار للإمام الطحاوي، 15/3، برقم: 4288. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم:7953.

4 التفسير الوسيط للزحيلي، 1746/2

الأقارب والأجانب، في إظهار زينتهن من عدمه، ثم ختمت الآيات بالأمر بالتوبة لكلا الطرفين من الرجال والنساء من المؤمنين، فالتوبة سفينة النجاح، وطريق الفوز والفلاح: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١ ﴾

المقطع الثالث: من الآية: 32 إلى الآية: 34

الأمر بتزويج الشباب، لتحقيق العفاف وتحصين المجتمع من الانحراف.

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ ... إلى قوله تعالى: وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتٖ مُّبَيِّنَـٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤ ﴾

في هذه الآيات الكريمات يأمر الله تعالى أولياء الأمور من المسلمين، بأن يقوموا بتزويج من لا زوج له، من فقراء المسلمين رجالا ونساء، ليعفوا أنفسهم عن الحرام، وكذا تزويج الصالحين من العبيد والجواري، ولا ينبغي أن يكون الفقر سبباً لرفض تزويج هؤلاء الذين يريدون العفاف، فقد تكفل الله تعالى بإغنائهم وضمن لهم رزقهم، كما جاء في الحديث: ((ثلاثة حق على الله عونهم – وذكر منهم-: الناكح الذي يريد العفاف))([1]) ولذلك ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ أي واسع الخير كثير الفضل والعطاء، عليم بما يحتاجه عباده ويصلحهم.

ثم أمر الله من كان فقيراً، و لم يكن له من سبيل للزواج، بأن يستعفف حتى يغنيه الله تعالى من فضله، ويبتعد عن كل أسباب الزنا وما يؤدي إليه.

ثم لما كان أغلب الموانع على النكاح عدم المال وعد بالإغناء من فضله، فعلى هذا التأويل يعم الأمر بالاستعفاف كل من تعذر عليه النكاح بأي وجه تعذر)([2]) وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم الطريق العملي لتحصيل العفة بقوله: ((يَا مَعْشَرَ الشَّبَاب، مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))([3])

---

1 الترمذي، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُجَاهِدِ وَالنَّاكِحِ وَالْمُكَاتَبِ وَعَوْنِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ حديث رقم: (1655) واللفظ له، والنسائي: (3218) وابن ماجه: (2518). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير حديث رقم: 3050.

2 ينظر المحرر الوجيز لابن عطية، 181/4

3 البخاري كتاب النكاح، بَابُ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ البَاءَةَ فَلْيَصُمْ، حديث رقم 5066، ومسلم كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد، حديث رقم: 1400

ثم أمر الله تعالى المؤمنين كافة أن يكاتب منهم كل من له مملوك، وطلب المملوك الكتابة وعلم سيده منه خَيْراً.(1) أي: أمانةً ورُشداً وقدرة على أداء البدلِ بتحصيله من وجه حلال.([2])

ثم أمر الله تعالى (بمعاونتهم على كتابتهم، لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنهم لا مال لهم، فقال: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه، أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعونتهم. ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطا من الزكاة، ورغب في إعطائه بقوله: ﴿ مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منه، فأحسنوا لعباد الله، كما أحسن الله إليكم)([3])

ثم نهى تعالى عن إكراه الإماء على الوقوع في امتهان الزنا: ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي: تَعَفُّفًا عَنْهُ وَهَذِهِ الْإِرَادَة مَحَلّ الْإِكْرَاه فَلَا مَفْهُوم للشَّرْطِ ﴿ لِّتَبْتَغُواْ ﴾ بِالْإِكْرَاهِ ﴿ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ نَزَلَتْ فِي عَبْد اللَّه بْن أُبَيّ كَانَ يُكْرِه جَوَارِيَهُ عَلَى الْكَسْب بالزنى ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ ﴾ لَهُنَّ ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بِهِنَّ.([4])

ثم لما انتهى تعالى من تفصيل هذه الحكام وبيانها ختم الآيات بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس دلالات وعلامات مبينات: يقول مفصلات الحقّ من الباطل، وموضحات ذلك: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من الأمم ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ لمن اتقى الله، فخاف عقابه وخشي عذابه.([5])

---

1 ينظر المحرر الوجيز لابن عطية، 181/4

2 إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، 172/6

3 ينظر تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي، 567/1

4 تفسير الجلالين، 1/ 463

5 جامع البيان في تأويل القرآن، 19/ 176

المقطع الرابع: من الآية: 34 إلى الآية: 40

ضرب المثل لنور الإيمان وظلام الكفر، وآثار كل منهما على الفرد والمجتمع.

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ... إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى بكماله وجلاله وجماله وحكمته (هادي من في السماوات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون. قال ابن عباس وانس رضي الله عنهم: الله سبحانه هادي أهل السماوات والأرض)([1]) ثم ضرب سبحانه وتعالى المثل بنوره ونور كتابه في قلب العبد المؤمن فقال: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب عباده المؤمنين، ﴿ كَمِشۡكَوٰةٖ ﴾ أي: كوة ﴿ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ ﴾ من صفائها وبهائها ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ ﴾ أي: مضيء إضاءة الدر ﴿ يُوقَدُ ﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ ﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون، ﴿ لَّا شَرۡقِيَّةٖ ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس أول النهار، وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿ يَكَادُ زَيۡتُهَا ﴾ من صفائه ﴿ يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ ﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ ﴾ أي: نور النار، ونور الزيت.([2]) ثم في النهاية مفاتيح الهداية بيده سبحانه رغم وضوح هذا النور فمن شاء هدايته وعمل بأسباب الهداية اهتدى، والله بكل شيء عليم. لا يعزب عنه شيء في الارض ولا في السماء؛ وتلك المشكاة في مساجد قضى الله بتقديسها وذكر اسمه الدائم فيها، مساجد لا يفتر عن التسبيح فيها رجال لم يكن نداء الدنيا ليصرفهم عن طريق الرشاد. رجال يقرأون حساب المستقبل ويعرفون أن وراءهم يوماً تبلغ فيه القلوب الحناجروتخون الأبصار أربابها، رجال يفعلون ما يفعلون رجاء الجزاء والنظر إلى وجهه الكريم([3]) فهو سبحانه يجزي عباده المخلصين الأوفياء الصادقين بغير حساب.

---

1 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 19/ 177. والجامع لأحكام القرآن، 257/12

2 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 568/1

3 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، ص، 61، 62 (بتصرف)

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ..٣٩ ﴾ الذين أعرضوا عن النور، وكفروا بربهم أعمالهم التي يظنونها من الخير ويطمعون في ثوابها ليست إلا كسراب بمكان منخفض يظنه الظمآن ماء، حتى إذا وصل إليه لم يجد أثراً لحقيقته، (وليس قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط، بل يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما ينكي ويضني، ذلك أنهم يجدون الله تعالى بالمرصاد، يجازيهم على سيء أعمالهم، وخبث سيرتهم، أو إن أعمالهم كالظلمات في بحر خضم تغطيه أمواج، من فوق هذه الأمواج أمواج، وفوق هذه سحاب، والبحر أخوف ما يكون إذا توالت أمواجه، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه، زاد الخوف شدة لأنه يستر النجوم التي يهتدى بها في البحر، فهي ظلمات متكاثفة مترادفة، إذا أخرج يده حاضر هذا الظلام لم يرها ومع أنها قريبة منه. ومن لم يجعل الله له هداية فما له هداية)([1])

المقطع الخامس: من الآية: 41 إلى الآية: 46

بعض آيات الله تعالى وآثار قدرته في الكون، والدعوة إلى تدبرها والتأمل في آثارها.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١... إلى قوله تعالى: لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦ ﴾

ألم تعلموا يا أصحاب العقول كيف أن جميع المخلوقات وجميع الكائنات في الأرض والسموات من الحيوانات الناطقات ومن العجماوات والجمادات كلها شاهدة باتصاف الله تعالى بصفات الجلال والكمال، مسبحة له بلسان الحال والمقال، والله تعالى وحده هو الذي يعلم صلاة وتسبيح كل هذه المخلوقات، وعليم بما يأتون ويذرون، ثم هو سبحانه له ملك السماوات والأرض ومالك يوم الدين والجزاء. أرأيتم إلى آياته في السماوات من سوْق للسحاب وضم أجزاء بعضه إلى بعض ليصبح ركاماً ثم معصراً يتدفق ماء ويترل غيثاً، وبرداً يصيب به من يشاء، ليهلك به زرعه وغرسه بسبب ذنوبه، وينجي من يشاء بفضله ورحمته، يكاد ضوء البرق في السحاب يخطف أبصار الناظرين من شدة قوة ضوئه، وانظروا إلى دلائل قدرته التي منها تقليب الليل والنهار بمجيء أحدهما بعد الآخر، إن في ذلك لدلائل واضحة لمن أراد أن يتعظ ويبصر، (ثم سرح طرفك في حيوانات الأرض تجد جلها خلق من نطفة مذرة.. ثم منها من يزحف على بطنه كالحيات والدود، ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطير، ومنهم من يمشي على أربعة كذوات الأربع من

1 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 65

الأنعام وغيرها.. سبحانه على كل شيء قدير.. ولقد ذيلت هذه الآيات ببيان أن القرآن اشتمل على آيات فيها ما لو اتبعناه لفزنا، وبالإخبار بأن الهداية بيد الله)([1])

المقطع السادس: من الآية: 47 إلى الآية: 57

بعض صفات المنافقين، وعدم انتفاعهم بآيات الله تعالى، وصفات المؤمنين الذين انتفعوا بآيات الله وحققوا طاعته فمُكِّن لهم في الأرض.

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ... إلى قوله تعالى: لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

تلك صفات المنافقين يعلنون خلاف ما يسرون، ويدّعون الإيمان بالله وبرسوله، ثم يرفضون الاحتكام إلى شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاهتداء بهديه، إلا إذا كان لهم في ذلك مصلحة: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ قال الإمام الرازي: (ونبه بقوله: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم، أو شكوا، فأما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض، بل سارعوا إلى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا، وفي ذلك دلالة على أنه ليس بهم اتباع الحق، وإنما يريدون النفع المعجل وذلك أيضاً نفاق)([2]) ثم علقت الآيات على حال هؤلاء بمجموعة من التساؤلات، أكان حالهم هذا ناشئاً عن فساد قلوبهم؟ أم شكاً في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم؟ أم خوفاً من الأذى والجور يترل بهم من حكمه؟ كلا، بل لأنهم ظالمون معاندون. أما موقف المؤمنين الصادقين فيختلف تماماً عن موقف هؤلاء المنافقين، موقف يتسم بالسمع والطاعة والخضوع لأمر الله وأمر سوله صلى الله عليه وسلم لما في ذلك من فورزهم وفلاحهم في الدنيا والاخرة، وفي ذلك زيادة توبيخ للمنافقين الذين ادعوا الإيمان بألسنتهم ونقضوا ذلك في أعمالهم. ثم تعود الآيات مرة أخرى بعد هذه المقابلة بين: موقف المنافقين المتخبط، وموقف المؤمنين الموقن المطمئن -تعود- للحديث عن أكاذيب المنافقين وادعاءاتهم، فهم يقسمون بالله مبالغين، ومؤكدين أنهم طوع أمر النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يأمر به: ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ لا تحلفوا على باطل، فإن أيمانكم كاذبة، وطاعتكم معروفة، فهي مجرد قول باللسان من أجل مصلحة، والله تعالى لا تخفى عليه خافية من أمركم .. فإن أنتم أصررتم على عنادكم فقد بقيتم تحت ذلك الرضم! وإن أنتم أطعتم فقد اهتديتم ... ثم وعد الله سبحانه

---

1 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 69 بتصرف

2 مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) 19/24

كل من اتصف بالإيمان والعمل الصالح بالاستخلاف في الأرض والتمكين في الدين ونشر الأمن العام.. وأخبر أن من كفر بعد هذا الهدى الواضح ليس إلا فاسقاً متمرداً، وإن عمود العمل الصالح الذي يتحقق به التمكين في الأرض هو إقامة الصلاة، التي هي حق الله تعالى، ثم إيتاء الزكاء التي حق المال، والاهتداء بهدي الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته التي سبيل الرحمة وطريق السعادة. ولا يهولنكم أمر الكفرة الفجرة، مأواهم نار حامية، وبيس المصير: مصير المعاندين بعد ظهور الحجة! والعصاة بعد فسح أبواب الرحمة.([1])

المقطع السابع: من الآية: 58 إلى الآية: 60

أوقات الاستئذان لأهل البيوت وأتباع العائلة، ورفع الجناح عن القواعد من النساء في وضع ثيابهن غير متبرجات بزينة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ إلى قوله تعالى: فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٦٠ ﴾

ذكر الله في هذه الآيات شرْع الاستئذان لأتباع العائلة ومن هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول بيت، فهو من متممات ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ وهو بمفهوم الزمان يقتضي تخصيص عموم قوله: ﴿ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ الآيات لأن ذلك عام في الأعيان والأوقات، فكان قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ ﴾ تشريعاً لاستئذانهم في هذه الأوقات وهو يقتضي عدم استئذانهم في غير تلك الأوقات الثلاثة، فصار المفهوم مخصصاً لعموم النهي في قوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ وأيضاً هذا الأمر مخصص بعموم ﴿ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ ٣١﴾ وعموم ﴿ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ إلخ المتقدم آنفاً.([2])

وهكذا فقد أمر الله تعالى في هذه الآيات أولياء الأمور بأن يأمروا عبيدهم وجواريهم وأطفالهم الأحرار الذين لم يبلغوا سن الاحتلام، بأن يستأذنوا عند الدخول عليهم في أوقات ثلاثة: الأول قبل صلاة الفجر، (لأنه وقت الخروج من ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة، والثاني، عند منتصف

1ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، ص،74،75 (بتصرف)

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 291

النهار لأنه كذلك وقت تجرد عن الثياب لأجل القيلولة والراحة، والثالث، بعد صلاة العشاء وقت النوم والخلوة بالأهل. وفي غير هذه الأوقات الثلاثة لا مؤاخذة، لضرورة المخالطة. نعم إذا أدرك الطفل وبلغ مبلغ الرجولة كان عليه ما على الرجال شبراً بشبر، بان يستأذنوا في جميع الأوقات، ويرجعوا إن قيل لهم ارجعوا.. ثم رخص القرآن للعجائز اللاتي لا أرب لهن في الرجال، ولا أرب للرجال فيهن كذلك، رخص لهن في وضع الثياب الظاهرة كالجلباب، إذا لم يكن الباعث على ذلك إظهار زينتهن، على أنهن لو التزمن ما تلتزمه الصغيرات من النساء كان ذلك خيراً لهن، وإن الله سبحانه أحاط سمعه وعلمه بكل العوالم ويعاقب كلا على ما اجترم.([1])

المقطع الثامن: من الآية: 61 إلى الآية: 61

رفع الحرج عن ذوي الأعذار للأكل من بيوت المسلمين، وإباحة الأكل من بيوت الأقرباء جميعاً أو أشتاتاً.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

لقد رفع الله الحرج والإثم عن الأعمى، والأعرج، والمريض، في الأكل من بيوت المسلمين، لأنهم أصحاب أعذار، ولا حرج عليهم أن يأكلوا مع الأصحاء، كما أنه لا مؤاخذة عليكم أيها المؤمنون أن تأكلوا من بيوتكم، أو بيوت من تملكون حق التصرف فيها، ووكلتم بحفظها في غياب أهلها وأصحابها، أو بيوت أصدقائكم؛ ثم لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين، فإذا طرقتم بيوتاً مسكونة أو غير مسكونة فسلموا على أنفسكم تحية الإسلام ففي ذلك من الخير والبركة، والأجر والثواب ما لا يخفى، مع ما في ذلك من دلائل اللطف والتأدب، وهي كلها من آيات الله وآحكامه وآدبه لخلقه لعلهم يعقلوها ويعملوا بها.([2])

---

1 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 80-81

2 ينظر التحرير والتنوير، 293/18 وما بعدها، وتيسير الكريم الرحمن، 569/1. وتفسير سورة النور، عبد الهادي التازي،84.

المقطع التاسع: من الآية: 62 إلى: نهاية السورة.

من صفات المؤمن الحق؛ التأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لمترلته عند الله تعالى، المالك لأمر السماوات والأرض، والعالم بأفعال العباد وأحوالهم وأخلاقهم.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ... إلى قوله تعالى: أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾

وختمت السورة الكريمة بخاتمة جليلة، بينت فيها أسس صفات المؤمنين الحقيقيين، وهي الإيمان بالله ورسوله، ومقتضى هذا الإيمان أن يتأدب هؤلاء مع النبي صلى الله عليه وسلم، في كل شأن من شؤون حياتهم، فإذا جمعهم لأمر ما يصلحهم، فلا ينبغي لأحد منهم أن يبرح مكانه إلا بإذنه، فتلك هي صفات المؤمن الحقيقي مع رسوله صلى الله عليه وسلم، فالاستئذان أدب عظيم، فإذا استأذنوك أيها الرسول الكريم لبعض حاجتهم فأذن لمن تشاء منهم، واستغفر لهم لما قد يكونوا آثروا فيه أمر الدنيا على الآخرة، فإن الله سبحانه غفور لعباده رحيم بهم. ثم ذكَّرت الآيات بأدب آخر في التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو ما يتعلق بندائه وخطابه، فلا ينبغي أن يكون نداؤكم له كما تنادون بعضكم بعضاً، ولكن قولوا يارسول الله وإن الله سبحانه وتعالى يعلم شأن أولئك المنافقين وموقفهم حينما ينسحبون من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذنه متسترين ببعضهم البعض، فليحذر هؤلاء وغيرهم، الذين يقصدون مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، أن تحل بهم محنة ونقمة في الدنيا، وعذاب مقيم مؤلم في الآخرة. ثم ختمت الآية بذكر ما لله عز وجل من الموجودات بأسرها خلقاً وملكاً وتصرفاً وتدبيراً: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يتصرف كما يشاء ويحكم كما يريد جل جلاله، وقد أحاط بما أنتم عليه من الأحوال والأفعال، فلا تخفى عليه خافية من أمركم، ويوم ترجعون إليه يوم القيامة، يجازيكم على أعمالكم، فهو سبحانه أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً.([1])

1 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، ص، 84

الباب الثاني

دراسات تطبيقية في هدايات سورة النور من الآية (27) إلى آخر السورة، وربط ذلك بواقع الأمة،

ويتكون من ثلاثة فصول

الفصـــل الأول

الهدايات الجزئية والكلية في السورة

ويتكون من مبحثين

المبحث الأول: الهدايات الخاصة بآيات السورة

المبحث الثاني: الهدايات الكلية في السورة

المبحث الأول

الهدايات الخاصة بآيات السورة من الآية 27 إلى آخر السورة

تمهيد:

إن معجزة هذا الكتاب العظيم تتعدد وجوهها، وتتنوع أساليبها، وتختلف أغراضها، ومقاصدها؛ وإن من أعظم وجوه معجزاته: ما أودع الله فيه من أسرار وهدايات، وأنوار من الحِكم المبصرات، وأنواع من المعاني والفوائد وغيرها من مقاصد التشريعات الهاديات.

وكل هذه الفوائد البينات، والمعاني النيرات؛ من أسرار التشريعات، وبصائر الهدايات، مما يفتح الله له بصائر أهل القرآن للاطلاع عليه وإبصاره، إنما هي جزء مما أودعه الله تعالى في هذا الكتاب العظيم، ومن ثم فعطاؤه لا ينفد، وأسراره وهداياته لا تنقضي ولا تنتهي، كما قال الله تعالى في خصوص هذا السياق: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ ﴾ [الكهف: 109]

وإن من أجلّ الوسائل لاستنزال هدايات القرآن الكريم، واستخراج حِكمه وأسراره، بعد الأخذ بقسط من علومه، والتمكن من حظ وافر من لغته وبيانه؛ هو: كثرة تدبره والوقف مع آياته، وذلك لما تحمله ألفاظه وكلماته، وجمله وآياته، من المعاني الكثيرة والأسرار الغزيرة، لمن تأملها وتدبرها، وهذا من إعجازه وعجائبه التي لا تنقضي.

والوقوف على أسرار آيات القرآن وهداياته، يختلف من متدبر لآخر، وذلك حسب المستوى المعرفي والاستعداد النفسي والتطهر القلبي، (فرؤية النص القرآني من متدبر إلى آخر أكثر منه بصيرة، وإدراكاً للجزئيات، وإدراكاً لظلال النص، وإدراكاً لما بين كلماته وسطوره، وإدراكاً لمقتضياته ولوازمه، وروابطه الفكرية ذات السلاسل المتعددة، تختلف اختلافاً عظيماً، ينتج عنه اختلاف كبير في مقدار الإدراك للدلالات، ومقدار الفهم للمعاني.

كاختلاف رؤية المدينة من ارتفاع عشرين ألف قدم أو أكثر في الطائرة، ودون ذلك، حتى ارتفاع أقدام لا تزيد على المئة، مع بُطْءٍ في السرعة يسمح بالتأمل في الجزئيات، والوقوف عندما يريد منها لإمعان التأمل، وإدراك النظر بغية اكتشاف الدقائق.)([1])

1 قواعد التدبر الأمثل، 239-240-241 عبد الرحمن حبنكة الميداني.

واشتمال القرآن الكريم على كثرة المعاني والدلالات، والتي لا تكاد تنحصر، فيه حث على التدبر والتفهم والاستنباط، للوقوف عليها وإظهارها.

قال الإمام الطاهر بن عاشور رحمه الله: (فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معاني من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم، وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقاً بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات، ليحصل تمام المقصود من الإرشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى)(1)

ثم قال رحمه الله بعد ذكره لقصة ابن عباس حينما أدخله عمر مع أشياخ بدر رضي الله عنهم ليسألهم وإيّاه عن قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ ﴾ [النصر: 1] كما في صحيح البخاري.([2]) -قال- معقباً على ذلك: (وإنك لتمر بالآية الواحدة فتتأملها وتتدبرها فتنهال عليك معان كثيرة يسمح بها التركيب على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي. وقد تتكاثر عليك فلا تك من كثرتها في حَصَر ولا تجعل الحمل على بعضها منافياً للحمل على البعض الآخر إن كان التركيب سَمْحاً بذلك.

فمختلِف المحامل التي تسمح بها كلمات القرآن الكريم، وتراكيبه، وإعرابه، ودلالته؛ من اشتراك، وحقيقة، ومجاز، وصريح، وكناية، وبديع، ووصل، ووقف، إذا لم تفض إلى خلاف المقصود من السياق يجب حمل الكلام على جميعها، كالوصل والوقف في قوله تعالى: ﴿ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: 2] إذا وُقف على (لاريب) أو على (فيه)([3])

---

1 التحرير والتنوير، 93/1

2 البخاري، كتاب التفسير، سورة إذا نصر الله. رقم الحديث: 4970، ورواه في كتاب المناقب، باب علامة النبوة في الإسلام، برقم:3627، وكتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، برقم: 4430 والحديث بتمامه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِه فَقَالَ لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ. فَدَعَا ذَاتَ يَوْمٍ- فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ- فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ. قَالَ مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا نَحْمَدُ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا. وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ: فَقُلْتُ لاَ. قَالَ فَمَا تَقُولُ: قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ لَهُ، قَالَ: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} وَذَلِكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَقُولُ)

3 التحرير والتنوير، 97/1.

على أن التدبر قصد استخراج الهدايات القرآنية يخضع غالباً لذائقة المتدبر وملكاته الاجتهادية ومواهبه الربانية.

وهدايات القرآن الكريم، ودلالات آياته، واسعة ومتعددة، وذلك بما أودعه الله فيها من المعاني التشريعية الخالدة، والمقاصد الإيمانية والتربوية المتجددة، إلى أن تقوم الساعة.

وسأذكر في هذا المبحث بعض ما تيسر لي ذكره وجمعه من هدايات هذه الآيات الكريمات، من سورة النور من الآية 27، إلى نهايتها. مما استفدته واستخرجته من كتب التفسير، أو مما وفق الله إليه من خلال التدبر والمدارسة لهذه الآيات:

- **الآية السابعة والعشرون:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1**) تفيد الآية في مناسبتها بما قبلها –من أول السورة إلى هنا– أن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة، فصارت كأنها طريق للتهمة، فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام، لأن في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به.([1])

(**2**) تفيد الآية في سياقها بما قبلها أن الدخول إلى بيوت الغير بغير استئذان فيه اتباع لخطوات الشيطان، المنهي عنه في الآيات السابقة، من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ... ٢١ ﴾ [الآية: 21]

(**3**) يتجلى في هذه الآية بما قبلها؛ ذلك المقصد العظيم من نزول القرآن منجماً حسب الواقائع والأحداث؛ ذلك أن هذه الآية والآيتين اللتان بعدها جاءت، بعد حديث الإفك لتقيم المسلمين على أدب خاص، يتصل بالبيوت وحرمتها، حتى لا تكون مظنة لريبة، أو موضعاً لتهمة.. ذلك والنفوس–إذ تستقبل هذه الآيات– مهيأة لقبول كل ما يدفع التهم، وينفى الريب، بعد تلك التجربة القاسية التي عاشها النبى، وزوجه، وصديقه الصديق، وصحابته، وصالحو المؤمنين.([2])

(**4**) فيها من دقة التناسب بما قبلها، من أول السورة إلى هنا؛ أن الإسلام لا يعتمد على في بناء المجتمع النظيف على العقوبات، وإنما يبنيه على الأخلاق الوقائية الراقية، التي لا تحارب دوافع الفطرة الإنسانية، وإنما تنظمها وتضع لها ما يناسبها ويحفظها من الانحلال.

(**5**)إن في تصدير الخطاب بهذا النوع من النداء: (**يا**) ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ هو للتنبيه والعناية والاهتمام والإصغاء لما سيأتي بعده من أمر، أو نهي، أو تذكير...

---

1 البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي، 30/8

2 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 /1260

(**6**) إن أشرف صفة يتصف بها العبد على الإطلاق هي صفة الإيمان، ولذلك ناداه ربه في مقام الخطاب التكليفي بهذه الصفة الجليلة، فتصدير الخطاب بوصف الإيمان مشعر بعلوّ منزلة المؤمن عند الله تعالى، مع ما فيه من ترغيب للاستجابة، وتحبيب في الامتثال.

(**7**) فيها حث وترغيب على الاتصاف بصفة الإيمان، لما لأهل هذه الصفة من شرف المنزلة، وعلو المكانة عند الله تعالى في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: 139]

(**8**) في هذا النداء استثارة الإيمان، لأن الإيمان هو الذي يحرك الضمير ويوقظه، ويجعل الإنسان إذا قرع بيتاً و لم يجد صاحبه فيه يرجع من حيث جاء، استجابة لإيمانه بأمر ربه.

(**9**) إن خطاب النداء بالإيمان هو من ألْطف أنواع الخطاب، في لفت النظر، وحظور القلب، لما فيه من إشعار المخاطَب بأن ما بعده إما خير يؤمر به، أو شر ينهى عنه، كما قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فارعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه).(1)

(**10**) تفيد أن على الداعية إلى الله تعالى أن ينادي الناس بأحب أسمائهم، وأشرف أوصافهم وألقابهم، لأن ذلك مدعاة للاستماع والاستجابة.

(**11**) فيها أن الذي يدعو الناس إلى الله تعالى ينبغي أن يتلطف في العبارة، ويتخير أحسنها وأجملها وأوقعها على القلوب، فذلك أدعى لأن يسمعوا له، ويفهموا مقصوده.

(**12**) فيها أن الأمر أو النهي ينبغي أن يُسبقا بتمهيد يحبب السامع في الاستجابة، بالامتثال أو الانتهاء، ووجه ذلك في الآية أن الله عز جل كان بإمكانه –بعد الحديث عن الحكم السابق– أن يقول مباشرة: ﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ لكنه تعالى بدأ بهذا النداء اللطيف، والتنبيه

(**13**) في وصف البيوت بقوله تعالى: ﴿ غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ خارج مخرج العادة، إذ الأصل أن يسكن الإنسان في بيته الذي هو ملكه، والتنكير في قوله تعالى: ﴿ بُيُوتًا ﴾ يفيد العموم والشمول.(2)

(**14**) فيها وجوب الاستئذان عند دخول بيت الغير، كما يفيد النهي عن الدخول إليها.

---

1 رواه ابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير في تفسيره، 1/.374

2 ينظر روائع البيان للصابوني، 2/ 123

(**15**) فيها دلالة على أن بيت الإنسان لا يجب عليه الاستئذان ممن فيه، بل له أن يدخله بلا استئذان، وهو ظاهر الآية التي ستأتي في أواخر السورة: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [النور: 61]

(**16**) تدل على أن أقوى صور التعليل، أو ذكر الحكمة، في الأحكام الشرعية هي ما ذكر صراحة بلفظ، مثل: (غير) كهذه الآية: ﴿ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ ﴾ فعلة النهي صريحة في الآية، وهي كونها: غير بيوتكم.

(**17**) تفيد أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَصَّصَ النَّاسَ بِالْمَنَازِلِ، وَسَتَرَهُمْ فِيهَا عَنْ الْأَبْصَارِ، وَمَلَّكَهُمْ الِاسْتِمْتَاعَ بِهَا عَلَى الِانْفِرَادِ، وَحَجَرَ عَلَى الْخَلْقِ أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَى مَا فِيهَا مِنْ خَارِجٍ أَوْ يَلِجُوهَا بِغَيْرِ إذْنِ أَرْبَابِهَا؛ لِئَلَّا يَهْتِكُوا أَسْتَارَهُمْ، وَيَبْلُوَا فِي أَخْبَارِهِمْ.([1])

(**18**) إن للبيوت حرمة يجب مراعاتها، ومنها عدم الدخول إليها إلا بعد استئذان وإذن من أصحابها، إذ ظاهر الآية على أن دخول الإنسان بيت غيره بدون الاستئذان والسلام لا يجوز، فهو نهي صريح، والنهي المجرد عن القرائن يفيد التحريم على الأصح كما تقرر في الأصول.([2])

(**19**) تفيد أن الناس اتخذوا البيوت للاستتار مما يؤذي الأبدان من حرّ وقرّ ومطر وقتام، ومما يؤذي العرض والنفس من انكشاف ما لا يحب الساكن اطلاع الناس عليه.([3])

(**20**) تدل أن الله تعالى إنما شرع الاستئذان لمن يزور أحداً في بيته، لأن المسلم إذا كان في بيته وجاءه أحد يزوره فهو لا يُدخِله حتى يصلح ما في بيته، ويستر ما يحب أن يستره، ثم يأذن له أو يخرج فيكلمه من خارج الباب.

(**21**) تفيد أن البيوت إنما جُعلت سكناً يفيء إليها الناس، فتسكن أرواحهم، وتطمئن نفوسهم، ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب، وهي لا تكون كذلك إلا حين تكون حرماً آمناً لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم.([4])

---

1 ينظر أحكام القرآن لابن العربي، 3/ 369

2 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 6/ 169

3 ينظر التحرير والتنوير، 196/18

4 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2507

(**22**) في الآية دلالة على أن الاستئذان ما شُرِع إلا لحكمة جليلة، وهي: إبعاد التهمة عن الداخل والمدخول عليه، فللبيوت أسرار، وقد تقع الأنظار على مثيرات لمكامن الشهوات، وقد توافق المثيرات وقتًا رائقًا لقضاء الشهوة المحرمة، فتنشأ العلاقات المحرمة، ويقع الانحراف.([1])

(**23**) تفيد أن الاستئذان هو من أجلّ وأجمل الآداب لما يوحي بالاستئناس، وإزالة الاستيحاش عن المستأذِن، والمستأذَن عليه، كما تفيده لفظة: ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾

(**24**) لأهمية الاستئذان ومكانته، عبّر عنه سبحانه وتعالى بما يؤول إليه، وما يحققه من مقاصد وثمرات، وهو: (الاستئناس) فقال: ﴿ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ والأنس ضد الوحشة.

(**25**) في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ أن المحرم الذي لا يستحل إلا بشرط، فإن ذلك الشرط واجب له، ولذلك فتحريم دخول البيوت إلا بالاستئذان دليل على وجوب الاستئذان.

(**26**) في قوله تعالى: ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ كناية لطيفة عن الاستئذان، أي يستأذن الداخل فيطلب إذناً من شأنه أن لا يكون معه استيحاش رب المترل بالداخل.([2])

(**27**) تفيد كلمة ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ -من حيث اللغة- أن من مقاصد الاستئذان: الاستعلام، بمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال، هل يراد دخولكم أم لا؟ قال عكرمة: (أي حتى تستأذنوا، وحقيقته في اللغة (تستعلموا) مشتق من آنست الشيء أي استعلمته.)([3])

(**28**) التعبير بالاستئناس في الآية هو تعبير يوحي بلطف الاستئذان ولطف الطريقة التي يجيء بها الطارق المستأذِن، فتحدث في نفوس أهل البيت أنساً به واستعداداً لاستقباله.([4])

(**29**) في الإتيان بقوله: ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ أحسن من قوله: " تستأذنوا " لأن (تستأنسوا) تتضمن الاستئذان وزيادة التعليل، وأن الحكمة التي شرع الله الاستئذان لأجلها هي حصول الاستئناس من عدم الوحشة.([5])

---

1 المرجع نفسه.

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 197

3 ينظر إعراب القرآن للنحاس، 648

4 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2508

5 ينظر: المواهب الربانية للسعدي 34

(**30**) في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ معنى دقيق، فليس المراد من اللفظ مجرد الإذن، وإنما المراد معرفة أنس أهل البيت بدخول الزائر عليهم هل هم راضون بدخوله أم لا؟([1])

(**31**) يفيد هذا التعبير: ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ بلاغياً: الإرداف، وهو أن يريد المتكلم معنى، فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ الإشارة الدال على المعاني الكثيرة، بل لفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه قرب من لفظ المعنى الخاص قرب الرديف من الردف، وواضح أن هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن فوضع موضع الإذن.([2])

(**32**) في سرّ التجوز في هذا التعبير: ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ والعدول إليه عن الحقيقة، ترغيب المخاطبين في الإتيان بالاستئذان بواسطة.

(**33**) يفيد ظاهر الآية أن الاستئذان واجب وأن السلام واجب، غير أن سياق الآية لتشريع الاستئذان. قال القاضي ابن العربي في أحكام القرآن: (قال جماعة: الاستئذان فرض والسلام مستحب، وبيانه أن التسليم كيفية في الإذن)([3])

(**34**) تدل على أن الاستئذان إذا كان قد شرع لحرمة الدور وحرمة أهلها ومن فيها، فإنه لا يجوز دخولها بدونه، وإلا بطلت الحكمة من هذا التشريع الحكيم.

(**35**) في الآية من الآداب أن المرء لا ينبغي أن يكون كلاًّ على غيره، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلى الكراهية والاستثقال، وأنه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآنسين وذلك عون على توفر الأخوة الإسلامية.

(**36**) فيها أن فائدة السلام مع الاستئذان فيه تقوية الألفة المتقررة، فلا تقتضي أكثر من تأكد الاستحباب. فالقرآن أمر بالحالة الكاملة وأحال تفصيل أجزائها على تبيين السنة كما قال تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل: 44]([4])

---

1 ينظر روائع البيان، 2/ 123

2 إعراب القرآن وبيانه، 6/ 590

3 ينظر أحكام القرآن، 371/3

4 ينظر التحرير والتنوير، 198/18

(**37**) فيها أن المستأذِن إنْ وقع نظره على صاحب المنزل، قدم السلام، وإن لم يقع قدم الاستئذان، وقدم هذا القول أقضي القضاة الماوردي من الشافعية بعد أن حكى ثلاثة أوجه للشافعية.([1])

(**38**) في جَمْع الآية الاستئذانَ والسلام بواو العطف المفيد التشريك فقط دليل على أنه إن قدم الاستئذان على السلام أو قدم السلام على الاستئذان فقد جاء بالمطلوب منه، وورد في أحاديث كثيرة الأمر بتقديم السلام على الاستئذان فيكون ذلك أولى ولا يعارض الآية.([2])

(**39**) تفيد الآية أن السلام هو شعار المؤمن وخلقه في الدخول إلى البيوت والخروج منها، ولقاء أهلها، فهو تحية أهل الإسلام في كل لقاء أو فراق، أو تواصل، أو وداع. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى مَجْلِسٍ فَلْيُسَلِّمْ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ، ثُمَّ إِذَا قَامَ فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتِ الأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَةِ))([3])

(**40**) تفيد الآية أن الله إذا حرم شيئاً حرم كل السبل التي قد تفضي إليه، فشرع الاستئذان وأمر به، اتِّقاءً لوقوع البصر على العورات التي قد تكون رؤيتها سبيلاً للشيطان لتحريك شهوة الإنسان الممهدة لارتكاب الفاحشة.

(**41**) إن دخول الإنسان إلى بيته لا يحتاج إلى استئذان، فهو مستثنى من الاستئذان: ﴿ غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ كما قال أبو حيان([4]): (وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يَجُوزُ للإِنْسَانِ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ ولا سَلامٍ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾)([5])

---

1 انظر الحاوي الكبير للماوردي، 14/146_147 (نقلا عن تيسير البيان لأحكام القرآن، 69/4، لمحمد بن علي اليمني الشافعي، المشهور بابن نور الدين، (ت 825هـــ)

2 ينظر التحرير والتنوير، 198/18

3 أبو داود، كتاب الأدب، باب في السلام إذا قام من المجلس، حديث رقم: 5208. والترمذي كتاب الاستئذان، باب ما جاء في التسليم عند القيام وعند القعود، حديث رقم: 2706 وقال: هذا حديث حسن، وأحمد في المسند، (مسند أبي هريرة) 230/2

4 هو الإمام أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، القرناطي الأندلسي الْجَيَّاني .قال الذهبي عنه) :حجة العرب، وعالم الديار المصرية)، ولد في إحدى جهات غرناطة سنة (654هـــ)، ولم يقر له القرار في الأندلس إنما عاش متنقلا حتى استقر في القاهرة حيث أصبح مدرساً في مدارس القاهرة .وتوفي فيها سنة (745هـــ) من أشهر مؤلفاته: تحاف الأريب بما في القرآن من الغريب، والبحر المحيط في التفسير (ينظر شجرات الذهب، 6/ 145)

5 البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي، 30/8

(**42**) إن الاستئذان له مقصد جليل وجميل، ألا وهو: إبعاد التهمة عن الداخل والمدخول عليه، لما للبيوت من أسرار لا يجوز كشفها وإخراجها.

(**43**) فيها تعليل لوجوب الاستئذان بأنه من أجل البصر، والتشديد على مَن لا يخشى الله تعالى باختلاس النظر أثناء الدخول للبيوت، كما بيَّنَتْه السنة النبوية، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل اطلع من جُحْر في باب النبي صلى الله عليه وسلم، ومع النبي صلى الله عليه وسلم مِدْرىً([1]) يَحُكُّ به رأْسَه: ((لَوْأَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ لَطَعَنْتُ به في عَيْنِكَ إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ))([2])

(**44**) في عَطْف الْأَمْرِ بِالسَّلَامِ عَلَى الِاسْتِئْنَاسِ وَجَعْلِ كِلَاهُمَا غَايَةً لِلنَّهْيِ عَنْ دُخُولِ الْبُيُوتِ، تَنْبِيهًا عَلَى وُجُوبِ الْإِتْيَانِ بِهِمَا، لِأَنَّ النَّهْيَ لَا يَرْتَفِعُ إِلَّا عِنْدَ حُصُولِهِمَا.([3]) ويمكن أن يكون السلام في حد ذاته استئذان، فيكون جامعاً لهما.

(**45**) في تحديد الآية الكريمة لكيفية الاستئذان، وإدخاله في آداب الدين ومبادئه العليا، أسرار ومقاصد، منها: حتى لا يفرّط الناس فيه، أو في بعضه، باختلاف مراتبهم في الاحتشام والأنفة، واختلاف أوهامهم في عدم المؤاخذة أو في شدتها.([4])

(**46**) إن القيام بالاستئذان هو خير للعباد لما فيه من امتثال أمر الله واستجابة لندائه، وهو كذلك خير للنفوس، وأطهر للقلوب من الريبة ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(**47**) في قوله تعالى: ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ حذف المتعلق، أي لعلكم تذكرون دائماً فلا تنسون، ولا تغفلون، فتكونون دائماً متيقظين، مرهفي الحواس، تحسون كل ما تمرون به من سنن الله وآياته فتتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية.([5])

---

1 مِدْرىً ومِدْرَاةٌ: شيء يُعمل من حديد، أو خشب على شكل سنّ من أسنان المشط وأطول منه، يُسرّح به الشعر المتلّبد، ويستعمله مَن لا مشط له.. (النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، 2 /115)

2 البخاري، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر، حديث رقم: 5887، ومسلم، كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره، حديث رقم: 2155، كلاهما عن سهل الساعدي رضي الله عنه.

3 ينظر التحرير والتنوير، 197/18

4 ينظر التحرير والتنوير، 196/18

5 ينظر القواعد الحسان، 27 للشيخ للسعدي

(**48**) تفيد أن القيام بالاستئذان فيه براءة الإنسان من التهمة، وهذا من أهم فوائد الاستئذان، فلو دخل المرء على بيت بدون استئذان فقد يُتهم مثلا بالسرقة أو بإرادة الفاحشة أو غير ذلك.([1])

(**49**) تفيد الآية الكريمة أن القيام بالاستئذان فيه تذكير بأوامر الله تعالى واللازم من طاعته سبحانه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ لتتذكروا بفعلكم ذلك أوامر الله عليكم، واللازم لكم من طاعته، فتطيعوه)([2])

(**50**) فيها أن من جليل ثمرات القيام بالأوامر، تَذَكُّر المطاع سبحانه، وتَذَكُّر مقامه، ليعرف العبد أنه عبد حقيقة لرب مربوب معبود. وهو ما أشار إليه الإمام الطبري في كلامه في الهداية السالفة الذكر، ذلك أن امتثال الأوامر هو جزء من الطاعة الشاملة اللازمة لحركات العبد.

(**51**) فيها أن (لعلَّ) إذا جاءت في كتاب الله تعالى فهي للتعليل والتذكير، فقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أمرناكم بهذا الأمر لأجل أن تتذكروا وتتعظوا.([3])

(**52**) إن فائدة السلام مع الاستئذان فيها تقوية للألفة المتقررة،([4]) وهي من أعظم القواعد الأخلاقية في الإسلام، ومن مقاصده العظيمة في تشريع الأحكام.

(**53**) تشير الآية إلى أن تزكية النفوس وتطهيرها، وتحصينها بأسوار الأخلاق، وخشية الله ومراقبته، هو أول ما ينبغي الاهتمام به، قبل تحصين البيوت بالأسوار وغلقها بالأبواب.

(**54**) تفيد أن ما شرعه الله تعالى من تفاصيل أحكام الاستئذان وآدابه، لهو أقوى دليل على حرص شريعة الإسلام ومبادئه، على حماية حقوق الآخرين، وحفظ أسرارهم الخاصة، وتحقيق المحبة بينهم، وكل ما يقوي روابط الإيخاء والألفة بين أفراد المجتمع. والعمل على إبعاد كل ما يفسد ذلك والقضاء على أسبابه الخاصة والعامة.

---

1 ينظر تفسير سورة النور، للشيخ العثيمين، 156

2 جامع البيان في تأويل القرآن، 149/19

3 ينظر تفسير سورة النور، للشيخ العثيمين، 157

4 ينظر التحرير والتنوير، 199/18

(**55**) هذه الآية تدل على عظمة التشريع الإلهي ودقته في حسم موضوع الحقوق والواجبات بالنسبة للإنسان، فهي تشريعات تضمن الحقوق وتلزم بالواجبات إلزاماً، وإذا التزم المؤمن بواجباته فقد أرضي ربه وحظي من هذا الرضا بسعادة الدارين.([1])

(**56**) فيها أنه لا يجب الإستئذان إذا عرض في دار أمر ما مفاجيء شديد، كالحريق أو هجوم السارق مثلا، أو غير ذلك.([2])

(**57**) في الآية بيان لمنهج الإسلام في إقامة المجتمع المسلم وتربيته، وهو: تضييق فرص الغواية، وإبعاد عوامل الفتنة، وإزالة العوائق التي تحول دون الإشباع الطبيعي بالوسائل النظيفة والمشروعة.

(**58**) تفيد أن السلام مقدم على الاستئذان لبيان الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك، كما أنه يكون أحياناً هو عين الاستئذان، كما سيتبين في الهدايات النبوية العملية الآتية.

(**59**) في بيان الهدي النبوي للاستئذان عملياً، وكيفيته، وشروط المستأذِن وآدابه عند الاستئذان... تطبيق عملي لهدايات هذه الآية، ومن هذه الهدايات النبوية العملية:

(**60**) عن كلدة([3]) بن حنبل رضي الله عنه قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم و لم أُسلّم و لم أستأذن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ارْجِعْ فَقُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ))([4])

(**61**) وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ، إِذْ جَاءَ أَبُو مُوسَى كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ، فَقَالَ: (اسْتَأْذَنْتُ عَلَى عُمَرَ ثَلاَثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ؟ قُلْتُ: اسْتَأْذَنْتُ ثَلاَثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاَثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ)) فَقَالَ: وَاللَّهِ لَتُقِيمَنَّ عَلَيْهِ بِبَيِّنَةٍ، أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ

---

1 ينظر التنشئة الاجتماعية في سورة النور والأحزاب، 117: نسرين إسماعيل حسن.

2 تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي، 97

3 كلدة بن حنبل ويقال بن عبد الله بن الحنبل وعند بن قانع كلدة بن قيس بن حنبل الأسلمي ويقال الغساني حليف بني جمح وهو أخو صفوان بن أمية لأمه، قال بن إسحاق: هو الذي قال يوم حنين لما شهدها مع أخيه صفوان ووقعت هزيمة المسلمين: بطل السحر، فزجره صفوان في قصة مشهورة ثم أسلم كلدة بعد ذلك وأقام بمكة. قال البخاري: وله صحبة (ينظر الإصابة في تمييز الصحابة، 619/5.)

4 رواه أبو داود كتاب الاستئذان، باب كيف الاستئذان، 5176 والترمذي كتاب الاستئذان، باب التسليم قبل الاستئذان 2710 وحسنه.

مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: وَاللَّهِ لاَ يَقُومُ مَعَكَ إِلَّا أَصْغَرُ القَوْمِ، فَكُنْتُ أَصْغَرَ القَوْمِ فَقُمْتُ مَعَهُ، فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَلِكَ)([1])

(**62**) وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا سَلَّمَ، سَلَّمَ ثَلاَثًا، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا))([2])

(**63**) وعن عبد الله بن بُسْر([3]) قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: ((السلام عليكم، السلام عليكم)) وذلك أن الدُّور لم يكن عليها يومئذ ستور)([4])

(**64**) في جَعْل الاستئذان ثلاثاً مِنْ مَحَاسِنِ الآدَابِ ما لا يخفى، وذلك لأنَّ في أول مرة ربما منع المستأذَن عليه بعض الأشغال من الإذن، وفي المرة الثانية ربما كان هناك ما يمنع أو يقتضي المنع أو يقتضي التساوي، فإذا لم يجب في الثالثة يستدل بعدم الإذن على مانع ثابت.

(**65**) فيها أن الاستئذان إذا كان ثلاثاً، فينبغي أن لا يكون متصلا، بل يكون بين كل استئذان وآخر من الوقت ما يكفي لاطمئنان المستأذِن بأن المستأذن عليه قد سمعه، وأن المستأذن عليه قدْ أُعْطي من الوقت ما يكفي لاتخاذ القرار بتغيير ما يجب تغييره في البيت.

(**66**) فيها أن قرع الأبواب عند الاستئذان بعنف، أو الصياح في النداء على صاحب الدار، لا ينبغي ولا يليق بالمستأذِن، لما يتضمنه هذا الفعل من الإيذاء والإيحاش، ويقاس عليه ما يفعله في زماننا بعض المستأذِنين من الضغط المتواصل على جرس الأبواب لوقت طويل مما يكون سبباً في إزعاج أهل البيت.

(**67**) فيها مشروعية السلام جهراً، عند دخول البيوت؛ ويستحسن إعادته إذا شك في إسماعه الأول، إشعاراً لأهل البيت بالأمان والطمأنينة من الداخل عليهم.

---

1 البخاري، كتاب الاستئذان، بَابُ بَابُ التَّسْلِيمِ وَالاسْتِئْذَانِ ثَلاَثًا، حديث رقم: 2062

2 البخاري، كتاب الاستئذان، بَابُ التَّسْلِيمِ وَالاسْتِئْذَانِ ثَلاَثًا، حديث رقم: 6244

3 عبد الله بن بسر بن أبي بسر الصحابي المعمّر بركة الشام، أبو صفوان المازني نزيل حمص. كان من العباد الصالحين، وخُتم له بالحسنى، إذ توفي وهو يتوضأ، وهو آخر من من مات من الصحابة، توفي سنة ست وتسعين للهجرة. (ينظر الطبقات، 7/ 413، وسير أعلام النبلاء، 4/ 437)

4 أبو داود في السنن، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان حديث رقم :5186.

(**68**) يستفاد من هدايات هذه الآية أن الاستئذان يسقط للدخول لمن دعي إلى مناسبة أو غيرها، بشرط أن يجيء في الزمان والمكان الذيْن دعي فيهما، وقد روى أبو الأحوص، عن عبد الله بن مسعود؛ قال: (إِذَا دُعِيتَ، فَهُوَ إِذْنُكَ؛ فَسَلِّمْ ثُمَّ ادْخُلْ)([1])

(**69**) فيها أن الاستئذان لا يكفي عن السلام، بينما السلام قد ينوب عن الاستئذان، وقد كان السلف يعدون السلام مفتاح الدخول، فقد روى عطاء؛ قال: (سمعت أبا هريرة يقول: إذا قال: أأدخل؟ و لم يسلم، فقل؛ لا، حتى تأتي بالمفتاح، قلت: السلام؟ قال: نعم)([2])

(**70**) فيها أن على المسلم إذا كان في زيارة لأخيه، أو أحد أقربائه وأراد أن ينصرف عليه أن يستأذن قبل أن يقوم من مجلسه، وليس بعد القيام والمشي؛ لأن هذا احترام لصاحب الدار، ولأخيك المسلم، ويكون هذا الاستئذان مصحوباً بالسلام؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: ((إذا انْتَهَى أَحَدُكُم إلى المجلس فَلْيُسَلِّمْ، فإذا أراد أن يقوم فَلْيُسَلِّمْ فليست الأولى بأحق من الآخرة))([3])

(**71**) يفيد خطاب الآية للمكلفين أنه لا عبرة بإذن الصغير، فلو خرج طفل وقال للمستأذن: ادخل، فلا يدخل إذ لا عبرة بِمَن إذنه غير معتبر شرعاً، فقد يُدْخِله على أمه مثلا، وإذا وقع مثل هذا تحتم على المستأذن أن يقول للطفل: اذهب إلى أبيك وقل له فلان، أو يعيد الاستئذان مرة ثانية وثالثة.

(**72**) يفيد ظاهر الآية أن الاستئذان يجب على كل طارق سواءً رجلاً، أو امرأة، مبصراً، أو أعمى، وبهذا قال جمهور العلماء وحجتهم في ذلك أن من العورات ما يدرك بالسمع ففي دخول الأعمى على أهل البيت بغير إذنهم ما يؤذيهم، فقد يستمع الداخل إلى ما يجري من الحديث بين الرجل وزوجته، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ))([4]) فذلك محمول على الغالب، ولا يقصد منه الحصر.([5])

---

1 أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم: 27497، باب: في الرجل يستأذن ولا يسلم. والبخاري في الأدب المفرد: 1074.

2 أخرجه البخاري في الأدب المفرد، برقم: 1083.

3 أبو داود، 5210 ، والترمذي، 2706 ، وأحمد، 9662 ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (400)

4 البخاري، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر، حديث رقم: 5887، ومسلم، كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره، حديث رقم: 2155، كلاهما عن سهل الساعدي رضي الله عنه.

5 ينظر روائع البيان، 2/ 129

(**73**) تشير إلى أن من كمال الآداب أن يستأذن الإنسان على المحارم، فقد سأل رجل رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟ فَقَالَ: ((نَعَمْ))، قَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا))، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا، أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟)) قَالَ: لَا، قَالَ: ((فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا))([1])

(**74**) فيها أن ما يضعه الناس في زماننا هذا على الأبواب من الأزرار مصحوبة بالعدسات التصويرية من أجل معرفة الزائر، هي بمثابة الاستئذان عند الضغط عليها، فإذا فُتِح الباب بالزر الكهربائي قام ذلك مقام الإذان بالدخول.

(**75**) في خَتْم الآية بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تناسب دقيق مع مضمونها، أي لعلكم تذكرون لتكون حالكم حال من يرجى أن يتذكر برجوعه إلى نفسه عند سماع هذا النهي، فيعرف أن ما يسوءه من غيره يسوء غيره منه، فيفعل ما يحب أن يفعل معه خوفاً من المقابلة، لأن الجزاء من جنس العمل.([2])

(**76**) في هذا الختم كذلك ما يدل على أن المسلم يحتاج بين الحين والآخر يحتاج إلى التذكير بأحكام الإسلام وآدابه ليتمسك بها، وأن يذكر غيره بذلك، لما طبع عليه من النسيان، والذكرى تنفع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: 55]

(**77**) فيها أن العبد لا يكون مؤمناً حق الإيمان حتى يحب لأخيه كما يحب لنفسه، كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لا يتحقق عملياً إلا بمثل هذه الأخلاق الاجتماعية، حيث يمتحن المؤمن في إيمانه بمثل هذه المعاملة بينه وبين أخيه، فما تكرهه نفسك، هو ما لدى الآخرين، وكذلك ما تحبه، والميزان هو هذه الأخلاق العملية.

(**78**) في هذه الآية بيان للمنهج التربوي الإسلامي في هذا الناحية، ويتمثل في تضييق فرص الغواية، وإبعاد كل عوامل الفتنة، وسد كل ذريعة تؤدي إلى أسباب التهييج والإثارة.

---

1 مالك في الموطأ، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان، من رواية عطاء بن يسار، 2/ 963

2 ينظر نظم الدرر، 13/ 250

(**79**) يستفاد من هذه الآية أن قاعدة: (سد الذرائع) ليست خاصة بباب الأحكام التشريعية، كما اشتهر عند الفقهاء، بل هي تطرد في كل أبواب الإسلام؛ عقيدة، وشريعة، وأخلاقاً.

(**80**) تعتبر هذه الآية أعظم بَنْدٍ فى دستور هذا الأدب الربانّى، الخاص بتزاور المسلمين، وتواصلهم بلقاء بعضهم بعضاً فى البيوت.. وهو ألاّ يدخل أحد بيتاً غير بيته حتى يستأنس، ويسلم على أهله..([1])

1 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1260

- **الآية الثامنة والعشرون:** ﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**81**) تفيد في علاقتها بما قبلها أن مجرد الاستئذان ليس كافياً للدخول، ولا يخول الزائر اقتحام البيوت، لأن الإسلام جعل للبيوت حرمة: ﴿ فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ ﴾

(**82**) في مناسبتها بما قبلها كذلك أنه لما كان أهل البيت قد يكونون غائبين، والإنسان لكونه عورة لا يحب أن يطلع غيره على جميع أموره، قال: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا ﴾

(**83**) في قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا ﴾ تعبير دقيق يشير إلى معنى أدق، فربما كان في البيت صاحبه ولم يردّ على الزائر، أو لم يأذن له، فيصدق على المستأذن أنه لم يجد أحداً، ولو قال: (فإن لم يكن فيها أحد) لما كان هذا المترع اللطيف، والسر الدقيق، والحاصل أن الآية تفيد النهي عن الدخول في حالتيْن:

(**84**) في حالة الاعتذار الضمني: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا ﴾ وهي إشارة إلى عدم الإذن.

(**85**) في حالة الاعتذار الصريح: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ ﴾ وهي تصريح بعدم الإذن صريح.

(**86**) في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ ﴾ احتراس من أن يظن ظان أن المنازل غير المسكونة يدخلها الناس في غيبة أصحابها بدون إذن منهم، توهماً بأن علة شرع الاستئذان ما يَكره أهل المنازل من رؤيتهم على غير تأهب، بل العلة هي كراهتهم رؤية ما يحبون ستره من شؤونهم. فالشرط هنا يشبه الشرط الوصلي لأنه مراد به المبالغة في تحقيق ما قبله ولذلك ليس له مفهوم مخالفة.([1])

1 ينظر التحرير والتنوير،18/ 201

(**87**) تفيد أن العلة في الصورتين (أي وجود أهل البيت، أو عدم وجودهم) واحدة، وهي جواز أن يكون هناك أحوال مكتومة يكره إطلاع الداخل عليها.([1])

(**88**) تفيد هذه الآية أن الإذن له معنيان: الأول: الدخول على أهل البيت. الثاني: كشف البيت وإطلاعه، فإن لم يكن هنالك أحد مُحْتَجِبٌ، فالبيت محجوب لما فيه، وبما فيه، إلا بإذن من ربه.([2])

(**89**) فيها وجوب الرجوع إذا لم يؤذن للمستأذن، وتحريم الدخول إذا لم يكن فيها أحد.

(**90**) تفيد أن الحكمة من طلب الإذن هي أن يأمن صاحب البيت، أو من يتولى الإذن، لأنه لن يرى شيئاً يؤذيه أو يؤذيهم.([3])

(**91**) تفيد أن صاحب البيت قد يكون في بيته على حال لا يحب أن يراه عليها أحد، إذ الدخول إلى البيوت مظنة الاطلاع على العورات.

(**92**) تفيد أن الاستئذان يجب قبل الدخول سواء كان الباب مغلقاً، أو مفتوحاً، لأنَّ الشَّرْعَ قَدْ أَغْلَقَهُ بِالتَّحْرِيمِ لِلدُّخُولِ حَتَّى يَفْتَحَهُ الْإِذْنُ مِنْ رَبِّهِ؛ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ الْبَابَ، وَيُحَاوَلَ الْإِذْنَ عَلَى صِفَةٍ لَا يَطَّلِعُ مِنْهُ عَلَى الْبَيْتِ لَا فِي إقْبَالِهِ وَلَا فِي انْقِلَابِهِ.([4])

(**93**) تفيد حفظ أمر الله تعالى، وحفظ حرمة صاحب الدار، لأن من دخلها بغير إذن صاحبها ربما تكون فيها عورة منكشفة، وربما يكون لصاحب الدار أمر لا يريد أن يطلع عليه غيره([5]) وهو من مقاصد ما وُضعت من أجله البيوت.

(**94**) تفيد وجوب ستر العورات وحفظ الأعراض، التي هي مقصد من مقاصد هذه الشريعة الغراء، فإن الله تعالى حيي كريم يحب الحياء، ستير يحب الستر.

---

1 مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للإمام الرازي، 299/11

2 ينظر احكام القرآنن لابن العربي، 3/ 374

3 سورة النور، دراسة فقهية بين الشيخين: ابن تيمية والشعراوي، ص،153

4 ينظر أحكام القرآن لابن العربي، 3/ 374

5ينظر لطائف الإشارات، للقشيري 2/ 363

(**95**) تفيد الآية أن عدم الإذن يقتضي الإسراع في الرجوع والعودة، دون الوقوف أمام الباب والانتظار، لما في ذلك من سوء أدب مع صاحب البيت، قال قتادة([1]): (إذا لم يؤذن له فلا يقعد على الباب فإن للناس حاجات)([2])

(**96**) تدل أن مَن وقف وراء الباب وكان مردوداً فلا ينظر من شق الباب، وإلا فلا يلومن إلا نفسه، فعن سهل بن سعد الساعدي أن رجلا اطلع على النبي صلى الله عليه وسلم من ستر الحجرة وفي يد النبي صلى الله عليه وسلم مدرى ، فقال: ((لو علمت أن هذا ينظرني حتى آتيه لطعنت بالمِدْرى في عينيه، وهل جُعِلَ الاستئذان إلا من أجل البصر))([3]) وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جناح))([4])

(**97**) إن لصاحب البيت الحق في أن يأذن أو يمتنع، إذ إنه لم يمنع حقاً واجباً للمستأذِن وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن وإن شاء منع.([5])

(**98**) يستفاد من هذه الآية أنه يلحق بالاستئذان ثلاثاً؛ الاتصال عبر وسائل الاتصال الحديثة، (الهاتف) فيكون ثلاثاً لا يجاوزها؛ لأن الاتصال في حكم الاستئذان لا يكون فوق ثلاث.([6])

(**99**) تفيد احترام خصوصيات أفراد المجتمع، والملكيات الفردية، وأعظم الخصوصيات هي خصوصيات البيوت، لما تحتوي عليه من أسرار أصحابها، والتي لا يجوز فضحها وانتهاكها.

---

1 هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، وقيل قتادة بن دعامة بن عكابة السدوسي البصري، والسدوسي هي إحدى قبائل ربيعة بن نزار. وصفه الذهبي بـــ: (حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين...وكان من أوعية العلم، وممن يُضرب به المثل في قوة الحفظ) ولد سنة 61هـــ وتوفي سنةك 118هـــ (ينظر سير أعلام النبلاء، 5/ 269- 270)

2تفسير البغوي (معالم التنزيل) 31/6

3 البخاري، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر، رقم: 5887، ومسلم، كتاب االآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره، رقم: 2155، كلاهما عن سهل الساعدي رضي الله عنه.

4 أخرجه البخاري كتاب الديات، باب: من اطلع في بيت قوم ففقأوا عينه فلا دية له، 6902 ومسلم كتاب الآداب باب تحريم النظر في بيت غيره برقم: 2158

5 تيسير الكريم الرحمن، 565/1

6 ينظر التفسير والبيان لأحكام القرآن، 1834/4

(**100**) تشير إلى أن للخصوصيات مقاماً يجب مراعاته، وأن تعظيم الحرمات الشخصية، والأسرية مما دعت إليه الإسلامية قبل الأنظمة البشرية والقوانين الوضعية، ومن هنا فلايجوز دخول بيت ولو كان خالياً إلا بإذن صاحبه.

(**101**) تفيد أن أعظم المسؤوليات الاجتماعية، هي مسؤولية الأسرة، ولذلك كان إزاء كل مسؤولية صلاحية بقدر هذه المسؤولية، حماية لها وصوناً لبيضتها.

(**102**) تفيد أنه إذا قال أهل البيت لَكُمْ: ارْجِعُوا فَارْجِعُوا، وَلَا تُعَاوِدُوهُمْ بِالِاسْتِئْذَانِ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَا تَنْتَظِرُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَأْذَنُوا لَكُمْ بَعْدَ أَمْرِهِمْ لَكُمْ بِالرُّجُوعِ.(1)

(**103**) إن إلحاح المستأذن في الاستئذان من غير ضرورة أمر غير محمود، كما أن الوقوف الطويل على الأبواب خلق غير مرغوب.

(**104**) فيها إذا كان الدخول قد يكرهه صاحب الدار، فكذا الوقوف على الباب قد يكرهه، فلا جرم كان الأولى والأزكى له أن يرجع إزالة للإيحاش والإيذاء.([2])

(**105**) تفيد كراهة قول المستأذن (أنا) إذا قيل له: من هذا؟ كما أفادته السنة النبوية ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعوت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ هَذَا؟)) قلت: أنا، فخرج وهو يقول: ((أَنَا أَنَا !!))([3])

(**106**) تفيد أن الزيارة إنما هي للمكين (أهل البيت) لا للمكان (البيت) فإذا لم يكن هناك أحد فلماذا ستدخل؟ إلا إذا أردت أن تدخل لترى ما بالداخل وتتلصص عليه.([4])

(**107**) إن لكل أهل بيت أسراراً، يجب حفظها إما كرامة لهم، أو كرامة للمستأذن، أو لهما معاً، ومن مقاصد تشريع الاستئذان حفظ هذه الكرامة التي تتجلى في حفظ هذه الأسرار.

(**108**) فيها أن الرُّجُوعَ أَفْضَلُ مِنَ الإِلْحَاحِ، وَتَكْرَارِ الإِسْتِئْذَانِ، وَالْقُعُودِ عَلَى الْبَابِ لأنه أَظْهَرُ مِنَ التَّدَنُّسِ بِالْمُشَاحَّةِ عَلَى الدُّخُولِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ سَلَامَةِ الصَّدْرِ وَالْبُعْدِ مِنَ الرِّيبَةِ.(1)

---

1 فتح القدير الجامع بين فَنَّيِ الرواية والدراية من علم التفسير، للإمام الشوكاني.24/4

2 مفاتيح الغيب، (التفسير الكبير للإمام للرازي) 299/11

3 مسلم، كتاب الآداب، باب كراهة قول المستأذن: أنا، إذا قيل من هذا؟ رقم: 2155

4 ينظر: سورة النور، دراسة فقهية بين الشيخين: ابن تيمية والشعراوي، ص،153

(**109**) فيها إذا كان الزائر مَنْهِياً عن الإلحاح لأنه يؤدي إلى ما هو مكروه، وجب كذلك الانتهاء عن كل ما يؤدى إلى ذلك: من قرع الباب بعنف، أو رفع الصوت بالنداء على صاحب الدار، وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم تُهَذّب أخلاقه وسلوكه.

(**110**) تشير إلى منزلة الصحابة رضي الله عنهم في حرصهم على الاستجابة لأمر الله تعالى، ويقينهم بأن فيه سعادة الدنيا والآخرة. فعن قَتادة، قال: قال رجل من المهاجرين: (لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط، لقوله: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ ﴾[2])

(**111**) في قوله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ ﴾ أدب عظيم وهو تعليم الصراحة بالحق دون المواربة ما لم يكن فيه أذىً، وتعليم قبول الحق لأنه أَطْمَنَ لِنَفْسِ قَابِلِهِ من تلقي ما لا يُدرَى أهو حق أم مواربة، ولو اعتاد الناس التصارح بالحق بينهم لزالت عنهم ظنون السوء بأنفسهم.([3])

(**112**) في التعبير بفاء التعقيب: ﴿ فَٱرۡجِعُواْۖ ﴾ ما يدل على أنّ المستأذِن عليه الإسراع في العودة والرجوع، ذلك لأن صاحب الدار، كما قد يكره الدخول، فكذلك الوقوف على الباب قد يكرهه، فلا جرم أن كان الأولى بالمستأذِن والأزكى له أن يرجع فوراً إذا لم يُستَأذَن له، إزالة للإيحاش والإيذاء الذي قد يترل بوجوده طويلا أمام الباب.

(**113**) تفيد أن أحوال الاستئذان كلها تقتضي إما أن يكون إذناً، أومنعاً، أوسكوتاً، فإن أذن له فذاك، وإن منع بصريح القول فذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ ومعنى ﴿ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ ﴾ أنه أفضل وخير لكم من أن يأذنوا على كراهية. وأما السكوت فهو ما بيّن حكمه حديث أبي موسى السابق.([4])

(**114**) فيها أنه لما كان في المنع والرجوع نقص يوجب غضاضة وَوَحَراً([5]) في الصدر، وعد سبحانه عليه بما يجبر ذلك، فقال على طريق الاستئناف: ﴿ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ ﴾

---

1 فتح القدير، 24/4

2 رواه الإمام الطبري بسنده عن قتادة، (جامع البيان في تأويل القرآن، 19/(150)

3 ينظر التحرير ووالتنوير، 18/ 200

4 ينظر التحرير والتنوير،18/ 200

5 وَحِرَ: الوحر في الصدر: مثل الغل. (مجمل اللغة لابن فارس، مادة: وحر)

(**115**) فيها إشارة إلى الحث على معرفة مواعد الزيارات، لما في ذلك من حفظ للعورات وستر للحرمات، لأن معرفة ذلك يعين على الاستعداد لاستقبال الزائر.

(**116**) إن الأخذ بهذه الآداب القرآنية الربانية، يؤدي إلى تقويّة الروابط بين المؤمنين، ودعم أُخوتهم في الدين، مع تقوية الإيمان وزيادته، ذلك أن المؤمن حينما يطبق هذه الآداب فهو يتعبّد ويتقرّب بها إلى الله تعالى.

(**117**) يستفاد من آية الاستئذان هذه، الحث على تعلّم حسن الأدب مع الآخرين، لما للعلاقات من حقوق وواجبات، يتعلمها المؤمن من دينه وشريعة ربه تعالى.

(**118**) إن المؤمن يعلم علم اليقين، أن الله يراقبه ويعلم أمره، قبل أهل البيوت وأصحابها، وأنه محاسب على أعماله وتصرفاته، لأن الله محيط بكل شيء علماً، ويعلم خائنة الأعين، ومحاسب كل عبد على عمله.

(**119**) فيها تنبيه للمؤمن بأن يهتم بكل عمل وتصرف يقوم به، وأن يراقب الله فيه، لأن الله تعالى يعلمه قبل أن يصدر منه، فكيف إذا صدر، وهو ما يفيده التقديم في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فالأصل والله عليم بما تعملون، فقدم سبحانه عملهم على علمه به، لأهمية استحضار مراقبة الله في كل عمل.

(**120**) تفيد هذه الآية أن الإستئذان قبل الدخول قائم سواء كان الباب مغلقاً أو مفتوحاً؛ لأن الشرع قد أغلقه بالتحريم للدخول حتى يفتحه الإذن من ربه؛ وأن على المستأذن أن يأتي الباب، ويحاول الإذن على صفة لا يطلع منه على البيت لا في إقباله ولا في انقلابه.([1])

(**121**) في ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تذييل لهذه الوصايا بتذكيرهم بأن الله عليم بأعمالهم ليزدجر أهل الإلحاح عن إلحاحهم بالتثقيل، وليزدجر أهل الحيل أو التطلع من الشقوق ونحوها. وهذا تعريض بالوعيد لأن في ذلك عصياناً لما أمر الله به. فعلمه به كناية عن مجازاته فاعليه بما يستحقون.([2])

---

1 ينظر أحكام القرآن لابن العربي، 3 / 374

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 201

(**122**) فيها توعّد لأهل التجسس على البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصي، والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز، ولغيرهم ممن يقع في محظور.([1])

(**123**) في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وعد للمؤمن المحسن في عمله، ووعيد للمخالف المسيء في تصرفه، فالله تعالى سيجازي المحسن، والمسيء، كلا بما يستحق.

(**124**) في هذا الختم توعد لأهل التجسس على البيوت، وطلب الدخول على غيره والنظر لما لا يحل، فالله عليم بكل ما يُضمرون، وبكل ما يأتون وما يذرون، كما يفيده حرف الجر المتصل باسم الموصول المقدم، إذ الأصل: والله عليم بما تعملون.

(**125**) في إيثار اسم الجلالة في خاتمة الآية، ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ لإحضاره باسمه في ذهن السامع فيزدجر ويعرف أن الآمر بهذا هو الله الذي لا تخفى عليه خافية.([2])

(**126**) لم تحدد هذه الآية ولا غيرها صيغة معينة للاستئذان، (وما ورد في بعض الآثار فإنها محمولة على أنه المتعارف عليه بينهم، أو على أنه كلام أجمع من غيره في المراد،([3]) ومع ذلك فالتقيد بما ورد أحسن وأنفع.

(**127**) تفيد -كما بينت السنة النبوية- أن المستأذن إن لم يؤذن له بالدخول يكرره ثلاث مرات، فإن لم يؤذن له انصرف أما السلام فقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم كما مر معنا.

(**128**) تفيد أن من مقاصد التربية الإسلامية؛ تضييق فرص الغواية، وسد كل الطرق المؤدية إلى الفتنة، وإزالة العوائق التي تحول دون الإشباع الطبيعي بالوسائل النظيفة المشروعة.

(**129**) فيها مِنَ الآدابِ أَنَّ المرْءَ لا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَلًّا عَلى غَيْرِه، ولا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ إلى الكَراهِيَةِ والاسْتِثْقال، وأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الزّائِرُ والمَزُورُ مُتَوافِقَيْنِ مُتَآنِسَيْنِ وذَلِكَ عَوْنٌ عَلى تَوَفُّرِ الأُخُوَّةِ الإسْلامِيَّةِ.([4])

---

1 الجامع لحكام القرآن للقرطبي، 220/12

2 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 40

3 أورد ابن أبي شيبة في المصنف: 8/ 419، كتاب الأدب، باب في الاستئذان، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! هذا السلام فما الاستئناس؟ قال: ((يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة ويتنحنح ويؤذن أهل البيت)) وأورده ابن كثير في تفسيره: 6/ 41 وقال: (هذا حديث غريب)

4 ينظر التحرير والتنوير، 199/9

(**130**) تفيد هذه الآية -مع التي قبلها- حرمة المسلمين فيما بينهم والتي يجب مراعاتها وعدم انتهاكها، فلا يجوز لمسلم أن يؤذي أخاه في نفسه، أو أهله، أو ماله، فحرمة إنما من حرمة أهلها.

(**131**) في ختام هذه الآية تناسب دقيق مع مضمونها، ذلك أنه لما كان التقدير: إن الله سبحانه يجازيكم على امتثال أمره، وكان الإنسان قد يفعل في البيوت الخالية وغيرها من الأمور الخفية ما يخالف ما أدّب به سبحانه، مما صُورَتُه مصلحة وهو مفسدة، عطف على ذلك المقدَّر قولَه: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وقدم الجار مبالغة في العلم، ليصير كما إذا سألت شخصاً عن علم شيء فقال لك: ما أعلم غيره، أي وإن التبس أمره على أحذق الخلق فهو لا يخفى عليه شيء منه وإن دق، فإياكم ومشتبهات الأمور.([1])

(**132**) تفيد هذه الآية أن أعمال المؤمن ترتبط بإيمانه؛ قوة، وضعفاً، فإن كان إيمانه قوياً، كان في أعماله شديد المراقبة لله تعالى، فلا يقع منه إلا ما يرضي الله سبحانه، وإن كان ضعيفاً، كان ضعيف المراقبة، ومن ثم تعرض للخلل والتفريط في حق الله تعالى.

(**133**) فيها دعوة للمؤمن بأن يكون دائم الاستحضار لله تعالى، وذكره عند كل عمل، فإن ذلك مدعاة لأن يحفظه الله من الوقوع فيما لا يرضيه جل جلاله، فإنه سبحانه لا يتخلى عن عبده المؤمن الصادق معه، ليتركه فريسة للهوى والشيطان.

(**134**) تفيد أن على الفقيه وهو يبين أحكام الشرع من حلال وحرام، وواجب وأمر..؛ أن يمزج ذلك بما يرقق القلوب من الوعظ والوعد والوعيد، بربط العباد بالله وصفاته، وذلك لما لهذا الأسلوب من التأثير في حصول الاستجابة واستحضار مراقبة الله تعالى في الفعل والترك، إذ الاستجابة للأمر تكون على قدر معرفة منزلة الآمر وعظمة مخالفة أمره سبحانه.

---

1 ينظر نظم الدرر، 13/ 252

- **الآية التاسعة والعشرون:** ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**135**) في مناسبتها بما قبلها أنه لما كان من الأماكن التي قد لا يوجد بها أحد ما يباح الدخول إليه، لخلوه أو عدم اختصاص النازل به، كالخانات والربط، أتبع ما تقدم التعريف بأنه لم يدخل في النهي فقال مستأنفاً: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾(1)

(**136**) يفيد الاستثناء: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ بأنه ليس على مَنْ دخل بيوتاً غير مسكونة إثم ولا حرج، (وذلك لأن المانع من الدخول إلا بإذن زائل عنها)([2]) قال الزمخشري: (اسْتَثْنَى مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي يَجِبُ الاسْتِئْذَانُ عَلَى دَاخِلِهَا مَا لَيْسَ بِمَسْكُونٍ مِنْهَا نَحْوَ: الْفَنَادِقِ وَهِيَ الْخَانَاتُ وَالرُّبُطُ وَحَوَانِيتُ الْبَيَّاعِينَ، وَالْمَتَاعُ الْمَنْفَعَةُ كَالاسْتِكْنَانِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَإِيوَاءِ الرِّحَالِ وَالسِّلَعِ وَالشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ)([3])

(**137**) فيها من دليل مفهوم المخالفة: أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، محرم وفيه حرج.

(**138**) فيها أن أمر التشريع قائم على التيسير والرحمة بالعباد، فما من أمر ينفع العباد في معاشهم، وينتفعون به في أمور دنياهم ودينهم، إلا ورفع الله الإثم عنهم في الانتفاع به، مالم يُدخل الضرر على بعضهم، فإن الضرر يُزال، كما في القاعدة الفقهية.

(**139**) يستفاد من هداية هذه الآية، أن ما من قاعدة في الفقه والتشريع، إلا ولها استثناء، الذي يعطي لها الاستمرارية، ويجعلها واقعية وعملية. والاستثناء يؤكد القاعدة ولا يخرمها.

(**140**) تفيد أن الغاية من الدخول إلى البيوت غير المسكونة هو هو توخي المنافع، مثل الراحة وتوقي الحر والبرد وكل ما فيه منفعة ومصلحة للداخل.

---

1 ينظر نظم الدرر، 13/ 252

2 ينظر مفاتيح الغيب، 11/ 299

3 ينظر تفسير الكشاف، 18/ 726

(**141**) تشير إلى أنه لا حرج في الدخول إلى الأماكن العامة بغير استئذان، كالمحلات التجارية، والمطاعم، والأماكن المعدة لنزول المسافرين، والإدارات العمومية، وغيرها، مما هو عام وَوُضِع لتُقضى فيه حوائج الناس ومصالحهم. قال ابن العربي: (وَكَذَلِكَ دَكَاكِينُ التُّجَّارِ -أي لايستأذن لها- قَالَ الشَّعْبِيُّ: لا إذْنَ فِيهَا؛ لِأَنَّ أَصْحَابَهَا جَاءُوا بِبُيُوعِهِمْ، وَجَعَلُوهَا فِيهَا، وَقَالُوا لِلنَّاسِ هَلُمَّ)([1])

(**142**) تفيد من الفقه: أن للرجل أن يأخذ وينتفع بما تركه الناس رغبة عنه، أو بما يعلم أنهم يرضون بالانتفاع به في العادة، والله أعلم.([2])

(**143**) إن الأصل في الدخول إلى البيوت لا يكون إلا بغرض، فإما أن يكون غرض الزيارة وصلة الرحم، كالدخول إلى البيوت المسكونة. وإما أن يكون غرض الاستمتاع كالدخول إلى الْخَانَاتُ وَالرُّبُطُ وَحَوَانِيتُ الْبَيَّاعِينَ، وَالْمَتَاعُ الْمَنْفَعَةُ كَالِاسْتِكْنَانِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَإِيوَاءِ الرِّحَالِ وَالسِّلَعِ وَالشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ.

(**144**) في قوله تعالى: ﴿ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ إشارة إلى أن الولوج والخروج في البيوت والمساكن ولو كانت غير مسكونة ينبغي أن يكون لسبب وحاجة، لا عن فضول.([3])

(**145**) تفيد أن رفع الحرج في الدخول إلى البيوت الغير المسكونة للاستمتاع، إنما فيما هو حلال ومباح، أما الدخول إلى بيوت فيها ما هو حرام، كبيوت البغايا مثلا، أو البيوت التي يعصى فيها الله تعالى، فهذه لا يحل الدخول إليها. ولذلك قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾ في تحديد هذا الاستمتاع المباح لكم من غيره.

(**146**) فيها أن البيوت لو كانت غير مسكونة، ولكنها كانت مغصوبة، فإنه لا يجوز للداخل أن يدخل فيها. ([4])

(**147**) تفيد الوعيد لمن أعرض عن أمر الله تعالى، ولم يستسلم لحكم شريعته، واتبع هواه ومصلحته: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾

---

1 ينظر أحكام القرآن، 3/ 376

2 ينظر تيسير البيان لأحكام القرآن، 72/4، لمحمد بن علي اليمني الشافعي، المشهور بابن نور الدين، (ت 825هـــــ)

3 ينضر التفسير والبيان لأحكام القرآنن 4 / 1837

4 ينظر مفاتيح الغيب، 11/ 299

(**148**) فيها كذلك وعيد شديد لأهل الريبة والنوايا الخبيثة الذين لا يقصدون إلا التطلع على عورات الناس أو غيرها من الأغراض السيئة.([1])

(**149**) تفيد الوعيد للذين يدخلون البيوت غير المسكونة من أهل الريب، وذلك حتى لا يكون هذا مبرراً لكل دخول، على أن هذه البيوت غير مسكونة هكذا دون قيد او شرط.

(**150**) في ختام هذه الآية تناسب عظيم، ذلك أنه لما كان التقدير: أن الله لا يمنعكم مما ينفعكم، ولا يضر غيركم، عطف عليه قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ في كل وقت، تحذيراً مِنْ أنْ تزاحموا أحداً في مباح بما يؤذيه ويضيق عليه، معتلين بأصل الإباحة، أو يؤذن لكم في مترل فتبطنوا فيه الخيانة، فإنه وإن وقع الاحتراز من الخونة بالحجاب، فلا بد من الخلطة لما بني عليه الإنسان من الحاجة إلى العشرة.([2])

(**151**) فيها وعيد لأهل التجسس على البيوت، وطلب الدخول على غفلة للمعاصي والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز.([3])

(**152**) فيها تذكير بمراقبة لله للعبد في السر والعلن، وأن الله يعلم بواطن الأمور قبل ظهورها، وفي هذا ربط للعمل بالإيمان، لأنه ثمرته.

(**153**) تفيد أن المؤمن يجب عليه أن يكون سره كعلانيته، وفعله مصدق لقوله، فالله تعالى لا تخفى عليه خافية من أمره، فلا حيلة مع الله تعالى.

(**154**) في ختم الآية بذكر اسم الجلاله وإظهاره (والله) لاستحضاره باسمه تعالى في ذهن السامع ليزدجر ويعرف أن الآمر بهذا هو الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية، من أمر العباد، سواء أطاعوه أم عصوه.

(**155**) إن صيانة البيوت والحفاظ على حرماتها، هو صيانة للمجتمع، وحفظ لأمنه وحرماته، ومن ثم صيانة لأوامر الله تعالى التي فرضها في هذه السورة الكريمة، سورة النور.

(**156**) فيها أن خير ما يستعين به العبد في ضبط تصرفاته، وحفظ حقوق غيره، وتعظيم حرماته، أن يراقب الله تعالى ويستحضر اطلاعه على أحواله وأقواله وأفعاله.

---

1 ينظر روائع البيان، 124/2

2 ينظر نظم الدرر، 253/13

3 ينظر التفسير المنير، 18/ 209

(**157**) تفيد أن كل مباح أباحه الله تعالى للعباد، ورفع عنهم الحرج في الانتفاع به، مشروط بما لا يؤدي إلى الاعتداء على حقوق الآخرين، فالمباح مباح في حدوده، وإلا انقلب إلى محظور شرعي يحاسب العبد على اقترافه.

(**158**) تفيد أن الله سبحانه وتعالى يتساوى عنده الظاهر والباطن، والعلن والخفي، والسر والجهر.. وفي ذلك تربية للمؤمن على هذه العقيدة في الله، حتى تعظم قلبه مراقبته في هذه الأحوال كلها، فإن مَن عظمت في قلبه مراقبة الله، عظمت عنده معصيته.

(**159**) تشير إلى أن العبد مسؤول عن أفعاله ويتحمل المسؤولية الكاملة في ذلك، فلا تنفعه الحيلة في إبداء ما يراه حسناً، وإخفاء ما يراه سيئاً، لأن الله يعلم ذلك كله، ووجه ذلك في الآية أن الله أسند الإبداء والكتم للإنسان نفسه فهو الذي يفعل ذلك: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾

(**160**) تشير إلى رحمة الله تعالى بعباده، فرغم أنه يعلم سرهم وبواطنهم، ونياتهم فيما يريدونه، أو يقدمون عليه، إلا أنه لا يفضحهم، بل يذكرهم بعلمه، ويبين لهم ما يلحقهم من نفع أو ضرر، في الإقبال، أو الإدبار، ويدعوهم لتوبته ورحمته فسبحانه من رحيم كريم.

- **الآية الثلاثون:** ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**161**) في ابتداء هذا الأمر استئناف جميل بعد الآيات السابقة، وهو مسوق للشروع في بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة، يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجاً كلياً.

(**162**) تفيد في علاقتها بما قبلها، أن المستأذنين بعد دخولهم البيوت، هم أوّل من يندرج تحت هذا الأمر الإلهي اندراجاً أوَّلِيّاً، أي قل لهم يارسولنا إذا دخلوا بيوت غيرهم: ﴿ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ (1) ولا يتركونها تصول وتجول في مرافق البيوت ومداخلها وأشيائها، لأن ذلك أقل ما يقال عنه أنه فضول زائد لا يليق بالمسلم.

(**163**) تفيد دقة التناسب: بأن أعقب الله سبحانه حكم الاستئذان ببيان آداب ما تقتضيه المجالسة بعد الدخول وهو ألا يكون الداخل إلى البيت محدقاً بصره...) ([2])

(**164**) فيها تلوينُ الخطاب وتوجيهه إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وتفويضُ ما في حيِّزِه من الأوامر والنَّواهي إلى رأيه عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّها تكاليفُ متعلِّقةٌ بأمورٍ جُزئيةٍ كثيرةِ الوقوعِ، حقيقةٌ بأن يكون الآمر بها المتصدي لتدبيرها حافظاً ومُهيمناً عليهم. ([3])

(**165**) إن مجيء الأمر بغَضّ البصر بعد آيات الاستئذان مباشرة فيه إشعار بأن غض البصر من المستأذِن مطلوب بشكل أوكد ([4]) لمظنة وقوع نظر المستأذِن على عورات البيت.

(**166**) في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ ﴾ مفعولُ الأمر، أمرٌ آخرُ قد حُذف تعويلاً على دلالة جوابه عليه، أي قُل لهم غُضُّواً يَغُضُّواْ مِنْ أبصارهم،([5]) وفي هذا التعبير إشارة إلى أن المؤمن يسارع إلى تنفيذ أمر الله فهو لا يحتاج إلا إلى تذكير.([1])

---

1 ينظر البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، 1224

2 التحرير والتنوير، 18/ 203

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 169

4 فتح البيان في مقاصد القرآن، 6/ 346 للقنوجي صديق خان.

5 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 169

(**167**) إن من أعظم ما يعين العبد على امتثال أمر الله تعالى، هو تذكيره بذلك الميثاق العظيم الذي يربطه بربه، ألا وهو ميثاق الإيمان: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ إذ أن من مقتضيات الإيمان الاستجابة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

(**168**) في التعبير بالوصف: ﴿ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ إشارة إلى عدم القدرة على الاحتراز من الْمُخالِط بعد الخُلْطَة، وأنه لا يعف فيها إلا من رسخ الإيمان في قلبه لخفاء الخيانة حينئذ بخلاف ما سبق في المنع من الدخول حيث كان التعبير ب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾([2])

(**169**) في تخصيص المؤمنين بهذا الأمر؛ لأن غيرهم لا يلزمه غض البصر وحفظ الفرج عما لا يحل له، لأن هذه الأحكام كالفروع للإسلام، والمؤمنون مأمورون بها ابتداء، والكفار مأمورون قبلها بما تصير هذه الأحكام تابعة له، وإن كان حالهم كحال المؤمنين في استحقاق العقاب على تركها. ([3])

(**170**) تفيد وجوب غض البصر عن النظر إلى كل ما هو محرم، وأن ذلك من مستلزمات الإيمان ومقتضيات أخلاق الإسلام.

(**171**) إن غض البصر عن المحرمات، يقتضي غض بصر القلب عن التفكر فيها، أي (يَغُضُّوا من أبصار الظواهر عن المُحَرَّمات، ومن أبصار القلوب عن الفِكَرِ الرَّدِيّة، ومن تصورُّ الغائبات عن المعاينة، ولقد قالوا: إنَّ العينَ سببُ الحَيْن) ([4])

(**172**) إن الأمْرَ بغض البصر عن الحرام هو أمر متجدد بتجدد حركات العباد سعياً في هذه الحياة، في كل زمان ومكان، كما يفيده الفعل المضارع: ﴿ يَغُضُّواْ ﴾

(**173**) في الأمر بغض البصر أدب شرعي عظيم في مباعدة النفس عن التطلع إلى ما عسى أن يوقعها في الحرام، أو ما عسى أن يكلفها صبراً شديداً عليها.([5]) ورب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً.

---

1 ينظر روائع البيان، 141/2

2 ينظر نظم الدرر، 13/ 254

3 ينظر مفاتيح الغيب، 11/ 301

4 ينظر لطائف الإشارات 2/ 365 للقشيري.

5ينظر التحرير والتنوير، 18/ 204

(**174**) فيها أن فتح باب الفتنة يكون بالعين الْمُحَمْلِقَة والبصر الطامح، والإيمان أساس – هنا– في كبح الهوى لأنه مَن الذي يعلم خائنة الأعين؟ ومن الذي يعلم كيف تُرسِل بصرك؟ وما النية الكامنة وراء هذه النظرة؟([1])

(**175**) في الحكمة من أمر الله المؤمنين بغض البصر، قبل أمرهم بحفظ الفروج؛ لبيان أن إطلاق البصر جالب للفاحشة وباب لها، وحبل من حبال الشيطان الموصلة إليها، فقدم الوسيلة على الغاية.

(**176**) في الحكمة من تقديم أمر الرجال على أمر النساء بغض البصر؛ أن الرجال أكثر عرضة لرؤية العورات؛ لكثرة خروجهم وكسبهم وتعرضهم للتعامل مع الناس، فالأصل في الرجال: الخروج والكسب، والأصل في النساء: القرار والكفاية؛ ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم الرجال عن الجلوس في الطرقات؛ حتى لا يتعرضوا لرؤية العورات، فلما أبدوا حاجتهم بها، أمرهم بغض البصر؛ فقال: ((إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ بِالطُّرُقَاتِ)). فقالوا: يا رسول الله، مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، فقال: ((فإذا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ)). قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: (غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بالمعروف، والنهي عن المنكر))([2])

(**177**) في تقديم أمر الرجال على أمر النساء بغض البصر أيضاً؛ أن أثر النظر على الرجال أشد من أثره على الشاء، وفتنة النساء للرجال أشد من فتنه الرجال للنساء، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أضر على الرجال من النساء))([3]) فناسب تقديم أمرهم بغض البصر قبل أمر النساء.

(**178**) في الحكمة من تقديم أمر الرجال على أمر النساء بغض البصر كذلك؛ أن الرجال أجسر على مد البصر من النساء؛ فإن الرجل إن كان ضعيف الإيمان مريض القلب فهو أجسر

---

1 ينظر نظرات في التفسير (آراء الإمام الغزالي لمعاني بعض الآيات): متولي محمد متولي، 252

2 البخاري، كتاب الاستئذان، باب قول الله تعالى: {يا أيها الَّذينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًاحديث...} رقم: 5875، ورواه مسلم، كتاب اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْجُلُوسِ فِي الطُّرُقَاتِ وَإِعْطَاءِ الطَّرِيقِ حَقَّهُ، حديث رقم: 2121

3 البخاري، كتاب النكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة حديث رقم: 4808

على مد البصر وإطالته، بخلاف نظر المرأة إلى الرجل، فهي أضعف؛ لما جبلت عليه من حياء وضعف وخوف. ([1])

(**179**) فيها أن الأمر لما كان في غاية العسر، قال: ﴿ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ بإثبات (مِنْ) التبعيضية، إشارة إلى العفو عن النظرة الأولى، وأن المأخوذ به إنما هو التمادي، ولما كان البصر بريد الزنى قدمه.([2])

(**180**) في قوله تعالى: ﴿ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ إشارة إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: ((لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ))([3]) فإذا وقع البصر على ما لا يجوز النظر إليه فجأة وجب غضه شرعاً، امتثالا لأمر الله تعالى، وأمر سوله صلى الله عليه وسلم، وإلا وقع الناظر في المحظور الجالب للإثم.

(**181**) في التعبير ب: ﴿ مِنۡ ﴾ المفيدة للتبعيض، تيسير من الله على عباده، ورحمته بخلقه، إذ غض البصر كلياً مما يصعب ويستحيل تحققه في حركة المجتمع. قال ابن عطية رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ أظهر ما في (مِنْ) أن تكون للتبعيض وذلك أن أول نظرة لا يملكها الإنسان وإنما يغض فيما بعد ذلك فقد وقع التبعيض، ويؤيد هذا المعنى ما روي من قوله عليه السلام لعلي بن أبي طالب: ((لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ))([4])

(**182**) وبتوجيه آخر يفيد قوله تعالى: ﴿ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ أي ينقصوا من نظرهم، فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو مغضوض ممنوع عنه، وعلى هذا ف(مِنْ) ليست بزائدة، – على رأي الأخفش– ولا هي للتبعيض، بل هي من صلة الغض يقال غضضت من فلان إذا نقصت من قدره([5])

---

1 ينظر التفسير والبيان لأحكام القرآنن 4/ 1838

2 ينظر نظم الدرر، 254/13

3 أخرجه أبو داود في النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، حديث رقم: 2149. والترمذي في أبواب الأدب، باب ما جاء في نظر الفجاءة، حديث رقم: 2777. والدرامي في الرقاق، وأحمد في مسنده (5 / 351، 353). وصححه الأباني في صحيح الترغيب، 2/ 189برقم: 1920.

4 سبق تخريجه.

5 ينظر مفاتيح الغيب، 11/ 301

(**183**) في قوله تعالى: ﴿ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ بلاغة الإيجاز بالحذف، أي عما حرّم الله، لا عن كل شيء.

(**184**) في وجه الإتيان ب (مِنْ) في الأبصار دون الفروج، أن غض البصر كله كالمتعذر بخلاف حفظ الفروج فإنه ممكن على الإطلاق.([1])

(**185**) يفيد دخول (مِن) على غض البصر دون حفظ الفرج، في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾ الدلالة على أن أمر النظر أوسع من أمر الفرج، ولهذا يحل النظر في ذوات المحارم، والإماء المستعرضات إلى عدة من أعضائهن، ولا يحل شيء من فروجهن)([2])

(**186**) تفيد أن غض البصر لما كان تحريمه تحريم الوسائل، فيباح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خيف منه الفساد، ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة؛ لم يأمر سبحانه بغضه مطلقاً؛ بل أمر بالغض منه، وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال، لا يباح إلا بحقه فلذلك عم الأمر بحفظه.([3])

(**187**) تفيد أن للعين حظاً من الزنا مدركة ذلك لا محالة، غير أن المؤمن يملك نفسه بغض بصره امتثالا لأمر ربه وخوفاً من عقابه. كما قال النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ))([4])

(**188**) تفيد أن التي لا تُشتهى لصغر، لا يحرم النظر إليها فيما دون سبع سنين، وكذلك الكبيرة من القواعد التي لا يرجون نكاحاً.

---

1 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 44

2 ينظر مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، للإمام أبي بكر الرازي، ص، 239.

3 ينظر روضة المحبين، 92/1، لابن القيم

4 مسلم، كتاب القدر، بَابُ قُدِّرَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزِّنَا وَغَيْرِهِ. حديث رقم:6924

(**189**) تفيد أن المؤمن مأمور بحفظ قلبه عن المحرمات بالتفكر فيها، إذ النظر سبيل للتفكر في الشهوة؛ وقد سئل الشِّبليِّ([1]) عن قوله تعالى: ﴿ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ فقال أبصار الرؤوس عن المحرمات، وأبصار القلوب عما سوى الله تعالى.([2])

(**190**) في تقديم الأمر بغض البصر عن الأمر بحفظ الفروج، لأن النظر بريد الزنا. قال الإمام الرازي: (فإن قيل فلم قدم غض الأبصار على حفظ الفروج، قلنا لأن النظر بريد الزنى ورائد الفجور والبلوى فيه أشد وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه)([3])

(**191**) تفيد الفرق بين النظر والإبصار، فقد ينظر الإنسان، ولكن قد لا يبصر، إذ الإبصار نتيجة لتحديق النظر وتقليبه، فإذا أبصرت الشيء فقد رأيته، أما النظر فقد تحصل به الرؤية وقد لا تحصل، فالنظر إلى جهة ما، أو شيء ما، لا يعني رؤيته كما هو تفصيلا وتدقيقاً، إلا إذا كان النظر إبصاراً، وهذا هو السر في تعبير القرآن في هذا السياق بالإبصار: ﴿ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ ولما كان كذلك اقتضى الأمر بالغض منه.

(**192**) إن الأمر بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار، لأن النظر ذريعة الزنى. فلما كان ذريعة له، قصد المتذرع إليه بالحفظ، تنبيهاً على المبالغة في غض الأبصار في محاسن النساء.([4])

(**193**) تفيد أنه لا تلازم بين غض البصر وسفور النساء ولما كان النهي عاماً في الآية: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ دل على أن المراد تحريم النظر إلى جميع العورات ولو في غير النساء كالنظر إلى الأمرد، وكذلك النظر إلى الصور، وكل ما يثير الشهوة، حتى بين النساء أنفسهن إذا كان بقصد الشهوة.

(**194**) في هذا النهي العام كذلك؛ ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ بطلان ما يحتج به بعض أهل الأهواء على جواز سفور المرأة لأن الله أمر الرجال بغض البصر؛ لأنه لو لم يكن كاشفات، لم يأمر الرجال بغض أبصارهم، فهذا غلط؛ وذلك لأن الله نهى عن نظر الرجل لا إلى موضع معين

---

1 هو أبو المُظفرِ هبةُ اللهِ بنِ أحمدَ الشِّبليِّ البغدادي القصار، الشيخ المسند بقية المشايخ، خاتمة من سمع من أبي نصر الزينبي. توفي سنة (557 هـ). (سير أعلام النبلاء: 20/ 393).

2 ينظر مفاتيح الغيب، 11/ 304

3 مفاتيح الغيب، 11/ 305

4 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 204

من المرأة، وإنما نهى نهياً عاماً لكل ما يحرم النظر إليه، وما لم يحرم النظر إليه إذا كان فيه فتنة كنظره إلى لباسها وشخصها، ومحاولة تصور ملامح ومفاتن جسدها.([1])

(**195**) فيها أن الله سبحانه وتعالى حينما قَرَن النهي عن النظر إلى المحارم بذكر حفظ الفروج: ﴿ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾ كان ذلك تنبيهاً على عِظَم خَطَر النظر؛ فإنه يدعو إلى الإقدام على الفعل.([2]) لأنه مقدمة له.

(**196**) فيها أنه لما كان حفظ الفرج لخطر المواقعة أسهل من حفظ البصر، ولأنه لا يفعل به من غير اختبار، حذف (مِنْ) لقصد العموم فقال: ﴿ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾

(**197**) في قوله تعالى: ﴿ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾ إشارة إلى وجوب ستر العورة، فإن حفظ الفرج كما يشمل حفظه عن الزنى، يشمل كذلك ستره عن النظر. على تفصيل في حدود عورة كل من الرجل والمرأة، ينظر في الأحكام الفقهية للآية.

(**198**) فيها أن حفظ الفروج معناه حفظ الشرف، وحفظ الدين، وحفظ النسل، وحفظ الصحة، كل هذا يتجسد في حفظ الفروج، فالمرأة إذا تمزق سياج عفافها، والرجل إذا زلت قدمه في مهاوي الفساد أمسى الكل فاقداً لدينه خاسراً شرفه، ومضيعاً لسلامته.([3])

(**199**) إن حفظ الأبصار والفروج عن المحرمات، أطهر للمؤمن من دَنَسِ الإثم، أو الريبة، وهو سبيل لتزكية النفس، وتطهير العمل، فمن غض بصره عن المحرمات أنار الله بصيرته، وطهّر أعماله، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

(**200**) إن من يضمن حفظ بصره وفرجه عن المحرمات، يضمن بفضل الله تعالى سعادة الدنيا والآخرة، كما قال رسول الله صلى الله وسلم: ((من يكفل لي ما بين لَحْيَيه وما بين رجليه، أكفل له الجنة))([4])

---

1 ينظر التفسير والبيان، 4 / 1839

2 ينظر لطائف الإشارات، للإمام القشيري، 364/2 (بتصرف)

3 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 47

4 صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب حفظ اللسان، حديث رقم: 6476 من حديث سهل بن سعد، رضي الله عنه.

(**201**) في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ ﴾ أفعل التفضيل وهو هنا ليس على بابه، وإنما هو (للمبالغة)، أي إن غض البصر وحفظ الفرج طهرة للمؤمن من دنس الرذائل، أو نقول: (المفاضلة) على سبيل الفرض والتقدير.([1])

(**202**) فيها حث الإسلام على تزكية الفرد والمجتمع، بتزكية النفوس وتربيتها وتطهير القلوب وإخلاصها، ﴿ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ ﴾ إذ أصل تزكية الفرد والمجتمع من الانحراف، إنما يكون بتزكية النفوس وتربيتها، وحفظ القلوب وسلامتها، حتى تكون لله عز وجل، وتصدر عنه في كل شيء.

(**203**) تفيد أن غض البصر عن المحارم من العبادات التي يتقرّب بها إلى الله عز وجل، ابتغاء مرضاته.

(**204**) يفيد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ ترغيب وترهيب، يعني :أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم، فكيف يجيلون أبصارهم، وهو يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور؟! فعليهم إذا عرفوا ذلك، أن يكونوا منه على حَذر.(2)

(**205**) في التعبير بحرف (إنَّ) ووصف حالهم بالفعل المضارع (يصنعون): ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ تأكيد بأن الله لا يخفى عليه شيء من أمرهم وأحوالهم، في كل وقت وفي أي مكان، فالفعل المضارع يفيد التجدد زماناً ومكاناً.

(**206**) إن تذييل الآية بهذه الجملة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ كناية عن جزاء ما يتضمنه الأمر من الغض والحفظ لأن المقصد من الأمر الامتثال.([3])

(**207**) تفيد أن المقام لما كان صعباً لميل النفوس إلى الدَّنايا واتباعها للشهوات، علل هذا الأمر مرغباً ومرهباً بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾

(**208**) في ختام هذه الآية، تناسب عجيب، ذلك أنه لَمّا كان المقام صعباً لِمَيْل النفوس إلى الدَّنايا واتباعها للشهوات، علّل هذا الأمر مرغباً ومرهباً بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ ﴾ أي لا يخفى عليه شيء لِمَا له من الإحاطة الكاملة، ولما كان وازع الحياء مع ذلك مانعاً عظيماً فلا

---

1 ينظر روائع البيان، 2/ 141

2 ينظر البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، (توفي 1224هـ)

3 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 204

يخالف إلا بمعالجة وتَدَرُّب، عبّر بالصنعة فقال: ﴿بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ أي وإن تناهوا في إخفائه، ودققوا في تدبير المكر فيه.([1])

(**209**) فيها التربية على منزلة الإحسان والمراقبة، فإنها أعظم منازل العبادة، وأعلى مقامات الإيمان، فالإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، كما جاء في الحديث الصحيح المشهور؛ حديث جبريل عليه السلام.

(**210**) فيها إثبات اسم الله تعالى (الخبير) وما يؤخذ منه من إثبات صفة الخبرة والعلم الواسع لله جل وعلا، فهو عليم بذات الصدور، خبير بخبايا النفوس، وبواطن القلوب.

(**211**) تفيد أن العبد مسؤول عن جوارحه عموماً وعن بصره خصوصاً، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: 39]

(**212**) فيها تقرير لقاعدة (**سد الذرائع**) التي هي من أعظم قواعد التشريع الإسلامي، فكل وسيلة تؤدي إلى الحرام فهي حرام، يجب إغلاقها.

(**213**) مَن حفظ بصره عن محارم الله تعالى، أطلق الله له نور بصيرته، ورزقه الفرقان في أمره، وحلاوة في قلبه، فلا تختلط عليه حلاوة الطاعة بمرارة المعصية، ولا لذة العبادة بخبث المعصية.

(**214**) من حفظ جوارحه عن معصية الله تعالى، حفظ الله له جوارحه من الآفات، فلا تزال في عافية وعبادة حتى يلقى بها الله تعالى. والقاعدة: أن من حفظ الله في محارمه؛ حفظه الله في نفسه وبدنه.

---

1 ينظر نظم الدرر، 258/13

الآية الواحدة والثلاثون: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**215**) في إِرْدَاف أَمْر الْمُؤْمِنِينَ بِأَمْرِ الْمُؤْمِنَات لِأَنَّ الْحِكْمَةَ فِي الْأَمْرَيْنِ وَاحِدَةٌ، وَتَصْرِيحًا بِمَا تَقَرَّرَ فِي أَوَامِرِ الشَّرِيعَةِ الْمُخَاطَبِ بِهَا الرِّجَالُ مِنْ أَنَّهَا تَشْمَلُ النِّسَاءَ أَيْضًا. وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ قَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ خَاصٌّ بِالرِّجَالِ لِأَنَّهُمْ أَكْثَرُ ارْتِكَابًا لِضِدِّهِ وَقَعَ النَّصُّ عَلَى هَذَا الشُّمُولِ بِأَمْرِ النِّسَاءِ بِذَلِكَ أَيْضًا.([1])

(**216**) يفيد حرف العطف أنَّ ما نُهيَ الرجالُ عنه من النظر إلى ما حُرِّم عليهم النظر إليه، هو نفسه ما يجري على النساء. فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كنت أنا وعائشة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل ابن أم مكتوم –وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب– فدخل علينا فقال: ((احتجبا)) فقلنا: يا رسول الله، أليس أعمى لا يبصر؟ قال: ((أفعمياوان أنتما؟))([2])

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 205

2 أخرجه أبو داود في كتاب اللباس، باب في قوله تعالى: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} [النور: 31] حديث رقم: 4112. والترمذي في أبواب الأدب، باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال، حديث رقم: 2778. وأحمد في مسنده (6 / 296). ولكنه في مسند أحمد عن الزهري أن نبهان حدثه أن أم سلمة حدثته قالت: (كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وميمونة) بدلا من عائشة كما هو هنا.

(**217**) بَدَأَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالْغَضِّ فِي الْمَوْضِعَيْنِ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ ﴾ ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَتِ يَغْضُضْنَ ﴾ قَبْلَ حِفْظِ الْفَرْجِ، لِأَنَّ النَّظَرَ وَسِيلَةٌ إِلَى عَدَمِ حِفْظِ الْفَرْجِ، وَالْوَسِيلَةُ مُقَدَّمَةٌ عَلَى الْمُتَوَسَّلِ إِلَيْهِ.([1])

(**218**) فيها أن ميل الرجل إلى المرأة، والمرأة إلى الرجل أمر جبلي وخلق طبعي، فكما يؤمر الرجل بغض البصر وحفظ الفرج، فكذلك المرأة.

(**219**) تدل هذه الآية على أنه كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة، فكذلك لا يحل للمرأة أن تنظر إلى الرجل، فإن علاقتها به، كعلاقته بها، وقصدها منه كقصده منها، إذا لم تُستحضَر مراقبة الله تعالى في هذا النظر من الجانبيْن.

(**220**) تخصيص النساء بالخطاب هنا، مع أن قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ في الآية السابقة قول عام يتناول الذكر والأنثى من المؤمنين، حسب كل خِطَابٍ عَامٍّ في القرآن الكريم؛ يدل على عِظم هذا الشأن -غض البصر وحفظ الفرج- وخطورته بالنسبة للنساء.

(**221**) من أسرار تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج في هذه الآية والتي قبلها؛ أن النظر بريد الزنا ورائده الذي لا يخطىء. وقد أفاض الشعراء في القديم والحديث، فيما تحدثه النظرة من إلهاب نار الحب، وتأريث الحرقة التي تدفع الى ارتكاب المحرم.

(**222**) تفيد مع التي قبلها؛ أن البصر هو الْبَابُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْقَلْبِ، وَأَعْمَرُ طُرُقِ الْحَوَاسِّ إِلَيْهِ، وَبِحَسَبِ ذَلِكَ كَثُرَ السُّقُوطُ مِنْ جِهَتِهِ.([2])

(**223**) في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ شيء زائد عما نُهِيَ عنه الرجال، وهو: نَهْيُ النِّسَاءِ عَنْ أَشْيَاءَ عُرِفَ مِنْهُنَّ التَّسَاهُلُ فِيهَا، وَنَهْيُهُنَّ عَنْ إِظْهَارِ أَشْيَاءَ تَعَوَّدْنَ أَنْ يُحْبِبْنَ ظُهُورَهَا وَجَمَعَهَا الْقُرْآنُ فِي لَفْظِ: الزِّينَةِ.([3])

(**224**) إن حب النساء للتجمل، ورغبتهن في إظهار زينتهن أمر فطري، والإسلام أقرّ هذه الرغبة، لكنه وضع لها حدوداً وضوابط لتحصينها بحصن العفاف.

---

1 ينظر فتح القدير، 4/ 27

2 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 223/12

3 ينظر التحرير والتنوير، 205/18

(**225**) في الحكمة من نَهْيِ الله نساء المؤمنين عن إبداء الزينة، بعد أمرهن بغض البصر وحفظ الفرج مثل الرجال؛ لأن هناك تلازماً بين إطلاق البصر منهن وبين الزينة؛ وذلك أنه لا تُكثر التزين للرجال الأجانب إلا من أطلقت بصرها فيهم، فتشوفت إليهم ببصرها، فزينت بدنها ولبسها، ولو لم تطلق بصرها لم يكن في القلب داع للتزين لهم.

(**226**) فيها كذلك أن من حفظت بصرها، حفظت فرجها، ولم يقع في قلبها جذب الرجال إليها في الزينة؛ لأن القب خال منهم؛ ولهذا قدم الله حفظ البصر على حفظ الفرج والنهي عن الزينة؛ لأن البصر حبل يجذب القلوب ويحركها إلى التزين لإغراء الرجال وإغرائهم والوقوع فى الحرام.

(**227**) شدد الله على الرجل في غض البصر، وشدد على المرأة في الحجاب؛ حتى يقلل ما بينهما من تجاذب وميل، ولا يعني هذا أنه يجوز للرجل إبداء مفاتنه، ولا أنه يجوز للمرأة إطلاق بصرها فتفتن، ولكن الوحي يشد الحبال المرتخية في النفوس أشد من الحبال الثابتة فيها، وأقرب الناس إلى السقوط يجذب أشد من البعيد عنها؛ حتى تكتمل فطرة العفاف وتصح.([1])

(**228**) فيها أن شأن النساء عظيم، في فتنة الرجال، إذا لم يتحصَّنَّ بحصن العفة، كما قال النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ))([2])

(**229**) في قوله تعالى: ﴿ زِينَتَهُنَّ ﴾ إيجاز حذف، أي محل زينتهن. وهو من البلاغة القرآنية، وله صور متعددة، كحذف الخبر، أو المفعول به..

(**230**) إن ذكر الزينة دون مواضعها مبالغة في الأمر بالتصون والتستر، لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير المحارم.. فنهى عن إبداء الزينة نفسها ليعلم أن النظر لا يحل إليها لملابستها تلك المواقع.([3])

(**231**) فيها دقة التعبير القرآني، فإن المرأة لما كانت مأمورة بالصيانة والتستر في كل مكان يمكن أن تصل إليها عين لا يحل لها النظر إليها، ذكر الله الزينة دون مواقعها.

---

1 ينظر التفسير والبيان، 4 / 1841

2 رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يُتَّقَى من شؤم المرأة، حديث رقم: 5096.

3 ينظر البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، 8/ 33

(**232**) في نهي المؤمنة عن إبداء زينتها، وأمرها بِضَرْب الخمار على الجيوب، ثم تكرار النهي عن إبداء الزينة عند الحديث عن استثناء مَن يجوز لها إظهار زينتها أمامهم؛ دليل على شدة تحريم التبرج وقبحه لما فيه من التعريض بشرفها وضرب عرضها.﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ..﴾

(**233**) إن دقة التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ فيه دلالة عظيمة على الاهتمام بصون كرامة المرأة وشرفها، بسد جميع النوافذ التي يمكن أن تكون سبباً في فتنة الرجال وإغرائهم بالنظر إليها؛ وذلك أن (الضرب هو: الوقع بشدة، فليس المراد أن تضع المرأة الطرحة على رأسها وتتركها هكذا للهواء، إنما عليها أن تحكمها على رأسها وصدرها وتربطها بإحكام)(1)

(**234**) ضمّن فعل (يضربن) معنى يُلقين ويضعن، فلذلك تعدى بـــ (على): ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ كما تقول: ضربت بيدي على الحائط: إذا وضعتها عليه.

(**235**) لقد جاء التعبير بالضرب: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ لنقف مدهوشين من خطورة الحجاب تشع من حوله ظلال الفتنة وذلك:

(**236**) فلا تتعرض لبَّات الصدور ومرايا الفتنة للعيون الجائعة، أو تكون كميناً للنظرات الخاطفة. وإغلاقاً لنوافذ الفتنة وأسباب الغواية لضعاف النفوس. واستعلاءً على الرغبة في كشف المحاسن، أو الرغبة في إطلاع غير المحارم على المفاتن. وطهارةً للمشاعر من التلوّث، وصيانة للأعراض من الشبهات.

(**237**) يفيد التعبير بالضرب من دون الإدناء والإرخاء والشد والوضع والإلقاء، لئلا يقع فيه إلباس، فربما يكون في غُلو الضرب وقسوته وجفاء طبعه ويبوس لفظه ما يصرفنا عن ماء رَسِيله وصِقاله وملاطفته ورِفقه، والسياق كما مر بنا ترفُّع عن الظنون الردية، وأَنَفَة عن الرضا بالدنية، فمتى كانت الخفرات الناعمات المحتشمات يضربن؟(2)

(**238**) في شَحْنِ التضمين في لفظ (يضربن) -مما سبقت الإشارة إلى بعضه في الهداية السابقة- الشعور النفسي بشحنة من فقه الواقع الحياتي وفي تناسق فني عجيب لِيُمهد الطريق

---

1 ينظر تفسير الشعراوي، 18/ 3

2 ينظر التضمين النحوي في القرآن، 72،71/2، محمد نديم فاضل.

لإزالة كل غَبَش يُلقيه أهل الكفر والنفاق على العيون، أو دنسٍ يلوثون به الفطرة البشرية في عالمنا المفتون. ويرتفع بالذوق الجمالي اللائق بالإنسان المكرم.([1])

(**239**) يفيد حرف الباء في قوله تعالى: ﴿ بِخُمُرِهِنَّ ﴾ لتأكيد اللصوق مبالغة في إحكام وضع الخمار على الجيب زيادة على المبالغة المستفادة من فعل (وليضربن)([2])

قال النحاس: (والمعنى ولْيلصقْن خُمُرَهنَّ وهن المقانع على جيوبهن لئلا تبدو صدورهن، أو أعناقهن.)([3])

(**240**) تفيد أنه لما كان رأس المرأة وعنقها يظهر في حال المهنة، أمر الله سبحانه النساء بستره، وبيّن أنه ليس مراداً بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾

(**241**) فيها أن النساء المؤمنات يتميّزْن في أخلاقهن ولباسهن عن نساء الجاهلية، اللواتي يتبرجن في أخلاقهن ولباسهن: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأحزاب: 33]

(**242**) تفيد أن هناك رخصة وتسامحاً في الزينة الظاهرة للمرأة، لأن سترها فيه حرج، فإن المرأة لا تجد بُدًّا من مزاولة الأشياء بيدها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها، خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها خاصة الفقيرات منهنّ، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يعني إلاّ ما جرت العادة والجبلة على ظهوره.([4])

(**243**) تدل على أن المرأة كلها عورة، ما عدا وجهها وكفيها، على خلاف بين الفقهاء في ذلك.

(**244**) في التعبير بقوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ما يرجح على أن وجه المرأة ليس بعورة، إذ لو لكان عورة –والمقام مقام تشريع– لعبر بقوله (وليضربن بخمرهن على وجوههن) فإن الله تعالى المعلِّم للبيان، لا يعجزه تعبير عن تعبير، ولا يُبْهِم أو يُجمِل فيما سياقه البيان والتفصيل.

---

1 ينظر التضمين النحوي في القرآن، 72/2.

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 208

3 إعراب القرآن، 649

4 ينظر البحر المحيط في التفسير، 33/8

(**245**) إن التنصيص على هذه الآداب القرآنية بالنسبة للمرأة المسلمة، وعلاقتها بالأسرة والمجتمع، فيه دلالة على أن لها أن تشارك في الحياة تعلماً، وتعليماً، ودعوة، ومشاركة في الواجبات التي تقتضيها ضرورة الحياة، على أن تكون حياتها وتحركاتها مبنية على العفة والطهارة والحياء والستر.

(**246**) تفيد رحمة الإسلام ووسطيته واعتداله في التشريع، فقد أمر بستر الزينة إلا ما ظهر منها، ثم استثنى الوسط العائلي والقرابة من إظهار زينة المرأة لمصالح التواصل، وكذا السماح للطفل، والتابعين غير أولي الإربة بالتواصل مع المرأة لكون الشهوة مأمونة من جانبهم.

(**247**) تفيد منزلة نساء الصحابة رضي الله عنهم في سرعة استجابتهن لأمر الله تعالى تعظيماً وامتثالاً، فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: (يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شقَقْنَ مُرُوطهن فاختمرن به)([1])

(**248**) إن الحكمة في استثناء هذا الصنف من الرجال في جواز إظهار المرأة زينتها لهم: في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ... ﴾ هي الضرورة الداعية إلى المداخلة والمخالطة والمعاشرة حيث يكثر الدخول عليهن والنظر إليهن بسبب القرابة، والفتنة مأمونة من جهتهم.

(**249**) إن للمرأة أن تظهر زينتها أمام محارمها، لأن الفتنة مأمونة من جانبهم، فلا تتوفر فيهم الرغبات الشهوانية تجاهها، وهم: الأزواج والآباء والأبناء، وآباء الأزواج وأبناؤهم، والإخوة وأبناؤهم، وأبناء الأخوات، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، والنساء المؤمنات، وأما غير المسلمات فلا يصح للمؤمنة أن تظهر زينتها أمامهن لأنهن قد يصفنها لأزواجهن وإخوتهن وأبناء دينهن.([2])

(**250**) يفيد هذا التعبير في قوله تعالى: ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ بدل (أو النساء)، أي النساء المسلمات اللاتي هن على دينهن، وهذا قول أكثر السلف. قال الإمام القرطبي رحمه الله قوله تعالى: ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ يَعْنِي الْمُسْلِمَاتِ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْإِمَاءُ الْمُؤْمِنَاتُ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ نِسَاءُ

1 البخاري، كتاب التفسير، باب {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} [النور: 31] حديث رقم (4758).
2 ينظر التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، لنخبة من علماء التفسير تحت إشراف: د. مصطفى مسلم. 5/ 215

الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَغَيْرِهِمْ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ مُؤْمِنَةٍ أَنْ تَكْشِفَ شَيْئًا مِنْ بَدَنِهَا بَيْنَ يَدَيِ امْرَأَةٍ مُشْرِكَةٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أَمَةً لَهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ([1])

(**251**) يفيد تقديم البعولة أنهم هم المقصودون بالزينة والمستأثرون بكل محاسن المرأة.

(**252**) في حفظ المرأة زينتها لزوجها إكرام لها، وحرص عليها، وطريق إلى إدامة العلاقة بينهما، وحماية لها من عيون أصحاب القلوب المريضة.

(**253**) فيها إباحة النظر للمحارم، واستدل بها بعضهم على أنه لا يباح النظر للعم والخال لعدم ذكرهم في الآية، في كما في الهداية التالية.

(**254**) في وجه عدم ذكر الأعمام والأخوال مع أنهم من المحارم: التنبيه على أن الأحوط أن يستترن منهم حذراً من أن يصفوهن لأبنائهم.([2])

(**255**) تفيد قراءة: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾([3]) بالجر على أنها صفة للتابعين، أو بدل، بمعنى لا يبدين زينتهن إلا للتابعين الذين لا إرب لهم في النساء. وأما قراءة: ﴿غَيْرَ﴾ بالفتح فعلى الحال أو الاستثناء، فإذا كانت على الحال، فالمعنى: ولا يبدين زينتهن للتابعين إلا حال كونهم غير مريدين للنساء. وإذا كانت على الاستثناء، فالمعنى: لا يبدين زينتهن إلا للتابعين، إلا أولي الإربة منهم فلا يبدين زينتهن لهم، فتكون (غَيْرَ) هنا بمعنى إلاَّ.([4])

(**256**) فائدة القراءتين واحدة، وهي أمر النساء المؤمنات بعدم إبداء الزينة للتابعين المتصفين بأن لهم رغبة في النساء حال وجود الإرب لهم في النساء، فهي دعوة إلى الاحتجاب من التابعين الذين لهم إرب في النساء.([5])

(**257**) في بيان وتعداد مَن يُباح إظهار بعض الزينة لهم دليل على شدة حرمة اطلاع غيرهم عليها، فقد وصفهم الله تعالى وسماهم بدقيق الوصف وجامعه.

---

1 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 233/12

2 المرجع نفسه، 45-44

3 قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر (غَيْرَ) بنصب الراء. وقرأ الباقون (غَيْرِ) بالخفض. (ينظر النشر، 2/ 332)

4 ينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج، 42.

5 تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر، 34/8 هدى رشيد جاد الله.

(**258**) في قوله تعالى: ﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ إشارة إلى أن الأطفال وهم فى سنّ الطفولة، لا يستطيعون التمييز بين ما هو عورة، وما ليس بعورة من المرأة، ولذلك أدخلهم في الاستثناء، مِمَّن يباح للمرأة أن تظهر زينتها أمامهم.

(**259**) يستفاد من قوله تعالى: ﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أن الطفل المميَّز تستتر منه المرأة ولا تبدي أمامه زينتها التي تبديها للمحارم المذكورين، لأنه يظهر على عورات النساء.

(**260**) يستفاد من هذه الآية أن مدار تكليف الطفل بالأحكام الشرعية من قِبل أوليائه؛ منوط بالتمييز، حتى ولو لم يصل إلى سن البلوغ، فإذا صار مميزاً أصبح مكلفاً؛ بتكليف أوليائه له تعليماً، وتدريباً، واستعداداً، حيث سيصبح التكليف أمراً شرعياً محاسباً عليه متعلقاً به عند سن البلوغ.

(**261**) يُلاحَظ فى هذا النظم الرباني العجيب، الذي جاءت عليه هذه الآية فى ذكر هؤلاء الأشخاص، أنه يأخذ ترتيباً تنازلياً فى تضييق دائرة التخفف من الزينة، شيئاً فشيئاً.. بحيث تكون هذه الدائرة على سعتها كلها مع الزوج، ثم تبدأ تضيق شيئاً فشيئاً مع مَن بعده، حتى تبلغ حدها الأدنى مع: ﴿ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾

(**262**) إن نظرة فى هذا الترتيب الرباني، تدلّ على حكمة الحكيم، وتقدير العزيز العليم، لما فى النفس البشرية من نوازع وعواطف، تتحرك حسب ما يقوم بينها وبين العالم الخارجي من روابط وصلات.([1])

(**263**) يفيد قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ أن كل ما يؤدي إلى الحرام، فهو حرام، فإذا (كان السبب في تحريم ضرب الخلخال، ما يؤدي إليه من الفتنة والفساد، كان كل ما في معناه ملحقاً به في التحريم، كتحريم الأيدي بالأساور، وتحريك الجلاجل في الشعر، فالتنصيص على الضرب بالأرجل ليس لقصر النهي عليه، لأنه كان السبب في نزول الآية)([2])

---

1 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1268

2 ينظر تفسير القرآن الكريم، لعبد الله شحاتة، (توفي 1424هـ)

(**264**) فيها دليل على أن المرأة منهية عن إبراز كل ما دعا إلى شهوتها، وإن كانت مباحًا لبسه لها([1])، وهذا من باب: "سد الذرائع"

(**265**) تفيد شمولية القرآن الكريم وإحاطته في النهي عن كل جانب أو منفذ، يكون سبباً في إثارة الشهوة، وفساد القلوب التي عليها مدار صلاح العبد أو فساده.

(**266**) تفيد التأكيد في التحريم والنهي على ما له أثر أكثر، وتأثير أشد، في إثارة فتنة الشهوة كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ مع ما سبقه من النهي عن إبداء الزينة، والضرب على الجيوب، وهو داخل تحتها لا شك، لكنه سبحانه خصصه بالتأكيد. قال الزجاج: (سماع هذه الزينة أشد تحريكاً للشهوة من النظر للزينة)([2])

(**267**) تفيد التحذير من التبرج والميل في الحركة، كما في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))([3])

(**268**) يشير قوله تعالى: ﴿ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ إلى أن كل ما من شأنه أن يُذكّر الرجل بلهْو النساء، ويثير منه إليهن من كل ما يُرى أو يُسمع من زينة أو حركة، كالتثني والغناء وكلم الغَزَل، منهي عنه. ومن ذلك رقص النساء في مجالس الرجال، ومن ذلك التلطخ بالطيب الذي يغلب عبيقه.([4])

(**269**) في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ نهي عن كل ما يثير الغرائز ويحركها، سواء بالحال، أو القول، أو الفعل.

---

1 لنكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، 2 / 444

2 عن التحرير والتنوير، 2013/18 (بتصرف)

3 رواه مسلم، كتاب اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ، بَابُ النِّسَاءِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ الْمَائِلَاتِ الْمُمِيلَاتِ، عن أبي هريرة، حديث رقم:5704

4 التحرير والتنوير، 18/ 2013 ، 2014

(**270**) في الآية دلالة على أن المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام بحيث يسمع ذلك الأجانب إذا كان صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها.. وهو يدل كذلك على حظر النظر إلى وجهها للشهوة إذا كان ذلك أقرب إلى الريبة وأولى بالفتنة.([1])

(**271**) فيها أن التلذذ كما يكون بالنظر يكون بالسمع أيضاً، وقد قيل: (والأذن تعشق قبل العين أحياناً) وهذا هو السر في نهي المرأة عن الضرب برجلها على الأرض حتى لا يسمع صوت الخلخال فتتحرك شهوة الرجل.

(**272**) فيها دليل على أن إظهار مواضع الحلي أبلغ وأبلغ في الزجر، وعلى أن كل ما يحرك الشهوة أو يثيرها منهي عنه، كالتعطر، والتطيب، والتبختر في المشية، والتلاين في الكلام.([2])

(**273**) في ذكر الوسائل؛ القولية، والفعلية، والإرادية، مما يمكن أن ذريعة لتحريك الغرائز وإثارة الشهوة، دليل على منع الإسلام وسده لباب الزنى مِن أن يقع في مجتمع الطهارة والعفاف.

(**274**) تفيد الآية أنه لا يجوز للمرأة أن تخرج من بيتها متعطرة بحيث تُشَم منها رائحة الطيب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة))([3])

(**275**) تفيد أن على الرجال المسلمين أن يمنعوا نساءهم من كل ما يؤدي إلى الفتنة والإغراء، مثل خروجهن بملابس ضيقة، أو شفافة، أو ذات ألوان جذّابة، أو رفع أصواتهن أو تعطرهن أو غير ذلك، إذا خرجن لضرورة العمل أو الأسواق أو غيرها من حاجاتهن.

(**276**) إن حديث هذه الآية الكريمة، عن تفاصيل لباس المرأة المسلمة، وصفاته وحدوده وضوابطه، دون ترك ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم، كما هو شأن عامة أحكام الشريعة كيْفيةً وتفصيلا، يدل على مكانة وخطورة لباس المرأة وأثره في الحفاظ على هوية المجتمع، وصونه من الانحلال والتفسخ.

---

1 ينظر أحكام القرآن للجصاص، 393/3

2 ينظر روائع البيان، 141/2

3 أبو داود (4174) وابن ماجه (4002) وصححه الألباني (صحيح الجامع: 7385) و(السلسلة الصحيحة، 27/3 رقم:1031)

(**277**) تضمنت هذه الآية خمسة وعشرين ضميراً بين مرفوع ومخفوض، كلها تعود على المؤمنات، أولها الضمير المرفوع في قوله تعالى: ﴿ يَغۡضُضۡنَ ﴾ وآخرها الضمير المخفوض في قوله سبحانه:﴿ مِن زِينَتِهِنَّۚ ﴾ ولا أعلم لهذه الآية نظيراً في القرآن في كثرة ضمائرها.([1])

(**278**) يفيد قوله تعالى -بلاغياً-: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (الالتفات) وتلوين الخطاب، ذلك أن الكلام في صدر الآية كان موجهاً للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم صرف هنا عن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الجميع بطريق الالتفات، وهو من الأساليب البلاغية الجميلة في القرآن الكريم، ومن أغراضها تنويع أسالب الخطاب للتأثير وشد الانتباه.

(**279**) في ختْم الله تعالى هذه الأوامر والنواهي الموجهة إلى المؤمنين والمؤمنات بأمر جميعهم بالتوبة إليه، إيماء إلى أن فيما أمروا به ونهوا عنه دفاعاً لداع تدعو إليه الجبلة البشرية من الاستحسان والشهوة فيصدر ذلك عن الإنسان عن غفلة ثم يتغلغل هو فيه فأمروا بالتوبة: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ ليحاسبوا أنفسهم على ما يفلت منهم من ذلك اللمم المؤدي إلى ما هو أعظم.([2])

(**280**) تفيد وجوب التوبة والأوبة إلى الله تعالى على جميع المؤمنين، ويتأكد ذلك أكثر في حق من وقع في معصية، أو ارتكب اثماً، كالإسرار على النظر إلى المحرم أو الوقوع في الزنا.

(**281**) يفيد الأمر بالتوبة للمؤمنين مع أنهم مسلمون مؤمنون، والإسلام يجب ما قبله، أن من أذنب ذنباً ثم تاب عنه يلزمه كلما يذكره أن يجدد عنه التوبة لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه إلى أن يلقى ربه.([3])

(**282**) فيها إشارة إلى أنه قلّ من يسلم من الوقوع في المعاصي، غير أن الناس ما بين مقل ومكثر. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: ((يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ))([4])

---

1 ينظر الهداية إلى بلوغ النهاية، 5068/8، أبو محمد مكي بن أبي طالب الأندلسي

2 ينظر التحرير والتنوير، 214/18

3 ينظر الكشاف، 18/ 727

4 صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، حديث رقم: 6737

(**283**) إن من لطائف هذه الآية وهداياتها، أن أوامر الله ونواهيه في كل باب، لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها. وإن ضبط نفسه واجتهد، ولا يخلو من تقصير يقع منه، فلذلك وصّى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، وبتأميل الفلاح، إذا تابوا واستغفروا.([1])

(**284**) فيها إشارة إلى أن المؤمن لا ينبغي له أن يغادر منزلة التوبة، لضعفه ووقوعه في المعصية، فكلما هم بذنب، أو وقع فيه، تاب إلى الله تعالى، وهكذا حتى يلقى الله تعالى.

(**285**) تفيد أن من تمام التوبة وكمالها عند المؤمن حقاً وصدقاً؛ أنه إذا أذنب ذنباً ثم تاب عنه، لزمه كلما ذكره أن يجدد عنه التوبة، لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه إلى أن يلقى ربه سبحانه وتعالى.

(**286**) تفيد كذلك الإسراع إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى، ولا ينتظر العبد وقتاً ما، مهما كان هذا الوقت معظماً، لأنه لا يدري هل سيلحقه أم لا.

(**287**) تشير إلى أن لِمقام التوبة درجات ومنازل حسب التائبين، فتوبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ليست كتوبة الصديقين، وتوبة الصديقين ليست كتوبة الأولياء والصالحين، وتوبة هؤلاء ليست كتوبة عامة المؤمنين، وتوبة المؤمنين من أهل الصلاح والاستقامة، ليست كتوبة أهل الذنوب والمعاصي. ووجه ذلك ما ورد في الحديث النبوي الصحيح: كما قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً))([2]) ولا شك قطعاً أن توبته صلى الله عليه وسلم تختلف عن توبة غيره، لأنه معصوم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

(**288**) فيها أنه ليس هناك من دواء؛ مما يمكن أن يقع من خطرات نفس الإنسان، أو نظرات عينه، أو فحش لسانه، إلى غير هذا مما لا يكاد يسلم منه أحد.. -ليس لهذا من دواء - إلا التوبة إلى الله من كل زلّة أو عثرة.. فإن هذه التوبة هى التي تصحح للمؤمن إيمانه، وتبقى على ما فى قلبه من جلال وخشية لله رب العالمين.. وفى هذا الفوز والفلاح.([3])

---

1 ينظر تفسير الكشاف، 18/ 727

2 البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة، حديث رقم: 6307

3 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1269

(**289**) تشير إلى رحمة الله بعباده؛ فهو سبحانه ما فتئ يدعوهم إليه بالتوبة والإنابة، فمع كل أمر ونهي، أو وتذكير وتأديب..، يأمرهم بالتوبة ويذكرهم ثمراتها الدنيوية والأخروية، ترغيباً وتحبيباً، فلا أرحم منه سبحانه بعبادة.

(**290**) في التعريض لوصف الإيمان: ﴿ أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إشعار بتأكيد الإيجاب، وإيذان بأن ذلك الوصف موجب للامتثال حتماً، وإلا لما كان للإيمان معنى.

(**291**) في التعبير بالوصف: ﴿ أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إشارة إلى عُلوّ مقام التوبة، وعلو مقام أهلها، ذلك بأنه لا يقدر على ملازمتها إلا راسخ القدم في الإيمان، عارف بأنه وإن بالغ في الاجتهاد واقع في النقصان لا محالة.

(**292**) في مناداتهم بصفة الإيمان: ﴿ أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ عند أمرهم بالتوبة؛ إشارة لطيفة على الداعية إلى الله أن يلتقطها، وهي: التلطف مع المدعو باختيار الألفاظ ومناداته بأحسنها، لما في ذلك من تحبيب له في الأمر الذي تدعوه إليه وترغيبه فيه.

(**293**) فيها أن الله تعالى علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة (لعل) المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح. فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

(**294**) تفيد أن كل تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا مَن فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه.([1]) فتلك هي التوبة الحقيقية التي عُلّق بها الفلاح، وذلك هو الفلاح الذي ترتب على كمال التوبة بشروطها.

(**295**) فيها استحباب تخصيص النساء بالحديث عن أحكام الشرع، مما يختص بهن ولا يتناول الذكور، لما في ذلك من زيادة بيان وتفصيل، قد لا يناسب الحديث عنه في سياق الأحكام العامة بالرجال والنساء.

(**296**) فيها أن التخصيص في بعض الأحكام الشرعية، يفيد مزيد بيان وتأكيد لما ورد في الخطاب العام، وليس المباينة والانفصال، ووجه ذلك في هذه الآية؛ أن الجملة الأولى منها، هي نفسها بنصها وعباراتها الواردة في بداية الآية السابقة، لكن لما كان شأن النساء شأناً عظيماً في هذا الباب؛ أعاد الأمر تخصيصاً وتأكيداً ومزيد بيان، وله نظائر في القرآن الكريم.

---

1 مدارج السالكين، (305،306)، لابن القيم، نقلا عن كتاب بدائع التفسير، 2/ 238. جمعه: يسري السيد محمد

(**297**) تفيد الآية أن المؤمن يؤجر على غض بصره في الدنيا والآخرة، لأنه كف جوارحه عن المحارم، وامتثل أمر ربه تعالى، وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ))([1])

(**298**) فيها أن غض البصر معدود من حقوق الطريق، التي يجب على المؤمن أن يقيمها بغض بصره إن جلس عليها لغرض ما، عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم ((إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ))، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: ((فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا))، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: ((غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ))([2])

(**299**) تفيد هذه الآية مع التي قبلها أن حفظ الفروج يتحقق بحفظ الجوارح: وقد نصت هذه السورة المباركة على تسع جوارح، وهي: (البصر- السمع- اللسان- الأيدي- الأرجل- الرأس- النحر- الصدر- القلب) وقد ذكر الله بعض هذه الجوارح على أنها شهود على صاحبها يوم القيامة.

(**300**) في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بيان بأن طاعة العباد، لا تعود على الله بالنفع، كما أن معصيتهم لا تعود عليه بالضر، فلا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، ولذلك حينما أمرهم بالتوبة؛ أمرهم لينتفعوا هم بذلك، لا ليكون للحقّ سبحانه بتوبتهم وطاعتهم نفع أو تجمّل.

(**301**) تفيد أن الغاية من الدعوة إلى الاستقامة على منهج الله في كل شؤون العبد وأحواله، هي تحقيق الفلاح والظفر برضا الله والسعادة في الدنيا والآخرة، إذ لا شيء أعظم من أن يحقق العبد الفلاح لنفسه والظفر بسعادة ربه يوم لقائه في حياة الخلود.

(**302**) في ختام هذه الآية دقة التناسب مع مضمونها، فبعد أن أمر الله المؤمنين والمؤمنات، بغض الأبصار وحفظ الفروج، مع ما اختص به المؤمنات من أحكام اللباس وشروطه، ختم ذلك بدعوة الكل إلى التوبة، ذلك أن الإنسان مجبول على النقص، فمهما أطاع ربه واستجاب،

---

1 أحمد في مسنده، برقم: 23073 وقال محققه: (أحمد شاكر) إسناده صحيح، وكيع: هو ابن الجراح الرؤاسي، وأبو قتادة: هو تميم بن نُذَير العدوي، وأبو الدهماء: هو قِرْفة بن بُهيس العدوي. وهو في "الزهد" لوكيع (356)، وعنه أخرجه هناد في "الزهد" (938). (ينظر مسند أحمد، ج170/38)

2 البخاري في كتاب الاستئذان، بَابُ أَفْنِيَةِ الدُّورِ وَالجُلُوسِ فِيهَا، وَالجُلُوسِ عَلَى الصُّعُدَاتِ، حديث رقم: 2465

وامتثل لحكمه وأناب، إلا ووقع منه التقصير والتفريط، وصدر عنه من الغفلة والنسيان، ما يخل بالواجب، هذا فضلا عن الهم بالذنب في القلب، وإن لم يفعله، مع يتعرض له من وساوس الشيطان وهكذا فلا يتصور في حق البشر الخلو عن هذا النقص والتقصير، وإنما التفاوت في المقادير.

- **الآية الثانية والثلاثون:** ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**303**) تفيد في مناسبتها بما قبلها، أن الله تعالى لما أمر بغضّ الأبصار، وحفظ الفروج، أرشد بعد ذلك إلى ما يحلّ للعباد من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة، وسكون دواعي الزنا، ويسهل بعده غضّ البصر عن المحرّمات، وحفظ الفرج عما لا يحل منها، فقال الله سبحانه: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ ﴾ ([1])

(**304**) تفيد في مناسبتها بما قبلها كذلك، أن النكاح من أعظم وسائل غض للبصر، كما أنه سبب لتحقيق إحصان الفروج، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجَاءٌ))([2])

(**305**) فيها من دقة التناسب: أن هذه الْمُخَاطَبَةُ تَدْخل فِي باب الغض والسّتْرِ وَالصّلاح، الذي سبق في الآيتيْن مِن أمْر الجنسيْن بغض البصر، أَي زَوِّجُوا مَنْ لا زوج له منكم فَإِنَّهُ طريق الغض والستر والتَّعَفُّفِ.

(**306**) في علاقتها بما قبلها كذلك أن الله تعالى لما أمر من قبل بغض الأبصار وحفظ الفروج، بيّن من بعد أن الذي أمر به إنما هو فيما لا يحل، فبين تعالى بعد ذلك طريق الحل فقال: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ ﴾

(**307**) تشير إلى أن الزواج هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول الغريزية بين الجنسيْن، وهو الغاية النظيفة لها، فيجب أن تزول كل العقبات من طريقه لتسير الحياة الإنسانية على طبيعتها.

(**308**) فيه دقة التناسب بما قبلها؛ ذلك أن أول أسباب فتح باب الحرام يكون بإغلاق أبواب الحلال، فالله لم يخلق في الناس ميلا إلى شيء؛ إلا وجعل في الحلال منه كفاية وسعة، بما يغنيهم عن فتح أبواب الحرام.

---

1 ينظر فتح القدير، 32/4

2 البخاري، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج، لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج)) وهل يتزوج من لا أَرَبَ له في النكاح. حديث رقم: 5065

(**309**) فيها أن الله فَتَحَ أبواب الوطء وحدها وجعل الحرام منه فتنة؛ اختباراً وابتلاء لعباده؛ فكلما أُغْلِق باب من الحلال، قابله باب من الحرام يفتح، فإذا وجدت الناس قد كثروا على الحرام، فابحث عن أبواب من الحلال تجدها مغلقة.([1])

(**310**) تفيد هذه الآية مع التي قبلها؛ أن لكل من الحلال والحرام دوافع، فدوافع الحرام: التعري، والسفور، وإطلاق البصر، وإظهار الزينة، وغير ذلك. أما دوافع الحلال فهي: العفاف، والحجاب، وحفظ البصر، والزواج..، وهكذا، فلكل من الحلال والحرام دوافعه وذرائعه، والمؤمن من اتقى دوافع الحرام بدوافع الحلال.

(**311**) فيها أن المسلمين مطالبون بأن يتحّصنوا بالزواج، وأن يرغبوا فيه، وييسّروا أموره، وذلك حتى لا تفشو فيهم دواعى الفساد، والاعتداء على الفروج، أو حتى لا يتجه أصحاب الإيمان القويّ إلى الرهبنة، التي تحرمها شريعة هذا الدين.

(**312**) فيها أنه لا يحل لامرأة أن تنكح نفسها إلا بإذن وليها، أو من يقوم مقامه شرعاً كالقاضي أو السلطان، فإن الله تعالى وجه خطاب أمر النكاح للأولياء في هذه الآية، ووجهه في الآية أن الخطاب موجه لأولياء الأمور بإنكاح الأيامى والصالحين.

(**313**) تفيد أن الزواج من العبادات الاجتماعية، التي يشترك في مسؤوليتها الجميع، ولذلك كان الخطاب فيه موجهاً للجماعة بأن تقوم به وتعمل على تحقيقه وتوفير أسبابه، إذ أسبابه ووسائله تتعلق بالجماعة وليس بالفرد الواحد.

(**314**) تفيد الآية أن الزواج من أعظم الشعائر الاجتماعية التي يجب أن يتعاون أفراد المجتمع على إقامتها، لتحقيق العفة داخل المجتمع المسلم، (فهذه المخاطبة تدخل في باب الستر والصلاح، أي زوجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفف)([2]).

(**315**) في ترغيب الإسلام في الزواج، وحثه عليه دليل على أنه من القربات إلى الله تعالى، إذ هو شرع الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم هو سبيل لطهارة النفس وحفظها من الانحراف، ووسيلة لبناء الأسرة الصالحة، ومن ثم المجتمع الصالح.

---

1 ينظر التفسير والبيان، 4 / 1860

2 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 239/12

(**316**) تدل الآية على أن من لم يقدر على حفظ نفسه من الوقوع الحرام، ولا يدفعه عنه إلا النكاح، فإن النكاح واجب في حقه، وذلك احترازاً ممن يقدر على أن يعف نفسه بوسائل أخرى كالصيام والتحنّث.

(**317**) تدل الآية على أن للزواج محاسن عديدة، ومصالح كثيرة، لذلك حث القرآن عليه، لأن به يتحقق كمال الإنسان وصلاحه في دينه ودنياه.([1])

(**318**) تفيد الآية -كما قال جماعة من العلماء- أن النكاح أفضل من التخلي للعبادة،([2]) لأنه جامع بينهما، كما أنه في نفسه عبادة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ))([3])

(**319**) فيها أن الله شرع الزواج لحِكَم سامية، وغايات نبيلة، وفوائد جليلة، وأمر بتيسير أسبابه، لأنه الطريق السليم للتناسل وعمران الأرض بالذرية الصالحة، وتكثير النسل واستمرار الحياة، مع المحافظة على الأنساب وشرف الإنسانية.

(**320**) تفيد أن من أعظم وسائل الحفاظ على الصلاح والاستقامة، وإدامتهما في المجتمع هي وسيلة الزواج، لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج: ﴿ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ ﴾

(**321**) إن معيار اختيار الزوج في الإسلام هو الدين والخلق، فهما أساس الاختيار، وبهما تحصل السعادة الزوجية، أما الصفات الأخرى فهي صفات مكملة، وفي الحديث الصحيح: ((تنكح المرأة لأربع: لمالها، وجمالها ، وحسبها ودينها ، فاظفر بذات الدين، تربتك يداك)) ([4])

(**322**) مما تفيده الآية: أنهم إن لم يكونوا صالحين، كان تزويجهم آكد أمراً. وهذا من دلالة الفحوى، فيشمل غيرُ الصالحين غيرَ الأعفّاء والعفائف من المماليك المسلمين، ويشمل المماليك غير المسلمين ([5])

---

1 مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، 272، عبد الكريم حامدي

2 وهو قول للحنفية، ينظر التفسير الكبير للرازي، 184/23، ومعالم التنزيل للإمام البغوي، 3/ 341

3 مسلم، كتاب الزكاة، بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ، حديث رقم:2376

4 البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، حديث رقم: 5090 ومسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، حديث رقم: 3708 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

5 ينظر التحرير والتنوير، 216/18

(**323**) في ذكر الله تعالى الصلاح في المماليك دون الأحرار، لأن الغالب في الأحرار الصلاح، بخلاف المماليك فتغلب عليهم دناءة الهمة.([1])

(**324**) فيها أن المراد بالصالحين: ﴿ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ ﴾ صلاح الدين، ويحتمل أن المراد بالصالحين، الصالحون للتزوج، المحتاجون إليه، من العبيد والإماء، يؤيد هذا المعنى، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه، قبل حاجته إلى الزواج، ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما والله أعلم.([2])

(**325**) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ ﴾ إشارة إلى قيمة التقى والصلاح في الإنسان، فلا يكرّم الإنسان لماله، أو جاهه، وإنما يكرّم لدينه وصلاحه وتقواه.

(**326**) في هذه الآية: ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴾ وعْد من الله تعالى بإغناء مَن سلك طريق الزواج وقصد إعفاء نفسه به. وقد نقل عن عدد من الصحابة أنهم فهموا ذلك حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: (أَطِيعُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ النِّكَاحِ، يُنْجِزْ لَكُمْ مَا وَعَدَكُمْ مِنَ الْغِنَى) ([3])

(**327**) تفيد أن الزواج من الأسباب التي يلتمس بسببها الغنى، كما قال قال ابن مسعود رضي الله عنه: (التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآية) وقال عمر رضي الله عنه:(عجبي ممن لا يطلب الغني في النكاح، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴾ وروي هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا)([4])

(**328**) يفيد قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴾ الشرط وجوابه: قيل يغنيهم بالتزويج وهذا صحيح في اللغة، لأن فقيراً إنما يعرف بالإضافة فيقال: فقير إلى الطعام، وفقير إلى اللباس، وفقير إلى التزويج.([5]) قلت: وفيه زيادة في التأكيد على تحقق المرغوب، للإقدام على سببه كما تفيده الجملة الشرطية.

---

1 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 50

2 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 1/ 567

3 ينظر تفسير كثير ابن كثير، 51/6

4 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 241/12

5 ينظر إعراب القرآن للنحاس، 650

(**329**) فيها أن إغناء الله تعالى إياهم هو توفيق ما يتعاطونه من أسباب الرزق التي اعتادوها مما يرتبط به سعيهم الخاص من مقارنة الأسباب العامة أو الخاصة التي تفيد سعيهم نجاحاً وتجارهم رباحاً.([1])

(**330**) فيها كذلك أن الله تعالى تكفل لهم أن يكفيهم مؤنة ما يزيده التزوج من نفقاتهم.

(**331**) فيها أن من أسباب الغنى والكفاية الزواج، فلا يمنع الفقير فقره أن يتزوج؛ فالله لم يأمر بشيء إلا وقد تكفل برزق أهله فيه، ولكن الناس يبتلون بضعف اليقين، فيوكلون إلى ظنهم بربهم، والله عند ظن عبده به.([2])

(**332**) تفيد وصية ضمنية بأن لا يكون الفقر مانعاً من الزواج، فإذا كانوا صالحين للزواج، راغبين فيه، فإن الله تعالى قادر على إغنائهم من فضله، وهو ذو الفضل الواسع سبحانه، العليم بمقتضيات الأمور ([3]) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: المجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالمكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ)) ([4])

(**333**) فيها رد على ما يعتقده بعض الناس مِن أن الزواج مانع من زيادة الرزق، بسبب تبعاته، بل الحقيقة أنه باب من أبواب الرزق، وسبب موصل إليه بإذن الله تعالى كما وعد.

(**334**) في الآية شرط مضمر وهو المشيئة، فلا يرد أن كثيراً من الفقراء تزوج و لم يحصل له الغنى، ودليل الإضمار قوله تعالى في سورة التوبة: (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ) [الآية: 28]

(**335**) تفيد أن الله تعالى قد كتب لكل نفس رزقها فلا يمنعكم فقْر هؤلاء من إنكاحهم، فلله سبحانه وتعالى أمره الشرعي والقدري.

(**336**) تفيد أن الزواج مسؤولية اجتماعية، وليست فردية فقط، لأنه يسهم في استقرار المجتمع وأمنه أخلاقياً ونفسياً، ومن ثم ينبغي أن يتعاون على تحقيقه الجميع، بتيسير سبله،

---

1 ينظر التحرير والتنوير،217/18

2 ينظر التفسير والبيان، 4 / 1861

3 التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة (توفي1404 هـ) (بتصرف)

4 الترميذي، بَابُ مَا جَاءَ فِي المُجَاهِدِ وَالنَّاكِحِ وَالمكَاتَبِ وَعَوْنِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، حديث رقم: 1655. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير حديث رقم 3050

وتسهيل طرقه، لأنه يحافظ على إحدى الكليات الخمس للدين، ألا وهي حفظ العرض والنسب.

(**337**) تفيد الآية: أن الزواج سنة كونية، وطريقة نبوية، وشريعة إلهية، فلا ينبغي أن يشذ عن هذه السنة، أو يخالف هذه الطريقة، أو أن يعرض عن هذه الشريعة، أحد ما لم يكن هناك عذر وضرورة تمنع من ذلك.

(**338**) إن ذكر اسمه تعالى: ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بعد اسمه ﴿ وَاسِعٌ ﴾ إشارة إلى أنه يعطي فضله على مقتضى ما علمه من الحكمة في مقدار الإعطاء،([1]) فهو العليم الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسب ما تقتضيه حكمته.

(**339**) يفيد اختيار اسم: ﴿ عَلِيمٌ ﴾ في ختام الآية أنه تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإن مآل هذا إلى المشيئة وهو السر في اختيار ﴿عَلِيمٌ﴾ دون (كريم) مع أنه أوفق ب﴿ وَاسِعٌ ﴾ نظراً إلى الظاهر.

(**340**) تفيد خاتمة هذه الآية أن الله هو الغني المطلق سبحانه، فلا ينقص ملكه ولا تنفد خزائنه، مهما بلغ عطاؤه وإنفاقه على خلقه وعباده.

(**341**) يفيد ختام الآية بهذين الاسمين الكريمين: ﴿ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ دقة التناسب، ذلك أن الله لما وعد بإغناء مَن سلك طريق الزواج وقصد إعفاء نفسه به، نبّه على أن غناه واسع سَعةً لا يرزؤُه إغناءُ الخلائق، إذْ لا نفادَ لنعمته، ولا غاية لقدرته، ولكن مع ذلك فهو عليم يبسط الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ، حسبما تقضيه الحِكمةُ والمصلحةُ، حتى لا يظن ظانّ ممن لم يتحقق له الغنى بالزواج أن الله أخلف وعده، حاشاه سبحانه فهم عليم بما يُصلح عباده.

(**342**) في ختْم هذه الآية بقوله كذلك: ﴿ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ إشارة إلى سعة فضل الله تعالى، وأنه لا يضيق بالطالبين لفضله، المبتغين من رزقه، وهو عَلِيمٌ بما يصلح أمرهم، ويقربهم من فضله، ويعرّضهم لرزقه.. ومن ذلك تحصنهم بالزواج.([2])

(**343**) في ختام هذه الآية دعوة إلى حفظ أسماء الله تعالى، وذلك بربطها بالعمل واستشعار معانيها وأسرارها، حسب كل اسم وما يرتبط به من معنى يناسب ذلك العمل،

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 218/18

2 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1272

قصد التعلق به ودعاء الله به، فطالب العلم يرتبط باسم الله العليم، وطالب الرزق يرتبط باسم الله الرزاقن وهكذا..

(**344**) فيها أن على الداعي حينما يدعو ربه؛ أن يراعي مقام الدعاء، فلكل مقام مقال، فلا يليق –مثلا– أن يخاطب الداعي ربه باسم (القهّار الجبار) وهو يطلب الرزق، أو باسم (السلام) وهو يطلب النصر على الأعداء ويشكو من ظلمهم، وهكذا..، ولا شك أن لكل اسم من أسماء الله الحسنى مناسبته، وهذا ما نلاحظه في ختم الآيات القرآنية بأسماء الله وصفاته، فإن الله يختم كل اسم بما يناسب المختوم من الآية.

(**345**) في هذا الختم دلالة على أن حياة المؤمن يجب أن تكون مبنية على الإيمان، وأن أعماله كلها ينبغي أن ترتبط به وسيلة وغاية، حتى تستقيم أحواله، وتيسَّر أعماله، ويبارك الله له فيما يأخذ ويذر. ووجه ذلك في الآية أن الله تعالى لما أمر الأولياء بتزويج مَن يتولون أمرهم؛ ختم ذلك بذكر اسمه تعالى العَلَم (الله) واسمَيْن من أسمائه الحسنى (واسع عليم).

- **الآية الثالثة والثلاثون:** ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**346**) في مناسبتها أن الله لما أمر سبحانه بما يعصم من الفتنة من غض البصر، ثم بما يحصن من النكاح، وجرَّأ عليه بالوعد بالإغناء، وكان هذا الوعد فيما بعد النكاح، وقدم الكلام فيه ترغيباً للإنسان في التوكل والإحصان، وكان قلبه ما قد يتعذر لأجله إما بعدم وجدان المهر وما يطلب منه تقديمه، أو بعدم رضى العبد وغيره يكون ولده رقيقاً أو غير ذلك، أتبعه قوله حاثاً على قمع النفس الأمارة عند العجز: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ ([1])

(**347**) في علاقة هذه الآية بما قبلها ترتيب جميل لمن فقه هداياتها العملية، إذ أمر أولاً بما يَعصِم من الفتنة ويُبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر، ثم بالنكاح المحصَّن للدين المغني عن الحرام، ثم بعزف النفس الأمارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن تقدر عليه)

(**348**) فيها إرشادٌ للعاجزينَ عن مبادِي النِّكاحِ وأسبابِها، إلى ما هُو أولى لهم وأحْرى بهم بعدَ بيانِ جواز مناكحة الفُقراءِ.([2]) ألا وهو طلب العفة التي هي مترلة خلقية عظيمة، ودرجة عبْدية كريمة، لا ينالها إلا من جاهد نفسه في الله تعالى.

(**349**) فيها دعوة للشباب الذين لا يتيسر لهم أمر الزواج بإعفاف نفسوسهم، حتى يهيئ الله لهم أسبابه، فهو على سبيل المجاز، أو تقدير مضاف، أي لا يجدون أسباب النكاح أو استطاعة النكاح، ما ينكح به من المال.([3])

---

1 ينظر الدرر، 13/ 267.

2 ينظر إرشاد العقل السليم 6/ 172

3 ينظر روائع البيان، 171/2

(**350**) في هذه الآية أمر بالأخذ بالأسباب حتى لا يتواكل الناس، فقد أمر الله من لم يجد مالا يتزوج به؛ أن يتكسب، ولم يأمره بالترهب والتخلي للعبادة والانقطاع لها؛ لأن النكاح سنة الإنسان وفطرة الحيوان.

(**351**) فيها أن مَن تقاصر وسعه عن الإنفاق على العيال فليصبر على مقاساة التّحمّل فى الحال، فعن قريب تجيبه نفسه إلى سقوط الأرب، أو الحق سبحانه يجود عليه بتسهيل السبب من حيث لا يحتسب، ولا تخلو حال المتعفّف عن هذه الوجوه.([1])

(**352**) تفيد الإلحاح والتأكيد لطلب العفة عند انعدام أسباب النكاح من مال أو غيره. إذ العفة خلق يكتسب بالدعاء والعمل وجهاد النفس من أجل ذلك، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفُّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ))(2)

(**353**) فيها نهي عن أي طريق للإحصان غير الزواج، فهو الطريق الشرعي لتصريف شهوة الفروج، مع ما جعله الله فيه من فوائد ومقاصد تعبدية واجتماعية، دنيوية وأخروية.

(**354**) تفيد النهي عن التطلع إلى غير النكاح من الوسائل المحرمة، كالسفاح واتخاذ الأخدان، وغير ذلك لما في ذلك من أضرار نفسية، وجسدية، واجتماعية.

(**355**) تفيد الآية أن العفة خُلُق يطلبه العبد ويجاهد نفسه من أجله، حتى يكبح شهوته، وهو ما يفيده السين والتاء في فعل: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ أي وليجتهد في العفة وظلف النفس، كأن المستعف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه.([3])

(**356**) في قوله تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ دليل على أن الإنسان لا يفتقر ولا يضطر إلى الفاحشة كافتقاره واضطراره إلى أكل الميتة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إما يرزقه الله زوجة، وإما يرفع الشهوة.([4])

(**357**) تشير إلى أن حقيقة السير إلى الله تعالى، طاعة وتعبداً إنما هو مجاهدة النفس في الله تعالى تخلُّقاً وتحقُّقاً، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ

---

1 ينظر لطائف الإشارات، 609/2

2 البخاري، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله. حديث رقم: 6470 من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه،

3 ينظر تفسير الكشاف، 907/3

4 ينظر درج الدرر في تفسير الآي والسور3/ 1286عبد القاهر الجرجاني

ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: 69] وهو ما يفيده الفعل المضارع ولام الأمر في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾

(**358**) تفيد أن من أعظم وسائل العفة -بعد الزواج-: الصيام، كما قال صلى الله عليه وسلم ((يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجَاءٌ))([1])

(**359**) تفيد أنه لَمَّا كَانَ أَغْلَبُ الْمَوَانِعِ عَلَى النِّكَاحِ عَدَمَ الْمَالِ، وَعَدَ بِالْإِغْنَاءِ مِنْ فَضْلِه، فَيَرْزُقُهُ مَا يَتَزَوَّجُ بِه، أَوْ يَجِدُ امْرَأَةً تَرْضَى بِالْيَسِيرِ مِنَ الصَّدَاقِ، أَوْ تَزُولُ عَنْهُ شَهْوَةُ النِّسَاءِ. وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَوْنُهُمُ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ))([2])

(**360**) في هذه الآية الكريمة عِدَةٌ كريمةٌ بالتَّفضّلِ عليهم بالغِنى، ولطفٌ لهم في استعفافِهم، وتقويةٌ لقلوبهم، وإيذانٌ بأنَّ فضلَه تعالى أولى بالإعفاءِ وأدنى من الصُّلحاءِ ([3])

(**361**) فيها بشرى للمستضعفين المستعفين بأن يؤمِّلوا خيراً، فقد وعد الله تعالى بالتفضّل عليهم، لحرصهم على العفة، فالله أكرم من أن يضيع عبده الحريص على مرضاته.

(**362**) تفيد أن ما عند الله سبحانه من فضل وإنعام، إنما يُنال بطاعته والتقرب إليه، من خلال مجاهدة النفس وتطهيرها بتقوى الله تعالى. لا بالخروج عن طاعته ومعصيته، لقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ٣﴾ [الطلاق: 2،3]

(**363**) في الآية استحباب الصبر عن النكاح لمن لا يقدر على مؤنته. وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على بطلان نكاح المتعة.

---

1 البخاري، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج، لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج)) وهل يتزوج من لا أَرَبَ له في النكاح. حديث رقم: 5065

2 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 242/12، والحديث رواه النسائي في سننه، 6/ 15. باب فضل الروحة في سبيل الله عز وجل، حديث رقم: 3120. وأحمد، 15/ 397. مسند أبي هريرة، حديق رقم: 9631.

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 172/6

(**364**) فيها ترجية للمستعفين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى، ليكون انتظار ذلك وتأميله، لطفاً لهم في استعفافهم، وربطاً على قلوبهم، وليظهر بذلك أن فضله أولى بالأعفاء. وأدنى من الصلحاء.([1])

(**365**) تفيد أن المؤمن في كل سعي يسعاه نحو رزق ما، مادياً كان أم معنوياً، يجب أن يكون عن طريق الحلال، حتى تحصل له البركة فيه.

(**366**) فيها أن الله سبحانه لَمَّا رَغَّبَ فِي تَزْوِيجِ الصَّالِحِينَ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ، أَرْشَدَ الْمَالِكِينَ إِلَى طَرِيقَةٍ يَصِيرُ بِهَا الْمَمْلُوكُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَحْرَارِ.. وذلك رغبة من الإسلام في نشر الحرية بين الأرقاء، ولتضييق الخناق على ظاهرة البِغاء القائمة في معظمها على الإماء كما بينت روايات اسباب النزول.([2])

(**367**) في أمر الله السادة بالاستجابة لطلب عبيدهم في المكاتبة، وتحقيق حاجتهم في الزواج؛ بيان لمكانة الحرية ومنزلتها، وشرف العفة وعزتها في الإسلام.

(**368**) تشير الآية الكريمة إلى أن وجود الرقيق في الجماعة من شأنه أن يساعد على هبوط المستوى الخلقي، وأن يعين على الترخص والإباحية، بحكم ضعف حساسية الرقيق بالكرامة الإنسانية، ولما كان الأمر كذلك عمل الإسلام على التخلص من الأرقاء كلما واتت الفرصة ([3])

(**369**) يفيد قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أن المال مال الله تعالى، وأن العبد مستخلف فيه، فلا يتصرف فيه إلا وفق أمر الله وهديه، أخذاً وعطاءً.

(**370**) إذا كان المال مال الله، فإن الله تعالى هو الذي يُيَسّر للعباد أسبابه، فمن تصدق منه، فقد شكر مُعطيَه ومعطي أسبابه، ومن منعه فقد جحد نعمته، والجحود من أسباب الحرمان، وأولى الناس بهذا الإنفاق هو من كان تحت يدك ومسؤوليتك.

---

1 ينظر محاسن التاويل، جمال الدين القاسمي 7/ 382

2 ينظر فتح القدير، 34/4 والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، 221/5 لنخبة من العلماء تحت إشراف د. مصطفى مسلم (بتصرف)

3 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2515، 2516

(**371**) في إضافة المال إلى الله سبحانه، ووصفه بإيتائه إياهم؛ حث على الامتثال، وترغيب وتشويق في العطاء والإنفاق، لأن المؤمن مهما كان كريماً فإن الله أكرم.

(**372**) في إضافة المال إلى الله كذلك إشارة لطيفة وهي أن المال الذي في أيدي الأغنياء، إنما هو وديعة أودعهم الله إياها، واستخلفهم عليها امتحاناً لهم ليحسنوا التصرف فيها. وإلا فهم محاسبون من قِبَل المالك الحقيقي الذي هو رب العالمين.

(**373**) تفيد أن كل عهد وميثاق يقوم به المؤمن يلزمه الوفاء به، لأن ذلك من مقتضيات الإيمان، فالمسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً، أو حرم حلالا، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله؟ مَن اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فليس له، وإن اشترط مائة مرة، شرط الله أحق وأوثق))([1])

(**374**) تفيد أن المسؤولية لا تُحمّل إلا لمن توفرت فيه شروطها، وعلى رأسها: الأمانة والاستقامة والقدرة على أداء الواجب، وهو ما يفيده قوله تعالى: ﴿ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ والخير هنا الأمانة والاستقامة.

(**375**) تفيد نَهْيَ الإسلام عن إكراه العبد على فعل المعصية، وأن الاثم على من أكرهه إن وقع فيها، فعن جابر رضي الله عنه، قال: (كان عبد الله بن أُبي بن سلول يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً. فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لهن (غفور رحيم)([2]) وفي رواية أخرى عن جابر أيضاً: (أن جارية لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها مُسَيْكة وأخرى يقال لها أُمَيْمَة فكان يكرههما على الزنى فشكتا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله ﴿ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ ﴾ إلى قوله: ﴿ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾([3])

(**376**) في التعبير بلفظ الفتوة ﴿ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ ﴾ هزّاً لهم إلى معالي الأخلاق، وتخجيلاً من طلب الفتوة من أَمَةٍ ﴿عَلَى ٱلۡبِغَآءِ ﴾ لتأخذوا منهن مما يأخذنه من ذلك.([4])

---

1 رواه البخاري كتاب المكاتب، باب ما يجوز من شروط المكاتب، ومن اشترط شرطاً ليس في كتاب الله. حديث رقم: 2561

2 رواه مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: {وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء} حديث رقم: 7737

3 رواه مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: {وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء} حديث رقم: 7738

4 ينظر نظم الدرر، 13/ 269

(**377**) في قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ جملة معترضة فائدتها (التشنيع والتقبيح) على السادة في ارتكاب هذه الرذيلة والإكراه عليها، فالأصل في الأمَة المملوكة أن يحصنها سيدها إذا مالت نحو الفجور، أما أن يدعوها إلى عمل الفاحشة وتأبى وتمتنع وتريد العفة فذلك منتهى الخسة والدناءة منه..([1])

(**378**) يفيد قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ نهي الإسلام عن كسب الإماء ومهر البغي، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه - قال: (نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كسب الإماء)([2]) وفي لفظ لمسلم: (ومهر البغي)

(**379**) يفيد سياق هذه الآية أنه لا مفهوم لها، لأن مفهوم قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ إن لم يردن تحصناً فأكرهوهن على البغاء، وهذا مفهوم باطل لا يتصور، فليس الحكم كذلك كما بينه سبب النزول في الهداية السابقة، ومن ثم:

(**380**) فيها بيان أن الإكراه إنما يكون على خلاف الإرادة والاختيار، فالأمَة إذا أرادت التحصن صح إكراهها على الزنا، أما إذا لم ترد التحصن وأرادت الزنا فلا يصح إكراهها عليه، لأن الإكراه حينئذ على وفق مرادها فهو تحصيل الحاصل.([3])

(**381**) يفيد قوله تعالى -بلاغياً-: ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ الاحتراس، فقد أقحم هذا الاعتراض ليبشع ذلك عند المخاطب، ويحذره من الوقوع فيه، ولكي يتيقظ أنه كان ينبغي له أن يأنف من هذه الرذيلة، وإن لم يكن زاجر شرعي، ووجه التبشيع عليه؛ أن مضمون الآية: النداء عليه بأن أَمَته خير منه، لأنها آثرت التحصّن عن الفاحشة وهو يأبي إلا إكراهها.([4])

(**382**) من رحمة الله تعالى بعباده أنه لا يؤاخذهم بأفعالهم القائمة على الإكراه الْمُلجِئ الذي يخلو من الاختيار والرضا.

(**383**) ففيها دليل على أن اسم الإحصان يقع على العفاف، وأن المرأة إذا صانت فرجها عن الفاحشة فهي محصنة. كما قال الله تبارك وتعالى عن مريم: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي

---

1 ينظر روائع البيان، 172/2

2 رواه البخاري، كتاب الإجارة، باب كسب البغي والإماء، وقول الله تعالى: {وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} حديث رقم: 2282

3 الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، 3/ 55، 56، نجم الدين الطوفي.

4 ينظر إعراب القرءن وبيانه، 6 / 602

أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: 12] فالإحصان اسم جامع كما قال الشافعي -رضي الله عنه- يقع على هذا، وعلى الإسلام.([1])

(**384**) فيها أن حامل العاصي على زلّته، والداعي له إلى عثرته، والمعين له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة، وله من الوزر أكثر من غيره، وبعكسه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة.([2])

(**385**) تفيد تحريم كل علاقة لا تقوم على الزواج الشرعي لما في ذلك من الفساد العائلي.

(**386**) تفيد ما هذه الفاحشة ﴿ ٱلْبِغَآءِ ﴾ من المفاسد والأضرار الفردية والاجتماعية التي تعود على العائلة بالهلاك والدمار، لما في ﴿ ٱلْبِغَآءِ ﴾ من هدر كرامة المرأة وتدنيس شرفها، مع ما ينتج عن ذلك من ولادة اللقطاء الذين لا انتساب لهم.

(**387**) يفيد التعبير بالفتيات ﴿ فَتَيَٰتِكُمُ ﴾ كراهية التطاول على الرقيق، ومناداتهم ب: (عَبْدي أو أَمَتي) فعن أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ((لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ وَضِّئْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي مَوْلاَيَ، وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلاَمِي))([3]) وفيه زيادة حض على عدم إكراههن على البغاء لأنهن فتياته وصغاره.

(**388**) تدل هذه الآية على أن (المتعة) لو كانت مشروعة لما احتيج إلى إكراه الفتيات (الإماء) على الزنا من أجل الكسب. وإنما يمكن الكسب عن طريق (المتعة) دون الحاجة إلى الزنا. بل لكسدت سوق الزنا مع وجود هذا الزنا المستباح باسم الشرع ولما زنا إلا شقي. ولو كان الزنا مباحاً (لما تمتع إلا شقي) كذلك، لعدم الحاجة إلى أحدهما مع وجود الآخر! ولولا أنهما شيء واحد لما صح هذا.([4])

---

1 النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، 2 / 470.

2 ينظر لطائف الإشارات، 2/ 610

3 رواه البخاري، كتاب العتق، بَابُ كَرَاهِيَةِ التَّطَاوُلِ عَلَى الرَّقِيقِ، وَقَوْلِهِ: عَبْدِي أَوْ أَمَتِي. حديث رقم: 2552 ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة بألفاظ مختلفة. حديث رقم: 6014

4 ينظر المنهج القرآني الفاصل بين أصول الحق وأصول الباطل: طه حامد الدليمي، 38/6.

(**389**) في هذا التعليل الذي يفيده قوله تعالى:﴿ لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى تفاهة وحقارة ما صنعوا، فإن أقدس وأشرف ما يملكه الإنسان هو: العِرْض والشرف، فهم يقدمون هذا الشيء النفيس مقابل الترر الخسيس، فيا ليتها من خسة ونذالة.([1])

(**390**) تفيد رحمة الله بعباده حينما دعاهم إلى التوبة، وذكّرهم بمغفرته ورحمته، إذ دعا سبحانه من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فليتب إلى الله، وليقلع عما صدر منه مما يغضبه، فإذا فعل ذلك، غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها([2])

(**391**) تفيد أن المغفرة والرحمة مخصصة بالمكرَهات من الإماء، وأما المكرِهون فعليهم اللعنة والسخط.. ففي الآية مجاز بالحذف أي غفور لهن رحيم بهن، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ أي لأنهن مكرهات لا إرادة لهن ولا اختيار فقد رفع الله عنهن العذاب وبقي الاثم على المكرِه، وما قاله بعض المفسرين: إن المغفرة والرحمة للمكرِهين إن تابوا فإنه ضعيف يأباه السياق، وقد كان الحسن البصري، إذا قرأ هذه الآية يقول: لهنّ والله، لهنّ والله، أي إن الله غفور لهن، لا لأولئك المجرمين الذين أكرهوا النساء على البغاء.([3])

(**392**) فيها دليل على أن، إثم الزنا مدفوع عن المكرهة، وأنه لا حَد عليها فيه، للحديث: ((رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))([4]) وهذه قاعدة من قواعد الشريعة، في باب التكليف وما يترتب عنه.

(**393**) تفيد أن حامل العاصي على زلّته، والداعي له إلى عثرته، والمعين له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة، وله من الوزر أكثر من غيره، وبعكسه لو كان الأمر فى الطاعة والإعانة على العبادة.([5])

---

1 ينظر روائع البيان، 172/2

2 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 567/1

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 174/6، وروائع البيان، 172/2

4 سبق تخريجه.

5 ينظر لطائف الإشارات، 610/2

(**394**) في ختام هذه الآية بهذين الاسمين: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ -بعد الحديث على مَن جرى منهم الإكراه على المعصية- دعوة للإسراع إلى التوبة والإنابة، وطلب المغفرة والرحمة، فإن الله غفور لمن استغفره صادقاً، رحيم لمن طلب رحمته مخلصاً.

(**395**) تفيد أن القلم مرفوع عن المكره، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((رُفِع عَنْ أمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))([1])

(**396**) فيها دعوة إلى فقه أسماء الله تعالى، وذلك برط كل اسم بما يناسبه من المعاني والأعمال، إذ لا شك أن لكل اسم من أسمائه تعالى مقاصد تعبدية، فاسمه الغفور سبحانه، له موطنه ومناسبته في سير العبد إلى ربه، وكذلك الرحيم، والعليم، والحكيم، والعزيز، والقاهر، وهكذا.. ومن تأمل هذه الأسماء التي يختم الله بها كل آية من آياته، وكيف تختلف حسب مضمون الآية وموضوعها، تجلت هذه الحكم والأسرار الفقهية.

1 رواه ابن ماجه في السنن بَابُ طَلَاقِ الْمُكْرَهِ وَالنَّاسِي، برقم: (2043)

- **الآيـــة الرابعة والثلاثون:** ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**397**) تفيد دقة المناسبة بما قبلها وما بعدها: إذ جاءت بكلام مستأنف في تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة، لبيان جلالة شؤونها المستوجبة للإقبال الكلي على العمل بمضمونها.

(**398**) في مناسبة هذه الآية بما قبلها من بداية السورة إلى هنا؛ أنه بعد الإعلان بنزول تلك الآيات البينات، الخاصة بحرمات الفروج، وما تلا ذلك من التشريعات؛ وحين انتهت الآيات من بيان هذه الأحكام وما يستتبعها، جاء التذكير هنا بتحقيق هذا الخبر الذي أعلنته السورة فى أول آية منها، وليلفت الأنظار إلى أن هذه الآيات، هى الآيات البينات، التي أشارت إليها الآية الأولى من السورة.

(**399**) في علاقتها بما قبلها؛ عطفٌ على آياتٍ، أي وأنزلنا لكم مثلاً كائناً من قبيل أمثالِ الذين مضوا من قبلِكم من القصصِ العجيبةِ، والأمثالِ المضروبة لهم في الكتب السَّابقةِ، والكلماتِ الجاريةِ على ألسنة الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، فينتظمُ قصَّة عائشة رضي الله عنها المحاكية لقصَّةِ يوسفَ عليه السلام، وقصة مريم رضي الله عنها، وسائرِ الأمثالِ الواردةِ في السُّورةِ الكريمةِ انتظاماً واضحاً.([1])

(**400**) في سياقها بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر في آيات هذه السورة تلك الأحكام، وصف القرآن بعدها بصفات ثلاثة: أحدها: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ ﴾ مفصّلات واضحات. وثانيها: ﴿ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ في التوراة والانجيل من إقامة الحدود فأنزل في القرآن مثل ذلك. ثالثها قوله: ﴿ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ بوعيده وتحذيره من فعل المعاصي.

1 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 174

(**401**) في تصدير الآية بالقسم الذي تُعرب عنه اللاَّمُ: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ لإبراز كمال العنايةِ بشأنه، أي وباللَّهِ لقد أنزلنا إليكم هذه السورةِ الكريمة آياتٍ مبيِّناتٍ لكلِّ ما بكم حاجةٌ إلى بيانه من الحدود وسائرِ الأحكام والآدابِ وغير ذلك ممَّا هو من مبادئ بيانِها.([1])

(**402**) تدل على أن الله لم يغادر على وجه الدليل غبرة([2])، ولم يترك الحقّ سبحانه للإشكال محلا، بل أوضح المنهاج وأضاء السّراج، وأنار السبيل وألاح الدليل، فمن أراد أن يستبصر فلا يلحقه نصب، ولا يمسّه تعب.([3])

(**403**) تفيد أن من أعظم نعم الله على هذه الأمة أنه امتن عليها بإنزال هذا الكتاب العظيم الذي اشتمل على آيات بينات مفصلات، واضحات هاديات.

(**404**) تفيد قراءة: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بكسر الياء على صيغة اسم فاعل، أن الفعل أُسند للآيات فهي موضحة لمقاصد الله تعالى، من الحلال والحرام والأوامر والنواهي، أي هي موضحة لغيرها.

(**405**) تفيد قراءة ﴿مُبَيَّنَٰتٍ﴾ بفتح الياء، على صغة اسم المفعول، أي أنها آيات واضحات في نفسها، بينها الله لعباده وجعلها واضحة مفصلة. قال الطبري: (واختلف القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء المدينة وبعض الكوفيين والبصريين: ﴿مُبَيَّنَٰتٍ﴾ بفتح الياء: بمعنى مفصّلات، وأن الله فصّلَهن وبيّنَهنّ لعباده، فهنّ مفصّلات مبيّنات. وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة: ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ بكسر الياء، بمعنى أن الآيات هن تبين الحقّ والصواب للناس وتهديهم إلى الحقّ) ([4])

(**406**) فائدة القراءتيْن: (مُبَيَّنَاتٍ – مُبَيِّنَاتٍ) أن الله أنزل آيات مبيَّنات واضحات في نفسها، ومبيِّنات موضحات لغيرها، من الأحكام والدلالات والمقاصد، وهذا من جمالية البلاغة القرآنية، فآيات القرآن بصائر، أي بصيرة في نفسها مبصرة لغيرها. كما قال تعالى:﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ ١٠٤﴾ [الأنعام: 104]

---

1 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 174

2 الغبرة: لَطْخُ الغبار، ولونه. والغبرة الْغُبَار وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز: {ووجوه يَوْمئِذٍ عَلَيْهَا غبرة ترهقها قترة} (ينظر المعجم الوسيط، باب الغين، 643/2.)

3 ينظر لطائف الإشارات، 2/ 611

4 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 176/19

(**407**) تفيد كذلك أن الحق فيها مُفصَّل من الباطل، موضح بالنقل والعقل، بحيث صارت هذه الآيات لشدة بيانها تبين هي لمن تدبرها طرق الصواب، وسبل الرشاد، فلا يضل مَن أراد هدايتها.

(**408**) تفيد أن آيات القرآن الكريم تفتح أمامنا آفاقاً للمعرفة، ندرك من خلالها سنن الحياة، في السير إلى الله تعالى، لنتخطّى أخطاء المخطئين، ونقتفي آثار الصالحين.

(**409**) تفيد أن من نعم الله تعالى علينا في هذه الآيات القرآنية، ما ضربه لنا من أمثال الماضين من الأمم، وقصص السابقين من الأقوام، ليقع التحفظ مما وقع أولئك فيه.([1])

(**410**) تشير إلى منزلة هذه الأمة حيث أكرمها الله بإنزال آيات هذا القرآن وهداياته، واختصر لها فيها حياة السابقين وقصصهم، وضرب لها من أمثالهم، ما يكفيها في اجتناب أخطائهم، واقتفاء حسناتهم.

(**411**) تشير إلى أن آيات القرآن هي هدايات لمن أراد الاهتداء، لما جعله الله فيها من أنوار هاديات، وبصائر مبصِّرات مرشدات.

(**412**) يشير قوله تعالى: ﴿ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ﴾ إلى ما في آيات القرآن من الإعجاز الرباني الذي يتجلى في بيانها، وفي أحكامها وتشريعاتها، فهي معجزة من حيث بلاغتها في ألفاظها، ومعجزة من حيث أنوار وحِكَم تشريعاتها؛ إحكاماً، وتفصيلا، كما قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:1]

(**413**) فيها من النعم الجليلة ما ذُكر في هذه الآيات البينات المفصلات، من المواعظ التي يستفيد منها المتقون، لما اشتملت عليه من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

(**414**) تشير هذه الآية إلى نوعين من البيان؛ بيان الأحكام الشرعية، وبيان الكليات التشريعية، فالأولى: هي ما بيّنه الله تعالى وفصّلتْه السنة النبوية عملياً؛ من أحكام العَقَديات والتعبّدات. والثانية: هي ما وضعه القرآن الكريم من قواعد كلية، وأصول تشريعية؛ يرجع إليها المجتهدون في كل زمان ومكان، لبيان ما استجد من وقائع وأحداث، والإجابة عنه وفق هذه القواعد والأصول.

---

1 ينظر المحرر الوجيز، 182/4.

(**415**) تفيد أن الذكرى تنفع المؤمنين، فرغم أن حديث الآيات السابقة كان عن المجتمع المسلم، وما يحتاجه من أحكام وتوجيهات وهدايات، جاءت هذه الآية لتختم المشهد بهذا التذكير للمؤمنين والذي تصف فيه القرآن بهذه الصفات الثلاث وهي كونه: آيات مبينات، ومثلا، وموعظة للمتقين.

(**416**) في تخصيص الوعظ بالمتقين لأنهم هم المنتفعون به أولا لوجود شرط الانتفاع بهذا الاتعاظ وهو الإيمان والتقوى.

(**417**) فيها أن أهل التقوى هم دائماً أهل الإفادة والموعظة من الآيات البينات، والدلائل الوضحات، والأمثال السائرات المضروبة عن الأمم الخاليات، لحضور قلوبهم وإلقاء سمعهم وهم شهود.

(**418**) في قوله تعالى: ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ مع شمولِ الموعظةِ للكلِّ حسب شمول الإنزال لقوله تعالى: ﴿ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ﴾ حثاً للمخاطبين على الاعتناء بالانتظام في سلك المتَّقين ببيان أنَّهم المغتنمون لآثارها المقتبسون من أنوارها.([1])

(**419**) في قوله تعالى: ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ إشارة إلى قِسْم من أقسام القرآن ألا وهو: الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، إذ بهذا القسم غالباً يحصل الاتعاظ.

(**420**) في وصف إنزال هذه الآيات ب﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إشارة إلى ما فيها من تصريف الأحكام وتفصيل آياتها، والفواصل المنبئة عن العلل المذكّرة بما يقرب من الله زلفى، وينور القلب، ويوجب الحب والألفة، ويذهب وَحَرَ([2]) الصدر.

(**421**) تشير إلى ذكر المقصد العظيم من إنزال القرآن وتصريف آياته، وهو بيان الطريق الموصل إلى الله تعالى، طريق المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فهم أهل مقام التقوى ومنازلها.

(**422**) تُبيِّن رحمة الله بعباده، لأنه لما خلقهم لم يتركهم سدى، و لم يدعهم هملا، بل أنزل عليهم آياته البينات، وأنواره الهاديات، حتى يسيروا إليه على بينة، ويعبدوه على بصيرة، ويفوزوا بسعادة الدنيا وفلاح الآخرة.

---

1 ينظر إرشاد العقل السليم، 175/6

2 الوَحَرُ: الْغَيْظُ والحِقْدُ وبَلابِلُ الصَّدْرِ وَوَسَاوِسُهُ، والوَحَرُ فِي الصَّدْرِ مِثْلُ الغِلّ. (لسان العرب مادة: وحر)

(**423**) تشير إلى مكانة الإنسان وكرامته على الله تعالى لما خصه بكلامه ووحيه، الذي هو نوره وصفته، فيسّره له ليتلوه ويتدبره، ليستخرج منه أنواره وأسراره، وحِكَمه ومقاصده في عالمي الملك والملكوت.

(**424**) تشير إلى أهمية الموعظة لما لها من أثر على القلوب، فهي سياطها، حيث توقظ القلوب لتدلها على مواقع الزلل التي تقع فيها، ومداخل المرض الذي يدخل منها إليها، فتتزجر عن قترابها واقترافها.

- **الآية الخامسة والثلاثون:** ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٣٥ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**425**) في علاقتها بما قبلها تعليل لطيف، ومقصد شريف بأن الذي أنزل تلك الآيات المبينات الوضحات على ذلك السَّنن الأقوم، والنَّظْم المحكم، هو: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾

(**426**) تفيد دقة التناسب بما قبلها، ذلك أنه لما كان كمال الله يتجلى في كمال هداياته، فإنه سبحانه أتْبع مِنّةَ الهداية الخاصة في أحكام خاصة المفادة من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ بالامتنان بأن الله هو مكون أصول الهداية العامة، والمعارف الحقِّ للناس كلهم بإرسال رسوله بالهدى ودين الحق، مع ما في هذا الامتنان من الإعلام بعظمة الله تعالى ومجده وعموم علمه وقدرته.([1])

(**427**) تفيد في سياقها بما قبلها؛ أنَّ بيانه تعالى ليس مقصُوراً على ما وردَ في السُّورة الكريمة بل هو شاملٌ لكلِّ ما يحقُّ بيانُه من الأحكام والشَّرائعِ ومباديها وغاياتها المترتِّبة عليها في الدُّنيا والآخرة، وغيرِ ذلك ممَّا له مدخلٌ في البيان، وأنَّه واقعٌ منه تعالى على أتمِّ الوجوه وأكملِها حيث عبَّر عنه بالتَّنوير الذي هو أقوى مراتب البيانِ وأجلاها وعبَّر عن المنوِّر بنفس النُّور تنبيهاً على قوَّةِ التَّنوير وشدَّةِ التَّأثيرِ وإيذاناً بأنه تعالى ظاهرٌ بذاته وكلُّ ما سواه ظاهرٌ بإظهاره.([2])

(**428**) تفيد أن الله سبحانه وتعالى هو مصدر النور لأهل السماوات والأرْضِ، فلولاه سبحانه لما كان في هذا الكون نور ولا هداية، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (فهو هادي من في السماوات والأرض، فَهُم بنوره إلى الحقّ يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون)([3])

---

1 ينظر التحرير والتنوير،18/ 230

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 175

3 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 178/19.

(**429**) في وصفه سبحانه لذاته بأنه نور، دلالة عظيمة، لكمال جلاله وجماله، وظهور عدله وبسط أحكامه، فهو النور الذي يهتدي به أهل السماوات والأرض، في كل شيء.

(**430**) في وصف الله تعالى بالنور لأنه الذي به يهتدي أهل السماوات والأرض، وبه قام وجودهم، وقامت حياتهم، فالنور دال على الحياة ودال على الاهتداء العام للوجود.

(**431**) تفيد أن الله نور، وكتابه نور، وشريعته، وهدايته نور، وحجابه نور؛ وبنوره استنارت السماوات والأرض وما فيهما، فلولا نوره سبحانه وتعالى المبثوث في الكون لتراكمت الظلمات بعضها فوق بعض.

(**432**) جاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات غضِّ البصر، للدلالة على أن من غضَّ بصره، امتثالاً لأمر الله وطاعة له سبحانه، نوَّر الله قلبه وبصيرته.

(**433**) تشير الآية إلى أن المهيمن على هذا العالم بسمواته وأرضه هو الله سبحانه وتعالى، فمن استرشد بطريق غير طريقه ضل وخسر، ومن التمس قبساً من غيره بقي متخبطاً في دياجير الظلمة، سابحاً في أودية الظلام والضلال.

(**434**) تفيد أن الله تعالى نُور السماوات والأرض، فنوَّر السماء بالملائكة، ونور الأرض بالأنبياء. وكل ذلك من نوره جل جلاله.([1])

(**435**) تفيد أن الله تعالى مدبر الأمور في السماوات والأرض، بحكمة بالغة وحجة نيرة، فهو رب السماوات والأرض ونورهما وقيومهما ومدبرهما.

(**436**) تفيد أن الله تعالى مُزيِّن السماوات والأرض، زيَّن السماء بالشمس والقمر والنجوم، وزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين، كما قال أبي بن كعب والحسن وأبو العالية.([2])

(**437**) تفيد أن السموات والأرض هما موطن دلائل الإيمان، لما فيهما من آيات بينات، وأنوار ساطعات، مما يدل على وجود الله وقدرته ووحدانيته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: 90،91]

---

1 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 178/19، 179

2 ينظر تفسير البغوي، 6/ 45، ومفاتيح الغيب، 11/ 356

(**438**) في إضافة النور إلى السماوات والأرض دلالة على كمال الشيوع، ووجه تخصيص المشكاة أنها أجمع للضوء الذي يكون فيها من المصباح أو غيره.

(**439**) في وجه تشبيه نور الله بالمشكاة وإن كان نوره أعظم، لأن ذلك غاية ما يدركه الناس من الأنوار، فضرب المثل لهم بما يصلون إلى إدراكه.

(**440**) تتضمن هذه الآية تشبيهاً بليغاً في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ والمراد به المضمر الأداة، وإنما سمي بليغاً لحذف واسطة الأداة ولو جازته بسبب هذا الحذف، لأن النور كما هو معلوم؛ كيفية، أو عرض، يدرك بالبصر فلا يصح حمله على الذات المقدسة، وأحسن ما يقال فيه: أن التشبيه جار على التقريب للذهن، أي: به تعالى وبقدرته أنارت أضواء السماء والأرض، واستقامت أمورها، لأن ظهور الموجودات حصل به، كما حصل بالضوء جميع المبصرات، أو أنه على التجوز أي منور السماء والأرض، أو بتقدير مضاف، كقولك: زيد عدل أي ذو عدول.([1])

(**441**) هذا مثل ضربه الله عز وجل لبيان شدة ضياء الإيمان، في قلب المؤمن ووضوح الأدلة والبراهين في الكون الدالة على الله عز وجل، واتصافه بصفات الكمال المطلق. ([2])

(**442**) تفيد أن محل الهدى هو قلب المؤمن، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾ (مَثَلُ نُورِهِ) مثل هداه في قلب المؤمن. وقال الحسن: (مَثَلُ نُورِهِ) مثل هذا القرآنِ في القلب كمشكاة.(3)

(**443**) يفيد هذا التشبيه ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾، أن المشكاة يشبهها ما في الإرشاد الإلهي من انضباط اليقين، وإحاطة الدلالة بالمدلولات دون تردد ولا انثلام، وحفظ المصباح من الانطفاء مع ما يحيط بالقرآن من حفظه من الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9] ومعاني هداية إرشاد الإسلام تشبه المصباح في التبصر والإيضاح وتبيين الحقائق من ذلك الإرشاد.([4])

---

1 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 608

2 من تعليقات الشيخ مصطفى البغا، على صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة النور.

3 جامع البيان في تأويل القرآن، 179/19.

4 ينظر التقريب لتفسير التحرير والتنوير، 41/2

(**444**) يفيد قوله تعالى -بلاغياً-: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ التشبيه المرسل، فقد جاء التشبيه هنا بواسطة الأداة وهي الكاف، والمراد أن النور الذي شبه به الحق نور متضاعف، قد تناحر فيه المشكاة، والزجاجة، والمصباح، والزيت، حتى لم تبق بقية مما يقوي النور..([1])

(**445**) يستفاد من هذا المثل نوعان من التشبيه؛ كل منهما هو هداية من هداياته؛ الأول: تشبيه تمثيلي، قصد فيه تشبيه جملة بجملة، (تشبيه مركّب) من غير نظر الى مقابلة جزء بجزء، بل قصد تشبيه هداه وإتقانه صنعته في كل مخلوق على الجملة، بهذه الجملة من النور الذي تتخذونه وهو أبلغ صفات النور عندكم.

(**446**) الهداية الثانية: وهي النوع الثاني في هذا التشبيه، وهو: تشبيه غير تمثيلي، أي غير مركب، قصد فيه مقابلة جزء بجزء، أي مثل نوره أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن، والدلائل تسمى نوراً، وقد سمى الله تعالى كتابه نوراً، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 174] وسمى نبيه نوراً فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 15] وهذا لأن الكتاب يهدي ويبين، وكذلك الرسول، ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبينها وواضعها.([2])

(**447**) في تمثيل الله تعالى لمعرفته وهداه في قلب المؤمن بنور المصباح، ولم يمثله بنور الشمس مع أن نورها أتم وأكمل، لأن المراد تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدر في البدن، بالمصباح: وهو الضوء أو الفتيلة في الزجاجة، والزجاجة في الكوة التي لا منفذ لها، وهذا التمثيل لا يستقيم إلا فيما ذكر.

(**448**) يفيد التمثيل بنور المصباح كذلك، دون نور الشمس، أن نور المعرفة له آلات يتوقف على اجتماعها، كالذهن والفهم والعقل واليقظة وانشراح القلب، وغير ذلك من الخصال الحميدة، كما أن نور القنديل يتوقف على اجتماع القنديل والزيت والفتيلة وغير ذلك.

(**449**) في التمثيل كذلك بنور المصباح، أن نور الشمس لا يشرق إلا بالنهار، ونور المعرفة يشرق بالليل والنهار كنور المصباح.

---

1 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 609

2 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 12/ 257، وإعراب القرآن وبيانه، 6 / 609.

(**450**) يفيد هذا التمثيل أيضاً أن نور الشمس يعم جميع الخلائق، ونور المعرفة لا يصل إليه إلا بعضهم كنور المصباح الموصوف.([1])

(**451**) فيها أن نور الله الذي يودعه في المؤمن هو من معرفته ومحبته وذكره، فإذا تمكن من القلب وأشرق فيه، ظهر على الوجه والجوارح، وتجلى في القول والعمل.

(**452**) تفيد أن هذا النور هو الذي أودعه الله في قلوب عباده من معرفته ومحبته، والإيمان به وذكره. وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس.

(**453**) تفيد أن أصل النور في قلوب المؤمنين، ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل ثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وإن كان سائر الخلق له منكر. فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا.([2])

(**454**) تفيد أن كل نور في آيات الله التشريعية أو الكونية، إنما هو انعكاس لنور الله تعالى، فهو أصل كل نور، ومن هنا يجب التعلق به سبحانه. وقد كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ: ((اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ...))([3])

(**455**) تفيد أنّ هداية االله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات، وصارت في ذلك بمنزلة المشكاة التي تكون فيها زجاجة صافية، وفي الزجاجة مصباح يتّقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء.([4])

(**456**) فيها أن المقصود من هذا التشبيه والتمثيل أن إيمان المؤمن قد بلغ في الصفاء عن الشبهات، والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور.

(**457**) فيها أن سلامة القرآن من أن يطرقه الشك واللبس، يشبه الزجاجة في تجلية حال ما تحتوي عليه، كما قال تعالى قبلها: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ ﴾

---

1 ذكر أوجه هذا التمثيل بنور المصباح محمد بن أبي بكر الرازي (ينظر مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب التنزيل. 240، 241)

2 التفسير القيم لابن القيم، 389/1 (بتصرف)

3 رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل، حديث رقم: 6317

4 ينظر مفاتيح الغيب، 232/23

(**458**) تفيد أهمية ضرب المثل في إظهار الهدى ومعرفة طريقه (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ..) ومن هنا كانت الأمثال القرآنية قسم من أقسام موضوعاته.

(**459**) فيها أن ضرب المثل له أهمية عظيمة في بيان المعقول بالمحسوس، والغيب بالمشهود، وله صلة وثيقة بباب الإرشاد وبيان الهدى.

(**460**) تفيد أن ضرب المثل وسيلة مهمة من وسائل القرآن في بيان الحق وإظهاره، فعلى المؤمن الداعية إلى الله أن يحرص على استعمال هذه الوسيلة لبيان مراده، وتبليغ قصده.

(**461**) أفادت كلمة: ﴿دُرِّيٌّ﴾[1] بضم الدال وتشديد الياء، نسبة إلى الدر، أن نور الزجاجة كالكوكب الدري في ضيائه وصفائه ولمعانه. أما قراءة: ﴿دِرِّيءٌ﴾ بكسر الدال مع المد والهمز، فهي من الدفع على وزن فِعِّيل، حيث يدرأ نور الكواكب بعضها بعضاً، أي يدفع ضوؤها خفاءَها أو يدرأ الكوكب الظلام بضوئه ويرفع الظلمة لتلألئه.([2])

(**462**) تفيد القراءتان: الضم والكسر مع الهمز لكلمة: ﴿دُرِّيءٌ﴾ معنى واحداً، وهو: دفع الظلام بالضوء واللمعان، فالله تعالى شبه نوره الذي ينور السماوات والأرض ويهدي البشر إلى الإيمان بالمشكاة التي فيها مصباح، الذي هو في زجاجة، التي هي كالكوكب الدري في الضياء واللمعان، وإزالة الظلمة والخفاء. فكما أن نور الله ذاتي في نفسه منور لغيره، يدفع عن المؤمن ظلمة الكفر والضلال.. وفي ذلك دليل على قوة الإيمان في النفوس التي يدخلها وقوة تأثيره عليها، فكذلك نور الزجاجة المتلألئ في ذاته منور لغيره دافع للظلمة والخفاء من حوله.([3])

(**463**) فيها -بناءً على ما سبق من القراءات لكلمة- ﴿دُرِّيٌّ﴾ أن قلب المؤمن المنار بالإيمان من الله تعالى، حاله هكذا مع الإيمان، فهو قوي، وتأثيره كبير على المؤمنين وأفعالهم. قال أبو السعود: وعبر عن المنور بالنور تنبيهاً على قوة التنوير وشدة التأثير، وإيذاناً بأنه تعالى ظاهر بذاته وكل ما سواه ظاهر بإظهاره، كما أن النور ينير بذاته وما عداه مستنير به.([4])

---

1 قرأ أبو عمرو والكسائي: (دِرِّيءٌ) بكسر الدال مع المد والهمز؛ وقرأ حمزة وأبو بكر: (دُرِّيءٌ) بضم الدال مع المد والهمز؛ وقرأ الباقون: (دُرِّيٌّ) بضم الدال وتشديد الياء من غير مد ولا همز. (انظر النشر، ج 2/ 332)

2 ينظر زاد المسير لابن الجوزي، 3/ 295، 296. والدر المصون، لأبي العباس، شهاب الدين، المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: 756هـ). 8/ 405، 406

3 ينظر تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر، 8/ 39

4 ينظر تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر 8/ 39 (بتصرف)

(**464**) قُرئت كلمة: ﴿يُوقَدُ﴾([1]) بالياء، والتاء ﴿تُوقَدُ﴾ فعلا مضارعاً مبنياً للمجهول من أوقد، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود -بالياء- على المصباح، أي هو يوقده الموقِدُ.([2]) وبالتاء يعود على الزجاجة تقديره هي.

وقرئت (تَوَقَّد) على وزن تفعّل فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر يعود على الزجاجة.

ومن هدايات قراءات هذه الكلمة: (تُوقَدُ- يُوقَدُ - تَوَقَّدَ):

(**465**) أن مجيء القراءات على هذا النحو في القرآن، أي مرة مبنية للفاعل، ومرة مبنية للمفعول، لتأكيد وقوع الفعل. ثم إن الفعل المضارع يدل على الحدوث والتجدد، بمعنى أن قراءة المضارع (يُوْقَدُ- وتُوقَدُ) تفيد تجدد إيقاد الوقود، فهو لا يذوي ولا ينطفئ.

(**466**) أن قراءتها بالفعل الماضي (تَوَقَّدَ) فإنها تفيد ثبات الوقود وتحققه، فكأن نور الزجاجة ثابت مستمر في التوقد.. وبذلك يكون زيت المصباح دائمة، وضوؤه دائماً لامعاً لا ينقطع. وهكذا نور الإيمان في قلب المؤمن دائم مستمر، كما أن نور الله في السماوات والأرض دائم مستمر إلى أن تقوم الساعة.([3])

(**467**) في قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ إشارة إلى ما في أكل الزيت، والأدهان به من فوائد صحية، وذلك لبركة شجرة الزيتونة التي خرج منها، كما صرحت به الآية، وهذه الفوائد مؤكدة طبياً، وواقعة تجربة.

(**468**) في هذا التشبيه أن الوحي الذي أبلغ الله تعالى به حقائق الديانة من القرآن والسنة، يشبه الشجرة المباركة التي تعطي ثمرة يستخرج منها دلائل الإرشاد، وسماحة الإسلام، وانتفاء الحرج عنه، يشبه توسط الشجرة بين طرقي الأفق؛ فهو وسط بين الشدة المحرجة، وبين اللين المفرط.([4])

---

1 قرأ ابن كثير والبصريان وأبو جعفر (تَوَقَّد) بتاء مفتوحة وفتح الواو والدال وتشديد القاف؛ وقرأ نافع وابن عمر وحفص (يُوْقَدُ) بياء مضمومة وإسكان الواو وتخفيف القاف ورفع الدال على التذكير. وقرأ الباقون (تُوقَدُ) بالتاء على التأنيث. (انظر النشر، ج، 2/ 332)

2 ينظر التحرير والتنوير، 239/9

3 ينظر تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر، 39/8 - 40(بتصرف)

4 ينظر التحرير والتنوير، 243/18

(**469**) في التمثيل بشجرة الزيتون ما يومئ إلى الحاجة إلى اجتهاد علماء الشريعة في استخراج إرشادها على مرور الأزمنة، لأن استخراج الزيت من ثمر شجرة الزيتون يتوقف على اعتصار الثمرة وهو الاستنباط.([1])

(**470**) يفيد مَثَلُ الآية أن قلب المؤمن (مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله، ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه. وخالطت بشاشته فازداد نوراً بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه. فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة. (نور على نور) فيكاد ينطق بالحق، وإن لم يسمع فيه أثراً، ثم يسمع الأثر مطابقاً لما شهدت به فطرته، فيكون نوراً على نور)([2])

(**471**) تفيد أن مادة هذا النور الذي هو مصباح الإيمان في قلب المؤمن: هي من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة، وأبعدها عن الانحراف، بل هي أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها، لم تنحرف انحراف النصرانية، ولا انحراف اليهودية، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء.([3])

(**472**) فيها أن قلب المؤمن يشرق بنور مصدره، ومصدره شجرة هذا الوحي الإلهي التي هي أعظم الأشياء بركة في هذه الحياة، فأي جانب من جوانبها شعَّ فيه هذا النور إلا وتلألأ بالصفاء.

(**473**) تشير إلى أن المؤمن عليه أن يسعى جاهداً لتطهير قلبه وتزكيته، وجعله نظيفاً من كل الأمراض، كالرياء والحقد والحسد والكبر، وكل أنواع الذنوب، ليخرجه من الظلمات إلى النور والهدى.

(**474**) تفيد أهمية التدبر في إدراك المعقول بتشبيهه بالمحسوس، لِاتفاق آثارهما وتأثيرهما (فليتأمل اللبيب في هداية هذه الآية العظيمة ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة، فذكر سبحانه وتعالى نوره في السماوات والأرض، ونوره في قلوب عباده المؤمنين: النور المعقول المشهود

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 243/18، 244

2 التفسير القيم لابن القيم 391/1 (بتصرف)

3 التفسير القيم لابن القيم، 391/1 (بتصرف)

بالبصائر والقلوب، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسفلي. فهما نوران عظيمان، أحدهما أعظم من الآخر)([1])

(**475**) تفيد أن النور يضاف إلى الله تعالى، إذ هو معطيه لعبده، وواهبه إياه. ويضاف إلى العبد، إذ هو محله وقابله. فيضاف إلى الفاعل والقابل، ولهذا النور فاعل وقابل، ومحل وحامل، ومادة. وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل. فالفاعل: هو الله تعالى مفيض الأنوار، الهادي لنوره من يشاء. والقابل: العبد المؤمن. والمحل: قلبه. والحامل: همته وعزيمته والمادة: قوله وعمله.([2])

(**476**) يفيد قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أن الله نور، وكتابه نور، ورسوله نور، وشريعته نور.. كما تفيده آيات كثيرة في القرآن الكريم.

(**477**) فيها أن قلب المؤمن مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله، ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه. وخالطت بشاشته فازداد نوراً بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه. فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾

(**478**) تفيد أن شأن المؤمن حقاً وصدقاً، أنه يدرك الحق بفطرته مجملا، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي وعن شهادة الفطرة.([3])

(**479**) فيها أنه لا أصفى من الوحي الإلهي لأنه نور، ولا أنقى ولا أزكى منه، فمن أراد صفاء نفسه، ونقاء سريرته، وطهارة قلبه ونور بصيرته؛ فليكن الوحي دليله وطريقه.

(**480**) يفيد التنكير في قوله ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ضرب من الفخامة والمبالغة، أي لا أرشق ولا أجمل منه، فليس هو نوراً واحداً معيناً، أو غير معين فوق نور آخر مثله، وليس هو مجموع نورين اثنين فقط، بل هو عبارة عن نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين.([4])

---

1 ينظر التفسير القيم، لابن القيم،1/ 392(بتصرف)

2 ينظر التفسير القيم لابن القيم،394/1 (بتصرف)

3 ينظر المرجع نفسه، 391/1

4 إعراب القرآن وبيانه، 611/6

(**481**) في قوله تعالى من الْمُمَثَّل له: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أن العلم الرباني عظيم الاتساع كلما سرحت فيه النظر، وأطلقت عنان الفكر، أتى بالغرائب والأسار، ولا يمكن أن يوقف له على حد.([1])

(**482**) تفيد أن المؤمن كلما اقترب من الله تعالى (النور) من خلال نوره (القرآن) زاده الله أنوار هداياته، حتى يبصر الحق من كل جوانبه، فلا تشتبه عليه الآمور ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ فترتقي نفسه، ويطيب قلبه، فيصبح ربانياً، فيرى بنور الله ويسمع بسمع الله تعالى.

(**483**) جملة: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ مستأنفة، إشارة إلى أن المقصود من مجموع أجزاء المركب التمثيلي هنا هو البلوغ إلى إيضاح أن الهيئة المشبه بها قد بلغت حد المضاعفة لوسائل الإنارة، إذ تظاهرت فيها المشكاة، والمصباح، والزجاج الخالص، والزيت الصافي، فالمصباح إذا كان في مشكاة كان شعاعه منحصراً فيها غير منتشر، فكان أشد إضاءة لها مما لو كان في بيت، وإذا كان موضوعاً في زجاجة صافية تضاعف نوره، وإذا كان زيته نقياً صافياً، كان أشد إسراجاً، فحصل تمثيل حال الدين، أو الكتاب المترل من الله في بيانه وسرعة فشوه في الناس، بحال انبثاق نور المصباح وانتشاره فيما حف به من أسباب قوة شعاعه وانتشاره في الجهة المضاءة به.([2])

(**484**) في هذه الآية دلالة بينة على أن كل من جهل الطريق فمن قبله أتى، وإلا فالأدلة واضحة، والبراهين ساطعة، ولو نظروا فيها نَظَرَ اهتداء لعرفوا واهتدوا.

(**485**) في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أن الله سبحانه بيده وحده مفاتيح الهداية، فمن شاء هدايته هداه بفضله ورحمته.

(**486**) فيها أنه لما كان الإخبار عن مضاعفة هذا النور موجباً لاعتقاد أنه لا يخفى عن أحد، أشار إلى أنه -بشمول علمه وتمام قدرته- يعمى عنه من يريد مع شدة ضيائه، وعظيم لألائه، فقال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾([3])

(**487**) في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ اثبات الهداية الخاصة، وهي هداية توفيق وتثبيت، في مقابل الهداية العامة التي هي هداية بيان وإرشاد.

---

1 ينظر نظم الدرر، 275/13

2 ينظر التحرير والتنوير، 242/18، 243

3 ينظر نظم الدرر، 13/ 275

(**488**) في قوله تعالى: ﴿ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أن هذه الهداية هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتماً لذلك النور المتضاعف العظيم الشأن.

(**489**) فيها إيذان بأن مناط هذه الهداية وملاكها ليس إلا مشيئته تعالى وأن إظهار الأسباب بدونها بمعزل عن الإفضاء إلى المطالب:

إِذَا لَمْ يَكُ التَّوْفِيقُ عَوْناً لِطَالِبٍ ... طَرِيقُ الْهُدَى أَعْيَتْ عَلَيْهِ مَطَالِبُه([1])

(**490**) فيها أن النور ينشأ عن امتثال أمر الله تعالى، واجتناب نهيه، وعن الصبر على ذلك فإنه ضياء، فإن حفظ الحدود بتقوى الله يجعل لصاحبه نوراً يمشي به في حياته، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد: 28]([2])

(**491**) في قوله تعالى: ﴿ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ إشارة أي أن هذا النور، الذي صوّرته المشكاة، والمصباح، إنما هو مثل فقط، وليس حقيقة، لأن نور الله سبحانه وتعالى لا يمكن وصفه، وإن أمكن الإشارة إليه بصورة تمثله، ولا تماثله.

(**492**) في قوله تعالى: ﴿ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ أن لضرب المثل دَخْلاً عظيماً في باب الإرشاد لأنه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس، وتصوير لأوابد المعاني بصورة المأنوس، ولذلك مَثَّلَ جل وعلا نوره المراد به ما يشمل القرآن، أو القرآن المبين فقط بنور المشكاة.([3])

(**493**) فيها أن هداية الله تعالى تأتي في القرآن على فنون مختلفة، وطرائق شتى، من ضَرْب الأمثال وغيرها.. حسبما تقتضيه أحوال الناس وتقوم به الحجة عليهم.

(**494**) في قوله تعالى: ﴿ لِلنَّاسِۖ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ وعْد لِمَن من تدبر الأمثال واتعظ بها، ووعيد لِمَن أعرض عنها و لم يكترث بها.

---

1 ينظر روح المعاني، 9/ 356

2 ينظر دقائق التفسير، لابن تيمية، 381/4، نقلا عن (انشراح الصدور في تدبر سورة النور) 260، سليمان بن إبراهيم اللاحم.

3 ينظر روح المعاني، 9/ 366

(**495**) يفيد ختام الآية أن الله تعالى إنما ضرب هذا المثل توضيحاً للناس، لتقريب الهداية لمن شاء له الهداية، وهو محيط بكل شيء علماً، ومن ذلك علمه لمن هو قابل للهداية، ومن هو مصرّ على ضلاله وغيّه.

(**496**) فيها تعريض بالوعيد، لمن لا يعتبر ولا يتفكر في أمثاله ولا ينظر في أدلته فيعرف وضوحها وبعدها عن الشبهات.([1])

(**497**) في الآية أهمية ضرْب المثل في التربية والدعوة، قصد إيصال الحقائق المعقولة في صور محسوسة، حتى يعلمها الجميع، ويدركوا أهميتها وآثارها إن هم استجابوا لها. كما قال الله سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: 43]

(**498**) إن هذا المثل هو مثل لنور القرآن الكريم في قلب المؤمن، فكما أن هذا المصباح يستضاء به ولا ينقص، فكذلك نور القرآن يهتدى به ولا ينقص.

(**499**) ذكر الله تعالى في هذه الآية نوره في السماوات والأرض، ونوره في قلب عباده المؤمنين: النور المعقول المشهور بالبصائر والقلوب، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسفلي. وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع لم يعش فيه آدمي ولا غيره، فكذلك أمة فُقِدَ فيها نور الوحي والايمان ميتة ولا بد، وقلب فُقِدَ منه هذا النور: ميت ولا بد، لا حياة له البتة. ([2])

(**500**) في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ إشارة إلى أن نور الله، هو من علم الله الكاشف لكلّ شيء.. فهو نور علم وهداية، يصدر عن عالم، حكيم، مدبر، فيفيض على الوجود هدى ورحمة، ويسكب على الموجودات سكينة وسلاماً وأمناً.([3])

(**501**) في خَتْم هذا الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تَذْيِيلٌ لِمَضْمُونِ الْجُمْلَتَيْنِ قَبْلَهَا، أَيْ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ. وَمِنْ ذَلِكَ عِلْمُ مَنْ هُوَ قَابِلٌ لِلْهُدَى وَمَنْ هُوَ مُصِرٌّ عَلَى غَيِّهِ. وَهَذَا تَعْرِيضٌ بِالْوَعْدِ لِلْأَوَّلِينَ والوعيد للآخرين.([4])

---

1 مفاتيح الغيب، (التفسير الكبير) 341/11

2 ينظر التفسير القيم، 392/1

3 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1289

4 ينظر التحرير والتنوير، 244/18

(**502**) من هدايات هذا التشبيه ما ذكره ابن الأثير من كونه يتعلق بذات النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أن تمثيل نور الله تعالى بمشكاة فيها مصباح، مثال ضربه للنبي صلى الله عليه وسلم ويدل عليه أنه قال: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ وإذا نظرت إلى هذا الموضع وجدته تشبيهاً لطيفاً عجيباً، وذاك أن قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وما ألقي فيه من النور، وما هو عليه من الصفة الشفافة، كالزجاجة التي كأنها كوكب لصفائها وإضاءتها، وأما الشجرة المباركة التي لا شرقية ولا غربية فإنها عبارة عن ذات النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه من أرض الحجاز التي لا تميل إلى الشرق، ولا إلى الغرب، وأما زيت هذه الزجاجة فإنه مضيء من غير أن تمسه نار، والمراد بذلك أن فطرته فطرة صافية من الأكدار منيرة من قبل مصافحة الأنوار.([1])

(**503**) تدل هذه الآية على مطلق سلطان الله تعالى، وامتلاكه لناصية كل موجود في هذا الوجود، من الذّرّة فما دونها، إلى النجم فما فوقه، وأنه وحده: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه، 50] وأن كل هداية منه سبحانه؛ سواء منها الدلالية أو التوفيقية، المادية أو المعنوية، فكما أن الله سبحانه وتعالى هو ربّ العالمين، فهو كذلك نور العالمين.

1 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 610

- **الآية السادسة والثلاثون:** ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**504**) في علاقتها بما قبلها؛ استئناف جميل لبيان حال من حصلت لهم الهداية لذلك النور، وذكر بعض أعمالهم وصفاتهم الظاهرة والباطنة.

(**505**) تفيد في مناسبتها بما قبلها؛ أن الله تعالى بعد أن بيّن كون نوره سبيلا لهداية عباده، بما أقام لهم من الآيات البينات، ذكر هنا حال المنتفعين بذلك النور.([1])

(**506**) تفيد في مناسبتها بما قبلها كذلك أن الله تعالى لما ضرب مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم، بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقّد من زيت طيب، وذلك كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها سبحانه ويُوَحَّد.([2])

(**507**) فيها من دقة التناسب؛ أن ذلك النور الطليق، الشائع والفائض في السماوات والأرض، يتجلى ويتبلور في بيوت الله التي تتصل فيها القلوب بالله، تتطلع إليه وتذكره وتخشاه، وتتجرد له وتؤثره على كل مغريات الحياة. ([3])

(**508**) فيها أن الله سبحانه بعد ذكره لمثل النور في قلب المؤمن، بيّن بعد ذلك مكان هذا النور الرباني، فيكون أشد ما يكون في المساجد، فقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾

(**509**) في سياقها بما قبلها أن الله لما ذَكر شأنَ القرآن الكريم في بيانه للشَّرائع والأحكام ومبادئها وغاياتها المترتِّبة عليها من الثَّوابِ والعقاب، وأُشير إلى كونه في غاية ما يكونُ من التَّوضيحِ والإظهار، حيثُ مُثِّل بما فُصِّل من نور المشكاة وأُشير إلى أنَّ ذلك النُّورَ مع كونه في أقصى مراتبِ الظُّهور إنَّما يهتدي بهداه من تعلَّقتْ مشيئةُ الله تعالى بهدايته دُونَ مَن عداه؛ عقَّب ذلك بذكر الفريقينِ، وتصوير بعض أعمالهم المعربةِ عن كيفيَّةِ حالهم في الاهتداءِ وعدمه.([4])

---

1 ينظر التفسير المنير، 18/ 249

2 ينظر تفسير ابن كثير، 62/6

3 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2520

4 ينظر إرشاد العقل السليم، 178/6

(**510**) فيها أن الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ يصلح أن يكون متعلقاً بالآية التي قبلها، وفيها عدة أفعال كل فعل فيها يصلح متعلقاً، فيصح أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ ﴾ ويصح أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾ ويصح أن يكون التعليق بقوله:﴿ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ فالتعليق يصح أن يكون لفعل من هذه الأفعال، فالمساجد تتعلق بالنور والهداية، وهي بيوت الله تعالى، وفيها النور، وفيها يوقد النور الإلهي، وفيها الهداية.

(**511**) في تنكير البيوت، ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ لتذهب النفس في تعرفها كل مذهب، وقد عرفها سبحانه وتعالى بوصفها الذي يجليها، ويزيل إبهامها للنكرة، وهو قوله تعالى: ﴿ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾

(**512**) يفيد تنكيرها كذلك -أي البيوت- تعظيماً لمقامها، ورفعاً لشأنها، وتضخيماً لقدرها، وإن ضاقت رقعة وقلت عدداً.. فهى أيّاً كانت، أعلى البيوت مقاماً، وأرفعها عماداً، وكل بيوت غيرها، ظلّ لها، ومرفق من مرافقها.([1])

(**513**) يفيد تقديم المجرور للاهتمام بتلك البيوت، وللتشويق إلى متعلق المجرور وهو التسبيح وأصحابه. والتقدير: يسبح لله رجال في بيوت، ويكون قوله: ﴿فِيهَا﴾ تأكيداً لقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ لزيادة الاهتمام بها. وفي ذلك تنويه بالمساجد وإيقاع الصلاة والذكر فيها.([2])

(**514**) فيها بيان وذكر لحال من حصلت لهم الهداية لذلك النور، وهم أهل الإيمان، فيكون الجار والمجرور: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾ متعلق بما بعده، وهو: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ ولذلك ذكر بعضاً من أوصافهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، كما سنراها في هدايات الآية الآتية.

(**515**) تفيد إلى أنه لما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذكرها منوهاً بها فقال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾([3])

---

1 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1290

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 248

3 تيسير الكريم الرحمن، 567/1

(**516**) فيها أن بيوت الله هي مشكاة الأنوار التي يقتبس منها نور الإيمان، فمن كان أكثر اتصالا بها وإعماراً لها ازداد نوراً وإشراقاً، ومن ثم هداية وبصيرة.

(**517**) فيها الأمر بتعظيم بيوت الله تعالى، وتطهيرها من كل ما لا يليق بها حساً ومعنىً، قال ابن كثير: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى برَفْعِهَا، أَيْ: بتَطْهِيرِهَا مِنَ الدَّنَسِ وَاللَّغْوِ، وَالْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ الَّتِي لَا تَلِيقُ فِيهَا، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ قَالَ: نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ اللَّغْوِ فِيهَا.([1])

(**518**) فيها الحث على بناء المساجد وتشييدها، لما لذلك من فضل عظيم وثواب جزيل، فعن عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى -قَالَ بُكَيْرٌ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ- بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ)) وَقَالَ ابْنُ عِيسَى فِي رِوَايَتِهِ: مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ.([2])

(**519**) تفيد بيان فضل بناء المساجد وتشييدها، ورفعها وإبرازها؛ ليراها الناس؛ فيقصدوها للعبادة من صلاة، وذكر، وقراءة للقرآن، وتعليم للعلم، وغير ذلك.

(**520**) تدل على أن بناء المساجد وتشييدها، من شعائر المجتمع الإسلامي الظاهرة، ولذلك لا يجوز شرعاً أن يخلو مكان فيه المسلمون منها، إذ هي دليل ومَعْلَمٌ من معالمه.

(**521**) تفيد أن رفع بيوت الله تعالى يدل على معنيين جليلين: المعنى الأول: الأمر بتشييدها وبنائها لتؤدي الرسالة المنوطة بها في الدين على أحسن وجه، فكلمة (رفع) تستعمل بمعنى بنى، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾ [النازعات: 27 ، 28] وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ ۝١٢٧﴾[البقرة:127] وهذا هو الرفع الحسي. المعنى الثاني: الأمر بتعظيمها وتطهيرها من الأنجاس والأقذار، على غرار ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦﴾ [الحج : 26] وهذا هو الرفع المعنوي.([3])

---

1 تفسير القرآن العظيم، 62/6

2 رواه مسلم، كتاب المساجد، باب فضل بناء المساجد والحث عليها، حديث رقم: 533

3 ينظر التيسير أحاديث التفسير، المكي الناصري، 277/4-276.

(**522**) تفيد الاهتمام ببناء المساجد ورفعها وعمارتها مادياً ومعنوياً، قَالَ قَتَادَةُ: (هِيَ هَذِهِ الْمَسَاجِدُ، أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، بِبِنَائِهَا وَرَفْعِهَا، وَأَمَرَ بِعِمَارَتِهَا وَتَطْهِيرِهَا)([1])

(**523**) من لطائف التعبير ب(أذن) في قوله تعالى: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ بدل: (أمر الله أن ترفع) أن المطلق إن كان محبوباً للنفس، فيقال فيه: ﴿ أَذِنَ ﴾ لأنها بنعتها تطلبه وتفعله، والإذن خاص مما ترغب النفس في فعله، والأمر عام فيه وفيما تكرهه النفس، وتعظيم هذه البيوت مما تفعله النفوس وتحرص عليه.([2])

(**524**) تفيد منزلة ومكانة بُناة المساجد وروادها عند الله تعالى، ولقد وردت في ذلك عدة أحاديث، منها: فَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ))([3])

(**525**) تفيد أن بيوت الله تعالى هي أشرف البقاع في الأرض وأحبها إلى الله تعالى، ولذلك فهي تضاف إليه إضافة تشريف وتخصيص.

(**526**) يفيد قوله تعالى: ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ مطلق الذكر، فيعم كل ذكر عموم البدل، من توحيد، وتسبيح، وقراءة للقرآن، وصلاة، ودعاء.. وكل ما يدخل تحت ذكره سبحانه وتعالى.

(**527**) تفيد أن أشرف مكان يذكر فيه الله تعالى هو المساجد، لحضور ملائكة الرحمن فيها يستغفرون للعباد ويصلون عليهم، ما داموا ينتظرون اللصلاة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللهُمَّ ارْحَمْهُ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ)) ([4])

---

1 تفسير القرآن العظيم، 62/6

2 ينظر تفسير ابن عرفة، 223/3 محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: 803هـ)

3 صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب فضل بناء المساجد والحث عليها. حديث رقم: 1217

4 رواه مسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، حديث رقم: 649 عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(**528**) من هدايات الرفعة المعنوية لبيوت الله، في قوله: ﴿أَن تُرۡفَعَ﴾ لأن فيها النور وفيها الهداية، وفيها السمو، وفيها الربانيون الذين لا يريدون إلا رضا الله تعالى، وإنه يقترن بهذه الرفعة، أو بذكر اسم الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾

(**529**) يفيد قوله تعالى: ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ تحديد دقيق لرسالة بيوت الله التي أنيطت بها، وأقيمت من أجلها، بحيث لا يسوغ التخلي عنها بحال، وكل ما يتصل بها يجب استبعاده في جميع الأحوال.

(**530**) في قوله تعالى: ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ كذلك؛ بيان للغاية من رفعها، والمقصد من إقامتها، فهي إنما رفعت وأقيمت ليذكر فيها اسم الله وحده؛ إخلاصاً وتوحيداً وعبادة.. فهى بيوت عبادة، وذكر لله تعالى.

(**531**) في قوله تعالى: ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ دعوة إلى إفراد الله تعالى بالتوحيد، والقصد في كل الأمور؛ عبادة، ودعاء، وذكراً، فتلك هي حقيقة العبودية.

(**532**) تشير إلى النهي عن التحدث في المساجد باللغو والرفث والخنى، أو إنشاد الشعر في جنباتها إذا كان لا يتضمن ثناء على الله ورسوله، ولا يؤدي غرضاً شرعياً ملائماً لأغراضها.

(**533**) تشير كذلك إلى النهي عن البيع والشراء داخل المساجد، أو مباشرة الخصومات والمحاكمات والمشاجرات ورفع الأصوات بين جدرانها، ونهى عن المبيت والنوم بها إلا عند الضرورة القصوى لغريب أو عابر سبيل.([1])

(**534**) تفيد أن من أهمّ وظائف المساجد: التعريف بالله تعالى، والتعريف بمظاهر قدرته وحكمته، ثم ذكره وتمجيده وتنزيهه وتعظيمه، وتبليغ رسالته المتضمنة لهدايته، وتلاوة كتابه ومدارسته، والدعوة إلى توحيده وعبادته وطاعته.

(**535**) إن لبيوت الله تعالى دوراً كبيراً وعظيماً، في بثّ نور الله وتوحيده، وهدايات آيات كتابه إلى عباده، إذ المساجد هي الموطن لشعار التوحيد، وبثه في الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن: 18]

1 التيسير في أحاديث التفسير، 4/279-278

(**536**) تفيد أن بيوت الله هي موطن راحة المؤمن، وطمأنينة قلبه، وسكينة نفسه، وذلك لما اشتملت عليه وظائفها من ذكر الله تعالى، الذي إليه تطمئن القلوب، وتسعد به النفوس، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: 28]

(**537**) تفيد أن من علامات الإيمان عمارة المساجد والتردد عليها والاهتمام بها، وذكر الله داخلها، صلاة وتلاوة وتسبيحاً وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴿١٨﴾ ﴾[التوبة: 18]

(**538**) فيها أن أفضل الرباط هو الرباط في المساجد، انتظاراً للصلاة بعد الصلاة، فبه يمحو الله الخطايا ويرفع الدرجات، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ به الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ به الدَّرَجَات؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ الله قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ))([1])

(**539**) من هدايات هذه الكلمة: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ أن تُحْمَل على مساكن الناس وبيوتهم عامة؛ كما حملها عكرمة، وجعل في ذلك مشروعية ذكر الله فيها وعمارتها بطاعته.([2])

(**540**) قرئت كلمة ﴿ يُسَبَّحُ لَهُۥ ﴾ بفتح الباء على ما لم يسم فاعله. وبكسر الباء ﴿يُسَبِّحُ﴾ مسمى الفاعل،([3]) واختلاف القراءتيْن نتج عنه اختلاف إعراف كلمة: ﴿رِجَالٌ﴾ في بداية الآية التالية، بناء على اختلاف القراءة في لفظة: ﴿يُسَبِّحُ﴾ فإعراب ﴿رِجَالٌ﴾ على قراءة فتح الباء في يُسَبَّح مبنية للمجهول، يأتي بوجهين: الأول: أن تكون رجال مرفوعة لأنها فاعل لفعل محذوف دلّ عليه المقام، كأنه قيل: من يسبحه؟ فقيل: يسبحه رجال صفتهم كذا وكذا. والثاني: أن (رجال) مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف، أي المسبح رجال. والنتيجة أنه لما قال: يُسَبَّحُ دلّ على أن ثَمَّ مسبحين.

---

1 رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره. حديث رقم: 251 عن أبي هريرة رضي الله عنه.

2 ينظر تفسير الطبري، 17/ 316

3 قرأ ابن عامر وأبو بكر بفتح الباء (يُسَبَّحُ) بفتح الباء – مبني لما لم يسم فاعله- وقرأ الباقون (يُسَبِّحُ) بكسر الباء. (ينظر النشر، 2/ 332)

وأما على قراءة كسر الباء في يُسَبِّح الذي هو فعل مضارع مبني للمعلوم فتكون رجال مرفوعة لأنها فاعل للفعل يسبح.([1])

(**541**) وبناء على ذلك تكون قراءة ﴿يُسَبِّحُ﴾ بالكسر مفسرة ومبينة لقراءة ﴿يُسَبَّحُ﴾ بالفتح حيث إن كل قراءة سدت مسد آية، وآيات القرآن يفسر بعضها بعضاً. وقد قرر العلماء أن القراءتين في الآية الواحدة كالآيتين، فتعدد القراءات بمثابة تعدد الآيات.

(**542**) تدل هذه الآية على حث المسلمين وترغيبهم بالصلاة في المساجد، وأن لا يتخلفوا عن ذلك، لأن المقصود بالذكر والتسبيح فيها أصالة هي الصلوات الخمس، وباقي أنواع العبادات فيها بالتبع، وما سميت المساجد مساجد؛ إلا لكثرة السجود فيها.

(**543**) في ربط ذكر الله تعالى بالغدو والآصال، وتخصيص هذين الوقتين بذلك؛ تشريف لهما، ولذلك شرعت أذكار الصباح والمساء، وذلك أن الصباح استقبال ليوم جديد فينبغي أن يذكر الله ويحمد على ذلك، والمساء توديع له، فيذكر الله ويحمد على ما وفّق من العمل في ختام هذا اليوم.

(**544**) فيها أن شرف كل وقت هو بشرف ما خُصِّص به من عبادة الله تعالى، وأنه يعظم وتختلف درجاته ومنزلته بعظم هذه العبادة التي خصص بها.

(**545**) تدل هذه الآية على تفاضل الأوقات، وأن المؤمن الفطن هو من يستثمر الأفضل فالأفضل من الأوقات، لتفاضل العبادات فيها، وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة، تحث على استثمار بعض الأوقات في الذكر والدعاء، لأنها مظنة الاستجابة والقبول، ومنها: الغدو والآصال، ومعلوم ما عُرِفَ في باب الأذكار والدعوات ب"أذكار الصباح والمساء"

(**546**) تفيد أن أعظم العبادات هي ما اجتمع لها من شرف المكان (بيوت الله) والزمان ما خصصه بالذكر سواء كان يوماً، أو ليلة، أو جزءاً منهما (الغدو والآصال – والفجر– والثلث الأخير من الليل...)

(**547**) تفيد أن ذكر الله تعالى هو من أبرز صفات المؤمنين، فهم يذكرون الله تعالى على كل حال، وفي كل زمان ومكان، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: 191]

---

1 ينظر تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر، 41/8 (بتصرف)

(**548**) تشير إلى أن أعظم عبادة يعبد الله تعالى بها في المساجد هي الصلاة، فمن خلالها يذر اسم الله، ويسبح بالغدو والآصال، وذكر الآصال والغدو هو ذكر لما بينهما من الظهر، ولما بعدهما من العشي، وهي الصلوات الخمس، وتفسير التسبيح بالصلاة أنسب للمساجد التي هي بيوت الله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: 18]

(**549**) تدل على فضيلة عبادة "التسبيح" وخصوصيتها، فقد عبرت بها الآية عن الصلاة التي هي أعظم العبادات، وقد جعل الله "التسبيح" من أذكارها في الركوع والسجود، كما شرعه بعد الانتهاء منها في المعقبات.

(**550**) تفيد أن صلاح المجتمع يبدأ من بيوت الله بإقامة الصلاة فيها، ذلك أن مَن صلحت صلاته صلح سائر عمله، ومن فسدت صلاته فسد سائر عمله، والالتزام بالصلاة في أوقاتها هي أحب العمل إلى الله تعالى، فعن عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ: ((الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا)). قَالَ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ: ((ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ)). قَالَ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ: ((الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)). قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي.([1])

(**551**) تشير هذه الآية إلى أهمية الوقت، لأنه ظرف كل عمل، وهو حقيقة الإنسان من حيث تعريفه الوجودي، فالإنسان لحظة ميلاد، ثم لحظة وفاة، وكل عمله إنما يقع داخل الوقت، فإما أن يكون من أهل الأوقات؛ أي الملتزمين بمواعيدها التعبدة، وإما أن يكون مضيعاً لها، ومن ثم مضيعاً لعمله وعمره.

(**552**) في قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴾ بيان شارح لهذه المساجد، ولمن يغشونها من عباد الله.. فهذه البيوت لا تهشّ، ولا تسعد إلا بمن يتعلق قلبه بها، ويجد الأنس والمسرّة فى رحابها، ويستشعر الغربة والوحشة فى البعد عنها، فهو لهذا غاد ورائح إليها، لا تلهيه تجارة ولا بيع عن غشيانها وذكر الله فيها، ابتغاء رضوانه، وخوفاً من لقائه، كما في الآية الآتية.([2])

---

1 البخاري كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، حديث رقم: 527.

2 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1291

- **الآية السابعة والثلاثون:** ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**553**) في مناسبتها بما قبلها؛ أن أول موضع تظهر فيه هداية الله ونوره هو في المساجد التي يشيد بناءها المؤمنون، ويعمرونها بالصلاة والأذكار في أوائل النهار وأواخره.([1])

(**554**) في علاقتها بما قبلها من البلاغة: حسن التّخَلّص؛ تَخَلّص من موضوع أنه سبحانه في غاية الكمال، إلى ذكر حال المؤمنين وما يؤول إليه أمرهم.

(**555**) تفيد أن وصْف الرجولة -كصفة لموصوف- لا يرد إلا في موطن التضحية في سبيل الله، والمسارعة لأمره، دعوة، وعبادة، وجهاداً، كما قال تعالى: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة: 108] وقوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب: 23]

(**556**) تفيد أن المؤمن حقاً وصدقاً، لا يُشغله عن الصلاة في هذه المساجد شيء. ونظر سالم بن عبد الله إلى قوم من أهل السوق، قاموا وتركوا أشغالهم يريدون الصلاة فقال: هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه: ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾([2])

(**557**) فيها أن المؤمن حقاً وصدقاً لا يشغله عن حضور المساجد لإقامة الصلوات، شيء من أعمال التجارات، أو البحث عن الصفقات في الأسواق وكسب المال وجمع الأرزاق.

(**558**) تفيد شرف ومنزلة الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، بثناء الله تعالى عليهم وتخليد ذكرهم.

(**559**) في قوله: تعالى ﴿ رِجَالٌ ﴾ إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه، وشكره وتوحيده وتنزيهه.([3])

---

1 ينظر التفسير المنير، 18/ 252

2 الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، 8 / 5116أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: 437هـ)

3 ينظر تفسير القرآن العظيم، 367/3

(**560**) في التعبير بقوله: تعالى ﴿رِجَالٌ﴾ إشارة إلى أن الأفضل للنساء الصلاة في بيوتهن. كما صرحت بذلك بعض الأحاديث النبوية.

(**561**) إن البيع من التجارة، ولكن الآية خصته بالذكر ﴿تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ لأنه هو الهدف من التجارة، ولأن ربحه متيقن ناجز في الغالب، وما عداه متوقع، وهو صفقة التجارة، وثمن المثمَّن، ولذلك كان هو السبب المباشر لانشغال العبد عن الصلاة والذكر في الغالب.

(**562**) في ذكر الله تعالى التجارة وعدّها من العوارض التي لا تلهي أهل الإيمان، إشارة إلى أنها من أكثر ما يلهي غيرهم؛ وذلك لما للمال من فتنة وجاهٍ ومتعة.

(**563**) في ذكر الله تعالى البيع بعد ذكره التجارة، مع أن التجارة بيع وشراء، فلا يدور مال التاجر إلا بهما؛ لأن المقصود أهل البيع، وهم الباعة، وأهل المتاجر. فهؤلاء هم الذين المعرَّضون للغفلة عن ذكر الله وإقامة الصلاة في أوقاتها.

(**564**) في ذكر (البيع) في الآية من الهدايات:([1])

(**565**) أولا: أن الفتنة والشغل بالبيع أكثر من الفتنة بالشراء؛ فإن ذهن من يبيع سلعة ينشغل بها أكثر ممن يبحث عن سلعة يشتريها، والبائع يهتم بتدوير ماله، بخلاف المشتري، فغالباً الناس تشتري لتستهلك، والبائع يبيع سلعته ليشتري مثلها ويبيعه ويتكسب.

(**566**) ثانياً: أن المقصود بها أهل الحوانيت والدكاكين والمتاجر، وهؤلاء يبيعون فيها أكثر مما يشترون، والبائع ثابت والمشتري عابر، والتاجر في متجره يشغله البيع أكثر من الشراء؛ لأنه يشتري الشيء الكثير مرة واحدة، ثم يبيعه مجزأ، فيعرضون سلعهم للناس طول اليوم، وهذا خطاب لهم أنهم إن سمعوا النداء للصلاة أن يجيبوا، ولا تشغلهم متاجرهم وأسواقهم عن الصلاة.

(**567**) أن البائع يتحكم في السلعة والسوق أكثر من المشتري، والبائع أقدر على حرمان المشتري من الانتفاع من السلعة، وهو يتمكن من الاحتكار والتسعير والإضرار بالسوق والناس.

(**568**) أن البائع غالبا تاجر، وأما المشتري فكثيراً ما يكون محتاجاً وربما فقيراً؛ فهو يشتري لانتفاعه لنفسه.

---

1 ينظر التفسير والبيان لأحكام القرآن، 1865/4.

(**569**) تشير إلى إباحة ممارسة التجارة والبيع، ووجه ذلك في الآية أن الله ذكر رجالا عظماء لا تلهيهم تجارتهم ولا بيعهم عن ذكر الله وإقام الصلاة، فذكرها في سياق ما هو مباح من العمل، لكنه لا يلهي أصحابه عما هو أعظم منه وهو: ذكر الله وإقامة الصلاة...

(**570**) يستفاد من الآية أن العبد الذاكر حقاً وصدقاً؛ هو الذي يستفتح نهاره بذكر الله تعالى، ويختتمه بذلك، متعلقاً بالله راجياً منه أن يحفظه بذكره له، ويبارك له فيما بين ليله ونهاره من أعمال.

(**571**) تفيد عظمة الصلاة ومنزلتها عند الله تعالى، فقد ذكر الله عن صفة هؤلاء: أنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ، ومعلوم أن الصلاة من ذكر الله، لكنه خصها بالذكر، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام، لمنزلته.

(**572**) تفيد أن الصلاة في المساجد أفضل عند الله تعالى من صلاة الرجل لوحده، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ، بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللهُمَّ ارْحَمْهُ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ))([1])

(**573**) فيها أن ارتياد المساجد والتردد عليها في جميع الأوقات هو رباط في سبيل الله تعالى، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ)) قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: ((إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ))([2])

(**574**) تفيد جملة: ﴿ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ إقامتها لمواقيتها من غير تأخير، وأدائها في وقتها جماعة لأن مؤخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة.([3])

---

1 مسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، حديث رقم: 1538عن أبي هريرة رضي الله عنه.

2 مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، حديث رقم: 251عن أبي هريرة رضي الله عنه.

3 فتح البيان في مقاصد القرآن، 9/ 233 أبو الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: 1307هـ)

(**575**) تفيد عظمة الصلاة بعد الشهادين، لقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما أرسله إلى اليمن: ((ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّه، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ))([1])

(**576**) تفيد هذه الآية تعظيم قدر صلاة الجماعة، وتأكيد ترك الأسواق لها، وهذه الآية نزلت في ترك أهل الأسواق أسواقهم لأداء الصلاة، وقد أمر الله بالجماعه عند التقاء الصفين في القتال؛ فكيف لا يؤمر بها عند التقاء المتبايعين في الأسواق؟([2])

(**577**) تشير هذه الآية إلى أنه ينبغي للمؤمن أن ينبه إخوانه للصلاة عند النداء، ويذكرهم ويحثهم على ذلك، وقد كان هذا هدي النبي صلى الله عليه وسلم، فعن مسلمِ بنِ أبي بَكْرَةَ، عن أبيه؛ قال: (خرَجْتُ مع النبيِّ صلى اللَّه عليه وسلم لصلاةِ الصبحِ، فكان لا يمُرُّ برجُلٍ إلَّا ناداهُ بالصلاةِ أو حرَّكَهُ برِجْلِه)([3]) وكان هذا حال الصحابة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، والسلف عموماً رضي الله عنهم.

(**578**) فيها أن إقامة الصلاة لا تكتمل إلا بأداء الزكاة، ولذلك ربط الله بينهما في القرآن الكريم، كما في هذه الآية وغيرها.

(**579**) تفيد أن المؤمنين الصادقين لا تلهيهم التجارة والصفقات في الأسواق، لكسب المال وتحصيل الرزق، عن أداء حق الله في الصلاة، وأداء حق العباد في الزكاة.

(**580**) فيها أن الله تعالى لَمّا وصف الرجال المذكورين ما وصفهم به، ذَكَرَ علة فعلهم لذلك زيادة في مدحهم فقال: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا ﴾([4])

---

1 صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، حديث رقم: 1395 من حديث بن عباس رضي الله عنهما.

2 ينظر التفسير والبيان، 4/ 1865

3 أبو داود في السنن، باب الاضطجاع بعدها؛ أي ركعتي الفجر برقم: 1264، وإسناده ضعيف، أبو الفضل –وهو ابن خلف الأنصاري– مجهول، لكن هناك روايات أخرى بمعناهُ تعضده؛ فقد روى أحمدُ في مسنده عن عبد اللَّه بنِ طِهْفَةَ؛ أنَّ رسولَ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كان إذا خرَجَ، جعَلَ يُوقِظُ الناسَ: ((الصلاةَ، الصلاةَ)) (أخرجه أحمد 5/ 426)

4 ينظر نظم الدرر، 280/13

(**581**) نُصب يوماً على المفعولية، فهو مفعولُ ليخافون لا ظرفٌ له، وذُكِرَ منكَّراً تهويلا له، فهو ﴿ يَوْمًا ﴾ عظيماً، يتغيّر فيه كل شيء، وتظهر الحقائق، ولذلك تتقلب فيه القلوب.

(**582**) تفيد أن تذكّر اليوم الآخر وما فيه من أهوال عِظام، من أعظم الأسباب في الإقبال على الطاعة، والابتعاد عن المعصية.

(**583**) فيها أن مَنْ كَانَ قلبُه مُوقِناً بالبعث والقيامَةِ، والحساب والجزاء، ازداد بَصِيرَةً، ورأى ما يحبُّه مما وُعِدَ بِهِ.([1]) ونشط في الطاعة ورزق حلاوتها لأنها وسيلة للسعادة الأبدية.

(**584**) تفيد جملة: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الإشارة إلى: منزلة الخوف والرجاء، التي هي منزلة الأنبياء والصديقين، والمؤمنين الصادقين، أي تَتَقَلَّبُ بَيْنَ: الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، تَخْشَى الْهَلَاكَ وَتَطْمَعُ فِي النَّجَاةِ.

(**585**) تفيد الترغيب في عمل الصالحات، والترهيب من عمل السيئات، ذلك أن المنازل إنما تقطع على جناحي الخوف والرجاء، وهو أعظم ما تتميز به شريعة الإسلام في شمول وسطيتها.

(**586**) من عادة القرآن الكريم أنه إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعْداً ووعيداً؛ ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ليُعلم عظم الآمر والناهي سبحانه.([2]) ووجه ذلك في هذه الآية أن الله تعالى لما تحدث عن بناء المساجد ووظيفتها وأوصاف أهلها الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة أحكامه من الصلاة والزكاة؛ أعقب ذلك بذكر أهوال يوم القيامة وما يتبع ذلك من عظم جزاء المحسنين ومثوبتهم الذي يدل على كمال الله وكمال قدرته.

(**587**) تفيد أن المؤمن يعيش في دنياه لآخرته، مستعداً لها في كل لحظة بطاعته وتقربه إلى الله تعالى. ذلك أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أن من أسباب عدم ركون المؤمن إلى الدنيا وملذاتها، والإقبال على الآخرة وما فيها تذكره ليوم تتغيّر فيها هذه الحياة وينتهي أمرها لتبدأ حياة الجزاء على العمل هنا.

---

1 معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، 46/4

2 ينظر البرهان في علوم القرآن، 1/ 40، الزركشي.

(**588**) فيها أن مدح العامل، والثناء على عمله، وذكر مآله الطيب، فيه حث وترغيب له للثبات عليه، والاجتهاد في الزيادة منه، ووجه ذلك في الآية: أن الله تعالى ذكر أعمال المؤمنين من التسبيح وعمارة المساجد.. ثم وصفهم بالرجولة، وأنهم لا يلهيهم البيع في الأسواق عن ذكر الله تعالى، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم ذكر علة فعلهم لذلك زيادة في مدحهم فقال سبحانه: ﴿ يَخَافُونَ يَوۡمٗا ﴾

(**589**) تفيد شدة أهوال يوم القيامة، قال الطبري: ﴿ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ يقول: يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب من هوله، بين طمع بالنجاة، وحذر بالهلاك. والأبصار: أيُّ ناحية يؤخذ بهم: أذات اليمين أم ذات الشمال؟ ومن أين يُؤْتون كتبهم: أمن قِبَل الأيمان أو من قبل الشمائل؟ وذلك يوم القيامة)([1])

(**590**) فيها أن القلوب تتقلَّب فتتفقّه بعد أن كانتْ مطبوعاً عليها، وأن الأبصار تُبصر بعد أنْ كانت عمياءَ، فترى حقيقة ما كانت تنكره، فتتقلَّب بين توقع النجارة وخوفِ الهلاكِ.

(**591**) تفيد أن ليوم القيامة أهوالا عظيمة، لشدتها وخطورتها تضطرب بسببها القلوب وتتحرك من أماكنها من شدة الخوف والهلع، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ ١٨ ﴾ [غافر : 18] وتتقلب الأبصار بزيغوغتها ودورانها بالنظر في جميع الجهات من شدة الخوف، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ ١٩ ﴾ [الأحزاب : 19]([2])

(**592**) تشير إلى أن القلوب في هذا اليوم تفقه على الحقيقة ما كان يقال لها في الدنيا، وأن الأبصار تبصر بعد العمى التي كانت عليه تجاه الحق، فهذا يوم تنكشف فيه الحقائق.

(**593**) تفيد أن من كان قلبه مؤمناً بالبعث والقيامة ازداد بصيرة ورأى ما وُعِد به، ومن كان قلبه على غير ذلك رأى ما يوقن معه بأمر القيامة والبعث؛ فعلم بقلبه وشاهد ببصره، فذلك تقلب القلوب والأبصار.([3])

---

1 جامع البيان عن تاويل القرآن، 194/19

2 ينظر أضواء البيان، 6/ 240

3 ينظر التفسير البسيط للواحدي، 299/16

(**594**) فيها أن تَقلّب القلوب في هذا اليوم العظيم، سيكون على حالين: حال طمع في النجاة، وحال حذر من الهلاك. فليس أمام العبد آنذاك؛ إلا الجنة أو النار.

(**595**) تفيد أن الخوف من هول ذلك اليوم العظيم، من أعظم ما يعين العبد المؤمن للعمل لما فيه النجاة والفلاح، ووجه ذلك في الآية، أن الله تعالى لما وصف حال هؤلاء الرجال المؤمنين، من عمارة المساجد، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة..، ذكر بعد ذلك أن الباعث لهم على ذلك هو: خوفهم هذا اليوم العظيم؛ يوم القيامة.

(**596**) تفيد أن خلاص العبد من العذاب والاضطراب النفسي، والشقاء الروحي، هو الإيمان بالبعث بعد الموت والنشور والحساب والجزاء، فإن ذلك يجعله يحس بأن لحياته معنى وغاية، ولم يخلق عبثاً أو سدى، بل إن له يوماً يرجع فيه إلى الله ليحاسب على ما قدم وما كسب، ويجازى على حسن كدحه وصبره.

(**597**) تفيد أن من أسباب الأمان من الخوف يوم القيامة: الخوف من الله تعالى في الدنيا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا قَالَ: ((وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أخفته يوم القيامة))([1])

(**598**) فيها أن المؤمن يعيش في دنياه لآخرته، فلا يشغله العمل لها عن العمل للآخرة، ولا تشغله الصفقات في الأسواق عن ذكر الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فالدنيا دار ممر لا دار مقر، ولذلك فشغله الشاغل هو: الاستعداد لذلك اليوم الذي تتغير فيه الأمور وتنكشف الحقائق لمن أعماه عنها انشغاله بالدنيا.

---

1 رواه ابن حبان في صحيحه، باب: (ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ الَّذِي وَصَفْنَاهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَقْرُونًا بِالْخَوْفِ مِنْهُ جَلَّ وَعَلَا برقم: 640) 406/2 عن الْحَسَنُ بْنُ سُفْيَانَ قَالَ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَعْقُوبَ الْجَوْزَجَانِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وإسناده حسن، ومحمد بن عمرو: هو ابن علقمة بن وقاص الليثي حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات، وله شاهد مرسل بسند صحيح عند ابن المبارك في "الزهد" برقم 157 من طريق عوف عن الحسن ... ورواه موصولاً يحيى بن صاعد في زوائد الزهد 158 من طريق محمد بن يحيى بن ميمون، أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء بإسناد ابن حبان. (ينظر مفصلا تعليق شعيب الأرنؤوط على صحيح ابن حبان)

- **الآية الثامنة والثلاثون:** ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**599**) في مناسبتها بما قبلها أن الله تعالى لما بيّن أحوال هؤلاء الرجال، وأفعالهم الصادقة التي أقبلوا بها عليه، وأعرضوا عما عداه، بين غايتهم فيها فقال: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ﴾

(**600**) تفيد اللاّمُ فِي قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ﴾ التعلق بمحذوف، أي أنهم فعلوا ذلك ليجزهم الله ثواباً من عنده في دار كرامته، وفي ذلك ترغيب وتحبيب للمؤمن في الزيادة في العمل، والاجتهادة في العبادة.

(**601**) ذَكَرَ الله تعالى الْجَزَاءَ عَلَى الْحَسَنَات، وَلَمْ يَذْكُرِ الْجَزَاءَ عَلَى السَّيِّئَات، وَإِنْ كَانَ يُجَازِي عَلَيْهَا، لفائدتيْن: إحداهما: أَنَّهُ تَرْغِيبٌ، فَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الرَّغْبَةِ. الثَّانية: أَنَّهُ فِي صِفَةِ قَوْمٍ لا تَكُونُ مِنْهُمُ الْكَبَائِرُ، فَكَانَتْ صَغَائِرُهُمْ مَغْفُورَةً.([1])

(**602**) يفيد ظاهر الآية أنهم يثابون على الأحسن لا على الحسن: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ والجواب عن ذلك: إن قلنا: إن المباح حسن فظاهر؛ لأن ما فوقه مندوب، وإن قلنا: إنه ليس بحسن، فيكون تهييجاً على الاتصاف بأعلى الطاعة، فوعدهم بالثواب على أعلاها دون أدناها.([2])

(**603**) فيها إشارة إلى أن يتوقى المؤمن دائماً إلى الأفضل والأحسن في الأقوال والأفعال، فإن العمر قصير لا يتسع للأعمال الكثيرة، فتحقيق الأحسن والأعظم أولى من الحسن والعظيم، وكلاهما مطلوب لكن المؤمن ينظر إلى خير الخيرين فيفعله، وشر الشرين فيجتنبه.

(**604**) فيها دعوة إلى إحسان العمل وإتقانه، فإن الله تعالى يحب ما كمل من الأعمال الحسنة، ويعطي عليها ما لا يعطي على غيرها، والكل مجزي عليه، إلا أن الأحسن والأتقن، فيه زيادة رفعة ومثوبة لصاحبه.

---

1 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 281/12

2 ينظر تفسير ابن عرفة، 228/3

(**605**) تفيد أن العبد مهما اجتهد في العبادة وتفانى في الطاعة، فإن الجزاء والثواب عليها هو محض فضل الله تعالى على صاحبها، فالحسنة بعشر أمثالها، إلى أضعاف كثيرة والله يضاعف لمن يشاء.

(**606**) يفيد قوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ أن أهل الجنة في مزيد أبداً من نعم الله وكرمه وفضله حتى يحل عليهم رضوانه، لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا))([1])

(**607**) يفيد قوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ أن الله يتفضَّلُ عليهم بأشياءَ لم تُوعد لهم بخصوصيَّاتِها، أو بمقاديرِها، ولم تخطُر ببالِهم كيفيَّاتُها ولا كميَّاتُها، بل إنَّما وُعدت بطريقِ الإجمالِ في مثل قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس: 26] وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حكايةً عنه عزَّ وجلَّ: ((أعددتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطَرَ على قلبِ بشرٍ))([2])

(**608**) فيها لما كان التقدير: فإن الله لجلاله، وعظمته وكماله، لا يرضى أن يقتصر في جزاء المحسن على ما يستحقه فقط، عطف عليه بياناً لأن قدرته وعظمته لا حد لها قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾([3])

(**609**) تفيد عظمة فضل الله وكرمه، وكمال عطائه وإحسانه، فلا يقتصر سبحانه في جزاء المحسن على ما يستحقه فقط، بل يزيده من فضلة، ويكفر عنه سيئاته، ويُعْظِم له أجراً.

(**610**) تشير إلى أن كل فضل يوفَّق إليه العبد المؤمن هو من الله تعالى، ولذلك فهو يزيد عبده المؤمن من أفضاله ونعمائه، ما لا يستحقه بعمله، فدل ذلك على أن كلا من كرم الله تعالى؛ التوفيق للعمل الصالح، والجزاء عليه بزيادة أحسن منه.

---

1 مسلم، كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ إِحْلَالِ الرِّضْوَانِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا. حديث رقم: 7318 من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

2 إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 6/.1180

3 ينظر نظم الدرر، 13/ 281

(**611**) يفيد قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى، لا أعمالهم المحكية، وذلك تنبيه على كمال قدرته، وكمال جوده، وسعة إحسانه، فإنه تذييل مقرر للزيادة، ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير أجور أعمالهم، من الخيرات لما لا يفي به الحساب.([1])

(**612**) فيها ترغيب للمؤمن الطائع أن يستزيد من فضل الله تعالى بعمله، وأن يوقن بأن الله يعامل بالفضل لا بالعدل، وبالإحسان لا بالميزان، وأنه ليس لنا نجاة إلا بهذا الاعتقاد واليقين.

(**613**) تفيد بأن العبد المؤمن، إنما ينال ما يناله يوم القيامة من عطاء وكرم، وفضل وإحسان، إنما هو بمحض رحمة الله تعالى، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ)) قَالَ رَجُلٌ: وَلاَ إِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: ((وَلاَ إِيَّايَ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَلَكِنْ سَدِّدُوا))([2])

(**614**) تفيد كمال كرم الله تعالى وجمال عطائه، ذلك أنك حينما تقوم بما أمرك به سبحانه فإنه يعطيك ثواب أحسن العمل، ويزيدك من فضله عليه.

(**615**) فيها لما كان التقدير: فإن الله لجلاله، وعظمته وكماله، لا يرضى أن يقتصر في جزاء المحسن على ما يستحقه فقط، عطف عليه بياناً لأن قدرته وعظمته لا حد لها قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾

(**616**) في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ تنبيه عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِه وَكَمَالِ جُودِه، وَنَفَاذِ مَشِيئَتِه وَسَعَةِ إِحْسَانِه، فَكَانَ سُبْحَانَهُ لَمَّا وَصَفَهُمْ بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ فِي الطَّاعَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَكُونُونَ فِي نِهَايَةِ الْخَوْفِ، فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يُعْطِيهِمُ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ عَلَى طَاعَاتِهِمْ، وَيَزِيدُهُمُ الْفَضْلَ الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ فِي مقابلة خوفهم.([3])

---

1 ينظر فتحُ البيان في مقاصد القرآن 9/ 235 (بتصرف)

2 رواه مسلم، كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بَابُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى، حديث رقم: 7289 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

3 ينظر مفاتيح الغيب، 24/ 399

(**617**) فيها أن الله يعامل أهله وعباده المؤمنين بمقتضى فضله وكرمه لا بميزان عدله وقسطه، وهذا من كمال شأن صفات الكريم الرحيم، فهو سبحانه يعامل عباده بما هو أهله، لا بما هم أهله، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة سبحانه وتعالى.

(**618**) يشير قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ إلى التفاضل في المنازل والدرجات والجزاء والمثوبة، ووجه ذلك؛ أن مشيئة الله تعالى في الرزق يوم القيامة بغير حساب، تخص من يشاء إلله إنزالهم هذه المترلة من عباده، ممن يستحقونها بأعمالهم وكرم الله لهم.

(**619**) تشير كذلك إلى أن خزائن الله تعالى لا تنفد، فهو: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ وفي ذلك دعوة إلى عدم قناعة العبد بما عليه من عمل، بل عليه أن يجتهد ويترقى في عبودية ربه طمعاً في هذا الكرم الإلهي الذي لا عد له ولا حساب.

- **الآية التاسعة والثلاثون:** ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**620**) تفيد في مناسبتها بما قبلها، أن الله تعالى لما ذكر فيما تقدم من هذه الآية حالة الإيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم، عقب ذلك بذكر الكفرة وأعمالهم، فمثل لها ولهم تمثيلين: الأول منهما يقتضي حال أعمالهم في الآخرة من أنها غير نافعة ولا مجدية. والثاني يقتضي حالها في الدنيا من أنها في الغاية من الضلال والغمة التي مآلها ما ذكر من تناهي الظلمة في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ ﴾.([1])

(**621**) في مناسبتها بما قبلها كذلك أن الله تعالى بعد بيان حال المؤمنين، وأنهم في الدنيا يكونون في نور الله، وبسببه يتمسكون بالعمل الصالح، وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم، أتبع ذلك ببيان حال الكافرين، فإنهم يكونون في الآخرة في أشد الخسران، كما كانوا في الدنيا في أعظم أنواع الظلمات.([2])

(**622**) في علاقتها بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر ذلك النور المتجلي في السماوات والأرض، المتبلور في بيوت الله المشرق في قلوب أهل الإيمان.. ذكر هنا في مقابل ذلك مجالا آخر، مجالا مظلماً لا نور فيه مخيفاً لا أمن فيه، ضائعاً لا خير فيه، ذلك هو مجال الكفر بظلماته الذي يعيش فيه الكفار.([3])

(**623**) في الآية تنديد بالكفار، الذي هو مقابل التنويه بعباد الله الصالحين في الآية التي قبلها جرياً على عادة الأسلوب القرآني في المناسبات المماثلة، وهو مايسمى في البلاغة بالتقابل، تقابل بين موقف وضده.

---

1 ينظر المحرر الوجيز، 187/4.

2 ينظر التفسير المنير، 257/18

3 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2521

(**624**) تفيد أن الناس تجاه الْهُدى الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم قسمان: أهل البصائر الذين أبصروا نور الحق واتبعوا هداه. وأهل الجهل والضلال، الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والظلم لأنفسهم باتباع أهوائهم، فهم يتخبطون في الظلمات.

(**625**) في وجه تشبيه الكافرين بهاذين المثالين: أن أعمالهم في الآخرة يضمحل ثوابها كما يضمحل السراب، وكأنهم لم يعملوها فلا يستفيدون منها شيئاً، والثاني: يقتضي حال أعمالهم في الدنيا، وأنها في غاية الفساد والضلال، كالظلمات بعضها فوق بعض...

(**626**) في تخصيص الله لذكر الظمآن مع أن السراب يراه كل الناس، وذلك لشدة حاجة الظمآن وتلهفه إلى الماء، وفي ذلك دلالة على أن الكفار تضمحل أعمالهم ويفقدونها في ساعة هم أحوج إليها، مثلهم في ذلك كمثل الظمآن يركض خلف السراب للشراب، بعد ما ظنه ماء.

(**627**) في قوله تعالى: ﴿ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ﴾ إشارة إلى خداع النفس، بعد خداع البصر بهذا السراب، فإن لهفة الظمآن، وحرارة شوقه إلى الماء، تغطّى على عقله، فيخال السراب ماء، مثله كالخائف المذعور، فى سواد الليل ووحشته، يمثّل له الوهم أشباحا تطلع عليه من كل أفق، تريد الانقضاض عليه والفتك به.([1])

(**628**) فيها تشبيه أعمال الكافرين بالسراب في أن لها صورة الماء وليست بماء، والكافر يشبه الظمآن في الاحتياج إلى الانتفاع بعمله. وخيبة الكافر عند الحساب تشبه خيبة الظمآن عند مجيئه السراب، ومفاجأة الكافر بالأخذ والعتْل([2]) من جند الله أو بتكوين الله تشبه مفاجأة من حسب أنه يبلغ الماء للشراب فبلغ إلى حيث تحقق أنه لا ماء فوجد عند الموضع الذي بلغه من يترصد له لأخذه أو أسره.([3])

---

1 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9/ 1293

2 قال ابن فارس: (عَتَلَ) الْعَيْنُ وَالتَّاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ فِي الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْعُتُلُّ، وَهُوَ الشَّدِيدُ الْقَوِيُّ الْمُصَحَّحُ الْجِسْمِ.. وَمِنَ الْبَابِ الْعَتْلُ، وَهُوَ أَنْ تَأْخُذَ بِتَلْبِيبِ الرَّجُلِ فَتَعْتِلَهُ، أَيْ تَجُرَّهُ إِلَيْكَ، بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ} -الدخان: 47- وَلَا يَكُونُ عَتْلًا إِلَّا بِجَفَاءٍ وَشِدَّةٍ. (مادة عَتَلَ)

3 ينظر التحرير والتنوير، 254/18

(**629**) في تخصيص (الْحُسْبَان) بالظَّمآن مع شموله لكلِّ مَن يراه كائناً من كان من العطشان والريَّانِ لتكميل التَّشبيهِ بتحقيق شركة طرفيه في وجهِ الشَّبهِ الذي هو الْمَطْلَع الْمُطْمِع والْمَقْطَعُ الْمُؤْنِس.([1])

(**630**) يتضمن هذا المثل: التشبيه المرسل؛ فقد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، ولو قيل: يحسبه الرائي ماء لكان بليغاً، وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظمآن أشد حرصاً عليه، وأكثر تعلق قلب به. وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من أحسن التشبيه وأبلغه، فكيف وقد تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة الألفاظ، وصحة الدلالة وصدق التمثيل.([2])

(**631**) تفيد كذلك؛ التشبيه التمثيلي: فقوله ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾، أي وجد عقابه وزبانية عذابه، ووجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافر من أعمال البر، ويعتقد أن له ثواباً عند الله تعالى وليس كذلك، فإذا وافى عرصات القيامة لم يجد الثواب الذي كان يظنه، بل وجد العقاب العظيم، والعذاب الأليم، فعظمت حسرته، وتناهى غمه، فشبه حاله بحال الظمآن الذي اشتدت حاجته إلى الماء، فإذا شاهد السراب في البر تعلق قلبه، فإذا جاءه لم يجده شيئاً، فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه فإذا احتاج إلى عمله لم يجده أغنى عنه شيئاً.

(**632**) في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ العطف على محذوف، وهو من بلاغة الآية، إذ هو عطف على مقدر، وليست الجملة معطوفة على: ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل، من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة؛ عيناً ولا أثراً، كأنه قيل: حتى إذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة، لم يجدوها شيئاً، ووجدوا حكم الله وقضاءه لهم بالمرصاد،([3]) وفي هذا ما فيه من الفظاعة.

(**633**) يستفاد من الآية أن الكفار ليسوا بمقبولي العمل، مهما كان صالحاً، وهو أصل أجمع عليه المسلمون، لأن الأصل مفقود، وهو الإيمان. وهذا في الآخرة، أما في الدنيا، فقد يمده الله بمزيد من التوسعة في العيش، ونيل الثناء من الناس، وهو جزاء دنيوي يتناسب مع الكافر لأنه لا يؤمن إلا بالدنيا.

---

1 ينظر إرشاد العقل السليم، 181/6

2 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6/ 618

3 ينظر المرجع نفسه، 6/ 619

(**634**) تفيد أن الناس منقسمون إلى فريقين: فريق اهتدى بنور الإيمان، فاستجاب لربه، فنال رضوانه وفاز فوزاً عظيماً، وفريق ضل عن طريق الهدى، وتخبط في الظلمات فخسر خسراناً مبيناً، والعياذ بالله تعالى.

(**635**) فيها تشبيه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله: بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤمه، فيخيب ظنه، ويجده ناراً تتلظى.

(**636**) إن علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس، واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء، وإذا أتوه وجدوا الله عنده، فأخذهم زبانية العذاب فنقلوهم إلى نار الجحيم ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ ﴾[محمد : 15]...

(**637**) إن أعمال الكفار مهما عظمت وحسنت في أعينهم، وظنوها أنها منجية لهم من عذاب الله تعالى، لم تنفعهم يوم القيامة حينما يقفون على هلاكهم ويشاهدون حقيقة العذاب، لأنها كانت على كفر وجحود بالله تعالى.

(**638**) تفيد أن الإيمان قاعدة العمل الصالح وأساسه، وأن كل عمل دونه، مهما كان، سراب، وهباء منثور، لا قيمة له عند الله تعالى.

(**639**) تفيد أن العمل من دون إيمان مهما كان صالحاً، فهو يقع خارج دائرته الشرعية، إذ لا أصل له ولا أساس.

(**640**) كل عمل لا يزكّيه الإيمان هو أشبه بالميتة، لا يؤكل لحمها وإن كانت من أطيب الحيوان لحماً.

(**641**) ما من صاحب باطل يرجو من باطله أن ينفعه يوماً ما، إلا وجده خائناً له في وقت هو أحوج ما يكون إليه، وتلك هي أعظم خيبة.

(**642**) تفيد أن العبد لن يجني يوم القيامة إلا ما غرست يداه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري: ((أنه يقال يوم القيامة لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عُزَيْر ابن الله. فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من ولد، ماذا تبغون؟

فيقولون: أي رَبَّنَا، عَطشنا فاسقنا. فيقال: ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فينطلقون فيتهافتون فيها))([1])

(**643**) يفيد قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ أنه لما تحولت أعمالهم التي كانوا يظنونها صالحة إلى سراب، لم يبق إلا أعمالهم السيئة ماثلة أمامهم فحوسبوا عليها، والله سريع الحساب.

(**644**) في قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ بيانٌ لبقيَّة أحوالِهم العارضة لهم بعد ذلك بطريقِ التَّكملة لئلّا يتوَّهم أنَّ قُصارى أمرِهم هو الخيبةُ والقنوط فقطْ كما هُوَ شأنُ الظَّمآنِ.([2])

(**645**) تفيد أن القدوم على الله تعالى إنما يكون بما قدمه العبد بين يديه، ولن يجد أمامه إلا عمله يحاسب عليه، فلا يستطيع آنذاك أن ينكر شيئاً منه.

(**646**) تدل على عدل الله سبحانه وتعالى، إذ لم يظلم هؤلاء مثقال ذرة، إنما وفّاهم حسابهم على ما قدموا من أعمال لا أساس لها، إذ كيف ينتظرون جزاء حسناً ممن لم يحسنوا في حقه، بل كفروا به وجحدوا دينه، وحاربوا أولياءه.

(**647**) تدل على وجوب الإخلاص في العمل، فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال، إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم سبحانه وتعالى، ومن أشرك في عمله بالرياء، فإن الله سيتركه وشركه.

(**648**) تفيد أن الله تعالى شاهد على أعمال العباد وأقوالهم، لا تخفى عليه خافية من أمرهم، وسيحاسبهم عليها ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ ﴾

(**649**) فيها أن الله تعالى يوفي كل عبد حسابه وجزاءه، كاملا دون نقص، ولا يظلم ربك أحداً ﴿ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ ﴾ بل إن فضله لعبده سابق على عَدْلِه سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥ ﴾ [البقرة: 105]

---

1 البخاري، كتاب التفسير، سورة النساء، باب {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} [النساء: 40] حديث رقم: 4581. ومسلم كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية. حديث رقم: 472

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 181/6

(**650**) يستفاد من الآية أن شرع الله ونظامه هو النور الصحيح المرشد لخيري الدنيا والآخرة، وأما التشريع المخالف لشرع الله فهو كالسراب الخادع، والظلمات المتراكمة.(1)

(**651**) تشير إلى أهمية حضور الإخلاص في كل عمل مهما كان، وأن يكون صحيحاً، حتى يكون مقبولا عند الله غير حابط، حاضراً غير غائب.

(**652**) تدل على مطلق قدرة الله تعالى، فهو سبحانه سريع الحساب مع كثرة الخلق، وما يحمله كل مخلوق في صحيفته من الأقوال والأفعال، مما يعد فوق تصور الإنسان، لكن الله تعالى لا يعجزه شيء، فما حسابه للخلق كلهم إلا كحسابه لنفس واحدة. فهو سبحانه إذا حاسب فحسابه سريع.

(**653**) في ختام هذه الآية دقة التناسب مع مضمونها، ذلك أن الله سبحانه لما كان لا يحتاج إلى كاتب، ولا يدخل عليه لَبْسٌ، ولا يصعب عليه ضبط شيء وإن كَثُر، ولا يقدر أحد أن يتأخر عما يريده به بنوع حيلة، عبّر عن ذلك بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾(2)

(**654**) فيها تحذير للعبد بأن مآله إلى حساب بين يدي الله تعالى، فليعمل ما شاء، فإنه محصي عليه، مجزي به، عند الوقوف بين يديه، وعليه أن يعلم أن الله سريع الحساب، شديد العقاب جل جلاله.

(**655**) في ختام هذه الآية ما يدل على أهمية ربط كل موضوع بما يناسبه من صفات الله تعالى، إذ لما كان الحديث عن الكفار وإنكارهم للبعث والحساب، والجزاء على أعمالهم، ناسب ذكر هذه الصفة له سبحانه، وهو أنه: ﴿ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾

(**656**) تفيد أن الله تعالى له القدرة الكاملة، والعلم الشامل، فلا يحتاج إلى حفظ بقلب، ولا عقد بأصابع، ولا شيء غير ذلك، ولكنه عالم بذلك كله، قبل أن يعمله العبد، وبعد عمله له، لا يعزب عنه منه ولا من غيره شيء.(3)

---

1 ينظر التفسير المنير، 18/ 260

2 ينظر نظم الدرر، 13/ 285

3 ينظر المرجع نفسه، 13/ 285

- **الآية الأربعون:** ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**657**) في مناسبتها بما قبلها أن الله تعالى لما بين بهذا المثال أنهم لم يصلوا إلى شيء غير التعب، المثمر للعطب، وكان هذا لا يفعله بنفسه عاقل، ضرب مثالاً آخر بيّن الحامل لهم على الوقوع في ممثول الأول، وهو السير بغير دليل، الموقع في خبط العشواء كالماشي في الظلام، فقال عاطفاً على ﴿كَسَرَابِ ﴾ و ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ ﴾ أي أعمالهم لكونها لا منفعة لها كسراب، ولكونها خالية عن نور الحق كظلمات.([1])

(**658**) تفيد كلمة: ﴿أَوۡ﴾ التنويع، إثرَ ما مُثِّلت أعمالُهم التي كانُوا يعتمدونَ عليها أقوى اعتماد، ويفتخرون بها في كلِّ وادٍ ونادٍ، بما ذُكر من حال السَّراب، مع زيادةِ حسابٍ وعقابٍ مُثِّلتْ أعمالُهم القبيحةُ التي ليس فيها شائبةٌ خيريَّةٌ يغترُّ بها المغترُّون بظلماتٍ كائنة في بحر عميق.([2])

(**659**) تفيد في علاقة بالآية التي قبلها أن أعمال الكفار، إما كسراب خادع في فلاة، وإما كظلمات في قاع البحر. فالأول دال على خيبة الكافر في الآخرة، والثاني دال على كون أعمالهم في متاهات وضلالات وظلمات يصعب اختراقها وتجاوزها، لكون قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم في ظلمة حالكة، تتخبط فيها.

(**660**) في علاقتها بما قبلها تنديد وتمثيل قويان رهيبان: مستمدان من مشاهد الطبيعة الرهيبة. ومن شأنهما إثارة الخوف والإرعواء في السامعين من الكفار، في كل زمان ومكان، وهذا مما استهدفت الآيات كما هو المتبادر لمن تدبرها.([3])

(**661**) في الآية تنديد بالكفار مقابل التنويه بعباد الله الصالحين في الآيات السابقة، جرياً على عادة القرآن وأسلوبه في المناسبات المماثلة.

---

1 ينظر الدرر، 13/ 286

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 181

3 ينظر التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة، 429/8

(**662**) فيها مَثَل آخر ضربه الله لأعمال الكفار في أنها عُملت على خطأ وفساد وضلالة وحيرة من عمالها فيها وعلى غير هدى، فمثلها مَثَل ظلمات في بحر لُجّيّ.([1]) عميق، والبحر إذا كان عميقاً كان أشد لظلمته، ويعنى بالظلمات الظلمة التي فيها الكافر.

(**663**) ما أشبه تلاطم الشكوك والشبهات والظنون الفاسدة في القلوب المظلمة التي تراكمت عليها سحب الغيِّ والهوى والباطل بتلاطم أمواج البحر ومن فوقها سحاب مظلم.

(**664**) تدل على أن الكافر لشدة إصراره على كفره، ومبالغته في جحوده؛ تراكمت عليه الضلالات، واشتدت على بصيرته الظلمات، حتى إن أظهر الدلالات، وأوضح الهدايات، إذا ذكرت عنده لا يفهمها، فقلبه مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم.

(**665**) فيها دليل على صدق النبوة، وأن القرآن كلام الله تعالى، ذلك أننا نعلم يقيناً أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يركب البحر طول عمره، وقد وصف في هذا التشبيه البحر بصفات لا يمكن أن يتخيلها من عاش في جوف الصحراء، لأن عادة الخيال تستمد من مادة الحس ([2]) ولا يعرف هذه الصفات والتفاصيل للبحر إلا من خبر البحر ركوباً، وفي أحواله وتغيراته التي ذكرت في هذه الآية.

(**666**) تفيد أن الكافر يتقلب في خمس من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار.([3])

(**667**) فيها أن الكافر يعمل في حيرة لا يهتدي لرشده، فهو في جهله وحيرته؛ كمن هو في هذه الظلمات، لأنه من عمله وكلامه مقلب في ظلمات وجهالة.([4])

(**668**) لما كان الجهل والكفر والظلم والهوى ظلمات بعضها فوق بعض، كان المتقلب فيها منغمساً في ظلمات القول، والعمل، والمدخل، والمخرج، والمصير.

(**669**) فيها تشبيه بأن أعمالَ الكفارَ في حَيْلولَتِها بين القلبِ وما يَهْتدي به، بالظُّلْمة، وفي هذا كناية عن أن قلوبهم مُغَلَّفَة، وبصيرتهم مطموسة، فلا يرون الحق ولا يهتدون إليه.

---

1 جامع البيان في تأويل القرآن، 197/19

2 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 65

3 رواه الطبري بسنده عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، جامع البيان عن تأويل القرآن، للإمام الطبري، 198/19

4 الوسيط في تفسير القرآن المجيد، 323/3-322، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468 هـ)

(**670**) تفيد أن الكفر ظلمات بعضها فوق بعض، ولا منجى من التخبط فيها، إلا بنور الله تعالى، المتثل في الإيمان به وهديه، لأنه نور سبحانه، ولذلك يرد النور في القرآن مفرداً، والظلام جمعاً، لأنه النور واحد بينما الظلمة ظلمات، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة: 257]

(**671**) في التمثيل لإظهار شدة الظلام بذكر إخراج اليد التي أقرب عضو للإنسان، ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ ما يدل على أن الله قد ستر عنه كل نور بهذه الظلمات المتكاثفة، وهو مثال لعمله، وأنه عَدَم، لما تقدم من أن العدم كله ظلمة، فلا عمل له يكون شيئاً، ولا يقرب من ذلك لأنه لا أهلية له بوجه.([1])

(**672**) يفيد قوله تعالى: ﴿ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ ﴾ المبالغة في التشبيه، والمعنى أنه لا يرى يده، وعلى هذا، يكون في التقدير ثلاثة أوجه: أحدها: أن التقدير: لم يرها و لم يكد، وهذا غير واضح، لأنه نفي للرؤية ثم إثبات لها، ووجه ثان: وهو أن (كاد) زائدة ولا مساغ له في القرآن، فالوجه إذن –وهو الثالث–: إنه لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها.([2]) وهو تشبيه بليغ غرضه تصوير شناعة الكفر، وحالة الكافر يوم القيامة وقد وقف على حقيقة أمره.

(**673**) تدل على أن كل عمل صغيراً كان أو كبيراً، هو في ميزان الله الأخروي مهدور القيمة مترو ع الروح، ما لم يستند إلى الإيمان بالله تعالى ويرتبط به وينطلق منه.

(**674**) تدل على أهمية الإيمان بالله تعالى، وتأثيره القوي على فكر الإنسان وسلوكه وحياته كلها، قولا وفعلا وحركة، فبدون الإيمان فلا معنى لهذه الحياة التي ستنتهي بالخسران المبين والعذاب الخالد.

(**675**) تفيد أن من لم يهده الله لنور الوحي العظيم يهتدي به في ظلمات الجهل والشبهات، فما له نور يهدي به غيره، ولن يهديه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء: 97]

---

1 ينظر نظم الدرر، 287/13

2 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 620

(**676**) تفيد الآية أن كلا من نور الهداية، وضلال الضلالة، هما بإرادة الله تعالى وإذنه ومشيئته: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩ ﴾ [الأنعام: 39] لكنه سبحانه لا يرضى لعباده الضلالة والكفر، بل يرضى لهم الهداية والشكر، كما قال: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ ﴾ [الزمر: 7]

(**677**) فيها أن الله سبحانه لما وصف هداية المؤمن بأنها في نهاية الجلاء والظهور عقبها بأن قال: ﴿ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ٣٥ ﴾ ولما وصف ضلالة الكافر بأنها في نهاية الظلمة عقبها بقوله : ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾

(**678**) فيها أن المقصود من ذلك أن يعرف الإنسان أن ظهور الدلائل لا يفيد الإيمان وظلمة الطريق لا تمنع منه، فإن الكل مربوط بخلق الله تعالى وهدايته وتكوينه.([1])

(**679**) فيها أن نور الآخرة إنما هو لمن نوّر قلبه في الدنيا وهدى، وقد قررت الشريعة أن من مرّ لآخرته على كفره فهو غير مرحوم ولا مغفور له.([2])

(**680**) في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ جيءَ به لتقدير ما أفاده التَّمثيلُ من كون أعمالِ الكَفَرةِ كما فُصِّل، وتحقيق أنَّ ذلك لعدمِ هدايتِه تعالى إيَّاهم لنورِه.([3])

(**681**) فيها أن القارئ عند هذه الآية: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ يستحب له أن يقرأ هذا الدعاء النبوي: ((اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا))([4]) ووجه ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في قراءته: (إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ...)([5])

---

1 ينظر مفاتيح الغيب، 11 / 349

2 ينظر المحرر الوجيز،4/ 188

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 181/6

4 البخاري، كتاب الدعوات، بَابُ الدُّعَاءِ إِذَا انْتَبَهَ بِاللَّيْلِ، رقم:6316

5 مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل حديث رقم: 1850 من حديث حذيفة رضي الله عنه، والحديث بتمامه: عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ

(**682**) فيها أن نور الله هدى في القلب؛ وتفتح في البصيرة؛ واتصال في الفطرة بنواميس الله في السماوات والأرض؛ والتقاء بها على الله نور السماوات والأرض. فمن لم يتصل بهذا النور فهو في ظلمة لا انكشاف لها، وفي مخالفة لا أمن فيها، وفي ضلال لا رجعة منه. ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب.([1])

(**683**) تفيد أنه لا قول ولا عمل بغير عقيدة صحيحة، ولا صلاح ولا خير بغير إيمان بالله حق الإيمان. وإن هدى الله هو الهدى. وإن نور الله تعالى هو النور.

(**684**) فيها تنبيه على أن الله تعالى متصرف بالإعطاء والمنع على حسب إرادته وحكمته وما سبق من نظام تدبيره.([2])

(**685**) تفيد أنّ مَن لم يوله الله تعالى نور توفيقه ولطفه، وعنايته وتثبيته، فهو فى ظلمة الباطل لا نور له.([3])

(**686**) في هذه الآية والتي قبلها تنديد وتمثيل قويان رهيبان: مستمدان من مشاهد الطبيعة الرهيبة. ومن شأنهما إثارة الخوف والإرعواء في السامعين من الكفار، في كل زمان ومكان، وهذا مما استهدفت الآيات كما هو المتبادر لمن تدبرها.([4])

(**687**) فيها أن الإصرار على الكفر والجحود بعد وضوح النور وظهور الهدى، نتيجته أن يُخْتَم على قلب صاحبه ويسودّ، فلا يرى يرى إلا الضلال والظلمة، فالكافر لشدة إصراره على كفره وجحوده، تراكمت عليه الظلمات والضلالات، حتى إن أظهر الدلالات وأوضحها إذا ذكرت عنده لا يفهمها، فقلبه مظلم، في صدر مظلم، في جسد مظلم.

(**688**) فيها أن يوم القيامة هو يوم انكشاف الحقائق، فالمومنون في نور حسناتهم، والكفار والمنافقون في ظلام سيئاتهم. كما قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ

عمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بآيَة فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بسُؤَال سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بتَعَوُّذ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ((سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)) فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا منْ قيَامه، ثُمَّ قَالَ: ((سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ))، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: ((سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى)) ، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا منْ قيَامه.

1 ينظر في ظلال القرآن، 2521/18

2 ينظر التحرير والتنوير، 256/18

3 ينظر تفسير المراغي، 18/ 114

4 ينظر التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة، 429/8

نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴿١٣﴾ ﴾ [الحديد: 12،13]

(**689**) فيها أن وحي الله تعالى روح ونور، فمن لم يحيه الله بهذا الروح فهو ميت القلب، ومن لم يجعل له نوراً في قلبه منه، فهو في الظلمات ليس بخارج منها، وما له من نور يهتدي به.

(**690**) تشير إلى العلاقة والتفاعل بين الإنسان والطبيعة، من حيث كونها آية دالة على الله، وكونها، عبداً من عباد الله، وكونها مجالاً لضرب الأمثال لحال الإنسان، في الاهتداء أو الضلال، بما جعله الله في صفاتها من التحول والتغيير، والأضداد، في البر والبحر والأرض والسماء.

(**691**) ترشد هذه الآية إلى أهمية ضرب المثل بالمحسوسات والمشاهدات، في تقريب المعقولات، وأثر ذلك على نفوس السامعين، فإن ما بين الحقيقة الغيبية والحقيقة المشاهَدة، سِتْر رقيق يرى المؤمن من خلاله تلك الحقائق الغيبية من خلال هذه الآيات المضروب بها المثل.

(**692**) تشير إلى أهمية استعمال أسلوب الترهيب في التربية والدعوة، وأنه يستعان عليه في ضرب الأمثال المهوِلة التي ترهب النفوس وتخيف القلوب، لمن كان له قلب حاضر وسمع شاهد.

(**693**) يدل هذا الختام على دقة التناسب، وذلك أنه لما كان قيام كل الأمور في هذا الوجود وظهورها حسّاً ومعنى، إنما هو بالنور الإلهي سبحانه؛ وإلا فهي في ظلام قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾

- **الآية الواحدة والأربعون:** ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**694**) في مناسبتها بما قبلها أن الله سبحانه وتعالى لما وصف قلوب المؤمنين بالنور والهداية، وقلوب الكافرين بالظلمة، أردف ذلك ذكر دلائل التوحيد وساق منها أربعة.([1])

(**695**) استئنافٌ خُوطبَ به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم للإيذان بأنه تعالى أفاض عليه صلى الله عليه وسلم أعلى المراتب النُّور وأجلاها وبيَّن له من أسرار الملك الملكوت وأدقها وأخفَاها، والهمزةُ للتَّقرير أي قد علمت عملا يقينيّاً شبيهاً بالمشاهدة في القوَّة والرَّصانةِ بالوحي الصَّريحِ والاستدلالِ الصَّحيحِ.([2])

(**696**) تفيد في مناسبتها بما قبلها كذلك أن الله سبحانه لما وصف أنوار قلوب المؤمنين، وظلمات قلوب الجاهلين، أتبع ذلك بدلائل التوحيد([3]) وأن كل الكائنات تخضع له وتعترف بربوبيته، وتعظمه وتُنَزّهه، عبادة وتسبيحاً.

(**697**) فى هذه الآية، والآيات التي ستأتي بعدها؛ استعراض لقدرة الله، وبسطة نفوذه، وسلطانه المتمكن فى هذا الوجود، والآخذ بناصية كلّ موجود.

(**698**) تشير إلى وجود تلك العلامات والآثار الدالة على وجود ذلك النور المتقدم الحديث عنه في أهل السماوات والأرض: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴿٣٥﴾ ﴾

(**699**) يفيد الاستفهام: البيان والتقرير، بأن كل من في السماوات ومن في الأرض مسبحاً مُنَزّهاً لله تعالى، كل بطريقته التي هيأه الله لها، ومَنْطِقِه الذي أنطقه الله إياه.

(**700**) تفيد أن خطاب النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ب:﴿ أَلَمْ تَرَ﴾ إيذان بأنَّه تعالى قد أفاضَ عليه صلى الله عليه وسلم أعلى مراتب النُّور وأجلاها وبيَّن له من أسرار المُلكِ والمَلَكُوت

---

1 ينظر تفسير المراغي، 18/ 115

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 182/6

3 ينظر مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) 11/ 350

أدقَّها وأخفَاها.([1]) أي ألم تنظر بعين بصيرتك، فتعلم علم اليقين. والخطاب لكل عاقل من أهل الألباب والنظر والبصيرة.

(**701**) فيها أن كل ما في السماوات وما في الأرض من خلقه يدل عليه، إثباتاً لوجوده وتنزيهاً لعظمته، إذ ما من شيء إلاَّ ويدلك على صفاته وآثاره.

(**702**) فيها أن كل الكائنات المخلوقة مسبحة بحمد الله تعالى، خاضعة لربوبيته، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾ [الإسراء: 44]

(**703**) تفيد أن الإنسان ليس مفرداً في هذا الكون الفسيح؛ فإن من حوله، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته؛ وحيثما امْتدّ به النظر أو طاف به الخيال.. هناك إخوان له من خلق الله، لهم طبائع شتى، وصور شتى، وأشكال شتى. ولكنهم بعد ذلك كله يلتقون في الله، ويتوجهون إليه، ويسبحون بحمده: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾([2])

(**704**) في تخصيص التسبيح بالذكر الذي هو التنزيه مع دلالة ما فيهما على اتصافه بجميع أوصاف الكمال، من جرّاء أن سياق الكلام لتقبيح شأن الكفار الذين أخلّوا بالتنزيه، فجعلوا الجمادات شركاء له سبحانه، ونسبوا له اتخاذ الولد إلى نحو أولئك، تعالى ربنا عما يقول الكافرون علوّا كبيرا.([3])

(**705**) لست وحدك أيها العابد في هذا الكون الواسع، فحيث امتدّ بك النظر، أو طافت بك الفِكَر، فثمة خلائق تعبد الله تعالى وتذكره في السماوات والأرض وما بينهما.

(**706**) تفيد طلب النظر والاعتبار، كيف هدى الله تعالى كثيراً من أهل السماوات والأرض إلى تنزيه الله المقتضي الإيمان به وحده، وبما أَلْهَم الطير إلى أصواتها المعربة عن بَهْجتها بنعمة وجودها ورزقها الناشئَيْن عن إمداد الله إياها بهما، فكانت أصواتها دلائل حال على تسبيح الله وتنزيهه عن الشريك، فأصواتها تسبيح بلسان الحال.([4])

---

1 ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 182/6

2 ينظر في ظلال القرآن 18/ 2522

3 ينظر تفسير المراغي، 18/ 115

4 التحرير والتنوير، 258/18

(**707**) فيها تقريع للكفار، وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادته عزّ وجلّ.([1])

(**708**) فيها أن كل المخلوقات الموجودات تدل على وجود خالق عظيم وصانع حكيم، واجب الوجود، متصف بكل صفات الكمال، ومقدس عن كل ما لا يليق بعلو شأنه وعظمته.

(**709**) فيها أن تخصيص الطير بالذكر من جملة الحيوان، الدال عليه قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنها تكون بين السماء والأرض فتكون خارجة عن حكم من في السماء والأرض.(2)

(**710**) تفيد أن تخصيص الطير بالذكر كذلك لما فيها من الصنع الظاهر والدليل الباهر ولذلك قيدها بقوله: ﴿صَافَّاتٍ﴾ فإن إعطاء الجرام الثقيلة ما به تقوى على الوقوف في الجو باسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرة الصانع تعالى ولطف تدبيره.([3]) كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [الملك: 19]

(**711**) في تخصيص تسبيحِ الطَّيرِ بهذا المَعْنى بالذِّكرِ لما أنَّ أصواتَها أظهرُ وجُوداً وأقربُ حملاً على التَّسبيحِ.([4])

(**712**) فيها دلالة على عظمة (عبادة التسبيح) لما تحتوي عليه من تنزيه الله تعالى عن كل النقائص، ولذلك كانت هي العبادة التي يشترك فيها كل المخلوقات العاقلة، وغير العاقلة.

(**713**) فيها أُنْس وطمأنينة للعبد المؤمن الطائع لربه، بأن هناك مخلوقات شتى تعبد معه وتطيع ربها، وتذكر وتسبح، فلا تستوحش من إعراض البشر عن عبادتهم لله، فله مخلوقات شأنها الصلاة والتسبيح: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾

(**714**) يفيد قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أن كل مصلّ، ومسبّح؛ من هذه المخلوقات قد علم صلاة نفسه وتسبيحها، أي بعود الضمير على المسبح والمصلي، فيكون

---

1 فتح القدير، 47/4

2 ينظر تفسير البغوي، 5/ 556

3 تفسير الإمام البيضاوي، 4/ 110

4 ينظر إرشاد العقل السليم، 183/6

هو الفاعل. وفائدة ذكر ذلك في الآية أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علّمها الله ذلك؛ وألهمها إليه، لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية، وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه؛ وعظم شأنه من كونه جعلها مسبحة له، عالمة بما يصدر منها، غير جاهلة.(1)

(**715**) لقد علمت هذه المخلوقات ما تقوم به من صلاة وتسبيح، فسبحان مَن علَّمها وهداها وأحاط علماً بعملها.

(**716**) كما تفيد الآية أن يكون المعنى: كل قد علم الله صلاته وتسبيحه، بعود الضمير على الله تعالى، فيكون هو الفاعل لِعَلِمَ أي: علم الله صلاة المصلي وتسبيح المسبح؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم.(2)

(**717**) وكما تفيد كذلك أن كل مصلّ، ومسبّح؛ من هذه المخلوقات، قد علم صلاته لله تعالى، وتسبيحه له سبحانه، توحيداً وتفريداً، تنزيهاً وتعظيماً.

(**718**) يفيد قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ بيانٌ لكمالِ عراقةِ كلِّ واحدٍ مما ذكر في التَّنزيه ورسوخ قدمِه فيه بتمثيل حالِه بحالِ مَن يَعلمُ ما يصدرُ عنه من الأفاعيلِ فيفعلها عن قصدٍ ونيَّةٍ لا عن اتفاقٍ بلا رويَّةٍ. ويجوز أن يكون العلم هنا على حقيقته.([3])

(**719**) فيها كذلك الإشارة إلى أنَّ لكلٍّ واحدٍ من هذه الأشياء المذكورةِ، -مع ما ذُكر من التَّنزيه- حاجةً ذاتيَّةً إليه تعالى.

(**720**) في التعبير بالصَّلاةِ ﴿كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ والتي هي الدُّعاءُ والابتهالُ لتكميل التَّمثيل وإفادة المزايا المذكُورة فيما مرَّ على التَّفصيلِ وتقديمُها على التَّسبيحِ في الذكر لقدمها عليه في الرتبة.([4])

(**721**) فيها دوة إلى التفكر في أمر السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات عابدة لله تعالى، دالة عليه، شاهدة على وحدانيته، وحكمة تدبيره لأمر الملك والملكوت.

---

1 ينظر فتح البيان في مقاصد القرآن، 240/9

2 ينظر الجامع لأحكام القرآن 4824/6.

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 183/6

4 ينظر المرجع نفسه، 183/6

(**722**) تشير إلى أهمية عبادة التفكر والنظر، والعلاقة بينها وبين عبادة الأقوال والأفعال والجوارح، وأن كمال العبودية في التساوي بين عبادة الظاهر والباطن.

(**723**) تشير إلى أن أمر العبودية لله تعالى، والخضوع له، هو الأمر الذي أقام عليه الله السماوت والأرض وما بينهما، فما من مخلوق إلا وهو عابد لله مسبح له بطريقته التي أرادها الله له، وفي ذلك درس لهذا الإنسان العاقل المكرم بالوحي كيف يعرض عن هذا الأمر الذي أطبق عليه أهل السماوات والأرض.

(**724**) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ إعلام وإعلان بسعة علم الله تعالى الشامل لتسبيح المسبحين، وغيره من أحوال المستجيبين والمعرضين.

(**725**) تفيد إثبات الحساب والجزاء على الأعمال يوم القيامة، والوعد لمن أحسن العمل، والوعيد لمن أساء.

(**726**) في ختام هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ دقة التناسب مع مضمونها، ذلك أنه لما كان التقدير: فالله قدير على جميع تلك الشؤون، عطف عليه قوله:﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ أي المحيط علماً وقدرة بما ثبت مما أخبركم به في هذه السورة دقائق أقوالكم وأحوالكم، وضمائركم وأفعالكم.([1])

1 ينظر نظم الدرر، 290/13

- **الآية الثانية والأربعون:** ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**727**) في مناسبتها بما قبلها أن الله تعالى، لما بيّن عبوديتهم وافتقارهم إليه –من جهة العبادة والتوحيد– بيّن افتقارهم، من جهة الملك والتربية والتدبير فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(**728**) فيها من المناسبة بما قبلها كذلك، أن الله تعالى لما أخبر عما في الكونين بما يستلزم الملك على أَنْهَى وجوه التمام المستلزم للقدرة على البعث، أخبر عنهما بالتصريح به فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ ([1])

(**729**) فيها دقة التناسب بما قبلها، إذ كيف لا يُعبَد من لم يخلق هذا الكون سواه، ولا يملك التصرف فيه غيره، ومَن لا مرجع للخلق إلا إليه، ولا مفرّ للعبد من أن يُعرَض عليه؟!

(**730**) في علاقتها بما قبلها تَحْقِيقٌ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ السَّابِقُ مِنْ إِعْطَائِهِ الْهُدَى للعجماوات فِي شؤونه، وَحِرْمَانِهِ إِيَّاهُ فَرِيقًا مِنَ الْعُقَلَاءِ، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ جَارِيًا عَلَى حَسَبِ الِاسْتِحْقَاقِ لَكَانَ هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الطَّيْرِ فِي شَأْنِهِمْ.([2])

(**731**) فيها بيان أن الله مالك السماوات والأرض، والدنيا والآخرة، وبيده ملكوت كل شيء، فهو رب العالمين، ومالك يوم الدين، فكيف لا يستحق العبادة؟

(**732**) فيها حث وترغيب على الفرار إلى الله تعالى، فلا منجى، ولا ملجأ منه؛ إلا إليه سبحانه.

(**733**) يفيد قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ تنبيه على أن الكل منه سبحانه، لأن كل ما سواه ممكن ومحدث، والممكن والمحدث لا يوجدان إلا عند الانتهاء إلى القديم الواجب فدخل في هذه القضية جميع الأجرام والأعراض وأفعال العباد وأقوالهم وخواطرهم.([3])

(**734**) تفيد أن تقدير السماوات والأرض وتدبير أُمورهما، وتصريف أحوالهما، بيد الله تعالى وحده، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

---

1 ينظر نظم الدرر، 291/13

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 260

3 ينظر مفاتيح الغيب، 11/ 350

(**735**) يفيد تقديم الخبر: ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ وتأخير المبتدأ: ﴿ مُلْكُ ﴾ لإفادة الحصر، أي إن ملك السماوات والأرض لله وحده، فهو الخالق المالك الحقيقي لذلك المدبر له.

(**736**) في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقديم ما حقه التأخير، وهو من طرق القصر والحصر البلاغية في القرآن الكريم، أي لله لا إلى غيره ملك السماوات والأرض والتصرف فيهما خَلْقاً وتدبيراً.

(**737**) فيها إِخْبَارٌ بِأَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ تَحْتَ مُلْكِهِ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِمَا يَشَاءُ تَصَرُّفَ الْقَاهِرِ الْغَالِبِ.([1]) وهذا شأن الرب الخالق جل جلاله.

(**738**) تدل على أن الرب لا يكون رباً إلا إذا كان خالقاً، ولا يكون خالقاً إلا إذا كان متصرِّفاً، ولا يكون متصرفاً إلا إذا كان مالكاً قاهراً غالباً. ومن كانت هذه صفاته كان وحده المستحق للعبادة والطاعة.

(**739**) تفيد أن الله وحده المعبود بحق، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له، لأنه الخالق، ولذلك كان مفهوم الخالقية هو مفتاح العبودية، فالله تعالى حينما يأمر الناس بعبادته وحده، يقرن ذلك بصفة الخلق، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: 21]

(**740**) في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مع وجازته دلالة على تمام علم المبدأ والمعاد.([2]) فمنه سبحانه وتعالى المبدأ، وإليه المعاد.

(**741**) يفيد تقديم الخبر على المبدأ في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ لإفادة الحصر، أي إليه المرجع والمآل والمآب، فمنه الابتداء وإلى الانتهاء، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: 53]

(**742**) فيها ترغيب وترهيب؛ ترغيب المؤمنين فيما عند الله مما ينتظرهم من وُعُود الكرم والمنن، وترهيب للكافرين وما ينتظرهم من وعيد النقم والألم.

(**743**) تفيد الحث على الاستقامة والاجتهاد في الطاعة، وتقديم العمل الصالح بين يدي الله تعالى ليجده العبد عند الله تعالى.

---

1 ينظر تفسير البحر المحيط، 56/8

2 ينظر مفاتيح الغيب، 11/ 350

(**744**) إذا كان مصيرك إليه سبحانه؛ فلتكن عنايتك بصحة عملك وإخلاصك فيه بالغة، لتجد ثوابه يوم القيامة حاضراً، غير غائب، مقبولا غير حابط.

(**745**) فيها بيان ودلالة على الحياة بعد الموت، ووقوع البعث، والوقوف بين يدي الله تعالى للحساب والجزاء.

(**746**) في إظهار اسم الجلالة: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ في موضع الإضمار تربية المهابة، والإشعار بِعِلِّيّةِ الحُكم.([1])

(**747**) في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ بيانٌ لاختصاصِ الملك به تعالى في المعادِ إثرَ بيانِ اختصاصه به تعالى في المبدإِ، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقع الإضمار لتربية المهابةِ والإشعارِ بعلَّةِ الحُكم.([2])

(**748**) فيها أن المرجع والمآب ومرد كل الخلائق إلى الله عز وجل ليحاسبهم على أعمالهم، فيجازي كلا من المحسن والمسيء، تحقيقاً لعدله، ولا يظلم ربك أحداً.

(**749**) ما أشقى العاطل من العمل الصالح حين لقاء ربه يوم يلاقيه وهو صفر اليدين منه، بل وما أشقاه حين يلقاه بأثقال من المعاصي والسيئات.

(**750**) تفيد أن من طرق معرفة الله؛ طريق النظر في ملكه وملكوته، وما في ذلك من مظاهر الربوبية المطلقة، والألوهية الحقة، إذ كيف يُجْحَد مَن الكون كله مربوب إليه، خاضع لتدبيره، مع ما فيه من مظاهر الإحكام والإتقان في نظامه وتنظيمه.

(**751**) في ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ دقة التناسب مع مضمونها ذلك أنه لما كان التقدير: ومن الله المبدأ للكل بالإيجاد من العدم، عطف عليه قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ﴾ الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لهم كلهم بعد الفناء، وإنما طوي هذا المقدر لأنه لا خلف فيه.([3])

---

1 ينظر البحر المديد في تفسير الكتاب المجيد، لابن عجيبة، 4/ 50

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 184

3 ينظر نظم الدرر، 291/13

الآية الثالثة والأربعون: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**752**) تفيد دقة التناسب بما قبلها، ذلك أن الله تعالى أَعْقَبَ الدَّلالَةَ عَلَى إِعْطَاءِ الْهُدَى فِي قَوَانِينِ الإِلْهَامِ فِي الْعَجْمَاوَاتِ، بِالدَّلالَةِ عَلَى خَلْقِ الْخَصَائِصِ فِي الْجَمَادِ، بِحَيْثُ تَسِيرُ عَلَى السَّيْرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهَا سَيْرًا لا يَتَغَيَّرُ، فَهِيَ بِذَلِكَ أَهْدَى مِنْ فَرِيقِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَهُمْ عُقُولٌ وَحَوَاسٌّ لا يَهْتَدُونَ بِهَا إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالنَّظَرِ فِي أَدِلَّتِهَا، وَفِي ذَلِكَ دَلالَةٌ عَلَى عِظَمِ الْقُدْرَةِ وَسَعَةِ الْعِلْمِ وَوَحْدَانِيَّةِ التَّصَرُّفِ.([1])

(**753**) تفيد في صلة بما قبلها، تعداد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره، حيث ذكر تسبيح من في السماوات والأرض، وكل ما يطير بين السماء والأرض، ودعاءهم له وابتهالهم إليه، وأنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى يترل المطر منه، ذلك أن نظر الناس غالباً ما يبقى ضمن الدائر الأخيرة حيث نزول المطر، وينسون ما قبله من آيات..

(**754**) فيها أن الله يقسم رحمته بين خلقه، ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه حكمته، ويريهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم، ليعتبروا ويحذروا. وما هذه إلاّ براهين في غاية الوضوح على وجوده ووحدانيته وقدرته، ودلائل منادية على صفاته، لمن نظر وفكر وأبصر وتدبر.

(**755**) تفيد في مناسبتها بما قبلها كذلك أن الله لما ذكر وضوح الآيات زاد في الحجة والبينات، وبين أن مصنوعاته تدل بتغييرها على أن لها صانعاً قادراً على الكمال.([2])

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 260/18

2 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 286/12

(**756**) تفيد أن الله لما ذكر انقياد مَن في السموات والأرض والطير إليه تعالى، وذكر ملكه لهذا العالم وصيرورتهم إليه؛ أكّد ذلك بشيء عجيب من أفعاله مُشْعِر بانتقال من حال إلى حال، منبه على إمكان الانتقال إلى المعاد فقال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي ﴾(1)

(**757**) فيها تنبيه وتقرير بصيغة السؤال ولفت النظر إلى بعض مشاهد قدرة الله وملكوته ونواميس كونه وخضوع خلقه له. وتقرير كونه هو الذي يخلق كل شيء، والقادر على كل شيء، والمحيط علمه بكل شيء، وإليه مرجع كل شيء.([2])

(**758**) فيها دعوة للتفكر في السماوات والأرض وما فيهما من آيات وعلامات تدل على جمال صنع الله وحكمة تنظيمه وتدبيره.

(**759**) في هذه الآية دعوة مجدّدة إلى الكفار، والملحدين، والمنافقين، ومن في قلوبهم مرض؛ أن يعيدوا النظر فى موقفهم الزائغ المنحرف عن سواء السبيل، وأن ينظروا فى هذه المشاهد التي تعرضها تلك الآيات لجلال الله، وقدرته، وعظمته، ففيها نور الله لمن يلتمسون النور، ويطلبون الهدى.

(**760**) فيها ربط للتفكر في مراحل تكوين آية السحاب وما ينتج عنه من مطر، حيث غالباً ما ينشغل الناس بالنتيجة وهي المطر الذي يستفيدون منه، ويغفلون عن آيات تكوين السحاب وسوقه ونزول المطر منه.

(**761**) تفيد وجوب التفكر والتأمل في عظيم قدرة الله وجلائل نعمه، في سوق السحاب وتأليفه، وإنزال المطر، وما يترتب عنه من نعم الحياة والإحياء.

(**762**) تدل مع التي قبلها على أن التفكر في مخلوقات الله وعجيب صنعه؛ من أعظم السبل المؤدية إلى معرفته وتوحيده وعبادته.

(**763**) تدل على أن التفكر والتأمل في الخلق؛ من أعظم العبادات التي يزداد بها الإيمان، ويقوى بها اليقين.

(**764**) تشير إلى أن القراءة في الكتاب المنظور -الكون- تلتقي مع القراءة في الكتاب المسطور -الوحي- في أن كلا منهما دال على الله تعالى، معرِّفاً بعظمته وجلاله وجماله.

---

1 ينظر البحر المحيط في التفسير، 8/ 56

2 ينظر التفسير الحديث، 430/8

(**765**) تفيد هذه الظواهر في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أقوى الدلائل على قدرة الله، فكلٌّ من ركب الطائرة يعرف التشابه بين السحب والجبال، فإنه يراها متراكمة كأنها الجبال والآكام، وهذا من الأدلة الباهرة على إعجاز القرآن الكريم. ولم تُعرف هذه الصورة إلا بعد وجود الطائرات التي ترفع الإنسان فوق السحب فيراها على حقيقتها كما وُصفت في القرآن.([1])

(**766**) فيها بيان لآيات الله تعالى في نزول المطر الذي هو جزء من حياة الناس وحياة كل من حولهم، وبه تسمر حياتهم، فمراحل تنزيله آية، وكونه سبباً للحياة آية أخرى كذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء: 30]

(**767**) فيها التذكير بالدلائل على وجود الخالق وكمال قدرته، وشمول تدبيره وبديع صنعه وجميل تنظيمه، لمن له بصيرة يرجع إليها في تقدير الأشياء وتأملها.

(**768**) تفيد الحث على العمل بالأسباب وقوانينها، إذ الله تعالى بقدرته قادر على أن ينزل المطر دون مروره بهذه المراحل، ولكنه سبحانه يعلمنا العمل بالأسباب والتدرج في الأعمال.

(**769**) في قوله تعالى: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ تهديد وتخويف للعباد، إلى أن من النعم ما ينقلب إلى نقم، ومنها هو نعم لقوم ونقم على قوم آخرين.

(**770**) فيها إشارة إلى أن هذه السحب التي ينزل منها الماء، هي وإن كانت في الأصل مصدر نعمة، يمكن أيضاً أن تكون مصدر نقمة، حين ينزل منها هذا البرد، وكأنه قطع من الأحجار، تتساقط من الجبال، فتهلك كل من تقع عليه، وكأنها بهذه العقوبة الراصدة إلى جانب تلك النعمة.

(**771**) يفيد تعبيره سبحانه ﴿ فَيُصِيبُ﴾ دون (فينزل)، لأن الإصابة قد تكون بالخير، وقد تكون بغيره، فقد يكون المطر غيثاً فيه كرم يغاث فيه الناس، وقد يكون غيثاً مدمراً، وصرفاً عمن يشاء، قد يكون سبباً في القحط، وقد يكون للدمار.([2])

---

1 تيسير التفسير، إبراهيم القطان، (توفي 1405)

2 ينظر زهرة التفاسير، 5205/10، 5206

(**772**) تفيد كذلك الحكمة التامة لله تعالى في إنزال المطر والبرد على من يشاء، وصرفه عمن يشاء، ابتلاء واختباراً، وإنعاماً وانتقاماً، ورحمة وعذاباً لقوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ ([1])

(**773**) فيها تنبيهه تعالى على ما هو غاية في العجب في ذلك مما في الماء من النور، الذي ربما نزل منه صاعقة فأحرقت ما لا تحرق النار بقوله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ وهو اضطراب النور في خلاله، أي يخطفها لشدّة لمعانه وتلألئه فتكون قوة البرق دليلاً على تكاثف السحاب، وبشيراً بقوة المطر ونذيراً بنزول الصواعق.

(**774**) تفيد أن البرق الذي صفته كذلك لا بد وأن يكون ناراً عظيمة خالصة، والنار ضد الماء والبرد، فظهوره يقتضي ظهور الضدّ من الضدّ وذلك لا يمكن إلا بقدرة قادر حكيم.([2])

(**775**) في ذكره تعالى هذه الصفة للسحاب: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ تَنْبِيهُ الْعُقُولِ إِلَى التَّدَبُّرِ فِي هَذِهِ التَّغَيُّرَاتِ إِذْ كَانَ شُعُورُ النَّاسِ بِحُدُوثِ الْبَرْقِ، أَوْضَحَ وَأَكْثَرَ مِنْ شُعُورِهِمْ بِتَكَوُّنِ السَّحَابِ وَتَرَاكُمِهِ وَنُزُولِ الْمَطَرِ وَالْبَرَدِ، إِذْ قَدْ يَغْفَلُ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ لِكَثْرَةِ حُدُوثِهِ وَتَعَوُّدِهِمْ بِهِ، بِخِلَافِ اشْتِدَادِ الْبَرْقِ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو أَحَدٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ لَهُ مَرَّاتٍ، فَإِنَّ أَصْحَابَ الْأَبْصَارِ الَّتِي حَرَّكَهَا خَفْقُ الْبَرْقِ يَتَذَكَّرُونَ تِلْكَ الْحَالَةَ الْعَجِيبَةَ الدَّالَّةَ عَلَى الْقُدْرَةِ. وَلِهَذِهِ النُّكْتَةِ خُصِّصَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ مِنْ أَحْوَالِ الْبَرْقِ بِالذِّكْرِ.([3])

(**776**) يفيد قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بلاغياً: المبالغة أو الإفراط في الصنعة، وهو فن بلاغي سماه ابن المعتز: الإفراط في الصنعة، وسماه قدامة المبالغة، وهو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عندها لأجزأت، فلا يقف عندها حتى يزيد في معنى كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده. وهو أنواع، ومنه ما استعمل في هذه الآية، وهو ما جرى مجرى الحقيقة وهو قسمان: قسم كان مجازاً فصار بالقرينة حقيقة، كهذه الآية فإن اقتران هذه الجملة بيكاد يصرفها الى الحقيقة فانقلبت من الامتناع الى الإمكان.([4])

---

1 انشراح الصدور في تدبر سورة النور، 276، سليمان إبراهيم اللاحم.

2 ينظر السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، للشربيني الشافعي (ت977هـ) بتصرف

3 ينظر التحرير والتنوير، 262/18

4 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 628

(**777**) في إطلاق الأبصارِ ﴿ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ مزيدُ تهويلٍ لأمرِه، وبيانٌ لشدَّةِ تأثيرِه فيها، كأنَّه يكادُ يذهبُ بها ولو عندَ الإغماضِ، وهذا من أقوى الدَّلائلِ على كمالِ القُدرةِ من حيثُ أنَّه توليدٌ للضدِّ من الضدِّ وقُرىء يُذهب من الإذهابِ على زيادةِ الباءِ.([1])

(**778**) في دويِّ صوت الرعد وزَمْـــجَرته، ولمعان البرق وتألقه؛ تنبيهٌ للعقول السابحة في متاهات الغفلة، كي تتذكّر قدرة الخالق وقوّته وعجز المخلوق وضعفه.

(**779**) فيها دعوة للتفكر في آيات السماوات والأرض، لما في ذلك من العبر والأسرار الدالة على وجود الله تعالى، والناطقة بعظمته وقدرته سبحانه وتعالى.

(**780**) تفيد أن الذي يستفيد من آيات الله في السماوات والأرض، ويعتبر بمشاهدها ودروسها، هو من فتح بصائر قلبه بنور آيات الوحي، إذ إن التدبر في آيات القرآن يحيل على التفكر في آيات الأكوان.

(**781**) تفيد أن التفكر في آيات السماوات والأرض، هو من أعظم العبادات، لما فيه من تذكير بعظمة الله وقدرته، وجميل صنعه، والذي يحيل إلى ذكر الله والثناء عليه بما هو أهل له، ذلك أن أصل الذِّكْر من التفكر في عظمة الله وأفعاله في الكون، الدالة على صفاته سبحانه وتعالى.

(**782**) فيها دليل على كثرة الآيات والحجج التي أقامها الله على هذا الإنسان، سداً لكل عذر، والقاعدة: "لقد أعذر من أنذر" لكيلا يبقى للإنسان على الله حجة، في عدم ظهور آيات الإيمان، ودلائل التوحيد.

---

1 ينظر إرشاد العقل السليم، 185/1

- **الآية الرابعة والأربعون:** ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**783**) في مناسبتها بسابقاتها وبخاصة "آية النور" اتصال تعقيب واستطراد. ففيما جاء في الآيات من مظاهر قدرة الله ونواميسه الكونية، وإحاطته بكل شيء في السماوات والأرض، عبرة لأولي البصائر النيرة، والعقول السليمة، خليقة بأن تكون دافعة لهم إلى ذكر الله والاستشعار بعظمته وهيبته والاستمساك بحبله والدأب على القيام بواجبهم نحوه.([1])

(**784**) في مناسبتها بما قبلها كذلك أن الذي له الأمر كله بتحويل الظلام ضياء، والضياء ظلاماً، والنقص تارة، والزيادة أخرى، مع المطر تارة، والصحو أخرى، هو الله تعالى الذي يقلب الليل والنهار، فينشأ عنهما من هذا التقليب ما يريده سبحانه من هذه الأحوال.

(**785**) إن من الإعجاز البلاغي التي اقتضته ألفاظ هذه الآية في علاقتها بما قبلها؛ إخبارها عن تقليب الليل والنهار والإتيان بهذا بعد هذا، دون توطئة، وهو ما تعجز عنه الفصحاء حتى يقع منهم التخليق في الألفاظ والتوطئة بالكلام.

(**786**) في تَقْلِيب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، ومجيء أحدهما بعد الآخر، آية من آيات الله الدالة على قدرته وتدبيره المحكم، لمن أراد أن يتأمل ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢ ﴾ [الفرقان: 62]

(**787**) تفيد أن من آيات الله في تَقْلِيب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أن يجيء أحدهما بَعْدَ الْآخَرِ، أَوْ زِيَادَةُ هَذَا وَعَكْسُهُ، أَوْ يُغَيِّرُ النَّهَارَ بِظُلْمَةِ السَّحَابِ مَرَّةً، وَضَوْءِ الشَّمْسِ أُخْرَى، وَيُغَيِّرُ اللَّيْلَ بِاشْتِدَادِ ظُلْمَتِهِ مَرَّةً، وَضَوْءِ الْقَمَرِ أُخْرَى، أَوْ بِاخْتِلَافِ مَا يُقَدَّرُ فِيهِمَا مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ وَالشِّدَّةِ وَالنِّعْمَةِ وَالْأَمْنِ وَمُقَابِلَاتِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ.([2])

(**788**) فيها أن تعاقب الليل والنهار بنظام ثابت دقيق، لا يختل ذهاباً وجيئةً، ابتداءً وانتهاءً، لهو دليل على عظمة الله تعالى وقدرته، وجميل صنعه، وآيات وعبرة لمن تأمل فيه من

---

1 ينظر التفسير الحديث، 430/8

2 ينظر البحر المحيط، 59،58/8

ذوي الألباب، كما قال الله تعالى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران 190]

(**789**) فيها أن الله تعالى يُقَلِّبُ الليل والنهار بِاخْتِلَافِ مَا يُقَدِّرُهُ فِيهِمَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَنَفْعٍ وَضُرٍّ.([1]) فما من شيء يقع في هذا الكون، إلا ويقع ليلاً أو نهاراً.

(**790**) تفيد أن مما يدخل في معنى التقليب؛ تغيير هيئة الليل والنهار بالطول والقصر، والحر والبرد، مما يدل على قيومية الله تعالى لهذا الكون بسماواته وأرضه، تنظيماً وتدبيراً.

(**791**) تفيد أن أمور الكون كلها؛ أزمنة وأمكنة، بيد الله يقلبها كيف يشاء، كما قال النبي صلّى الله عليه وسلم- فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلّب الليل والنهار))([2])

(**792**) تفيد أن لكل من الليل والنهار طبيعة تناسب الإنسان، فالليل للراحة والهدوء، والنهار للحركة والكسب. كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النبأ: 9،10] ومن هنا كانت حكمة تقليب الليل والنهار لأداء كل منهما دوره.

(**793**) في قوله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ ﴾ من جمال الآيات؛ (إشارة إلى ليل المحو، ونهار الصحو، أو ليل القبض، ونهار البسط، أو ليل الجلال، ونهار الجمال، أو نحو ذلك)([3])

(**794**) فيها أن الليل والنهار هما آياتان من آيات الله، ولهما حِكَم إلهية، ومقاصد ربانية، منها حساب السنين والأوقات، كما قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء: 12]

---

1 ينظر فتح القدير، 50/4

2 البخاري في كتاب التفسير، بَابُ {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية: 24] حديث رقم: 4826. ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب، باب النهي عن سب الدهر. حديث رقم:6000

3 ينظر روح المعاني للإمام الألوسي. 9/ 376

(**795**) فيها أن التفكر والتأمل في آيات الكون، أزمنةً وأمْكِنةً طريق لمعرفة الخالق المدبر سبحانه وتعالى، فهذا التقليب المنتظم بحسبان دقيق، لهو أعظم آية وبرهان على وجود الله ووحدانيته.

(**796**) ما من ذي بصيرة مشرقة إلا وهو يعتبر بما يراه من مظاهر القدرة الإلهية، ويشهد لمبدعها سبحانه وتعالى بالقدرة التامة والعلم الكامل، وأنه الإله الواحد الأحد لا شريك له، الفرد الصمد الذي لا ند له.

(**797**) يفيد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة للدلالة على وجود الخالق المدبر، وكمال قدرته، وشمول حكمته وتدبيره، لكل من كانت له بصيرة يرجع إليها وعقل يفكر به في تقدير الأشياء، والنظر إلى آيات حكمتها.

(**798**) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ كذلك إلى ما فُصِّل آنِفاً، وما فيه من معنى البُعد مع قُربِ المشارِ إليه، للإيذان بعلو رتبته بعد ومنزلته.([1])

(**799**) تفيد التنبيه إلى عدم الغفلة عن جمال هذا الكون وجمال آياته، الظاهرة في جمال صنعه، وجمال نظامه. الدالة على جمال الله وجلاله.

(**800**) في التعبير عما يستفاد من هذه الآيات ب"العبرة"﴿ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لأنهم يعبرون منها ببصيرة قلوبهم النافذة إلى معرفة ما لمدبر ذلك من القدرة التامة والعلم الشامل الدال قطعاً على الوحدانية.

(**801**) فيها تَخصيص أُولُوا الأبْصَارِ بِالاتِّعَاظِ والعبرة، لأنَّ الْبَصَرَ وَالْبَصِيرَةَ إِذَا اسْتُعْمِلا وَصَلا إِلَى إِدْرَاكِ الْحَقِّ ورؤية الحقيقة.

(**802**) فيها مدح وثناء لأولي الأبصار والألباب الذين يستخدمون عقولهم وبصائرهم لمعرفة دلائل التوحيد، وآيات القدرة الإلهية.

(**803**) فيها أن أصحاب الأبصار النافذة، والقلوب الناقدة، هم الذين يعبرون منها إلى معرفة ما لمدبر هذا الكون سبحانه، من القدرة الكاملة، والحكمة التامة، والعلم الشامل، الدال على وحدانية الله تعالى ونفوذ مشيئته.

---

1 ينظر إرشاد العقل السليم، 185/6

(**804**) تدل على أن العمى الحقيقي إنما عمى هو البصيرة، لا عمى الأبصار، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: 46]

(**805**) فيها أن فيما تقدم ذكره دلالة لمن يرجع إلى بصيرة، فمن هذا الوجه يدل أن الواجب على المرء أن يتدبر ويتفكر في هذه الأمور، ويدل أيضا على فساد التقليد.([1])

(**806**) فيها إشارة إلى أن قراءة الكتاب المسطور (القرآن) يجب أن أن تصاحبها قراءة الكتاب المنظور (الكون) فكل منها يدل على الآخر، وهما معاً يدلان على الله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: 54]

1 ينظر مفاتيح الغيب، 406/24

- **الآية الخامسة والأربعون:** ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**807**) تفيد في صلة بما قبلها، أن الله تعالى لما استدل أولاً بأحوال السماء والأرض، وثانياً بالآثار العلوية، استدل ثالثاً بأحوال الحيوانات، وهو من أنواع الدلائل على الوحدانية.([1])

(**808**) تفيد دليلا آخر مما يدل على عظمة الله ووحدانيته وقدرته، وهو ما يخص قضية خلق الْحَيَوَانِ، وما فيها مِنْ عَجَائِبِ حكمته وَبَدِيعِ صَنْعَتِهِ.

(**809**) يفيد تصدير الآية الكريمة بلفظ الجلالة ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ للإشارة إلى اختصاصه بالعبادة، لأن لفظ الجلالة يتضمن معنى الألوهية، وكل ما يذكر بعد ذلك من خلقه يكون دليل ألوهيته سبحانه، فالمخلوق يدل على الخالق، وكذلك كل عبادة سامية لله جل جلاله، ودلت على الخلق يكون فيها هذا المعنى الجليل.([2])

(**810**) يفيد إظهار اسم الجلالة ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ دون الإضمار للتنويه بهذا الخلق العجيب. واختير فعل المضي للدلالة على تقرير التقوّي بأن هذا شأن متقرر منذ القدم مع عدم فوات الدلالة على التكرير حيث عقب الكلام بقوله: ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾([3])

(**811**) تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مفيداً لأمرين: التحقق بالتقديم على الخبر الفعلي. والتجدد بكون الخبر فعلياً.([4])

(**812**) فيها إثبات صفة الخالقية لله تعالى، فهو الخالق الذي لا خالق سواه لهذا الكون وما فيه من مخلوقات، وهو خالق لعالم الغيب والشهادة.

---

1 مفاتيح الغيب، 11/ 356 (بتصرف)

2 ينظر زهرة التفاسير، 5208/10

3 ينظر التحرير والتنوير، 265/18

4المرجع نفسه، 265/18

(**813**) يفيد ذكر صفة "الخالقية" في هذا السياق؛ أنها مفتاح التعرف على الله تعالى، إذ هي أعظم الصفات، ولذلك لم يستطع أحد من منكري وجود الله، أو ممن أشرك معه آلهة أخرى، أن يدعي هذه الصفة لنفسه بأنه يخلق...

(**814**) في ذكر صفة "الخالقية" هنا كذلك -بعد الرد على الكافرين وذكر أعمالهم الباطلة والفاسدة، ثم ذكر آياته في السماوات والأرض- دعوة إلى عبادته وطاعته، فلا يستحق العبادة والطاعة، إلا مَن كان خالقاً، ولا يستطيع الخلق إلا الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:21]

(**815**) تفيد قراءة كلمة: ﴿ خَلَقَ ﴾([1]) بالفعل الماضي حدوث الفعل وتحقق وقوعه، أما قراءة: ﴿خَالِقُ﴾ على اسم الفاعل وإضافته إلى ما بعده، فأفادت حدوث الفعل واستمراره ودوامه، ودلت على الفاعل وهو الله تعالى.

(**816**) ويقال إن (خَلَقَ) تستعمل لشيء مخصوص، وإنما يقال: (خالق) على العموم كما قال الله تعال: ﴿ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: 24] وفي الخصوص قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام: 1]([2])

(**817**) يفيد معنى القراءتيْن لكلمة: ﴿خَلَقَ – خَالِقُ﴾ أن بينهما خصوصاً وعموماً مفيد، فقراءة الفعل الماضي (خَلَقَ) تدل على وقوع الخلق من الله تعالى وخصت بقدرته على خلق المخلوقات الحية على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها. أما قراءة اسم الفاعل (خَالِقُ) فدلت على ثبوت صفة الخلق لله تعالى واستمرارها، كما تدل على عموم قدرته لخلق كل شيء ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر: 62]([3])

---

1 قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: {والله خالق كل} على الإضافة، اسم فاعل، وقرأ الجمهور {والله خلق كل} على الفعل الماضي، (جامع البيان للإمام الطبري، والمحرر الوجيز لابن عطية)

2 ينظر الجامع لأحكام القرآن، ج، 12/ 291

3 ينظر تفسير القرآن بالقراءات العشر القرآنية، 8/ 46

(**818**) تفيد قدرة الله تعالى التامة في خلق كل ما يدب على الأرض ممن فيه حياة، (يعني بني آدم والبهائم والطير.. لأن ذلك كله مما يدب، من مَنِيّ وقيل: الماء الذي في الطين الذي خلق منه آدم وغيره)([1])

(**819**) يفيد تنكير ﴿ مَّآءٍ ﴾ لإرادة النوعية تنبيهاً على اختلاف صفات الماء لكل نوع من الدواب إذ المقصود تنبيه الناس إلى اختلاف النطف للزيادة في الاعتبار.([2])

(**820**) نكر الماء في قوله تعالى: ﴿ مِّن مَّآءٍ ﴾ وعرفه في قوله: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30] لأن المقصد في الآية هنا اظهار أن شيئاً واحداً تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة ذكر تفاصيلها في آية النور والرعد، والمقصد في آية (اقترب) أنه خلق الأشياء المتفقة في جنس الحياة من جنس الماء المختلف الأنواع فذكر معرفاً ليشمل أنواعه المختلفة.([3])

(**821**) فيها أن هذا الماء قد جعله الله تعالى أصل وجودك، ومنه ما هو سبب لدوام حياتك، فهلاّ حمدتَّ الله تعالى على نعمة وجوده؟

(**822**) فيها أن الحيوانات جميعها تشترك في مادة تكوينها، وتختلف في أشكالها وأفعالها، وأسلوب حياتها، وكلها لله تعالى مطيعة منقادة إلى ما خلقها له، فسبحان الخالق العظيم!

(**823**) يفيد ذكر ترتيب الأجناس في حال المشي على ترتيب قوة دلالتها على عظم القدرة، لأن الماشي بلا آلة مشيٍ متمكنةٍ أعجب من الماشي على رجلين، وهذا المشي زحفاً. أطلق المشي على الزحف بالبطن للمشاكلة مع بقية الأنواع.([4])

(**824**) فيها إشارة إلى تنوع صور المخلوقات، وتعدد أشكالها، وهى جميعها من مادة واحدة، لا لون لها، ولا طعم، ولا رائحة، إنها شيء واحد، ومع هذا فقد جاءت بقدرة القادر، وصنعة الخبير على هذه الصور التي لا تكاد تحصر من عوالم الأحياء، على اختلاف صورها، وتباين أشكالها، وتعدد ألوانها.([5])

---

1 التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 73، لابن جزي الغرناطي.

2 المرجع نفسه، 266/18

3 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 636

4 ينظر التحرير والتنوير، 266/18

5 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1304

(**825**) ليس في الآية ما يقتضي حصر المشي في هذه الأحوال الثلاثة، لأن المقصود الاعتبار بالغالب المشاهد. فهذا تقسيم عام، حيث يندرج تحت كل قسم ما لا حصر له من صور وأشكال، تنضوى تحت كل قسم، وتندرج تحت كل صنف.

(**826**) فيها إثبات قدرة الله الباهرة، وحكمته الظاهرة، التي تتجلى في اختلاف مشية هذه الأنواع من الدواب.

(**827**) فيها أن المشي لا يكون إلا لما له قوائم، فإذا خلط ما لا قوائم له، مع ماله قوائم، جاز أن تقول: يمشي، كما تقول: أكلت خبزاً ولبناً.([1])

(**828**) في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ الاستعارة، فقد سمى الزحف على البطن مشياً على سبيل الاستعارة المكنية، كما قالوا في الأمر المستمر: قد مشى هذا الأمر، ويقال فلان لا يتمشى له أمر. والاستعارة هنا من جمالية التعبير القرآني ودقته، ولك أن تذهب كل مذهب في وصفه، من حيث اللغة والبيان.

(**829**) يفيد قوله تعالى:﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ..﴾ التغليب؛ تغلب للعاقل على غيره، وله نظائر كثيرة في القرآن، لأنه لما اختلط غير العاقل بالعاقل في الفصل بِمن وكل دابة، كان التعبير بِمَن أولى لتوافق اللفظ.([2])

(**830**) يفيد قوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ بعد ذكره لأحوال من المشي، أنه يخلق ما يشاء من أنواع المخلوقات ممن يمشي على غير ما ذُكر، وأن ما ذكر إنما هو للأمثلة فقط.

(**831**) تفيد جملة: ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ زيادة في العبرة، أي يتجدد خلق الله ما يشاء أن يخلقه مما علمتم وما لم تعلموا. فهي جملة مستأنفة.([3])

(**832**) وفيها كذلك أنه يخلق سبحانه وتعالى ما يشاء ممَّا ذُكر وممَّا لم يُذكرْ، بسيطاً كان أو مركّباً، على ما يشاء من الصُّورَ والأعضاء والهيئات والحَرَكات والطَّبائعِ والقُوَى والأفاعيلِ مع اتِّحادِ العُنصرِ.([4])

---

1 ينظر التّفْسِيرُ البَسِيْط، 331/16

2 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 636

3 ينظر التحرير والتنوير، 266/18

4 ينظر إرشاد العقل السليمن 186/6

(**833**) في قوله تعالى: ﴿ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ إِرَادَةُ خَلْقِهِ أَنْشَأَهُ وَاخْتَرَعَهُ، وَفِي ذَلِكَ تَنْبِيهٌ عَلَى كَثْرَةِ الْحَيَوَانِ وَأَنَّهَا كَمَا اختلفت بكيفية المشيء اختلفت بأمور أخر.([1])

(**834**) في إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ في موضعِ الإضمارِ لتفخيمِ شأنِ الخلقِ المذكورِ، والإيذانِ بأنَّه من أحكامِ الأُلوهيَّةِ.

(**835**) يفيد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ تعليلاً وتذييلاً. ووقع فيه إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار ليكون كلاماً مستقلاً بذاته لأن شأن التذييل أن يكون كالمثل.([2])

(**836**) يفيد ختام هذه الآية دقة المناسبة مع مضمونها، فإن الله تعالى لما تحدث عن أنواع من خلقه، وأنه خلقها من أصل واحد، مع تنوع خلقتها وجنسها، ثم ذكر أنه يخلق من سوى ذلك ما يشاء، ختم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ من ذلك ومن غيره مما لم يذكر، ومما لا يخطر على بال بشر، في هذه الدار من عالم الشهادة، وفي دار القرار من عالم الغيب.

---

1 ينظر البحر المحيط في التفسير، 8/ 60

2 ينظر التحرير والتنوير، 266/18

- **الآية السادسة والأربعون:** ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**837**) تفيد في مناسبتها بما قبلها أن الله تعالى بعد أن ذكر في الآيات السابقة جملة من الآيات الكونية العلوية والسفلية في السماوات والأرض والدواب، أتبع ذلك ببيان أنه أنزل أعظم من ذلك، وهي الآيات الشرعية القرآنية، التي فيها الهداية للطريق المستقيم رحمة منه وامتناناً.([1])

(**838**) فيها من دقة التناسب بما قبلها كذلك، أنه لما اتضح بهذا ما لله تعالى من صفات الكمال، والتنزه عن كل شائبة نقص، وقامت أدلة الوحدانية على ساق، واتسقت براهين الألوهية أي اتساق، قال مترجماً لتلك الأدلة: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾([2]) من الحِكم والأحكام والأمثال ما به هداية من أراد الاهتداء.

(**839**) تفيد الآية في علاقة بما قبلها أن لكل من الهداية والضلال سنناً متبعة، وسبلا مسلوكة، فمن اتبع سنن الهداية سهل الله له سُبُلها، ويسر له طريقها؛ ومن سلك طرُق الضلالة هُيِّئت له سبلها وطرقها.

(**840**) فيها أن الله تعالى أقام الحجة على عباده، بإنزال الآيات المبيَّنات والمبيِّنات،([3]) على القراءتيْن، فالمبيَّنات بالفتح أي المفصلات الواضحات، والمبيِّنات بالكسر أي كاشفات للحق والباطل، والحلال والحرام، والهدى والضلال. فهي بينة في نفسها مبيِّنة لغيرها.

(**841**) تفيد أن الله أنزل آيات مبيِّنات ومبيَّنات، لتتضح بذلك السبل، ويتبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال، حتى لا تبقى أي شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد

---

1 انشراح الصدور في تدبر سورة النور، 281، سليمان بن إبراهيم اللاحم.

2 ينظر نظم الدرر، 295/13

3 قرأ عامة قرّاء المدينة، وبعض الكوفيين والبصريين: {مُبَيَّناتٍ} بفتح الياء، وقرأ الباقون: {مُبَيِّناتٍ} بكسر الياء. (ينظر النشر، 2/ 332)

الصواب، لأن هذه الآيات تنزيل من كمل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه سبحانه، فليس بعد بيانه بيان ﴿ لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ ﴾ [الأنفال: 42](1)

(**842**) يفيد قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ ﴾ أن المقصود بها آيات القرآن الكريم التي هي المبين للهدى والأحكام والحلال والحرام ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ إلى دين الإسلام الذي هو دين الله وطريقه إلى رضاه وجنته.

(**843**) فيها أن هذا القرآن منَزّل من عند الله تبارك وتعالى، وليس بمخلوق كما زعم ذلك المعتزلة. ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ...﴾

(**844**) يفيد قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ ﴾ أنه يعم كل ما نصب الله تعالى من آية، وصنعه للعبرة والعظة.(2) والمقصود بذلك إقامة الحجة بالكشف عن طريق المحجة.

(**845**) فيها أن الله تعالى أنزل آياته بينات ومبينات لكل ما يحتاج إلى بيان من الأحكام التشريعية، والأسرار الكونية.

(**846**) يفيد قوله تعالى كذلك: ﴿ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ ﴾ كل ما نصبه تعالى في كتابه من آية تنبيه وتذكير، وإبصار وتعليم، فآيات القرآن كلها بصائر، كما قال تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ ١٠٤ ﴾ [الأنعام: 105]

(**847**) فيها أنه حينما يتحاكم الناس إلى شريعة الله، فإنما يتحاكمون إلى شريعة مبيَّنة واضحة مضبوطة لا شبهة فيها ولا إبهام ولا التباس ولا غموض.

(**848**) فيها أن الله تعالى أخبر أنه أنزل الآيات، ثم قيَّد الهداية إليها: ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ لأن الهداية من قِبَله سبحانه لبعض دون بعض. وفق وإرادته ومشيئته، وعدله وقضائه وفضله: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩ ﴾ [الأنعام: 39]

(**849**) تفيد أن الله تعالى وحده هو مصدر الهدى، كما قال سبحانه: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ٧٣ ﴾ [آل عمران: 73] فلا يطلب إلا منه تعالى، ولا يهدي إليه إلا هو سبحانه.

---

1 تيسير الكريم الرحمن، 571/1

2 ينظر المحرر الوجيز، لابن عطية 191/1

(**850**) دلَّت الآية على أن كل شيء بقدر، إذ إسناد الهدى إلى الله هو (إسناد حقيقي لأنه تعالى هو الخالق لذلك والموجد له والمريد له)(1) فلا يقع شيء إلا بإذنه ووفق إرادته وقَدَرِه.

(**851**) تفيد الآية أن من هداه الله تعالى من عباده فبفضله ورحمته، وأن من أضله فبعدله وقضائه، ولا يظلم ربك أحداً.

(**852**) فيها أن النظر في الآيات والتدبر لمعانيها وهداياتها، قصد الاهتداء بها والاستنارة بأنورها، إنما هو بتوفيق من الله تعالى وحده.

(**853**) تفيد أن على الإنسان أن يسعى دائماً ليكون في الصادقين المخلصين، وذلك بالاجتهاد بطلب الهداية من الله تعالى، والعمل على تحقيق أسبابها.

(**854**) فيها أن هداية الله تعالى تكون لمن سلك طريق الحق وأبعد نفسه عن الضلالة، ذلك أن الله تعالى أودع فطرة الإنسان فطرة الاستعداد للحق والباطل.(2)

(**855**) تفيد أن من سار في الصراط الحق فإن الله تعالى يأخذه إلى نهايته، ومن سار في طريق الضلالة تركه إلى نهايتها، ولذا قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ له الهداية إذا اختار نجد الهداية ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أي إلى طريق مستقيم هو طريق الحق، وهو أخصر طريق وأوضحه للهداية.(3)

(**856**) فيها أن الهداية نوعان: هداية دلالة وبيان وإرشاد، وهداية معونة وتوفيق. فالله تعالى يهدي الجميع هداية بيان وإرشاد، ويبين للكل أسباب الخير وسبل النجاة وطريق الفلاح، فمن سمع كلام الله وفتح قلبه وبصيرته لتوجيهه وهدايته، وأطاع الله في هداية الدلالة الإرشادية البيانية أعانه بهداية المعونة والتوفيق.

(**857**) إن الله جعل للهدى طريقاً، مَن اتصل به أوصله بمشيئة الله تعالى، ومن حاد عنه فقد ولج في الضلال، وذلك حسب مشيئته تعالى في الهدى والضلال.

---

1 البحر المحيط في التفسير، 4/ 639

2 ينظر زهرة التفاسير، 5209/10

3 ينظر زهرة التفاسير، 5210/10

(**858**) تفيد أن الصراط المستقيم هو طريق الإسلام، الذي دعا الله إليه بآياته، وارتضاه لعباده، وهو طريق الذين أنعم الله عليهم من الأنبياء والمرسلين، وأتباعهم من المؤمنين الصادقين والشهداء والصالحين.

(**859**) تفيد أن أقوم الطرق وأسلمها، وأعدلها وأصوبها، وأقربها للسعادة وتحقيقها للفوز والفلاح هو طريق الله: ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

(**860**) تشير إلى أن الصراط المستقيم الذي يجب اتباعه هو صراط الله وحده، وكل ما عداه من السبل المتبعة فهي من الشيطان يريد من أصحابها الابتعاد عن صراط الله المستقيم والتفرق عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ١٥٣ ﴾ [الأنعام: 153]

(**861**) تشير إلى أن صراط الله المستقيم هو أقصر الطرق وأوضحها وأقربها إلى الله والوصول إلى رضاه، فالخط المستقيم هو الخط الأقصر والأقرب مسافة بين نقطتين: المنطلق والهدف، فمنطلق المسلم الاستقامة على صراط الله المستقيم، وهدفه الوصول إلى رضا الله تعالى.

(**862**) تدل هذه الآية أن وضوح الطريق والدلالة عليه، لا يقتضي لزوماً الاهتداء إليه، بل مَن شاء الله هدايته اهتدى، ومن لم يشأ ضل، ولو مع وضوح الطريق، لكونه لم يقم بأسباب الهداية التوفيقية، فلم تنفعه الهداية الدلالية.

(**863**) فيها أن الهداية نوعان: هداية دلالة وبيان وإرشاد، وهداية معونة وتوفيق، فالأولى من الله تعالى دون شرط، بل تفضل منه سبحانه، وإقامة منه للحجة على خلقه، والثانية شرطها الإنسان نفسه بالعمل لها.

(**864**) يفيد ختام هذه الآية دقة التناسب مع مضمونها، فقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ يهديهم بالقوة بإنزال الآيات المبصرات، والفعل بخلق الإيمان والإخبات، فيؤمنون إيماناً ثابتاً.

الآية السابعة والأربعون: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**865**) تفيد في مناسبتها بما قبلها، أن الله تعالى لَمَّا ذَكَرَ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ والإيمان، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِذَمِّ قَوْمٍ آمَنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ دُونَ عَقَائِدِهِمْ. ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ عَنِ الإِيمَانِ.([1])

(**866**) تفيد في سياقها بما قبلها، أن الله تعالى لما ذكر صفات الرجال المؤمنين وخصالهم الإيمانية بقوله: ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ...٣٧ ﴾ [النور: 37] ثم ذكر الكافرين وأعمالهم بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ٣٩ ﴾ [النور: 39] أتبع ذلك بذكر أوصاف الصنف الثالث المذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهم المنافقون.

(**867**) في صلتها بما قبلها كذلك: شروع في ذكر وبيان أحوال بعض مَن لم يشأ الله هدايته إلى الصراط المستقيم، وهم المنافقون كما يفيده السياق.

(**868**) يفيد حرف العطف في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أنها معطوفة على جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ لما تتضمنه جملة: ﴿ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ من هداية بعض الناس وحرمان بعضهم من الهداية كما هو مقتضى: ﴿مَن يَشَآءُ ﴾ وهذا تخلص إلى ذكر بعض ممن لم يشأ الله هدايتهم وهم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام وهم أهل النفاق.([2])

(**869**) يشير قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ﴾ إلى أن حظهم من الإيمان مجرد القول، دون الاعتقاد، كما قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ [آل عمران: 167]

(**870**) يفيد التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ تجدد ذلك منهم واستمرارهم عليه، لما فيه من تكرار الكذب ونحوه من خصال النفاق التي بينتها سورة البقرة.([3])

(**871**) تفيد أن المنافقين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فيظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ويدّعون الاستجابة وهم يعرضون ويتولون عنها، حينما يُدعون إليها.

---

1 ينظر البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، 60/8 بتصرف

2 ينظر التحرير والتنوير، 268/18

3 ينظر التحرير والتنوير، 268/18

(**872**) فيها أن ما أكثر الأقوال، وما أيسرها على الأفواه.. وإن القول الذي لا يصدقه العمل، ولا يبرهن عليه موقف، فهو زور وبهتان، وقد ذم الله صاحبه بأقبح ذم.

(**873**) تفيد أن الإيمان بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم يقتضي التحاكم إلى أمرهما في كل فعل أو قول، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: 59]

(**874**) تفيد هذه الآية أن الإيمان ولاء، وطاعة، وانقياد.. ثم هو قبل هذا حبّ، وإن تجرّع المحب فى سبيله جرع البلاء! وهؤلاء الذين لبسوا الإيمان ظاهراً، إذا وضع إيمانهم على محكّ التجربة، ظهر زيفه، وبان ما فيه من دخن وفساد.([1])

(**875**) فيها دلالة على أن الإيمان الكامل لا يكون بالقول فقط، إذ لو كان به لما صح أن ينفي كونهم مؤمنين، فأصل الإيمان اعتقاد بالقلب إذ هو محله، كما قال تعالى:﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]

(**876**) تفيد أن الإيمان الكامل هو قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، على اختلاف بين أئمة العلم: هل العمل داخل في مسمى الإيمان وحقيقته، أم هو شرط كمال فيه.

(**877**) ليس الإيمان متاعاً رخيصاً يأخذه المرء متى يشاء ثم يدعه متى شاء، بل هو تكيف وانطباع في النفس ويقين ورسوخ في القلب، وحياة وعمل في الواقع.

(**878**) فيها إشارة إلى أن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾ [الأنفال: 1]

(**879**) تفيد أن الإيمان والطاعة يقتضيان التسليم والخضوع لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم في كل ما حكما به والرضا بذلك قلباً وقالباً ظاهراً وباطناً. كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: 65]

(**880**) فيها ذم للمنافقين، وكل من أظهر شيئاً وأبطن خلافه، لأن ذلك علامة على مرض القلوب وبغي النفوس.

---

[1] ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1307

(**881**) فيها تحذير من مخالفة الفعل للقول، وأن العمل دليل الإيمان، وأن القول الصادق لا ينتج عنه إلا الفعل الصادق كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: 2،3]

(**882**) فيها إشارة إلى أن المؤمن حقاً وصدقاً، هو من يوافق فعله قوله، ويصدق ظاهره باطنه، ويتحاكم في كل شأن من شؤونه إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

(**883**) تشير إلى أن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب، ظهرت آثاره في سلوك العبد، وثمراته في أقواله وأفعاله، طاعة وخشية وخضوعاً.

(**884**) تفيد أن العمل بالطاعات والقيام بالواجبات، هو محل اختبار الإيمان واختبار درجاته، فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

(**885**) تشير إلى أن لكل شيء برهاناً يدل عليه، ويُصَدَّق صاحبه فيه، وبرهان الإيمان ودليله، هو العمل بما يرضي الله ورسوله، واتباع أمرهما، والتحاكم إلى شرع الله في كل أمر.

(**886**) فيها بيان لما يجب أن يكون عليه حال المؤمنين المخلصين الصادقين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم في أمر من أمور حياتهم.

(**887**) يفيد قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنۡهُم ﴾ أن هذا التّوَلّي تولياً عظيماً ومقصوداً، بدليل قوله تعالى في الآية التي بعدها بعدها: ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ فإن المتولي، قد يكون له نيّة عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا المتولي معرض، لا التفات له، ولا نظر لما تولى عنه.([1])

(**888**) في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ ﴾ مجاز لأن حقيقة التولي إنما هو بالوجه، ثم استعمل مجازاً في الإعراض عن الشيء.([2]) مبالغة في تشنيع فعلهم، وسوء صنيعهم تجاه دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم.

(**889**) فَيَها أن الحكم شامل بِنَفْيِ الْإِيمَانِ عن جَمِيعَ الْقَائِلِينَ تلك المقالة، وَيَنْدَرِجُ تَحْتَهُمْ مَنْ تَوَلَّى انْدِرَاجًا أَوَّلِيّاً.([3])

---

1 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 571/1

2 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 72

3 ينظر فتح القدير، 52/4

(**890**) فيها نفي الإيمان الحقيقي عن المنافقين، لكونهم كذبوا الحق بباطنهم، ولو أظهروا خلاف ذلك، فإن صدق الإيمان الباطني يثمر صدق الإيمان الظاهري، وهو الاستسلام لله في القول والعمل.

(**891**) تفيد أن الإيمان الذي يصدر عن صحة معتقد، وطمأنينة نفس، وسلامة صدر، لم يتعقبه التولي والإعراض.([1])

(**892**) في التعبير باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ ما يدل على البعد إشعاراً ببعد مترلتهم في الكفر والجحود والعناد.

(**893**) تفيد (أَلْ) التعريفية في قوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عَرَفْتَ، وهم الثابتون المستقيمون على الإيمان، والموصوفون في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ۝١٥ ﴾ [الحجرات: 15]([2])

(**894**) فيها أن أفضل أحوال الإيمان، وأكمل صفاته؛ هو ما توافق ظاهره مع باطنه، وظهرت ثماره على جوارح صاحبه، قولا، وفعلا، علماً، وعملاً، فكراً وسلوكاً.

(**895**) تفيد أن من أبرز آثار الإيمان: ذكر الله تعالى على كل حال، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كل موطن، والاستجابة له في كل أمر.

(**896**) تفيد أن القضاء العادل الذي تحققه شريعة الله والعاملون بها هو وحده الكفيل بإزالة أسباب الخلاف سواء كانت في أمور الدين، أم في مصالح الدنيا.

(**897**) فيها أن الإيمان بالله تعالى وبالرسول صلى الله عليه وسلم، مقرون بطاعتهما، وأن طاعة الله ورسوله ميدانها العمل والإقبال على ما أمر الله به، ورسوله صلى الله عليه وسلم، في السراء والضراء، واليسر والعسر، والمنشط والمكره.

(**898**) تفيد اللام العهدية في قوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المؤمنين حقيقة وصدقاً، أي ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالصدق والإخلاص والثبات عليه.

---

1 ينظر الكشاف للزمخشري، 732/18

2 الكشاف للزمخشري، 733/18

(**899**) في نفي الإيمان بهذا المعنى عنهم، مقتض لنفيه عن الفريق -الذي سيأتي الحديث عنه في الآية الآتية- على أبلغ وجه وآكده ولذا اختير كون الإشارة إليهم.

(**900**) تدل على شرف الإيمان، وأنه المعيار الرباني للحكم على الإنسان، إما بعلو مكانته، وسمو مترلته، أو بسفوله وذلته وحقارته، فبالإيمان تدرك حقيقة الإنسان في جانبه المعنوي...

- **الآيـــة الثامنة والأربعون:** ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**901**) تفيد في مناسبتها بما قبلها أن الله تعالى لما فضح هؤلاء المنافقين بما أخفوه من توليهم، قبح عليهم ما أظهروه، فقال معبراً بأداة التحقيق: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ ﴾([1])

(**902**) في هذه الآية بيان لما فى قلوب هؤلاء المنافقين من نفاق.. فهم مؤمنون، إذا كانت ريح الإيمان تدفع سفينتهم إلى الوجهة التي يريدونها.. وهم غير مؤمنين، إذا تعارضت ريح الإيمان مع أهوائهم وشهواتهم.([2]) وما أكثر هؤلاء في عصرنا هذان نسأل الله السلامة والعافية.

(**903**) يستفاد من الآية حسب سبب نزولها أَنَّ رَجُلًا من الْمُنَافقِينَ كَانَ يُقَالُ لَهُ بِشْرٌ، كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ من الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، وَكَانَ الْيَهُودِيُّ يَدْعُوهُ إِلَى التَّحَاكُمِ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَكَانَ الْمُنَافِقُ يَدْعُوهُ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَحِيفُ عَلَيْنَا، وَكَانَ الْمُنَافِقُ إِذَا تَوَجَّهَ عَلَيْهِ الْحَقُّ دَعَا إِلَى غَيْرِ النَّبِيِّ، وَإِذَا كَانَ لَهُ الْحَقُّ دَعَاهُ إِلَيْهِ لِيَسْتَوْفِيَهُ لَهُ؛ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهِ.([3])

(**904**) تفيد أن هؤلاء المنافقين إذا دُعوا إلى حكم في كتاب الله، أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون الفصل فيما اختصموا فيه، إذا بهم يعرضون عن قبول الحق والرضا به؛ وفي ذلك تحذير للمؤمنين من أن يتشبهوا بهم، أو يكونوا مثلهم، مهما كانت الدواعي.

(**905**) تفيد الجملة الشرطية شرحاً للتولي ومبالغة فيه، حيث أفادت مفاجأتهم الإعراض عقب الدعوة دون الحكم عليهم، مع ما في الجملة الاسمية الواقعة جزاء من الدلالة على الثبوت والاستمرار.([4])

---

1 ينظر نظم الدرر، 296/13

2 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1308

3 جامع البيان عن تأويل القرآن، 204/19

4 ينظر روح المعاني، 9 / 387

(**906**) فيها إنما يدعون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنَّه المباشرُ حقيقةً للحكمِ وإنْ كانَ ذلك حكمَ الله حقيقةً، وفي هذا عدم الاستهانة بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(**907**) في ذكر الله تعالى لرسوله مقروناً به في الدعوة إلى حكمه تعالى في الأصل، تفيخماً له صلى الله عليه وسلم، وإيذاناً بجلالةِ محلِّه، وشرف منزلته عندَهُ سبحانه تعالى.

(**908**) في جَعْل الدعاء إلى الله ورسوله كليهما، مع أنهم دعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن حكم الرسول صلى الله عليه وسلم حكم الله، لأنه لا يحكم إلا عن وحي. ولهذا الاعتبار أفرد الضمير في قوله: ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ العائد إلى أقرب مذكور و لم يقل: ليحكما.([1])

(**909**) كما تفيد أن يكون الضمير عائداً إلى ما يُفهم من الكلام، أي المدعو إليه، وهو شامل لله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، لكن المباشر للحكم هو الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر الله تعالى على الوجهين لتفخيمه عليه الصلاة والسلام والإيذان بجلالة محله عنده تعالى وأن حكمه في الحقيقة حكم الله عز وجل.([2])

(**910**) في ذكرِ اسمَيْن متعاطفيْن، والحكم إنما هو لأحدهما، إفادة قوة اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه، وأنهما بمنزلة شيء واحد بحيث يصح نسبة أوصاف أحدهما وأحواله إلى الآخر.

(**911**) تفيد قراءة البناء للفاعل لكلمة: ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾([3]) بيان العلة من إنزال القرآن الكريم، وهي الفصل والحكم بين الناس، والضمير يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم فهو الحكم الدنيوي بكتاب الله، ويجوز أن يعود على الله عز وجل مع أن المصود الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك لبيان منزلته.([4]) وأنه يحكم بحكم الله القائم على الحق والعدل.([5])

(**912**) تفيد قراءة البناء للمفعول ﴿ لِيُحْكَمَ ﴾ الغاية من إنزال القرآن الكريم وهي الحكم به، لاشتماله على البيان الفصل في كل أمر.

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 270

2 ينظر روح المعاني، 386/9

3 قرأ أبو جعفر (لِيُحْكَمَ) بضم الياء وفتح الكاف على ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون (لِيَحْكُمَ) بفتح الياء وضم الكاف على البناء للفاعل. (ينظر: النشر، 727/2)

4 ينظر روح المعاني، 9/ 386

5 ينظر تفسير القرآن بالقراءات العشر القرآنية، 8/ 48

(**913**) يفيد الجمع بين القراءتين لكلمة: ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أن الله جعل الحكم وفق كتابه مساوياً لحكمه جل وعلا، وأنه أنزل كتابه حاكماً وفيه الحكم.([1])

(**914**) فيها دلالة على أن من ادَّعَى على غيره حقّاً، ودعاه إلى الحاكم، فعليه إجابته والمصير معه إليه؛ لأن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ معناه: إلى حكم الله.

قال الجصاص: (حدثنا عبد الباقي بن قانع -بسنده- عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، أن الأغرَّ الجهني قال: جئت أسْتَعْدِي رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل لي عليه شطر تمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: ((اذْهَبْ مَعَهُ فَخُذْ لَهُ حَقَّهُ))([2])

(**915**) في التعبير ب:"بَيْنَهُمْ" ﴿ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ دون عليهم، لأن المتعارف قول أحد المتخاصمين للآخر: اذهب معي إلى فلان ليحكم بيننا، لا عليك وهو الطريق المنصف، وقيل: هذا الإعراض إذا اشتبه عليهم الأمر، ولذا قال سبحانه: ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾ لا عليهم وفي ذلك زيادة في المبالغة في ذمهم.([3])

(**916**) تدل كذلك على أن من أتى الحاكم فادَّعَى على غيره حقّاً، أن على الحاكم أن يعديه ويحضره ويحول بينه وبين تصرفه وأشغاله. قال الجصاص: (حدثنا عبد الباقي -بسنده- عن رَوْحُ بن عطاء عن أبيه عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ دُعِي إِلى سُلْطَانٍ فَلَمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالِمٌ لا حَقَّ لَهُ))([4])

(**917**) في الآية دليل على وجوب الاستجابة إلى القاضي العالم بحكم الله، العادل في حكمه، لأن العلماء ورثة الأنبياء، ذلك أن الحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب والسنة، العادلين في القضاء هو حكم بحكم الله ورسوله، فالداعي إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى الله ورسوله.([5])

(**918**) فيها وعيد شديد لمن يعيب الداعين إليه ورسوله في الفتوى والأحكام، إذ لا يجوز أن يحكم فيهما وَلا في غيرهما إلا هما، والخلق تبع لهما.

---

1 ينظر تفسير القرآن بالقراءات العشر القرآنية، 8/ 48

2 أحكام القرآن للجصاص، 5/ 190

3 ينظر ورح المعاني، 387/9

4 أحكام القرآن للجصاص، 190/5

5 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 74

(**919**) تفيد أن المريب الظالم في الخصومة يعرض عن الحق، ويجتهد في الفرار عن حكمه، لعلمه أنه سيفضحه، لأن الحق ليس معه.

(**920**) تفيد أن سبب الإعراض عن حكم الله تعالى، وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم هو الهوى، لعلم صاحب الخصومة أن الحق عليه، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع، لا بما يوافق هواه وأغراضه.

(**921**) فيها أن الرضى بحكم الله ورسوله دليل الإيمان الحق، وميزان الصدق في الاستجابة لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

(**922**) تفيد أن الاستجابة لله تعالى، والرضى بحكمه، والتسليم لأمره، هو المظهر الذي ينبيء عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: 65]

(**923**) فيها أن الاستجابة لحكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، هي الأدب الواجب مع الله ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي يقتضيه الإيمان.

(**924**) تفيد أن الاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم والإذعان لحكمه، هي استجابة لله تعالى وحكمه، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال: 20] وغيرها من الآيات الكثيرة في هذا الباب.

(**925**) فيها أن الاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم وحكمه، ليست مقصورة على فترة حياته، بل هي ممتدة إلى ما بعد وفاته، بالاحتكام إلى سنته وتطبيق شريعته.

(**926**) تفيد أنه لا يرفض حكم الله تعالى وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم، إلا سيىء الأدب معتم، لم يتأدب بأدب الإسلام، و لم يشرق قلبه بنور الإيمان.

(**927**) فيها أن الدعوة إلى حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، هي موضع الكشف عن ضمائر المدعوين، هل سيستجيبون ويخضعون لحكم الله ورسوله أم لا.

(**928**) في الآية تحديد معيار دقيق لا يتخلف يميز المؤمنين من المنافقين، والمهتدين من الضالين، ألا وهو النظر إلى موقف كلا الفريقين من التحاكم إلى الله ورسوله، فمن تقبل حكم

الله ورسوله، بالطاعة والإذعان، سواء كان له أو عليه، إيماناً منه بأن الله تعالى هو أحكم الحاكمين، ولا يظلم ربك أحداً، كان مؤمناً حقاً وصدقاً، ومن رفض حكم الله ورسوله متى كان ذلك الحكم عليه لا له، وإذا كان له لا عليه أظهر الطاعة والإذعان، كان منافقا خارجا عن حظيرة الإيمان.([1])

(**929**) فيها تنديد بأهل النفاق، فإن حالتهم هذه إنما هي دليل مرض في قلوبهم، أو ريبة وشكّ، أو خوف من جور الله عليهم ورسوله في الحكم. وليست هذه حالة المؤمن المخلص الصادق وإنما هي حالة الباغي الظالم.([2])

(**930**) تفيد أن الإعراض عن شريعة الله تعالى، واستبدالها بشرائع البشر للحكم بها، والتحاكم إليها، دليل على وجود صفة النفاق فيمن يتولون ذلك.

(**931**) تدل على أنه إذا جاء حكم الله وبيانه في أمر من الأمور، بطل حكم البشر، مهما كانت الدواعي، ففي حكم الله مصلحة البشر وصلاحهم.

(**932**) تشير إلى أنه لا اجتهاد مع وجود نص شرعي، إذا كان واضح الدلالة، وحكمُه قولا فصْلا في المسألة.

(**933**) تدل على شناعة استبدال حكم الله تعالى، بحكم البشر من أصحاب الهوى، والأغراض الدنيوية، لما في ذلك من الاعتراض على الله تعالى، الذي يدل على خَرْم توحيد الله في ألوهيته، وعدم الرضى بقضائه، والتسليم لأمره في حكمه.

(**934**) تدل على اطراد هذه الصفة في المنافقين في كل زمان ومكان، فهي قاعدة ربانية، وكلية قرآنية لا تتخلف، فها نحن نرى اليوم أن هذه الصفة تتجلى في أوضح صورها عند منافقي هذا العصر، فحينما يدعون إلى حكم الله ورسوله فيما يعارض هواهم وشهواتهم، تراهم يعرضون بشتى أنواع الإعراض، فمرة بتأويل نصوص الشرع وتحريفها، ومرة بالقول بعدم صلاحيتها لزماننا، ومرة بركوب قضية المصالح والمقاصد، ومرة، ومرة.. والهدف واحد، هو الإعراض عن حكم الله ورسوله.

---

1 التيسير في أحاديث التفسير، للشيخ المكي الناصري، 281/4

2 ينظر التفسير الحديث، 432/8

- **الآية التاسعة والأربعون:** ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية

(**935**) تفيد في علاقة بما قبلها، أن المنافقين إنما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم، أو شكّوا، فأما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض، بل سارعوا إلى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا، وفي ذلك دلالة على أنه ليس بهم اتباع الحق، وإنما يريدون النفع المعجل وذلك أيضاً نفاق)([1])

(**936**) تفيد أن المنافقين يوقنون بعدْل حكم الله ورسوله صلى الله عليه سلم، بدليل قوله تعالى عنهم: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴾أي مسرعين منقادين. والإذعان سهولة الانقياد.([2])

(**937**) فيها أنهم لو كانوا يعلمون أنه يقضي بالجور لما كانوا يأتونه صلى الله عليه وسلم للقضاء، وإن كان الحق لهم مخافة الجور والظلم عليهم.

(**938**) فيها أن المنافقين في حقيقة أمرهم لا يريدون الحق، وإنما يريدون ما يوافق هواهم وأغراضهم الذاتية، ومصالحهم الشخصية.

(**939**) تفيد أن إذعانهم وانقيادهم لحكم الله ورسوله، حينما يذعنون، لا يعني أنهم يقبلون ذلك الحكم إيماناً، وإنما حيث وافق هواهم ومصلحتهم.

(**940**) فيها دلالة على أنه ليس بهم اتباع الحق لأنه حق يجب اتباعه والخضوع إليه، وإنما يريدون النفع المعجّل، وهذا نفاق خطير، يجب على المؤمن الحذر من أن يقع فيه.

(**941**) تفيد أن الإعراض عن حكم الله ورسوله، هو سمة المنافقين ومرضى القلوب والنفوس، في كل زمان ومكان.

(**942**) تفيد أن اللجوء إلى حكم الشريعة عند ما توافق الهوى والمصلحة الشخصية، والإعراض عنها عندما تخالف ذلك، من صفات المنافقين التي ذمها الله تعالى.

---

1 ينظر مفاتيح الغيب، 11/ 360

2 المفردات في غريب القرآن، مادة (ذعن)

(**943**) تشير إلى طبيعة من طبائع البشر وهي الحرص على المنفعة الذاتية، والمصلحة الشخصية، حتى ولو كانت فيها مخالفة الشرع، وأخذ حقوق الآخرين، إلا من تمكن الإيمان من قلبه، وآثر الآخرة على الدنيا.

(**944**) هناك من يبحث في النصوص الشرعية عن براهين لقناعاته السابقة، فهو يعتقد أولاً، ثم يبحث عما يثبت به ذلك المعتقد، لكن المنتفع بالوحي حقاً وصدقاً، هو من تجرّد للحق وأخلص له وانقاد.

(**945**) تفيد أنه يجب على المؤمنين الاحتكام إلى شريعة الله، والانصياع لأحكامه، بنفوس راضية وقلوب مطمئنة، لأن ذلك عين مصلحتهم ومنفعتهم في الدنيا والآخرة.

(**946**) فيها أن شريعة الله تعالى هي شريعة الكمال والعدل، وهي سعادة للبشرية في الدنيا والآخرة، وفي الإعراض عنها شقاوة النفوس في الدنيا والآخرة.

(**947**) تشير إلى أن الحقوق إنما سُميت حقوقاً لأنها حق لأهلها، ولذلك فالحق يجب أن يأخذه صاحبه، وإلا انقلب إلى باطل عند مَن أخذه من غير طريقه.

(**948**) فيها تنفير وتحذير من أخذ حق الآخرين، مهما كانت الدواعي، فالحقوق لأهلها، ومن أخذ حق غيره أُخذ منه يوم القيامة، مع ما سيجازى به على ظلمه.

(**949**) فيها دليل على أن مَن دُعي إلى حاكم فعليه الإجابة ويُحْرَجُ إن تأخر. وقد روى أبو الأشهب عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ دُعِيَ إِلَى حَاكِمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالِمٌ لَا حَقَّ لَهُ))([1])

(**950**) فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ الْإِجَابَةِ إِلَى الْقَاضِي الْعَالِمِ بِحُكْمِ اللَّهِ، الْعَادِلِ فِي حُكْمِهِ، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْحُكْمُ مِنْ قُضَاةِ الْإِسْلَامِ الْعَالِمِينَ بِحُكْمِ اللَّهِ الْعَارِفِينَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الْعَادِلِينَ فِي الْقَضَاءِ هُوَ حُكْمٌ بِحُكْمِ اللَّهِ، وَحُكْمِ رَسُولِهِ، فَالدَّاعِي إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَيْهِمْ قَدْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، أَيْ: إِلَى حُكْمِهِمَا.([2])

---

1 ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، 198/4، ورواه الطبراني عن الحسن عن سمرة، كما في الدر (6/ 213) وفي سماع الحسن من سمرة خلاف مشهور، ولكن الحديث له شاهد مرسل عن الحسن رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر وعبد بن حميد كما في الدر (6/ 213) ولفظه: ((من كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم لا حق له)) (نقلا عن محقق النكت والعيون للماوردي السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم.4/ 116)

2 ينظر فتح القدير، 4/ 54

(**951**) فيها دعوة للحكم بين المتخاصمين بما أنزل الله، حتى ولو كان الحق على المسلم، إن كانت المخاصمة بينه وبين الكافر، فضلا عن المخاصمة بين المسلمين أنفسهم.

(**952**) تدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أعدل الناس، ولذلك كان هؤلاء المنافقون أسرع الناس إلى حكمه عند ما يكون الحكم لهم، لتيقنهم في عدله صلى الله عليه وسلم.

(**953**) فيها إشارة إلى مراقبة الله تعالى لعباده، وعلمه ببواطنهم، فيما ينوون الإقدام عليه بالحق أو بالباطل، فهؤلاء المنافقون ما فضح أمرهم إلا الله تعالى حينما وصف حالهم تجاه حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهو ما يفيده قوله تعالى:﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ كوناً ثابتاً جداً على سبيل الفرض.

(**954**) تشير إلى أنه ليس كل مَن ادعى حقاً يُعطاه، بل لا بد من التحاكم إلى الحق، بالنظر إلى البينات، والقرائن الواضحات، مع التحذير والترهيب لمن أخذ حقاً لغيره بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

(**955**) تشير كذلك إلى أن الحقوق واضحة لمن طلبها بحق، لكن القلوب المريضة، والنفوس الجشعة يعميها الطمع، وعدم الخوف من الله تعالى، والوقوف بين يديه، فتأخذ ما ليس لها، وتطمع في الزيادة على حقها.

(**956**) تشير إلى أن أهل النفاق ومن شاكلهم يأخذون من الدين ما يوافق هواهم، فإذا رأيت منافقاً يستدل بآية على أمر ما، أو يرجع إلى الدين في مناسبة ما، إنما ذلك لنصر فكرته، وتحقيق منفعته، فهم يأخذون من الدين ما لهم، ويتركون ما عليهم.

(**957**) تدل على أن المنافقين لا مبدأ لهم ولا عقيدة، فهم مع المسلمين فيما لهم، ومع غيرهم فيما لهم كذلك، فإذا أصبح الأمر عليهم، وانعدمت مصلحتهم، فهم ليسوا مع هؤلاء ولا أولئك، بل مترقبون، فلا يغتر بهم في هذا الاتجاه أو ذاك، فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

(**958**) تدل على أن أشنع ما في النفاق هو الروغان والتلوّن في المواقف، وإظهار خلاف الباطن، والحِيل في التعامل مع الدين..، وهي كلها صفات تناقض أركان الإيمان وشروطه وأغراضه، من الصدق، والإخلاص، والثبات.

- **الآية الخمسون:** ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية

(**959**) في مناسبتها بما قبلها أنه لما كان سبب فعلهم هذا بعد إظهارهم الطاعة مشكلاً، ناسب أن يسأل عنه، فقال تعالى مبيناً له بعد التنبيه على ما يحتمله من الحالات: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ...﴾ ([1])

(**960**) في سياق بما قبلها؛ كلام مستأنف مسوق لتقسيم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم؛ بين: أن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو مرتابين، في أمر نبوته، أو خائفين أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله، وكل ذلك يدل على فساد ادعائهم الإيمان والطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

(**961**) تفيد في صلة بما قبلها، أن المنافقين لما كان شأنهم مع الاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم، والاحتكام لأمره، شأناً عجيباً، استؤنف عقبه بالجملة ذات الاستفهامات المستعملة في التنبيه على أخلاقهم، ولفت الأذهان إلى ما انطووا عليه، والداعي إلى ذلك أنها أحوال خفية لأنهم كانوا يظهرون خلافها.([2])

(**962**) فيها إنكارٌ واستقباحٌ لإعراضِهم المذكورِ، وبيانٌ لمنشئه بعد استقصاء عدَّةٍ من القبائح المحقَّقةِ فيهم، والمتوقَّعةِ منهم وترديدِ المنشئية بينها.([3]) وفي ذلك تحذير شديد لغيرهم في كل زمان ومكان.

(**963**) يفيد هذا التساؤل المتكرر أن تنفيذ أحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه، التي فصلت وشرحت في السورة؛ من آيات الإيمان، وأن ترك هذه الأحكام، أو تعطيلها اتهام لله تعالى بالحيف، واتهام لدينه بالانحراف، ولا يصدر ذلك إلا من مريض القلب خبيث النفس.

---

1 ينظر نظم الدرر، 297/13

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 270

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 187/6

(**964**) تفيد أن سبب إعراض المنافقين عن التحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يخرج عن أسباب ثلاثة: أن يكون في القلوب مرض لازم بالكفر والنفاق، أو عروض شك في الدين، أو خوف من أن يجور الله ورسوله عليهم، وأياً كان الأمر فهو كفر وضلال، والله عليم بما انطوت عليه قلوبهم.

(**965**) يفيد تتابع الاستفهامات بحرف ﴿أَمَ﴾ المتكرر في هذه الآية، الإضراب الانتقالي المنقطع، كشأنه في الجمل الاستفهامية، فإنه إذا عُطف به الجمل لم يكن لطلب التعيين، كما هو في عطف المفردات، والانتقال هنا تدرج في عدّ أخلاقهم. فالمعنى أنه إن سأل سائل عن اتصافهم بخلق من هذه المذكورات علم المسؤول أنهم متصفون به.([1])

(**966**) في هذه الآية: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ...﴾ من البلاغة فن يقال له: صحة التقسيم، فإنها لم تبق قسماً يقع في القلوب من الصوارف عن القبول إلا جاءت به، ألا ترى أنه تعالى بعد قوله ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ذكر الريبة، لأنه لا بد أن يكون الصارف عن الإجابة، فحكم الله ورسوله إما إبطان الكفر وإظهار الإسلام، وهو: المرض، أو التشكك والتردد والتذبذب في حكم الله هل هو جارٍ على العدل، أو على غيره، وذلك هو: الريبة، أو يكون الصارف: خوف الحيف الذي لا يشعر به رجاء الانصاف، فلم يبق قسم من الصوارف حتى ذكر فيها.([2])

(**967**) تفيد الجملة الاسمية في جانب هذا الاستفهام: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الدلالة على ثبات المرض في قلوبهم وتأصله فيها، بحيث لم يدخل الإيمان في قلوبهم.

(**968**) إيراد الهمزة هنا: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ...﴾ للاستفهام التقريري، ويبالغ به تارة في الذم، وتارة في المدح، وهو هنا من النوع الأول.

(**969**) يفيد تكرر الاستفهام هنا التقرير، فهو يكشف عن العلل، التي تموج بها صدور أولئك المنافقين.. فليس داء واحداً هو الذي يخامر المنافق.. وإنما هو يعيش فى أكثر من داء، مما فى قلبه من مرض.

(**970**) فيها أن هذا المرض الذي عند المنافقين فى قلوبهم، من شأنه أن يفسد كلّ معتقد.. فلا يعتقد المنافق فى صحة رأى أو فساده إلا بالقدر الذي يجنى منه نفعا عاجلا.. إنه لا ميزان

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 271/18

2 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 640

عنده لخلق، أو رأى. أو دين.. إنه يدين بالدين الذي يمشى مع هواه.. ومن هنا، فهو فى ارتياب من كل شيء.. يلقاه متردداً متشككاً، ويقلّبه، كأنما يراه لأول مرة، ولو كان قد مرّ به ألف مرة.. لأن له فى كل مرة حالا معه، ورأياً فيه.([1])

(**971**) تفيد أن سبب جميع الأمراض المعنوية والنفسية، هو فساد القلوب، فمن فسد قلبه فسدت جوارحه، وفسدت أخلاقه، وقد تفسد عقيدته إذا بقي قلبه مريضاً وعلاه الران والعياذ بالله كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ)) ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]. ([2])

(**972**) يفيد مجيء الجملة الفعلية: ﴿ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ في الجانب الثاني من هذا الاستفهام، الحدوث والتجدد، أي حدث لهم ارتياب بعد أن اعتقدوا الإيمان اعتقاداً مزلزلا.

(**973**) تشير هذه الآية إلى أن هؤلاء المنافقين فريقان: فريق لم يؤمنوا ولكنهم أظهروا الإيمان وكتموا كفرهم، وفريق آمنوا إيماناً ضعيفاً، ثم ظهر كفرهم بالإعراض.([3])

(**974**) تفيد أن أهل النفاق مترددون بين الشك والعلم، فليس منهم بالقطع، ولا إثبات بالعلم، فهم مطوّحون في أودية الشك.([4])

(**975**) تفيد أن اتصاف المنافقين بهذه الأمور الثلاثة المذكورة في الآية، إنما هو ناشئ عن عدم تصديقهم الرسول صلى الله عليه وسلم، سواء في ذلك من حلت به قضية ومن لم تحل.

(**976**) فيها أن المنافقين دائماً في صراع مع أنفسهم وضمائرهم، ويحاولون مخادعة الناس بِالْتواءاتهم وكذبهم، حتى ترتاح ضمائرهم، وأنّى لهم ذلك.

(**977**) تفيد أن المنافق ضعيف النفس، مريض القلب، وهو يعيش في توتر دائم وخوف وهلع من فضح سريرته، وكشف مكنون صدره.

---

1 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1309

2 الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب بَاب وَمِنْ سُورَةِ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، حديث رقم: 3334، وقال: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) 434/5

3 ينظر المرجع نفسه، 271/18

4 ينظر لطائف الإشارات، 373/2

(**978**) تفيد أن المنافقين لا ينتفعون بآيات الله المعروضة عليهم، لمرض في قلوبهم، وكبر في نفوسهم، ومن كان كذلك أنّى لنور الآيات وهداياتها أن يدخل قلبه.

(**979**) فيها أن الفطرة إذا اختلت عند امرئ، وانحرف عن الجادة، فإن المرض يعشش في قلبه، فلا يتذوق حلاوة الإيمان، ولا يسير على نهجه القويم، وطريقه المستقيم.

(**980**) تفيد أن أخطر أنواع الأمراض إنما هو مرض القلوب، من الشك والكبر والجحود، لأن هذا المرض تختل به الفطرة وتنحرف عن استقامتها، فلا تدرك حقيقة الإيمان ولا تذوق حلاوته، ولا تسير على نهجه القويم.

(**981**) تفيد أن أي خوف على هذه الحياة، إنما هو ناشئ عن عدم الثقة في الله، الخالق المدبر لأمور عباده، العالم لحاجتهم وما يصلح لهم.

(**982**) تفيد أن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك، وأن منهج الإسلام في الدعوة والتربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية.([1])

(**983**) تفيد أن المؤمن حقاً وصدقاً هو الذي يعظم حكم الله تعالى، ويوقن بعدله ورحمته، ولا يصدر في أي شأن من شؤونه، إلا عن علم بحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، لأنه يعتقد أن الخير كل الخير والسعادة كل السعادة في ذلك.

(**984**) فيها أن أي صلاح أو استقامة لدى العبد إنما أساسها صلاح قلبه واستقامته، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ))([2])

(**985**) تفيد أن سلامة الإنسان ونجاته في الدنيا والآخرة، قائم على سلامة قلبه لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ ﴾ [الشعراء:88،89]

---

1 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2525

2 البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه. حديث رقم:52. ومسلم كتاب المساقاة، بَابُ أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ. حديث رقم: 4178.

(**986**) فيها دليل على أَنَّ الْمُنَافِقِينَ إنما اتُّصِفُوا بِهَذِه الْأُمُورِ الثَّلَاثَة وَكُلُّهَا نَاشِئَةٌ عَنْ عَدَمِ تَصْدِيقِهِمُ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم سَوَاءً فِي ذَلِكَ مِنْ حَلَّتْ بِهِ قَضِيَّةٌ وَمَنْ لَمْ تَحُلَّ.([1])

(**987**) يفيد (بل) في قوله تعالى: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الإضراب الانتقالي من الاستفهام التنبيهي إلى خبر آخر. ولم يؤت في هذا الإضراب ب (أَمْ) لأن (أَمْ) لا بد معها من معنى الاستفهام، وليس المراد عطف كونهم ظالمين على الاستفهام المستعمل في التنبيه، بل المراد به إفادة اتصافهم بالظلم دون غيرهم، لأنه قد اتضح حالهم فلا داعي لإيراده بصيغة استفهام التنبيه.

(**988**) لا يفيد حرف (بل) هنا معنى الإبطال لما سبق، لأنه لا يستقيم إبطال جميع الأقسام المتقدمة فإنها ثابتة فيهم، متأصلة من نفوسهم، ولا دليل على قصد إبطال القسم الأخير خاصة، ولا على إبطال القسمين الآخرين، بل هو إبطال لحصر أن يكون أحد هذه الأمراض، هو سبب إعراضهم عن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عليهم، وإسراعهم إليه لو كان لهم. بل إن قلوبهم مطبوعة بهذه الأمراض كلها، فاستحقوا بذلك أن يوصفوا بالظلم وصفاً ثابتاً لأنه مجمع الأمراض كلها.

(**989**) يفيد قوله تعالى: ﴿ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ استئنافاً بيانياً لحالهم، لأن السامع بعد أن طنت بأذنه تلك الاستفهامات الثلاثة، ثم أعقبت بحرف الإضراب، يترقب ماذا سيُرسي عليه تحقيق حالهم فكان قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ بياناً لما يترقبه السامع.([2])

(**990**) تفيد أن النفاق من أخطر أنواع الظلم التي يقع فيها الإنسان، لأنه ارتكاس في الفطرة وقلب للحقائق.

(**991**) في قوله تعالى: ﴿ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ إشارة إلى أن هذه الأمراض الخبيثة التي يعيش فيها المنافقون، إنما تنتهي بهم إلى أخسر صفقة، وهي الظلم الذي هم أول ضحاياه.

(**992**) يفيد قوله تعالى: ﴿ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أن هذا الظلم هو ظلم الكفر لا ظلم المعصية المذكور، في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:82]([3])

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 272

2 ينظر المرجع نفسه، 272/18

3 ينظر تفسير ابن عرفة، 3/ 229

(**993**) تفيد أن المنافقين هم الظالمون لأنفسهم بالضلال الذي اختاروه، وهم الظالمون لأنهم اختاروا الحكم الظالم، وتجانفوا عن الحق للإثم، وقد أكد الله تعالى ظلمهم بالجملة الاسمية ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وبقصرهم على الظلم، وقصر الظلم عليهم، وبكلمة (هم) ضمير الفصل المؤكدة لظلمهم.([1])

(**994**) فيها أن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف. لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً. وكل خلقه أمامه سواء، فلا يظلم أحد منهم لمصلحة أحد. وكل حكم غير حكمه هو مظنة الحيف. فالبشر لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم. أفراداً كانوا أم طبقة أم دولة.([2])

(**995**) فيها أن أشنع أنواع الكفر هو اتهام الله بالظلم في تشريعه، من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون الضالون المعتدون، ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وذلك لأن الله هو أعدل الحاكمين، وأحكم العادلين.

(**996**) تشير إلى أن الإيمان أمان لصاحبه؛ أمان له من مرض القلب والنفس، وأمان له من الخوف على الرزق والأجل والعمر، ومن الخوف من الظلم في القسمة، والخوف من الحكم له أو عليه؛ وأمان له من شر الدنيا والآخرة، لأنه سلم أمره لله السلام المؤمن، الحَكَم العدل سبحانه.

(**997**) في هذا الختام ﴿ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إيغال في الرد بالوصف والحصر والخصوصية؛ بأن الظلم الحقيقي هو وصف ثابت لهم، ليبقي ثبوته فيهم؛ وجوده في حكمه سبحانه.

(**998**) في هذا الوصف الختامي للآية كذلك؛ أن قلوب هؤلاء مطبوعة على المرض والريب، لا أن فيها نوعاً واحداً منه، ولذلك فهم ليسوا يخافون الجور، بل هو مرادهم حقيقة إذا كان الحق عليهم، لا لهم.([3])

---

1 ينظر زهرة التفاسير، 10/ 5212

2 في ظلال القرآن، 18/ 2526

3 ينظر نظم الدرر، 13 / 297

- **الآية الواحدة والخمسون:** ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**999**) تفيد في مناسبتها بما قبلها، أن الله تعالى لما ذكر في الآيات السابقة حالة المعرضين عن حكم الله ورسوله، والتحاكم شريعة الله، ما لم يكن الحق لهم، بيّن هنا حال المؤمنين المستجيبين لحكم الله ورسوله المسارعين لتنفيذه وتطبيقه، شعارهم في ذلك: ﴿ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾

(**1000**) تفيد في صلة بما قبلها أيضاً، أن الله تعالى لما حكى قول المنافقين وما قالوه وما فعلوه، أتبعه بذكر ما كان يجب أن يفعلوه، وما يجب أن يسلكه المؤمنون، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ([1])

(**1001**) في سياقها بما قبلها أن الله تعالى لما نفى عن المنافقين، ومَن على شاكلتهم، الإيمان الكامل بما وصفهم به، كان كأنه سبحانه سئل عن حال المؤمنين الحقيقيين فقال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دائماً وأبداً وفي كل أحوالهم: ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

(**1002**) تفيد دقة التناسب الذي يظهر في عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل، والتنبيه على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي.([2])

(**1003**) يفيد هذا الاستئناف في الآية أيضاً، الثناء على المؤمنين الأحقاء، بضد ما كان ذماً للمنافقين. وذلك من مناسبات هذا الاستئناف على عادة القرآن في إرداف التوبيخ بالترغيب، والوعيد بالوعد، والنذارة بالبشارة، والذم بالثناء.([3])

---

1 ينظر مفاتيح الغيب، 361/11

2 ينظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 112/4

3 ينظر التحرير والتنوير، 274/18

(**1004**) تفيد أداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ أن المؤمنين حقاً وصدقاً لا يكون موقفهم إذا دُعوا لحكم الله ورسوله، إلا السمع والطاعة، وسرعة الاستجابة: ﴿ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ﴾

(**1005**) تفيد صيغة الحصر كذلك ﴿إِنَّمَا﴾ لدفع أن يكون مخالف هذه الحالة في شيء من الإيمان وإن قال بلسانه إنه مؤمن، فهذا القصر إضافي، أي هذا قول المؤمنين الصادقين في إيمانهم لا كقول الذين أعرضوا عن حكم الرسول صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾ [النور : 47] فلما دعوا إلى حكم الرسول عملياً عصوا أمره.([1])

(**1006**) تفيد أنه لم يُعْنَ ب:﴿كَانَ﴾ في هذا الموضع: ﴿ إِنَّمَا كَانَ ﴾ الخبر عن أمر قد مضى فيقضى، ولكنه تأنيب من الله تعالى الذي أُنزلت هذه الآية بسببهم وتأديب منه آخرين غيرهم.([2])

(**1007**) يفيد نصب ﴿ قَوۡلَ ﴾(3) الذي قرأ به الجمهور: إنما كان الواجب أن يقوله المؤمنون إذا دُعُوا إِلَى حكم اللَّهِ وَرَسُولِه سَمِعْنا وَأَطَعْنا، فكأن هذه ليست إخباراً عن ماضي زمن، وإنما كقول الصدّيق رضي الله عنه: (ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم)([4]) ومن ثم فقراءة الجمهور أقوى، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ [آل عمران: 147] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ ﴾ [الأعراف: 82]

(**1008**) فيها بيان لما يجب أن تكون عليه حالة المؤمنين المخلصين الصادقين، إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، حيث يلبون الدعوة بدون تردد، ويقولون سمعنا وأطعنا.([5])

---

1 التحرير والتنوير، 18/ 274

2 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 19/ 206

3 وقرأ علي بن أبي طالب والحسن، وابن أبي إسحاق {قولُ} بالرفع. واسم {كان} في قراءة الجمهور هو {أن يقولوا سمعنا وأطعنا} وهو أعرف من قول المؤمنين الذي جعلناه خبراً لكان، قال أبو الفتح: وهو أعرف لأن {أن} وصلتها تشبه المضمر من حيث لا يجوز وصفها كالمضمر، والمضمر أعرف من قول المؤمنين، وقال أبو حيان: هو أعرف لأنه لا سبيل عليه للتنكير. عن: (المحرر الوجيز لابن عطية، 191/4)

4 ينظر المحرر الوجيز، 4/ 191

5 التفسير الحديث، لمحمد عزة دروزة، 432/8

(**1009**) تشير إلى الفاصل الحقيقي الذي يُميّز بين المؤمن الحق الصادق في إيمانه، وبين الذي يدعي، أو يرائي بإيمانه، حين يُدعى إلى حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

(**1010**) تفيد وجوب السمع والطاعة لله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال: 20] وغيرها من الآيات الكثيرة في هذا الباب.

(**1011**) من جمال هدايات هذه الآية أنها فيها حصر لتلك الصورة المشرقة لإيمان المؤمنين، وما فى قلوبهم من صدق ويقين، على ما تفيده أداة الحصر (إنما) وكذلك (أل) في المؤمنين.

(**1012**) تفيد وجوب الاستجابة وسرعة الانقياد لأمر الله تعالى، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، لأن في ذلك حياة القلوب، وفوز النفوس، وسعادة الأرواح، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: 24]

(**1013**) تفيد أن السمع والطاعة، هما محور ميثاق الإيمان بالنسبة للمؤمن، وشعاره في هذا الحياة في كل أمر أو نهي.

(**1014**) تفيد أن الأقوال والأفعال هما محك الإيمان وميدانه العملي، وإلا فما أسهل الدعوى إن لم تُتَرْجَم إلى العمل والسلوك. ولذلك قُرِن الإيمان بالعمل الصالح في عشرات الآيات القرآنية.

(**1015**) فيها دليل على فلاح مَن يدبر الله له أمره بحكمته وعلمه ورحمته، فيرضى بذلك ويسلّم، ويطمئن إلى عدالة حكمه القويم، ومنهجه السالك السليم، لا يمزقه الهوى ولا تقوده الشهوات.

(**1016**) فيها وجوب الحضور على من دعي لحكم الشرع، وتحريم الامتناع، واستحباب أن يقول: سمعنا وأطعنا.([1])

(**1017**) فيها تنبيه وتحذير للمؤمنين من الوقوع فيما وقع فيه أهل النفاق، من عدم الاستجابة لأمر الله ورسوله، أو الإعراض عن ذلك.

---

1 الإكليل في استنباط التنزيل للإمام السيوطي، نقلا عن محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي، 401/7

(**1018**) فيها إشارة إلى أن شأن المؤمنين الحقيقين، يخالف شأن المنافقين في كل أمر من أمور حياتهم، استناداً لذلك الميثاق المقدس بينهم وبين ربهم؛ ميثاق الإيمان.

(**1019**) تفيد منهج المؤمنين في التعامل مع حكم الله ورسوله، هو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف. السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عداه الهوى؛ النابعان من التسليم المطلق لله، واهب الحياة، المتصرف فيها كيف يشاء؛ ومن الاطمئنان إلى أن ما يشاؤه الله للناس خير مما يشاءونه لأنفسهم. فالله الذي خلق أعلم بمن خلق سبحانه.([1])

(**1020**) فيها تعليم الأدب الشرعي عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر، وأن على المؤمنين أن يكونوا هكذا، إذا سمعوا الدعاء المذكور قابلوه بالطاعة والإذعان والإجابة.

(**1021**) فيها تنويه بالمؤمنين المستجيبين لأمر الله تعالى، وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثناء على طريقتهم وأحوالهم الإيمانية.

(**1022**) في مدح المؤمنين والثناء عليهم في سرعة الانقياد بالسمع والطاعة، زيادة حث وترغيب لهم في مواصلة السير للظفر بكمال السعادة والفوز والفلاح؛ وفي ذلك تعليم لنا بأن نثني ونقدر اجتهاد المجتهد وإقباله حتى يستمر في طريق السير، ولا يتوقف.

(**1023**) فيها أن هذا هو الأدب الشرعي الذي يجب أن يكون عليه المؤمن حقاً وصدقاً بمقتضى إيمانه في التعامل مع أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

(**1024**) فيها أمر، وتأديب، وتعليم، ووصف للحالة التي يجب أن يكون عليها المؤمن، مع حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم دائماً في كل شأن من شؤون حياته.

(**1025**) فيها تعريض بالمنافقين إذ يقولون كلمة الطاعة، ثم ينقضونها بضدها من كلمات الإعراض والارتياب، والمقصود من هذا الثناء على المؤمنين برسوخ إيمانهم وثبات طاعتهم في المنشط والمكره.([2])

(**1026**) تدل على أن حقيقة إيمان المؤمن إذعان قلبي، وانقياد إيرادي، يتمثل في الخضوع والطاعة لحكم الله ورسوله مع الرضا والتسليم، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿فَلَا

---

1 ينظر في ظلال القرآن، 2527/18

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 275

وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]

(**1027**) فيها بيان بأن الرضا بحكم الله ورسوله دليل الإيمان الحق، والمظهر الذي يجب أن ينبئ عن حقيقة الإيمان العملي واستقراره في القلب، والذي يتجلى في الجوارح استجابة وسمعاً وطاعة دون مناقشة أو تأخير.

(**1028**) تدل على أن الإيمان المطلوب ليس مجرد شعار يرفع، أو دعوة تدعى، بل هو أسلوب حياة متكامل للفرد والأمة، وهو قوة تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية([1]) وجهاد النفس من أجل ذلك.

(**1029**) في قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنينَ باعتبارِ صدورِ القولِ المذكُورِ عنهم، وما فيه من معنى البُعد، للإشعارِ بعلوِّ رُتبتِهم، وبُعدِ منزلتِهم في الفضل، أي أولئك المنعُوتون بما ذُكر من النَّعتِ الجميلِ ﴿ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي هم الفَائزون بكلِّ مطلبٍ والنَّاجُون من كلِّ محذورٍ.([2])

(**1030**) يفيد قوله تعالى: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ حصر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله.([3])

(**1031**) تفيد أنه لا طريق للنجاة والفلاح والفوز والسعادة، إلا في اتباع طريق الله وصراطه المستقيم، المتمثل في الاستجابة لأمره، والتحاكم إلى شريعته.

(**1032**) تشير إلى منزلة الصحابة رضي الله عنهم في سرعة استجابتهم لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: (أَخْبَرَ بِطَاعَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِيمَا يَكْرَهُونَ، أَيْ هَذَا قَوْلُهُمْ.)([4])

---

1 ينظر منهج القرآن في إصلاح المجتمع، 281، محمد السيد يوسف.

2 إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 188/6

3 تيسير الكريم الرحمن، 1/ 572

4 ينظر الجامع لاحكام القرآن، 12/ 294

(**1033**) في الآية فضل طاعة الله تعالى، وطاعة ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الفوز في الدنيا، والفلاح في الآخرة، مشروط بهذه الطاعة، كما سيأتي صريحاً في الآية الآتية.

(**1034**) تدل على جواز الثناء على أهل الصلاح والاستقامة، بقصد حثهم على الثبات على ما هم عليه والزيادة فيه، وكذا ترغيب الآخرين في سلوك طريقتهم، والاقتداء بأحوالهم والتشبه بهم واقتفاء أثرهم.

(**1035**) في ذكر جزائهم وفوزهم وفلاحهم؛ وربط العمل بذلك، شحذ لهممهم، وتثبيت لهم على مواصلة الطريق، وتيسير للعقبات التي قد تعترضهم، فمن عرف ما قصد هان عليه ما وجد، ومن دعي إلى المعالي ركب الصعاب العوالي.

- **الآية الثانية والخمسون:** ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1036**) تفيد في صلة بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً، ذكر فضلها عموماً، في جميع الأحوال، فقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ([1])

(**1037**) تفيد في مناسبتها بما قبلها أن الله سبحانه لما رتب الفلاح على هذا النوع الخاص من الطاعة، أتبعه عموم الطاعة فقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ في الإذعان للقضاء وغيره فيما ساءه وسره من جميع الأعمال الظاهرة.([2])

(**1038**) تفيد الواو العاطفة الاستئنافية في قوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ بيان أن من يتقي الله عز وجل، ويخشاه في السر والعلن، هو الذي يفوز حقاً وصدقاً في دنياه وأخراه.

(**1039**) فيها استئناف جميل لتقرير مضمونِ ما قبلها من حُسنِ حالِ المؤمنين، وترغيب مَن عداهُم في الانتظام في سلكِهم.

(**1040**) في الآية شرط وجزاء: ﴿وَمَن﴾ شرطية عامة، وجملة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ جواب الشرط، وتفيد حصْر الفوز والنجاة فيمن تحقق بهذه الشروط وهي: طاعة الله، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، مع تحصيل الخشية والتقوى.

(**1041**) تفيد صيغة الحصر التعريض بالذين أعرضوا إذا دعوا إلى الله ورسوله، وهي على وزن صيغة القصر التي تقدمتها في الآية السابقة.([3])

(**1042**) جمع الله في هذه الآية أصول أسباب الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، وهي: طاعة الله، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. وخشية الله تعالى، وتقواه.

---

1 تيسير الكريم الرحمن، 1/ 572

2 ينظر نظم الدرر، 13/ 299

3 ينظر التحرير والتنوير، 276/18

(**1043**) هذه الآية كلية من كليات القرآن فيما يخص السير إلى الله تعالى، إذ جمعت بين الخوف والرجاء، ففيها الاجتهاد في الطاعة، والخوف من الذنوب، وتقوى الله في السر والعلن.

(**1044**) تعتبر هذه الآية من جوامع كلم القرآن، فلم تدع حكماً من أحكام الإسلام إلا تضمنته فقد جمعت المنهاج كله.

(**1045**) يفيد عطف الخوف من الله وتقواه، على طاعته تعالى، مترلة الخوف والتقوى في السير إلى الله سبحانه، لأن من أطاع الله فقد خافه واتقاه، فهما داخلان تحت الطاعة، لكن الله خصهما بالذكر لمترلتهما، فهذا من باب عطف الخاص على العام.

(**1046**) تفيد أن مراقبة الله في السر والعلن، (الخشية والتقوى) هي روح الطاعة وضمان استمراريتها، لأنها جامعة بين مترلتي: الخشية، والتقوى.

(**1047**) في فائدة ذكر التقوى بعد الخشية مع أنها تتضمنها، لأن الخشية في الغالب تكون لما مضى من الذنوب، لتحمل العبد على الخير مع الخوف من عدم قبوله، بينما التقوى تكون فيما يستقبل بأن يجعل العبد بينه وبين ما يسخط الله وقاية من المباحات فيتركها ورعاً.

(**1048**) تفيد أن العبادة الكاملة، هي التي جمعت بين الظاهر والباطن، فقد ذكرت أعمال الجوارح، وهي الطاعة عموماً، ثم ذكرت أعمال القلوب وهي الخشية والتقوى.

(**1049**) فيها بيان للعباد أن الطريق الموصل إلى الله تعالى، والذي يضمن لهم النجاح، والفلاح في كل زمان ومكان، هو: طاعة الله ورسوله فيما أمرا به ونهيا عنه، وخشية الله واتقائه في كل قول وعمل في السر والعلن.

(**1050**) فيها ترغيب للدخول في عداد الطائعين، والمتابعة لهم في طاعة الله ورسوله، والخشية من الله عزّ وجلّ، والتقوى له، لما أكرمهم الله به من النعيم الدنيوي والأخروي، والفوز والنجاة.

(**1051**) اشتملت هذه الآية، على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو: الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو: الخشية والتقوى، وبقي الحق الثالث المختص

بالرسول، وهو التعزير والتوقير، كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: 9](1)

(**1052**) تفيد أن الخشية هي ميراث الإيمان وثمراته، وأساس التقوى، وهي غاية الطاعة والعبودية.

(**1053**) فيها أن التقوى هي زاد المؤمن عند تعرضه لفتنة الشهوات والشبهات، وعند خرور عزمه وفشل إرادته.

(**1054**) يفيد ختام الآية أن الله تعالى لما أفرد الضمائر إشارة إلى قلة المطيع، جمع لئلا يظن أنه واحد فقال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ العالو الرتبة ﴿ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ بالملك الأبدي ولا فوز لغيرهم.(2)

(**1055**) في التعبير باسم الإشارة للبعيد: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنينَ باعتبارِ صدورِ القولِ المذكُورِ عنهم وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبتِهم وبُعد منزلتِهم في الفضلِ.

(**1056**) تفيد أن المؤمنين حقاً وصدقاً هم على حال واحدة ثابتة؛ مع الله ورسوله، فى السراء والضرّاء، وفى الشدة والرخاء.. لا تغيير ولا مراوغة، إنه الحب لله، والرضا بحكم الله.. والحب الصادق لا يجىء منه أبداً ما يغير موقف المحب ممن أحب.

(**1057**) فيها الترغيب والإغراء في طاعة الله ورسوله، وخشية الله تعالى وتقواه، لحصر الفوز والفلاح فيمن اتصف بهذه الصفات: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(3)

(**1058**) جمعت هذه الآية شروط السير إلى الله تعالى ووسائل الوصول، مع ذكر الغاية تيسيراً على السائرين، وترغيباً للمتخلفين، وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية.

---

1 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 1/ 572

2 ينظر نظم الدرر، 299/13

3 ينظر انشراح الصدور في تدبر سورة النور، 295، إبراهيم اللاحم.

- **الآية الثالثة والخمسون:** ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1059**) في مناسبتها بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر ما رتّب على الطاعة الظاهرة التي هي دليل الانقياد الباطن بالنسبة للمؤمن، ذكر حال المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون، فقال سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ ﴾

(**1060**) في مناسبتها بما قبلها كذلك أن الله تعالى لما ذكر المنافقين وما هم عليه من صفاتٍ قبيحة، أعقبه بذكر ما انطوت عليه نفوسهم من المكر والإِحتيال والحلف الكاذب بأغلظ الأيمان.

(**1061**) في صلتها بما قبلها أن الله تعالى لما حكى عن المنافقين أنهم لما كرهوا حُكْمَه، أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا فقال: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ ﴾ أي لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن.([1])

(**1062**) فيها أن من عادة المنافقين المبالغة في الأيمان وكثرة الحلف، تغطيةً على ما يبطنون من مخالفة، وإظهاراً للصدق المزعوم، كما قال تعالى عنهم: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[التوبة : 96] وجهد الأيمان أي أغلظها.

(**1063**) فيها أنه لا قيمة للحلف إذا كان عمل صاحبه يخالفه ويكذّبه، فعظِّم اليمين واعمل أعمال المؤمنين الصادقين.

(**1064**) فيها أن المنافقين شأنهم الإكثار من الوعود، وعدم الوفاء بها، لأنه في الغالب مَنْ أكثر الوعود عُلم منه أنه لن يفي بها.

(**1065**) في قوله تعالى تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۖ ﴾ الاستعارة، فجهد أيمانهم: لفظ مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها، وقد استعاره للأيمان، وأصله أقسم

1 ينظر فتح القدير، 54/4

بالله جهد اليمين جهداً، فحذف الفعل وقدم المصدر موضوعاً موضعه، مضافاً الى المفعول، كضرب الرقاب، وإذا جعلته حالا جعلته مؤولا باسم الفاعل أي جاهدين.

(**1066**) تفيد أن الصادق في قوله، المخلص في عمله، لا يلجأ للحلف، لأن إيمانه بحرمة الكذب يجعل الصدق من مقتضى إيمانه وأخلاقه، فلا يحتاج إلى كثرة الحلف على ما به عُرِف.

(**1067**) فيها النهى عن اليمين الكاذبة، وأن ذلك من عادة المنافقين، لأنه قد عُرف منهم أنهم يحلفون على الباطل. واليمين الكاذبة من اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في النار، وقد حذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمين الغموس وجعلها من الكبائر فقال عليه الصلاة والسلام: ((الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ))([1])

(**1068**) فيها أن المنافقين عُرفوا بأنهم يقولون ما لا يفعلون، ولذلك يلتجئون للكذب حتى يُصَدَّقوا فيما يقولون.

(**1069**) فيها النهي عن القسم الكاذب، إذ قد عرف أن طاعتهم دَغَلَةٌ ([2]) رديئة فكأنه يقول: لا تغالطوا فقد عرف ما أنتم عليه.

(**1070**) فيها لا تتكلفوا القسم، طاعة معروفة متوسطة على قدر الاستطاعة أمثل وأجدى عليكم، وفي هذا الوجه إبقاء عليهم.

(**1071**) فيها لا تقنعوا بالقسم، طاعة تعرف منكم وتظهر عليكم هو المطلوب منكم.([3])

(**1072**) فيها إشارة إلى أنهم أهل للاتهام، كأنه قيل: ماذا تفعل في اختبارهم؟ فقيل: الأمر أوضح من ذلك، فإن لكل حق حقيقة، ولكل فعل أدلة قل لهم: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْ﴾ فإن العلم بما أنتم عليه لا يحتاج إلى الإقسام.([4])

---

1 البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس، حديث رقم: 6675

2 دغل: الدَّغَل، بالتَّحْرِيك: الْفَسَادُ مِثْلُ الدَّخَل. والدَّغَل: دَخَلٌ فِي الأَمر مُفْسِدٌ؛ وَمِنْهُ قَوْلُالْحَسَنِ: اتَّخَذوا كِتَابَ اللَّهِ دَغَلًا، أَي أَدغلوا فِي التَّفْسِيرِ. وأَدْغَلَ فِي الأَمر: أَدخل فِيهِ مَا يُفْسده وَيُخَالِفُهُ... (ينظر لسان العرب، مادة: دغل)

3 ذكر هذه المعاني الثلاثة ابن عطية في المحرر الوجيز، 4/ 192

4 ينظر نظم الدرر، 300/13

(**1073**) تفيد النهي عن القسم على فعل الطاعة لقوله تعالى: ﴿ لَّا تُقْسِمُوا۟ ﴾ ومن هنا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن (النّذْر) فالمطلوب من المؤمن أن يمتثل أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم دون أن يقسم على أنه سيفعل ذلك.([1])

(**1074**) فيها أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بأن لا يحلفوا، وأن المطلوب منهم هو الإذعان والطاعة فيما هو خير ومصلحة ومعروف، وأن الله خبير بأعمالهم ونياتهم.([2])

(**1075**) فيها أمر آخر للنبي بأن يؤكد عليهم وجوب الإخلاص في طاعة الله ورسوله وعدم الاكتفاء بالقول، ففي إخلاصهم هدى وخير ومصلحة لهم، وإذا أعرضوا فكل مسؤول عن واجبه وعمله، فالرسول مسؤول عما أوجب الله عليه وحمله إياه وهو التبليغ والإرشاد، وهم مسؤولون عما أوجب عليهم وحملهم إياه من الإخلاص والسمع والطاعة.([3])

(**1076**) فيها تحذير للمؤمنين من أن يكون أمرهم مثل هؤلاء يحلفون الأيمان الفاجرة، وقد رد الله تعالى هذه الأيمان.

(**1077**) يفيد قوله تعالى: ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ النهي عن الوعد الذي لا يبرم، فلا تَعِدُوا بما هو معلومٌ منكم ألا تفوا به؛ فطاعةٌ في الوقت أَوْلى من تسويفٍ بالوعد.([4])

(**1078**) في تنكير لفظ: ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ لأن العموم الذي تصلح له كما قالوا من أعرف المعارف، و لم تعرف ب(ال) لئلا يظن أنها لعهد ذكري أو نحوه، فتفيد أن الطاعة وإن اجتهد العبد في إخفائها لا بد أن تظهر مخايلها على شمائله، وكذا المعصية.([5])

(**1079**) تفيد جملة: ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، وهي تعليلٌ للنَّهيِ، أي لا تقسمُوا على ما تدَّعُون من الطَّاعةِ، لأنَّ طاعتَكم طاعةٌ نفاقيةٌ، واقعةٌ باللِّسان فَقَط، من غيرِ مُواطأةٍ من القلبِ، وإنَّما عبر عنها بمعروفةٌ للإيذانِ بأنَّ كونها كذلك مشهورٌ معروفٌ لكلِّ أحدٍ.([6])

---

1 ينظر انشراح الصدور في تدبر سورة النور، 304، إبراهيم اللاحم.

2 التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة، 8/ 435

3 المرجع نفسه، 435/8

4 ينظر لطائف الإشارات للإمام القشيري، 2/ 373

5 ينظر نظم الدرر، 301/13

6 ينظر إرشاد العقل السليم، 189/6

(**1080**) تفيد أن طاعة حقيقية في الوقت، أولى من تسويفٍ في الوعد، فالطاعة لا تحتاج إلى وعود، والأجل مجهول، والانسان لا يدري متى يأتيه أجله، ثم لا تعِدُوا بما هو معلوم أنكم لا تفوا به، كما عُهِد منكم.

(**1081**) تفيد أن الطاعة وإن اجتهد العبد في إخفائها لا بد أن تظهر مخايلها على شمائله، وكذا المعصية، لأنه ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها ولأبي يعلى والحاكم – وقال: صحيح الإسناد– عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان))(1)

(**1082**) فيها أن صدق الإيمان من عدمه يظهر في المواقف العظيمة، كالجهاد وغيره، إذ عند الابتلاء يقع التمحيص.

(**1083**) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وهو أبلغ في تبكيتهم.

(**1084**) في هذه الجملة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ تعليلٌ للحكم بأنَّ طاعتَهم طاعة نفاقية مشعر بأنَّ مدارَ شُهرةِ أمرِها فيما بينَ المؤمنين إخبارُه تعالى بذلك ووعيدٌ لهم بأنَّه تعالى مجازيهم بجميع أعمالِهم السَّيئةِ التي منها نفاقُهم.([2])

(**1085**) تفيد أن الله خبير بمن يطيع ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه، وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، لا يروج عليه شيء من التدليس، بل هو خبير بضمائر عباده، وإن أظهروا خلافها.([3])

(**1086**) في ختام هذه الآية بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ تناسب دقيق، مفاده وإن إجتهدتم في إخفاء ما تخفونه، فالله تعالى ينصب عليه دلائل يعرفه بها عباده، فالحلف غير مغنٍ عن الحالف، كما أن التسليم غير ضار للمسلم.

---

1 ينظر المرجع نفسه، 301/13

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 189/6

3 ينظر تفسير القرآن العظيم، 76/6

(**1087**) في ربط العبادة والعمل بأسماء الله وصفاته؛ تربية للمسلم على أن يراقب الله تعالى في كل عمل يقوم به، إخلاصاً له، وصدقاً في إتقانه وإصلاحه، وهذا هو السر في ختم الكلام عن الأحكام الشرعية في القرآن الكريم بذكر صفات الله تعالى، ومنها هذه الآية.

(**1088**) فيها أن العبادة مرتبطة بالإيمان، فهي ثمرة من ثمراته، فمن عرف الآمِر تفانى في طاعته واستقام على أمره، فكل تقصير في الأمر إنما هو نتيجة للجهل بمقام الآمِر سبحانه وتعالى.

- **الآية الرابعة والخمسون:** ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1089**) في مناسبتها بما قبلها؛ أن الله تعالى لما نبّه على خداعهم، أشار إلى عدم الاغترار بإيمانهم، وإلى قبول شهادة التوسم فيهم، فأمر بترغيبهم وترهيبهم، مشيراً إلى الإعراض عن عقوبتهم فقال: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ ﴾([1])

(**1090**) في علاقتها بما قبلها؛ أن الله تعالى لما بَكَّتَهُم بأنه مُطَّلِعٌ عَلَى سَرَائِرِهِمْ تَلَطَّفَ بِهِمْ فَأَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَهُوَ أَمْرٌ عَامٌّ لِلْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ.([2])

(**1091**) كرَّر الأمرَ بالقول: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ ﴾ لإبراز كمالِ العنايةِ به والإشعارِ باختلافهما، من حيثُ أنَّ المقولَ في الأوَّلِ، نهيٌ بطريق الردِّ والتَّقريعِ، وفي الثَّاني أمرٌ بطريقِ التَّكليفِ والتَّشريعِ.

(**1092**) في إطلاق الطَّاعة المأمورِ بها في هذه الآية عن وصفِ الصحَّةِ والإخلاصِ ونحوهما، بعد وصف طاعتهم بما ذُكر، للتَّنبيه على أنَّها ليستْ من الطَّاعةِ في شيءٍ أصلاً.([3])

(**1093**) في الآية صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب، على طريقة الالتفات، وهو أبلغ في تبكيتهم. يريد فإن تتولوا فما ضررتموه، وإنما ضررتم أنفسكم، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس عليه إلا ما حمله الله، وكلفه من أداء الرسالة، فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه.([4])

---

1 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي، 301/18، 302

2 ينظر البحر المحيط في التفسير، 64/8

3 ينظر إرشاد العقل السليم إلة مزايا الكتاب الكريم، 6/ 189

4 ينظر الكشاف، 18/ 734

(**1094**) تفيد أن انصراف الناس عن الداعي، وإعراضهم عن دعوته، لا يعفيه ذلك من أداء الأمانة وإعلان البلاغ. كما أن انصراف المدعوين هذا وإعراضهم لا يعفيهم مما كلفوا به من التلقي بالقبول والإذعان.

(**1095**) في العدول عن أطيعوني إلى قوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ ما لا يخفى من الحث على الطاعة، وإطلاقها أن تكون ظاهرة وباطنة، لا كالمنافقين.

(**1096**) تفيد وجوب طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في كل أمر وشأن، في المنشط والمكره، والسراء والضراء.

(**1097**) يفيد إعادة فعل الأمر: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تجب استقلالاً، وهذا يدل على مترلته صلى الله عليه وسلم عند الله تعالى.

(**1098**) تفيد أن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، هي الأفضل لكم من كل حيلة، أو كذب أوغيره، ففي ذلك خلاص لكم، ونجاة في الدنيا والآخرة.

(**1099**) فيها أن من أراد الهداية إلى كل خير، فطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي طريق ما أراد، ومن حاد عن ذلك فلا هدى له بين العباد.

(**1100**) فيها دعوة إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، والتمسك بهما، ففيهما الهدى، وهما سبب النجاة من الضلالة في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة.

(**1101**) تفيد الدعوة إلى الإخلاص في اتباع كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والبعد عن النفاق والكبر والكذب والرياء.

(**1102**) فيها تلطف بهم حينما أمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، بعد ما أخبرهم سبحانه بأنه مطلع على سرائرهم، وما تكن به صدورهم.

(**1103**) تفيد أن التولي والإعراض عن حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ضرره يعود على صاحبه، أما الرسول صلى الله عليه وسلم، ليس عليه إلا ما حمّله الله وكلفه من أداء الرسالة وتبليغ الأمانة.

(**1104**) فيها تهديد لمن تولّى عن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتحذير لكل من أعرض عن ذلك.

(**1105**) يفيد قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أن على النبي صلى الله عليه وسلم ما حُمّل مما أمر به من التبليغ وقد فعل، وعليكم ما حملتم : أي ما أمرتم به من الطاعة، وهو وعيد لهم، كأنه قال لهم : فإن توليتم فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل.([1])

(**1106**) في التَّعبير بالتَّحميل ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ للإشعارِ بثقله وكونه مُؤنةً باقيةً في عُهْدتِهم بعدُ، كأنَّه قيل: وحيثُ توليتُم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحملِ الثَّقيلِ.([2])

(**1107**) يفيد التعبير بالتحميل كذلك؛ الإشعار بثقل الوحي، وأمانة الرسالة، وتكاليف الشريعة، ومسؤولية الدعوة، كما قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: 5]

(**1108**) يفيد لفظ التحميل كذلك الأمر بحفظه، وتبليغه، فكل مَن تَحَمَّل شيئاً كان عليه أن يحفظه بتبلغه، لأنه أمانة تحمل مسؤوليتها.

(**1109**) فيها أن على المنافقين وغيرهم ما كُلِّفوا من التلقي بالقبول والإذعان، فإن لم يفعلوا وتولوا فقد عرَّضوا نفوسهم لسخط الله وعذابه.

(**1110**) فيها أن العبد يوم القيامة يحاسب على تبعته، ولا يحاسَب عنه غيره: فالضمير (عَلَيْهِ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ عائد للرسول صلى الله عليه وسلم، والخطاب في ﴿وَعَلَيْكُم﴾ للمنافقين أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم مكلف بالتبليغ، وأنتم مكلفون بالطاعة، ومن أهمل فعليه يقع حساب الإهمال وتبعته.([3]) كما قال جل وعلا: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ۝١٦٤﴾ [الأنعام: 164]

---

1 فتح القدير، 4/ 55

2 ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 6/ 189

3 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 12/ 210

(**1111**) في هذه الضمائر: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ بعد قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ التفاتٌ. وأصل الكلام: فإنما عليك ما حُملتَ وعليهم ما حُمِّلوا. والالتفات محسن لا يحتاج إلى نكتة.([1])

(**1112**) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ تبكيت للمنافقين ليعلموا أنهم لا يضرون بتولّيهم إلا أنفسهم، ذلك أنها تفيد معنيين: معنى مَن تعلق خطاب الله تعالى بهم، وهو تعريض بتهديد ووعيد، ومعنى من موعظة النبي صلى الله عليه وسلم إيَّاهم وموادعة لهم. ونظيره قوله في سورة آل عمران: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ (هم اليهود) يُدعَوْن إلى كتاب الله...إلى قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: 23 - 32]([2])

(**1113**) تفيد أن الهداية كل الهداية هي في طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الله جعل كل الطرق مسدودة إلى باب الجنة، إلا من اقتفى أثره صلى الله عليه وسلم. كما قال صلى الله عليه وسلم ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: ((مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ ومن عصاني فقد أبى))([3])

(**1114**) دلّ قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ على أن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم سبب للهداية التي تحصل للعبد، فمن لم يطع الرسول صلى الله عليه وسلم يُحرَم هذه الهداية، ذلك أن الله سبحانه جعل الاهتداء مشروطاً بطاعته صلى الله عليه وسلم.

(**1115**) فيها أنه لا هداية بدون متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، والإقبال على أمره، وتعظيم شأنه في كل ما يأمر به أو ينهى عنه.

(**1116**) يفيد قوله تعالى: ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ أن الهداية إلى الحقِّ هي المقصد الأصليّ الموصل إلى كلِّ خيرٍ، والمنجِّي من كلِّ شرَ في الدنيا ولآخرة.

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 280

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 280

3 البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، بَابُ الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم: 7280.عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(**1117**) فيها كما قال بعض السلف: مَنْ أمَّر السُنَّة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالبدعة لقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ ﴾[1]

(**1118**) تتفيد أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي طريق الهداية، وسبيل السعادة في الدنيا والآخرة.

(**1119**) تفيد أن من أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد أحرز نصيبه من الخروج عن الضلالة إلى الهدى، فالنفع والضرر عائدان إليه أولا وأخيراً، وما الرسول إلاّ ناصح وهاد، وما عليه إلاّ أن يبلغ ما له نفع في قبولكم.[2]

(**1120**) يفيد قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أن المبلغ عن الله تعالى ليس مسؤولا عن إيمان من يدعوهم، كما أنه ليس مقصراً إذا بلغ وتولوا وأعرضوا. كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ ﴾ [الغاشية: 21،22]

(**1121**) في قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ اعتراضٌ مقرر لما قبله، من أنَّ غائلةَ التولِّي وفائدة الطاعةِ مقصورتانِ عليهم، فليس لله وللرسول منها نفع أو مصلحة.

(**1122**) اللامُ في (الرسول) إمَّا للجنسِ المنتظمِ له صلى الله عليه وسلم انتظاماً أولياً، أو للعهد، أي ما على جنس الرَّسولِ كائناً مَن كان، أو ما عليه صلى الله عليه وسلم إلَاّ التَّبليغُ الموضِّحُ لكلِّ ما يَحتاج إلى الإيضاحِ..[3]

(**1123**) في وصف البلاغ بالإبانة ﴿ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ على وزن (فعيل) أي أنه التبليغ الذي يحصل به البلاغ الواضح من كل وجوهه من غير شك، ولا ريب.

(**1124**) فيها تعليق هدايتهم على طاعته صلى الله عليه وسلم، فلا يقع إلا بطاعته وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

(**1125**) فيها الترغيب إلى اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في التبليغ، بعدم اليأس ممن لم يستجيبوا أو أعرضوا.

---

1 ينظر صفوة التفاسير، 2/ 322

2 ينظر الكشاف، 18/ 734

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 189

(**1126**) فيها أن على المبلِّغ أن يقيم الحجة على الذين يبلغهم فيما يبلغهم إياه، حتى لا يترك مجالا للشك والريبة، حتى لا تبقى لهم حجة على الله تعالى يوم القيامة، فهذا من معاني الإبانة في التبليغ، فهناك تبليغ، وهناك بيان التبليغ، وهذه هي مهمة الرسل وأتباعهم.

(**1127**) تشير إلى أن هذا البلاغ مستمر إلى قيام الساعة، فهو بلاغ لرسالة خاتمة، ومن ثم فهو باقٍ ببقاء دواعيه، وأن القائم به بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، هم ورثته من العلماء والدعاة، تبليغاً لرسالة الإسلام، وقياماً بحجة الله في أرضه إلى أن تقوم الساعة.

- **الآية الخامسة والخمسون:** ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1128**) في مناسبتها بما قبلها: استئنافٌ مقرِّرٌ لما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ من الوعد الكريمِ، ومُعربٌ عنه بطريق التَّصريحِ، ومبينٌ لتفاصيلِ ما أُجمل فيه من فنون السَّعاداتِ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، التي هي من آثار الاهتداءِ ومتضمِّنٌ لما هو المرادُ بالطَّاعة التي نيطَ بها الاهتداءُ.([1])

(**1129**) في مناسبتها بما قبلها أن الله تعالى بعد ما تحدث عن الطاعة وثمرتها: وهي أن من أطاع الرسول صلّى الله عليه وسلم فقد اهتدى إلى الحق وفاز بالجنة، وعد الله سبحانه بتمكين المؤمنين الطائعين في خلافة الأرض، وتأييدهم بالنصر والإعزاز، وإظهار دينهم على الدين كله، وتبديلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا.([2])

(**1130**) تفيد في سياقها بما قبلها أن الأسرة إذا كانت هي قاعدة المجتمع، فإن صلاحها وتربيتها تحت نور الله وهدايته، هو الذي يصل بهذا المجتمع إلى مرحلة الاستخلاف والتمكين.

(**1131**) تفيد في علاقتها بما قبلها أن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتحقيق العبودية لله وحده، هي شروط أساسية لتحقيق الخلافة، والتمكين للدين، وحصول الأمن وذهاب الخوف عن المسلمين.

---

1 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 190

2 ينظر التفسير المنير، 18/ 282

(**1132**) تفيد في صلة بما قبلها من قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ ﴾ أن الاهتداء إذا حلّ في النفوس نشأت الصالحات فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات.([1])

(**1133**) تفيد حسب سبب نزولها أن الله تعالى لما أظهر دينه، ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم، أَمِنَ المسلون، ووضعوا سلاحهم. فعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة وآواهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا في لأْمتهم، فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟! فنزلت هذه الآية. قال أبو العالية: لما أظهر الله عز وجل رسوله على جزيرة العرب، وضعوا السلاح وأمنوا، ثم قبض الله نبيه)([2])

(**1134**) فيها دلالة على صحة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، قال الجصاص في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الدلالة على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه قصر ذلك على قوم بأعيانهم بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فوجد مخبره على ما أخبر به فيهم.([3])

(**1135**) في تحقق هذا الوعد بنصر الإسلام والتمكين للمسلمين، دلالة على صحة النبوة، وصدق الرسالة كذلك. ووجه ذلك أن الله تعالى نصر رسوله صلى الله عليه وسلم، ومكّنه ومكّن له في الأرض بإقامة دولة الإسلام عملياً، وانتشر الإسلام وكانت قوة يهابها العالم.

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 282

2 أخرجه الحاكم في المستدرك 2/ 401 والطبراني في (الأوسط) 7025 والواحدي في (أسباب النزول) 647 والبيهقي في (الدلائل) 3/ 7، 6 من طريق أبي العالية عن أبي بن كعب. وإسناده لين. مداره على علي بن حسين بن واقد، وهو لين الحديث. ضعفه أبو حاتم، وقال النسائي وغيره: ليس به بأس. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في (المجمع) 11237 رجاله ثقات اه. وانظر (أحكام القرآن) 1610 (نقلا عن محقق زاد المسير لابن الجوزي، عبد الرزاق المهدي 303/3)

3 أحكام القرآن للجصاص، 5/ 190،191

(**1136**) فيها دلالة كذلك على صحة إمامة الخلفاء الأربعة أيضاً، لأن الله استخلفهم في الأرض ومَكَّنَ لهم كما جاء الوعد.([1]) فقد مكن الله لهم وفتح بهم العباد والبلاد، وفي عهدهم انتشر الإسلام في أصقاع الأرض، ودانت لهم الأمم.

(**1137**) يدل تحقق هذا الوعد على أن هذا القرآن هو وحي من الله تعالى، أوحاه الذي يعلم السر في السماوات والأرض، فوعد الله حقّ وكلامه صدق، والحق أحق أن يتبع.

(**1138**) فيها أن من أنفع الأشياء في رسوخ الإيمان بعد تدبر القرآن الكريم، وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم؛ مطالعة السير وقراءة قصص السابقين، وأحوال الصادقين من عباد المخلصين.

(**1139**) فيها تقرير بأن الله وعد مؤمني هذه الأمة بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين وتبديل خوفهم بالأمن، ووعد الله عز وجل واقع لا محالة.([2])

(**1140**) فيها عدل الله ورحمته، وفضله وكرمه، حينما يعطي وعده للمؤمنين على ما يقومون به من عمل صالح، بخيري الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران9] وفي ذلك حث وترغيب للقيام بالأسباب والشروط لتحقيق الموعود المرغوب.

(**1141**) فيها أن وعد الله حق، وكلامه صدق، وأن ما وعد به آتٍ لا محالة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩ ﴾ ولذلك قد ظهر صدق هذا الوعد، وتحقق بفتح مشارق الأرض ومغاربها لهذه الأمة.

(**1142**) فيها ترغيب ووعد بأنواع من الخير، وفي ذلك تحريض للنفوس وتنشيط لها على الجد والاجتهاد في عبادة الله وطاعة أمره وعمل الصالحات: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

(**1143**) تفيد أن الإيمان اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

(**1144**) فيها الترغيب في العمل الصالح، لما رتّب الله عليه من الاستخلاف والتمكين للدين ونصره وظهوره، وتبديل الخوف بالأمن والاطمئنان.

---

1 أحكام القرآن للجصاص، 5/ 190،191

2 الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، 59/3، نجم الدين الطوفي.

(**1145**) تفيد أن تمكين الدين إنما يكون أولا في القلوب، قبل أن يكون في تصريف الحياة وتدبيرها، فمن كان طالباً له لأمته فليحققه أولاً في نفسه قولا وعملا.

(**1146**) يفيد الْخِطَابُ فِي ﴿ مِنكُمْ ﴾ لِلرَّسُولِ وأتباعه، ومِنْ للبيان، أي الذين هم أَنْتُمْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَنْصُرَ الْإِسْلَامَ عَلَى الْكُفْرِ وَيُورِثَهُمُ الْأَرْضَ وَيَجْعَلَهُمْ خُلَفَاءَ.([1])

(**1147**) تفيد أن الخلافة في الأرض، والاستفادة من خيراتها، إنها يعطيها الله لأهل الإيمان والعمل الصالح فهم الذين يستحقونها.

(**1148**) تفيد أن سنة الله استخلاف من آمن بالله وعمل صالحاً ثم اهتدى، وتمكينه في الأرض: ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

(**1149**) يفيد التعريف في قوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ للاستغراق، أي عملوا جميع الصالحات، وهي الأعْمال التي وصفها الشرع بأنها صلاح، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأنها فساد لأن إبطال الفساد صلاح.

(**1150**) في استغراق الصالحات استغراق عرفي، أي عمل معظم الصالحات ومهماتها ومراجعها مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة، وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة، وذلك في غالب أحوال تصرفاتهم، ولا التفات إلى الفلتات المناقضة فإنها معفو عنها إذا لم يسترسل عليها وإذا ما وقع السعي في تداركها.([2])

(**1151**) تفيد أن الأرض لله تعالى، وأنه يورثها لمن تحققت فيه شروط الصلاح والإصلاح، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[الأنبياء: 105]

(**1152**) في قوله تعالى: ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ ﴾ عطفٌ على ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ منتظم معه في سلك الجواب، وتأخيرُه عنه مع كونه أجلَّ الرَّغائبِ الموعودة وأعظمها، لما أنَّ النُّفوسَ إلى الحظوظِ العاجلة أميلُ، فتصدير المواعيد بها في الاستمالةِ أدخلُ،

---

1 تفسير البحر المحيط في التفسير، 8/ 64

2 ينظر التحرير والتنوير، 283/18

والمعنى ليجعلنَّ دينَهم ثابتاً مُقرَّراً بحيثُ يستمرُّون على العمل بأحكامِه ويرجعون إليهِ في كلِّ ما يأتُون وما يذرُون.([1])

(**1153**) يفيد تقديمُ صلةِ التَّمكينِ على مفعوله الصَّريحِ للمُسارعةِ إلى بيان كونِ الموعودِ من منافعِهم، تشويقاً لهم إليه وترغيباً لهم في قبوله عند وروده.([2])

(**1154**) تفيد أن تمكين الدين يتم أولا بتمكينه في القلوب والنفوس، ثم على أرض الواقع، بتطبيقة في نواحي الحياة ومجالاتها.

(**1155**) فيها أن إضافة الدين إلى ضميرهم ﴿ دِينَهُمُ ﴾ لتشريفهم به، لأنه دين الله، كما دلّ عليه قوله عقبه: ﴿ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾ أي الذي اختاره ليكون دينهم، فيقتضي ذلك أنه اختارهم أيضاً ليكونوا أتباع هذا الدين. وفيه إشارة إلى أن الموصوفين بهذه الصلة هم الذين ينشرون هذا الدين في الأمم لأنه دينهم فيكون تمكنه في الناس بواسطتهم.([3])

(**1156**) يفيد وعْد الله بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين والشريعة، تنبيهاً بأن سنة الله أنه لا تأمن أمة بأس غيرها حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها. ([4])

(**1157**) في تقديم وعدهم بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والشريعة فيهم، على وعدهم بالأمن؛ تنبيه لهم بأن سنة الله أنه لا تأمن أمة بأس غيرها حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها.

(**1158**) في وعدهم بالاستخلاف والتمكين، وتبديل الخوف أمناً، إيماء إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك. وأن ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم: وإن تطيعوه تهتدوا [النور: 54]([5])

(**1159**) في قراءة قوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾([6]) بتشديد الدال، من التبديل بمعنى التغيير، أي ليغيرن الله حالهم من الخوف إلى الأمن.

---

1 إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 191/6

2 المرجع نفسه، 6/ 191

3 ينظر التحرير والتنوير، 282/18

4 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 287

5 ينظر التحرير والتنوير، 228/18

6 قرأ ابن كثير ويعقوب وأبو بكر {وليُبْدِلَنهم} بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد: {وليُبَدِّلنهم} (ينظر النشر، 333/2)

(**1160**) يفيد قوله تعالى: ﴿وَلَيُبْدِلَنَّهم﴾ بتخفيف الدال من الإبْدال وهي بمعنى وضع الشيء مكان آخر، فكأن الله سيذهب خوفهم ويضع بدلا منه الأمن.

(**1161**) يفيد الجمع بين القراءتين: ﴿وَلَيُبْدِلَنَّهم﴾ و ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهم﴾ -بتخفيف الدال وتشديده- إظهار نعمة الله على عباده المؤمنين، ووعده لهم بتغيير حالهم، وإبدال خوفهم أمناً، وفي ذلك مزيد عناية من الله للمؤمنين، وتكريم لهم، فهم لم يكونوا يطمعوا إلا في الشعور بالأمن، فزادهم الله أمناً بذهاب الخوف عنهم مع شعورهم بالأمن.([1])

(**1162**) فيها أن الوعد بالاستخلاف والتمكين، وتبديل الخوف أمناً، إيماء إلى التهيُّؤ لتحصيل أسبابه، مع ضمان التوفيق لهم والنجاح، إن هم أخذوا في ذلك، وأنّ ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم.([2])

(**1163**) يفيد تنكير ﴿أَمْنًا﴾ للتعظيم بقرينة كونه مبدّلاً من بعد خوفهم المعروف بالشدة. وفيه بشارة بأن الله مزيل الشرك والنفاق من الأمة.([3])

(**1164**) فيها أن أصل كل أمْنٍ، هو أمن النفوس، وأمن النفوس لا يتحقق إلا بالإيمان بالله وعبادته وتوحيده، وما سمي الإيمان إيماناً إلا لكونه أمناً للنفوس من الاضطراب والخوف والتردد، واطمئنان للقلوب من التقلب.

(**1165**) قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حالٌ من الموصول الأوَّلِ مفيدةٌ لتقييد الوعد بالثَّباتِ على التَّوحيدِ.([4])

(**1166**) تفيد أن العبادة الكاملة والسليمة لا تتحق إلا بالبراءة من كل أنواع الشرك وصوره، والبراءة كذلك من أهله وناصريه

(**1167**) يفيد قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أن العبادة حق الله على عباده، فعن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال: بينا أنا رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا آخرة الرَّحْل، قال: ((يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسَعْديك. قال: ثم

---

1 تفسير القرآن بالقراءات العشر القرآنية، 8/ 50

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 282

3 ينظر المرجع نفسه، 287/18

4 إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 191/6

سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا قال: ثم سار ساعة. ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم))([1])

(**1168**) يفيد قوله تعالى: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ في سياقه بما قبله، أن وعد الله بالاستخلاف في الأرض والتمكين للدين، يبقى قائماً ومتحققاً ما وُجد شرطه، وهو تحقيقة العبودية لله تعالى في الأرض، والابتعاد عن الشرك بصنوفه وألوانه.

(**1169**) فيها إشارة كذلك إلى ما يكسبه الإيمان الحق أهله، من عزّة ومنعة وقوة، وأنهم بهذا الإيمان قد أمنوا شر أعدائهم، وأمنوا قبل ذلك على أنفسهم وقلوبهم من النفاق الذي عابه الله على الفريق الآخر.

(**1170**) تفيد أن الله تعالى وحده هو المستحق للعبادة، وأن العبودية الكاملة لا تحصل إلا بتحقيقها على مستوى الفرد، والجماعة، والأمة، كما يفيده قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي ﴾

(**1171**) في قوله تعالى: ﴿ لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ أن وقوع النكرة في سياق النفي يدل على نفي الشرك على الإطلاق، صغيره وكبيره، ظاهره وباطنه، فلا يقع منهم شرك، صغيراً كان أو كبيراً، ظاهراً أو خفياً.

(**1172**) تفيد أن الله سبحانه منزه عن الشريك والمثيل، وأن من شروط إقامة المجتمع المسلم، انتفاء الشرك بأنواعه عند أتباعه، وصفاء عقيدتهم وسلامة إيمانهم.

(**1173**) فيها أن أساس العمل الإسلامي واستمراره، يقوم عبادة الله تعالى والإخلاص له، دون أن يشوبه شرك أو رياء.

---

1 البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى. رقم 7373، ومسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار. رقم 152.

(**1174**) تفيد أن هذا الوعد -وعد الله بالتمكين والنصر- مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة.([1])

(**1175**) فيها أنه إذا حل الاهتداء في النفوس، نشأت الصالحات، فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات.([2])

(**1176**) فيها دلالة على أن عبادة اللَّه وتوحيده، والقيام بالعمل الصالح، سبب للقوّة والاستخلاف في الأرض ونفوذ الكلمة.

(**1177**) يفيد الوعد الإلهي الذي هو حق وصدق، أنه وعد مقيد لا مطلق، فهو مرتبط بأمرين اثنين: الأمر الأول: الإيمان، والأمر الثاني: العمل الصالح.([3])

(**1178**) في هذه الآية من الدلالة على صحة النبوة للإخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه ما لا يخفى. فقد أنجز الله وعده، وأظهرهم على جزيرة العرب، وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب. ومزقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا، وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم.([4])

(**1179**) في الآية: تنبيه المنافقين ومن على شاكلتهم، وكذا كل أهل المعاصي والذنوب، إلى أن هذا الوعد الذي قد قطعه الله تبارك وتعالى للمسلمين، ليس الخطاب فيه لكل من ينتمي إلى الإسلام ولو اسماً، بل إنما هو للمسلمين الذين هم صادقون في إيمانهم، وصالحون باعتبار أخلاقهم وأعمالهم، ومتبعون لدين الله الذي قد ارتضاه وملتزمون لعبادته وعبوديته وحده وغير مشركين به شيئاً، وأما الذين ليسوا على تلك الصفات وإنما يدعون الإيمان بألسنتهم: فلا يستأهلون هذا الوعد لأنه لم يقطع لهم، فلا يرجون أن ينالوا نصيبا منه.([5])

(**1180**) تفيد جملة: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ تحذير بعد البشارة على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة والعكس، دفعاً للاتكال.([6])

---

1 ينظر في ظلال القرآن، 2529/18، 2530

2 ينظر التحرير والتنوير، 283/18

3 التيسير في أحاديث التفسير، للشيخ المكي الناصري، 4/ 288

4 محاسن التأويل، 403/7

5 تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي، 143

6 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 288

(**1181**) في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ترهيب ووعد بسوء الخاتمة، لمن كفر بعد إقامة الحجة وبيان المحجة.

(**1182**) في ختام هذه الآية دقة التناسب مع مضمونها، ذلك أنه لما كان التقدير: فمن ثبت على دين الإسلام، وانقاد لأحكامه واستقام، نال هذه البشرى، عطف عليه قوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ بالإعراض عن الأحكام أو غيرها.([1])

(**1183**) في ختام الآية من المناسبة مع مضمونها كذلك، أنه لما كان الفاسق الكامل إنما هو من مات على كفره فحبط عمله، فكان بذلك كفره مستغرقاً لزمانه دون من مات مسلماً وإن كان كافراً في جميع ما مضى له قبل ذلك، أسقط الجار فقال: ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾([2])

(**1184**) في هذا التعبير: ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ تشنيع خطير، إذ كيف يكفر بعد ذلك الوعدِ الكريمِ، بما فُصِّل من المطالب العاليةِ المستوجبةِ لغاية الاهتمامِ بتحصيلها والسعيِ الجميلِ في حيازتِها؟.([3])

(**1185**) فيها أن المراد بالكفران في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ في رأي أكثر المفسرين كفران النعمة لأنه قال تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أما الكافر الحقيقي فهو فاسق بعد هذا الإنعام وقبله.([4])

(**1186**) تفيد الآية في علاقتها بالواقع أن نهضة الأمة وعودة تمكينها، لا تتحقق إلا بإقامة نظام تسوده الشريعة الإسلامية في جميع ميادين الحياة ومناحيها.

(**1187**) تفيد الآية كذلك في علاقتها بواقعنا المعاصر، أن ما يعيشه العالم الآن من صراع طبقي واجتماعي، واضطهاد ديني، وحروب مدمرة.. كل ذلك يدل على إفلاس الأنظمة السياسية المعاصرة التي قامت على العلمانية وفصل الدين عن السياسة والدولة.([5])

---

1 ينظر نظم الدرر، 306/13

2 ينظر المرجع نفسه، 107/13

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 191/6

4 ينظر التفسير المنير، 288/18

5 ينظر مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، 661، عبد الكريم حامدي.

(**1188**) تفيد ضرورة قيام نظام عالمي يستمد مبادئه وأصوله من قيم الشريعة الإسلامية، لتخليص البشرية مما تتخبط فيه، سياسة، واقتصداً، واجتماعاً ومعرفة، وأخلاقاً وقيماً..، فلا نجاة للبشرية مما تتخبط فيه من الويلات؛ إلا بالرجوع إلى هدي السماء.

(**1189**) يفيد مفهوم الآية أنه لا ضمان للصلاح العالمي، إلا بقيادة الشريعة الإسلامية، التي جاءت لتخرج العباد من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة.

(**1190**) في الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان الملّة ودعائم الإسلام، الناصحون لعباده، الهادون من يسترشد فى الله، إذ الخلل فى أمر المسلمين من الولاة الظّلمة ضرره مقصور على ما يتعلّق بأحكام الدنيا، فأما حفّاظ الدين فهم الأئمة من العلماء([1]) ورثة الأنبياء، فهم أئمة الهدى وهؤلاء لا يخلو منهم زمان.

(**1191**) تدل على أن كل من أعرض عن عبادة الله تعالى، ووقع في الشرك، فهو مدموغ بالكفر، أو الفسق، فمن أشرك فقد كفر، ومن أعرض عن عبادة الله مع تحقيق توحيده، فقد وقع في الفسق، نتيجة لِانحرافه عن طاعة الله وعبادته.

(**1192**) تشير إلى أن جحود النعم، والانحراف بها عن غايتها، مؤذن بالخراب والدمار، وانقلاب هذه النعم إلى نقم.

(**1193**) تشير هذه الآية إلى فقه السنن الكونية، من مثل سنن النصر والهزيمة، وسنن العطاء والمنع، وسنن الشكر والكفر، وسنن الطاعة والمعصية.. فَفِقْه هذه السنن والعمل بها، يجنب المسلمين، أخطاء الماضين.

---

1 ينظر لطائف الإشارات، 621/2

- **الآية السادسة والخمسون:** ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1194**) تفيد في علاقتها بما قبلها؛ إعلاناً وبياناً للأعمال المطلوبة من المؤمنين، حتى يكونوا على الوصف الذي وصفهم الله سبحانه وتعالى به حقاً وصدقاً، ووعدهم عليه الاستخلاف والتمكين تحققاً وتحقيقاً.

(**1195**) تفيد في مناسبتها بما قبلها، أنه لما تمت هذه البشرى، وكان التقدير: فاعملوا واعبدوا، عطف عليه قوله سبحانه: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فإنها قوام ما بينكم وبين ربكم ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فهي نظام ما بينكم وبين إخوانكم، فتلك شروط إقامة المجتمع المسلم.([1])

(**1196**) تفيد في مناسبتها بما قبلها كذلك، أن الله تعالى لما قدم شرط عمل الصالحات، بيَّنها في هذه الآية، فنص على عِظَمِها وهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وعم بطاعة الرسول لأنها عامة لجميع الطاعات.([2])

(**1197**) تفيد من حيث الإعراب أن المعطوف قد يقع بينه وبين المعطوف عليه فاصل، ولو طال، فهذه الآية: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ معطوفة على قوله تعالى: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول، قال الزمخشري: (وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه)([3])

(**1198**) تفيد في مناسباتها بما قبلها، أن الصلاة ميدان عملي لتحقيق حقيقة التوحيد، ونفي الشرك، فأعمالها كلها توحيد لله، ونفي لكل أنواع الشرك.

(**1199**) تفيد أن إقامة الصلاة تكون بالمحافظة على وضوئها، ومواقيتها، وركوعها، وسجودها، وخشوعها، وكل شروطها.

---

1 ينظر نظم الدرر، 107/13

2 المحرر الوجيز، 4/ 193

3 ينظر الكشاف، 3 / 252

(**1200**) تفيد أن الصلاة هي أهم ما يميز المؤمن، والمجتمع المسلم. فهي شعار التوحيد، وشعار المجتمع المسلم، وخير أعمال المسلمين.

(**1201**) تفيد كذلك أن الصلاة هي عماد الدين، وهي العهد الذي بين العبد وربه، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.

(**1202**) تفيد أن الصلاة -بعد الشهادتين- هي العنوان الجامع المانع لكل أعمال الإسلام، إذ كل ما سواها داخل في معناها.([1])

(**1203**) تفيد أن السير إلى الله تعالى إنما يكون من خلال مترلة الصلاة (فالسير إلى الله من غير مسلك الصلاة ضرب في التيه)([2])

(**1204**) تفيد أن الصلاة هي حبل الاتصال بالله تعالى، فلا صلة للعبد لله، إلا من خلالها، لأنها مشتملة على التكبير والتسبيح والتحميد وقراءة القرآن. وأن الزكاة حبل بين العبد وأخيره وتطهير للنفس والمال.

(**1205**) فيها إذا كانت خلاصة دين الإسلام عقيدة وشريعة، هي: إخلاص العبادة لله الواحد القهار، فإن الصلاة منه هي مفتاح مفتاح كل شعيرة من شعائره، وروحها وغايتها؛ زكاةً، وصياماً، وحجاً، وجهاداً...([3])

(**1206**) جمعت هذه الآية جميع الأعمال الصالحات، فأهمها بالتصريح: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وسائرها بعموم حذف المتعلق بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي في كل ما يأمركم وينهاكم.([4])

(**1207**) تشير إلى أن الصلاة باب الاستماد، وعليها الاعتماد، في استمار الدين والاستقامة عليه تديناً وإخلاصاً؛ فمن خلالها يتجدد العهد على عبادة الله، والاستعانة به، وطلب الاستقامة على صراطه المستقيم، في قول العبد في فاتحتها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 5،6]

---

1 بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق، الدكتور فريد الأنصاري، 72

2 بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق، الدكتور فريد الأنصاري، 70

3 ينظر المرجع نفسه، 72

4 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 289

(**1208**) فيها أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هما صفتا المؤمن الحقيقي، وشرط فلاحه في الدنيا والآخرة، بعد الإيمان بالغيب، وهو أمر يكاد أن يكون مطرداً في جميع آي القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة:2،1]

(**1209**) فيها أهمية الصلاة ومكانتها في الإسلام، فلقد اجتمع فيها كل أركان الإسلام، ففي الصلاة تتكرر الشهادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي الصلاة زكاة؛ لأن الزكاة فرع العمل، والعمل فرع الوقت، والصلاة تأخذ الوقت نفسه، وفيها صيام حيث تمتنع في الصلاة عما تمتنع عنه في الصوم بل وأكثر، وفيها حج لأنك تتجه في صلاتك إلى الكعبة.([1])

(**1210**) تفيد أن الصلاة والزكاة، هما قُطْبَا العبادة في الإسلام، فإن الأولى حق الله تعالى، والثانية حق المال. والثانية دالة على صحة الأولى. ولذلك قرنهما الله في القرآن الكريم في عشرات الآيات من القرآن الكريم.

(**1211**) تفيد أن الصلاة تنظم علاقة العبد بربه، والزكاة تنظم علاقة الانسان بأخيه، ولا يقوم المجتمع المسلم إلا بالقيام بهما حقاً وصدقاً.

(**1212**) تفيد أن حصول رحمة الله الخاصة، في الدنيا والآخرة مشروطة بتحقيق عبادة الله وتوحيده، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٥٦ ﴾ [الأعراف: 156]

(**1213**) تفيد في سياقها بالآيات التي قبلها، أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، هما شعار المجتمع المسلم، وبهما يتميز عن غيره من المجتمعات.

(**1214**) فيها أن هذه الأمة لا عزة لها إلا في الإيمان بالله وعمل الصالحات، وأن أعظم تلك الأعمال هي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ففي الأولى إصلاح العلاقة بين العبد وربه، وفي الثانية إصلاحها بين العبد وأخيه.

(**1215**) يفيد تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم بالاستقلال بالطاعة، في قوله سبحانه تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنه صلى الله عليه وسلم صاحب البيان والتفصيل لما أجمله الحق سبحانه في فرضية

1 ينظر سورة النور دراسة بين فقهية بين الشيخين: ابن تيمية والشعراوي، 284.

الصلاة والزكاة وغيرهما، حيث تفصيل كل منهما في السنة المطهرة، فوجب طاعته في اتباع ذلك وكيفيته وطريقته.

(**1216**) فيها دليل على أن اتباع القرآن الكريم حقيقة وصدقاً، لا يكون إلا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ عطْف الله تعالى الأمرَ بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، على الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إجمالا، فيه دليل صريح على أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله تعالى مراده التفصيلي من هذا الأمر الإجمالي. كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل: 44]

(**1217**) يفيد حذف المتعلق في قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ العموم، أي في جميع الأوامر والنواهي، في كل أحوالكم الظاهرة والباطنة، وفي الأقوال والأفعال.

(**1218**) تفيد منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم في كونه هو المبيِّن عن الله مراده فيما أجمله، إذ الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي بيّن لنا كيف نصلي وكيف نزكي.

(**1219**) فيها الأمر بوجوب اتباع سنته صلى الله عليه وسلم، لأنها الطريق العملي لأحكام القرآن وأوامره ونواهيه.

(**1220**) فيها أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع سنته في كل أمر ونهي، سبب لجلب رحمة الله وحفظه لهذه الأمة من التفرق والتمزق.

(**1221**) في علاقتها بما قبلها تنبيه إلى أن الطريق لإقامة الاستخلاف على أساس من العدل والاستقامة والاتصال بالله تعالى، يكون بثلاثة أمور مذكورة في هذه الآية الكريمة، وتلك هداياتها الأساسية:

(**1222**) الهداية الأولي: إقامة الصلاة وقد أمر بها سبحانه في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي صلوا صلاة مقومة تستشعر فيها جلال الله تعالى وكبرياءه، وتحس فيها أنك في حضرة الله تعالى وكأنك تراه في مثولك بين يديه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذه تربية روحية، واتصال بالله سبحانه وتعالى فيكون امرأ يألف ويؤلف.

(**1223**) الهداية الثانية: إيتاء الزكاة، أي إعطاؤها لولي الأمر، وهو يصرفها في مصارفها، وهذا الأمر ذكره بقوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وعبر سبحانه بقوله: ﴿ وَءَاتُواْ ﴾ دون

(أدوا) للإشارة إلى أنها عطاء يعطى، يعطيها المزكي على أنها مغنم لا على أنها مغرم، وهي تعاون اجتماعي لا مذلة فيه لفقير، ولا استطالة لغني.

(**1224**) الهداية الثالثة: طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، في كل ما يأمر به وينهى عنه، وينظم به الدولة الإسلامية، ويقيم دعائم الحكم على أساس من العدل، وتنسيق الأمور، وهذا هو الأمر الثالث، وقد ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

(**1225**) تفيد أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته تكون باتباع ما أثر عنه وأمر به من سنته، والاقتداء به في هديه في شأن من شؤون حياة المسلم، لأن الله جعل القدوة منحصرة في شخصه، وجعل الرحمة مشروطة بطاعته في أوامره ونواهيه.

(**1226**) تعتبر هذه الآية مع التي قبلها إعلان عن أصول دولة الإسلام ومبادئها الأساسية، والتي منها، أو على رأسها: الجمع بين الإيمان والعمل الصالح.

(**1227**) تفيد أن إقامة الصلاة بأركانها وخشوعها وحفظ أوقاتها، وإيتاء الزكاة بشروطها وواجباتها، مع طاعة الرسول صلّى الله عليه وسلم واتِّباعه في كل ذلك، سبب للرحمة الشاملة من الله تعالى.

(**1228**) فيها رد على أهل الباطل، ممن يزعمون أن لا دخل للدين في أمور الدنيا وشؤونها، وأنه لا علاقة للإسلام بالسياسة وتنظيم الدولة، ذلك أن الآية ربطت بين الاستخلاف الذي هو عمارة الدنيا وإقامة شؤون الدولة وتنظيماتها؛ وإقامة الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة...

(**1229**) تشير إلى أن الرحمة كل الرحمة في هذه الحياة، إنما هي في الاهتداء بأحكام الدين وأخلاقه، في كل شأن من شؤون الحياة؛ السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأخلاقية، وغيرها.

(**1230**) تشير إلى أن حياة المجتمع المسلم لا تنتظم ولا تستقر؛ إلا بقيام نظام سياسي، يتمثل في تنصيب إمام يختاره المسلمون، يقوم مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينوب عنه في تسيير أمور الدين والدنيا، من خلال منهج الإسلام وشريعته.

- **الآية السابعة والخمسون:** ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1231**) في مناسبتها بما قبلها أنه لما كان الكفار من الكثرة والقوة بمكان، كان الحال جديراً بتأكيد معنى التمكين، جواباً لسؤال مَنْ كأنه قال: وهل ذلك ممكن فقال: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ([1])

(**1232**) تفيد في صلة بما قبلها أن الله تعالى لما بَيّن حالَ من أطاعَ نبيّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأشار إلى فوزه بالرَّحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدَّارين، عقّب ذلك ببيانِ حالِ مَن عصاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومآلِ أمرِه في الدُّنيا والآخرةِ، بعد بيانِ تناهيهِ في الفسقِ تكميلاً لأمرِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ.([2])

(**1233**) أفادت قراءة: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ﴾([3]) -بالتاء وفتح السين وكسرها- أن المخاطب محمد صلى الله عليه وسلم، و﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مفعول أول لتحسبن، ومعجزين مفعول ثان له، لأن هذا الفعل يأخذ مفعولين([4]) وفي هذه القراءة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعد له بالنصرة.

(**1234**) تفيد قراءة ﴿ لا يَحْسَبَنَّ ﴾ بياء الغيب أن المخاطب هم الكفار، أي لا يحسبن الكفار الذين كفروا معجزين في الأرض، وفيها تهديد ووعيد للكفار الذين يظنون أنفسهم معجزين لله وخارج قدرته سبحانه.([5])

(**1235**) فيها وعيد للكافرين، وتهديد لهم بالهلاك في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة. وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، بهلاك عدوهم.

---

1 ينظر نظم الدرر، 308/13

2 إرشاد العقل السليم، 192/6

3 قرأ ابن عامر وحمزة {لا يحسَبن} بياء الغيب، وفتح السين، وقرأ عاصم {لا تحسَبن} بتاء المخاطب، وفتح السين، وقرأ الباقون {لا تحسِبن} بتاء المخاطب وكسر السين. (ينظر النشر، 277/2)

4 ينظر تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر، 8/ 51

5 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 12/ 300

(**1236**) لا يُحزِنَنَّ المؤمنين ما هم فيه من الضعف والقلة، ولا يهولنهم ما عليه الكافرون من القوة والقدرة، فوعد الله بخزي الكافرين في الدنيا وعذابهم في الآخرة حق كائن لا محالة.

(**1237**) تفيد قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وأن الكافر لا مفر له من قبضة الله تعالى وقدرته، فالكون كله في قبضته وتحت أمره.

(**1238**) فيها بيان لمآل أهل الكفر والفسق في الدنيا والآخرة، وأن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأن أهل الإيمان هم الفائزون بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين.

(**1239**) تفيد النهي عن الاغترار بما مُتِّع به الكفرة في هذه الحياة، فإن الله سبحانه وإن أمهلهم، فإنه لا يهملهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٢٤﴾ [لقمان: 24]

(**1240**) تفيد أن دولة الكفر ساعة، ودولة الإسلام إلى قيام الساعة، وأن الحق يعلو ولا يُعلى عليه، وأن الحق أحق أن يتبع.

(**1241**) تعالج الآية الكريمة حالة الهزيمة النفسية التي قد تتعرض لها الأمة عند ما تفقد إحساسها بكرامتها ورفعة مكانتها، واليأس من مستقبلها، فهي تفتح باب الأمل أمامها، فما على المؤمنين إلا تحصيل شروط الاستخلاف، وأما قوة أعدائهم فقد تكفل الله بردها مهما بلغت مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٥٧﴾ [النور: 57](1)

(**1242**) تفيد أن بئس الخاتمة وشر العاقبة وسوء المصير، هي أن يكون مأوى الإنسان النار وما فيها من العذاب الأليم. فبئس المستقر والمأوى.

(**1243**) فيها من بلاغة تصوير فظاعة المصير، أنه لما كانت سكنى الشيء لا تكون إلا بعد الصيرورة إليه قال: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصيرها! فكيف إذا كان على وجه السكنى.

(**1244**) فيها أن العذاب الحقيقي هو ما ينتظر العبد الكافر يوم القيامة، حيث المستقر الدائم فشر المستقر الذي عذابه لا حد لألمه ولا نهاية للخروج منه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

1 ينظر التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، 5/ 245 لنخبة من العلماء تحت إشراف د. مصطفة مسلم.

فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة: 20،21] نسأل الله السلامة والعافية

(**1245**) فيها أنّ الباطل قد تكون له دولة ولكنها تخييل-وما لذلك بقاء- وأقلّ لبثاً من عارض ينشأ عن الغيظ.([1])

(**1246**) تفيد إلى أن العبرة بالخواتم، فلا ينبغي للعبد أن يغتر بما يعيشه ويراه، مهما قوي أو ظهر على ما سواه، فحينما يأتي أمر الله تعالى، فلا يبقى إلا ما يريده الله سبحانه.

(**1247**) فيها أن الحياة التي تنتهي بالشقاوة، أو مآل أصحابها الشقاء، فليست بحياة على الحقيقة، مهما تمتع صاحبها، بل هي استدراج ومقدمة للعذاب والهلاك.

(**1248**) فيها أنه لا مفر من الله إلا إليه، لأن الْمُلْك ملكه، والخَلْق خلقه، فمهما طغى الإنسان وتجبر، أو أعرض وجحد وكفر؛ فإنه مُدْرَك من قِبل الله، وأمره في النهاية إلى يد الله تعالى، ومآله إليه سبحانه ليواجه مصيره.

(**1249**) تدل على أنه لا ينبغي للمسلم أن يدخله اليأس، إذا رأى تجبر الكفار وطغيانهم وعلوهم، ذلك أن الله يمهل ولا يهمل، حتى إذا أخذهم، أخذهم أَخذ عزيز مقتدر، وهو سبحانه مُدرِكهم لا محالةَ، فلن يفلتوا من عقاب الله تعالى.

(**1250**) تشير إلى أن الله ناصر عباده المؤمنين، مهما ظهر ضعفهم وتأخر نصرهم، ذلك أن العاقبة للمؤمنين، وأن الظهور للإسلام والمسلمين، وفي ذلك توجيه للمسلمين، بعدم الاستسلام، والعمل على نصرة الحق.

---

1 ينظر لطائف الإشارات، 621/2

- **الآية الثامنة والخمسون:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1251**) في مناسبتها بما قبلها: رجوع إلى بيان تتمة الأحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي الواردة فيها، وفي الأحكام اللاحقة من التمثيلات والترغيب والترهيب والوعيد.([1])

(**1252**) في صلة بما قبلها أن الله سُبْحَانَهُ لَمَّا فَرَغَ مِنْ ذِكْرِ مَا ذَكَرَهُ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ، رَجَعَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الاسْتِئْذَانِ فَذَكَرَهُ هَاهُنَا عَلَى وَجْهٍ أخصّ فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ.([2])

(**1253**) في تصدير الخطاب بنداء الإيمان، الإغراء والحث على الفعل، ووجه ذلك، أن تقديره: يا من آمنت بي، وصدقت بكتابي ورسولي، استمع وأنصت لهذا الخطاب فإنه موجه إليك أنت لإيمانك هذا.

(**1254**) في خطاب النداء بالإيمان كذلك أن العمل والاستجابة من مقتضيات هذا الإيمان، وإلا فلا معنى لهذا الإيمان، فللإيمان مستلزمات ومقتضيات.

(**1255**) في الآية عودة إلى بيان تتمةِ أحكامِ الاستئذان، والنظر والنكاح والمخالطة وغيرها، بعد ذكر ما يُوجب الامتثالَ بالأوامر والنَّواهي الواردة فيها وفي الأحكام اللاَّحقةِ من التمثيلات والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ والوعدِ والوعيدِ.([3])

---

1 ينظر إرشاد العقل السليم، 193/6

2 ينظر فتح القدير، 58/4

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 193

(**1256**) الخطاب في الآية وإن كان ظاهره للصغار الذين لم يبلغوا الحلم، إلا أن المراد به الكبار، فهم المأمورون فيها بتعليم مماليكهم وخدمهم وصبيانهم، ألا يدخلوا عليهم إلا بعد الاستئذان، فالخطاب في الظاهر متوجه للصغار، وفي الحقيقة للمكلفين الكبار، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: ((مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))([1])

(**1257**) في توجيه الخطاب للموالي والصغار من خلال أوليائهم؛ دليل على أن الأولياء مؤتمنون على تبليغ حكم الله للموالي والصغار إن لم يدركوه بأنفسهم، وأن عليهم تعليمهم أحكام الشرع وآدابه.

(**1258**) تفيد أن أمر الصبي في الآية ليس متوجهاً إليه؛ لأنه غير مكلف؛ وإنما يتوجه إلى وليه أن يأمره ويعلمه ويؤدبه إن خالفه؛ وذلك كقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ))([2])

(**1259**) هذه الآية الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض. وما تقدَّم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض.([3]) فها هنا ذُكِر الاستئذان على وجه أخصّ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾

(**1260**) في الآية شرع الاستئذان لأتباع العائلة ومن هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول بيت. فهو استئناف انتقالي إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة، وعود إلى الغرض الذي ابتدئت به السورة وقُطع عند قوله: ﴿ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤ ﴾ [النور : 34](4)

(**1261**) من هدايات هذه الآية الكريمة أنها خاصة، والتي قبلها عامة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال هناك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ٢٧ ﴾ [النور :27] ثم خص هنا فقال: ﴿ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ فخص في هذه الآية بعض المستأذنين من داخل الأسرة.

---

1 أبو داود في السنن، بَابُ مَتَى يُؤْمَرُ الْغُلَامُ بِالصَّلَاةِ، حديث رقم: 495. والترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء متى يؤمر الصبي بالصلاة، حديث رقم:407. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم: 5868. 1021/2.

2 أبو داود في سننه، بَابُ مَتَى يُؤْمَرُ الْغُلَامُ بِالصَّلَاةِ، حديث رقم: 495. بسند صحيح

3 تفسير القرآن العظيم، 6/ 81

4 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 291 (بتصرف)

(**1262**) في الأية الأولى يتأول القول في جميع الأوقات عموماً. وخص في هذه الآية بعض الأوقات، فلا يدخل فيها عبد، ولا أمة، وغْداً([1]) كان أو ذا منظر إلا بعد الاستئذان.([2])

(**1263**) في الآية السابقة ذكر أحكام الاستئذان على البيوت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ [النور: 27] وهنا يبين أحكام الاستئذان في داخل البيوت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾(3)

(**1264**) يفيد ظاهر الأمر في قوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾ أنه للوجوب على ما تقتضيه صيغته، لكن الراجح عند جمهور العلماء أنه للندب والاستحباب، وأنه من باب التعليم والإرشاد إلى محاسن الآداب.

(**1265**) يستفاد من قوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾أن طلب الأمر يأتي على صورتين: فعل الأمر، وفعل المضارع المقترن بلام الأمر، فقوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾ أي علِّموا هؤلاء الذين تملكون أمرهم، أن يستأذنوا عليكم.

(**1266**) يستفاد من الآية قاعدة أصولية وهي: أن الأمر للأطفال في الشرع، لا يفيد الوجوب، لأن الوجوب إنما يتعلق بالمكلف، والأطفال غير مكلفين بالأحكام الشرعية، إنما يؤمرون بها على وجه التعليم والتأديب ليعتادها ويتدربون عليها، ويكون ذلك بواسطة والديهم.

(**1267**) دَلَّ قوله تعالى: ﴿مِنكُمۡ﴾ على أن المراد به الأطفال من الأحرار، لأن الله سبحانه قد ذكر العبيد والإماء بقوله: ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ ثم عقب ذلك بقوله: ﴿مِنكُمۡ﴾ فدلت هذه المقابلة على أن المراد به الصغار من الأحرار.([4])

(**1268**) فيها إذا كان الأطفال الصغار لا يحسن دخولهم بدون استئذان على الكبار في أوقات الخلوة، فكذلك لا يحسن دخول الخادم والأنثى، لأن هذه الأوقات أوقات تكشّف في

---

1 الوغد: (وَغَدَ) الْوَاوُ وَالْغَيْنُ وَالدَّالُ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى دَنَاءَةٍ. وَرَجُلٌ وَغْدٌ وَهُوَ الدَّنِيُّ، مِنْ قَوْلِكَ وَغَدْتُهُمْ أَغِدُهُمْ، إِذَا خَدَمْتَهُمْ. وَالْأَصْلُ الْوَغْدُ: قِدْحٌ لا حَظَّ لَهُ. (ينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس، كلمة: (وَغَدَ).

2 الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، 12/ 302

3 ينظر في ظلال القرآن، 2531/18

4 ينظر روائع البيان، 195/2

الغالب، والإنسان كما يكره اطلاع الذكور على أحواله فقد يكره اطلاع النساء عليها كذلك.([1])

(**1269**) تفيد هذه الآية تعليم آداب الاستئذان داخل الأسرة المكونة من الأبوين والأبناء، ثم الأتباع مثل الخدم وغيرهم، فللأسرة نظام خاص بها، ولذلك خصها القرآن الكريم بتشريع خاص بها بعد ذكر التشريع العام في هذا المجال.

(**1270**) تفيد أن التكليف شرط للخطاب، ولذلك خاطب الله هنا أولياء الأطفال ليعلموهم هذه الأُصول والآداب، لأنّ الأطفال لم يبلغوا بعد سنّ التكليف لتشملهم الواجبات الشرعية.

(**1271**) تفيد أن على أولياء الأمور أن يعلموا أولادهم الصغار الأحكام والآداب الشرعية، ويدربوهم على تطبيقها عملياً، حتى يتربوا عليها منذ الصغر.

(**1272**) تفيد هذه الآية أن المقصود بالحديث هنا هم الأطفال المميّزين الذين يعرفون القضايا الجنسية، ويعلمون ماذا تعني العورة. لهذا أمرهم بالاستئذان عند الدخول إلى غرفة الوالدين، بمعنى أنهم يدركون سبب هذا الاستئذان.

(**1273**) تدلّ الآية على أن من لم يبلغ وقد عَقِلَ، يُؤمر بفعل الشرائع ويُنْهَى عن ارتكاب القبائح وإن لم يكن من أهل التكليف، على جهة التعليم؛ كما أمرهم الله تعالى بالاستئذان في هذه الأوقات.([2])

(**1274**) فيها أن الصغير الذي دون البلوغ، لا يجوز أن يمكن من رؤية العورة، ولا يجوز أن ترى عورته، لأن الله لم يأمر باستئذانهم، إلا عن أمر لا يجوز.([3])

(**1275**) في التعبير عن درجة البلوغ بالحلم لكونه أظهر دلائله.([4]) وفي هذا تعليم لنا باستعمال ما هو أظهر وتقديمه على ما هو خفي، في بيان دلائل الحكم الشرعي ومناطاته.

---

1 ينظر روائع البيان، 198/2

2 ينظر أحكام القرآن للجصاص، 5/ 195

3 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 574

4 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 79

(**1276**) يفيد التصريح بوضع الثياب في الظهيرة دون الأول والآخر لما أن التجرد في هذين أمر معروف لا يحتاج إلى التصريح به.([1])

(**1277**) فيها تأديب العليم الخبير سبحانه لعباده المؤمنين بهذه الآداب ليبني أمة سليمة الأخلاق، نقية الصدور، مهذبة المشاعر، طاهرة القلوب طيبة النفوس.

(**1278**) تدل هذه الآية أن الله سبحانه حليم رحيم بالمؤمنين، يحب الحياء والستر لهم، فأمرهم بالاستئذان في تلك العورات، لأنه سبحانه حيي كريم يحب الحياء والستر؛ كما جاء في كثير من الأحاديث النبوية.

(**1279**) فيها حرص الإسلام على أن يكون المسلم في هيئة حسنة أمام الناس، وألا يبدو منه ما يشينه بينهم، حرصاً على موافقة حسن المظهر لحسن المخبر.

(**1280**) يفيد قوله تعالى: ﴿ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ (ثلاث أوقات) وليس المراد: الاستئذان ثلاث مرات، بدليل ذكره تعالى الأوقات بعدها (الظهيرة، والعشاء، والفجر) وهي أوقات الراحة والنوم.

(**1281**) تفيد قراءة: ﴿ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ ﴾ بالنصب([2]) على أنها بدل من ﴿ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ المنصوبة على أنها مصدر، وقيل على أنها ظرف تقديره: ثلاثة أوقات، أي يستأذنونكم في ثلاثة أوقات، وهذا أصح في المعنى لأنهم لم يؤمروا بالاستئذان ثلاث مرات، وإنما في ثلاثة أوقات، حيث بيّنها بعد ذلك وهي الأوقات المذكورة في الآية. وعلى هذا تكون قراءة النصب بيّنت أوقات الأاستئذان.

(**1282**) وأما قراءة الرفع: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾ فتفيد على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه ثلاث عورات أي هذه أوقات ثلاث عورات، ثم حذف المضاف (الأوقات) وجعلت الأوقات عورات لأن ظهور العورة يكون فيها. وعلى هذا تكون قراءة الرفع بينت علة الاستئذان.([3])

---

1 ينظر المرجع نفسه، 79

2 قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر {ثلاثَ عورات} بالنصب، وقرأ الباقون {ثلاثُ عورات} بالضم. (ينظر النشر، 333/2)

3 ينظر تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر، 8/ 53

(**1283**) فيها أن تعيين الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة لأنها أوقات خلوة الرجال والنساء، وأوقات التعري من الثياب، وهي أوقات نوم، وكانوا غالباً ينامون مجردين من الثياب اجتزاء بالغطاء، وقد سماها الله تعالى: ﴿ عَوْرَٰتِ ﴾ ([1])

(**1284**) يفيد إطلاق العورات على الأوقات المشتملة عليها ﴿ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتِ ﴾ من قِبل المبالغة كأنها نفس العورة.([2]) وهذا من المبالغة في التحوط. لأنها التي يكثر فيها التكشف.

(**1285**) فيها أن أصل لفظ العورة يطلق على النقص والخلل، ولما كان صاحب النقص يكره أن يرى وينكشف نقصه، دخل في معنى (العورة) كل ما يشترك في كراهة رؤيته عقلا أو شرعاً أو عرفاً ولو كان في حقيقته كاملا.([3])

(**1286**) يفيد التَّعبيرُ عن الأوقات بالمرَّات، للإيذانِ بأنَّ مدارَ وجوبِ الاستئذانِ مقارنةُ تلك الأوقاتِ لمرور المستأذنينَ بالمخاطبينَ لا أنفسِها.

(**1287**) في التصريح بخلع الثياب في هذا الوقت المحدد: ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وهو وقت القيلولة مع التعبير ب (حين) للإشارة بقلة زمانها، ولم يذكر وضع الثياب في الوقتيْن الآخريْن (العشاء) و(الفجر) وفي ذلك إشارة إلى أن أمرهما ظاهر بيِّن لا يحتاج إلى تصريح، فإذا كان وقت الظهيرة لا يحل الدخول فيه إلا بعد الاستئذان فوقت العشاء والفجر من باب أولى، لأنهما وقت الخلود إلى الراحة والنوم، والتكشف فيهما غالب.([4])

(**1288**) في التصريح بذكر وقت الفجر، ووقت العشاء، مع إسقاطه في الأوسط، بذكر (الظهيرة) بدل الظهر، دلالة على استغراقه لأنه غير منضبط، وهذا من دقة التعبير القرآني وإعجازه.

(**1289**) فيها أنه يؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال لما يخشى من انكشاف العورات ونحو ذلك من مقدمات النوم والراحة، فهي ساعات الخلوة والانفراد ووضع الملابس.([5])

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 293 (بتصرف)

2 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 79

3 ينظر التفسير والبيان، 4 / 1872

4 ينظر روائع البيان، 2/ 197،198

5 التفسير المنير، لوهبة الزحيلي، 292/18

(**1290**) فيها إشارة إلى علة وجوب الاستئذان، بأنهن أوقات يختلّ فيها التستّر عادة، ويكون النوم فيها مع الأهل غالباً.([1]) وهذا من حرص الإسلام على خلق الحياء والستر، فإن الله حيي كريم يحب الحياء والستر، كما جاء في الحديث الصحيح.

(**1291**) تشير إلى حق من حقوق الجسم ألا وهو: النوم والراحة، من خلال الإشارة إلى نوم الظهيرة، فللجسم أن ينعم بها، بعد كدّ وعمل، لكي يستعين بها على طاعة الله تعالى.

(**1292**) فيها إشارة إلى استحباب تعجيل النوم عقب صلاة العشاء، والتبكير باليقظة قبل صلاة الفجر، لما لذلك من فوائد تعود على صحة الإنسان البدنية والنفسية والعقلية، كما أثبتها الطب الحديث. وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ((كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها))([2])

(**1293**) فيها دلالة على تعليل الأحكام، لأن الله تعالى نبّه على علة طلب الاستئذان بقوله سبحانه: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴾ كما نبّه على أن التطواف علة الإباحة في غير الأوقات الثلاثة، ويغتفر في الطوافين دفعاً للحرج والمشقة ما لا يغتفر في غيرهم.([3])

(**1294**) فيها كذلك أن على المربي والمعلم ونحوهم، ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي، أن يقرن بالحكم، بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل، لأن الله – لما بين الحكم المذكور– علله بقوله: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴾([4])

(**1295**) قوله تعالى: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴾ جملة مسوقة لبيان علة (وجوب الاستئذان) فكأن الله تعالى يقول هذه هي أوقات ظهور العورات فلا تدخلوا إلا بعد الاستئذان، وفي التعبير من المبالغة ما فيه.([5])

(**1296**) تفيد تحريم النظر إلى العورات، ووجهه أنه إذا وجب الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة خوفاً من أن يفاجئهم على عورة، فمن تعمّد أن يرى العورة فهو أولى إذا، سواء كان الناظر صغيراً –مميزاً– أو كبيراً.([1])

---

1 ينظر محاسن التأويل، 404/7

2 البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ما يكره من النوم قبل العشاء، حديث رقم: 568، عن أبي برزة الأسلمي.

3 ينظر التفسير المنير، 294/18

4 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 574

5 ينظر روائع البيان، 2/ 196

(**1297**) تدل هذه الآية على أن الواجب اعتبار العلل في الأحكام إذا أمكن، لأنه تعالى نبه على العلة في هذه الأوقات الثلاثة من وجهين: أحدهما: بقوله تعالى: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ والثاني: بالتنبيه على الفرق بين هذه الأوقات الثلاثة وبين ما عداها بأنه ليس ذاك إلا لعلة التكشف في هذه الأوقات الثلاثة، وأنه لا يؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ما عدا هذه الأوقات.([2])

(**1298**) وفي الآية دلالة أيضاً على أن المميز غير البالغ يعوّد على الأدب والنظام والانضباط والإعداد لتحمل المسؤولية والتكاليف الشرعية، كما قال تعالى: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ٦﴾ [التحريم: 6] أي أدبوهم وعلموهم.([3])

(**1299**) يجب على البالغين الأحرار الاستئذان في كل وقت عند الدخول على الآخرين أجانب أو أقارب.([4])

(**1300**) تفيد الآية رفع الحرج والمشقة عن العباد، ووجه ذلك يؤخذ من رفع الحرج في عدم الاستئذان في غير هذه الأوقات الثلاث؛ لأنهم طوافون عليهم مترددون، والاستئذان في هذه الحالة فيه مشقة.([5])

(**1301**) في الآية إقرار ما جرت به العادة من أن النوم وقته بعد العشاء وقبل الفجر ووقت الظهيرة. وقد يستدل بها على أن كشف العورة في الخلوة جائز.([6])

(**1302**) يفيد قوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ أنه لا حرج ولا إثم عليكم وعليهم إذا دخلوا بدون استئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة.

---

1 ينظر تفسير سورة النور للشيخ العثيمين، 390

2 ينظر مفاتيح الغيب، 418/24

3 ينظر التفسير المنير، 295/18

4 المرجع نفسه، 298/18

5 ينظر تفسير سورة النور للشيخ العثيمين، 390

6 ينظر محاسن التأويل، 7/ 404

(**1303**) في قوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ تنبيه على أن التطواف، علة الإباحة في غير هذه الأوقات الثلاثة، وفي هذا دليل على أنه يغتفر في الطوافين دفعاً للحرج والمشقة، ما لا يغتفر في غيرهم.

(**1304**) يفيد قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ أي أن الله يوضحها لكم لتقوم الأسر على دعائم من الطهر، والمودة والرحمة.([1])

(**1305**) تفيد أن وصف الأحكام بالآيات فيه إرشاد للعباد إلى تأمل هذه الأحكام، وما تحتوي عليه من أسرار وهدايات ليستدلوا بها على مشرّعها.([2])

(**1306**) في تقديم المتعلق على المفعول الصريح: يبين لكم الآيات: اهتماماً بالمقدم وتشويقاً إلى المؤخر.([3])

(**1307**) في هذا التعبير القرآني ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ في هذا السياق؛ إشارة إلى أن هذه الآيات هي محكمات، لا تحتاج إلى تأويل، وذلك حتى يأخذوا بها، وستقيموا عليها.

(**1308**) يفيد قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أن الله له العلم المحيط بالواجبات والمستحيلات، والممكنات، والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بينها وبين مآخذها وحسنها.([4])

(**1309**) في مجيء اسم الله (الحكيم) بعد اسمه (العليم) في هذا السياق: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بيان في أنه سبحانه حكيم في وصف الدواء لكل داء، فهو سبحانه يعطي منه بالحكمة، دون إفراط أو تفريط، وهذا ما على الفقيه والمجتهد أن يراعيه في فقهه للأحكام الشرعية، واجتهاده للمستجدات الإنسانية، حتى لا يسيء للشرع من حيث أراد الإصلاح.

---

1 ينظر زهرة التفاسير، 2227/10

2 ينظر تفسير سورة النور للشيخ العثيمين، 388

3 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 79

4 تيسير الكريم الرحمن، 1/ 573

(**1310**) من هدايات هذه الآية إجمالا؛ تعليم الأسرة نوعاً من التربية الخاصة، بتلقين الأطفال عملياً ما يحسم جسارتهم، ويعلمهم كيف يتدربون على الشعور بالواجب، والشعور بالمسؤولية والمحاسبة.

(**1311**) فيها عناية الله تعالى بعباده وأنهم إن رضوا بما يستقبح فلن يرضى الله به، لأنه قد يقول قائل: أنا لا أبالي إذا دخل علي طفلي في هذه الأوقات الثلاثة؛ فنقول له: ولكن الله سبحانه قد اعتنى بك ومنع من الدخول عليك في هذه الأوقات الثلاثة.([1]) وهذا من غيرة الله تعالى، فإن الله يغار وغيرته أن تنتهك حرماته.

(**1312**) تفيد الآية الكريمة ألواناً من الأدب السامى، الذي يجعل الكبار والصغار يعيشون عيشة فاضلة، عامرة بالطهر والعفاف والحياء، والنقاء من كل ما يجرح الشعور، ومن كل تصور يتنافى مع الخلق الكريم.([2])

(**1313**) في هذه الآية الكريم ذكر لمقصد الاستئذان في الأوقات الثلاثة، فهُن ثلاثةُ أوقات يختل فيها التستر عادةً، والعورة في الأصل هو: الخلل، غلب في الخلل الواقع فيما يهم حفظُه، ويعتنى بستره، أُطلقت على الأوقات المشتملة عليها مبالغة كأنها نفس العورة.([3])

(**1314**) تدل هذه الآية أن هناك ضوابط اجتماعية للمجتمع العام، وضوابط اجتماعية للمجتمع الخاص وهو الأسرة، وحرية المرء في أسرته أوسع من حريته في المجتمع العام، فإنْ كان في حجرته الخاصة كانت حريته أوسعَ من حريته مع الأسرة.

(**1315**) فيها أن الخصوصيات تختلف عن العموميات، ولذلك تحتاج إلى ضوابط خاصة زائدة على الضوابط العامة، ومن هنا كانت علاقات الأفراد في الأسرة الواحدة، تختلف أحكامها وتوجيهاتها وضوابطها عن علاقات الأفراد خارج الأسرة.

(**1316**) في ختام الآية بهذين الاسمين الكريمين: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ من دقة التناسب مع مضمونها ما لا يخفى، ووجه ذلك أن الله تعالى، لما تحدث عن تفاصيل أحكام الاستئذان الخاصة بالعائلة وما من تخللها من شروط وضوابط، ختم الآية بأنه إنما شرع ذلك

---

1 ينظر تفسير سورة النور للشيخ العثيمين، 392

2 ينظر التفسير الوسيط، سيد طنطاوي.6/ 1468

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 4/ 483

لأنه عليم بأحوال العباد، حَكِيمٌ في جميع أفعاله فيشرع لهم ما فيه صلاحُ أمرِهم في المعاش والمعاد.

(**1317**) في هذا الختم دلالة على أن أحكام الله وتشريعاته، قائمة على الحكم ومصالح العباد في المعش والمعاد، فهي عدل كلها، ورحمة كلها، وعدل كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها. كما قال ابن القيم رحمه الله.([1])

(**1318**) في دلالة هذا الختام دعوة إلى فقه أسماء تعالى وصفاته، فما من اسم من أسمائه، أو صفة من صفاته سبحانه وتعالى، إلا وله أسرار، وأنوار، ومقاصد، في سياق وروده، سواء كان ذلك في سياق الأحكام التشريعية، أو العقائد الإيمانية، أو الفضائل الأخلاقية، أو غيره.

1 ينظر إعلام الموقعين، 3/15،14

- **الآية التاسعة والخمسون:** ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1319**) في مناسبتها بما قبلها أن الله تعالى: لما بيّن حكم الصبيان والأرقاء الذين هم أطوع للأمر، وأقبل لكل خير، أتبعه بذكر حكم البالغين، من الأحرار فقال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ﴾ أي من أحراركم.([1])

(**1320**) تفيد في علاقتها بالآية التي قبلها؛ أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن، إلا في العورات الثلاث. فإذا اعتاد الأطفال ذلك، ثم خرجوا عن حدّ الطفولة، بأن يحتلموا أو يبلغوا السنّ التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة، ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات، كما يستأذن الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن.([2])

(**1321**) في علاقة هذه الآية بما قبلها دلالة على التدرج في التربية والتعليم، والذي يتجلى في تربية الأطفال على الاستئذان، في الأوقات الثلاث، فإذا بلغوا عُلِّموا الاستئذان في الأوقات كلها، فلو تُرِكت المرحلة السابقة لصعب عليهم الاستئذان في الأوقات كلها، لما جُبِلوا عليه من الحرية في الطواف في الأماكن كلها من البيت.

(**1322**) في هذه الآية تشديد على الصغار بعد بلوغهم في دخولهم على والديهم وإخوانهم وأخواتهم وأعمامهم وخالاتهم، وأن ثبوت المحرمية لا يعني جواز الدخول بلا إذن؛ لأن ثمة عورات لا يصح لأحد أن يراها حتى الأرحام سوى الزوجات.

(**1323**) فيها أن الله قد خفف على الصغار في حال صغرهم، لكنه بعد بلوغهم ألحقهم بمن سبقهم من الحالمين والكبار، تدريباً لهم على تحمل الأمانات والمسؤوليات.

---

1 ينظر نظم الدرر، 3/ 312

2 ينظر محاسن التأويل، 405/7

(**1324**) في قوله تعالى: ﴿بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ﴾ خطاب لأطفال الناس، أي أطفالكم، وليس لأطفال الأبعدين، فإن كان هذا الحكم في أطفالهم، فأطفال الأبعدين من باب أولى.

(**1325**) في التعبير عن سن البلوغ بالحلم لكونه أظهر دلائله، وهذا من جمال ودقة التعبير القرآني في التشريع.

(**1326**) تفيد أن الطفل يؤمر بالاستئذان في بعض الأوقات حتى يبلغ، فإذا بلغ أُمر بأن يستأذن في جميع الأوقات كالكبار، وذاك أمر قرآني يغفل عنه كثير من الناس.

(**1327**) تفيد أن البلوغ شرط للتكليف وتحمل المسؤولية، ومن ثم المحاسبة عليها. لأنه سبحانه ربط الأمر بالاستئذان ببلوغ الصغير الاحتلام، فدل ذلك على أن الاحتلام بلوغ.

(**1328**) تشير إلى أن الطفل حينما يبلغ يدخل في طور جديد من عمره، ومن حسن التربية أن تراعى هذه المرحلة ويُتعامل معه على هذا الأساس.

(**1329**) تشير الآية إلى أن الطفل يصبح مكلفاً بمجرد الاحتلام، وأن الاحتلام علامة واضحة على بلوغ الصبي، وكذلك الفتاة إذا احتلمت أو حاضت فقد بلغت كذلك، وهذا ما اتفق عليه الفقهاء.

(**1330**) في الحكمة من ذكر (سن الاحتلام) في هذه الآيات: أن الإنسان في هذا العمر سريع الاستثارة، قليل الصبر على الانفعالات، غير مدرك لعواقب ما يصدر عنه -كما هو الحال عند ذوي التجربة من البالغين الكبار- فجاء هذا التوجيه الرباني الحكيم ليضبط الحياة بثوب الحياء تارة، وباستثارة الوازع الرقابي تارة أخرى، ويرد تلك الأوامر لعلمه وحكمته: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾([1])

(**1331**) تفيد أن البالغين لا يدخلوا عليكم في وقت من الأوقات إلاّ بإذن، لا في أوقات العَورات الثلاث، ولا في غيرها ﴿كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأحرار. روى الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس قال: أما من بلغ الحُلُم، فإنه لا يدخل على الرجل

1 دلالة سورة النور على مقصد حفظ النسل، 480

وأهله يعني من الصبيان الأحرار إلا بإذن على كل حال، وهو قوله: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.([1])

(**1332**) في الآية دليل على وجوب الاستئذان للبالغين من الذكور والإناث، عند الدخول على أهليهم في جميع الأوقات.

(**1333**) في حكمة التعبير بقوله تعالى:﴿ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا ﴾وَلَمْ يَقُلْ فَلْيَسْتَأْذِنُوكُمْ. وَقَالَ فِي الْأُولَى: ﴿ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ﴾ لِأَنَّ الْأَطْفَالَ غَيْرُ مُخَاطَبِينَ وَلَا مُتَعَبَّدِينَ.([2])

(**1334**) فيها بيان من الله عز وجل لأحكامه وإيضاح حلاله وحرامه. وذلك لأَنَّ الْأَطْفَالَ أُمِرُوا بِالِاسْتِئْذَانِ فِي الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَأُبِيحَ لَهُمُ الْأَمْرُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ. ثم أمر اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَكُونُوا إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ عَلَى حُكْمِ الرِّجَالِ فِي الِاسْتِئْذَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ.(3)

(**1335**) تفيد اهتمام القرآن الكريم في تشريعاته بمرحلة الطفولة، من خلال تعليمهم آداب الاستئذان في أوقات دون أخرى، لتدريبهم على الأمر والنهي الرباني والوقوف عند حدود الله.

(**1336**) فيها أن من الخطأ ما تقع فيه بعض الأسر من اللامبالاة فيما يخص الأطفال، وتركهم، دون استصحاب أحكام الشرع في كل مرحلة من مراحل حياتهم.

(**1337**) فيها أن الله بيّن آياته، وأحكامه وشرائع دينه، ووضحها كما بين أمر هؤلاء الأطفال في الاستئذان بعد البلوغ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾([4])

(**1338**) لَمّا كانت آيات الاستئذان أتقن حاسم لمواد الشر، وتركها أعظم فاتح لأبواب الفتن، وكان إخراج الكلام، في أحكام الحلال والحرام، مع التهذيب والبيان، في النهاية من الصعوبة، وكان فطم النفوس عما ألفت في غاية من العسر شديدة، أشار سبحانه إلى ذلك بتكرير آية البيان، إشارة إلى أنها –لما لها من العلو– جديرة بالتأكيد، وإلى أن البلغاء يستبعدون

---

1 جامع البيان في تأويل القرآن، 19/ 215

2 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 308/12

3 ينظر المرجع نفسه، 308/12

4 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 215/19

القدرة على البيان كلما أريد على هذا السنن فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك البيان الذي بينه في آيات الأحكام يبين لكم بما له من صفات الكمال مع ما لكم من خلال النقص.([1])

(**1339**) فيها جمال حكمة الله في بيانه للحلال والحرام، فإنه عليم بأحوال عباده ظاهرها وباطنها، فلذلك شرع لهم ما تقوم به حياتهم من آداب الطهر والحياة والمودة.

(**1340**) تفيد أن على المؤمن أن يكون وقّافاً عند حدود الله، بعدم تجاوزها، أو مخالفتها، لما في ذلك من عواقب، كما يفيده قوله تعالى: لكم ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾

(**1341**) في فائدة الفرق بين قوله تعالى هنا: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ وبين التي قبلها: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أن هذه خاصة بالأطفال، وما قبلَها عامة في العبيد والأطفال، فأطلقت الآية في الأولى، ولم تقيد بالإضافة، وأضيفت هذه، فعبّر عنها بلفظ خاص. ومنهم مَن أجاب بأن الخطاب هنا للبالغين، فأسند فيه الحكم إلى الله تعالى، تخويفاً لهم وتشديداً عليهم.([2])

(**1342**) في إضافة الآيات هنا إليه سبحانه: ﴿ ءَايَٰتِهِۦ﴾ تعظيماً لها، إشارة إلى أنها مقدمة للآيات الإلهيات، لأن من لم يتفرغ من مكدرات الأفكار، لم يطر ذلك المطار، وحثاً على تدبر ما تقدم منها لاستحضار ما دعت إليه من الحكم، وفصلت به من المواعظ، وتنبيهاً على ما فيها من العلوم النافعة ديناً ودنيا.([3])

(**1343**) في هذه الآيات يعلمنا القرآن الكريم نوعاً من التربية المترلية التي تلقن الأطفال ما يحسم جسارتهم، وتربيهم على تحمل المسؤولية والشعور بالواجب.

(**1344**) تشير الآية إلى أن البيت هو المحضن الأساس الذي إما أن يخرج منه الطفل سوي الأخلاق، سليم السلوك والأفعال، وإما أن يخرج فاسد الأخلاق منحرف السلوك والأفعال.

---

1 ينظر نظم الدرر، 313/13

2 ينظر تفسير ابن عرفة، 3/ 229

3 ينظر نظم الدرر، 13/ 313

(**1345**) تشير إلى عظمة مسؤولية الوالدين تجاه أولادهم ومَنْ تحت مسؤولياتهم. ففي الحديث الصحيح: ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أَوْ يُنَصِّرَانِه، أَوْ يُمَجِّسَانِه، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ))، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: 30](1)

(**1346**) تشير إلى أن كثير من أمراضنا الأخلاقية والاجتماعية يعود أصلها إلى البيوت، نتيجة لعدم وجود التربية القرآنية فيها قولا، وفعلاً، وسلوكاً، إلا من رحم الله تعالى.

(**1347**) تشير إلى قاعدة: أن أصل صلاح الفرد والمجتمع هو في صلاح الأسرة، كما أكد ذلك القرآن والسنة النبوية، والاستثناء لا يخرم القاعدة بل يؤكدها.

(**1348**) في هذه الآية الكريمة مع التي قبلها، دعوة إلى بناء البيوت المسلمة على الفضيلة، وكريم الأخلاق، وجميل السجايا، لتتربّى الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم في منأى عن المفاسد التي تعج بها المجتمعات الأخرى، ولتكون الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم نوراً يهتدى به.

(**1349**) يستفاد من هذه الآية –مع التي قبلها– كذلك، أن الإسلام دين الأدب والستر والجمال، والحشمة، والوقار، في النفوس، والجوارح، والبيوت. وبين الأقارب والأباعد.

(**1350**) يدل ختم هذه الآية بهذين الاسمين: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ على أن الله عليم بما يصلح خلقه، حكيم في تدبيره أمورهم، بما يسعدهم في الدنيا والآخرة.

(**1351**) في مناسبة هذا الختم بما ذكر في الآية من دقة الأحكام ومقاصدها الإيمانية والتربوية، زيادة في الترغيب في العلم والحكمة، وذلك إشارة إلى أن ذلك سبيل كل هداية، وسبب كل سعادة في الدنيا والآخرة.

(**1352**) تدل هذه الآية مع ما قبلها –في هذا السياق؛ سياق أدب البيوت– أن هذا الدين هو دين الأخلاق السامية الرفيعة، فهو دين يضفى على أتباعه من خلال هذا الأدب ستراً جميلا من التصوّن، والتعفف، والحياء، بهذه الحواجز الرقيقة التي لا تشف عما وراءها من عورات، وذلك لا يكون إلا فى مجتمع كملت إنسانيته، ورقت مشاعره، فعرف لنفسه قدرها، ولكرامته حقها.

---

1 البخارين كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام. رقم الحديث: 1358. ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. رقم: 2658

(**1353**) فيها أن الحياء هو لباس الإنسانية التي جمّلها الله سبحانه وتعالى به.. ولهذا كان أول ما ظهر على آدم من صفات الإنسان هى ستر عورته، حين ظهرت إرادته بهذا العصيان الذي عصى به ربّه، وأكل من الشجرة التي نهى عن الأكل منها.. إنه هنا كائن ذو إرادة.. إنه إنسان..!([1])

(**1354**) يدل خلق الحياء والستر المأمور به ومراعاته في هذه الآية وسابقتها، أن الحياء هو أصل فطرة الإنسان.. وهو أول شعور وجده فى كيانه، وستر العورة أول صنيع صنعه ليخرج به عن عالم الحيوان، كما قصة آدم وزوجه عليهما السلام..!

1 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1322

الآية الستون: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1355**) تفيد في صلة بما قبلها؛ أن الله تعالى لَمَّا أَمَرَ النِّسَاءَ بِالتَّحَفُّظِ مِنَ الرِّجَالِ، وَمِنَ الأَطْفَالِ غَيْرِ الْبُلَّغِ، فِي الأَوْقَاتِ الَّتِي هِيَ مَظِنَّةُ كَشْفِ عَوْرَتِهِنَّ، اسْتُثْنِيَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتِي كَبُرْنَ وَقَعَدْنَ عَنِ الْمَيْلِ إِلَيْهِنَّ وَالافْتِتَانِ بِهِنَّ فَقَالَ: وَالْقَوَاعِدُ.(1)

(**1356**) في مناسبتها بما قبلها كذلك؛ أن الله سبحانه لما ذكر اقتبال الشباب، في تغيير حكم الحجاب، أتبعه الحكم عند إدبار الشباب، في إلقاء الظاهر من الثياب، فقال: والقواعد.([2])

(**1357**) فيها استثناء لما أمر به سبحانه من عدم إظهار زينة النساء ووجوب إخفائها منعاً لإثارة الفتن والشهوات. فعاد هنا سبحانه يستثني من النساء القواعد اللواتي فرغت نفوسهن من الرغبة في معاشرة الرجال؛ وفرغت أجسامهن من الفتنة المثيرة للشهوات.([3])

(**1358**) تفيد أن النساء اللَّوَاتِي قَعَدْنَ عَنْ الْحَيْضِ وَعَنْ الْوَلَدِ، وَلَيْسَ فِيهِنَّ رَغْبَةٌ لأَحَدٍ، وَلا يَتَعَلَّقُ بِهِنَّ الْقَلْبُ فِي نِكَاحٍ، يَجُوزُ النَّظَرُ إِلَيْهِنَّ بِخِلافِ الشَّبَابِ مِنْهُنَّ.(4)

(**1359**) تفيد أن تخصيص الْقَوَاعِدَ بالحديث دُونَ غَيْرِهِنَّ لانْصِرَافِ النُّفُوسِ عَنْهُنَّ، وَلأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ بِالتَّسَتُّرِ الْكَامِلِ خَيْرٌ من فِعْلِ الْمُبَاحِ لَهُنَّ من وَضْعِ الثِّيَابِ.

(**1360**) فيها أن الله تعالى خصهن بذلك لأن التهمة مرتفعة عنهن، وقد بلغن هذا المبلغ فلو غلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع الثياب.(5)

---

1 ينظر البحر المحيط، في التفسير، 8/ 70

2 ينظر نظم الدرر، 13/ 313

3 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2533

4 ينظر أحكام القرآن، لابن العربي، 419/3

5 ينظر مفاتيح الغيب، 373/11

(**1361**) التعبير بالقواعد جمع قاعد وما سميت قاعداً إلا بالقعود، لأنها إذا أسنت عجزت عن التصرف وكثرة الحركة، وأطالت القعود، فقيل لها: (قاعد) بلا هاء، ليدل حذف الهاء على أنه قعود كبر.(1)

(**1362**) فيها أن القواعد هن اللواتي قعدن عن الحيض والولد من الكبر ولا مطمع لهن في الأزواج، والأولى ألا يعتبر قعودهن عن الحيض لأن ذلك ينقطع والرغبة فيهن باقية، فالمراد قعودهن عن حال الزوج، وذلك لا يكون إلا إذا بلغن في السن بحيث لا يرغب فيهن الرجال.(2)

(**1363**) في الآية دلالة على أنه يباح للعجوز كشف وجهها ويديها بين يدي الرجال، وأما شعرها، فيحرم النظر إليه كشعر الشابة.(3)

(**1364**) تفيد أن القواعد من النساء لا إثم عليهن في بيوتهن أن يضعن جلبابهن، والرداء الذي فوق الثياب، والقناع الذي فوق الخمار، ونحوها، روى الطبري بسنده عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ وهي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرع وخمار، وتضع عنها الجلباب ما لم تتبرّج لما يكره الله وهو قوله: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾(4)

(**1365**) في قوله تعالى: ﴿ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء، وهو ما يسمى في البلاغة بالمجاز المرسل، إذ ليس المقصود أن يضعن جميع ثيابهن، وإنما المراد بعضها، كالثياب الظاهرة والتي لا يؤدي وضعها لكشف العورة، وذلك كالرداء والجلباب وما يشبههما.

(**1366**) فيها تيسير ورخصة للعجائز برفع الحرج عليهن، في وضع الثياب الظاهرة التي لا يفضي وضعها لكشف العورة، كالجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار.

(**1367**) فيها إذا كان الحجاب للقواعد من النساء خيراً لهن من وضع الثياب، فتلك إشارة واضحة إلى أن الشابات بذلك أولى، وهو عليهن آكد وأوجب.

---

1 ينظر زاد المسير، لابن الجوزي، 306/3

2 ينظر مفاتيح الغيب، 11/ 370

3 ينظر زاد المسير، 306/3

4 جامع البيان في تأويل القرآن، 19/ 216

(**1368**) فيها أن ما يدل على أن الشرع الإسلامي يمنع كل ما عساه أن يكون ذريعة للشر والفجور، وهو يعبر عنه في القاعدة التشريعية الفقهية ب:(سد الذرائع)

(**1369**) تفيد أن من التبرج أن تلبس المرأة ثوباً رَقِيقًا يَصِفُهَا، أو يصف شيئاً من عورتها، مما لا يجوز النظر إليه.

(**1370**) يفيد قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ ﴾ أي غير مظهرات ولا متعرضات بالزينة لينظر إليهن، فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعده عن الحق.(1)

(**1371**) يفيد قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ ﴾ أن الله أباح لهن وضْع الثياب بشرط ألا يقصدن إظهار زينة، لأن التبرج هو الظهور.(2) بمعنى أن لا تظهر المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره شرعاً.

(**1372**) تفيد أن التبرج بالزينة هو التحلي بما ليس من العادة التحلي به، في الظاهر من تحمير، وتبييض، وكذلك الألوان النادرة، أو الجذابة الملفتة.([3])

(**1373**) تفيد أن خيراً للقواعد من النساء أن يستعففن، بأن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة، طلباً للعفة، وإيثاراً لها، لما بين التبرج والفتنة من صلة؛ وبين التحجب والعفة من صلة. وذلك حسب نظرية الإسلام في أن خير سبل العفة تقليل فرص الغواية، والحيلولة بين المثيرات وبين النفوس.([4])

(**1374**) من هدايات هذه الآية أن الله تعالى سمى إبقاء ثيابهن عليهن استعفافاً. أى طلباً للعفة، للإشعار بأن الاحتشام والتستر خير للمرأة حتى ولو كانت من القواعد.([5])

(**1375**) فيها إثبات تفاضل الأعمال، وأن بعض الأعمال أفضل من بعض، وهو ما يفيده قوله تعالى: ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ ﴾ يعني من عدم الاستعفاف.

---

1 ينظرالجامع لأحكام القرآن، 12/ 309

2 ينظر التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي، 2/ 75

3 ينظر التحير والتنوير، 298/18

4 ينظر في ظلال القرآن، 2533/18

5 التفسير الوسيط، لسيد طنطاوي.6/ 1466

(**1376**) فيها إذا كان استعفاف العجائز عن وضع الثياب خيراً لهن، فما ظنك بذوات الزينة من الشواب؟ وأبلغ من هذا أن التستر والتحفظ إذا كان مطلوباً من القواعد، فكيف بالكواعب؟

(**1377**) يفيد لفظ الاستعفاف: ﴿ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَۚ ﴾ التعفف أي طلب العفة، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استجاب، أي تعففهن عن وضع الثياب عنهن أفضل لهن ولذلك قيد هذا الإذن بالحال وهو غير متبرجات بزينة.([1])

(**1378**) في قوله تعالى: ﴿ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ ﴾ ما يشير إلى أن ترك بعض المباح، أو ما يجوز فعله يكون أحياناً أفضل لمن أراد تحقيق الورع والبعد عن التُّهمَة.

(**1379**) فيها إذا كان الله تعالى جعل عدم وضع الثياب في حق القواعد من الاستعفاف، إيذاناً بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة، هذا في القواعد فكيف بالكواعب؟([2])

(**1380**) تدل على سمو خلق العفة في كل شيء، وأنه مقدم على غيره مما يباح أو يجوز فعله من الأقوال والأفعال.

(**1381**) فيها أن من مقاصد التشريع في حرمة التبرج؛ هو المحافظة على العرض، بدفع الإثارات الشهوانية.

(**1382**) تشير إلى أن بين التبرج والفتنة صلة كبرى، وبين الحجاب والعفاف عروة وثقى، وخير سبيل للعفة هو المحافظة قواعد الحجاب، وآداب اللباس للحيلولة بين المثيرات والنفوس المريضة.

(**1383**) يشير قوله تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ ﴾ أن هذا التخفيف هو رخصة، من الله تعالى للمرأة القاعد، للتخفيف والرحمة، تضعها فى يدها، وتستعملها عند الضرورة، بعقل وحكمة ودين، والله سميع عليم.

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 298/18

2 ينظر روح المعاني، 407/9

(**1384**) في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وعيد وتحذير، أي أنه سميع لأقوالهن، عليم بنياتهن ومقاصدهن، فليحذرن من كل قول وقصد فاسد، وليعلمن أن الله يجازي على ذلك.

(**1385**) تفيد وجوب مراقبة الله تعالى في كل الأقوال والأفعال، لأنه سبحانه سميع عليم.

(**1386**) جملة: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ مسوقة مساق التذييل للتحذير من التوسع في الرخصة، أو جعلها ذريعة لما لا يحمد شرعا، فوصف (السميع) تذكير بأنه يسمع ما تحدثهن به أنفسهن من المقاصد، ووصف (العليم) تذكير بأنه يعلم أحوال وضعهن الثياب وتبرجهن ونحوها.([1])

(**1387**) في ختم هذه الآية بهذين الاسمين الجليلين: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ما يدل على دقة التناسب، ذلك أن الله أباح للقواعد من النساء وضْع الثياب بشرط ألا يقصدن إظهار زينة، فإن قصدن ذلك وعبرن بما يخالفه فإن الله سميع عليم.

(**1388**) يفيد هذا الختام إلى أهمية ربط الأحكام التشريعية بالإيمان والعقيدة، حتى يعلم المؤمن أن مقتضى الإيمان أن يراقب ربه في الاستجابة له، وتطبيق أحكامه كما يريد سبحانه.

(**1389**) تدل –مع التي قبلها– على شمولية التشريع، ودقته، وتفاصيله، فلا يدع مرحلة من مراحل العمر الإنساني –ذكراً كان أو أنثى– إلا ويخصها بما يصلحها من الأحكام، أمراً، وإرشاداً وتوجيهاً، وتأديباً، سواء تعلق الأمر بالعقائد، أو العبادات، أو الأخلاق، أو غيرها مما تصلح به الحياة، وتسعد به الإنسانية.

(**1390**) تفيد هذه الآية –مع الآية السابقة– اعتناء الشارع الحكيم بالمرأة المسلمة من خلال وضع قواعد تسير عليها في زِيِّها، وسلوكها، ومِشْيتها، حمايةً لها، وصيانةً للمجتمع من الفتنة.

(**1391**) فيها كذلك –مع التي قبلها– أن للمرأة المسلمة دوراً كبيراً في بناء المجتمع، تربية، ودعوة، وإصلاحاً، وكل ما دعت الضرورة لخروجها إليه، ولذلك وضع لها الشارع

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 299/18

الحكيم هذه القواعد والضوابط في لباسها وزيها، ومشيتها وسلوكها، حتى يكون خروجها آمناً مأموناً من جلب الفتن.

(**1392**) في تكرار هذا الاسم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ عند ختم هذه الآيات (هذه واللواتي قبلها) في سياق هذا التشريع الأسري الخاص؛ تربية على الشعور بمراقبة الله، ذلك أن الإنسان، قد يتأدب ويتكلف الأخلاق في الفضاء العام، وأمام الناس، لكنه إذا كان في بيته قد يظن أن له أن يتصرف كيف يشاء، أو أن ستر الحياء لا معنى له ما دام في بيته، وأمام من يعايشهم صباح مساء.

- **الآية الواحدة والستون:** ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1393**) فيها من دقة المناسبة أن الله تعالى لما أتم ما ذكر من حرمات البيوت المستلزمة لصيانة الأبضاع على وجه يلزم منه إحراز الأموال، أتبعه ما يباح من ذلك للأكل الذي هو من أجلّ مقاصد الأموال اجتماعاً وانفراداً، فقال في جواب من كأنه سأل: هل هذا التحجير في البيوت سارٍ في الأقارب وغيرهم في جميع الأحوال؟: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾([1])

(**1394**) في مناسبتها بما قبلها أنه لما كان هذا الاختلاط بين الأقارب، وهذا لتزاور بين المسلمين عامة، يضع المخالطين والزائرين فى أحوال يشهدون فيها طعاماً بين يدى أهل البيت الذي دخلوا إليه مستأذنين؛ فقد كان من تمام الحكمة أن تبين الشريعة ما يقضي به الموقف إزاء هذا الطعام الممدود، وهل من حرج على من يحضره أن يتناول منه، إذا دعى إليه؟([2])

(**1395**) تفيد حسب أسباب النزول، نفي الحرج عن أن يأكل أحد عند أحد، كما روى الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس: لَمّا أنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء: 29] قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا

---

1 ينظر نظم الدرر، 13/ 315

2 ينظر التفسير القرآني للقرآن 9 / 1326

بيننا بالباطل، والطعام من أفضل الأموال، فلا يحلّ لأحد منا أن يأكل عند أحد. فكفّ الناس عن ذلك، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ... إلى قوله: أَوْ مَا مَلَكْتُم﴾([1])

(**1396**) تشير -حسب أسباب النزول كذلك- إلى ورع الصحابة رضي الله عنهم، وشدة خوفهم من الله تعالى، مما جعلهم يخشون الوقوع في الحرام، بأن يأكلوا ما ليس لهم، إذا هم أكلوا مع الأعمى، أو الأعرج...

(**1397**) فيها أن تقديم الأعمى على الأعرج لوكادته في عدم المؤاخذة، ثم ذكر المريض بعدهما، لأن مرضه ليس عاهة، فقد يرفع عن صاحبه ويُشفَى، وهذا من بلاغة القرآن الكريم، وإعجازه في ترتيب الألفاظ حسب معانيها ومقاصدها.

(**1398**) فيها نفي الحرج عن أَهْلِ الْعِلَّةِ، كالأَعْمَى والأَعْرَجِ، وَالْمَرِيضِ، مِمَّنْ يَتَخَلَّفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجهاد، مِن أن يأكلوا من بيوت أقاربيهم حيث يتركون لهم مفاتيح بيوتهم.

(**1399**) تفيد الآية حسب سبب نزولها أَنَّ أُنَاساً كَانُوا إِذَا خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يَعْنُونَ فِي الْجِهَادِ- وَضَعُوا مَفَاتِيحَ بُيُوتِهِمْ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلَّةِ مِمَّنْ يَتَخَلَّفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عِنْدَ الأَعْمَى، وَالأَعْرَجِ، وَالْمَرِيضِ، وَعِنْدَ أَقَارِبِهِمْ، وَكَانُوا يَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا من بُيُوتِهِمْ إِذَا احْتَاجُوا إِلَى ذَلِكَ، فَكَانُوا يَتَّقُونَهُ وَيَقُولُونَ: نَخْشَى أَلاّ تَكُونَ نُفُوسُهُمْ بِذَلِكَ طَيِّبَةً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ يَحِلُّهُ لَهُمْ.([2])

(**1400**) تفيد أن للمعذور أن يأكل لرفع جوعه من كل بيت أو مكان، ذلك لأن عذره بذاته يثبت له الحق على المجتمع كله، فله أن يأكل الطعم حيث وجده في المجتمع.

(**1401**) يفيد إعادة وتكرار حرف (لا) مع المعطوف على المنفي قبله، تأكيداً لمعنى النفي فيما ذكر، وهو استعمال كثير.([3])

---

1 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 219/19

2 ينظر أحكام القرآن لابن العربي، 3/ 420.

3 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 301

(**1402**) فيها ترخيص للمسلمين أن يأكلوا مع العميان والعُرْج والمرضى، وأن يأكلوا في بيوت غيرهم، وعلى بمعنى (في) وذلك أنهم تحرّجوا من ذلك لما نزلت: ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء: 29](1)

(**1403**) فيها إذا جاءت الأعذار سُهلَ الامتحانُ والاختيارُ، وإذا حصلت القرابةُ سقطت الحشمة، وإذا صدقت القرابة انتفت التفرقة والأجنبية؛ فبشهادة هذه الآية إذا انتفت هذه الشروط صَحَّتْ المباسطة في الارتفاق.(2)

(**1404**) يفيد ظاهر الآية وأمر الشريعة، أن الحرج عن العباد مرفوع، في كل ما يضطرهم إليه العذر، وتقتضي نيتهم الإتيان بالأكمل، ويقتضي العذر أن يقع منهم الأنقص، فالحرج مرفوع عنهم في هذا.(3)

(**1405**) فيها أن اللَّهَ رَفَعَ الْحَرَجَ عَنْ الأَعْمَى فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ الَّذِي يُشْتَرَطُ فِيهِ الْبَصَرُ، وَعَنْ الْأَعْرَجِ فِيمَا يُشْتَرَطُ فِي التَّكْلِيفِ بِهِ الْمَشْيُ، وَمَا يَتَعَذَّرُ من الأَفْعَالِ مَعَ وُجُودِ الْحَرَجِ، وَعَنْ الْمَرِيضِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ الَّذِي يُؤَثِّرُ الْمَرَضُ فِي إسْقَاطِهِ كَالصَّوْمِ، وَشُرُوطِ الصَّلَاةِ، وَأَرْكَانِهَا، وَالْجِهَادِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.(4)

(**1406**) تفيد التنبيه على الرفق بالضعفاء، والفقراء، وأصحاب العاهات والأعذار، وغيرهم، وهو من الأخلاق العظيمة في الإسلام.

(**1407**) فيها الرحمة بالضعفاء، ومراعاة أحوال ذوي الأعذار مما عنيت به الشريعة الإسلامية في أحكامها وتشريعاتها.

(**1408**) فيها إرشاد الناس إلى ضرورة معاملة أولي الضرر معاملة حسنة، تخفف عنهم بعض ما يشعرون به من مضض الحياة ومرّ الحال، لأن الله امتحن العباد بعضهم ببعض لتحقيق عبادة: التراحم والتواد والتعاطف، والتي هي مقياس لقوة الإيمان من ضعفه.

---

1 ينظر: أسباب النزول الواحدي ص248-249، ولباب النقول للسيوطي ص202-203.

2 لطائف الإشارات، للإمام القشيري، 2/ 375

3 ينظر المحرر الوجيز، 4/ 195

4 أحكام القرآن لابن العربي، 3/ 424.

(**1409**) فيها تنبيه للمسلمين بأن ذوي العاهات والأعذار، لا ينبغي أن يكونوا في المجتمع الإسلامي أقل من غيرهم في التقدير والاعتبار، إذ لا يصح عزلهم عن الحياة الاجتماعية بالمرة، لما يجلبه لهم ذلك من الشعور بالغضاضة والمرارة والحسرة.([1])

(**1410**) تدل على واقعية هذه الشريعة في هداياتها العملية، فهي تخاطب كل أفراد المجتمع، مع مراعاة أحوالهم، والنظر إلى واقع ظروفهم، وما يتعذر على البعض مما يستطيعه الآخرون.

(**1411**) تشير هذه الآية إلى مجموعة من القواعد الشرعية؛ منها: "أن الحرج مرفوع" ومنها: "أن المشقة تجلب التيسير" ومنها: "إذا ضاق الأمر اتسع" ومنها: "الضرورات تبيح المحظورات".. وغيرها من القواعد التي تدل على رحمة هذه الشريعة وسماحتها.

(**1412**) فيها إذا تعمق التآلف انتفت الفرقة والتنافر، وصحت المسامحة والتغاضي، فلا يُتَحرّج مما جرت به العادة في الأكل ونحوه.

(**1413**) يفيد قوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ...﴾ إباحة الأَكْلَ لِهَؤُلاءِ من جِهَةِ النَّسَبِ من غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ فِي الأَكْلِ إِذَا كَانَ الطَّعَامُ مَبْذُولاً. فَإِنْ كَانَ مُحْرَزًا دُونَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَخْذُهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُجَاوِزُوا إِلَى الِادِّخَارِ، وَلا إِلَى مَا لَيْسَ بِمَأْكُولٍ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُحْرَزٍ عَنْهُمْ إلا بِإِذْنٍ مِنْهُمْ.([2])

(**1414**) في فائدة ذكر إباحة أكل الإنسان طعامه في بيته؛ أن المقصود في بيوت أزواجكم وأولادكم، أضافه إليهم، لأن بيت المرأة كبيت الزوج، وكذلك الأولاد فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء لأن الولد كسب والده، وماله كماله.

(**1415**) فائدة الإخبار برفع الجناح عمن أكل من بيته، أن ذلك توطئة ليبني عليه ما يعطفه على جملته من البيوت التي قصد إباحة الأكل منها، فإنه إذا علم أن الإنسان لا جناح عليه أن يأكل من بيته، فكذلك لا جناح عليه أن يأكل من هذه البيوت، ليشير إلى أن أموال

---

1 ينظر التيسير في أحاديث التفسير، للمكي الناصري، 4/ 293

2 ينظر أحكام القرآن لابن العربي، 3/ 422.

هذه القرابة كمال الإنسان، وإذا تساوت هذه الأموال سرى ذلك التساوي إلى الأزواج، فيكون سبحانه قد أدمج في ذلك الحض على صلة الأرحام ومعاملتهم معاملة الإنسان نفسه.([1])

(**1416**) فيها من مقاصد التشريع وإعجازه، ما يظهر جلياً في دقة الأداء اللفظي والترتيب الموضوعي، والصياغة التي لا تدع مجالا للشك والغموض، كما نلمح فيها ترتيب القرابات، فهي تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم. بل تقول (من بيوتكم) فيدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج، فبيت الابن بيت لأبيه، وبيت الزوج بيت لزوجته، وتليها بيوت الآباء، فبيوت الأمهات، فبيوت الإخوة، فبيوت الأخوات. فبيوت الأعمام، فبيوت العمات، فبيوت الأخوال، فبيوت الخالات...([2])

(**1417**) في فائدة عدم ذكر بيوت الأولاد؛ لأنه إنما ذكر من الأموال ما يظن السامع أن الأكل منه محظور، فاحتاج إلى بيان الإباحة، وأما أموال الأولاد فتصرّف الوالدين فيها كتصرّفهم في أموالهم أنفسهم، لأن ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه، ولذلك أوجب الشرع على الولد نفقة الوالدين إذا كانا محتاجين.

(**1418**) يفيد قوله تعالى: ﴿أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ أن بيوت الأولاد هي بيوت الآباء، ذلك الله تعالى لم يذكر الأولاد في الآية، لأن ولد الرجل من كسبه.

(**1419**) فيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتاً للإنسان.

(**1420**) فيها كذلك دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.(3)

(**1421**) فيها دليل على جواز الأكل من بيوت القرابات التي جرى العرف بالتسامح فيها، وأنه لا يلزم مثلا أن تستأذن الزوجة من زوجها لإطعام قراباته وقراباتها في بيته. على أنه يتعين في كل ذلك مرعاة جريان العرف، إذ قد يتغير في بيئة ما، أو زمان ما.

---

1 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 655

2 ينظر في ظلال القرآن، 2533/18.

3 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 1/ 575.

(**1422**) في إيثار ذكر (أو) على غيرها للإيذان بمساواة جميع الأصناف -فيما يخص هذا الأكل- وما في الكلام من الإطناب لما أن المقام مقام إيضاح ورفع حجاب.([1])

(**1423**) في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ ﴾ ما يشير إلى الاستدلال بها على وجوب نفقة الأقارب على بعضهم على بعض، كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة، والإمام أحمد بن حنبل، في المشهور عنهما.([2])

(**1424**) تفيد الآية إباحة الأكل من بيوت مَن سمّى الله عز وجل من الأقارب، ومن بيوت الأصدقاء، وقد كان الواحد لا يأكل من بيت غيره تأثّماً، فرخّص الله تعالى لأهل الأعذار (العمي، والعرج، والمرضى) أوّلا، ثم رخّص للناس عامة، فلو دخلت على صديق فأكلت من طعامه بغير إذنه كان ذلك حلالا.([3])

(**1425**) فيها أن الأكل من بيوت الأقارب والأصدقاء إنما هو مبني على ما جرت العادة بالإذن فيه، فيكون المعتاد من ذلك كالمنطوق به، وهو مثل ما تتصدق به المرأة من بيت زوجها بالكسرة ونحوها من غير استئذانها إياه، لأنه متعارف أنهم لا يمنعون مثله.([4]) وفي القاعدة: المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً. وكذلك: الثابت بالعرف كالثابت بدليل شرعي.

(**1426**) من هدايات هذه الآية الكريمة، غرس غريزة الكرم والبر بالأقاريب في نفوس المؤمنين، ما داموا قادرين على ذلك، وإعداد النفوس المؤمنة إلى هذا اللون من من التعاون والتقارب والأخوة في الإسلام.([5])

(**1427**) يفيد قوله تعالى: ﴿ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ أن أموال الرجل إذا كان له عليها قَيِّم ووكيل يحفظها له، فلا حرج عليه أن يأكل من ثمر بستانه، ويشرب من لبن ماشيته. وذلك كون ملك المفاتح في يده وحفظه.([1]) كل ذلك بالمعروف.

---

1 ينظر تفسير سورة النورن عبد الهادي التازي، 84.

2 تفسير القرآن العظيم، 6/ 85.

3 ينظر روائع البيان، 217/2

4 ينظر أحكام القرآن للجصاص، 336/3

5 ينظر التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، 1469./6

(**1428**) فيها أن وكيل الرجل على ضيعته، وخازنه على ماله، يجوز له أن يأكل مما هو قيم عليه، ويطعم منه بالمعروف، إذا لم تكن أجرة على ذلك.

(**1429**) في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ رخصة للوكيل والمختزن للطعام وناطور([2]) الحائط ذي الثمر، أن يأكل كل منهم مما تحت يده بدون إذن، ولا يتجاوز شبع بطنه، وذلك للعرف بأن ذلك كالإجارة، فلذلك قال الفقهاء: إذا كان لواحد من هؤلاء أجرة على عمله لم يجز له الأكل مما تحت يده.([3])

(**1430**) في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ ﴾ تنبيه لمترلة الصداقة ومكانتها، وذلك لأن الله تعالى جعل الصديق في مرتبة القرابة حينما سوّى في إباحة الأكل من بيوت الأقرباء والأصدقاء بدون إذن. فالصداقة مترلة من منازل المحبة.

(**1431**) في ذكر الصديق كذلك مع ذوي القرابة القريبة، إشعار بمكانة الصديق وأنه أولى بكل إكبار واعتبار.

(**1432**) في سر التسوية بين (الصديق) وبين هؤلاء الأقارب؛ لتعريف حق الصديق، الذي ساوى باطنه ظاهره في إخلاص المودة، ولا يسمى صديقاً حتى يكون كذلك، فإن اشتقاق اسمه من صدق المحبة، وصفاء المودة، وهو الذي أشار اليه سبحانه بقوله: ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء:101] فإذا كان الصديق بهذه المثابة وعلى هذه الصفة ساوى هذه القرابة القريبة، فليس على الإنسان جناح إذا تصرف في ماله تصرفه في مال نفسه.([4])

(**1433**) في إيثار (صديق) المقتضي بحسب صيغته الإفراد، على (أصدقائكم) الذي هو صريح في الجمعية، للإشعار بندرة الصديق وقلته([5]) فالصديق صادق مُصَدَّق، كما يدل عليه وصفه وهذا عزيز. وهذه نكتة ذكره بالإفراد، خلافاً لِمَنْ ذُكروا قبله من القرابات.

---

1 ينظر تفسير الكشاف، 18، 337.

2 (النَّاطِرُ) وَ (النَّاطُورُ) حَافِظُ الْكَرْمِ، وَالْجَمْعُ (النَّاطِرُونَ) وَ (النَّوَاطِيرُ). (مختار الصحاح مادة: ن ط ر)

3 ينظر التحرير والتنوير، 302/18.

4 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 656

5 تفسير سورة النور عبد الهادي التازي، 86.

(**1434**) فيها أن الصديق الذي يستحق من الإسلام هذه العناية الزائدة، هو ذلك الصديق الذي يكون مثال الإخلاص والتضحية، ظاهره عنوان باطنه، فما سمي الصديق صديقاً إلا لصدقه وإخلاصه.

(**1435**) فيها أنه يباح للإنسان أن يأكل من بيت صديقه عند غيبته لما بينهما من المودة والصداقة والصفاء، وقد جرت العادة بذلك، ودلت هذه الآية عليه، والصديق حقاً وصدقاً يفرح بأكل صديقه عنده ويُسرّ بذلك.

(**1436**) قيل لبعضهم: مَن أحب إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: لا أحب أخي إلا إذا كان صديقي. وقد أكل جماعة من أصحاب الحسن من بيته وهو غائب، فجاء فرآهم فسُرّ بذلك وقال: هكذا وجدناهم، يعني كبراء الصحابة.([1])

(**1437**) فيها أن الله تعالى، لما انتهى من بيان البيوت التي يجوز الأكل منها، بيّن الحالة التي يجوز عليها الأكل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾([2])

(**1438**) تفيد أن للأصحاء مؤاكلة أهل الأعذار وعدم الحرج من ذلك خشية ألا يستوفي أهل الأعذار حقهم، ولأهل الأعذار أن يشاركوا الأصحاء في أكلهم ولا يظنوا أن الآخرين يتقذّرونهم.([3])

(**1439**) فيها أن الله وضع الحَرَج عن المسلمين أن يأكلوا جميعاً معاً إذا شاءوا، أو أشتاتاً متفرّقين إذا أرادوا. وجائز أن يكون ذلك نزل بسبب مَن كان يتخوّف من الأغنياء الأكل مع الفقير، وجائز أن يكون نزل بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا لا يَطْعَمون وُحْداناً، وبسبب غير ذلك.([4])

(**1440**) فيها دليل، على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.([5])

---

1 ينظر البحر المحيط في التفسير، 72/8

2 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2534

3 ينظر المحرر الوجيز، 4/ 195، وتفسير ابن كثير، 3/ 305

4 جامع البيان في تأويل القرآن، 224/19

5 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 1/ 575

(**1441**) فيها جواز للإنسان أن يشارك غيره في الطعام، فإذا اجتمع جماعة واشتركوا في الطعام، جاز لهم أن يأكلوا مجتمعين، وقد كان الرجل يخاف إن اشترك مع غيره أن يزيد أكله على أكل صاحبه، فامتنعوا لأجل ذلك من الاجتماع على الطعام، فرخص لهم القرآن الكريم وأباح لهم الأكل حتى ولو كان بعضهم أشهى نفساً، وأوسع معدة.([1])

(**1442**) فيها استحبابُ الأكلِ جماعةٌ كما جاءت بذلك أحاديثَ وآثارٍ؛ وذلك لِمَا في جَمعِ الناسِ على الطعامِ مِن بَرَكةِ الإطعامِ، والدُّعَاءِ أثناءه وبعده لأهله وصانعيه، وذِكرِ اللَّهِ عليه، وحَمْدِهِ وشكره على تلك النِّعْمةِ، كل هذا وغيره من فوائد الاجتماع على الطعام.

(**1443**) تشير الآية الكريم إلى خصلة عظيمة من خصال العرب الحميدة، خصلة أَكَّدَ الإسلام أنها تأتي في مقدمة الأسباب الدالة على السيادة والسمو، تلك هي خصلة الكرم، حيث كانوا يتحرجون أن يأكلوا طعامهم منفردين، وكان الرجل منهم لا يأكل، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً([2]) وهذه قمة في الكرم والإيثار.

(**1444**) في هذه الآية دليل على قاعدة عامة كلية وهي: أن "العرف والعادة مخصصان للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ" فإن الأصل، أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.([3])

(**1445**) لقد كَنّى سبحانه في هذه الآية عن الأموال بالبيوت، التي هي حرز الأموال ومقرها، من باب تسمية الشيء بما جاوره، كقولهم: سال الميزاب وجرى النهر، وفي ذلك إشارة بليغة إلى أن حُرمة الأموال من حرمة البيوت، وأنها قوام حياة هذه البيوت.

(**1446**) فيها من التناسب أن الله تعالى لما انتهى من بيان الحالة التي يكون عليها الأكل، ذكر آداب دخول البيوت التي يؤكل فيها: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ وهو تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين في الآية.

---

1 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 12/ 317. وروائع البيان، 218/2

2 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 87

3 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 575

(**1447**) تفيد أن الذي يسلم على قريبه أو صديقه يسلم على نفسه. والتحية التي يلقيها عليه هي تحية من عند الله. تحمل ذلك الروح، وتفوح بذلك العطر. وتربط بينهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها..

(**1448**) يفيد قوله تعالى: ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ أن الله سبحانه جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة، على مثال قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ [النساء: 29] قال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: (فإن لم يكن أحد فعلى نفسه ليقل السلام علينا من قبل ربنا)([1])

(**1449**) فيها كذلك: مشروعية بذل السلام، والتحية عند دخول البيوت والأماكن ولو لم تكن دوراً مملوكة، وهذا يفيده تنكير البيوت: (بيوتاً)

(**1450**) في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ تفريع على الإذن لهم في الأكل من هذه البيوت بأن ذكَّرهم بأدب الدخول المتقدم في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۖ ٢٧ ﴾ [النور: 27] لئلا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة مبيحة لإسقاط الآداب فإن واجب المرء أن يلازم الآداب مع القريب والبعيد.([2])

(**1451**) يفيد التنكير في قوله تعالى: ﴿ بُيُوتٗا ﴾: العموم، أي إذا دخلتم أيّ بيت من البيوت فسلموا على أنفسكم، بيوت هؤلاء وغيرهم، مسكونة، أو غير مسكونة.

(**1452**) تفيد كذلك استحباب السلام حتى في دخول الرجل بيته، فيسلم على من فيه من زوجه وولده وخادمه وعبده وأمته، بل لو لم يكن فيه أحد؛ لوجود الملائكة، وفيه إيناس وإذهاب للوحشة حتى في باذل السلام.

(**1453**) تفيد أن من معاني السلامُ الأمانُ، وسبيلُ المؤمن إذا دخل بيتاً أن يُسلِّمَ مِنَ اللَّه على نَفْسِه؛ أي يطلب الأمانَ والسلامةَ من الله لِتَسلَم نَفْسُه من الإقدام على ما لا يرضاه الله، إذ

1 ينظر مفاتيح الغيب، 377/11

2 التحرير والتنوير، 303/18

لا يحل لمُسلِم أَنْ يفْتُرَ لحظةً عن الاستجارة بالله حتى لا يرفع عنه سبحانه ظِلَّ عِصْمَتِه؛ بإدامة حِفْظِه عن الاتصاف بمكروهٍ في الشرع.([1])

(**1454**) في قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ دليل على أن السلام خاص بالمؤمنين؛ ذلك أن الكافر ليس من أنفسهم، ولكن لهم أن يحيوه بغير تحية الإسلام؛ لأن تحية الإسلام السلام، وهي من عند الله مباركة طيبة، وتلك لا تكون لكافر.([2])

(**1455**) يدل قوله تعالى: ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ أنك حين تُسلِّم على غيرك كأنك تُسلِّم على نفسك، لأن غيرك هو أيضاً سيسلم عليك، فحين تقول لغيرك: السلام عليكم سيردّ: وعليكم السلام. فكأنك بهذا تُسلِّم على نفسك. ومثله الدعاء فإن الذي يدعو لأخيه فإنه يدعو لنفسه، لأن المَلَك يؤمّن على دعاء الداعي ويقول: ولك مثلها.

(**1456**) تفيد أن من فوائد السلام: نشر المحبة، وتحقيق أمْن النفوس، وسلامة الصدور، فالإسلام يريد أن يجعل المجتمع الإيماني وحدة متماسكة، وهذه هي الحكمة من الحث على إفشاء السلام على مَن تعرف ومن لا تعرف.

(**1457**) تفيد فضيلة السَّلام ومنزلته في الإسلام، فقد وصفه الله بثلاثة أوصاف عظيمة: 1-تحية من عند الله. 2- مباركة. 3- طيبة. وهي فضائل عظيمة لا ينبغي للمؤمن أن تفوته.

(**1458**) تفيد أن للسلام آثاراً عظيمة في جلب المودة والمحبة والخير، وهو من أسباب دخول الجنة، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))([3])

(**1459**) فيها أن التسليم والتحية طلب سلامة، وحياة للمسلَّم عليه، والمحيا من عند الله، ووصفها بالبركة، والطيب، لأنها دعوة مؤمن لمؤمن، يُرجَى بها من الله زيادة الخير، وطيب الرزق.([4])

---

1 لطائف الإشارات، للإمام القشيري،375/2

2 ينظر التفسير والبيان لأحكام القرآن، 1882/4

3 رواه مسلم عن أبي هريرة، كتاب الإيمان، بَابُ بَيَانِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ. حديث رقم 54.

4 ينظر الكشاف، 258/3

(**1460**) في الآية تعليم المؤمنين ألواناً متعددة من الآداب التي شرعها الله -تعالى- لهم، ويسرها لهم بفضله وإحسانه، حتى يعلموا أن شريعته -سبحانه- مبنية على اليسر لا على العسر، وعلى التخفيف ورفع الحرج، لا على التشديد والتضييق.([1])

(**1461**) فيها عناية الله تعالى بالعباد، بأن بيّن لهم الآيات والأحكام التشريعية، والآداب الإسلامية: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ليعقلوا عن الله مراده، ويتصرّفوا وفق مرضاته، ليفوزوا بسعادة الداريْن.

(**1462**) يفيد حذف المتعلق في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ التعميم، فدل على أن المراد لعلكم تعقلون عن الله في كل ما أرشدكم إليه في هذه الآيات.

(**1463**) في قوله تعالى: ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ كذلك إشارة إلى فضيلة العقل وأهميته، فبه يدرك العبد هذه المقاصد التشريعية العظيمة، وهذه المزايا الأخلاقية الكريمة، والحِكَم الربانية الجليلة، في كل حُكْم تشريعي أو أدب رباني.

(**1464**) يشير هذا الختم: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إلى أن معظم أحكام الشرع معللة بعلل، يمكن للعقل أن يدركها، ويدرك مقاصدها.

(**1465**) في هذا الختم كذلك؛ إشارة إلى أن في هذه الآية من المعاني الدقيقة ما تحتاج إلى روية وتعقل، لإدراك مراميها البعيدة، وأسرارها العظيمة، وخصوصاً أن حديثها عن هذه الأحكام الدقيقة فيه ما هو نفسي شعوري، وما هو غير ذلك مما هو ظاهر منضبط، وكذلك فيه ما هو خاص بأصحاب الأعذار، وما هو عام..

(**1466**) يشير هذا الختم كذلك إلى أن من أعظم ما يعين العبد على الالتزام بهذه التكاليف والحرص على تطبيقها، ما يدركه بعقله منها، مما تحتوي عليه من فوائد ومصالح تعود عليه بالنفع والسعادة في الدنيا والاخرة.

(**1467**) تفيد هذه الآية الكريمة أن ما شرعه الله من التشريعات والأحكام فيه من الحِكم والمقاصد، ما هو محقِّق لكل خير وصلاح وسعادة للعباد في الدنيا والآخرة، إنْ هم طبقوه وامتثلوه في حياتهم الخاصة والعامة.

---

1 التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لسيد طنطاوي، 5/.1469

(**1468**) في خَتْم هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ تناسب جميل مع مضمونها، مفاده أن الله بيّن لكم هذه الأحكام والقواعد والآداب، لتكونوا على رجاء عند من يصح منه الرجاء من ثبات هذا الوصف لكم، وهو ضبط النفوس وردها عن الأهْوِيَة، باتباع آيات الشرع التي أنزلها، وذلك لا يكون إلا بتعقلها وتدبر أحكامها وهداياتها.([1])

(**1469**) فيها الحث على استخدام العقل في الفهم عن الله ورسوله، ذلك أنه إذا كان العقل مناط التكليف، فهو كذلك طريق لفهم مناطات أحكام التكليف، وعللها ومراتبها.

(**1470**) في هذا الختم إشارة إلى أن الذي كلّفكم بهذه الأحكام؛ رَبٌّ كريم يحب الخير لكم، وهو غنيٌّ عنكم، إنما يأمركم بأشياء ليعود نَفْعها عليكم، فإنْ أطعتموه فيما أمركم به، انتفعتُم بأوامره في الدنيا، ثم ينتظركم جزاؤه وثوابه في الآخرة.([2])

---

1 ينظر نظم الدرر، 321/13

2 ينظر تفسير الشعراوي، 17/ 10341

- **الآية الثانية والستون:** ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

من الهدايات التي نؤخذ من هذه الآية:

(**1471**) تفيد في مناسبتها بما قبلها، أن الله تعالى لَمَّا افْتَتَحَ السُّورَةَ بقَوْلِه: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ [النور: 1] وَذَكَرَ أَنْوَاعًا مِنَ الأَوَامِرِ وَالْحُدُودِ، مِمَّا أَنْزَلَهُ عَلَى الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم، اخْتَتَمَهَا بِمَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَى أُمَّتِه مِنَ التَّتَابُعِ وَالتَّشَايُعِ عَلَى مَا فِيه مَصْلَحَةُ الإِسْلامِ، وَمِنْ طَلَبِ اسْتِئْذَانِه إِنْ عَرَضَ لأَحَدٍ مِنْهُمْ عَارِضٌ، وَمِنْ تَوْقِيرِه فِي دُعَائِهِمْ إِيَّاهُ.([1])

(**1472**) في دقة علاقة هذه الآية بما قبلها؛ أنها جاءت لتحكم الصلة التي يجب أن تكون بين المؤمنين وبين النبي صلى الله عليه وسلم، بعد أن جاءت الآية السابقة لتحكم الصلة التي يجب أن تكون بين أفراد المجتمع الإسلامي ككل.

(**1473**) تفيد دقة التناسب بما قبلها؛ إذ تدل على أن ملاك ذلك كله، والمنتفع بتلك الآيات جمع، من سلّم نفسه لصاحب الشريعة صلوات الله تعالى وسلامه عليه، كالميت بين يدي الغاسل، لا يحجم ولا يقدم، دون إشارته صلّى الله عليه وسلّم.([2])

(**1474**) تفيد في صلة بما قبلها كذلك أن الله لما أمر بالاستئذان عند الدخول، أمر بالاستئذان حين الخروج، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلّى الله عليه وسلم من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمر مهم.([3])

(**1475**) تفيد أداة الحصر: ﴿ إِنَّمَا ﴾ الحصر الذي اقتضاه المعنى، لأنه لا يتم إيمان العبد، إلا بأن يؤمن بالله، وبرسوله، وبأن يكون من الرسول صلى الله عليه وسلم سامعاً غير مُعْنِت في

---

1 ينظر البحر المحيط في التفسير، 8/ 73

2 ينظر روح المعاني، 9/ 412

3 ينظر التفسير المنير، 18/ 313

أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم يريد إكمال أمر فيريد هو إفساده بزواله في وقت الجمع ونحو ذلك.([1])

(**1476**) في ذكر الإيمان بالله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ صلة للموصول الواقع خبراً للمبتدأ، ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ مع تضمنه له قطعاً تقريراً لما قبله، وتمهيداً لما بعده، وإيذاناً بأنه حقيق بأن يجعل قريناً للإيمان المذكور منتظماً في سلكه.

(**1477**) في تنكير الأمر الجامع: ﴿ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ ليشمل كل أمر اجتمعت عليه جماعة المسلمين، مما يحقق وحدتها، ويجمع شملها، ويحفظ بيضتها..، فكل هذا مما لا يجوز التفرق فيه بالرأي، اتباعاً للهوى أو للمصلحة الفردية، أو الانصراف عن ما قررته فيه الجماعة..

(**1478**) يفيد دليل الخطاب من الآية جواز الذهاب من غير استئذان في غير الأمر الجامع؛ كالتقاء الناس جماعات في الأسواق والولائم ونحوها من الأمور التي الأصل في الانصراف منها: عدم الإذن.([2])

(**1479**) تفيد أن المؤمنين حقّ الإيمان، هم الذين صدّقوا الله في كل ما به أخبر، أو أرشد إليه وأمر، وصدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما نهى عنه وزجر.

(**1480**) تفيد أن الإيمان بالله تعالى، مرتبط بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يقبل الله تعالى من أحد الإيمان به، إلا إذا اقترن بالإيمان، برسول الله صلى الله عليه وسلم.

(**1481**) فيها أن الله جعل كمال ابتداء الإيمان الذي ما سواه تَبَعٌ له: الإيمانَ بالله ثم برسوله، فلو آمن عبدٌ به و لم يؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم، لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبداً، حتى يؤمن برسوله معه.([3])

(**1482**) فيها دلالة على أن من الإيمان أن يستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في الانصراف عنه في كل أمر يجتمعون معه فيه.([4])

---

1 ينظر المحرر الوجيز، 4/ 197

2 ينظر التفسير والبان لأحكام القرآن، 1883/4

3 ينظر الرسالة للإمام الشافعي، 75

4 أحكام القرآن، للكيا الهراسي، 4/ 325

(**1483**) تفيد أن الاستئذان دليل الإيمان، وأنه سبيل للنجاح في الأمر الجماعي للمؤمنين، حتى لا يضيع أمرهم في تفرقهم، واختلافهم على إمامهم.

(**1484**) تفيد أن المؤمنين الصادقين هم الذين إذا كانُوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، عَلى أمرٍ جامعٍ يجمعهم، من حرب حضرت، أو صلاة اجتُمع لها، أو تشاور في أمر نزل لَمْ ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر، حَتّى يَسْتَأْذِنُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.([1])

(**1485**) فيها إذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على إنه إذن فيه.([2])

(**1486**) فيها إذا تحقق الإيمان بالله ورسوله في قلب عبد لم تنطلق جوارحه في مخالفة هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن تلك المخالفة ليست من إذنه ولا رضاه.

(**1487**) في هذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة لأن من السنة أن يكون لكل اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع. وقد أشارت مشروعية الإمامة إلى ذلك النظام.([3])

(**1488**) فيها أن الالتزام بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يُعلّم الأمة النظام والاجتماع، ويبعد عنها الفوضوية والتفرق، فطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكبر عامل من عوامل الاجتماع والائتلاف.

(**1489**) تفيد أن الالتزام بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم -في حياته وبعد موته باتباع سنته- يعلم الأمة النظام والاجتماع ويبعد عنها الفرقة والتشتت.

(**1490**) يفيد وقوع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، في قوله تعالى: ﴿ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ ﴾ تشريفاً للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب.([4])

---

1 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 19/ 228

2 إعلام الموقعين، 1/ 87لابن القيم

3 ينظر التحرير والتنوير، 307/18

4 ينظر المرجع نفسه، 18/ 307

(**1491**) فيها من الأدب أن الله تعالى كَمَا أَمَرَهُمْ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْدَ الدُّخُولِ، كَذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْدَ الِانْصِرَافِ -لاسِيَّمَا إِذَا كَانُوا فِي أَمْرٍ جَامِعٍ.([1])

(**1492**) من السنة ألا يجتمع جماعة إلا أمّروا عليهم أميراً، فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين فهو في مقام النبي صلى الله عليه وسلم، فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذنه، لأنه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر لكان ذريعة لانفضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جُمعت لأجلها.([2])

(**1493**) تشير الآية إلى أن المؤمن لا يلجأ للاستئذان إلا للضرورة، إذ له من إيمانه ومن أدبه عاصم في ألا يتخلى عن الأمر الجامع الذي يشغل بال الجماعة، ويستدعي اجتماعها.

(**1494**) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ التفات من من الغيبة إلى الخطاب، بعد قوله: ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ ونكتته إبراز مزيد العناية بشأنه صلى الله عليه وسلم، وبيان مكانته عنده سبحانه.

(**1495**) في الإشارة بقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ بعد قوله -تأكيداً- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ من التفخيم وعلوّ المترلة بشأن المستأذنين ما لا يخفى، وفي ذلك ترغيب وحث على الاتصاف بهذه الصفة العظيمة.

(**1496**) تشير إلى أن أَمْرَ المعصية لا يحتاج فيه إلى استئذان. ذلك أن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ أي: على أمر طاعة يجتمعون عليها، فالأمر الجامع هو الأمر الموجب للاجتماع عليه، نحو الجهاد والجمعة والعيد ونحو ذلك، كما جاء في كتب التفسير.

(**1497**) تفيد أن طاعة الله تعالى، مقرونة بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا تصح الأولى إلا بالثانية، كما قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80]

(**1498**) في الآية بيان حفظ الأدب، بأن الإمام إذا جمع الناس لتدبير أمر من أمور المسلمين، ينبغي أن لا يرجعوا إلا بإذنه، وكذلك إذا خرجوا إلى الغزو، لا ينبغي لأحد أن يرجع إلا بإذنه.([3]) وهكذا في كل أمر جامع للمسلمين.

---

1 تفسير القرآن العظيم، 6/ 88

2 ينظر التحرير والتنوير، 307/18

3 ينظر بحر العلوم، للسمرقندي، 526/2

(**1499**) فيها أدب الإسلام اللازم بأن لا يذهب أحد – في أمر جامع – لعذر إلا بإذن الإمام، فإذا ذهب بإذن ارتفع عنه الظن السيّء.([1])

(**1500**) تتضمن الآية من الآداب النفسية والتنظيمية بين الجماعة وقائدها ما لا يستقيم أمرها إلا بها، حين تنبع من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها، ثم تستقر في حياتها فتصبح تقليداً متبعاً وقانوناً نافذاً. وإلا فهي الفوضى التي لا حدود لها.([2])

(**1501**) إنّ كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلاّ بإذن، وهذا إذا لم يكن سبب يمنعه من المقام، (فإن حدث سبب يمنعه من المقام) بأن يكونوا في المسجد فتحيض منهم امرأة، أو يَجنُب رجل، أو يعرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان.([3])

(**1502**) تفيد منزلة المؤمن عند ربه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ فهذه شهادة من الله تعالى لمن التزم بهذه الآداب الرفيعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدق الإيمان وكماله.

(**1503**) لما نفى عن المؤمنين الذهاب إلى غاية الاستئذان، فأفهم أن المستأذن مؤمن، صرح بهذا المفهوم ليكون آكد، فقال تشديداً في الإخلال بالأدب بين يديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأكيداً لحفظ حرمته والأدب معه لئلا يتشوش فكره في أسلوب آخر، وبياناً لأن الاستئذان مصداق الإيمان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾

(**1504**) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمان، وعرّض بحال المنافقين وتسللهم لواذاً.([4])

(**1505**) يفيد قوله تعالى: ﴿لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾ على أنه لا يجوز لهم أن يستأذنوا، إلا إذا عرضت لهم حاجة تقتضي ذلك، لأنه إذا لم يكن لهم حاجة ، فملازمة الرسول أولى.([5])

(**1506**) فيها دلالة على ما يلزم من أدب الدين، وأدب النفس، فمن هذا الوجه قال الحسن: لا فرق بين الرسول والإمام فيما يلزمهم من ذلك، ولا يمنع من حيث تضمن هذا

---

1 ينظر المحرر الوجيز، 197/4

2 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2534

3 ينظر اللباب في علوم الكتاب، 14/ 463، أبو حفص سراج الدين الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ)

4 ينظر تفسير النسفي، 3/ 783

5 أحكام القرآن، للكيا الهراسي، 326/4

الظاهر أدب النفس أن يكون الأولى بالمراد إذا اجتمع جمع لخير، أن لا يتفرق عنهم إلا بإذن، لما في تفرقته من اختلال ذلك الأمر المطلوب، والاجتماع عليه أقرب إلى التعاون على التقوى.([1])

(**1507**) فيها أمر الله تعالى نبيه، وكذا كل من كان في مقام الإمارة؛ صغيرة كانت أم كبيره، أن يأذن لمن عرف منه صحة العذر وهم الذين يشاء. ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾

(**1508**) فيها أن النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو من يقوم مقامه، بِالْخِيَارِ، إنْ شَاءَ أَذِنَ لِلْمُسْتَأْذِنِ، إذَا رَأَى ذَلِكَ ضَرُورَةً، وَلَمْ يَرَ فِيهِ مَضَرَّةً عَلَى الْجَمَاعَةِ، أَذِنَ بِنَظَرٍ، أَوْ مَنَعَ بِنَظَرٍ.([2])

(**1509**) فيها بيان لمكانة النبي صلى الله عليه وسلم، ومنزلته عند الله تعالى، ووجه ذلك أن الله تعالى فوّض له صلّى الله عليه وسلّم، في أن يأذن لمن شاء، ويترك من يشاء، ممن يستأذنونه لبعض شؤونهم.

(**1510**) تدل على مقام النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه جل شأنه، فقد بالغ سبحانه في الاحتفال برسوله صلى الله عليه وسلم، فجعل سبحانه الاستئذان للذهاب عنه ذنباً محتاجاً للاستغفار، فضلا عن الذهاب بدون إذن، ورتب الإذن على الاستئذان لبعض شأنهم، لا على الاستئذان مطلقاً، ولا على الاستئذان لأي أمر مهما كان، أو غير مهم ومع ذلك علق الإذن بمشيئته عليه الصلاة والسلام.([3]) ثم إن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن، وإنْ أذن أذن لمن شاء.

(**1511**) فيها أن الله سبحانه وتعالى لما أثبت لنبيه صلى الله عليه وسلم بهذا التفويض من الشرف ما لا يبلغ وصفه، أفهمهم أن حال المستأذن قاصرة عن حال المفوض الملازم كيفما كانت، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾

(**1512**) تشير إلى وجوب اجتماع كلمة المسلمين، وتوحيد أمرهم وجمع صفهم فيما يخص قضايا الأمة ومصلحتها، للحفاظ على بيضتها ووحدتها.

(**1513**) فيها تحذير وتعريض بمن ينصرفون دون استئذان عند الاجتماع على أمر جامع للمسلمين.

---

1 أحكام القرآن، للكيا الهراسي، 326/4

2 أحكام القرآن، لابن العربي، 3/ 429

3 ينظر روح المعاني، 413/9

(**1514**) تفيد الآية على أن الله سبحانه وتعالى فوّض إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بعض أمر الدين ليجتهد فيه برأيه.([1])

(**1515**) تشير إلى أن على طالب العلم مع شيخه ومعلمه أن يتأدب بآداب الاستئذان، في السؤال، والمناقشة، أو المغادرة.

(**1516**) فيها: إنما ينتفع بآيات الله مَن سلّم نفسه لصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم، فهو لا يُقدِم ولا يُحجِم دون مشاورته ومعرفة موافقة أمره، وهذا بعد موته يكون مع سنته وهديه.

(**1517**) في قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ ﴾ دلالة على أن الرسول عليه الصلاة السلام لا يحل له أن يستغفر إلا لمن تكامل إيمانه.([2])

(**1518**) تدل على منزلة الصحابة رضي الله عنهم، ووجه ذلك في الآية أن الله طلب من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم، إذا أذن لهم بالانصراف لبعض شأنهم، ومعلوم أن طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل لا يُرد، فعُلِم بذلك أنهم مغفور لهم.

(**1519**) تشير إلى على المؤمن أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، فإن من صفات المؤمن أن يستغفر لأخيه المؤمن، ويدعو له، وخصوصاً إذا وقع في الخطأ.

(**1520**) فيها أن من رفق القائد وصفاته الناجحة؛ أن يدعو لمن هم تحت إمرته بظهر الغيب، حتى يعينه الله على شؤونهم، ويوفقهم لامتثال أمره وعونه.

(**1521**) فيه جواز أن يُفوَّض الحكم إلى المجتهد إذا علم أنه يحكم ترويا لا تشهياً، ويكون التفويض حينئذ كالأمر بالاجتهاد، والأليق بشأن الله تعالى وشأن رسوله صلّى الله عليه وسلّم أن يترل ما هنا على ذلك وتكون المشيئة مقيدة بالعلم بالمصلحة.([3])

(**1522**) في تعقيب الإذن بالاستغفار إشعار بأن الاستئذان وإن كان بعذر مسوغ، فلا يخلو من شائبة إيثار أمر الدنيا على الآخرة.([4])

---

1 مفاتيح الغيب، 374/11

2 أحكام القرآن، للكيا الهراسي، 326/4

3 ينظر روح المعاني، 413/9

4 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 89

(**1523**) فيها دليل على أنّ الأحسن والأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه.([1]) لما يوحيه الأمر بالاستغفار لهم من وقوع النقص منهم أو التفريط.

(**1524**) في أمره صلى الله عليه وسلم بالاستغفار وجهان: أحدهما: أن يستغفر لهم تنبيهاً على أن الأولى ألا يقع الاستئذان منهم وإن أذن، لأن الاستغفار يدل على الذنب، وربما ذكر عند بعض الرخص. الثاني: يحتمل أنه تعالى أمره بأن يستغفر لهم مقابلة على تمسكهم بآداب الله تعالى في الاستئذان)([2])

(**1525**) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أن التخلية قبل التحلية، (فالمغفرة في جانب الذنوب، والرحمة في جانب حصول المطلوب؛ ففي المغفرة النجاة من المرهوب، وفي الرحمة حصول المطلوب)([3])

(**1526**) في ختام الآية بهذين الاسمين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للمغفرة الموعودة في ضمن الاستغفار لهم: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ ﴾

(**1527**) في ختام الآية بهذين الاسمين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دقة التناسب بينها وبين خاتمتها، ذلك أن الله بعد وصف حالة المؤمنين الحقيقيين في علاقتهم بأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، والتزامهم بكل ذلك، ختم الآية بكونه غفوراً لما قد يصدر منهم من أخطاء، رحيماً بهم إذا تابوا إليه مهما تكررت منهم هذه الأخطاء، ما داموا صادقين في إيمانهم.

(**1528**) تفيد عظيم رحمة الله بعباده المؤمنين، حينما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لهم عند حصول عذر في نازلة تتطلب اجتماعهم، فتفضل عليهم بكرمه بأمر رسوله بأن يستغفر لهم.

(**1529**) تفيد أن تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم، من تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم أمره، فما عظم اللهَ تعالى مَن لم يعظم ما عظمه الله سبحانه.

---

1 ينظر الكشاف، 18/ 738

2 ينظر مفاتيح الغيب للرازي، 378/11

3 تفسير سورة النور، للشيخ العثيمين، 428

(**1530**) في الآية -عموماً- أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة، لأن من السنة أن يكون لكل اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع، حتى يحفظ وحدته، وهذا من مقاصد الإسلام في هذه الأمة، إذ هي أمة واحدة في كل شأن من شؤونها.([1])

(**1531**) فيها أن من السنة أن لا يجتمع جماعة إلا أمّروا عليهم أميراً فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين، فهو في مقام النبي صلى الله عليه وسلم، فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذنه عليه الصلاة والسلام، لأنه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر، لكان ذريعة لانفضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جُمعت لأجلها.

(**1532**) تدل هذه الآية كذلك على حرص الإسلام على اجتماع كلمة المسلمين، ووحدة صفهم، في كل ما يأتون وما يذرون، وما تشريع العبادات الجماعية؛ إلا لتحقيق هذه الغاية النبيلة.

1 ينظر التحرير والتنوير، 308/18

- **الآية الثالثة والستون:** ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1533**) تفيد دقة التناسب بما قبلها، ذلك أنه لما أظهرت هذه السورة بعمومها، وهذه الآيات بخصوصها، من شرف الرسول صلى الله عليه وسلم ما بهر العقول، لأجل ما وقع للمنافق من التجرؤ على ذلك الجناب الأشم، والمنصب الأتم، وعلم منه أن له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل أمره وجميع شأنه خصوصية ليست لغيره، صرح بذلك تفخيماً للشأن، وتعظيماً للمقام، ليتأدب من ناضل عن المنافق، أو توانى في أمره فقصر عن مدى أهل السوابق، فقال منبهاً على أن المصائب سبب لإظهار المناقب أو إشهار المعايب: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾ ([1])

(**1534**) فيها كذلك من دقة التناسب كذلك مع ما قبلها؛ أن الله أمر في الآية السابقة أن يستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم عند ذهابهم من عنده في الأمور الجامعة، فكان مناسباً تعليمهم أسلوب النداء عند الاستئذان والخطاب.

(**1535**) تفيد في مناسبتها بسابقتها ولاحقتها؛ التحذير من سخط رسول الله صلى الله عليه وسلم على مَن خالف أمره، بأن يضطّره إلى الدعاء عليه، وذلك أن الذي قبلَ قولِه: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾ نَهْي من الله المؤمنين أن يأتوا من الانصراف عنه في الأمر الذي يجمع جميعهم ما يكرهه، والذي بعده وعيد للمنصرفين بغير إذنه عنه، فالذي بينهما بأن يكون تحذيراً لهم سخطه أن يضطّره إلى الدعاء عليهم أشبه من أن يكون أمراً لهم بما لم يجر له ذكر من تعظيمه وتوقيره بالقول والدعاء.([2])

(**1536**) في وقوع الالتفات في الآية من الغيبة إلى خطاب المسلمين، حثٌّ على تلقي الجملة بنشاط فَهِمَمٍ، فالخطاب للمؤمنين الذين تحدث عنهم بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ

---

1 ينظر نظم الدرر، 13/ 324

2 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 230/19

ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النور : 62] وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ ﴾ الخ. نُهوا عن أن يدْعوا الرسول عند مناداته كما يدعو بعضهم بعضاً.([1])

(**1537**) تفيد نَهْي الله تعالى المؤمنين أن يتعرّضوا لدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم بفعل ما يسخطه، وعليهم أن يتقوا دعاءه، ويحذروا أن يدعو عليهم فيهلكوا.

(**1538**) فيها نهي وتحذير مِن أن يجعلوا دعاءه صلى الله عليه وسلم كدعاء غيره من الناس، فإن دعاءه موجبة. روى الطبري بسنده عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ دعوة الرسول عليكم موجبة، فاحذروها.([2])

(**1539**) فيها أن امتلاء القلب بتوقير الرسول صلى الله عليه وسلم، سبب لتوقير كل كلمة، وكل توجيه صادر منه صلى الله عليه وسلم، ومن ثم سرعة الامتثال مع سرعة الحب له عليه الصلاة والسلام.

(**1540**) في الآية بيان توقير معلم الخير، لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان معلّم الخير، فأمر الله عز وجل بتوقيره وتعظيمه، وفيه معرفة حق الأستاذ، وفيه معرفة أهل الفضل.([3])

(**1541**) تفيد الآية –على معنى أن الدعاء هنا هو النداء– الأمر بتوقير رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه بأحسن ما يدعى به نحو: يا رسول الله، يا نبي الله، فيكون قوله تعالى: ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ ﴾ على هذا التقدير مصدراً مضافاً لمفعولِه أي: دعاءَكم الرسولَ.

(**1542**) تفيد أن الله أمرهم أن لا يجعلوا مخاطبة رسول الله في النداء كمخاطبة بعضهم لبعض، فإن سيرتهم كانت التداعي بالأسماء وعلى غاية البداوة وقلة الاهتبال، فأمرهم الله تعالى في هذه الآية، وفي غيرها أن يدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشرف أسمائه وذلك هو مقتضى التوقير والتعزير)([4])

---

1 التحرير والتنوير، 18/ 309

2 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 19/ 230

3 ينظر بحر العلوم للسمرقندي، 2/ 527

4 المحرر الوجيز، 4/ 198

(**1543**) فيها تعليم لآداب مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والكلام معه وعنده، بتوقيره، وعدم رفع الصوت فوق صوته، أو الجهر له بالقول، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ ﴾ [الحجرات: 2]

(**1544**) تدل على تحريم ندائه باسمه صلى الله عليه وسلم، وتأثيم تنزيله منزلة أصحابه، بخلاف غيره من الأنبياء والمرسلين الذين كانت أممهم تخاطبهم بأسمائهم.

(**1545**) فيها دعوة للمؤمن بأن يكون ذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومناداته له؛ في لين وتواضع وخفض صوت، تأدباً معه عليه الصلاة والسلام.

(**1546**) فيها لا تمهلوا دعاءه إياكم، فإذا دعاكم فعجلوا الإجابة، ولا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء غيره، تعظيمًا له صلى الله عليه وسلم، أو: لا تجعلوا دعاءه ربه مثل دعاء بعضكم بعضًا في حاجة، فربما أجابه وربما رده، ودعاء الرسول مسموع مستجاب.

(**1547**) تشير إلى منزلة الصحابة رضي الله عنهم حيث كانوا يخاطبون النبي صلى الله عليه وسلم في حضرته بكل أدب وتوقير، وتشريف وتعظيم، كما دلت على ذلك أخبارهم وسيرهم.

(**1548**) فيها أمر بتمييزه صلى الله عليه وسلم عن غيره عند المخاطبة، وتخصيصه دون سواه عند المحادثة، لأن الله تعالى أول من خصه صلى الله عليه وسلم بهذا التخصيص، وفضله بهذا التشريف.([1])

(**1549**) تفيد أدب الاجتماع مع الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمر الجامع، وبيان الحال الذي يجب أن يجتمع فيه المؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم، من ملاحظة مكانة النبي صلى الله عليه وسلم، ومنزلته.

(**1550**) في قوله تعالى: ﴿ بَيۡنَكُمۡ ﴾ النهي عن مخالفة أمره فيما بينهم، أي في حال غيبته عنهم، فأحرى أن ينهوا عن مخالفة أمره فيما بينهم وبينه، فهذا أشد وأخطر. قال ابن عرفة: (فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿ بَيۡنَكُمۡ ﴾ والأصل عدمه؛ لأن النهي على المطلق أولى من

1 ينظر التنصيص على شواهد التخصيص، إدريس ابن الضاوية.

النهي المقيد؟ فالجواب: أنهم إذا نهوا عن مخالفة أمره فيما بينهم، أي في حال غيبته عنهم، فأحرى أن ينهوا عن مخالفة أمره فيما بينهم وبينه، أي بحضرته معهم، فيعلق النهي بالأخص؛ ليدل على ما عداه من باب أحرى)([1])

(**1551**) يفيد قوله تعالى: ﴿كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ إشارة إلى جواز ذلك مع بضعهم لبعض، إذ لم يؤمر بالتوقير والتعظيم في دعائه عليه الصلاة والسلام إلاّ من دعاه، لا من دعا غيره.([2])

(**1552**) تفيد النهي عن التباطؤ وعدم السرعة في الاستجابة لرسوله الله صلى الله عليه وسلم، وذلك على تقدير أن يكون قوله تعالى: ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ مضافاً للفاعل، أي لا تَجْعَلوا دعاءَه إيَّاكم كدعاءِ بعضٍ لبعضٍ فتتباطَؤُون عنه، كما يتباطَأُ بعضُكم عن بعضٍ إذا دعاه لأمرٍ، بل يجبُ عليكم المبادرةُ لأمرِه.([3])

(**1553**) فيها وجوب الاستجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن دعوته حياة للقلوب والنفوس، فهي دعوة إلى الله تعالى، ودعوة ما فيه سعادة الإنسان وحياته الحقيقية في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ٢٤﴾ [الأنفال: 24]

(**1554**) من إعجاز القرآن وعظمته: أن الآية تشير إلى معنى، وتحتمل معنى، وتستتبع معنى وهكذا، كهذه الآية: ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ فهي -كما مر- وحسب مقامها ومقالها، تحتمل النداء، أي النهي عن نداءه ب: (يامحمد) صلى الله عليه وسلم، وتحتمل الدعوة، أي دعوته لهم للاجتماع وما يجب عليهم في ذلك من الإسراع في الاستجابة وعدم التباطئ، وتحتمل: الدعاء، نَهْي الله تعالى المؤمنين أن يتعرّضوا لدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم بفعل ما يسخطه، فيدعو عليهم فيهلكوا. وهي معان كلها محتملة، مقالا ومقاماً. وكل هذه الاحتمالات تدل على وجوب توقيره وتعظيمه صلى الله عليه وسلم، وعدم الإعراض عنه ومخالفة أمره.

---

1 ينظر تفسير ابن عرفة، 3/ 230

2 ينظر البحر المحيط في التفسير، 8/ 74

3 ينظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، 8/ 446

(**1555**) تفيد التعريض بالمنافقين، الذين تمالؤوا بينهم على التخلف عن رسول الله إذا دعاهم كلما وجدوا لذلك سبيلاً، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [التوبة: 120] فالمعنى لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كما جعل المنافقون بينهم وتواطأوا على ذلك.([1])

(**1556**) فيها دلالة على وجوب وزن الأمور بميزان شريعته وسنته، وأصول دينه صلى الله عليه وسلم. فما وافق قبل، وما خالف رد على قائله وفاعله، كائناً من كان. كما ثبت في الصحيحين عنه صلوات الله عليه وسلامه: ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد))([2])([3])

(**1557**) في قوله تعالى:﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ مدح للمؤمنين بالله ورسوله، الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، وتوعد وتهديد لمن لم يفعل ذلك وذهب من غير استئذان، متسلّلاً خفية حتى لا يراه أحد.

(**1558**) يفيد حرف (قد) في قوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ ﴾ تحقيق الخبر، لأنهم يظنون أنهم إذا تسللوا متستّرين لم يطلع عليهم النبي فأعلمهم الله أنه عَلمهم، وأعْلم رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك.

(**1559**) فيها لما كان بعضهم يظهر المؤالفة، ويبطن المخالفة، حذر سبحانه من ذلك بشمول علمه وتمام قدرته، فقال معللا مؤكداً محققاً معلماً بتجديد تعليق العلم الشهودي كلما جدد أحد خيانة لدوام اتصافه بإحاطة العلم من غير نظر إلى زمان: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ﴾ ([4])

(**1560**) في قوله تعالى ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ خطاب للمؤمنين، أي قد علم الله الذين يخرجون من جماعتكم متسللّين ملاوذين، وفيه تحذير لهم من أن يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء.

(**1561**) يفيد قوله تعالى: ﴿ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أن عادة المنافقين هي الروغان والمخالفة، فاللِّوَاذُ: الرَّوَغَانُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ فِي خُفْيَة([1]) على معنى لاَوَذْتُ لِوَاذاً، ومعنى لِوَاذاً ههنا الخلاف، أي يُخَالِفُونَ خلافاً.([2])

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 309/18

2 أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ، رقم 20

3 ينظر محاسن التأويل، 7/ 414

4 ينظر نظم الدرر، 325/13

(**1562**) فيها أن الْمُنَافِقِينَ كانوا إِذَا أَرَادَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مُفَارَقَةَ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لاَذَ بِغَيْرِهِ مُتَسَتِّرًا ثُمَّ نَهَضَ)([3]) و(يتسللون) أي يخرجون من الجماعة واحداً واحداً، كقولك: سَلَلْتُ كذا، إذا أخرجته منه.([4])

(**1563**) وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ ﴾ تعبير دقيق يصور حركة التخلي والتسلل بحذر من المجلس؛ ويتمثل فيها الجبن عن المواجهة، وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها في النفوس،([5]) كما هي عادة المنافقين في كل زمان ومكان.

(**1564**) من أسرار بلاغة هذه الآية وإعجازها ما يدل على عظمة علم الله بأسرار العباد وحركاتهم، فقد وصف المنافقين بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ ﴾ أي: ينسلون ملاوذين، أي: مستترين، فالتسلل: الخروج في خفية، واللواذ: أن يستتر الشخص بشيء مخافة أن يُرى. فقد صور سبحانه حركاتهم النفسية والجسمية.

(**1565**) فيها ذكر لصفتيْن من أخطر صفات المنافقين، وهما: شق صف الجماعة بالانصراف عن الأمر الجامع للأمة وعدم استئذان قائدها، والثاني: مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وقصد الإعراض عنه.

(**1566**) في الآية بيان ما كان يقع من المنافقين، فإنهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين ينضم بعضهم إلى بعض استتاراً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين لما يرون من الاجتماع للصلاة والخطبة، فكانوا يفرون عن الحضور ويتسللون في خفية، ويستتر بعضهم ببعض، وينضم إليه.([6])

(**1567**) تشير إلى أن من الناس من ستسللون من أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، وزواجره، مستخفين بتأويلات بعيدة، حتى لا ينكشفوا فيفتضح أمرهم بين المسلمين، وذلك كشأن بعض من يسمون أنفسهم بالعقلانيين والتنويريين في عصرنا هذا.

---

1 ينظر البحر المحيط في التفسير، 29/8.

2 معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، 56/4

3 معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (**لَوَذَ**)

4 نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، للإمام أبي بكر محمد بن عزيز السجستاني، (ت330هـ) تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي. باب الياء المفتوحة، ص496.

5 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2535

6 ينظر فتح البيان في مقاصد القرآن، 9/ 275

(**1568**) تفيد الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ... ﴾ الترتيب، أي ترتيب ما بعدها على ما قبلها، لا تجعلوا دعاء الرسول.. قد يعلم الله الذين يتسللون... والنتيجة: أن تصيبهم فتنة في الدنيا، أو يصيبهم عذاب أليم في الآخرة.

(**1569**) يحتج بهذه الآية على أن مقتضى الأمر المطلق الوجوب، لأنه عز وجل توعد المخالفين لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالفتنة والعذاب، والوعيد إنما يكون على ترك واجب أو فعل محرم، وذلك يقتضي أن مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم حرام، فامتثال أمره واجب، وهو المطلوب.([1])

(**1570**) في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ تهديد ووعيد لمن خالف أمر الله تعالى، أو أمر رسوله صلى الله عليه وسلم، أو عارض أمرهما بقوله، أو بقول أحد من البشر.

(**1571**) فيها إنْ قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ وإنما يقال: خالف أمره؟ قلنا: (عن) زائدة؛ كذا قال الأخفش، الثاني: أن فيه إضماراً تقديره: فليحذر الذين يخالفون الله تعالى، ويعرضون عن أمره.)([2])

(**1572**) من أسرار تعدية (خالف) هنا بعن:﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ مع أن المخالفة لأمره، (يخالفون أمره) لتضمنه معنى الاعتراض والميل، وهذا من أدق التعبير القرآني الدال على معرفة خبايا النفوس، فلا يدع شيئاً إلا ويضمنه في ألفاظه. وهذا من بلاغته العظيمة.

(**1573**) يفيد قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أن شرط الاتباع موافقة المتبوع، وأن سعادة الدارين في متابعة سنَّته صلى الله عليه وسلم، وأن شقاوة المترلين في مخالفة سُنَّته عليه الصلاة والسلام.

(**1574**) تفيد تحذيراً مرهوباً، وتهديداً رعيباً.. فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويتبعون نهجاً غير نهجه، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة، أو اتقاء مضرة.([3])

---

1 ينظر الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، 3/ 61، 62، نجم الدين الطوفي.

2 ينظر مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب التنزيل، لأبي بكر الرازي ص، 243- 244.

3 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2535

(**1575**) فيها أن من الناس من يتسللون من أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم والتحاكم إلى سنته مستخفين بتأويلات بعيدة حتى لا ينكشفوا فيفتضح أمرهم بين المسلمين.

(**1576**) يفيد قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أن من أعظم ما يُصاب به المخالف لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته، أن يُفتن في دينه في الدنيا، مع ما ينتظره في الآخرة من أليم العذاب. روى ابن العربي رحمه الله -بسنده المتصل إلى سفيان ابن عيينة رحمه الله- قال: (سمعت مالك بن أنس -وأتاه رجل- فقال: يا أبا عبد الله، من أين أحرم؟ قال: من ذي الحُليفة من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد، فقال: لا تفعل. قال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة. قال: وأي فتنة في هذا؟ إنما هي أميال أزيدها. قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصّر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم إني سمعت رسول الله يقول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾)([1])

(**1577**) فيها: أنه بمقدار المخالفة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون الفتنة، ولا يدفع هذه الفتنة عن الناس إلا اتباعهم النبي صلى الله عليه وسلم والتسليم لأمره في كل شأن من شؤونهم.

(**1578**) من هدايات هذه الآية الكريمة أنها تصدق أيضاً على الاجتماعات التي تعقد للنظر في (أمر جامع) تتوقف عليه مصلحة المسلمين العامة، طبقاً لأصول الإسلام الثابتة، فلا يسوغ الخروج على مقرراتها، ولا مخالفة توجيهاتها، إذ الغرض الأساسي منها متى دعا إليها الرسول وصالحو المؤمنين هو الحصول على الإجماع والاتفاق، وتفادي الخلاف والشقاق، ومتى وقع الخروج عليها منيت الأمة بالانحلال والفشل، وأصيبت الدولة بمختلف الأدواء والعلل. ([2])

(**1579**) يدل قوله تعالى: ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أن مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم توجب أحد هذين الأمرين: العقوبة في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة، وإنما ردَّدَ الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الأمرين، لأن ذلك المخالف قد يموت

---

1 أحكام القرآن، ابن العربي، 3/ 432

2 ينظر التيسير في أحاديث التفسير، 4/ 303

من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك في الدنيا، فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد.([1])

(**1580**) مجيء لفظ (فتنة) نكرة يفيد العموم، فيدخل تحته كل صنوف الفتن، من مِحَن في الدنيا، أو قتل، أو زلازل وأهوال، أو تسليط سلطان جائر، أو قسوة القلب عن معرفة الرب، أو إسباغ النعم استدراجاً، أو تفرق للكلمة، أو تسليط للعدو ...

(**1581**) تفيد أن كل مجترئ على مقام الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الاستهانة بسنته، يُخشى عليه الهلاك في الدنيا قبل الآخرة.

(**1582**) تدل هذه الآية على أن مخالفة أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم؛ سبب لما يترل بالمسلم من الشدة والحرج والكرب، سواء في المال، أو الأهل أو الولد، فيكون ذلك تذكيراً له بالرجوع إلى الله، وتطبيق أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

(**1583**) تدل كذلك أن مخالفة أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم؛ سبب لما يترل بالمجتمع المسلم من الظلم والشقاء، والفتن والابتلاء، ذلك الانحراف عن منهج الله وهديه؛ مؤذن بترول كل الفتن والمحن، كما تفيده هذه الآية وغيرها من الآيات القرآنية. ولن يُرفَع ذلك إلا بالرجوع إلى الله تعالى والاعتصام بأمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

---

1 ينظر مفاتيح الغيب، 380/11

- **الآية الرابعة والستون:** ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1584**) في مناسبتها بما قبلها أن الله تعالى لما أقام الأدلة على أنه نور السماوات والأرض بأنه لا قيام لشيء إلا به سبحانه، وختم بالتحذير لكل مخالف، أنتج ذلك أن له كل شيء فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾([1])

(**1585**) تفيد في صلة بما قبلها، تذييل لما تقدم في هذه السورة كلها. وافتتاحه بحرف التنبيه ﴿أَلَآ﴾ إيذان بانتهاء الكلام، وتنبيه للناس ليعُوا ما يرد بعد حرف التنبيه، وهو أن الله مالك ما في السماوات والأرض، فهو يجازي عباده بما يستحقون وهو عالم بما يفعلون.([2])

(**1586**) في افتتاح هذه الآية الخاتمة بحرف التنبيه: ﴿أَلَآ﴾ من البلاغة ما يدل على أن من حكمة البيان؛ حسن الاختتام في الكلام، لما لذلك من أثر عظيم في نفوس السامعين.

(**1587**) تفيد هذه الآية في سياقها بما قبلها من بداية السورة إلى هنا؛ أن هذا الوجود كله لله، وأنه سبحانه أوجد هذا الكون، وأقامه على سنن، وأخذه بنظام حكيم، لا يتخلف عنه أبداً. والإنسان هو بعض ما لله- هو جزء من هذا الوجود.. وهذه الأحكام والشرائع التي سنها الله سبحانه وتعالى للإنسان، وبيّن له فيها الطريق الذي يسلكه، والطرق التي يجتنبها- هى من سنن هذا الوجود، وفى خروج الإنسان عن أمر الله خروج على هذه السنن، وانحراف عن الوضع السليم الذي يجب أن يكون عليه، الأمر الذي يعرّضه للعزلة عن هذا الوجود، ويلقى به بعيدا عن دائرة الأمن والسلامة.. ومن هنا يجيء شقاؤه فى الدنيا والآخرة جميعاً.([3])

(**1588**) فيها أسلوب القصر، الذي يفيده تقديم الجار والمجرور، فكل ما في السماوات، وكل ما في الأرض ملك لله وحده، لا يشاركه فيه أحد، فهو وحده الرب المعبود، وكل ما سواه عبد مربوب.

---

1 ينظر نظم الدرر، 13/ 326

2 التحرير والتنوير، 18/311- 312

3 ينظر تفسير القرآن للقرآن، 9 / 1339

(**1589**) تفيد إثبات الوحدانية المطلقة لله تعالى، خَلْقاً، ومُلْكاً، وتدبيراً، وتَصرُّفاً، وإيجاداً، وإعدَاماً، بَدْءاً وإعادةً.

(**1590**) تفيد تعظيم الله تعالى لنفسه، فأول من عظّم الله تعالى هو الله جل جلاله. بذكر قدرته، وآثارها في الخلق، فقوله: ﴿أَلَآ﴾ (تنبيه على أن لا يخالفوا أمر مَن له ما في السماوات والأرض)([1])

(**1591**) تفيد إذا كان مُلْكُ جميع السّمَوَاتِ والأَرْضِ لله تعالى، خلقاً وتدبيراً، وإحياءً وإماتة، فلا ينبغي لمملوك أن يخالف أمر مالكه في ملكه فيعصيَه، فيستوجب بذلك عقوبته.

(**1592**) فيها دلالة على قدرته تعالى على ما في السماوات والأرض، وعلى ما بينهما وما فيهما، واقتداره على المكلف فيما يعامل به من المجازاة بثواب أو بعقاب، وعلمه بما يخفيه ويعلنه، وكل ذلك كالزجر عن مخالفة أمره.([2])

(**1593**) فيها الأمر بعبادة الله تعالى، والخضوع له وحده لأنه الخالق المدبر، والمالك المتصرف، ومن كان خالقاً كان معبوداً، ومن كان مالكاً متصرفاً، كان مُطَاعاً مُسْتَجاباً له، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ ﴾ [البقرة: 21،22]

(**1594**) تفيد أن الله تعالى يعلم حالة عباده، وما هم عليه من الإيمان أو النفاق، ومن الاستجابة أو الإعراض، ومن الطاعة أو المعصية، ومن الخير أو الشر ﴿يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ فلا تخفى عليه خافية من أمرهم، وقد ابتلاهم بالتكليف ليرى أيهم استجابة وأحسنهم عملا، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ٢ ﴾ [الملك: 2]

(**1595**) يفيد دخول ﴿ قَدۡ ﴾ تأكيد علمه سبحانه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد، وذلك أن (قَدْ) إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى (ربما) فوافقت (ربما) في خروجها إلى معنى التكثير في نحو قوله:

فَإِنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الفِنَاءِ فَرُبَّمَا *** أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوُفُودِ وُفُودُ.([1])

---

1 تفسير النسفي، 3/ 784

2 ينظر مفاتيح الغيب، 11/ 380

(**1596**) فيها إن كان المضارع لا يمكن فيه التوقع، كان بمعنى الماضي، فقوله تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ يفيد أنه سبحانه قد عَلِمَ حقاً ما هم عليه من الإيمان أو الكفر، أو الطاعة أو المعصية، أو الاستقامة أو الانحراف، فهو سبحانه عالم بما يبديه كلّ منكم وما يخفيه.

(**1597**) تفيد مراقبة الله تعالى لعباده في جميع أمورهم، واطلاعه على كل أحوالهم، فلا يخفى عليه شأن من شؤونهم الخاصة أو العامة، الظاهرة أو الباطنة.

(**1598**) فيها فضل الله ورحمته بالخلق، فرغم علمه بنفاق المنافق، وظلم الكافر، فإنه لم يعجل لهم العقوبة، بل أجّلها مع إظهار طريق الهدى، وبيان سوء عاقبة الضلال، حتى تكتمل الحجة، بعد بيان المحجة.

(**1599**) في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ تنبيه وتحذير للمؤمنين، وتهديد ووعيد للمنافقين والمعرضين، كما يبينه سياق ما قبله وما بعده.

(**1600**) فيه كذلك تحذير للمخالفين لله تعالى، الخارجين على سننه، المتمردين على أوامره وشرعه ومنهج رسوله صلى الله عليه وسلم؛ تحذير لهم من عقابه الراصد، وعذابه الأليم.

(**1601**) في هذه الآية: ﴿يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ وما في معناها أحسن وعد للمطيعين، وأشدّ وعيد للعصاة المجرمين.([2]) وهذا من خصائص أسلوب القرآن الكريم، ولا يدركه إلا من عاش مع القرآن يتذوق أساليب خطابه في سياقاته المتعددة والمتنوعة.

(**1602**) فيها باعث على الامتثال؛ امتثال ما تقدم في غضون الآيات وتضاعيفها من فنون الأحكام وجميل الآداب.([3])

(**1603**) تفيد إثبات يوم القيامة، يوم المعاد والبعث بعد الموت، ثم الحشر والنشر...ثم الجزاء ليتحقق العدل الإلهي: ﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ فالرجوع إليه سبحانه إنما حقيقته بعد الموت والبعث بعده.

---

1 الكشاف، 18/ 738

2 ينظر أضواء البيان، 5/ 561

3 ينظر تفسير سورة النورن عبد الهادي التازي، 90

(**1604**) في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ التفات عن الخطاب، وتعليق علمه سبحانه بيوم الرجوع، لا بنفس رجوعهم، لزيادة تحقق علمه، لأن العلم بوقت وقوع الشيء يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه.([1])

(**1605**) في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ عطف على (ما) في قوله: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهو مفعول به، أي: ويعلم يَوْمَ رجوع الخلق إليه، لا ظرف كما ذهب إليه بعض المفسرين([2])، لأن الله تعالى عالم في كل حين وأوان، ولا يُوصف بالعلم في وقت دون وقت.([3])

(**1606**) في تعليق علمه سبحانه بيوم رَجْعهم ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ لا برجْعهم، لزيادة تحقيق علمه سبحانه بذلك وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع الشيء مستلزم للعلم بوقوع الشيء على أبلغ وجه وآكده.

(**1607**) في علاقة هذه الجملة:﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ بالجملة التي قبلها: ﴿يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ إشعار بأن علمه جل وعلا بنفس رَجْعِهم من الظهور بحيث لا يحتاج إلى البيان قطعاً.([4])

(**1608**) تفيد أن لهذا اليوم الذي نعيشه غداً، وأن الغد يأتي بانتهاء هذا اليوم، وأن للعبد في غده حساباً على يومه، وسيطالب بالصغير والكبير.

(**1609**) تفيد إثبات الحساب والجزاء، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ حيث تُجزى كل نفس بما كسبت، وتعطى كل نفس ما عملت، وهذا لا يكون ولا يتحقق إلا يوم الحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

---

1 ينظر فتح البيان في مقاصد القرىنن 9/ 276

2 من هؤلاء ابن عطية في محرره، فقد قال: (يجوز أن يكون معمولا لقوله: يَعْلَمُ ويجوز أن يكون التقدير والعلم الظاهر لكم أو نحو هذا يوم فيكون النصب على الظرف) 198/4.

3 ينظر الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: المنتجب الهمذاني، 674/4

4 ينظر روح المعاني، 9 / 417

(**1610**) في سر الالتفات من الخطابِ في قولِه: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ إلى الغَيْبة في قوله: ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ التنبيه على الإعراض عن المكذب بالقيامة، والإقبال على المصدق، صوناً لنفيس الكلام، عن الجفاة الأغبياء اللئام.([1])

(**1611**) تفيد إثبات إحصاء أعمال العباد، صغيرها وكبيرها: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: 49]

(**1612**) يفيد وجه التعبير عن الجزاء بالتنبئة، ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ أن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض إنما يظهر بصورة مغايرة لصورته الحقيقية التي بها يظهر في النشأة الآخرة. فإن (الخيانة) مثلا، عار شنيع يبدو في الدنيا لأصحابها بصورة تستحسنها نفوسهم، حيث إن فيها أخذ مال مثلا أو تشفياً من الأعداء.! وكذلك الطاعات مع كونها أحسن المحاسن تظهر بصورة كريه! وإنما يظهر كل عند إبرازه بصورته الحقيقية المضادة لما نشاهد.([2])

(**1613**) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ تذييل لجملة: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ لأنه أعم منه، وهو من باب عطف العام على الخاص. وفيها لطيفة الاطلاع على أحوالهم لأنهم كانوا يسترون نفاقهم. ([3])

(**1614**) في قوله تعالى كذلك: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ رد الختام على المبدأ، فلذلك أنزل الآيات البينات، وكان نور الأرض والسموات.([4]) حتى لا يبقى لأحد حجة بعد إقامة المحجة.

(**1615**) في ختم الآية بهذه باسم الله (العليم) ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ ما يدل على دقة التناسب بين موضوعها وخاتمتها، فبعد ذكره سبحانه أنه يعلم حال العباد وما هم عليه ظاهراً وباطناً، أقوالا وأفعالا، صدقاً أو كذباً؛ ختم ذلك بأنه بكل شيء عليم، فلا شيء يغيب عن علمه سبحانه.

---

1 نظم الدرر، البقاعي، 18/ 327

2 ينظر تفسير سورة النور، عبد الهادي التازي، 90

3 التحرير والتنوير، 18/ 312

4 نظم الدرر، البقاعي، 18/ 327، 328

(**1616**) فيها كذلك حث على امتثال الأوامر واجتناب النواهي، والتحذير من المخالفة. فهذه هي مهمة المكلَّف، ووظيفة المؤمن التي تقتضيها عبوديته لله تعالى، وتحمله للأمانة.

(**1617**) فيها لو عرف المخالف لأمر الله تعالى قدرته جل وعلا عليه، وعلى جميع ما في الكون، وعلمه سبحانه وتعالى بكل ما يفعل، وأن وراء ذلك حساباً وجزاءً؛ لَانْزجر، ولما أقدم على ما لا يرضي ربه جل جلاله.

(**1618**) فيها تعليق القلوب والأبصار بالله؛ وتذكيرها بخشيته وتقواه. فهذا هو الضمان الأخير. وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي، وهذه الأخلاق والآداب، التي فرضها الله في هذه السورة وجعلها كلها سواء.([1])

(**1619**) في ختم السورة بهذا التهديد الفظيع المؤذن بأنه تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة، ما يُعَدّ سبباً باعثاً على الامتثال، امتثال ما تقدم في غضون آيات السورة وتضاعيفها من أنواع الأحكام، وجميل الآداب وشريف الخصال.

(**1620**) إن المتأمل في آيات هذه السورة وهداياتها، وخصوصاً ما يتعلق بالأسرة وعلاقتها بالمجتمع، وما يحكم الجانبين في علاقة أفرادهما، يتبين له شمول الهداية الربانية للزمان كله، وللمكان كله، ولكيان الإنسان كله؛ عقله، وروحه، وجسده. فهذه السورة حقاً هي نور في هداياتها النورانية.

(**1621**) في تناسب ختام السورة بهذه الآيات مع افتتاحها؛ أن الله تعالى لما افتتح السورة بقوله (سورة أنزلناها) وذكر أنواعاً من الأوامر والحدود مما أنزله على الرسول عليه السلام، اختتمها بما يجب له عليه السلام على أمته من التتابع والتشايع على ما فيه مصلحة الإسلام ومن طلب استئذانه إن عرض لأحد منهم عارض، ومن توقيره في دعائهم إياه.([2])

(**1622**) فيها أن الله تعالى سوف ينبئ كل عباده بما عملت أيديهم، من صغير، أو كبير، فعلى المؤمن أن يحرص على أن ينبئه ربه بما يحب يوم تبلى السرائر.

---

1 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2536

2 ينظر البحر المحيط في التفسير، 73/8

(**1623**) تدل هذه الآية على الاعتناء بخاتمة الكلام، لأنها تلخص كل ما فُصِّل في تضاعيف السورة، ووجه ذلك في الآية ما افتتحت به من حرف التنبيه: ﴿أَلَآ﴾ وما جاء بعده من حصر لملكية الله لأمر السموات والأرض، ثم إرجاع الأمور كلها إليه، وعلمه سبحانه بشؤون العباد، ورجوعهم إليه في النهاية لمحاسبتهم، ليجزي كل نفس بما كسبت؛ وذلك بعد ما فصلت السورة من أحكام التشريع الخاصة والعامة، العقدية والتعبدية والأخلاقية، ما به تقوم الحجة على كل إنسان، في خضوعه لأمر الله تعالى.

(**1624**) في هذه الآية بيان للمنهج التربوي الإسلامي في هذا الناحية، ويتمثل في تضييق فرص الغواية، وإبعاد كل عوامل الفتنة، وسد كل ذريعة تؤدي إلى أسباب التهييج والإثارة.

(**1625**) يستفاد من هذه الآية أن قاعدة: (سد الذرائع) ليست خاصة بباب الأحكام التشريعية، كما اشتهر عند الفقهاء، بل هي تطرد في كل أبواب الإسلام؛ عقيدة، وشريعة، وأخلاقاً، ولذلك كانت هذه القاعدة من أعظم قواعد التشريع من حيث كونها ضابطاً تشريعياً وأخلاقياً.

المبحث الثاني

الهدايات الكلية في السورة، من الآية: 27 إلى آخر السورة

تمهيد:

إن الغاية التي من أجلها نزل القرآن الكريم هي هداية الناس، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وهذه الغاية تستلزم اتباع هذا النور، لأنه لا هداية إلا بالنور، ولذلك وصف الله القرآن الكريم في سياق الهداية بهذا الوصف: (**النور**) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ ٥٢ ﴾ [الشورى52] ووصف رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم الداعي إلى هذه الهداية بالسراج المنير: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ ﴾ [الأحزاب45،46] وهذه الأنوار الجليلة الجميلة -أنوار القرآن، وأنوار الرسول صلى الله عليه وسلم- إنما هي قبس من نور الله تعالى، فهو سبحانه أصل الأنوار كلها، مادية ومعنوية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ... ٣٥ ﴾ [النور: 35]

ولما كانت هذه السورة الكريمة مشتملة على أصول العقائد، والفضائل، والأخلاق النفسية، والأسرية، والاجتماعية، التي تهدف إلى بناء المجتمع المسلم وصيانته من الفساد والانحراف العقدي والأخلاقي، من خلال آيات بينات، وهدايات واضحات؛ سماها الله ب:(**سورة النور**) لتنويرها طريق الحياة الاجتماعية والنفسية والأسرية للمجتمع المسلم، وذلك لما فيها من إشاعات الأنوار الربانية، والهدايات الإلهية، في طريق السير إلى الله تعالى فرداً، وجماعة، وأُمّة.

وإذا كان الله تعالى وصف القرآن الكريم بالنور عموماً -كما سبقت الإشارة- فإن لهذه السورة الكريمة، أنوراً خاصة، ضمن أنوار القرآن الكريم، لأن الله تعالى شرّفها وخصّها بهذا الاسم، ويتجلى هذا النور في هدايات آياتها المتفرِّدة، الجزئية منها، والكلية، ولقد سبق الحديث في المبحث السابق عن بعض هداياتها الخاصة والجزئية، وسيكون الحديث في هذا المبحث عن هداياتها العامة والكلية، في محاولة لاستقرائها وصياغتها، مع تعقيب مختصر على كل هداية من هذه الهدايات، بما يدل عليها، ويؤكد كليتها، سواء من آيات السورة نفسها، أو من آيات وسور أخرى.

بين الهدايات الجزئية الخاصة، والهدايات الكلية العامة:

أولا: الهدايات الجزئية هي: الهدايات التفصيلية الخاصة بآيات السورة، أو جزء منها، أو بآية من آياتها، أو بكلمة من كلماتها، أو بموضوع من موضوعاتها، فهي إذن هدايات مستخرجة (من آيات مجتمعة، أو متفرقة في سورة واحدة، أو في عدد من السور، وفق الطرق الصحيحة عند العلماء([1]) وسميت جزئية لأنها مستنبطة بطريقة الجزء من الخطاب القرآني)([2]) أي يتم استنباطها بالنظر إلى كل كلمة، وكل جملة، داخل الآية الواحدة، مع استحضار سياق الآية، ومناسباتها، وأحوال نزولها، والوقوف عند بلاغة ألفاظها وعباراتها، وغير ذلك من الطرق التي استعملها العلماء في الوصول إلى الهدايات الجزئية للآيات القرآنية.

ثانياً: الهدايات الكلية: أما الهدايات الكلية فهي (الهدايات المستخرجة بطريقة كلية من آيات مجتمعة، أو متفرقة في سورة واحدة، أو في عدد من السور، وفق المنهج الصحيح عند العلماء)([3])

فهي إذن جمع للهدايات الجزئية واستقراء لها، لتجمع وتُصاغ في كلية أو كليات؛ ويراعى فيها طريقة عرض موضوعات الآيات، ومقاصد السورة، ومحاورها الأساسية، وموضوعاتها الرئيسة.

وهكذا، فإن الهدايات الجزئية تكون ثمرة لفهم المعنى الجزئي للآية، أو الآيات، أما الهدايات الكلية فهي ثمرة لفهم المعنى الكلي لها.

هذا، وإن من أبرز الهدايات الكلية العامة التي يمكن أن نستلهمها من هذه الآيات من سورة النور ما يأتي(4):

---

1 تحدثت الدراسات التأصيلية عن طرق العلماء في الوصول إلى الهدايات القرآنية الجزئية فذكرت سبعة عشر طريقاً منها: الاعتماد على دلالات الألفاظ، والالتفات إلى تنوع الأساليب، والنظر في اختلاف القراءات، واستحضار حكم التشريع وأسراره، والنظر في أوجه الإعراب وغيرها... (ينظر: الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، 505/2 - 555)

2ينظر الهدايات الكلية في القرآن الكريم، دراسة تأصيلية تطبيقية، للدكتور طه عابدين طه، ص5

3 الهدايات الكلية في القرآن الكريم، دراسة تأصيلية تطبيقية، الدكتور طه عابدين طه، ص5

4 تبدأ الدراسات التطبيقية في هدايات هذه السورة، الجزئية منها والكلية، من الآية: 27 إلى آخر السورة، حسب خطة البحث وعنوانه.

الهداية الأولى: في بيان أحكام الإستئذان وآداب التزاور والمخالطة؛ تقرير لأصول وقواعد الآداب الشرعية التي يجب مراعاتها في صلة المسلمين فيما بينهم، تطهيراً للنفوس، وسلامة للقلوب، وحفظاً لحرمة البيوت، وتحصيناً للمجتمع المسلم.

ويمكن إجمال الحديث عن هذه الهداية الكلية في النقاط الآتية:

(1) الالتزام بآداب الزيارة وآداب الاستئذان، كما جاءت في السنة النبوية المطهرة، ففي الالتزام بهذا الخلق العظيم حفاظ على سلامة القلوب من الريبة، وسلامة النفوس من الغيرة المؤدية لفساد ذات البين، ولما فيه كذلك من تزكية النفوس وتربيتها، والحفاظ على حرمة البيوت وحرمة أهلها وذويها، فللبيوت حرمة، ولكل حرمة خصوصية.

ذلك أن من أكبر أغراض هذه السورة هو تشريع نظام المعاشرة والمخالطة العائلية في التَّجَاوُر، فجاءت هذه الهداية الكلية في هذه الآيات من سورة النور، لبيان أحكام التزاور، وتعليم آداب الاستئذان، وتحديد ما يحصل المقصود منه، كيلا يكون الناس مختلفين في كيفيته على تفاوت اختلاف مداركهم في المقصود منه والمفيد.([1])

ولأهمية هذه الهداية الكلية القرآنية في حفظ سلامة القلوب، وتربية النفوس، بحفظ حرمة البيوت؛ جاءت السنة النبوية لبيان وتفصيل آداب الاستئذان، وكيفيته، وشروط المستأذِن عند الاستئذان، وما كان من هديه صلى الله عليه وسلم في كل ذلك. ومن هذا البيان ما يأتي:

- عن كلدة بن حنبل([2]) رضي الله عنه قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، و لم أُسلّم و لم أستأذن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ((ارْجِعْ فَقُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ))([3])

- وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ، إِذْ جَاءَ أَبُو مُوسَى كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ، فَقَالَ: (اسْتَأْذَنْتُ عَلَى عُمَرَ ثَلاَثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ؟ قُلْتُ:

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 196

2 صحابي يقال: كلدة بْن عَبْد اللَّه بْن الحنبل، والصواب كلدة بْن حَنْبَل بْن مليل، وهو أخو صَفْوَان بْن أُمَيَّة لأمه، أمهما صفية بِنْت مَعْمَر بْن حَبِيب بْن وَهْب ابن حُذَافَة بْن جمح، وَكَانَ متصلا بصفوان بْن أُمَيَّة يخدمه، لا يفارقه في سفر ولا حضر، ثُمَّ أسلم بإسلام صَفْوَان، و لم يزل مقيماً بها حَتَّى توفي بها. روى عَنْهُ عَمْرو بْن عَبْد اللَّه بْن صَفْوَان. (الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، 3/ 1332)

3 رواه أبو داود كتاب الاستئذان، باب كيف الاستئذان، حديث رقم: 5176 والترمذي كتاب الاستئذان، باب التسليم قبل الاستئذان حديث رقم: 2710

اسْتَأْذَنْتُ ثَلاَثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاَثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ)) فَقَالَ: وَاللَّهِ لَتُقِيمَنَّ عَلَيْهِ بِبَيِّنَةٍ، أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: وَاللَّهِ لاَ يَقُومُ مَعَكَ إِلَّا أَصْغَرُ القَوْمِ، فَكُنْتُ أَصْغَرَ القَوْمِ فَقُمْتُ مَعَهُ، فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَلِكَ)([1]) وفي رواية لمسلم: عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري قال: جاء أبو موسى إلى عمر بن الخطاب فقال: السلام عليكم، هذا عبد الله بن قيس، فلم يأذن له، فقال: السلام عليكم، هذا أبو موسى، السلام عليكم، هذا الأشعري، ثم انصرف، فقال: رُدُّوا عليّ رُدُّوا عليّ، فجاء فقال: يا أبا موسى ما رَدَّك؟ كنا في شغل، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((الاستئذان ثلاث فإن أُذن لك وإلا فارجع)) قال: لتأتيني على هذا ببيِّنة، وإلا فعلت وفعلت، فذهب أبو موسى. قال عمر رضي الله عنه: إنْ وجَد بيّنةً تجدونه عند المنبر عشيّةً، وإن لم يجد بينة فلم تجدوه، فلما جاء العشي وجده، فقال: يا أبا موسى ما تقول؟ أقد وجدت؟ قال: نعم، أبي بن كعب، قال: عدل، قال: يا أبا الطفيل ما يقول هذا؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك يا ابن الخطاب، فلا تكونن عذاباً على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: سبحان الله إنما سمعت شيئاً فأحببت أن أتَثَبَّت.([2])

- وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا سَلَّمَ، سَلَّمَ ثَلاَثًا، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا)) ([3])

ثم لِيُعْلَمْ أنه ينبغي للمستأذن على أهل المترل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن لِيَكن البابُ، عن يمينه أو يساره؛ لما رواه أبو داود عن عبد الله بن بُسْر قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: ((السلام عليكم، السلام عليكم)) وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور)([4])

(2) تحريم الدخول إلى بيوت الآخرين من غير استئذان: فللبيوت حرمتها، والتي لا يجوز أن تنتهك، لما يترتب على ذلك من نتائج وخيمة، من إيغار للصدور، وفساد للقلوب، وكشف

---

1 البخاري، كتاب الاستئذان، بَابُ بَابُ التَّسْلِيمِ وَالِاسْتِئْذَانِ ثَلاَثًا، حديث رقم: 2062

2 مسلم، كتاب االآداب، باب الاستئذان، حديث رقم: 5759

3 البخاري، كتاب الاستئذان، بَابُ التَّسْلِيمِ وَالِاسْتِئْذَانِ ثَلاَثًا، حديث رقم: 6244

4 سنن أبي داود برقم: 5186 عن تفسير القرآن العظيم للإمام بن كثير، 37/6

للعورات، ذلك أن من مقاصد تشريع الاستئذان، هو حفظ العورات، وعدم كشف أسرار البيوت، حتى لا تصبح حديث المجالس، لما يترتب على ذلك من انحراف في السلوك، وضياع لأمن المجتمع النفسي والأخلاقي والاجتماعي.

ومن هنا كان حفظ العِرض والشرف، من الكيات الخمس، التي جاءت الشريعة لحفظها، ولا يحفظ العرض إلا بحفظ ما يحافظ عليه من الوسائل، وهذا من مقاصد هذه السورة الكريمة.

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره: (مقصود هذه السورة: ذكر أحكام العفاف والستر)(1)

(3) عدم الدخول إلى بيوت الآخرين في حالة الاعتذار الضمني، أو الصريح: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ ﴾ [النور: 28](2) وهذا من دقة التعبير القرآني، ومقاصد تشريعاته وشمولية آدابه، ذلك أن النفوس والطبائع مختلفة، فقد يغلب الحياء بعض النفوس، فتقع في الحرج، فلا تستطيع أن تقول للمستأذن: ارجع، أو أعتذر لك عن الدخول، بل ربما تعبر عن ذلك بعدم الاستماع، أو بما يوهم أنها ليست في البيت، فما على المستأذن إلا أن يفهم المقصود، ولا يجوز له أن يحرج أهل البيت بالإلحاح في الاستئذان، بذريعة التأكد من استماعهم لاستئذانه، وعلمهم به، فيبالغ في ذلك. أما في حالة الاعتذار الصريح، فهذا أمر بيّن واضح. ذلك أن من مقاصد هذه السورة الكريمة هو حفظ كرامة الأسرة وقيمة الشرف.

قال أبو زهرة رحمه الله: (لو سميت سورة النور سورة الأسرة لكانت جديرة بهذا الاسم)(3)

(4) جواز الدخول إلى البيوت العامة من غير الاستئذان، كالفنادق والحوانيت وبيوت الراحة وغيرها، وهذا من تيسير الإسلام ورحمته، وواقعيته كذلك، فما كل البيوت يجب الاستئذان عند دخولها، فهناك من البيوت ما هي مِلك للجميع، ومنها ما أُعد خصيصاً لهذا الغرض، كالغرض الاجتماعي مثلا، فلا يتحقق المقصود من وجودها إلا بتردد الناس عليها مفيدين ومستفيدين،

1 الجامع لأحكام القرآن، 12/ 158

2 ينظر: التربية القرآنية في سورة النور، 193، أنور أحمد داود أعمير (بتصرف)

3 زهرة التفاسير 10/ 5130

وذلك مثل الإدارات، وقاعات الاستراحة، وبيوت التجارة، والمطاعم وغيرها ... فكل هذا وما جرى مجراه، مما رفع اللَّهُ الجُناحَ والحَرَجَ في الانتفاعِ به، بشرط ألا يكون في ذلك قصد الضرر لأحد، ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ ﴾ [النور: 29]

الهداية الثانية: في الأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج، سد لذرائع الحرام، وتطهير للقلوب، وتربية للنفوس على مراقبة الله تعالى، وتحقيق للفوز والفلاح في الدنيا الآخرة:

وهي هداية قرآنية عظيمة، شاملة للمؤمنين كافة، ويندرج فيها حُكْم المستأذنين -الذي مر معنا في الهداية السابقة- عند دخولهم البيوت اندارجاً أولياً؛ كما قال العلماء، لأنهم قد خُصُّوا بمكان تشتد حرمته، ويزداد التأكيد في امتثال الآداب تجاهه.

وهذه الهداية الكلية الشاملة هي من أعظم هدايات سورة النور ومقاصدها، لأنها من أصول الآداب المهمة، ومِن أُممهات الأخلاق العظيمة، التي بها تحفظ كرامة المجتمع، ويُصان شرفه، ويحفظ عرضه، ذلك أن النظر (أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد الخطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل، ولا بد ما لم يمنع منه مانع، ولهذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده.

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوئد، عظيمة الخطر، جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه الله تعالى، فإن من ترك شيئا عوضه الله تعالى خيراً منه.

الفائدة الثانية: نور القلب وصحة الفراسة، قال أبو شجاع الكرماني([1]): (من عمر ظاهره بإتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغضّ بصره عن المحارم واعتاد أكل الحلال، لم تخطئ له فراسة)

---

1 أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني. كَانَ من أَوْلَاد الْمُلُوك صحب أَبَا تُرَاب النخشبي وَأَبا عبد الله بن الذِّرَاع الْبَصْرِيّ وَأَبا عبيد البسري وَكَانَ من أجلة الفتيان وعلماء هَذِه الطَّبَقَة وَله رسالات مَشْهُورَة والمثلثة الَّتِي سَمَّاهَا مرْآة الْحُكَمَاء ورد نيسابور فِي زِيَارَة أبي حَفْص وَمَعَهُ أَبُو عُثْمَان الْحِيرِي وَمَات قبل الثلاثمائة. (طبقات الصوفية، ص150، محمد بن الحسين النيسابوري أبو عبد الرحمن السلمي)

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصة قوم لوط وما ابتلوا به من الفواحش، ثم قال بعدها: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر: 75] والمتوسمون وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة، ولذا قال االله تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور: 35]

وسر هذا: أن الجزاء من جنس العمل، فمن غض بصره عما حرم االله تعالى عليه عوضه االله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق االله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره و لم يغضه عن محارم الله تعالى.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع الله له بين السلطانين.([1])

ولما كان النظر داعية لكل فساد، وهو سهم من سهام إبليس، وبريده المسموم إلى القلوب، جاء الأمر (بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار، لأن النظر رائد الزنى. فلما كان ذريعة له قصد المتذرع إليه بالحفظ تنبيهاً على المبالغة في غض الأبصار في محاسن النساء. فالمراد بحفظ الفروج حفظها من أن تباشر غير ما أباحه الدين. واسم الإشارة إلى المذكور، أي ذلك المذكور من غض الأبصار وحفظ الفروج.([2])

الهداية الثالثة: في تفصيل القرآن الكريم لضوابط اللباس، وشروطه عند المرأة المسلمة، ما يدل على خطورة شأنه في أبعاده الإيمانية، والخلقية، والحضارية، داخل المجتمع المسلم.

إن قضية اللباس عموماً ولباس المرأة خصوصاً، لها ارتباط وثيق بقضية الدين والتدين، وباستقامة المجتمع أو فساده، فاللباس ليس شكلا، أو صورة خارجية، بل هو سيماء للعقيدة، وعلامة للإيمان، ورمز للعفة وأصل للفطرة الإنسانيةن كما في قصة آدم وزوجه عليهما السلام.

إن قضية اللباس يمتد عمقها إلى قصّة الخلق البشري إذن، وبداية الصراع بين إرادة الخير والشر؛ إرادة السِّتر والحياء، استجابة لأمر الله تعالى، وإرادة نزع اللباس والحياء عن الرجل والمرأة، تمرداً على أمر الله، وكشفاً للعورات، وذلك في قصة آدم وحواء عليهما السلام مع الشيطان، والتي

1 ينظر إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، 57/1 – 59 لابن قيم الجوزية (بتصرف)

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 204

قصها الله علينا في القرآن، في سياق الامتنان، بإنزال اللباس ستْراً لعورات الجسد، تحقيقاً لستْر عورات القلوب والنفوس بلباس التقوى، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف:26،27] فهناك علاقة وثيقة بين اللباس الجسدي بستر العورات حياءً، واللباس القلبي بتحقيق التقوى التي هي أصل الحياء.

ولذلك كان لأمْر اللباس عموماً، ولباس المرأة خصوصاً، دلالة خاصة، لأنه يرمز لكلية أخلاقية عظيمة ألا وهي كلية: (الحياء) التي هي جوهر الدين والتدين في الإسلام، وكان التبرج والتعري رمزاً للتمرد على الخالق وأوامره سبحانه، ووقوعاً في حبال الشيطان ومصيدته، كما تشير إليه الآية الكريمة الآنفة الذكر من سورة الأعراف، فليس اللباس إذن قضية شكلية، بل هو تعبير عن حضارة وعقيدة ومنهج، كما أن العري والتبرج تعبير عن عقيدة وحضارة أيضاً.

ومن هنا جاءت آيات (سورة النور) هذه لتفرض نموذجاً خاصاً للباس المرأة، مفصِّلةً لشروطه، ومحددة لضوابطه وحدوده، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ٣١ ...﴾ [النور: 31]

قال الإمام الطبري: (ولا يُظْهرن للناس الذين ليسوا لهنّ بمحرم زينتهنّ، وهما زينتان: إحداهما: ما خفي، وذلك كالخَلْخال والسّوارين والقُرْطَين والقلائد. والأخرى: ما ظهر منها، وذلك مختلف في المعنيّ منه بهذه الآية.. وقد ذكر رحمه الله أقوالا متعددة حول هذه الآية ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب؛ قول من قال: عُني بذلك الوجهُ والكفان، يدخل في ذلك إذا كان كذلك: الكحل، والخاتم، والسّوار، والخِضاب.

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك بالتأويل، لإجماع الجميع على أن على كلّ مصلّ أن يستر عورته في صلاته، وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في صلاتها، وأن عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدنها، إلا ما رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أباح لها أن تبديَه من ذراعها إلى قدر النصف. فإذا كان ذلك من جميعهم إجماعاً، كان معلوماً بذلك أن لها أن تبدي من بدنها ما لم

يكن عورة كما ذلك للرجال لأن ما لم يكن عورة فغير حرام إظهاره. وإذا كان لها إظهار ذلك، كان معلوماً أنه مما استثناه الله تعالى ذكره بقوله: ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ ﴾ لأن كل ذلك ظاهر منها.

وقوله:﴿ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ٣١ ﴾ [النور: 31] يقول تعالى ذكره: وليلقين خُمُرَهنّ، وهي جمع خمار، على جيوبهنّ، ليسترن بذلك شعورهنّ وأعناقهن وقُرْطَهُنّ)([1])

وقال سبحانه –في هذا السياق– من سورة الأحزاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ ﴾ [الأحزاب: 59]

فهذه الآية من سورة الأحزاب ألزمت المؤمنات جميعاً بارتداء الجلباب وإدنائه، والمقصود بالجلباب: ما ترتديه المرأة فوق ثيابها؛ لتخرج بهن فيستر جميع بدنها. سواء كان إزاراً أو رداء أو ملحفة.

جاء في كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير قوله: (الجلباب: الإزار والرداء. وقيل: المِلْحَفَة. وقيل: هو كالمِقْنَعَة تغطي به المرأة رأسها وظهرها وصدرها، وجمعه: جلابيب.([2])

وجاء في لسان العرب: (والجلباب: القميص. والجلباب ثوب أوسع من الخمار، دون الرداء، تغطي به المرأة رأسها وصدرها؛ وقيل: هو ثوب واسع، دون المِلْحَفة، تلبسه المرأة؛ وقيل: هو الملحفة (...) وقيل: هو ما تغطي به المرأة الثياب من فوق كالملحفة؛ وقيل: هو الخمار وفي حديث

1 جامع البيان، 158/19، 159

2 النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، حرف الجيم، باب الجيم مع اللام.

أم عطية الأنصارية رضي الله عنها: ((لِتُلْبِسْها صاحبتها من جلبابها))([1]) أي إزارها (...) وقيل جلباب المرأة مُلاءتُها التي تَشْتَمِل بها، واحدها جلباب، والجماعة جلابيب، وقد تجَلْبَبَت.([2])

وبناء على هذا يكون الجلباب هو الثوب الواسع الذي تستر به المرأة جميع جسمها، وترخيه على كل بدنها.. فتبين من هذا أن صورة لباس المرأة تعود إلى عبارتيْن محوريتيْن، من آيتيْن:

الأولى عبارة: (**إدناء الجلباب**): ﴿ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب: 59] وهو تقريب الإزار من العينين، حتى يغطي أغلب الجبين. وهو أصح تفسير ثبت سنداً عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال: (تدني الجلباب إلى وجهها ولا تضرب به)([3]) ومعنى قوله: (ولا تضرب به) أي لا تغطي بها وجهها؛ لأن الضرب بالثوب على الشيء تغطيته به. وإنما المطلوب هو (الإدناء) بنص القرآن. والعبارة.

العبارة الثانية في آية سورة النور –محل الدراسة– وهي: (**ضرب الخمار على الجيوب**) ﴿ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: 31] فيؤخذ من ذلك كله؛ عبارة وأصالة؛ أن أقلّ ما يجزئ المرأة من اللباس هو: ثوب واف ضاف، ساترٍ فضفاض، لا يصف ولا يشف، يستوعب جميع البدن .. وهو معنى الجلباب كما تبين.([4]) مع التزام شروط أخرى للستر واللباس المذكورة في الآية، من عدم إظهار الزينة، إلا لمن استثناهم الله تعالى من المحارم، والنهي عن الضرب بالأرجل لإظهار ما خفي من الزينة...

---

1 البخاري، كتاب العيدين، باب، إذا لم يكن لها جلباب في العيد، حديث رقم: 980. وتمام الحديث عن حفصة بنت سيرين أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وسلم، فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّه، عَلَى إِحْدَانَا بَأْسٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا جِلْباب أَنْ لاَ تَخْرُجَ فَقَالَ: ((لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا فَلْيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَتْ حَفْصَةُ فَلَمَّا قَدِمَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ أَتَيْتُهَا، فَسَأَلْتُهَا أَسَمِعْتِ فِي كَذَا وَكَذَا قَالَتْ نَعَمْ، بِأَبِي – وَقَلَّمَا ذَكَرَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلاَّ قَالَتْ بِأَبِي– قَالَ: ((لِيَخْرُجِ الْعَوَاتِقُ ذَوَاتُ الْخُدُورِ – أَوْ قَالَ الْعَوَاتِقُ وَذَوَاتُ الْخُدُورِ شَكَّ أَيُّوبُ – وَالْحُيَّضُ، وَيَعْتَزِلُ الْحُيَّضُ الْمُصَلَّى، وَلْيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ)). قَالَتْ فَقُلْتُ لَهَا آلْحُيَّضُ قَالَتْ نَعَمْ، أَلَيْسَ الْحَائِضُ تَشْهَدُ عَرَفَاتٍ وَتَشْهَدُ كَذَا وَتَشْهَدُ كَذَا

2 ينظر لسان العرب، مادة (جلب)

3 قال الألباني: أخرجه أبو داود في مسائله بسند صحيح جداً كما في الرد المفحم: 51.

4 ينظر سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، 66-77- 68، فريد الأنصاري رحمه الله (بتصرف)

إن هذه التفاصيل القرآنية العجيبة لمسألة لباس المرأة، وما يتعلق به من شورط ظاهرة وباطنة، إن دلت على شيء فإنما تدل على خطورة أمر لباس المرأة، وذلك بما يشكله من رمزية عقدية وتعبدية عظيمة لشخصيتها الإنسانية المكلفة، بما يجعله كلية قرآنية قائمة بذاتها.

وهكذا (ونظراً لعمق الدلالة السيميائة للباس المرأة في الإسلام، وارتباطه بماهيتها الإنسانية، فقد جاء تشريع أحكامه فريضة في القرآن نفسه، ولم يترك ذلك لتشريع السنة فقط، أو تشريع الاجتهاد فقط، على الرغم مما للسنة ثم للاجتهاد من قيمة تشريعية في الإسلام. لقد تولى الله جل جلاله بذاته إنزال حكم لباس المرأة من فوق سبع سماوات، وفي ذلك ما فيه من قوة تشريعية، وحجية إلزامية ليس فوقها قوة)([1])

وبهذا يكون لباس المرأة المسلمة بما اختص به من أوصاف وشروط، وضوابط وحدود، من الهدايات الكلية لهذه السورة الكريمة.

الهداية الرابعة: في الأمر بالزواج –مع أنه حاجة بشرية معلومة بالعرف والفطرة– دليل على أنه سنة إلهية، وشعيرة إسلامية، غرضها تحقيق العفاف، وتحصين المجتمع من الانحراف.

من الهدايات الكلية التي نستلهمها من هذه الآيات: سنة الزواج، من حيث كونها مناطاً لبقاء النوع الإنساني واستمراره، ومن حيث كونها كذلك سبباً لبقاء هذا النوع على وجه سالم من اختلاط الأنساب، وهتك الأعراض، وهذا من الكليات الخمس التي جاءت الشريعة الإسلامة للحفاظ عليها، والتي تعرف ب: (حفظ العرض، أو النسب) ولذلك جاء الأمر به في هذه السورة، في سياق الحديث عن الأخلاق، والآداب الاجتماعية التي فرضها الله تعالى، لتحقيق غرض العفاف، وتحصين المجتمع من الانحراف، وهو من الأغراض الكبرى لهذه السورة الكريمة، قال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور: 32]

فهذا الأمر الرباني للجماعة المسلمة بتحقيق وإقامة شعيرة الزواج، فيه دلالة قاطعة على ما في الزواج من محاسن ومصالح، يتحقق بها كمال الإنسان وصلاحه في دينه ودنياه، ومن ثم صلاح المجتمع واستقامته واستمراره.

---

1 ينظر سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، 62 فريد الأنصاري رحمه الله.

ومن هنا رغب الإسلام في الزواج بشتى أنواع الوسائل، وحث عليه في مناسبات مختلفة، فتارة يذكره على أنه آية من آيات الله الدالة على وحدانيته، مع ما فيه من المقاصد النفسية، والاجتماعية، ترغيباً للعباد فيه، والإقبال عليه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: 21] وتارة يذكره على أنه سنة من سنن الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وأنهم لم يتركوه، مع ما هم فيه من شغل الدعوة، وتبليغ الرسالة، وتلقٍّ للوحي، مما يدل على فضله وخيريته، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الرعد: 37] ومرة يأمر به على سبيل الإباحة والترغيب، لأنه سبب للغنى وشكر الله تعالى، كما في آية سور النور موضوع الدراسة: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور: 36]...

كل هذه الآيات وغيرها كثير، تدل دلالة قاطعة على ما في الزواج من منافع ومصالح في العاجل والآجل، ويكفي أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل من رغب عن هذه السنة، سنة الزواج بدون ضرورة شرعية، – جعله– خارجاً عن دائرة من اتبعه واقتدى به، فعن أَنَسَ بْنَ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: (جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْط إِلَى بُيُوت أَزْوَاج النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَة النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبه وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: ((أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّه إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للَّه وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))([1]) وقال عليه الصلاة والسلام ((يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج...))([2]) وغيرها من الأحاديث المرِّغبة في الزواج والآمرة به.

---

1 البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح لِقَوْلِه تَعَالَى: {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ} [النساء الآيَة3]

2 البخاري، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج، لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج)) وهل يتزوج من لا أَرَبَ له في النكاح. حديث رقم: 5065

قال السرخسي([1]) رحمه الله: (يتعلق بهذا العقد أنواع من المصالح الدينية والدنوية، من ذلك حفظ النساء والقيام عليهن، والإنفاق، ومن ذلك صيانة النفس عن الزنا، ومن ذلك تكثير عباد الله تعالى وأمة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتحقيق مباهاة الرسول عليه الصلاة والسلام...)([2])

الهداية الخامسة: في ضَرْب المثل لِهُدى الإيمان وضلال الكفر في قلوب العباد؛ بنور الوحي، دليل على أن النور الحقيقي هو نور الله تعالى المتمثل في وحيه، وما عداه فهو ضلال وسراب.

لقد انتظمت هذه الهداية الكلية طوائف بني آدم أتم انتظام، واشتملت عليها أكمل اشتمال. فإن الناس قسمان:

الأول: أهل الهدى والبصائر. وهؤلاء هم أهل الحق، وأصحاب العلم النافع، والعمل الصالح، الذين صدقوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم في أخباره، ولم يعارضوه بالشبهات، وأطاعوه في أوامره، ولم يضيعوها بالشهوات. فحالهم نور على نور.

والقسم الثاني: أهل الجهل والظلم، الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والظلم لأنفسهم باتباع أهوائهم.. فهم في ظلمات، بعضها فوق بعض، ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة ظلم النفس بالتقليد واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم.([3])

وهكذا يكون مَثَل هذه الآية الكريمة قاعدة جامعة، وهداية كلية، مستوعبة لأقسام البشرية كلها في تعاملها مع الوحي، استجابة لهدايته، التي تورث السعادة في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة، أو إعراضاً عن نوره الذي يورث الضنك والشقاء في الدنيا، والخزي والخسران في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ

---

1 هو أبو بكر محمَّد بن أبي سهلٍ السَّرَخْسيُّ، المعروف ب (شمس الأئمَّة)، الفقيه الأصوليُّ أحد أئمَّة الحنفية، له مصنَّفاتٌ كثيرةٌ، منها: (المبسوط) في الفقه أملاه وهو في السجن، كما أملى (شرح السير الكبير لمحمَّد بن الحسن)، وله (شرح مختصر الطحاوي)، و(أصول السرخسي) وغيرها (توفِّي سنة 483هـ) (الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية لأبي محمد عبد القادر القرشي، 2/ 28، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحّالة، 8/ 239.)

2 المبسوط، 3/ 192

3 ينظر التفسير القيم، 397/1، 398

أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ [طه:123-125]

وضرب المثل لِهُدى الإيمان وضلال الكفر، وبيان انعكاسات كل منهما على قلوب العباد وأعمالهم، من خلال أمر محسوس؛ طريقة قرآنية، استخدمها في سياقات متعددة، وتمثل قاعدة وهداية من هداياته الكلية المقررة في هذا السياق، سياق البيان لهدايات القرآن. من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ ٢٦﴾ [البقرة: 26] فتأمل كيف ختم هذا المثل المضروب: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾ [هود: 24] أي مثل الفريقين تجاه الهدى، فريق أهل الإيمان، وفريق أهل الكفر، كالأعمى والأصم، والسميع والبصير. ومنها كذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم: 24- 27]

فانظر كيف ختم الله المثل بقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وبقوله سبحانه: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهذه هي الغاية من ضرب المثل.

فهذه نماذج للتمثيل لا الحصر، وهناك أمثلة قرآنية أخرى صريحة أوكامنة، فيما يخص هذه الهداية القرآنية الكلية، أي ضرب المثل لِهُدى الإيمان وضلال الكفر بأمر محسوس يعلمه كل الناس، توضيحاً لشأن كل من الهدى والضلال، وبياناً لآثارهما.

الهداية السادسة: في ذكر آيات الله وآثار قدرته في الكون، برهان على وجوده، ودعوة إلى توحيده وعبادته، من خلال النظر في هذه الآيات، تحقيقاً لحكمة الخلق واستجابة لأمر الحق.

وهي قاعدة من قواعد القرآن، وهداية من هداياته الكلية، فآيات الله الدالة عليه، توحيداً ومعرفة، نوعان: آيات قرآنية، وآيات كونية، فالأولى تُدْرَكُ آثارها بالتدبر، والثانية بالتفكر، والنتيجة هي التذكر؛ تذكر لإدراك عظمة الله تعالى وقدرته.

وبيان ذلك من خلال آيات هذه الهداية الكلية: أن الله سبحانه وتعالى بيَّن لنا حقيقة من الحقائق الإلهية، وهي أنه جعل جميع الخلائق وأنواع الكائنات، تسبحه وتقدسه وتنزهه، وتصلي له صلاة لا نعلمها، كما قال تعالى في آية أخرى شبيهة لهذه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: 44] وفي ذلك دعوة له لهذا الإنسان بأن لا يشذ عن هذه المخلوقات في توحيدها وتسبيحها وعبادتها لله تعالى، ويخرج عن فلك العبودية، وهو المكرم بالعقل، والمشرف بالوحي.

ومن آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته الباهرة؛ آية أصل الحياة ومادتها –الماء– وهي ظاهرة كونية، طالما كررها سبحانه في كثير من السور، (فليعد الإنسان الغافل إذن النظر إلى هذا الماء، وليرجع إليه البصر مرة ومرة ومرات، وسيرى أن هذا الماء هو أصل وجوده، كما أنه سبب فى إمساك هذا الوجود، وحفظه، وأنه لو حرم الماء لأيام معدودة لهلك!.

فالماء، هو الحياة العاملة فى هذا الكوكب الأرضى.. ففى الماء أودع الله سرّ الحياة، فى صورها المختلفة، وأشكالها المتباينة المتعددة.. فحيث كان الماء كانت الحياة، وكانت الحركة، وكان التوالد لصور الحياة، التي تكتسى بها الأرض حسنا وجمالا، وتتبدل بها من وحشتها بهجة وأنساً)([1])

وقد بين سبحانه في سياق آيات سورة النور هذه، بعض كيفيات تكوينه، –الماء– وسقوطه، والسبب فيه، وأين مصدره، وأنه يكون بواسطة السحاب وتراكمها. وأتبع ذلك بذكر بيان نزول البرد –حب الغمام– من جبال في السماء، وأنه يترله على من يشاء ويصرفه عمن يشاء. وفي هذه

1 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1303

الآيات من الدلائل والحقائق العلمية، ما لم يكن معروفاً عند البشرية، وقد ظل الناس يتخبطون في ذلك، و لم يوقف على هذه الحقائق إلا في العصر الحديث.

ثم لما استدل سبحانه على وحدانيته بتسبيح أهل السماء والأرض، وبتصريف السحاب، وإنزال المطر والبرد، وضوء البرق، وتقلب الليل والنهار. استدل كذلك بأحوال الحيوانات على اختلاف أنواعها، وأشكالها، وألوانها، وحركاتها، وسكناتها، وأنها متحدة في أصل خلقتها، وأن جميعها من الماء. ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور: 44](1)

ففي هذه الآيات برهان قاطع ودليل ساطع، على وجود الله ووحدانيته، وعظمته وقدرته، والتي تستوجب من العبد العاقل تحقيق توحيده، والاستجابة لأمره، توحيداً وخضوعاً، وصلاة تسبيحاً، وهي من أعظم الهدايات الكلية لآيات سورة النور.

وفي قوله تعالى:﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ...﴾ (إشارة إلى تنوع صور المخلوقات، وتعدد أشكالها، وهى جميعها من مادة واحدة، لا لون لها، ولا طعم، ولا رائحة..

إنها شيء واحد، ومع هذا فقد جاءت بقدرة القادر، وصنعة الخبير الصانع- على هذه الصور التي لا تكاد تحصر من عوالم الأحياء، على اختلاف صورها، وتباين أشكالها، وتعدد ألوانها..

وهذا التقسيم الذي أشارت إليه الآية، هو تقسيم عام، حيث يندرج تحت كل قسم ما لا حصر له من صور وأشكال، تنضوى تحت كل قسم، وتندرج تحت كل صنف.)(2)

فما أعظمها من هداية كلية، في البرهنة على وجود الله، وإقامة الحجة على توحيده وعبادته، من خلال النظر في هذه الآيات البينات، الناطقة بقدرة الله وعظمته وحكمته.

---

1 ينظر كتاب دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون، 213 - 216: عبد الله بن عبد القادر التليدي. (بتصرف)
2 ينظر التفسير القرآني للقرآنن 9 / 1304

الهداية السابعة: في وَعْد الله تعالى لأهل الإيمان بالاستخلاف في الأرض، والتمكين للدين، دليل على أن وعد الله متحقق متى تحققت شروطه:

وهي من الهدايات الكلية لسورة النور، بل هي من أعظم كليات القرآن وهداياته الجامعة، فقد وعد الله عباده المؤمنين في هذه الهداية الكلية من سورة النور بالاستخلاف في الأرض، والتمكين لدين الله تعالى، وتبديل خوفهم بالأمن والاطمئنان، وتحقيق إقامة منهج الله كاملاً، متى ما توفرت فيهم هذه الشروط المذكورة في الآية، وأقاموها في حياتهم وتحققوا بها عملياً: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦ ﴾ [النور: 55، 56]

(فهذا وعد عام لكل مَن اتصف بهذا الوصف، فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله تعالى كما وعد، وقد اتصف بعدهم به قومٌ بحسب إيمانهم وعملهم الصالح، فمن كان أكمل إيماناً وعمل صالحاً، كان استخلافه المذكور أتم، فإن كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص، وذلك أن هذا جزاء هذا العلم، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء)([1])

وقد بينت هذه الآيات إلى أن الطريق لإقامة الاستخلاف على أساس من العدل والاستقامة والاتصال بالله تعالى، يكون بثلاثة أمور مذكورة في هذه الآية الكريمة نفسها:

الأمر الأول: إقامة الصلاة التي هي ركن الإسلام الأعظم بعد الشهادتين، وقد أمر الله سبحانه بها في قوله: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ٥٦ ﴾ [النور: 56] أي صلوا صلاة مقومة تستشعر فيها جلال الله تعالى وكبرياءه، وتحس فيها أنك في حضرة الله تعالى وكأنك تراه في مثولك بين يديه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذه تربية روحية، واتصال بالله سبحانه وتعالى فيكون أمرأ يألف ويؤلف.

والأمر الثاني: إيتاء الزكاة، أي إعطاؤها لولي الأمر، وهو يصرفها في مصارفها، وهذا الأمر ذكره بقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ٥٦ ﴾ عبر سبحانه بقوله: (وآتوا) دون (أدوا) للإشارة إلى أنها عطاء يعطى، يعطيها المزكي على أنها مغنم لا على أنها مغرم، وهي تعاون اجتماعي لا مذلة فيه لفقير، ولا استطالة لغني.

---

1 مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، 18/ 302، نقلا عن الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 2/862- 863.

والأمر الثالث: طاعة الرسول في كل ما يأمر به وينهى عنه، وينظم به الدولة الإسلامية، ويقيم دعائم الحكم على أساس من العدل، وتنسيق الأمور، وهذا هو الأمر الثالث، وقد ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴿٥٦﴾ ﴾ وطاعته في حياته باتباع أوامره في تنظيم الدولة، وتوزيع قواها كلها، بحيث يتبع في توسيد الأمور للقائمين بها، في الحرب والسلم على سواء، وبعد مماته تكون طاعته باتباع ما أثر عن سنته فهي المحجة الواضحة.([1])

فهذه الأمور الثلاثة تعتبر قواعد كلية لإقامة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، وهي أركان أساسية لإقامة الاستخلاف، وتحقيق المقصود من خلق الإنسان واجتماعه.

الهداية الثامنة: من صفات المنافقين في كل زمان ومكان، الخذلان في المواقف، وعدم الانتفاع بآيات الله تعالى، عكس المؤمنين المستجيبين لله وللرسول، المنتفعين بآياته سبحانه.

تلك قاعدة قرآنية عموماً، وفي هذه السورة خصوصاً، وهي من الهدايات الكلية لهذه السورة، يحدد الله من خلالها معياراً دقيقاً لا يتخلف، يميز به المؤمنين من المنافقين، والمهتدين من الضالين، وذلك بالنظر إلى موقف كلا الفريقين من التحاكم إلى الله ورسوله، فيما يخالف النفس والهوى، فمن تقبل حكم الله ورسوله، بالطاعة والإذعان، سواء كان له أو عليه، إيماناً منه بأن الله تعالى هو أحكم الحاكمين، كان مؤمناً حقاً وصدقاً، ومن رفض حكم الله ورسوله، متى كان ذلك الحكم عليه لا له، وإذا كان له لا عليه أظهر الطاعة والإذعان، كان منافقاً خارجاً عن حظيرة الإيمان.

وهكذا يبين لنا كتاب الله في هذه الهداية الكلية، معياراً دقيقاً للتمييز بين المؤمنين الصادقين الذي خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فاستجابوا لله ورسوله، والمنافقين الذين في قلوبهم مرض، ممن درجوا على المراوغة والكذب والتكذيب، وذلك المعيار هو ما يظهر على هذا الفريق أو ذاك من الرضا أو السخط، ومن الثقة أو الشك، ومن الإقبال أو الإعراض، عندما يُدْعَى للتحاكم إلى الله ورسوله، فلا يكون من الفريق الأول إلا القبول والسمع والطاعة، ولا يكون من الفريق الثاني إلا التخبط والتردد والتمرد: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور 50،51]([2])

---

1 ينظر زهرة التفاسير، 10/ 2223

2 ينظر التيسير في أحاديث التفسير، 4/ 282، 286

ومما يدل على كلية هذه الهداية أن الله تعالى ما فتئ يتحدث عن صفات المنافقين، وملامح شخصياتهم المتذبذبة، وأوصافهم في مختلف المواقف، ويحذر المجتمع المسلم منهم، لما لهم من خطر في نشر التنازع والفشل في المجتمع الإسلامي، وذلك في عدة سور، كالبقرة، والنساء، والتوبة، والأحزاب، والفتح، والحشر، والمنافقون.

ولقد جمع الله في هذه الآيات من سورة النور، الصورة الكاملة والكلية، لطبيعة كل من الفريقين: فريق المنافقين المتذبذبين المتخاذلين، وفريق المؤمنين الثابتين الصادقين، في الاستجابة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم، والخضوع لحكمهما، فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ * وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور 47 – 53]

فهذه الأوصاف المذكورة في هذه الآيات من سورة النور، –وغيرها من السور القرآنية– مما فصله الله تعالى، عن صفات المنافقين، وقابله بالحديث عن أوصاف المؤمنين الصادقين، تعتبر كلية من كليات القرآن في هذا السياق، وهي من الهدايات الكلية الجامعة في سورة النور، وهذه الهداية الكلية وحدها في هذه السورة تحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها، تدرس حالة المنافقين وصفاتهم النفسية، وخصالهم الخلقية، ومواقفهم العملية، من الحق وهداياته ودعوته، وأثر ذلك على دعوة الإسلام، والمجتمع الإسلامي؛ تماسكاً، أو تفككاً، وذلك لأن خطر المنافقين أنهم أناس، قد دخلوا فى الجماعة الإسلامية، وحسبوا في المؤمنين، وأضافوا أنفسهم إلى تلك الجماعة وتزيّوا بزيّها، وأخذوا سمتها، وهنا مكمن الخطر، ولذلك لا عجب أن خصهم بالحديث تفصيلا، بذكر أحوالهم وصفاتهم، وخصالهم، ومواقفهم، وعرضها عند مناسبة مقابلة بصفات المؤمنين وأخلاقهم وشمائلهم، ومواقفهم ومبادئهم.

الهداية التاسعة: في بيان أوقات الاستئذان لأهل البيوت، وذوي المخالطة وتحديدها؛ مقاصد عظيمة، وفوائد جليلة، أعظمها؛ الحفاظ على النظام الرباني للأسرة داخل البيت.

إن كلية هذه الهداية تتجلى في كون أن الإسلام منهاج كامل للحياة، فهو ينظم حياة الإنسان في جميع مراحلها وأطوارها، وفصولها، أفراداً، وأُسَراً، ومجتمعات، ولذلك لما كان الحديث في أوائل السورة عن أحكام استئذان الأجانب بعضهم على بعض عموماً، جاء الحديث هنا ليؤكد خصوصاً على أهمية استئذان الأقارب بعضهم على بعض، إذ أمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم، وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم، في ثلاثة أوقات:

الأول: من قبل صلاة الفجر، وذلك لأن الناس يكونون نياماً في فرشهم في ذلك الوقت، عراة في مضاجعهم وقد ينشكف النائم، ويبدو منه لا يرضى الشرع أن يراه منه غيره.

الثاني: حين تضعون ثيابكم من الظهيرة، وسميت بذلك لأن النهار يظهر فيها، إذا علا واشتد حَرُّه([1]) وهي وقت القيلولة، والإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ليستريح من أعباء الحياة.

الثالث: من بعد صلاة العشاء، لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يدخلوا على أهل البيتوت في هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على حال لايرضى أن يراه عليها أحد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴿٥٨﴾﴾ [النور: 58] فسمى هذه الأوقات عورات. والعورات لها حرمتها لا يجوز انتهاكها بالاطلاع عليها، وكل ما يؤدي إلى المحظور فهو محظور، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وبذلك تكتمل صورة المجتمع المسلم القائم على الستر والحياء، سواء في علاقة المسلمين بعضهم ببعض عموماً، أو علاقة أفراد الأسرة الواحدة فيما بينهم، إذ الأسرة لبنة من لبنات المجتمع، وكل خدش أو خلل يصيبها ويستفحل أمره، لا شك أنه سيؤثر على المجتمع ككل، وهكذا كل هذا التكامل إنما لتتحق الغاية الكبرى ألا وهي: ستر العورات، وحفظ كلية الحياء، بسدّ كل ذرائع الفتنة، ووسائل الإثارة.

---

1 ينظر المحرر الوجيز، 4/ 194

الهداية العاشرة: من مقاصد الإسلام العظيمة، رفع الحرج عن ذوي الأعذار في كل ما يشق عليهم رحمة بهم:

وهي هداية كلية عظيمة من هدايات القرآن الكريم، ذلك أن قاعدة (رفع الحرج) هي من القواعد المقررة شرعاً في كل أبواب التشريع، بل هي خصيصة من خصائص هذه الشريعة الغراء، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج 78] هذا على العموم.

وهناك قاعدة أخرى وهي أخص من هذه فيما يتعلق برفع الحرج، وهي المقصودة هنا، إذ تخص فئة خاصة تسمى بذوي الأعذار، كما في هداية آيات هذه السورة، وهم: الأعمى، والأعرج، والمريض، وأمثالهم، فهؤلاء رفع الله عنهم الحرج فيما يخص التكليف الذي يشق عليهم، ولا يستطيعون القيام به على وجهه كالأصحاء.

قال ابن العربي: (إن اللَّهَ رَفَعَ الْحَرَجَ عَنْ الأَعْمَى فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ الَّذِي يُشْتَرَطُ فِيهِ الْبَصَرُ، وَعَنْ الْأَعْرَجِ فِيمَا يُشْتَرَطُ فِي التَّكْلِيفِ بِهِ الْمَشْيُ، وَمَا يَتَعَذَّرُ مِنَ الأَفْعَالِ مَعَ وُجُودِ الْحَرَجِ، وَعَنْ الْمَرِيضِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ الَّذِي يُؤَثِّرُ الْمَرَضُ فِي إسْقَاطِهِ كَالصَّوْمِ، وَشُرُوطِ الصَّلاةِ، وَأَرْكَانِهَا، وَالْجِهَادِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ)([1])

ومما له علاقة بهذه القاعدة، مما ورد في سياق هذه الآية، رخصة الشرع ونفيه الحرج عن أَكْلِ الأصحاء مع ذوي الأعذار، ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتورعون عن ذلك، فنزلت هذه الآية، كما روى الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس: لَمّا أنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء: 29] قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام من أفضل الأموال، فلا يحلّ لأحد منا أن يأكل عند أحد. فكفّ الناس عن ذلك، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ... إلى قوله تعالى: أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ ﴿٦١﴾ ﴾ [النور: 61]([2])

---

1 أحكام القرآن لابن العربي، 3/ 424.

2 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 219/19

فرخص الله تعالى فيها للمسلمين أن يأكلوا مع العميان، والعُرْج، والمرضى، وأن يأكلوا في بيوت غيرهم، وعلى بمعنى (في) وذلك أنهم تحرّجوا من ذلك لما نزلت: ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ ([1])

كما نفى الحرج عن أَهْلِ الْعِلَّةِ، كالأعْمَى، والأَعْرَجِ، وَالْمَرِيضِ، مِمَّنْ يَتَخَلَّفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجهاد، مِن أن يأكلوا من بيوت أقاربيهم حيث يتركون لهم مفاتيح بيوتهم عند الخروج للجهاد.

رَوَى الإمام مَالِكٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: أَنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي أُنَاسٍ كَانُوا إذَا خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يَعْنُونَ فِي الْجِهَادِ- وَضَعُوا مَفَاتِيحَ بُيُوتِهِمْ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلَّةِ مِمَّنْ يَتَخَلَّفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عِنْدَ الأَعْمَى، وَالأَعْرَجِ، وَالْمَرِيضِ، وَعِنْدَ أَقَارِبِهِمْ، وَكَانُوا يَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا من بُيُوتِهِمْ إذَا احْتَاجُوا إلَى ذَلِكَ، فَكَانُوا يَتَّقُونَهُ وَيَقُولُونَ: نَخْشَى أَلاّ تَكُونَ نُفُوسُهُمْ بِذَلِكَ طَيِّبَةً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ يَحِلُّهُ لَهُمْ.([2])

وهكذا يفيد ظاهر هذه الآية وأمر الشريعة، أن الحرج عن العباد مرفوع، في كل ما يضطرهم إليه العذر، وتقتضي نيتهم الإتيان بالأكمل، ويقتضي العذر أن يقع منهم الأنقص، فالحرج مرفوع عنهم في هذا ([3])

ومعلوم أن من أعظم قواعد هذه الشريعة أن: الحرج مرفوع، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج: 78] وأن المشقة تجلب التيسير، وأن الضرر يزال.

1 ينظر: أسباب النزول الواحدي ص248-249، ولباب النقول للسيوطي، 202-203.

2 ينظر أحكام القرآن لابن العربي، 3/ 420.

3 ينظر المحرر الوجيز، 4/ 195

الهداية الحادية عشرة: في الأمر بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيم مجلسه، والاستجابة لدعوته، والتحذير من مخالفته أمراً ونهياً؛ بيان لمقامه عليه الصلاة والسلام، ومنزلته عند الله تعالى.

وهذه من أجَلّ الهدايات الكلية لهذه السورة، بل هي العِقد الناظم لها ابتداء وانتهاء، ذلك (أن مقصود السورة هو مدلول اسمها الذي أودعه االله تعالى فيها، وهو أنه تعالى شامل العلم اللازم منه تمام القدرة اللازم منه إثبات الأمور على غاية الحكمة اللازم منه تأكيد الشرف للنبي صلى الله عليه وسلم...)([1])

ولقد بين الله تعالى في أول السورة أنه أنزل آيات بينات، وإنما النزول على محمد صلى الله عليه وسلم؛ فختم السورة بتأكيد الأمر في متابعته عليه الصلاة والسلام؛ ليعلم أن أوامره كأوامر القرآن الكريم.(2)

فهذه الهداية تحكم الصلة التي يجب أن تكون بين المؤمنين وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، قولا وفعلا وحالا.

وإن هذه الهداية دلت عليها آيات كثيرة في القرآن الكريم، وفي عدة سور قرآنية، تشكل بمجموعها أعظم قاعدة من قواعد الهدايات القرآنية، في بيان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووجوب توقيره وتعظيمه، واتباع أمره، وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ١٠﴾ [الفتح: 8-10] وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات: 1،2] وغيرها من الآيات.

ذلك أن أول مَن عظّم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجلّه، هو الله تعالى، ولذلك لم يخاطبه في القرآن الكريم؛ إلا من خلال وصف النبوة أو الرسالة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ٤١﴾ [المائدة:41] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ١﴾ [الأحزاب: 1] ولم يخاطبه باسمه مجرداً كما خاطب باقي الأنبياء والمرسلين،

---

1 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 13/ 200، برهان الدين البقاعي

2 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 12/ 320 أبو عبد الله القرطبي

نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى.. عليهم الصلاة والسلام، ثم قرن سبحانه طاعته بطاعته فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: 132] وقرن محبته بمحبته فقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ٣١﴾ [آل عمران31] وقرن استجابته باستجابته فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ٢٤﴾ [الأنفال: 23] وقرن رضوانه برضوانه فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ [التوبة: 62] وقرن بيعته ببيعته فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: 10] ورفع ذكره عبر الدهور والعصور فقال سبحانه: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [الشرح: 4] فلا يذكر الله تعالى إلا ويذكر معه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما في الشهادة، والآذان، والإقامة، والتشهد.. ثم أمر سبحانه عباده بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، وبدأ بنفسه وثنى بملائكته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: 56] إلخ..

وهكذا يتبين لنا بوضوح لماذا كان الأمر بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيم مجلسه، والاستجابة لدعوته، واحترامه قولا وفعلا، والتحذير من مخالفته أمراً ونهياً، من أعظم الهدايات الكلية لسورة النور.

الفصـل الثـــاني

مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها

المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة

المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة

المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها

المبحث الأول

المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة

تمهيد في تعريف المناسبة وأنواعها:

-تعريف المناسبة: المناسبة في اللغة هي المقاربة والمشاكلة، واتصال شيء بشيء، قال ابن فارس: (النُّونُ، وَالسِّينُ، وَالْبَاءُ، كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ قِيَاسُهَا اتِّصَالُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ. مِنْهُ النَّسَبُ، سُمِّيَ لِاتِّصَالِهِ وَلِلاتِّصَالِ بِهِ...)([1]) ويقال: فلان يناسب فلاناً، فهو نسيبه، أي قريبه.([2])

قال الراغب في مفرداته: والنسب والنسبة: اشتراك من جهة أحد الأبوين، وذلك ضربان: نسب بالطول؛ كالاشتراك بين الآباء والأبناء، ونسب بالعرض؛ كالنسبة بين بني الإخوة وبني الأعمام؛ قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ ﴾ [الفرقان: 54]([3]) فالنسب اتصال من جهتين، وهو ما تعطيه معنى المناسبة -في هذا السياق- كما سيظهر لاحقاً في التعريف الاصطلاحي.

وفي الاصطلاح: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء..

ويقصد بالمناسبة في القرآن الكريم: (المعنى الذي يربط بين سوره وآياته، وتعرف من خلاله علل ترتيب أجزاء القرآن بعضها ببعض، وهو سر البلاغة.)([4])

وإذا كان انشغل أكثر البلاغيين والمفسرين؛ -كالجرجاني، وصاحب الكشاف، وصاحب التحرير والتنوير، وغيرهم- بالنظم داخل الآية القرآنية المفردة غالبًا، أو بين الآيات المتجاورة، فإن علم التناسب ينظر إلى النظام الرابط بين أجزاء السورة جميعها، وبينها وبين التي قبلها والتي بعدها، بل يمتد إلى القرآن كله([5]) وقد تكون المناسبة ظاهرة، أي مأخوذة من الكلام نفسه؛ سوابقه ولواحقه، أو غير ظاهرة، لا تؤخذ إلا من سياقات خارجية، كأحوال العامة، أو أسباب النزول النزول الخاصة، وقد يعبر عن المناسبة ب(السياق) الخاص أو العام، وهو علم دقيق.

---

1 معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة (نسب)

2 ينظر لسان العرب لابن منظور، مادة (نسب)

3 المفردات في غريب القرآن، 801. مادة (نسب)

4 ينظر نظم الدرر، 1/ 5،6 والإتقان في علوم القرآن، 2/ 274جلال الدين السيوطي (تحقيق حامد أحمد الطاهر البسيوني)

5 ينظر التناسب في سورة البقرة، طارق مصطفى محمد، ص، 14

ومناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، أو علاقة السورة بالتي قبلها والتي بعدها، هو باب اتسع علمه وتغازر، وقلّ كلام الناس فيه، وهو من أبواب البلاغة العالية التي تروع من غير أن تكون داخلة تحت مصطلح من مصطلحات متون علم البلاغة، لأنها علاقات معان تتفق، وتختلف وتتقارب، وتتباعد، ولها في تقاربها وتباعدها درجات، كل ذلك بتدبير دقيق، واعتبارات، وسياقات ومقامات، منها ظاهر وخفي..([1])

ولا شك أن النَّاظِر في المناسبات بأنواعها تتجلى له جمالية النص القرآني في انسجامه وتناسقه، مع ما يستنبطه من جليل الفوائد، وعظيم المعاني والهدايات، التي يستخرجها من آي القرآن الكريم وسوره وموضوعاته. ذلك أن أعظم الهدايات القرآنية وأكثرها مودعة في مناسبات آياته وسوره، كما قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى: (أكثرِ لطائفِ القرآن مودعة في الترتيباتِ والروابط)([2])

أنواع المناسبات:

تنقسم المناسبات عموماً إلى قسمين:([3])

القسم الأول: المناسبات الداخلية، وهي الأنواع التالية:

الأول: مناسبات ترتيب آيات السورة الواحدة، وعلاقة بعضها ببعض، وارتباطها وتناسقها.

الثاني: مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له، وذلك براعة الاستهلال.

الثالث: مناسبة ختام السورة لمطلعها.

الرابع: مناسبة فواصل الآي للآية التي ختمت بها، ومنه مناسبة أسماء الله الحسنى للآية التي ختمت بها.

القسم الثاني: المناسبات الخارجية، وهي الأنواع التالية:

أولا: مناسبة السورة لما قبلها ولما بعدها.

الثاني: مناسبة ختام السورة لمطلع السورة التالية لها.

الثالث: مناسبة مطلع السورة لمطلع السورة التي تليها.

---

1 من أسرار التعبير القرآني، 41، محمد أبو موسى.

2 مفاتيح الغيب، 4/ 122

3 ينظر علم المناسبات في السور والآيات، 28، 29 د. محمد بن عمر بن سالم بازمول.

والقسم الثاني –مع النوع الثالث من القسم الأول– هو الذي يهمنا في هذا المبحث، أما القسم الأول بأنواعه، –عدا النوع الثالث– فقد مضى تطبيقه في مبحث الهدايات الخاصة بآيات السورة.

أولا: المناسبة بين سورة النور وسابقتها (سورة المؤمنون)

لا شك أن لسورة النور صلة وثيقة بالسورة التي قبلها، من جهات متعددة. (ومن دقق النظر في موقع سورة النور بعد سورة الإيمان على وجه الإجمال، لا يصعب عليه أن يكتشف هذه المناسبة الموجودة بين السورتين، فقد سبق في سورة المؤمنين المفلحين وصفهم بأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ [الآيات: 5-7] كما سبق فيها ما يشير إلى وصف أعداء الإيمان وخصوم الرسالة، في الجاهلية وما قبلها، بممارسة عدة أعمال فاحشة لا يرضى عنها الطبع السليم، ولا الشرع القويم، حيث قال تعالى في شأنهم ووصف أعمالهم على وجه الإجمال: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَالٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣﴾ [الآية: 64] وفي طليعة تلك الأعمال المنكرة ممارسة الزنى والتبرج، اللذين لا يتصور معهما إحصان ولا عفاف.

فجاءت (**سورة النور**) تضع النقط على الحروف، وتبين (آياتها البينات) أسس التربية الخلقية والاجتماعية النظيفة، التي يجب أن يقوم عليها المجتمع الإسلامي والأسرة المسلمة، بصفتها الخلية الأولى وحجر الزاوية في بناء ذلك المجتمع، حتى يقضى على الخصال الجاهلية، والمفاهيم الوثنية غير الأخلاقية، قضاءً مبرماً.([1])

أما تفصيل هذه المناسبة، فتظهر من عدة أوجه، ذلك أن الله تعالى لما ذكر في مطلع سورة (المؤمنون): ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ [الآية: 5] ذكر هنا في (**سورة النور**) أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الأفك، والأمر بغض البصر، الذي هو داعية الزنا، وأمر فيها بالنكاح حفظاً للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا.

ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط، ولا تناسق أبدع من هذا التناسق.([2])

---

1 التيسير في أحاديث التفسير المكي الناصري، 4 / 245، 246.

2 أسرار ترتيب القرآن، الإمام السيوطي، 112.

ثم بعد أن ذكر الله تعالى في سورة المؤمنين المبدأ العام لمقصد الخَلْق، وهو أنه لم يخلق الخلق عبثاً، بل للتكليف بالأمر والنهي، ذكر هنا طائفة من الأوامر والنواهي في أمور تعد أصلا للعصيان والانحراف والضلال، لمن لم يحفظها ويقوم عليها..

ثانياً: المناسبة بين سورة النور ولاحقتها (سورة الفرقان)

لما ذكر الله تعالى ما خَصّه بسورة النور من فرض أحكامها وآدابها التي تنوِّر قلب المسلم وتنير طريقه في السير إلى الله تعالى بنورها، من خلال آياتها وبيناتها؛ بيّن في هذه السورة أن طبيعة القرآن وخصائصه النورانية أنه: (رسالة ذات قضية فرقانية، وذلك بما جعله الله له من الأوصاف التعريفية الجامعة المانعة (الفرقان)([1])

وبين كلمتي: (**النور**) و (**الفرقان**) صلة وأي صلة، تتجلى في ترتيب وارتباط سورتيهما اسماً ومضموناً: سورة النور، فسورة الفرقان، ذلك أنه إذا كان (**النور**) كاشفاً بطبيعته للشبه والظلام، داحضاً للشكوك والأوهام، مجلّياً لكل ضلال بما هو نور؛ فإن (**الفرقان**) هو البرنامج العملي الذي يَقهر ويُبهر، ويشق للبشرية الحائرة في ظلمات ذلك الضلال، طريق هذا النور الوضح البين، ومن ثم يجب على المسلم أن يعتمده في تبين طريق السير إلى الله تعالى برنامجاً عملياً فرقانياً، فيفرق من خلاله بين الحق والباطل والهدى والضلال، والغي والرشاد والظلمات والنور.([2])

ثالثاً: المناسبة بين فاتحة سورة النور وخاتمتها:

افتتحت السورة الكريمة بإعلان قوي عن نزولها، وفرضها للأحكام التي وردت فيها، حيث قال الله تعالى ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ۝١ ﴾ [النور: 1] وهذا الإعلان يشعر بأهميتها، ووجوب تطبيق أحكامها بصورة حاسمة، وجاء ختامها تذكيراً للناس بعلم الله تعالى بأحوال عباده وأعمالهم، التي سيحاسبهم عليها يوم يرجعون إليه، ليعدوا أنفسهم للسؤال أمام الله تعالى عن تلك الآيات البينات، والأحكام الواضحات التي أنزلها إليهم، وبذلك رد الختام على المبدأ، والْتَحم الآخر بالأول.([3])

---

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 158 فريد الأنصاري رحمه الله.

2 ينظر المرجع نفسه، 1/ 158 و 162

3 ينظر نظم الدرر، 5/ 290 للبقاعي

وهكذا يفيد هذا المطلع الفريد للسورة، توكيد الأخذ بكلّ ما فيها من فرائض وآداب، ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا ۝١﴾ [الآية: 1] لتختم (بتوكيد تنفيذ هذه الفرائض والآداب من خلال التحذير من مخالفة ما تمّ فرْضه وإنزاله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣ ﴾ [الآية: 63] ومن خلال إشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة، بأن الله مطّلع عليها، رقيب على عملها، عالم بما تنطوي عليه وتخفيه، فلتعمل وفق ما تمّ فرضه وإنزاله:﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٤ ﴾[الآية: 64] وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله وتذكيرها بخشيته وتقواه؛ فذلك الضمان والحارس لتلك الأوامر والنواهي وتلك الأخلاق والآداب التي فرضها الله تعالى في هذه السورة)([1])

رابعاً: المناسبة بين خاتمة سورة النور وفاتحة سورة الفرقان:

ثم إن مناسبة خاتمة سورة النور لفاتحة سورة الفرقان، أن الله تعالى (لما ذكر وجوب مبايعة المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم، وأنهم إذا كانوا معه في أمر مهم، توقف انفصال واحد منهم على إذنه، وحذر من يخالف أمره، وذكر أن له ملك السموات والأرض، وأنه تعالى عالم بما هم عليه، ومجازيهم على ذلك، فكان ذلك غاية في التحذير والإنذار؛ ناسب أن يفتتح هذه السورة بأنه تعالى منَزَّه في صفاته عن النقائص كثير الخير، ومن خيره أنه: ﴿ نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ۝١ ﴾ [الفرقان: 1] على رسوله صلى الله عليه وسلم منذراً لهم، فكان في ذلك إطماع في خيره وتحذير من عقابه)([2])

ولما ختم سبحانه كذلك سورة النور بذكر حقوق الرسول صلى الله عليه وسلم ووجوب طاعته، مع التذكير بسعة ملكه، وشمول علمه سبحانه، والتهديد لمن تجاوز الحد، أثبت في فاتحة سورة الفرقان المترلة من عنده، رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم بالدلائل الواضحة، وإزاحة الشبهات المثارة حولها، مع ذكر وتفصيل صفات مترِّلها سبحانه، المذكورة إجمالا في خاتمة سورة النور.

خامساً: المناسبة بين موضوعات السورة واسمها:

إن المتأمل في موضوعات هذه السورة الكريمة، وعلاقة ذلك باسمها، يجد أن اسمها ينسجم تماماً ويتناسب مع ما فيها من الوضوح والبيان للمبادئ الإسلامية والقواعد التشريعية، والأخلاق

---

1 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2487 ، 2536، 2535.

2 ينظر البحر المحيط في التفسير، 8/ 79 لأبي حيان الأندلسي

والفضائل التربوية، ويتناسق مع ما فيها من الآيات التي وصفها الله بالبيّنات أو مبينات، والتي تكرّر ذكرها في السورة، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴿١﴾ ﴾[الآية:1] وقوله تعالى: ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِۚ ﴿١٨﴾ ﴾[الآية: 18] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ﴿٣٤﴾ ﴾[الآية: 34] وقوله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍۚ ﴿٤٦﴾ ﴾[الآية: 46] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِۗ ﴿٥٨﴾ ﴾[الآية: 58] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦۗ ﴿٥٩﴾ ﴾[الآية: 59] وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴿٦١﴾ ﴾[الآية: 61]

وهذه الآيات البينات يأتي ذكرها إما تمهيداً لذكر أحكام شرعية، أو بعد بيانها وتفصيلها، وهو الغالب في السورة.

فهذه السورة (نموذج على الآيات البيّنات التي أنزلها االله على رسوله، صلى الله عليه وسلم ومن ثمّ تجد فيها روائع التشريع وروائع الأسلوب –والقرآن كلّه كذلك– ولكنّ هذه الأمور في هذه السورة تكاد تكون أظهر.. وإنّ مَن فهم هذه السورة أدرك من الأسرار ما به تُشرق أنوار اليقين على قلبه فتغمره، إنّها نموذج لإدراك أنّ هذا القرآن آيات بيّنات)([1])

وهكذا فإن المناسبة بين موضوعات السورة وبين اسمها تتجلى في مقاصدها التشريعية، وآدابها التربوية، وأخلاقها الاجتماعية، فبأنوارها التشريعية بدَّدَ الله ظلام الجهل الكثيف؛ ظلام الإفك والكذب، وظلام الاتهام والقذف والوقوع في الأعراض، وظلام الكفر والنفاق... وأنار بهداياتها طريق المسلمين، في عقيدتهم وعباداتهم وأخلاقهم، في نفوسهم وأُسَرهم ومجتمعهم، بما شرعه الله تعالى من بيان أحكام الجرائم الأخلاقية التي تهدد طهارة المجتمع، وتعمل على تفكيكه أسرياً، وتشريع مجموعة من الوسائل التي تحصّن المجتمع وتحفظ الأسرة من كل الفواحش والجرائم الخلقية، من مثل: النهي عن الانسياق وراء الإشاعات المغرضة، والنهي عن اتباع خطوات الشيطان ووساوسه، مع التزام آداب الاستئذان ووجوبه عند دخول بيوت الغير، والأمر بغض البصر وحفظ الفروج، ونهي النساء عن إبداء الزينة، والأمر بتزويج الأيامى، والحض على العفاف، والتحذير من البغاء، وتقرير قاعدة الاستئذان للخدم والأطفال في الأوقات الثلاثة التي تعتبر عورات للبيوت.

1 ينظر الأساس في التفسير، سعيد حوى، 9 /3681..

مع الاعتناء بذوي الأعذار في المجتمع الذين يُرفع عنهم الحرج في كل ما يشق عليهم من أمر العبادات والعادات، ثم التذكير بيان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه، والأدب معه، والنهي عن الانصراف عنه إلا بإذنه، والتحذير من عصيانه وعدم توقيره بالتهديد على ذلك.

لتختم أنوارها بإعلان ملكية الله تعالى المطلقة لكل شيء، وعلمه المحيط بأمور العباد وأحوالهم، ورجوعهم إليه سبحانه يوم المعاد للمحاسبة والجزاء.

وهكذا يكون ذِكْر النور في هذه السورة (بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح؛ ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة.. فهي آداب وأخلاق نفسية، وعائلية، وجماعية، تنير الأرواح والقلوب وتنير الضمائر وتنير الحياة..)([1])

وبهذا يتبيَّن بوضوح أن هذه المناسبات بأنواعها في هذه السورة الكريمة كلها عبارة عن هدايات ربانية، وأنوار قرآنية تهدي من تأملها إلى التي هي أقوم في كل شيء؛ في الإيمان، والأخلاق، والتربية، والعبادة، والآداب وغير ذلك.

1 ينظر في ظلال القرآن،18/ 2485 سيد قطب رحمه الله

المبحث الثاني

خصائص هدايات آيات السورة

تعريف الخصائص

- **الخصائص**: جمع خصيصة، والخاص عبارة عن التفرد، ويقال: فلان خص بكذا، أي: انفرد به ولا شركة للغير به.([1]) وقال الراغب: (التخصيص، والاختصاص، والخصوصية، والتخصص: تفرد بعض الشيء بما لا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العُموم والتَّعمُّم والتعميم..)([2])

أما تعريفها في الاصطلاح، فليس هناك مَن عرفها، إذ لم أقف في حدود اطلاعي على من خصصها بالتعريف، وذلك بناء -في رأيي المتواضع- على أن مفهومها في حد ذاته هو مفهوم تعريف معرَّف، لأن سياقها هو تميزها عن العمومات، فيقال: هذا أمر خاص، أو مختص، أو اختصاص؛ أي متميز، فاكتفي فيها بالتعريف اللغوي..

لكن وانطلاقاً من التعريف اللغوي للخصائص، يمكن تعريفها اصطلاحاً بأنها: الصفات المميزة، والأوصاف الخاصة بالشيء، والتي ليست لغيره في مجموعها، أو في أكثر أفرادها، سواء كان هذا الشيء حسياً، كالأماكن والأشخاص، أو معنوياً، كالوحي والدين، واللغة..

- **الفرق بين الخصائص العامة للقرآن، والخصائص الخاصة لكل سورة منه.**

أولا: الخصائص العامة للقرآن

الخصائص العامة للقرآن هي: أوصافه ومميزاته التي تميز بها عن غيره من الكتب السماوية، وهي التي انطلق منها العلماء في تعريفهم -المشهور- للقرآن الكريم اصطلاحاً، بأنه: كلام الله تعالى المترل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، المعجز بلفظه ومعناه، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلا متواتراً، المحفوظ من التحريف والتبديل...

---

1 ينظر التعريفات، باب الخاء، 103، الشريف الجرجاني.

2 معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة (خص)

وانطلاقاً من هذا التعريف، فإن خصائص القرآن الكريم يمكن حصرها فيما يأتي:

- **مصدره الإلهي**: فهو كلام الله تعالى لفظاً، ومعنى، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة: 6] أنزله الله تعالى على قلب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل عليه السلام نجوماً في مدة تقدر بثلاث وعشرين سنة.

- **تواتره**: فهو منقول إلينا بالتواتر، عبر أجيال يستحيل تواطؤهم على الكذب، فقد نُقل محفوظاً في الصدور مكتوباً في الستور.

- **كتابته في المصاحف**: فهو مكتوب منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كتب بين يديه على يد كتبة ماهرين متخصصين، ومختارين من النبي عليه الصلاة والسلام، ثم جمع بين دفتي مصحف واحد في الجَمْعين المباركين على يد الخليفتين الراشدين: جمع أبي بكر الصديق وجمع عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وقد بالغ الصحابة رضوان الله عليهم في حرصهم على نقله وتجريده عما سواه في جمعهم له، كما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم، وكما كُتب بين يديه عليه الصلاة والسلام. قال البغوي -في شرح السنة-: (إن الصحابة رضي اللهّ عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير أن زادوا فيه أو ينقصوا منه شيئاً .. فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم..(1)

- **محفوظ بحفظ الله تعالى**: فقد تكفل الله بحفظه، و لم يكل حفظه للعباد كما هو شأن الكتب السماوية السابقة، كما قال تعالى عن التوراة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: 44] بل تولى الله تعالى حفظه بنفسه، بما يسر له من وسائل الحفظ تحقيقاً لهذه المعجزة والخصيصة، فهو محفوظ من التحريف أو الزيادة أو النقصان، مما تعرضت له الكتب السماوية السابقة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9]

1 ينظر كتاب: شرح السنة، 4/ 521

- **معجز بلفظه ومعناه:** فهو معجز بلفظه، لارتقائه في البلاغة والبيان إلى حد أعجز أرباب الفصاحة من العرب عن معارضته بكلام مما يشبهه، عند ما تحداهم الله بذلك، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: 23،24].

ومعجز بمعناه كذلك، وذلك بما أودع الله فيه من أخبار الغيب، الماضية والمستقبلية، مما لم يكشف إلا في العصر الحديث، وما زال العلم عاجزاً أمام ما ذكره القرآن في هذا الباب؛ وبما أودع الله فيه كذلك من علوم تشريعية وفقهية التي تجيب عن أسئلة مستجدة، ونوازل متجددة إلى يوم القيامة، وعلوم كونية وغيرها، مما يصطلح بالإعجاز التشريعي والإعجاز العلمي..، وقد كتب العلماء قديماً وحديثاً في هذا الباب، من وجوه إعجاز القرآن، وألفت في ذلك كتب شتى، لا تخفى على طالب العلم.

- **كونه بلغة العرب:** وهي خصيصة عظيمة، ما فتئ القرآن الكريم يذكرها وينبه عليها في سياقات متعددة، قال تعالى: ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: 1،2]

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: (أراد الله تعالى أن يكون القرآن كتاباً مخاطباً به كل الأمم في جميع العصور، لذلك جعله بلغة هي أفصح كلام بين لغات البشر وهي اللغة العربية، لأسباب يلوح لي منها أن تلك اللغة هي أوفر اللغات مادة، وأقلها حروفاً، وأفصحها لهجة، وأكثرها تصرفاً في الدلالة على أغراض المتكلم، وأوفرها ألفاظاً، وجعله جامعاً لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبها من المعاني في أقل ما يسمح به نظم تلك اللغة، فكان قوام أساليبه جارياً على أسلوب الإيجاز، فلذلك كثر فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب)(1)

- **كتاب مهيمن على الكتب السماوية السابقة:** قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48]

1 التحرير والتنوير، 1/ 95

قال الإمام الطبري رحمه الله: (يقول: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، مصدّقًا للكتب قبله، وشهيدًا عليها أنها حق من عند الله، أمينًا عليها، حافظا لها. وأصل (الهيمنة) الحفظ والارتقاب. يقال، إذا رَقَب الرجل الشيء وحفظه وشَهِده: قد هيمن فلان عليه، فهو يُهَيمن هيمنة، وهو عليه مهيمن)(1)

وقال ابن كثير: (فَهُوَ أَمِينٌ وَشَاهِدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ، جَعَلَ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ، الَّذِي أَنْزَلَهُ آخِرَ الْكُتُبِ وَخَاتَمَهَا، أَشْمَلَهَا وَأَعْظَمَهَا وَأَحْكَمَهَا حَيْثُ جَمَعَ فِيهِ مَحَاسِنَ مَا قَبْلَهُ، وَزَادَهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ؛ فَلِهَذَا جَعَلَهُ شَاهِدًا وَأَمِينًا وَحَاكِمًا عَلَيْهَا كُلِّهَا) 2)

- **كتاب ميسر مبين**: ميسر للحفظ، يحفظه الصغير والكبير، وميسر ومبين للذكر والتذكر، والفهم والتعقل، لمن أراد أن يعقل ويدَّكر، فهو فطرة الله وصبغته، يسهل على الفطر السوية أن تحفظه وتفهمه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: 17]

قال الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره ولقد سهَّلنا القرآن، بيَّناه وفصلناه للذكر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ويتعظ، وهوّناه) (3)

وقال ابن كثير: (أَيْ: سَهَّلْنَا لَفْظَهُ، وَيَسَّرْنَا مَعْنَاهُ لِمَنْ أَرَادَهُ، لِيَتَذَكَّرَ النَّاسُ)(4) فليس هناك كتاب على وجه الأرض يحفظه الصغار والكبار، العرب والأعاجيم مع تجويده وترتيله، كالقرآن الكريم، وهذه من أعظم خصائصه.

- **القرآن كتاب الله لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة**: لقد كانت الكتب السماوية السابقة –كما هو معلوم– تنزل لزمن مخصوص، ولقوم مخصوصين، أما القرآن الكريم بما هو خاتمة الكتب السماوية السابقة، فقد جعله الله تعالى كتاب العالمين إلى يوم الدين، فهو كتاب يخاطب به الله تعالى كل الناس، وكل الأجناس، من الإنس والجن، في كل زمان وفي كل مكان إلى أن تقوم الساعة، وهذا من معاني هيمنته، بما مضى معنا في خصيصة: (هيمنته على الكتب السماوية السابقة) قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان:1]

---

1 جامع البيان في تأويل القرآن، 10/ 377

2 تفسير القرآن العظيم، 3/ 127

3 جامع البيان في تأويل القرآن، 22/ 584

4 تفسير القرآن العظيم،7 / 478

فهذه هي الخصائص العامة للقرآن الكريم، أحببت أن أذكرها معلقاً عليها باختصار -مستفيداً- من كلام العلماء في هذا الباب، تمييزاً لها في مقابل ما سأذكره من تعريف للخصائص الخاصة بالسور القرآنية.

ثانياً: الخصائص الخاصة بالسور القرآنية:

أما خصائص السور القرآنية، فالمقصود بها هو ما تتميز به هذه السورة، أو تلك من خصائص موضوعاتية، أي مما يتعلق بموضوعها ومضمونها، إما على وجه العموم، كاختصاص السور المكية بالحديث عن التوحيد، والرسالة، وأمور البعث والجزاء، وغير ذلك مما يختص بالإيمان والعقيدة، وطريقة عرضها لذلك، أسلوباً ووسائل. واختصاص السور المدنية بالحديث عن التشريع، وتنظيم أمور العباد.. وغير ذلك مما له علاقة بهذا الجانب.

أو على وجه الخصوص، كاختصاص كل سورة بموضوع معين وطريقة عرضها له، أسلوباً ووسائل، وما انفردت في ذلك، ذلك أن (لكل سورة موضوعاً بارزاً تتحدث عنه، كسورة البقرة، وسورة يوسف، وسورة النمل، وسورة الجن)([1])

ويدخل في ذلك فضائل السورة ومنزلتها، ومقاصدها.

ثالثاً: خصائص سورة النور:

سورة النور من السور التي تهتم بالجوانب التشريعية عموماً، شأنها في ذلك شأن السور المدنية، وخاصة ما يتعلق بالتربية الأسرية، والاجتماعية، وما يجب أن يكون عليه المسلمون من أخلاق وآداب في حياتهم الخاصة والعامة، وما ينتظم ذلك من تشريعات وأحكام، تحفظ أمن الأسرة وسلامة المجتمع، هذا على وجه العموم...

أما تفصيل خصائص سورة النور فيمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- **فضلها ومنزلتها:** لقد دل على فضائل هذه السورة ما ورد من أحاديث وآثار تدعو إلى الاهتمام بها، وتعلمها، وتعلم أحْكامِها وحِكَمها وآدابها، وهذه الأحاديث والآثار تتفاوت وتتباين

1 مناهل العرفان في علوم القرآن، 1/ 318، عبد العظيم الزرقاني

في صحتها، وتدل بمجموعها على مدى اهتمام الصحابة والسلف الصالح بها، وسأذكر من هذه الآحاديث والآثار أهمها وأصحها:([1])

– أخرج الحاكم في المستدرك عن المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أنّه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (تعلموا سورة البقرة وسورة النساء وسورة المائدة وسورة الحج وسورة النور فإنّ فيهنّ الفرائض)([2])

– أخرج عبد الرزاق الصنعاني في المصنّف أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكتب إلى الآفاق: (لا تَدْخُلنّ امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ الحَمّامَ إلاّ مَنْ سَقم، وَعَلّمُوْا نِسَاءَكُم سُورَةَ النُّور)(3)

– أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد –مرسلاً– أنّ رسول االله صلى الله عليه وسلم قال: ((عَلّمُوا رِجَالَكُمْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ، وَعَلّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النّور))(4)

– أورد السيوطي في الدر المنثور: أنّ حَارِثَةَ بْنَ مُضَرِّبٍ(5) قال: (كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن تعلّموا سُوْرَةَ النِّسَاءِ والأَحْزَابِ والنور)(6)

– قيام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في موسم الحج خطيباً في الحجيج بهذه السورة حيث جعل يقرأها ويفسرها على الحجيج آية آية، فعن شقيق قال: (ثم خطب ابن عباس وهو على الموسم، فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسّر، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت)(7)

---

1 ذكرت هذه الأحاديث والآثار في مبحث {فضائل سورة النور}، وسأقتصر هنا على ذكر بعضها.

2 أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، 429/2كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور، حديث رقم:3493 وقال: حديث صحيح. وقد أقرّه الذهبي، (ينظر الذهبي تلخيص المستدرك.)

3 المصنّف، عبد الرزاق الصنعاني، (ت211/هـ) تحقيق: مصطفى الأعظمي، 1403هـ ،295/1 باب الحمام للنساء، رقم: 1133 وإسناده حسن. (ابن حجر تقريب التهذيب)

4 شعب الإيمان، البيهقي، 469/2 فصل فضائل السور والآيات، ذكر السبع الطوال، رقم: 2428 . وهو ضعيف ففي إسناده خصيف بن عبد الرحمن الجزري أبو عون، ضعّفه أحمد، وذكره ابن حبان في المجروحين، والذهبي في الضعفاء وقال: تركه جماعة، واحتجّ به جماعة آخرون، وقال ابن حجر: صدوق سيء الحفظ. (ينظر المجروحين، لابن حبان. 287/1 وتقريب التهذيب، لابن حجر ص، 193)

5 حارثة بن مضرِّب العبدي الكوفي، تابعي ثقة. (ينظر ترجمته الإصابة، لابن حجر (162/2.)

6 السيوطي : الدر المنثور، 124/6.

7 المستدرك، الحاكم 618/3 معرفة الصحابة، باب: ذكر عبد االله بن عباس، حديث رقم: 6290 والحديث صححه الحاكم وأقرّه الذهبي. رقم: 6292 عن أبي وائل قال: (حججت أنا وصاحب لي وابن عباس على الحجّ، فجعل يقرأ=

- **افتتاحها ومطلعها:** ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۝١﴾ [النور:1] وهذا افتتاح فريد تفردت به هذه السورة الكريمة، وهو مطلع ملفت للنظر، وداع للتوقف عنده، والتدبر حوله، وفيه إشارة إلى خصائصها ومترلتها لما تضمنته من أحكام محكمة، ومن آداب واجبة ماضية، ومن هدايات مرشِدة وهادية.

- **ذكر قصة الإفك:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾ [النور:11] وهي الآيات التي برَّأ الله عز وجل فيها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، مما اتهمها به المنافقون وضعاف الإيمان، وهذا يدل على مترلة عائشة رضي الله عنها عند الله تعالى، حيث تولى الله بنفسه الدفاع عنها وعن شرفها الذي له تعلق بشرف البيت النبوي، وكان هذا الحادث – حادث الإفك– سبباً لبيان مجموعة من الأحكام والآداب التي لا بد منها للحفاظ على البيت المسلم والمجتمع المؤمن من التصدع والانهيار.

– بيانها لمجموعة من الأحكام التي لم ترد في سورة أخرى:

من مثل: حد الزنا – حكم نكاح الزاني والزانية – حد قذف المحصنات –أحكام اللعان – أحكام مكاتبة الرقيق –أحكام غض البصر– أحكام الاستئذان والدخول إلى البيوت – أحكام لباس المرأة وتفاصيله– استئذان أهل البيت من أتباع الأسرة في أوقات العورة – أحكام القواعد من النساء – التأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم وعدم مخالفة في الاجتماع والانصراف والوعيد على ذلك...)

هذا على سبيل الإجمال والاكتفاء بالأحكام العظيمة والكلية والصريحة، وإلا فسورة النور انفردت بأحكام كثيرة جليلة ومتفردة؛ عقدية وإيمانية، وتعبدية، وأخلاقية، ونفسية، واجتماعية، وعلمية ومعرفية، تحتاج إلى دراسة خاصة، وقد ورد عن سيدنا عبد الله بن عباس أنه فسر سورة النور لو سمعها الروم والترك والديلم لأسلموا، فسرها وكأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.(1)

=سورة النور ويفسّرها، فقال صاحبي ياسبحان االله ماذا يخرج من رأس هذا الرجل لو سمعت هذا الترك لأسلمت) قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح (تلخيص المستدرك)

1 المستدرك، للحاكم، 618/3كتاب معرفة الصحابة، باب: ذكر عبد الله بن عباس، حديث رقم: (6290) والحديث صححه الحاكم وأقرّه الذهبي. 6292 : عن أبي وائل قال: (حججت أنا وصاحب لي وابن عباس على الحجّ، فجعل يقرأ سورة النور ويفسّرها، فقال صاحبي ياسبحان االله ماذا يخرج من رأس هذا الرجل لو سمعت هذا الترك لأسلمت)، قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد، وقال الذهبي: صحيح (تلخيص المستدرك)

- **أن هذه السورة وسورة الأحزاب،** هما السورتان الوحيدتان اللتان ذكرت فيهما آيات الحجاب وأحكامه وتفاصيله، و لم ترد في القرآن الكريم إلا فيهما.
- **سر تكرار لفظة (البيوت) في هذه السورة.**

لم تحظ سورة من السور القرآنية بلفظ **(بيت)** ما حظيت به هذه السورة، حيث ورد فيها لفظ: **(بيوت)** تسع مرات، و**(بيوتاً)** ثلاث مرات، و**(بيوتكم)** مرتان. مما يؤكد أهمّية البيوت، وعظم شأنها وحرمة أهلها، وما اكتسبت أهميتها إلا من علوّ شأن عامريها، وربما نجد هذه اللفتة في قول الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ ﴾ [النور: 36،37] حيث جاء بالنص على تعظيمها، وتعظيم عمارها بالتنكير ﴿رِجَالٌ﴾ ولإجلال تلك البيوت واحترام أهلها كان الاستئذان.([1])

- **انفرادها بذكر اسم الله (النور)**

انفدرت سورة النور بذكر اسم الله تعالى (النور)، الذي ذكره الله عز وجل في مثل عجيب جليل، لنوره، أو نور كتابه في قلب العبد المؤمن، وبه سميت السورة: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٣٥ ﴾ [النور: 35]

- انفرادها بمفردات لغوية، ومصطلحات خاصة لم ترد في أي سورة أخرى: من مثل: **سورة، كِبْره، تستأنسوا، الإربة، الأيامى، وليستعفف، البغاء، جيوبهن، مِشْكَاة، مصباح، الزجاجة، كوكب دري، كسراب بقيعة، تتقلب، لُجّيٍّ، ركاماً، سنا برقه، مذعنين، صديقكم، يتسللون، لواذاً...**

فهذه المفردات والمصطلحات هي فقط للتمثيل لا الحصر، وإلا فالسورة تحتوي على عشرات من المفردات والمصطلحات الخاصة بها، وهي دالة على شخصيتها المتفردة، وموضوعاتها الفريدة المتميزة، ومن ثم هداياتها ومعانيها.

---

1 دلالة سورة النور على مقصد حفظ النسل، 479 أحمد حسن الربابعة، محمد مجلي الربابعة.

وأخيراً، في هذه السورة أنس وشعور بالطمأنينة، لأن المؤمن يرتاح للعفة والطهر، ويشمئز من الفحش وسوء الظن والاتهام.([1]) تلك هي طبيعة النور في عالم الأرواح، وتلك هي آثاره على عالم الحس والجوارح. فأنى لظلمات الأشباح أن تخرق أنوار الأرواح، وتلك إذن هي رسائل النور من سورة النور: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: 40]

فهذه أهم الخصائص التي تميزت بها سورة النور في سياق هداياتها الخاصة والعامة، إجمالا، ويمكن استخراج واستنباط خصائص أخرى حسب نوع الدراسة ومجالاتها.

1 ينظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الشيخ وهبة الزحيلي، 119/18.

المبحث الثالث

أساليب السورة في عرض هداياتها

أولا تعريف الأساليب عموماً:

الأساليب جمع أسلوب، والأسلوب عموماً هو طريقة الكلام، ولذلك فقد (تواضع المتأدبون وعلماء العربية، على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه؛ أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك)([1])

وقد اختلفت اطلاقات العلماء في المراد من الأسلوب في هذا السياق، بين مَنْ يطلقه ويريد به الألفاظ فقط، كما هو شأن علماء القرآن، وبين مَنْ يطلقه ويقصد به الألفاظ والمعاني كما هو الغالب عند علماء الأدب والبلاغة، وهو الأشهر من حيث الاستخدام العام.([2])

وإذا كان لكل كلام أو متكلم أسلوبه الخاص به، فلا شك أن للقرآن الكريم -الذي هو أعظم كلام وأجلّه على الإطلاق لأنه كلام الله تعالى-لا شك أن له- أسلوباً خاصاً منفرداً ومتفرداً به، بل إن أسلوب القرآن من مناط إعجازه، ومن خلاله تتجلى عظمة بلاغته، في كمال انسجامه، وجمال تناسقه، ومن أعظم أسرار تأثيره على سامعيه، أسلوبه الفذ الذي يأسر العقول والقلوب.

وبناء على ذلك فإن أسلوب القرآن -الذي هو مناط إعجازه- يدخل فيه لفظه ونظمه، إذ إعجازه يرتبط بالدرجة الأولى بهذا المعنى، أي ارتباط أجزاء ألفاظه وترتيبها لفظاً ومعنىً، لا في ألفاظه فقط التي هي من جنس ألفاظ العرب، وهنا مزية أسلوب القرآن الكريم، كما قرر ذلك عدد من العلماء.

قال الزرقاني رحمه الله: (وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه)([3])

---

1 مناهل العرفان في علوم القرآن، 277/2، محمد عبد العظيم الزرقاني

2 ينظر تفصيل الموضوع في (الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 288/1، 289، 290)

3 مناهل العرفان في علوم القرآن، 277/2

ومن هنا يمكن تعريف أسلوب القرآن في هذا السياق، -سياق عرض القرآن الكريم لهداياته من خلال ألفاظه ومعانيه- بأنه: (طريقته في اختيار الألفاظ، وتأليف الكلام، والدلالة على المعاني)([1])

ولا شك أن لأساليب القرآن أهمية عظيمة في الدلالة على هداياته، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه، قال الإمام الشافعي رحمه الله: (وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها)([2])

ولقد تعددت أساليب القرآن الكريم وتنوعت في عرض معانيه وهداياته، بتعدد أغراضه، وتنوع مقاصده وأهدافه، واختلاف مخاطبيه ومتلقيه وسامعيه، فمن أسلوب الاستفهام بمعانيه، إلى أسلوب التوكيد بأنواعه، إلى أسلوب التكرار بأقسامه، إلى أسلوب التقديم والتأخير بصُوَرِه، إلى أسلوب الالتفات بأضربه، وهكذا، إلى أساليب: الطباق، والمقابلة، والحوار، والأمثال، والأخبار، والقصص، وأسلوب التحدي والتعجيز، والترغيب والترهيب.([3])

وسأعرض إلى نماذج من هذه الأساليب مما استخدمته سورة النور في عرض هداياتها، تمثيلا لا حصراً.

ثانياً: أساليب سورة النور في عرض هداياتها من الآية: 27 إلى آخر السورة:

أ- الأساليب اللغوية والبلاغية:

لقد تضمنت سورة النور في عرض هداياتها أساليب متعددة، كل أسلوب له من المعاني والدلالات الشيء الكثير، ومن هذه الأساليب:

(1) **التوكيد**: ومن تعريفاته ما ذكره أبو البقاء الكفوي: (التأكيد هو أن يكون اللفظ لتقرير المعنى الحاصل قبله وتقويته)([4])

---

1 الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 291/1

2 الرسالة، 133

3 ينظر تفصيل هذه الأساليب بأمثلتها القرآنية في: الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 1/ 297- 363.

4 الكليات، 267

وعلى هذا فالتوكيد حاصل بكل تعبير يكسب المعنى قوة، وثباتاً في النفس، ويكون ذلك بالمفردات والجمل. ولا شك أن التوكيد من أهم أساليب تقرير الهداية وتثبيتها؛ لذلك كثر استخدامه في القرآن الكريم، وله فوائد كثيرة.

ومن أمثلة هذا الأسلوب في سورة النور؛ التوكيد بذكر الغاية من الأمر الإلهي، لتأكيده وتقريره في النفوس حينما ما تسمعه، وذلك مثل ما ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النور: 28] فالغاية في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ ﴾ لتأكيد النهي بقوله: ﴿ فَلَا تَدۡخُلُوهَا ﴾ أي حتى يأتي أهلها فيأذنوا لكم.([1])

ومن الأمثلة كذلك، توكيد لفظ جملة النهي الواردة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور:31] أعيد لفظ: ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ تأكيداً لقوله: ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ المتقدم وليبني عليه الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ إلخ الذي مقتضى ظاهره أن يعطف على ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ لبعد ما بين الأول والثاني، أي ولا يبدين زينتهن غير الظاهرة إلا لمن ذُكروا بعد حرف الاستثناء لشدة الحرج في إخفاء الزينة غير الظاهرة في أوقات كثيرة، فإن الملابسة بين المرأة وبين أقربائها وأصهارها المستثنين ملابسة متكررة فلو وجب عليها ستر زينتها في أوقاتها كان ذلك حرجاً عليها.([2])

(2)**الإيجاز بالحذف**: الإيجاز هو أداء المقصود بأقلَّ من عبارات متعارف الأوساط، ويقابله الإطناب وهو أداؤه بأكثر من عباراته.([3])

والإيجاز بالحذف هو من الأساليب البلاغية الجميلة، (وهو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبن)([4])

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 201

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 208

3 ينظر الفوائد الغياثية، 2/ 544، شمس الدين الكرماني

4 دلائل الإعجاز، 1/ 146، عبد القاهر الجرجاني.

ولأسلوب الإيجاز بالحذف فوائد كثيرة ذكرها البلاغيون، كالتفخيم والتعظيم، والتشريف، والتخفيف، وغيرها، وتظهر أهمية هذه الفوائد في استنباط الهدايات القرآنية، وذلك لما لهذا الأسلوب في القرآن الكريم من أسرار ومقاصد.

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب في سورة النور، قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ [النور: 30] فالمراد إنما هو غض البصر عما حرم الله لا عن كل شيء، فحذف ذلك اكتفاء بفهم المخاطبين.([1])

(3)**المجاز المرسل**: الإرسال في اللغة: الإطلاق وترك التقييد.([2]) وسمي هذا المجاز مرسلا، لأنه لم يقيد بعلاقة واحدة كما هو الشأن في الاستعارة، بل تتوارد عليه علاقات كثيرة.([3])

ومن أمثلة هذا الأسلوب في سورة النور قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ أي مواقع الزينة ومحلها، وهذا من إطلاق اسم الحال على المحل وهو معهود في لغة العرب، قال الزمخشري: (وذكر الزينة دون مواقعها، للمبالغة في الأمر بالتصوّن والتستر، لأنّ هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء)([4])

(4) **الإطناب بذكر الخاص بعد العام**: وفائدته التنبيه على أهمية هذا الخاص اهتماماً به، والتنويه بشأنه تعظيماً لمنزلته ومكانته، وهو أسلوب قرآني معروف، وله دلالات لغوية وأصولية.

ومن أمثلة هذا الأسلوب في سورة النور قوله تعالى: ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور: 37] فالصلاة في الآية من ذكر الله، لكنه سبحانه خصها بالذكر لمنزلتها، فلا ذكر الله بدون الصلاة، ولا صلاة بدون ذكر الله فيها، كما أن الصلاة هي أساس ذكر الله والتذكير به سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه: 14] أي لتذكرني دائماً.

---

1 ينظر صفوة التفاسير، 222/2، محمد علي الصابوني

2 ينظر لسان العرب مادة (رسل)

3 الإيضاح، 270، جلال الدين الخطيب القزويني

4 ينظر الكشاف، 18/ 726

ومن أمثلة أسلوب الإطناب في السورة كذلك تكرار لفظ (الحرج) في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴿٦١﴾ ﴾[النور: 61] وذلك قصد تقرير هذا الحكم وترسيخه في الأذهان لدى السامعين، لأن المقام مقام إيضاح ورفع حجاب.

(5) **الجناس التام**: هو ما اتفق فيه اللفظان في أربعة أمور: أنواع الحروف، وأعدادها، وترتيبها، وهيئتها الحاصلة من الحركات والسكنات.

يقول السكاكي (الجناس التام هو ألا يتفاوت المتجانسان في اللفظ)([1])

ويقول العلوي عنه هو: (أن تتفق الكلمتان في لفظهما، ووزنهما، وحركاتهما، ولا يختلفان إلاّ من جهة المعنى)([2]) وينقسم الجناس التام إلى ثلاثة أقسام هي: المماثل، والمستوفي، والمركب.

وينقسم المماثل إلى: (ما كان بين الاسمين أو الفعلين، والمماثلة عند ابن رشيق أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى)([3])

ومن أمثله أسلوب، الجناس التام المماثل في سورة النور، قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور: 43،44] فالمقصود ب﴿ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ الأولى: حاسة الرؤية. و﴿ ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ الثانية: العلم، فأولوا الأبصار: أولو العلم. وهو جرس بلاغي لطيف، يأخذ بالألباب، مع ما بينهما من علاقة، فأولوا الأبصار والعلم، هم الذين يستفيدون من حواسهم، ومنها النظر ويستخدمونها فيما ينفعهم فيبصرون الحق بقلوبهم وعقولهم. (فأولوا الأبصار يدركون ببصرهم ما يحسون وما يرون، ويدركون ببصيرتهم ما وراء هذا الذي يحسون به من قدرة باهرة)([4])

(6) **التشبيه التمثيلي**: وهو من روائع الأسلوب البلاغي، وسمي تمثيلياً لأن وجه الشبه فيه منتزع من متعدد، وهذا هو الفرق بينه وبين التشبيه.

---

1 مفتاح العلوم: للسكاكي، 227

2 الطراز، 2/ 356

3 العمدة، 1/ 321

4 ينظر زهرة التفاسير، 10/ 2506، 2507

ومن أمثلة هذا الأسلوب في السورة، قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور: 35] فقد شبه الله تعالى نوره الذي وضعه في قلب عبده المؤمن بالمصباح الوهاج في كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في الصفاء والحسن إلخ([1]) وسأزيد هذا المعنى توضيحاً في أسلوب ضرب الأمثال.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور: 39] فهذا التمثيل العجيب صالح لتفريق أجزائه في التشبيه بأن ينحل إلى تشبيهات واستعارات. فأعمال الكافرين شبيهة بالسراب في أن لها صورة الماء وليست بماء، والكافر يشبه الظمآن في الاحتياج إلى الانتفاع بعمله. ففي قوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ ﴾ استعارة مصرحة، وخيبة الكافر عند الحساب تشبه خيبة الظمآن عند مجيئه السراب ففيه استعارة مصرحه، ومفاجأة الكافر بالأخذ والعتْل من جند الله أو بتكوين الله تشبه مفاجأة من حسب أنه يبلغ الماء للشراب فبلغ إلى حيث تحقق أنه لا ماء فوجد عند الموضع الذي بلغه من يترصد له لأخذه أو أسره . فهنا استعارة مكنية إذ شبه أمر الله أو ملائكته بالعدوّ، ورمز إلى العدو بقوله: ﴿ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ ﴾ وتعدية فعل ﴿ وَوَجَدَ ﴾ إلى اسم الجلالة على حذف مضاف هي تعدية المجاز العقلي([2])

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور: 40] تمثيل الذين كفروا في أعمالهم التي يظنون أنهم يتقربون بها إلى الله وهم غير مؤمنين، بحال ظلمات ليل غشيت ماخراً في بحر شديد الموج قد اقتحم ذلك البحر ليصل إلى غاية مطلوبة، فحالهم في أعمالهم تشبه حال سابح في ظلمات ليل في بحر عميق يغشاه موج يركب بعضه بعضاً لشدة تعاقبه، وإنما يكون ذلك عند اشتداد الرياح حتى لا يكاد يرى يده التي هي أقرب شيء إليه وأوضحُه في رؤيته فكيف يرجو النجاة .. فوجه الشبه هو ما حف بأعمالهم من

1 ينظر صفوة التفاسير، 229/2، محمد علي الصابوني

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 254

ضلال الكفر الحائل دون حصول مبتغاهم.. وهذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة كما يقال: شاهدتُ سواد الكفر في وجه فلان([1])

وهذا التمثيل صالح لاعتبار التفريق في تشبيه أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها؛ فالضلالات تشبه الظلمات، والأعمال التي اقتحمها الكافر لقصد التقرب بها تشبه البحر، وما يخالط أعماله الحسنة من الأعمال الباطلة كالبحيرة، والسائبة يشبه الموج في تخليطه العمل الحسن وتخلله فيه وهو الموج الأول. وما يرد على ذلك من أعمال الكفر كالذبح للأصنام يشبه الموج الغامر الآتي على جميع ذلك بالتخلل والإفساد وهو الموج الثاني، وما يحف اعتقاده من الحيرة في تمييز الحسن من العبث ومن القبيح يشبه السحاب الذي يغشى ما بقي في السماء من بصيص أنوار النجوم، وتطلّبُه الانتفاع من عمله يشبه إخراج الماخر يده لإصلاح أمر سفينته أو تناول ما يحتاجه فلا يرى يده بله الشيء الذي يريد تناوله.([2])

(7) **أسلوب ضرب الأمثال**: ولهذا الأسلوب علاقة وثيقة بالأسلوب السابق، وذلك من حيث أن المثل إنما يضرب للتشبيه، تشبيه المعقول بالمحسوس، والغائب بالمشاهد.

وهو من الأساليب البلاغية التي استخدمها القرآن الكريم في بيان كثير من القضايا الإيمانية والتشريعية والأخلاقية، قصد تحقيق هداياتها في واقع الناس، وله أنواع متعددة ليس هنا مجال ذكرها وتفصيلها.([3])

والمثل في اللغة: مأخوذ من النظير، والمساوي، والصفة، والعبرة، وما يجعل مثالاً لغيره.([4]) قال الفيروزآبادي رحمه الله: (المثل -بالكسر والسكون- الشبه، والجمع أمثال، والمثل: -محرّكة- الحجة، والصفة، والمثال: المقدار والقصاص..)([5])

والمثل في معناه العام: قول سائر، وتشبيه به حال بحال.

---

1 ينظر المرجع نفسه، 255/18

2 ينظرالتحرير والتنوير، 18/ 257

3 ذكرت الدراسات التأصيلية هذه الأنواع بأمثلتها في مبحث (أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات)

4 ينظر لسان العرب، مادة (مثل)

5 ينظر القاموس المحيط، مادة (مثل)

وللمثل في القرآن له فوائد متعددة، منها: بيانه للمعنى المراد وإصابته بأوضح دلالة، مع ما فيه من إيجاز الألفاظ واختصار العبارات، وحسن التشبيه وقوة الصورة البلاغية، مما يدفع شرود الذهن والسآمة فتتغلغل صورته في دواخل العقل، وتؤتي أكلها في سويداء القلب.([1])

ومن أمثلة أسلوب المثل في سورة النور، قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٣٥ ﴾[النور: 35] فالكلام تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين بهيئة المصباح الذي حفّت به وسائل قوة الإشراق فهو نور الله لا محالة.. وإعادة لفظ:﴿ ٱلۡمِصۡبَاحُ ﴾ دون أن يقال: فيها مصباح في زجاجة، كما قال قبلها: ﴿ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾ إظهار في مقام الإضمار للتنويه بذكر المصباح لأنه أعظم أركان هذا التمثيل، وكذلك إعادة لفظ ﴿ٱلزُّجَاجَةُ ﴾ في قوله: ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ ﴾ لأنه من أعظم أركان التمثيل. ويسمى مثل هذه الإعادة تشابه الأطراف في فن البديع.. ولما كان المقصود تشبيه الهيئة بالهيئة والمركب بالمركب حسن دخول حرف التشبيه على بعض ما يدل على بعض المركب ليكون قرينة على أن المراد التشبيه المركب ولو كان المراد تشبيه الهدى فقط لقال: نوره كمصباح في مشكاة إلى آخره.

فالنور هو معرفة الحق على ما هو عليه المكتسبة من وحي الله وهو القرآن. شبه بالمصباح المحفوف بكل ما يزيد نوره انتشاراً وإشراقاً.

وجملة : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ ﴾ مستأنفة إشارة إلى أن المقصود من مجموع أجزاء المركب التمثيلي هنا هو البلوغ إلى إيضاح أن الهيئة المشبه بها قد بلغت حد المضاعفة لوسائل الإنارة إذ تظاهرت فيها المشكاة والمصباح والزجاج الخالص والزيت الصافي، فالمصباح إذا كان في مشكاة كان شعاعه منحصراً فيها غير منتشر فكان أشد إضاءة لها مما لو كان في بيت، وإذا كان موضوعاً في زجاجة صافية تضاعف نوره، وإذا كان زيته نقياً صافياً كان أشد إسراجاً، فحصل تمثيل حال الدين أو

1 ينظر الدراسات التأصيلية، 1/ 336

الكتاب المنزل من الله في بيانه وسرعة فشوه في الناس بحال انبثاق نور المصباح وانتشاره فيما حف به من أسباب قوة شعاعه وانتشاره في الجهة المضاءة به.([1])

(8) **الطباق والمقابلة**: وهو من الأساليب البلاغية، ويسمى الطباق بالمطابقة والتضاد أيضاً، وهو الجمع بين بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة.([2])

وله عدة صور في القرآن الكريم، منها: أن يكون بلفظين من نوع واحد كالفعلين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد:27] ومنها: أن يكون اللفظان من نوعين مختلفين، كالاسم والفعل في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام122] ([3]) إلى غير ذلك.

ومن أمثلة صور أسلوب الطباق في سورة النور قوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: 43] طباق ومقابلة بين فعلين (يصيب) و(يصرف) وفي هذا الأسلوب البلاغي زيادة تأكيد وبيان لقدرة الله تعالى في هذا الكون، وأن كل شيء بيده سبحانه، يصرّفه كيف يشاء ومتى شاء، خيراً وشراً، بلاء وعافية.

ومن أمثلة هذا الأسلوب أيضاً في السورة قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴿٥٥﴾﴾ [النور: 55] فهذا طباق بين الخوف والأمن، وله أثر بليغ على النفس في تصور كل منهما، بمقابلته بالآخر.

وكذلك قوله تعالى في السورة: ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴿٦١﴾﴾ [النور:61] فمعناه مجتمعين ومتفرقين.

(9) **الاستعارة**: وهي في الاصطلاح البلاغي: تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه.([4]) والعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة، إذا كان المسمى بها بسبب من الآخر، أو مجاوراً، أو مشاكلاً.([1]) وعلى هذا فالاستعارة هي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له ([2])

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 234– 243

2 ينظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 198/3، نقلا عن الدراسات التأصيلية، 314/1

3 ينظر الدراسات التأصيلية، 1/ 314

4 البيان والتبيين، 1/ 153

وأصل الاستعارة تشبيه حذف منه المشبه، وأداة التشبيه ووجه الشبه، ولم يبق منه إلا ما يدل على المشبه به.([3])

ومن أمثلة هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور: 44] فليس المقصود بالتقليب هنا التقليب المادي للأشياء الذاتية، وإنما المقصود تعاقب الليل والنهار فاستعير هذا الأسلوب لبلاغته في تصوير هذا التعاقب، وهي استعارة لطيفة.([4])

ومن أمثلته كذلك –على بعض التأويلات– قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور: 43] فالجبال هاهنا، يراد بها السحاب الثّقال، تشبيها لها بكثائف أطوادها، ومشارف هضابها. ويكون الضمير في قوله سبحانه: ﴿مِن جِبَالٖ فِيهَا﴾ عائداً على السماء، لا على الجبال. فكأنّ التقدير: ويترّل من جبال من السماء من برد، يريد من السحاب المشبّهة بالجبال. وتكون الفائدة في قوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٖ﴾ في السماء، تخصيص تلك الجبال من جبال الأرض، لأنّا لو جعلنا الضمير الذي فيها عائداً على الجبال، أوهم أنها جبال تنزل إلى الأرض من السماء.

فإذا جعلنا الضمير عائداً إلى السماء أمن الالتباس، وكان في ذلك أيضاً تعجّب لنا، من وصف جبال في السماء على طريق التشبيه لأنّ الجبال على الحقيقة لا تكون إلا في قرارات الأرض، وصفحات التّرب.([5])

ومن أمثلة هذا الأسلوب كذلك في السورة، قوله تعالى: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النور: 53] شبه الأيمان التي يحلف بها المنافقون، بَالِغين فيها أقصى المراتب في الشدة والتوكيد، بمن يجهد نفسه في أمر شاق لا يستطيعه، ويبذل أقصى وسعه وطاقته ، بطريق الإستعارة التبعية.([6])

---

1 تأويل مشكل القرآن، 102، لابن قتيبة

2 الإيضاح، 5/ 37، الخطيب القزويني، شرح د. عبد المنعم خفاجي

3 البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، 2/ 229، حبنكة الميداني.

4 ينظر صفوة التفاسير، 2/ 330

5 الموسوعة القرآنية، خصائص السور، 6/ 101(جعفر شرف الدين عبد العزيز بن عثمان التويجري، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية)

6 ينظر صفوة التفاسير، 2/ 334

ب- الأساليب التربوية في سورة النور:

يضاف إلى الأساليب اللغوية والبلاغية التي حفلت بها سورة النور، والتي تم ذكر أهمها، فإن هناك أساليب إيمانية وتربوية، تحتوي عليها سورة النور، والتي تحمل مجموعة من الدلالات الإيمانية، والهدايات التربوية الربانية، ومن هذه الأساليب التربوية:

أولا: التربية بآيات الآفاق والأنفس الدالة على قدرة الله تعالى:

ومن ثمرات هذه الأسلوب تحقيق الإيمان بالله وعظمته، وترسيخ خشيته في القلوب، وتنمية حاسة التدبر والتفكر في آيات الله الكونية والشرعية.

ومن أمثلة هذا الأسلوب الإيماني التربوي في سورة النور قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور: 43-45]

فقد عرضت هذه الآيات لثلاثة مشاهد من المشاهد الدالة على عظمة الله تعالى، وهي:

المشهد الأول: مشهد تكوين السحاب وتراكمه الضخم الكثيف، وما ينتج عنه من نزول الأمطار، والبرد، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء، مع منظر شدة ضوء البرق ولمعانه يكاد يذهبالإبصار.

المشهد الثاني: مشهد تقلب الليل والنهار، ومجيء أحدهما بَعد الآخر، وتعاقبهما من خلال نظام ثابت دقيق، لا يختل ذهاباً وجيئة، ابتداء وانتهاء، وما يُقدِّرُه الله فيهما مِن خير وَشَرّ، وَنَفْع وَضُرّ. إذ ما من شيء يقع في هذا الكون، إلا ويقع ليلا أو نهاراً.

المشهد الثالث: مشهد تنوع المخلوقات مع اتحاد أصلها، إذ يعرض الله سبحانه نشأة حياة هذه المخلوقات من أصل واحد، وطبيعة واحدة ثم تتنوع مع وحدة هذه النشأة، ليلفت أنظارنا إلى قدرته ومشيئته، وحكمة تدبيره.

فهذه المشاهد وغيرها فيها عبرة للنظر، وعظة للقلب، وهي مجال للتفكر والتأمل في صنع الله وآياته لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثانياً: التربية بالحدث:

والمقصود بهذا الأسلوب هو استثمار ما يقع من أحداث في الحياة الاجتماعية للانطلاق منها في توجيه النفوس وتربيتها بغرس ما يريد المربي غرسه في نفوس السامعين، لأنها تكون أكثر قابلية للاستجابة والتأثر، ويكون هذا التوجيه وهذه التربية أعمق وأطول أمداً من التوجيهات العابرة، وهو أسلوب قرآني أصيل جليل.

ومن أهم الأمثلة لهذا الأسلوب في سورة النور: ما ذكرته من حادثة تسلل المنافقين يوم الخندق، واعتذارهم عن ذلك بأعذار واهية كاذبة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور:62،63]

فقد تعرضت هذه الآيات لمجموعة من التوجيهات الإيمانية والتربوية منها:

- عدم الخروج عن الجماعة في اجتماعها على أمر مهم يهم الأمة، إلا لضرورة، لما في ذلك من تفرقة لكلمة الأمة وشق لصفها.

- الالتزام بالاجتماع وعدم طلب الإذن بالخروج، إلا في الشؤون الهامة والضرورية، لأن في ذلك تقصيراً وتفريطاً، اقتضاه طلب الاستغفار من الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يستأذنون، فدل ذلك أن الالتزام بتلك الاجتماعات من علامات كمال الإيمان.

- أن من له الحسم في الإذن أو عدمه هو الرسول صلى الله عليه وسلم، أو كل قائد ومسؤول عن هذه الاجتماعات.

- وجوب توقير الرسول صلى الله عليه وسلم، واحترامه وعدم رفع الصوت أمامه، أو عليه، فلا ينادى كما ينادى الناس بعضهم بعضاً، كما يجب تعظيمه حياً وميتاً.

- التأكيد على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن مخالفته توجب عقوبة الدنيا والآخرة.

كل هذه التوجيهات الإيمانية والتربوية، اقتضاها ما وقع من المنافقين تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، من تسلل وعدم استئذان، إضافة إلى ما صدر منهم من إعراض عن حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: التربية بالترغيب والترهيب

الترغيب والترهيب أسلوب تربوي قرآني يقوم على معالجة النفس البشرية بترغيبها فيما تحب، وتشويقها له بشتى طرق الترغيب، وتحذيرها وتخويفها مما تخاف وتكره، بشتى ضروب التخويف، قصد تربيتها وتزكيتها وإصلاحها.

ومن أمثلة وصور التربية بالترغيب في سورة النور:

الترغيب بطيبات الحياة الدنيا من الزواج وما يترتب عليه من غنى، ترغيباً في الإقبال عليه رغم الفقر: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ ﴾ [الآية: 32]

وعد الله بالخيرية المطلقة للمؤمن، والفوز والفلاح لكل من اتزام آداب الاستئذان، وغض بصره وحفظ فرجه: ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ ... إلى قوله تعالى: وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١ ﴾ [النور:27-30]

ومن أمثلة وصور التربية بالترهيب:

الترهيب من عقوبات وأهوال الآخرة، بالاستعداد لهذا اليوم، وعدم الغفلة عنه، لما يحدث فيه من اضطراب وخوف، نتيجة لأهواله، مما يدعو المسلم إلى أن يكون دائماً على أهبة الاستعداد، قال تعالى: ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ ﴾ [النور: 37]

ومن الأمثلة أيضاً التحذير من مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالفتنة في الدنيا، أوالعقاب الأليم في الآخرة: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣ ﴾ [النور: 63] فالمراد أن مخالفة الأمر توجب أحد هذين الأمرين، والمراد بالفتنة

العقوبة في الدنيا، والعذاب الأليم عذاب الآخرة، وإنما ردد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الأمرين لأن ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك في الدنيا ، فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد.([1])

ومن الأمثلة كذلك تهديد الله تعالى وتحذيره للمؤمنين، وغيرهم بعلمه بأحوال قلوبهم، وأنه سبحانه مخبرهم بكل ذلك عند الرجوع إليه، ومحاسبهم عليه، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤ ﴾ [النور: 64]

فهذه باختصار أهم الأساليب التربوية الواردة في آيات سورة النور من الآية:27 إلى آخر السورة، أضفتها للأساليب اللغوية والبلاغية، لما تحتوي عليه من هدايات إيمانية عظيمة، ودلالات تربوية كريمة.

1 مفاتيح الغيب، 24/ 40

الفصـــل الـثـالـث

واقع الأمة في ضوء هدايات السورة، وأثر ذلك عليها

المبحث الأول: واقع الأمة من هدايات آيات السورة

المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة

المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة

المبحث الأول

واقع الأمة من هدايات آيات السورة

تمهيد:

لقد أنزل الله القرآن الكريم ليكون منهج حياة، وطريق هداية للبشرية، وتحقيقاً لهذه الغاية السامية، ضمن سبحانه وتعالى السعادة في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة، لمن اتبع هُداه، وسلك منهاجه وطريقه، فقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه: 123- 126]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه، أن لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ وفي رواية قال رضي الله عنه: (من قرأ القرآن واتبع ما فيه عصمه الله من الضلالة، ووقاه)([1])

فلا حياة للأمة إلا بروح القرآن وهديه، ولا بصيرة لقلبها ونفسها إلا بنوره وبصائره: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام: 104] ولا نجاة للبشرية من الضلال والشقاء في الدنيا والآخرة، إلا باتباع منهجه وهداه: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

ومن هنا كانت الغاية الكبرى لنزول القرآن الكريم، هي أن تجعله الأمة مصدراً لهدايتها في حياتها كلها؛ اعتقاداً، وعبادة، وأخلاقاً، وعلماً، وعملاً، ودعوة، وجهاداً، إذ ما أنزل الله القرآن الكريم إلا لهذه الغاية، ليرفع به الضنك والشقاء عن البشرية، كما قال تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [طه 1-3] أي ما أنزل الله القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ليشقى به، أو لتشقى أمته بأوامره ونواهيه، وتكاليفه وحدوده، بل ما أنزل الله تعالى هذا القرآن، إلا ليزكي به القلوب والنفوس والعقول والضمائر والأخلاق، وليقيم به خير أمة أُخرجت للناس.

وعلى هذا السَّنَن الرباني، وانطلاقاً من هذه الغاية، تعامل السلف الصالح مع القرآن الكريم، فكان منهجهم في ذلك أنهم تلقّوا هداياته رسائل وبصائر من ربهم، يستبصرون بها واقعهم

1 جامع البيان في تأويل القرآن، 18/ 389

ويهتدون بها في حياتهم، كما قال عبد الله بن عمر: (كان أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها زواجرها ونواهيها فيقف فيما ينبغي أن يقف عنده...)([1])

قال الإمام الحسن البصري رحمه الله: -عن تلقي الصحابة رضي الله عنهم لهدايات القرآن ورسائله- (إنَّ مَنْ كان قبلكم رأوه -أي القرآن- رسائل من ربهم، فكانوا يتدبروها بالليل، وينفذوها بالنهار)(2)

ولا أحسب أن ما روي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من كونه مَكَثَ يحفظ سورة البقرة ثماني سنين([3]) إلا أنه يُحمَل على هذا المعنى، أي يحفظ معانيها وأحكامها، ويتدبر أسرارها ويستخرج هداياتها، ليتحقق بآياتها آية، آية، ويتأدب بآدابها وحكمها، حكمة، حكمة.

قال الشيخ الزرقاني رحمه الله: (لقد نجح سلفنا الصالح بهذا القرآن نجاحاً مدهشاً، مع قلة عددهم وخشونة عيشهم، وندرة المصاحف بأيديهم، وقِلّة الحفّاظ إذا ما قورنوا بأعدادهم اليوم.

والسر في ذلك: أنهم توفروا على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته، أما غالب المسلمين اليوم فاكتفوا بألفاظ يرددونها، وأنغام يلحنونها، وبمصاحف يحملونها، ونسوا أو تناسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبر آياته وتفهمها والتأدب بها)([4])

إن الأمة المسلمة اليوم -أفراداً وجماعات- مطالبة أكثر من أي وقت مضى -في ظل هذه الفتن التي تعيشها- بأن تعود إلى هدايات القرآن الكريم، لربط واقعها بها، لترى موقعَها منها، وتقيسَ نفسها من الاستجابة لها، ففي أي درجة هي منها؟ وأي سبيل سالكة؟ إذ هدايات القرآن الكريم هي بصائر من الله تعالى لعباده، ورسالاته إلى كل فرد من أفراد هذه الأمة.

إن أخطر شيء يمكن أن يتسرَّب إلى ذهن قارئ القرآن وخاطره، أن يقول: إن هذا الكتاب نزل على قوم خَلَوْا، في زمن مضى، وفي مكان محدد، فهو يتحدث عن الأزمنة السابقة، والأمم السالفة، ونزل على جيل مضى، ولا علاقة له بحياته التي يعيشها، وأن لاَّ دخول للواقع الذي يحياه تحت هدايات هذا القرآن الكريم، وهذا انحراف شعوري خفي خطير، تجاه هدايات القرآن ورسائله، وقد انتقد ابن القيم رحمه الله هذا الحالَ وأصحابَه، فقال: (أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته -القرآن- وتضمُّنِه له، ويظنونه في نوع، وفي قوم قد خلوا من قبل لم يعقبوا

---

1 الطبراني في الأوسط، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين 35/1.

2 التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، 40

3 روى ذلك الإمام مالك في موطئه، كتاب القرآن، باب ما جاء في القرآن 186. حديث رقم: 11

4 مناهل العرفان، 2/ 7

وارثاً، وهذا الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثَهم من هو مثلُهم أو شرٌّ منهم، أو دونهم، وتناولُ القرآنِ لهم كتناوله لأولئك)([1])

ومن هنا لا ينبغي أن يتسرّب إلى ذهن قارئ القرآن والمتلقي لهداياته، أن هذا الكتاب إنما نزل في زمن محدد وانقطع بذلك وحيُه، وإنما نقرؤه فقط للتبرك، أوالثقافة العلمية، إذْ هذا المعنى الخفي والخطير سبب لحرمان المتدبر من هدايات القرآن وأنواره، ومن ثم تنزيله على واقعه ومعالجته به.

فلا بد إذن من الشعور أثناء تلاوتك للقرآن الكريم وتدبرك لآياته، بأن الله عز وجل يخاطبك أنت في تلك اللحظة: ﴿ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ ﴾ [طه: 13] إذْ وصْفُ الله تعالى للقرآن بأنه (وحْي) يقتضي هذا المعنى الجليل، وهو أن الله تعالى يخاطب به العبدَ في تلك اللحظة التي يتلوه فيها ويوحي به إليه، لا بمعنى النبوة، وإنما بمعنى الإخبار والأمر العُلْوي الغيبي فهو -أي الوحي- وصف مصاحب له، بما هو اسم من أسماء القرآن، وصفة من صفاته، وهو متولّد عن المعنى المصدري الذي يدل على الحَدَث النزولي، (وَحى، وأَوْحى يَحِي وحياً) أي الحدث النوزلي من السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هنا فالمعنى المصدري هو الذي انقطع، أما المعنى الاسمي فهو وصف مصاحب له، وهو الذي من خلاله يتلقى العبد حقائقَه الإيمانية الغيبية، وهداياتِه الربانية النورانية.

وإن واقع الأمة اليوم من هدايات القرآن الكريم، يدعو إلى وقفة تأمل ومراجعة، فيما يخص علاقتها بالقرآن الكريم وهداياته، فتلك أول خطوة للعودة إلى القرآن مرة أخرى، بعْثاً لروحه ونوره في النفوس، وتجديداً لهداياته في القلوب، لتعود الأمة إلى سابق عهدها، وسالف مجدها.

هذا، ويمكن وصف أهمّ ما يتعلق بواقع الأمة -أفراداً وجماعات- من خلال أهمّ الهدايات الكلية لسورة النور وفي ضوئها، وذلك من خلال الجوانب الآتية:([2])

أولا: واقع الأمة من هدايات الالتزام بالآداب الشرعية التي يجب مراعاتها في صلة المسلمين فيما بينهم، من خلال تطبيق أحكام الاستئذان، وآداب التزاور والمخالطة.

إن من المقاصد الكلية، لهدايات لسورة النور؛ العناية بالمجتمع المسلم وحمايته من الشرور والأخطار، وكل أنواع الانحراف، وإحاطته بأسوار من العفاف، وسياج منيع من الأخلاق والفضائل، وذلك من خلال تشريع جملة من الآداب السامية، وفرْض مجموعة من الأخلاق العالية، والوصايا الغالية، تطهيراً للنفوس، وسلامة للقلوب، وحفظاً لحرمة البيوت،

1 مدارج السالكين 1/ 343

2 من الآية 27 إلى آخر السورة.

وتحصيناً للمجتمع المسلم، من الوقوع في الزلل والانحراف، الذي يهدّد أمِن واستقرار المجتمع، أفراداً، وأُسراً، وجماعات، وعلى رأس هذه الآداب:

- **آداب الاستئذان وأخلاق التزاور والمخالطة:** ذلك أن المجتمع المسلم تحكمه علاقات الأخوة، وصلة القرابة، والجوار.. وهذه العلاقات تترتب عليها حقوق وواجبات شرعية، وهي تقتضي المخالطة، والتزاور، والتواصل بين أبناء المجتمع، تحقيقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))([1])

ومن هنا كان التزام هذه الآداب في صلة المسلمين فيما بينهم، مما يحفظ أخلاق المجتمع وكرامته، ويبعده عن خطوات الشيطان، وهو من الهدايات الكلية للسورة.

والناظر في واقع الأمة المسلمة اليوم، يرى ضعف هذه الأخلاق والآداب بارزاً -إلا من رحم الله تعالى- وهذا نتج عنه فساد الضمائر، وانعدام الثقة بين الأُسَر والعائلات، فقلّت الزيارات بين أهل القرابة خصوصاً، والمسلمين فيما بينهم عموماً، نتيجة لضعف هذه الآخلاق والآداب، وفضّل الناس العزلة على الاختلاط والتزاور، حفاظاً على حرمات بيوتهم، وستْراً لأسرارهم مِن أن تنكشف للآخرين ويطلعوا عليها، وفقَدَ المسلمون نتيجة لهذا؛ أسباب التراحم والتواد، والتآلف والتماسك فيما بينهم، والتي هي من مقاصد الأخلاق الإسلامية في الحياة الاجتماعية، ومن أهداف التواصل والتزاور بين المسلمين.

ومن هنا ندرك أهمية تطبيق أحكام الاستئذان، وآداب التزاور والمخالطة، والتحقق بها، في علاقة المسلمين بعضهم ببعض، تحقيقاً لهذه الأهداف، وتربية للنفوس على النظام الرباني الذي يحقق الرحمة والألفة، والمودة والرحمة بين الناس في صلاتهم، ويرفع الحرج والضيق عنهم، وبذلك ينتقل المجتمع المسلم من واقعه الفاسد، إلى موقعه الراشد؛ موقع الاهتداء ببصائر القرآن وهداياته، كما سطرتها آيات سورة النور في هذا السياق.

ثانياً: واقع الأمة من هدايات أمْرِ الله تعالى بغض الأبصار، وحفظ الفروج، سدّاً لذرائع الحرام، وتحقيقاً لتزكية النفوس، والفوز في الدنيا والآخرة:

إن مما انفردت به سورة النور من الهدايات الكلية: أمر المؤمنين بغض أبصارهم، وحفظ فروجهم، وهو من أعظم هداياتها، وأرفع أخلاقها، وجميل آدابها، ومن أوجب فرائضها وأحكامها، وذلك لما يترتب على هذا الأمر -سلباً أو إيجاباً- من آثار نفسية، واجتماعية، تعتبر من أهم

1 مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: 2585

المحددات في الحكم على المجتمع بالرقي الإيماني، والسموّ الأخلاقي، أو السقوط، في براثن الرذيلة، والوقوع في شباك الشيطان، واتباع خطواته، وما يترتب على ذلك من إعلان الفواحش والمنكرات والأمر بها، مما حذرت منه سورة النور: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور: 21]

ومن فلسفة الإسلام في هذا أنه إذا حرم شيئاً حرم كل ما يؤدي إليه، وذلك من باب سد الذرائع، وتضييق سبل المعصية، لوقاية الفرد والمجتمع من الفساد الذي يؤدي إلى الهلاك والبوار، وهو مقصد أصيل في باب التشريع الإسلامي، وفي هذا السياق أمر الإسلام بغض الأبصار، وحفظ الفروج، ونهى المرأة عن إبداء زينتها، وحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية، ومصافحتها، والنظر إليها بشهوة..، كما حرم على المرأة أن تخرج من بيتها متزينة متعطرة..، إلى غير ذلك.

والناظر في أحوال الأمة من هذا الباب، يؤلمه ما وصل إليه حالها، من الانحلال والتسيب، والفوضى..، نتيجة للتحلل من هذه الضواط الأخلاقية الربانية، -إلا من رحم الله- والابتعاد عن مراقبة الله تعالى، إذ أصبح النظر إلى المحارم؛ شيئاً مألوفاً، وأُزيلت كل حواجز الحياء، وحُجُب الستر في النظر إلى المرأة، دون قيد أو شرط أو ضرورة. وقد سأل جَرِير بْن عَبْد اللهِ([1]) رضي الله عنهما، رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن نظر الفجاءة، قَالَ: (فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي)([2]) فهذه نظرة الفجاءة، فما بالك بالنظرات المقصودة تلو النظرات؟! ولذلك حذر النبي عليه الصلاة والسلام من الجلوس في الطرقات مع أن أصله الإباحة، -إلا بشروط- وذلك لكونه ذريعة لإطلاق عنان النظر والوقوع في المحرمات.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ([3]) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ بِالطُّرُقَاتِ)) فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَتَحَدَّثُ فِيهَا، فَقَالَ: ((إِذْ أَبَيْتُمْ

---

1 جرير ابن عبد الله بن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلبة بن جشم بن عوف بن حزيمة بن حرب بن علي البجليّ الصّحابي الشهير، يكنّى أبا عمرو، وقيل يكنّى أبا عبد اللّه. اختلف في وقت إسلامه، وجزم الواقدي بأنه أسلم في شهر رمضان سنة عشرمن الهجرة، وقيل قبل ذلك، وفي الصّحيحين أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال له: «استنصت النّاس في حجّة الوداع» وروى عنه من الصّحابة أنس بن مالك، قال: كان جرير يخدمني، وهو أكبر مني، أخرجه الشّيخان. وروى نَحْواً مِنْ مائَة حَدِيْث بِالْمُكَرَّر.اتَّفَقَ لَهُ الشَّيْخَانِ عَلَى ثَمَانِيَة أَحَادِيْثَ. وَانْفَرَدَ البُخَارِيُّ بِحَدِيْثَيْنِ، وَمُسْلِمٌ. بِستَّة مات سنة إحدى وخمسين، وقال ابن الكلبي مات سنة أربع وخمسين (ينظر الإصابة، 1 / 582، وسير أعلام النبلاء، 2 / 536)

2 رواه مسلم، كتاب الآداب، بَابُ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ حديث رقم: 5770

3 هو سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر، وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصاريّ الخزرجيّ، أبو سعيد الخدريّ مشهور بكنيته، ولد قبل الهجرة بعشر سنين، استصغر بأحد، واستشهد أبوه بها وغزا هو ما بعدها. روى عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أَلْفاً وَمائَةً وَسَبْعِينَ حَدِيْثاً، فَفِي (البُخَارِيِّ) وَ (مُسْلِمٍ) ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُوْنَ. وَانْفَرَدَ البُخَارِيُّ: بِستَّةَ=

إِلَّا المَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ)) قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ))([1])

وإذا كان النظر سهماً من سهام إبليس، وهو بريد الزنا، فلا يُستغرب لهذه الحال التي وصلت إليها الأمة في العلاقة بين الجنسيْن، وما نتج عنها من شيوع الفواحش، وانتشار الأمراض الفتاكة، نتيجة للتفلت من أحكام الشريعة وضوابطها، التي تحكم العلاقة بين الذكر والأنثى، وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ))([2]) أي إنما يعصم العبد من الوقوع في الزنا إيمانه بالله ومراقبته له، وإلا استسلم للفاحشة وصدق نظره وما اشْتَهَتْه نفسه. ولذلك كان من مقاصد هذه السورة الكريمة تحقيق خلق العفة من خلال ما فرضته من آداب وأخلاق.

ثالثاً: واقع المرأة المسلمة من الضوابط الشرعية لِلباسها، وحدود إبداء زينتها عند المحارم وغيرهم.

إن مما هو مقرر شرعاً أن الإسلام حرم على النساء إبداء كل زينة، إلا لمن استثني لها في إبداء زينتها أمامه، وجعل ذلك هو الأصل في هذا الباب، فلا يجوز إظهار شيء منها إلا ما استثناه الله للضرورة، و لم تقصد المرأة إظهاره للزينة، قال ابن عطية رحمه الله: (ويظهر لي في محكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي، وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء في كل ما غلبها، فظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فما ظهر على هذا الوجه فهو المعفو عنه.(3)

كما لا تبدي المرأة زينتها إلا لمن هو من محارمها، ذلك أن الفتنة مأمونة من جانبهم، فلا تتوفر فيهم الرغبات الشهوانية تجاهها، وهم: الأزواج، والآباء، والأبناء، وآباء الأزواج وأبناؤهم، والإخوة وأبناؤهم، وأبناء الأخوات، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، والنساء المؤمنات، وأما غير

=عَشَرَ حَدِيْثاً، وَمُسْلِمٌ: بِاثْنَيْنِ وَخَمْسِيْنَ. توفي رضي الله عنه سنة أربع وسبعين للهجرة ودفن بالبقيع. (الإصابة، 3 / 66 والسير، 3 / 172)

1 رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب قول الله تعالى: {يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم} حديث رقم: 6229

2 رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، حديث رقم: 6243

3 المحرر الوجيز، 4/ 178

المسلمات فلا يصح للمؤمنة أن تظهر زينتها أمامهن لأنهن قد يصفنها لأزواجهن وإخوتهن وأبناء دينهن.(1)

هذا وإن جمالية الحياء والتخفي هي من المقتضيات الفطرية للأنوثة، والحياء بطبيعته يميل إلى التخفي؛ لأن به يحفظ وجوده في النفس والمجتمع. إن الحياء كالزئبق، بمجرد ما ترفع عنه الغطاء يطير في الهواء ويتلاشى! ومن هنا كان لا حياء مع العري، وكان لا حياء مع البروز الفاضح، فالتخفي سر بقاء الحياء، والحياء سر بقاء الجمال! وإنما جمال الوردة ما لم تقطف! فإذا قطفت فَرَكَتْها الأيدي ففقدت بهاءها، فلا جمال بعد! ومن هنا كانت الوردة الأجمل هي تلك المحصنة بين خضرة الأوراق وتيجان الأشواك.(2) وهكذا المرأة المسلمة العفيفة، سر جمالها في الحياء والستر، وإلا فعلى دينها السلام.

وإن مما يؤسف له أن لباس المرأة في واقعنا اليوم؛ تحول من كونه لباس ستر وحياء، إلى لباس زينة وتجمّل وفتنة، تتفنّن المرأة من خلاله -إلا من رحم ربك- في إظهار ما أمر الله بستره، وكشف ما أوجب الشرع إخفاءه وعدم إظهاره، حتى أصبح هذا النوع من اللباس سبباً للفتنة، وسبيلا للفاحشة، وتساوى اللباس مع التبرج، بل صار هو عين التبرج عند المرأة، لأنه أصبح وصّافاً لعورتها، شفّافاً يُظهر ما وراءه من مفاتن جسدها وأعضائها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول عن زماننا هذا: ((صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))(3)

فهذا الحديث من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، فقد وصف فيه ما لم يره بعين البصر، وإنما رآه بعين النبوة، مما سيكون في آخر الزمان وهو زماننا هذا. فكان وصفه العجيب كأدق ما يكون الوصف؛ لما عليه حال النساء اليوم، مما لم يسبق له مثيل في التاريخ! فهن فعلا كما قال صلى الله عليه وسلم: ((كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ)) بمعنى أنهن يلبسن ما به يكون العري أشد! وهوشيء غريب فعلا. ألا ترى أن نوع اللباس الأنثوي اليوم إنما هو لزيادة بيان تفاصيل العورة، ومواطن الفتنة من الجسم..

---

1 ينظر التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، لنخبة من علماء التفسير تحت إشراف: د. مصطفى مسلم. 5/ 215

2 ينظر سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، 39،40 الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى

3 رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، حديث رقم: 5704

ثم إنهن بعد ذلك ((مَائِلاَتٍ مُمِيلاَتٍ)) ومعناه أنهن مائلات عن الصراط المستقيم أولاً، ثم هن مائلات في مشيتهن بالطرقات، إمعاناً في عرض أجسادهن العارية بأوضاع مختلفة...([1])

فكم هي بذيئة تلكم الصورة الاستعراضية السيئة التي تمارسها النساء اليوم على الملأ، في الشوارع والأماكن العامة، تقليداً لعادات اليهود والنصارى! ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولا خروج للمرأة اليوم من واقعها المتردي، إلا بالرجوع إلى هدايات العفاف؛ بالستر والحياء، لتتبوّأ موقعها العالي ضمن مدارج الأنوار الربانية من هدايات سورة النور، ذلك أن من مقاصد هذه السورة في هذا السياق هو صيانة كرامة المرأة بإنشاء أسوار من العفاف المتجلية في خلق الستر والحياء، وما شرع من أجله من أحكام بينات، وآداب راشدات هاديات.

رابعاً: واقع المجتمع المسلم من الزواج والحث عليه والعمل على تيسيره، إقامة لشعيرة إسلامية، لتحقيق العفاف وتحصين المجتمع من الانحراف.

لقد شرع الله تعالى الزواج، لتُصرَف شهوة الفرْج في محلها الذي خلقه الله من أجلها، وجعل سبحانه وتعالى النكاح سبيلا شرعياً لتصريف هذه الشهوة وتحقيق العفة، وتحصين المجتمع من الانحراف، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ؛ فإنه له وجَاءٌ))([2]) مع ما جعل الله تعالى للزواج من مقاصد، نفسية، وإيمانية، وروحية، واجتماعية، كالسَّكَن، والمودة، والرحمة، وتكثير النسل والولد، وبناء الأسر، والاستدلال به على آيات الله تعالى ووحدانيته، وغير ذلك...

ولذلك لما كان الخوف من الفقر والعَيْلة، مِنْ أهم الأسباب التي يمكن أن تمنع الناس من الإقبال على الزواج وتصرفهم عنه وتزهدهم فيه، وعَدَهم الله تعالى بالغنى من فضله الواسع، فقال: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ ﴾ [النور: 32]

وإن الناظر في واقع الأمة الإسلامية اليوم يرى أن الخلل واقع في هذه الشعيرة الإسلامية، شعيرة الزواج، من جوانب متعددة، وذلك بما وضعه الناس من عقبات مادية، وشروط اجتماعية، كالمغالاة في المهور، والمفاخرة به، والتباهي بذلك، واشتراط شروطاً تخص السكن، وطريقة العيش،

---

1 سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، 58،59 الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى. (بتصرف)

2 البخاري، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج، لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج)) وهل يتزوج من لا أَرَبَ له في النكاح. حديث رقم:5065

والنفقة وغيرها..، مما كان سبباً في عزوف الشباب عن الزواج، وظهور انحرافات متعددة، كانتشار الزنا وغيرها. مع أنه ورد في الحديث النبوي: ((خَيْرُ الصَّدَاقِ أَيْسَرُهُ))([1]) وقد خطب سيدنا عمر رضي الله عنه في الناس يوماً فقال ((ألا لا تغلوا صدق النساء، ألا لا تغلوا صدق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها النبي صلى الله عليه وسلم، ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه، ولا امرأة من بناته أكثر من ثنتي عشرة أوقية))([2])

كما أن هناك عقبات اجتماعية وضعها الناس في طريق الزواج، كالتمييز بين الأسر: غنىً، وفقراً، وحسباً ونسباً، ولوناً وقبيلة، إلى غير ذلك.. مع أن أصل المعايير في هذا الباب هو الدين والخلق، كما جاءت به الشريعة في نصوصها الواضحة، والأمر كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: 13] وقد وضع النبي صلى الله عليه وسلم في هذا السياق ميزاناً دقيقاً جعله هو الأصل في اختيار الزوجين، فقال عليه الصلاة والسلام: ((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))([3])

وهناك عقبات نفسية أيضاً في طريق الزواج، وهي ما يضعه بعض الشباب والفتيات، وما يتخيلونه من أوصاف مثالية غير معقولة، مما يستحيل، أو يكاد تحقيقه في الواقع، وذلك بما يقررونه من شروط متبادلة؛ مادية وغيرها، فيبقى كلا الطرفين يَحلُمان ويُحلّقان في عالم المثاليات، مما يتعذر معه الزواج.. كل هذا بسبب البعد عن منهج الإسلام، وطريقه الواضح في هذا الموضوع، والذي هو الفطرية والوسطية، واليسر والتوكل على الله تعالى، بعد القيام بالأسباب المشروعة المعقولة، وعلى رأسها؛ الحرص على صلاح الدين واستقامة الخلق عند الطرفيْن، كما في هداية سورة النور: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور: 32]

---

1 الحاكم في المستدرك، 2/ 127، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، حديث رقم: 2742. والبيهقي في السنن الكبرى، 7/ 379، بَابُ النِّكَاحِ يَنْعَقِدُ بِغَيْرِ مَهْرٍ قَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ} حديث رقم: 14332، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته: 3279. وكذا في إرواء الغليل، 6/ 345.

2 رواه الإمام أحمد في مسند عمر رضي الله عنه بأرقام: 285 و287 و340، وقال محققه الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

3 رواه الترميذي في سننه، في (النكاح)، باب (ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه)، وقال: هذا حديث حسن غريب، 3 / 387، برقم: 1085، والحديث بشواهده حسن لغيره.

خامساً: واقع الأمة ودُعاتها من تفعيل طريقة القرآن في التربية والدعوة، بضرب الأمثال لِهُدى الإيمان، وضلال الكفر في قلوب العباد، تقريباً للمعقول بالمحسوس.

لقد جمع الله علوم (سورة النور) كاملة من دون نقصان في هذا المثل العظيم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: 35] الذي هو واسطة عقد السورة، وهو من أعظم أمثلة القرآن، لمن فهمه وأدرك غوره، وذاك أن الطهر والفضيلة والعفة: (نور)، وأن أضدادها من الصفات: (ظلمة)، فجاء هذا المثل الرباني ليبين بجلاء لا لبس معه، عن ماهية وحقيقة هذا النور، وصفاته، واستمداده، ووسائل تقويته وتنقيته، وطرق حمايته، واستدامة جذوته، وغير ذلك، وهذا من مقاصد المثل القرآني، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: 43](1)

إن المتأمل في واقع الأمة الإسلامية اليوم، وما يموج به هذا الواقع من أنواع الفتن؛ فتن الشبهات، والشهوات، يرى أنها أحوج ما تكون إلى استيعاب هذا المثل القرآني العظيم، والنظر إلى أبعاده على المستوى النفسي، والروحي، وكذا إلى مقاصده وأسراره، في النفس والحياة، وذلك لكي تقيس حال نفسها وقلبها من نور الإيمان، وهُدَى القرآن، أين هي منه، وما نصيبها من هذا النور الرباني، والهدي القرآني، الذي جعله الله لأهله وعباده، ممن وصفهم بقوله بعد هذا المثل مباشرة: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: 36، 37]

فأين هي الأمة في واقعنا اليوم –أفراداً وجماعات– من هذه الخصال والصفات، التي أوردها الله تعالى في هذا الآيات؟! تلك هي الحقيقة القرآنية الربانية التي يجب أن يتأملها المسلم اليوم، وهو يجول بنظراته إلى واقع أمته.

هذا وإن ممَّنْ هو في حاجة إلى استحضار هذا المثل القرآني في واقعنا كذلك، الدعاة إلى الله تعالى، وذلك لكي يتخذوه وسيلة لبيان هدايات القرآن، ونور الإيمان في قلوب العباد، وأثر ذلك على أحوالهم وأعمالهم، وذلك لما للمثل من أثر وتأثير في بيان الحقائق المعقولة، في صور حسية مشهودة، وهي طريقة قرآنية، وهداية من هداياته الكلية كما بينتْها سورة النور، ذلك أنّ ذكر هذا المثل القرآني في هذا السياق ينطوي على هدف تربويّ عظيم، غرضه الترغيب في الإيمان بالله تعالى، والاستهداء بكتابه، والإقتباس من نوره، والتنفير من الكفر وأهله، والتخويف من ضلالات

1 ينظر كتاب: أسوار العفاف، 44، عصام بن صالح العُوَيّد

الكفر وظلماته وعواقبه، وتقريب المعنى لذهن المخاطب والسامع، من خلال رسم صورة لمعالم الإيمان وأعمال المؤمنين، ورسم صورة أخرى للكفر وأعمال الكافرين، وتراكم الظلمات فيها والتخبّط والضلال ثمّ توضيح جزاء المؤمنين والكافرين.([1])

سادساً: واقع المجتمع المسلم –أفراداً وجماعات– من التذكر بآيات الله وآثار قدرته في الكون، والتذكير بذلك لإقامة البرهان على وجوده، ودعوة الناس إلى توحيده وعبادته.

إن التفكر في آيات الله تعالى الكونية، لمن أعظم السبل لزيادة الإيمان، ومعرفة الله تعالى حق معرفته، ولذلك كان أخطر عقاب يمكن أن يصاب به العبد جزاءً لتكبره وإعراضه، هو صرفه عن آيات الله تعالى، والتفكر فيها، كما قال تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا ١٤٦ ﴾ [الأعراف: 146] ذلك أن التفكر في آيات الله من أسباب تعظيم أمره، والقيام بحقوقه سبحانه، والخوف من عصيانه جلّ جلاله.

وهذا هو السر في إيراد الله تعالى لآياته الكونية في سياق الحديث عن الأحكام الشرعية، والآداب الإسلامية في سورة النور، لما لذلك من أثر في القيام بهذه الأحكام والاستجابة لهذه الآداب: ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧... إلى قوله تعالى: أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣ ﴾ [النور:37- 43]

وإن الناظر في واقع الأمة اليوم، يرى أن عبادة التفكر بقدر ما توفرت أسبابها ودواعيها، وذلك بسبب ما يتجدد من آيات هذا الكون العظيم، في سياق تطور الاكتشافات العلمية؛ بقدر ما هي ضعيفة عند المسلمين في واقع حياتهم التعبدية والتربوية، لأسباب كثيرة، منها: ضعف الإيمان، ومنها قلة تدبر القرآن، الذي يدعو إلى التفكر في الأكوان، ومنها الافتتان بالعلم مع الغفلة عن العليم الحكيم سبحانه، ومنها كذلك التفريق، أو الفصل بين آياته الله الكونية، وآياته الشرعية، والنظر إليهما منفصلان، مع العلم أن الله تعالى يمزج بينهما ويوردهما في سياق واحد في كثير من الموضوعات القرآنية، ومنها ما ورد هنا في سورة النور. وذلك تنبيهاً إلى أن كلاً من آياته الكونية وآياته الشرعية، سبيل هداية إلى توحيده وعبادته وطاعته سبحانه، فالأولى تدل على عَظَمَته، والثانية تُبيّن طريق تَعْظِيمه وعبادته.

1 ينظر الأمثال في القرآن، 198. لابن القيم، تحقيق: سعيد الخطيب.

والواقع العملي للأمة ينم عن تقصير كبير -إلا من رحم الله- فيما يخص هذا الأمر، أي التدبر في الآيات القرآنية، والتفكر في الآيات الكونية، الذيْن يثمران الهدايات الإيمانية.

فالتدبر في الآيات القرآنية مع التفكر في الآيات الكونية، يثمران التذكر الإيماني الذي هو باب الدخول إلى عالم الهدايات القرآنية، والاهتداء بأسرارها وأنوارها. فتعظيم الله تعالى شرط للانتفاع بالهدايات القرآنية العملية، كما قال عبد الله ابْنَ عُمَرَ، رضي الله عنهما: (لَقَدْ عشْنَا بُرْهَةً من دَهْرِنَا وَإِنَّ أَحْدَثَنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآن، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا، كَمَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمُ الْقُرْآنَ)، ثُمَّ قَالَ: (ولَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِه إِلَى خَاتِمَتِه مَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ)([1]) وهذا واقع أكثر الأمة اليوم إلا من رحم الله تعالى، بسبب البعد عن منهج الله وهدايات آياته في هذا السياق، كما عرضته سورة النور.

سابعاً: واقع الأمة من تحذير آيات سورة النور من خصال المنافقين وصفاتهم ومواقفهم، وعدم الانتفاع بآيات الله تعالى.

إن من مقتضيات الإيمان الصحيح؛ الصدق في المواقف، والثبات عند الشدائد، وتقديم أمر الله تعالى، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، على كل أمر مهما كان، والتحاكم إلى شريعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو شأن المؤمن حقاً وصدقاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ ﴿٥١﴾﴾ [النور: 50]

بخلاف المنافقين، أو من كانت فيه خصلة من خصالهم، فإنك تجده دائماً متذبذباً في مواقفه، خائفاً على مصالحه، مكثراً من الحلف والاعتذار عند كل شدة وملمّة، مقدِّماً شريعة البشر وقوانينهم، على شريعة الله ومنهجه..، وهذا ما كشفتْه سورة النور من خلال أنوار آياتها البينات، وهو من مقاصدها العامة وهداياتها الكلية.

والناظر في أحوال الأمة اليوم يؤسفه أن يرى فئة عريضة منها قد وقعت في كثير من صفات أهل النفاق بقصد أو دونه، مما حذرها منه الإسلام، من مثل: الحَلْف في المواعيد، وكثرة الحلف الكاذبة، وكذا الكذب في الحديث، والخيانة في الأمانة، والفجور في الخصومة، والاعتذار عن قول الحق والتحقق به عند الشدة والامتحان بأعذار واهية، والتسلل بالاختفاء عند الفزع، والظهور والحضور عند الطمع.. وغير ذلك من الصفات التي لا تليق بالمؤمن حقاً وصدقاً.

1 الحاكم في المستدرك، 91/1، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَا أَعْرِفُ لَهُ عِلَّةً. حديث رقم: 101

وكذلك في قضية التعامل مع أحكام الشريعة الإسلامية، فقد هجروا أحكامها، إلا في استثناءات خاصة، فهم يتنادون بها إن وافقت أهواءهم، وإن لم توافق أهواءهم أبدوا ما زين لهم من قوانين الغرب التي لم تقم على أساس العدالة المجردة، بل قامت على أساس أعراف الحكام، وما يشتهى الناس، ولذا عطلت الحدود، وأضاعت حقوق الناس.

ولقد ارتضى الكثير منهم –للأسف– القوانين الأوروبية، بديلا لأحكام القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وهداياهما في الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأخلاقية، وغيرها، (حاسبين أن ما عند النصارى هو الخير، وما عند غيرهم لا خير فيه، حتى إنه لو دعا داع إلى أحكام الله ورسوله في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه سلم، رموه بأنه رجعي، وأنه يريد أن يعود بالأمة إلى الوراء، ويقولون تقدم الأمة أمامها لا وراءها)([1])

ثامناً: واقع الأسر المسلمة من الاهتداء بهدايات الاستئذان داخل البيوت، مع أهلها، وذوي المخالطة منها، حفاظاً على النظام الرباني للأسرة داخل البيت.

إن من عظمة الإسلام، وجمال أحكامه، وكمال هداياته؛ حرصه على تنظيم حياة المؤمنين، العامة، والخاصة، فلم يدع من أمور العباد شيئاً مما فيه صلاحهم، وسعادتهم، إلا وشمله بتوجيهه وآدابه، وأحاطه بكمال شريعته وجميل أحكامه.

وإن من أجمل ما هدت إليه سورة النور في هذا الجانب بيانها لألوان من الأدب السامى، الذى يجعل الكبار والصغار يعيشون عيشة فاضلة، عامرة بالطهر والعفاف والحياء، والنقاء من كل ما يجرح الشعور، ومن كل تصور يتنافى مع الخلق الكريم([2]) وذلك من خلال الأمر بتعليم آداب الاستئذان داخل الأسرة المسلمة، فللأسرة نظام خاص بها، ولذلك خصها القرآن الكريم في هذه السورة بتشريع خاص بها كذلك، بعد ذكر التشريع العام في هذا المجال، فخاطب الله أولياء الأطفال ليعلموهم هذه الأُصول والآداب الشرعية، ويدربوهم على تطبيقها عملياً، حتى يتربوا عليها منذ الصغر، وذلك بالاستئذان عليهم في هذه الأوقات الثلاثة:

الأول: من قَبْل صلاة الفجر، وذلك لأن الآباء يكونون نياماً في فرشهم في ذلك الوقت، عراة في مضاجعهم وقد ينشكف النائم، ويبدو منه لا يرضى الشرع أن يراه منه غيره.

---

1 ينظر زهرة التفاسير، 10/ 5212 –5214

2 ينظر التفسير الوسيط، سيد طنطاوي.1468/6

الثاني: حين يضعون ثيابهم من الظهيرة، وسميت بذلك لأن النهار يظهر فيها، إذا علا واشتد حره([1]) وهي وقت القيلولة، والإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ليستريح من أعباء الحياة.

الثالث: من بعد صلاة العشاء، لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم، والأطفال، أن لا يدخلوا على أهل البيتوت في هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على حال لايرضى أن يراه عليها أحد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴾ [النور: 58] فسمى هذه الأوقات عورات، لا يجوز للأطفال وأتباع العائلة أن يطلعوا عليها، لما يمكن أن تؤدي إليه من آثار سلبية تؤثر على نفوسهم.

وإن الناظر في واقع الأمة يراها قد أهملت هذا الجانب -إلا من رحم الله تعالى- وضعف عندها جانب تعليم الأطفال هذه الآداب الرفيعة في البيوت والحرص عليها، بل هناك مَن لا يرى حرجاً مع أولاده في أنْ يدخلوا عليه متى شاءوا، وفي أي مكان كان، وعلى أية حالة كان، بدعوى أنهم صغار! مع أن الله تعالى علّل الأمر باستئذان الأطفال على والديهم في هذه الأوقات الثلاثة داخل البيت، بقوله: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴾ أي أن هذه الأوقات هي مظنة انكشاف العورات والاطلاع عليها من قِبل الأطفال، وفي ذلك ما فيه من أثر سيء عليهم وعلى نفوسهم حينما يكبرون، ذلك أن الطفل يرتسم في نفسه ما يراه من هذه الأمور وهو صغير، مع ما في ذلك من تحريم النظر إلى العورة عموماً.

فإذا بلغ هؤلاء الأطفال الصغار سن الحُلُم والتكليف، ﴿ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ٥٩ ﴾ [النور: 59] إذ حكمهم آنذاك كحكم الكبار في آداب الاستئذان، وذلك حتى ينشأوا وقد تعودوا على الستر والحياء، وعدم رؤية ما يُستحيى منه، ويحرك غرائزهم، (فيصبح هذا السلوك القويم ديدنهم في شبابهم وعمرهم كله، فالعين إذا تعودت على الستر والفضيلة والابتعاد عن رؤية ما يخدش الحياء والعفة؛ لن ترضى أن ترى خبيثاً بعد ذلك؛ بل وتنفر منه حيثما رأته)([2])

تاسعاً: واقع الأمة من معرفة هداية قاعدة: رفع الحرج عن ذوي الأعذار في كل ما يشق عليهم رحمة بهم، وتيسيراً عليهم.

إن التيسير ورفع الحرج سمة من سمات هذه الشريعة، وهو خصيصة من خصائص الإسلام على العموم، وهداية من هدايات القرآن، فما بالك إذا كان الأمر يتعلق بذوي الأعذار، أو بمن نزلت به

---

1 ينظر المحرر الوجيز، 4/ 194

2 ينظر: أسوار العفاف: قبس من سورة النور، 22، عصام بن صالح العويِّد.

الضرورة، أو وقع في الاضطرار، فذلك أدعى لاستحضار هذه الخصيصة القرآنية والهداية الربانية، ولذلك كان من مقاصد سورة النور وهداياتها الكلية: بيان هذه السمة وإبرازها في سياق الحديث عن ذي الأعذار، أو ما يدعو إلى الاضطرار في أوقات محددة، وأحوال خاصة.

لكن الناظر إلى أحوال الناس يراهم تجاه هذه الهداية الكلية، والخصيصة القرآنية بين إفراط وتفريط؛ ذلك أن حالة كثير من المسلمين في هذا الجانب -جانب التيسير ورفع الحرج- تتأرجح بين حالين: حال المبالغة في طلب التيسير ورفع الحرج والبحث عن الرخص وتَصَيّدها من خلال الاستفتاء، والبحث داخل المذاهب واستثناءاتها، وغير ذلك...، وحال التشدد والتزام العزائم في جميع الأحوال والظروف، بدعوى الحرص على التزام أحكام الإسلام، وتطبيق عزائمه كما هي، طلباً للمثوبة والأجر عند المشقة (كذا!)

فهناك إذن طائفة أفْرطت في قضية استعمال التيسير ورفع الحرج، حتى كادت أن تحوّل الشريعة إلى مجموعة من الرخص في كل ما تَقْدِم عليه من أمور دينها ودنياها.

وطائفة أخرى من الناس فرّطت في استعمال هذه الهداية القرآنية، والخصيصة الربانية، فحولت الشريعة كلها إلى عزائم من الأمور، وشددت على نفسها، حتى في الحالات الاستثنائية والضرورية.

والوسطية إنما هي أخذ كل أمر بحسبه، عزيمة كانت أو رخصة، فلا تؤخذ هذه محل تلك، ولا العكس، فشريعة الله تعالى إنما جاءت للاستهداء بهديها عند كل مناط، تحقيقاً لمقاصدها التي لا يجور أن تتعارض مع مقاصد المكلف، وهذا ما تهدي إليه آيات سورة النور في هذا الجانب.

عاشراً: واقع الأمة من توقير الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعظيم مقامه والاهتداء بسنته، والتحذير من مخالفته أمراً ونهياً.

إن تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعظيم أمره، شرط عظيم من شروط الإيمان، وفرض من فرائض الإسلام؛ ومن تعظيمه: محبته وتوقيره، والاستجابة لأمره، وتعظيم مجلسه، والتأدب معه قولاً وفعلاً، والحذر من مخالفته، أو الاختلاف في أمره، لما يُخشى على ذلك من نزول الفتنة في الدنيا، أو العذاب الأليم في الآخرة. وهذا من أعظم مقاصد سورة النور، ومن أجلّ هداياتها الكلية.

وإن مما يؤسف له أن الأمة الإسلامية اليوم قد وقعت في تقصير عظيم، في هذا الجانب، أفراداً وجماعات، إلا من رحم الله تعالى، ومن مظاهر ذلك:

التقدم بين يديه صلى الله عليه وسلم في الأمر والنهي، مع أن الله تعالى نهانا عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ١ ﴾ [الحجرات: 1]

قال الإمام القرطبي: (وَمَعْنَاهُمَا ظَاهِرٌ، أَيْ لاَ تُقَدِّمُوا قَوْلاً وَلاَ فِعْلاً بَيْنَ يَدَيِ اللَّه وَقَوْلِ رَسُولِه وَفِعْلِه فِيمَا سَبِيلُهُ أَنْ تَأْخُذُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا))([1]) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ لَا تَقُولُوا خِلاَفَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.([2])

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: (هذه آداب، أدّب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول صلى الله عليه وسلم من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام)([3])

ومنها وجود الحَرَج عند حُكْمه صلى الله عليه وسلم، وعدم التسليم له، إذا كان مما يتعارض مع هوى النفس ومصالحها الذاتية، وقد حذر الله من ذلك، ونفى الإيمان عن صاحبه مقسماً على ذلك، فقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥ ﴾ [النساء: 65]

ومنها عدم الأدب معه صلى الله عليه وسلم، أثناء سماع كلامه ودراسة حديثه، وذلك برفع الصوت عليه، وعدم احترامه، أو مناقشته بالاحتمالات الضعيفة من أقوال البشر، والافتراضات والاعتراضات البعيدة، وقد نهى الله تعالى عن كل ذلك فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ ﴾ [الحجرات: 2]

قال ابن العربي رحمه الله: (حُرْمَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَيِّتًا كَحُرْمَتِه حَيًّا، وَكَلامُهُ الْمَأْثُورُ بَعْدَ مَوْتِه فِي الرِّفْعَةِ، مِثْلُ كَلَامِه الْمَسْمُوعِ من لَفْظِه؛ فَإِذَا قُرِئَ كَلَامُهُ وَجَبَ عَلَى كُلِّ حَاضِرٍ أَلَّا يَرْفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ، وَلَا يُعْرِضَ عَنْهُ، كَمَا كَانَ يَلْزَمُهُ ذَلِكَ فِي مَجْلِسِه عِنْدَ تَلَفُّظِه به، وَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى دَوَامِ الْحُرْمَةِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُرُورِ الْأَزْمِنَةِ بِقَوْلِه سبحانه وتَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ٢٠٤ ﴾ [الأعراف: 204] وَكَلَامُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الْوَحْيِ وَلَهُ من الْحُرْمَةِ مِثْلُ مَا لِلْقُرْآنِ إلاَّ مَعَانِي مُسْتَثْنَاةٌ، بَيَانُهَا فِي كُتُبِ الْفِقْهِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ)([4])

---

1 الجامع لأحكام القرآن، 16/ 300

2 تفسير القرآن العظيم، 364/7

3 ينظر المرجع نفسه، 7/ 364

4 أحكام القرآن، 4/ 146

وعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثَابتَ بْنَ قَيْسٍ فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنَكّساً رأْسَه، فقال له: ما شأنُك؟ فقال: شرٌّ كان، يَرْفَعُ صَوْتَه فوق صَوْتِ النبي صلى الله عليه وسلم فقد حبط عَمَلُهُ وهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال: كذا وكذا. فقال موسى([1]): فرجع إليه المرّة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: ((اذْهَبْ إليه فَقُل له إنّك لستَ من أهل النار ولكنك من أهل الجنة))([2])

ومنها ذكر اسمه مجرداً دون التأدب معه بذكر وصفه النبوي، مع أن الله عز وجل أول من تأدب معه في هذا الجانب، فلم يخاطبه إلا بوصف النبوة والرسالة. كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة: 40] وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب:53] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب:59]

ومنها البخل في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، عند ذكر اسمه، وقد أوجب الله الصلاة عليه، فبدأ سبحانه بنفسه، وثنّى بملائكته، ثم أمر المؤمنين بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: 56] وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((البَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ))([3])

ومنها تقديم محبة الأهل والولد على محبته عليه الصلاة والسلام عند التعارض، مع أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))([4])

ومنها الاستهانة ببعض سننه والتنقيص منها وعدم الاهتمام بها، بدعوى أنها من سنن العادات، كطريقة أكله، وشربه، ونومه، واستيقاظه ... وغير ذلك.

---

1 هو ابن أنس، أحد رجال سند الحديث.

2 رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة الحجرات، حديث رقم: 4846

3 رواه الترمذي، أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديث رقم: 3546 وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح غريب، وصححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل (5).

4 رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، كتاب الإيمان، بَابٌ حُبُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الإِيمَانِ، حديث رقم:15

إلى غير ذلك من مظاهر التقصير والتفريط في تعظيم مقام النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره، وتعظيم سنته، والتحذير من مخالفته أمراً ونهياً، مما نرى كثيراً منه في واقع الأمة وحياتها.

وإن توقير الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعظيم مقامه والاهتداء بسنته، والتحذير من مخالفته أمراً ونهياً، هو مقصد من مقاصد سورة النور، ولذلك كان من هداياتها الكلية: الأمر بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيم مجلسه، والاستجابة لدعوته، والتحذير من مخالفة أمره ونهيه؛ وذلك إعلاناً لمقامه وشأنه عليه الصلاة والسلام، ومنزلته عند الله تعالى.

المبحث الثاني

سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة

إن سبل تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة قصد التحقّق بها، والتخلق بآثارها وأنوارها عملياً، هو الغاية من دراسة القرآن الكريم وتدارس آياته، وتدبرها، وتفسيرها، وذلك بما تمثله هذه الهدايات من (الهدى المنهاجي) العملي (من أجل إبصار لآيات الطريق)، كما قال تعالى عن هُدَى القرآن ووظيفته: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ ٥٢﴾ [الشورى: 52]

ولا سبيل لتحقيق هدايات القرآن الكريم في واقع الأمة؛ إلا باتباع ما دعا إلى إليه القرآن نفسه في هذا السياق، ذلك أن القرآن الكريم كما دعا إلى الاهتداء بهديه، فقد بيّن كذلك سُبُل هذا الاهتداء وطريقه التي وجب على طالب الهداية الربانية أن يسلكها.

وإن أعظم هذه السبل، بل هي أصلها وأساسها، ابتداء، وانتهاء، هي: مجاهدة النفس وتربيتها، بآيات القرآن الكريم، آية، آية، وحكمة، حكمة، تخلية لها من دسائسها، وتزكية لها بهداياتها وتقواها، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69]

فما أحوج الأمة إلى سلوك هذه السبل، سبل تحقيق الهدايات القرآنية في واقعها، وخاصة في عصرنا هذا، الذي كثرت فيه الفتن والانحرافات -إلا من رحم الله تعالى- بسبب البعد عن هدايات القرآن الكريم.

وإن سورة النور من السور القرآنية التي اختصها الله تعالى بهدايات نورانية ربانية: إيمانية، وتربوية، وأُسرية، واجتماعية.. بحيث لو تحققت بها الأمة؛ أفراداً وجماعات لخرجت -بفضل الله تعالى- مما تتخبط فيه في هذا الجانب.

ومن هنا كان لا بد من البحث عن سبل تحقيق هدايات هذه السورة في واقع الأمة، وسأعمل في هذا المبحث على ذكر بعضها وبيانه بإجمال واختصار في سياق هدايات هذه السورة؛ ومن ذلك:

أولا: الإيمان بالله وتعظيمه:

الإيمان بالله تعالى وتعظيمه، هو أصل الاهتداء بهدايات القرآن، في جميع جوانبها وشتى مجالاتها، ولذلك افتتح الله سبحانه هذه السورة بقوله: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ

تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ [النور:1] تنبيهاً على أن الإيمان بالله الْمُنَزِّل لهذه السورة خصوصاً، والقرآن عموماً، وتعظيمه، باب عظيم لمعرفة حقيقة هذا القرآن وتلقي هداياته، وهي كونه كلام الله تعالى المَنَزَّل من عنده، وكفى بها حقيقة وجودية كبرى، تملأ القلب رغباً ورهباً، فلا يشعر بعظمة القرآن الكريم وجلاله وجماله، وببحر عطائه وأنوار هداياته، إلا من قرأه من هذا الباب، أيْ من باب بُعْدِه الإيماني الغيبي، المَنَزَّل من عند الله تبارك وتعالى، وهذا من أعظم السبل في تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة، وقد قال الله تعالى –عن عطاء القرآن المطلق– في مجال الهدايات والمعاني: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: 109]

إن القرآن عظيم، لأنه كلام الله العظيم، وعظمة القرآن الكريم من عظمة الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: 21] هكذا ﴿ مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ومع ذلك فقد جعل – سبحانه– كلامَه مُدْرَكاً لعقول البشر المحدودة، وإلا هو فوق طاقتنا، ولكنه عز وجل جعل كلامه مفهوماً ميسراً: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: 40] ولولا أن الله جعله مُيسراً ما استطعنا تلاوته، ولا حفظه، ولا فهمه؛ لأنه فوق عقولنا، ولأنه نور من نور، وأنَّى لمخلوق ضعيف كالإنسان أنْ يتحمل أنوار الله تعالى التي اندكَّ لها لها الجبلُ العظيم، لما تجلى الله بنوره على هذا الجبل: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143] لكن الله سبحانه وتعالى برحمته سهَّله وقرَّبه لنا، ثم جعله بلغة العرب وهي أكمل لغات العالم، ولقد ورد عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله)(1)

فبقدر إيمانك بالله وتعظيمك له سبحانه، يعظم القرآن الكريم في صدرك، فتنفتح لك أنواره، وتتيسر لك سبل هداياته. وعلى هذا يفهم قول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها، زواجرها ونواهيها، فيقف فيما ينبغي أن يقف عنده)(2) أي يؤتى الإيمان بعظمة المَنَزِّل لهذا القرآن سبحانه، فإذا ما أُنزِلت آياته، كان سبيل تحقيق هداياتها هو: تعظيمها بتلقّي أحكامها وحِكَمِها، وشعائرها وحدودها، للتحقق بها في مجالات الحياة، عقيدة وإيماناً، وعبادة وأخلاقاً، وتربية وحِكْمة.

---

1 تفسير ابن كثير، 4/ 337

2 رواه الحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان، 91/1، حديث رقم: 101، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

ثانياً: تدارس سورة النور وتعلمها لما اشتملت عليه من أحكام عظيمة، وآداب ربانية كريمة، وهدايات إيمانية جليلة:

إذا كان تعلّم القرآن وتدارس آياته وتدبرها بشكل عام؛ هو من أعظم السبل في التحقق بهداياته، والتخلق بربانيته، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾[آل عمران: 79] فإن تعلّم هذه السورة؛ سورة النور، وتدارسها، وتدبر آياتها وهدايتها، هو من أجلّ ما يعين على التحقق بهداياتها وأنوارها الخاصة، ولقد دلّ على ذلك مطلعها الفريد، وافتتاحها العجيب حقاً، والذي يُشير إلى فضلها، ومنزلتها، وما اشتملت عليه من أسرار وهدايات، وآيات بيِّنات، وأنوار هاديات: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١ ﴾ [النور: 1]

قال سيّد قطب رحمه الله تعالى: (هذا مطلع فريد في القرآن كلّه، الجديد فيه كلمة: ﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ والمقصود بها -فيما نعلم- توكيد الأخذ بكلّ ما في السورة على درجة سواء، ففرْضيّة الآداب والأخلاق فيها كفرْضيّة الحدود والعقوبات)(1)

ولقد وردت عدة أحاديث وآثار تدعو إلى الاهتمام بهذه السورة، وتعلمها، وتعلم أحْكامِها وحِكَمها وآدابها وهداياتها، وهذه الأحاديث والآثار تتفاوت وتتباين في صحتها، وتدل بمجموعها على مدى اهتمام الصحابة والسلف الصالح بهذه السورة وتدبرها ودراستها، لتحقيق هداياتها، ومن هذه الآحاديث والآثار(2):

ما رواه الحاكم في مستدركه عن المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه أنّه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (تعلموا سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة المائدة، وسورة الحج، وسورة النور، فإنّ فيهنّ الفرائض)(3)

---

1 في ظلال القرآن، 2487/18

2 ذركت بعض هذه الأحاديث والآثار في مبحث: فضائل السورة.

3 أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، 429/2،كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور، حديث رقم: 3493وقال: حديث صحيح. وقد أقرّه الذهبي، (ينظر الذهبي، تلخيص المستدرك.)

أخرج سعيد بن منصور في السنن أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (تعلّموا سورة براءة، وعلّموا نساءكم سورة النور)(1)

أخرج عبد الرزاق الصنعاني في المصنّف أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يكتب إلى الآفاق: (لا تَدْخُلنّ امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ الحَمّامَ إلاّ مَنْ سَقم، وَعَلّمُوْا نِسَاءَكُم سُورَةَ النُّور)(2)

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد –مرسلاً– أنّ رسول االله صلى الله عليه وسلم قال: ((عَلّمُوا رِجَالَكُمْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ، وَعَلّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّور))(3)

وأورد السيوطي في الدر المنثور: أنّ حَارِثَةَ بْنَ مُضَرِّب (4) قال: (كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن تعلّموا سُورَةَ النِّسَاءِ، والأَحْزَابِ، والنُّور)(5)

ثم ما ورد من خُطبة حبر الأمة وبحرها ابن عباس رضي الله عنهما في موسم الحج بهذه السورة، حيث جعل يقرأها ويفسرها على الحجيج آية، آية، فعن شقيق قال: (ثم خطب ابن عباس وهو على الموسم، فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسّر، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت)(6)

---

1 السنن، سعيد بن منصور، (ت227هـ) تحقيق د. سعد آل حميد، 5230/كتاب التفسير، رقم: 1003. وإسناده صحيح؛ فقد أخرجه سعيد بن منصور عن: هشيم وفضيل بن عياض وخالد بن عبد االله عن حصين بن عبد الرحمن عن أبي عطية الهمداني. وكلّ هؤلاء قد وثّقهم ابن حجر، أنظر: (تقريب التهذيب) ص: 658، 170، 189، 448-241،574.

2 المصنّف، عبد الرزاق الصنعاني، (ت211/هـ) :تحقيق: مصطفى الأعظمي، 1403هـ ،295/1 باب الحمام للنساء، رقم: 1133وإسناده حسن. (ابن حجر تقريب التهذيب)

3 شعب الإيمان، البيهقي، 469/2 فصل فضائل السور والآيات، ذكر السبع الطوال، حديث رقم: 2428 . وهو ضعيف ففي إسناده خصيف بن عبد الرحمن الجزري أبو عون، ضعّفه أحمد، وذكره ابن حبان في المجروحين، والذهبي في الضعفاء وقال: تركه جماعة، واحتجّ به جماعة آخرون، وقال ابن حجر: صدوق سيء الحفظ. ينظر المجروحين، لابن حبان. 287/1 وتقريب التهذيب، لابن حجر ص،193. قلت: ويشهد لصحة معناه ما ورد في الأحاديث السابقة.

4 حارثة بن مضرِّب العبدي الكوفي، تابعي ثقة. (ينظر ترجمته: الإصابة، لابن حجر (162/2.)

5 السيوطي: الدر المنثور، 124/6.

6 المستدرك، الحاكم 618/3 معرفة الصحابة، باب: ذكر عبد االله بن عباس، رقم: 6290 والحديث صححه الحاكم وأقرّه الذهبي. رقم: 6292 عن أبي وائل قال: (حججت أنا وصاحب لي وابن عباس على الحجّ، فجعل يقرأ سورة النور ويفسّرها، فقال صاحبي ياسبحان االله ماذا يخرج من رأس هذا الرجل لو سمعت هذا الترك لأسلمت) قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح. (تلخيص المستدرك)

فهذه الآحاديث والآثار تدل بمجموعها على أن لهذه السورة الكريمة منزلة عظيمة، وذلك لما احتوت عليه من أسرار ربانية، وأنوار إلهية، وهدايات إيمانية، ترشد الفرد والأسرة والمجتمع إلى سعادة الدنيا والآخرة، وتحصن المجتمع المسلم من كل نوازع الشر والفساد؛ من وسائس النفس والشيطان والهوى، إن هو امتثل لأحكامها وتحقق بآدابها، واهتدى بهداياتها.

ولذلك فإن في تلاوة هذه السورة، وتدبرها، ودراستها، أنس وشعور بالطمأنينة، لأن المؤمن يرتاح للعفة والطهر، ويشمئز من الفحش وسوء الظن والاتهام.([1])

وهذا كله مما يعين على تحقيق هدايات هذه السورة في واقع الأمة، كما تحققت عند الصحابة والسلف الصالح رضي الله عنهم، وهم يتعاملون معها تلاوة وتدبراً ومدراسة.

ثالثاً: تحقيق منزلة التوبة والإنابة إلى الله تعالى:

ذلك أن الله تعالى لَمَّا أمر عباده المؤمنين في (**سورة النور**) بمجموعة من الأحكام الشرعية، والآداب الإسلامية، ختم الآية بالأمر بالتوبة والإنابة، وعلق الفلاح في الدنيا والآخرة بالتزام هذه التوبة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: 31]

ذلك (أن أوامر الله تعالى ونواهيه في كل باب، لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها. وإن ضبط نفسه واجتهد، ولا يخلو من تقصير يقع منه، فلذلك وصّى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، وبتأميل الفلاح، إذا تابوا واستغفروا)([2]) وإن التحقق بمنزلة التوبة هو السبيل للتحقق بهدايات القرآن عموماً، وهدايات هذه السورة على وجه الخصوص، فكم يحرم المرء من هدايات القرآن وأنواره بسبب بعده عن منزلة التوبة، وتلبسه بكثرة المعاصي الظاهرة منها والباطنة.

---

1 ينظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الشيخ وهبة الزحيلي، 119/18

2 ينظر الكشاف، 3/ 238

وقد دلت نصوص القرآن الكريم عموماً، وآيات هذه السورة خصوصاً، على أن التوبة والإنابة من أعظم تحقيق أسباب الهداية، ذلك أن من تاب وأناب إلى الله سبحانه فقد هدي إلى الصراط المستقيم، وكان مصيره الفلاح والنجاح، كما مر في آية سورة النور، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد:27] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: 13] فجعل سبحانه الإنابة والتوبة سبيلا لتحقيق الهداية.

وهكذا فإن التوبة إلى الله تعالى، تعتبر من أعظم سبل تحقيق الهدايات القرآنية عموماً، وهدايات آيات سورة النور خصوصاً، وذلك لأن الله أمر بالتوبة فيها للاستعانة بالتزام أحكامها وآدابها، فهي أساس كل خير، ومنبع كل هداية، فمن أراد الهداية وسعى إلى الاهتداء بها، فإن أول الطرق وأقصر السبل إلى تحقيقها هو الرجوع إلى الله تعالى، والإنابة إليه سبحانه.

قال الإمام الزركشي رحمه الله تعالى: (اعلم أنه لا يصلح للناظر فهْمُ معاني الوحي، ولا يظهر له أسرارُه، وفي قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حب الدنيا، أو هو مُصِرٌّ على ذنب، غيرُ متحقق بالإيمان، أو ضعيفُ التحقيق ... فهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض)(1)

رابعاً: تربية الأمة أفراداً وجماعات على الالتزام بالآداب الشرعية التي يجب مراعاتها، ومنها آداب الاستئذان، وآداب التزاور والمخالطة، في صلة المسلمين فيما بينهم:

إن تربية الأمة أفراداً وجماعات على الالتزام بالآداب الشرعية العملية، ومنها آداب الاستئذان والتزاور، لهي سبيل عظيم من سبل تحقيق الهدايات القرآنية، ومنها هدايات آية الاستئذان من سورة النور، ذلك أن منهج التربية الإسلامي يعنى بتربية الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، على احترام الآخرين، ومراعاة حقوقهم وحرماتهم، والاستجابة لأمر الله تعالى في ذلك، والرضى بحكمه، ويعتبر هذا الأمر دليل الإيمان الحقّ، وهو الْمَظْهَرُ الذي يُنبيء عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب، وهو الأدب الواجب مع الله تعالى، حينما يأمر أو ينهى في هدا الجانب، الجانب الاجتماعي للمجتمع المسلم.

وهذا كله سبيل لإصلاح الفرد والمجتمع، ذلك أن التربية على الالتزام بهذه الأحكام الإلهية، والآداب الاجتماعية، لها صلة وثيقة بإصلاح الناس، وإصلاح أحوالهم كلها، وهذا ما قصدت إليه آيات الاستئذان، وهو السبيل العملي لتحقيق هداياتها في واقع الأمة؛ ذلك أن مِنْ حِفْظِ أَمْرِ الله وحرماته، حِفْظَ حُرُمات عباده المؤمنين الخاصة، فحرمة المؤمن عند الله عظيمة، دلَ على ذلك

1 البرهان في علوم القرآن. 2 /197

عموم أدلة الشريعة الإسلامية، وتفاصيلها الجزئية في كل ناحية من نواحي الحياة الإسلامية الخاصة والعامة، وهذا ما أبانت عنه سورة النور من مفتتحها إلى خاتمتها. فكيف يرجو العبد هداية الله وتوفيقه، وقد انتهك حرمات الله وأعراضهم؟

خامساً: ربط الأخلاق الإسلامية والأحكام الشرعية بالإيمان والعقيدة، لتتربَّى الأمة على مراقبة الله تعالى، في السر والعلن.

وهذا السبيل هو الذي يُخرج لنا المؤمن الذي يغض بصره، ويحفظ فرجه، ويحترم غيره، خوفاً من الله تعالى، لأن إيمانه يعلمه مراقبة الله تعالى في كل أحواله. وإن ربط الأحكام الشرعية والآداب الإسلامية بقضية الإيمان والعقيدة، طريقة قرآنية عظيمة، وهي سبيل من سبل تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة، يغفل عنها كثير من الناس للأسف الشديد، ولذلك كانت من أعظم الوسائل والسبل التي استعملتها سورة النور لتحقيق هداياتها في الواقع العملي للأمة، في جميع أحكامها وآدابها.

ولذلك إذا تأملنا هذه الآيات نجد أن الله تعالى لما أراد تحقيق هداياتها في الأمر بغضّ البصر وحفظ الفرج، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب أصحابه وأتباعه بهذا الميثاق، ميثاق الإيمان، ويأمرهم بعد ذلك بهذا الأمر الإلهي: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [االنور: 30] وهي قاعدة مطردة في آيات الآداب والأحكام في هذه السورة الكريمة لمن تأملها وتدبرها، أي ربط الآحكام والآداب بميثاق الإيمان.

ذلك أن من أعظم ما يعين العبد على امتثال أمر الله تعالى، هو تذكيره بذلك الميثاق العظيم الذي يربطه بربه، ألا وهو ميثاق الإيمان: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إذ أن من مقتضيات الإيمان الاستجابة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وإلا فما معنى الإيمان؟!

ثم ذيّل الله تعالى هذا الأمر بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وفيه ترغيب وترهيب، يعني: أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم، فكيف يحيلون أبصارهم، وهو يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور؟! فعليهم إذا عرفوا ذلك، أن يكونوا منه على حَذر(1) وفي التعبير بحرف﴿ إِنَّ ﴾ ثم وصف حالهم بالفعل المضارع: ﴿ يَصْنَعُونَ ﴾ تأكيد بأن الله لا يخفى عليه شيء من أمرهم وأحوالهم، في كل وقت وفي أي مكان، فالفعل المضارع يفيد التجدد زماناً ومكاناً.

1 ينظر البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، (توفي 1224هـ)

وهكذا، فإن ربط الأحكام الشرعية بالإيمان والعقيدة، من أعظم سبل تحقيق مراقبة الله تعالى، والخوف منه، ومن ثم تطبيق هذه الأحكام والقيام بها، وهو ما تفيده آية سورة النور في هداياتها، حينما ربطت الأمر بغض البصر وحفظ الفرج بقضية الإيمان، بل إن كل الفرائض والأحكام والآداب، الواردة في سورة النور ارتبطت بقضية الإيمان والعقيدة، ارتباطاً وثيقاً،-كما سبقت الإشارة- ذلك أن النفس عندما تشعر بمراقبة الله تعالى لها تستقيم على صراطه، وتسعد بطاعته، وتستبشر برضاه ومغفرته، والذي يشعر بمراقبة الله تعالى يحاسب نفسه أوّلاً بأوّل، ويلزم نفسه بما يجب أن تلتزم به من أمر ونهي.

ومن سبل تحقيق هدايات هذه الآية الكريمة كذلك، استحضار ما أعده الله تعالى لمن يغض بصره، ويحفظ فرجه، من الفوز العظيم، والنعيم المقيم في الجنة، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْه وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْه أَضْمَنُ لَهُ الْجَنَّةَ))([1]) وقوله صلى الله عليه وسلم:-عن المرأة- ((إذا صَلّت المرأةُ خَمْسَها، وصامَتْ شهْرَها، وحفِظَتْ فَرْجَها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخُلِي الجَنَّةَ من أيّ الأبواب شِئْتِ))([2])

سادساً: التزام المرأة المسلمة بلباسها الشرعي، دليل حيائها، وطريق استقامتها، وسر اعتزازها، وكل هذا سبيل للتحقق بهدايات ربها في هذا السياق.

إن أول حقيقة قرآنية تُعْرَضُ في سياق الآيات المتعلقة بالنساء، -ومنها آيات سورة النور- هي أن القصد التشريعي من رسم معالم صورة المرأة في القرآن والسنة؛ إنما هو لتكون قناةً أساسيةً لاستمرار التدين في المجتمع! تلك وظيفتها الاجتماعية الكبرى فأعظم بها من وظيفة! ولذلك كانت شخصيتها -نفساً وصورةً- موطن زحام الفلسفات، وتدافع الأيديولوجيات، وتصارع الحضارات! ولكونها كذلك؛ أي قناة التدين الكبرى، جعلها الإسلام رمزاً سيميائياً للعفة والكرامة، وموْرِداً تربوياً للأجيال المؤمنة.([3]) وذلك بما فرضه الله تعالى عليها من جمالية الستر باللباس، والستر بالحياء، الذي هو من المقتضيات الفطرية لأنوثتها، والمتمثل في التستر الجسمي، في قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: 31] والتستر الحركي، في قوله سبحانه: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ ﴾ والتستر الصوتي، في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب: 32]

---

1 رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، حديث رقم:6474 عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

2 أخرجه أحمد في المسند عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، 199/3/ برقم: 1661

3 ينظر سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، 9 - 10الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى

كل ذلك حفاظاً لجمالية الحياء والتخفي عند المرأة، وحفاظاً على فطرتها، وهو ما قصدت إليه هذه الآيات من سورة النور، حينما فصّلت الحديث عن لباس المرأة تفصيلا، وإن هذا التفصيل الدقيق لحجاب المرأة، ووضع شروطه وضوابطه من قِبَل الله تعالى، لهو أكبر محفِّز للمرأة المسلمة على التزامها بهذا الواجب الرباني، وهذا من أعظم سبل تحقيق هدايات هذه الآيات عملياً، وذلك بأن توقن المرأة المسلمة، أن للِباسها هذا شأناً تعبدياً عظيماً عند الله تعالى، (فلقد تولى الله جل جلاله بذاته إنزال حكمه مفصلا من فوق سبع سماوات، وفي ذلك ما فيه من قوة تشريعية، وحجية إلزامية ليس فوقها قوة، وليس بعدها حُجّة.

إن ورود أحكام اللباس مبينة في القرآن العظيم نفسه له أكثر من معنى! إنه حكم إلهي مباشر صدر من أعلى سلطة في هذا الوجود: الله رب العالمين، خالق الأكوان أجمعين، القاهر فوق عباده.

وإن من القواعد القرآنية الكلية، أن للتشريع مراتب، فما كان من أصول الدين الاعتقادية أو العملية إنما يكون أصل تشريعه في القرآن الكريم، ولا يترك منه للسنة النبوية إلا ما كان من قبيل البيان والتفصيل)([1]) فما بالك إذا كان هذا البيان والتفصيل المتعلق بلباس المرأة موجوداً في القرآن الكريم نفسه، ومؤكد في السنة النبوية قولا وفعلاً.

هذا مع ما جعله الله لهذا اللباس من مقاصد أخلاقية عظيمة؛ روحية ونفسية، واجتماعية، والتي أشار إليها قول الله تعالى-في قصة اللباس والحياء-: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ ﴾[الأعراف: 26]

إن استحضار هذه المعاني الربانية، والمقاصد التشريعية للباس عند المرأة، تفصيلا لأحكامه وضوابطه، وذكراً لمقاصده وأخلاقه، من قِبَل الله تعالى، لمن أعظم سبل تحقيق هداياته في آيات الحجاب من هذا السورة الكريمة. فكيف يأتي بعد كل هذا التفصيل الإلهي، من يقول لنا بأن الحجاب في الإسلام ليس فرضاً؟

سابعاً: من سبل تحقيق هدايات هذه السورة في واقع الأمة؛ العمل على تيسير أسباب الزواج، باستحضار محاسنه ومقاصده الشرعية، وآثاره الإيجابية الواقعية:

إن من أعظم سبل تحقيق هذه الهداية الكلية العظيمة، من هدايات سورة النور في واقع الأمة، هو النظر إلى الزواج على أنه شريعة إسلامية، وشعيرة إلهية، وطريقة نبوية، وسنة كونية، وهو في

1 ينظر سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، 63 (بتصرف)

التصور الإسلامي ومنظوره؛ بمثابة مملكة إيمانية، من خلالها تتنزل السكينة النفسية، وتتحقق المودة القلبية، وتَنْزِل الرحمة الإلهية، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: 21]

وهذه المحاسن والمقاصد التي ذكرها الله للزواج، هي نفسها التي يقوم بها وعليها المجتمع المسلم، وهي المقاصد العظمى، والغايات الأسمى للعبادة التي من أجلها خلق الله العباد، فالسكن النفسي، والاطمئنان القلبي، هما غاية الإيمان ونتائجه، كما أن المودة والرحمة بين العباد، هما غاية العبادة وثمراتُها. فكان الزواج بذلك من أعظم سبل تحقيق هذه المعاني والهدايات.

ولا شك أن النظر إلى الزواج بهذا النظر الإيماني الرباني، سبب لتحقيق أغراضه ومقاصده، واستحضار محاسنه ومصالحه، ومن ثم العمل على تيسير سبله، وتسهيل طرقه، وإزالة عقباته وعوائقه، داخل المجتمع المسلم، وهو مقصود هدايات آية سورة النور: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور: 32] فأمرت بالزواج وحثت المجتمع عليه، على أنه سبب من أسباب الحفاظ على الصلاح والاستقامة، وإدامتهما داخل المجتمع لأنه وسيلة لغَضّ البصر وإحصان الفرج: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾ (فهذه المخاطبة تدخل في باب الستر والصلاح، أي زوِّجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفف)([1]) وطريق لبناء الحياة الاجتماعية السليمة المستقيمة.

كما أن الزواج من القربات التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، إذ هو شرع الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم هو سبيل لطهارة النفس وحفظها من الانحراف، ووسيلة لبناء الأسرة الصالحة، ومن ثم المجتمع الصالح. وبه يتحقق صلاح الفرد والمجتمع في دينه ودنياه.

ومن هنا قال جماعة من العلماء: أن النكاح أفضل من التخلي للعبادة.([2]) لأنه جامع بينهما، كما أنه في نفسه عبادة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ))([3])

---

1 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 239/12

2 وهو قول للحنفية، ينظر التفسير الكبير للرازي، 184/23، ومعالم التنزيل للإمام البغوي، 3/ 341

3 مسلم، كتاب الزكاة، بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ، حديث رقم:2376

ثامناً: معرفة أن النور الإيماني في قلوب العباد، ينشأ عن امتثال أمر الله تعالى، من خلال هدايات الوحي، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور:

لقد وصف الله سبحانه نفسه بالنور: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور: 35] ووصف نبيه صلى الله عليه وسلم بالسراج المنير: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: 46] ووصف كتابه بالنور المبين: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: 174]

ولا سبيل لتحقيق هدايات القرآن عملياً، إلا باتباع نور القرآن الكريم، الذي هو نور الله وبصائره لعباده، وإن النور العملي للقرآن الكريم إنما هو في اتباع أوامره وفرائضه وحدوده، وأحكامه وأخلاقه ومبادئه؛ فمن أراد النور فلْيَلْزم هذه الأحكام والمبادئ والأخلاق: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور: 40] فعقيدته نور، وأحكامه نور، وعباداته نور، وأخلاقه نور، ومبادئه نور، وهو لأهله نور في الدنيا ويوم القيامة: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحديد: 12]

وهذا ما قصد إليه المثل النوراني من سورة النور: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۚ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور: 35]

قال ابن تيمية رحمه الله: (وسّط االله عزّ وجلّ سورة النور بذكر النور الذي هو مادّة كل خير وصلاح كل شيء، وهو ينشأ عن امتثال أمر الله تعالى واجتناب نهيه، فإنّه ضياء؛ لأنّ حفظ الحدود بتقوى االله يجعل االله لصاحبه نوراً، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد: 28]

ولهذا عقّب ذكر النور وأعمال المؤمنين فيها بأعمال الكفار فقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: 40] وكذلك فإنّ للسيّئة ظلمةً في القلب، وسواداً في الوجه، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوبالخلق.. ولغضّ البصر الوارد في الآيات اختصاص بالنور أيضاً فقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إِنّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي

قَلْبه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين:14](1)

وإنّ النور الذي يكون للمؤمن في الدنيا على حسن عمله واعتقاده يظهر في الآخرة، كما قال الله سبحانه تعالى: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴿١٢﴾ ﴾ [الحديد: 12] فالمنافقون يفقدون هذا النور الذي يمشي به المؤمنون ويطلبون الإقتباس من نورهم فيُحجبون عن ذلك بحجاب يُضرب بينهم وبين المؤمنين)(2)

وهكذا فكلما تحقق العبد بالهدايات القرآنية العملية، من خلال نور القرآن وأحكامه، وفرائضه وأدابه، زاده الله من أنوار هداياته، حتى يبصر الحق من كل جوانبه، فلا تشتبه عليه الآمور: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ذلك أن النور إنما ينشأ عن امتثال أمر الله تعالى، والتقرب إليه بفرائضه، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده، وعن الصبر على ذلك، فترتقي نفس العبد، ويطيب قلبه، فيصبح ربانياً، فيرى بنور الله ويسمع بسمع الله تعالى، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: ((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ...))(3)

تاسعاً: استشعار عبودية المخلوقات وتسبيحهم لله تعالى والأنس بهم، خضوعاً واستسلاماً، واستحضار ملكية الله سبحانه المطلقة لأهل السماوات والأرض:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾... ﴾ [النور: 41]

لا يخفى ما في تدبّر هذه الآيات من أثر تربوي عظيم، يحثّ على الصبر، والبذل، والأمن، ومواصلة السير عبر منازل السائرين إلى رب العالمين، فهي دليل على أنّ هداية الله تعالى شاملة لمخلوقاته كلّها، وليس للإنسان فحسب، وأنّ منهجه (الإسلام) دين المخلوقات كلّها، وفي هذا

---

1 رواه أحمد في مسنده، 297/2: مسند أبي هريرة حديث رقم: 7939. وابن ماجة في سننه،كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، حديث رقم 4244 . والترمذي في جامعه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ويل للمطففين، حديث رقم: 3334 وقال عنه: حديث حسن صحيح. ورواه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المطففين. كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهذا اللفظ للترمذي.

2 ينظر مجموع الفتاوى، 30 /282- 284.

3 رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم: 6502

دعوة إلى عبادة االله تعالى وحده، ودعوة للبشريّة كلّها للدخول في الإسلام كلّه، وتهديد ووعيد لمن أبى أو غفل كيف يغفل وهاهي مخلوقات الله كلها سائرة إليهن مسبحة له مصلية لعظمته.([1])

وإنّ تحقيق هدايات هذه الآيات في الواقع، لا يكون إلا باستشعار هذا المشهد العظيم، مشهد الطير صافّات وهي طائرة في الفضاء تسبح بحمد االله تعالى، ومشهد الكون الخاشع متجهاً كلّه إلى خالقه مسبحاً بحمده قائماً بصلاته؛ وإنه لكذلك في فطرته وفي طاعته لمشيئة خالقه الممثلة في نواميسه وإنّ الإنسان ليدرك -حين يشفّ- هذا المشهد ممثلاً في حسّه كأنّه يراه؛ وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله، وإنّه ليشارك كلّ كائن في هذا الوجود صلاته ونجواه.. كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا مشى سمع تسبيح الحصى، وكذلك كان نبي الله داود عليه السلام يرتّل مزاميره فتؤوب الجبال معه والطير.. فلا اتّجاه إلاّ إلى االله، ولا ملجأ من دونه، ولا مفر من لقائه، ولا عاصم من عقابه، وإلى الله المصير..([2])

عاشراً: التحذير من صفات المنافقين، وبيان مآل المنافق في الدنيا والآخرة.

لقد حذّرالقرآن الكريم من النفاق، ونفّر من صفات المنافقين، وبيّن مآل النفاق وأهله في الدنيا والآخرة، بشتى الصور المعقولة والمحسوسة، تحذيراً منه، وتنفيراً من خصال أهله.

فمرة يصور أهل النفاق في تخبطهم في ظلمات ضلالهم، كالذي استوقد ناراً في ليلة مظلمة للدفء والإضاءة، فلما سطعت النار وأضاءت، إذا بها تنطفئ وتعتمّ فصار أهلها في ظلمات لا يبصرون شيئاً، ولا يهتدون إلى طريق يخرجهم مما هم فيه، ومن ثم فهم صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ عن النطق به، عمْيٌ عن إبصار نور الهدايات القرآنية: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[البقرة: 17،18]

ومرة يذكر القرآن الكريم ملامح أوصافهم، ومعالم خصالهم، وهي: الكذب، والتظاهر بمظهر الإيمان، والتصنع بالكلمات الجوفاء، والغدر في المواقف الصعبة، والحلف بالأيمان الكاذبة، كما في سورة (المنافقون): ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾[المنافقون: 1]

---

1 ينظر الأساس في التفسير، سعيد حوى، 7/ 3780

2 ينظر في ظلال القرآن، سيد قطب،18/ 2522

ومرة يكشف عن أسرار نفوسهم، ويُظهِر خباياهم، ويفضح ما يبطنون من سوء، كما في (سورة التوبة) من الآية 42: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ إلى الآية 96 : ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ فقد ذكرت هذه الآيات كل ما يتعلق بالمنافقين وصفاتهم وأخلاقهم، أقوالا وأفعالاً، وأحوالاً، حتى كشفتْهم وأظهرت كل خباياهم، وحتى سماها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (بالفاضحة).

وقد ذكر الله في آيات سورة النور –موضوع البحث والدراسة– مواقف المنافقين من الإيمان بالله ورسوله، وعرض أحوالهم المتذبذة المتخبطة في الاستجابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والخائفة، والمتلوِّنة تجاه الاحتكام إلى قضائه وحكمه وهديه صلى الله عليه وسلم، أو التسليم لدعوته وحضور اجتماعه واستئذانه، إلى غير ذلك..، كما في هذه الآيات: 47 – 50: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ إلى آخر الآيات في هذا السياق.

وإن من أهمّ سبل تحقيق هدايات هذه الآيات من سورة النور، هو النظر في مآل النفاق وعاقبة المنافقين في الدنيا والآخرة، وتدبر هذا التحذير القرآني، والوعيد الرباني للمنافقين، والابتعاد عن صفاتهم، والحذر من التشبه بهم، والوقوع في أخلاقهم وخصالهم، ثم التحقق بصفات أهل الإيمان، والتخلق بأخلاق المسلمين، ذلك أن الله تعالى ما ذكر صفات المنافقين في القرآن الكريم، إلا وذكر في مقابلها صفات المؤمنين، تحذيراً من صفات المنافقين ومن الوقوع فيها، وترغيباً في صفات المؤمنين للتحلي بها وتحقيقها، كما في هذه الآية محل الدراسة: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور50،51]

الحادي عشر: تحمّل الأسر المسلمة مسؤولية البيان الشرعي، للقيام بتعليم أطفالها أحكام الإسلام وآدابه في البيوت.

إن من الأمانات التي ألقاها الإسلام على عاتق الأسَر المسلمة؛ أمانة تربية الأولاد، وتعليمهم أخلاق الإسلام وآدابه، ولذلك خاطب الله هنا أولياء الأمور: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ... ٥٨ ﴾ [النور: 58] ذلك أن الأطفال لم يبلغوا بعد سنّ التكليف ليُخاطَبُوا بالواجبات الشرعية مباشرة، ولذلك ألقى الله مسؤولية التربية والتأديب، على والديهم وأولياء أمورهم، ليدربوهم على تعلم هذه الأحكام وتطبيقها عملياً، حتى يتربّوا عليها منذ الصغر.

وفي هذا التوجيه القرآني تطبيع للأطفال تطبيعاً خلقيّاً، لتصبح الأخلاق عادةً مطبوعة في نفوسهم، يقومون بها كما يؤدّون العادات ولا يستطيعون مخالفتها، فليس من السهل على النفس أن تخالف عاداتها المتأصّلة.([1])

وإن من سبل تحقيق هدايات هذه الآيات، أن يستشعر الآباء والأمهات، وأولياء الأمور عموماً، هذه الأمانة العظيمة، والمسؤولية الخطيرة، في تربية أولادهم، وتعليمهم آداب البيوت، حتى يشبوا عليها فتستقيم سلوكاتهم وأخلاقهم، وتستقيم أحوالهم النفسية والعقدية، وتستقيم بهم المجتمعات الإسلامية، ومن ثم تبرأ ذمة الوالدين أمام الله تعالى، لأنهم مسؤلون عن وقاتهم وحمايتهم من نار يوم القيامة، إنْ هم فرّطوا في تعليمهم، وتهذيبهم وتربيتهم، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ٦ ﴾ [التحريم: 6]

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن أهل الرجل وأسرته في بيته مسؤوليته، يحاسب عليها، وأن المرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة عن ذلك، وأن كل جهة في الأسرة أو المجتمع مسؤولة عما استرعاها الله عليه، كل ذلك لتبقى سفينة المجتمع محفوظة من أي خرق، وتصل إلى شاطئ السلامة سليمة، فقال صلى الله عليه وسلم: ((كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِه وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه قَالَ: –

1 ينظر، تربية الأولاد في ضوء القرآن والسنة، 217، خالد عبد الرحمن العك.

وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ- ((وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))([1])

الثاني عشر: من مقاصد الإسلام العظيمة، رفع الحرج عن ذوي الأعذار في كل ما يشق عليهم رحمة بهم، والإذن للأقرباء في الأكل من بيوت بعضهم البعض؛ جميعاً أو أشتاتاً، تيسيراً عليهم.

إن مشروعية الرخص في الإسلام تشير إلى أن الشريعة الإسلامية قامت على رفع الحرج عن هذه الأمة، وأن أحكام الدين ومبادئه وقيمه، سهلة ومبنية على اليسر والسماحة، وهذا أصل من أصول الإسلام وهو مقطوع به في نصوص الوحي وعمومات الشريعة.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: (إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع)([2])

وقاعدة: المشقة تجلب التيسير، وهي قاعدة أصولية وفقهية، صارت أصلا مقطوعاً به لتوافر الأدلة عليها من الكتاب والسنة والإجماع.

فقد دل على هذه القاعدة كثير من الآيات القرآنية، من مثل قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: 185] وقوله تعالى أيضاً: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا ﴾ [البقرة: 286] وقوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة: 6] وقوله جل جلاله: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج: 78]

ومنها آية النور التي هي محل دراسة هذا البحث: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ... يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النور: 61]

وهكذا دلت هذه النصوص وغيرها على أن الحرج مرفوع عن هذه الأمة، في كل ما يلحق ضيقاً ومشقة وحرجاً بالمكلف، في نفسه أو جسمه، أو بهما معاً.. وقد وقع الإجماع بين علماء الأمة على عدم التكليف بالشاق.([3])

---

1 رواه البخاري، كتاب النكاح، باب {قوا أنفسكم وأهليكم ناراً} حديث رقم: 5188، ورواه في كتب الجمعة، بَاب الجُمُعَةِ فِي القُرَى وَالمدُنِ، برقم: 893

2 الموافقات، 1/ 273

3 ينظر القواعد الفقهية، 116، عبد العزيز محمد عزام.

ومن سبل تحقيق هداية هذه الآية الكريمة؛ معرفة أن الإسلام شرع الرخص فيما يمكن أن يعرض للمكلف مما يجعل التكليف شاقاً عليه، وغير قابل للاحتمال، ويتعارض مع أصل الشريعة الذي هو رفع الحرج، فيكون المبدأ، أو القاعدة هي: أن المشقة تجلب التيسير، وأن الحاجة تُنَزّل – أحياناً– منزلة الضرورة، إذ الشريعة وضعت رحمة للعباد، وتيسيراً عليهم، ومن ثم فالتعامل مع العباد ومخاطبتهم بأحكام هذه الشريعة ومبادئها وآدابها، يكون على حسب أحوالهم وأوضاعهم وخصوصياتهم، حتى لا ينفروا من أحكامها وآدابها، بل يقدمون عليها إقدام من يرى فيها رحمته وشفاءه، وفوزه وسعادته. وهذا سبيل عظيم من سبل تحقيق هدايات هذه الآية، ذلك أن (الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أُدخِلَتْ فيها بالتأويل، فالشريعة عدل اللَّه بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله –صلى اللَّه عليه وسلم– أتم دلالة وأصدقها، وهي نُوره الذي به أَبْصَرَ الْمبصرونَ، وَهُدَاهُ الذي به اهْتَدَى الْمُهْتَدُونَ، وَشِفَاؤُهُ التَّامُّ الذي بِهِ دَوَاءُ كُلِّ عَلِيلٍ، وَطَرِيقُهُ الْمُستقِيمُ الذِي مَنْ اسْتَقَامَ عَلَيْهِ فَقَدْ اسْتَقَامَ عَلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ)([1])

الثالث عشر: تعظيم مقام النبي صلى الله عليه وسلم، بطاعته قولا وفعلا، والحذر من مخالفته أمراً ونهياً.

لقد بين الله تعالى في أول السورة أنه أنزلها –كما أنزل القرآن الكريم كله– وأنزل فيها آيات بينات، وإنما كان هذا النزول العظيم على محمد صلى الله عليه وسلم؛ فختم السورة بتأكيد الأمر في متابعته عليه الصلاة والسلام؛ ليعلم أن أوامره كأوامر القرآن الكريم.([2])

ومن هنا فلا سبيل إلى تحقيق كل ما ذُكِر من هدايات سورة النور، إلا عن طريق اتباع سيد الهادين المهتدين صلى الله عليه وسلم، واقتفاء أثره والاهتداء بهديه، وهذا من أجلّ وأعظم سبل تحقيق هدايات هذه السورة، بل هذه كلية من كليات القرآن الكريم، وهداية من هداياته الجامعة، وهي أصل من أصول العقيدة القرآنية، فلا استقامة لشيء إلا بها ومن خلالها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران31،32] وقال عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: 7]

---

1 إعلام الموقعين عن رب العالمين، 12/3

2 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 12/ 320

والنصوص القرآنية والحديثية القطعية كثيرة في هذا السياق.

وإن اتباع الرسول الرسول صلى الله عليه وسلم، وطاعته قولاً، وعملاً، هو الطريق العملي لتحقيق الهدايات القرآنية عموماً، وهدايات سورة النور خصوصاً، فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم إلا قرآناً يمشي على الأرض، يرضى برضاه ويسخط بسخطه، فقد تخلق بأخلاق القرآن الكريم، وتحقق به آية آية، وحكمة حكمة، ألم تقل تقل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حينما سئلت عن خلقه: ((كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ))([1])

ولذلك كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم هي الإطار الزمني العملي للهدايات القرآنية في شتى مجالاتها : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء:106] ومن هنا فقد حصر الله تعالى الأسوة والاقتداء والاهتداء في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، وجعل كل الطرق مسدودة إلى باب الجنة، إلا من اقتفى أثره، وسلك هديه عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: 21]

(وإنها لآية عظيمة، وحكمة بالغة، وصراط مستقيم. تدبر هذه العبارة الربانية: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فأما الأسوة: فهي التَّخلُّق. فالتأسّي: اتباع السيرة والتخلق بما كان عليه المتأسَّى به من خلق عام. والخُلُق هنا كل الأوصاف التي كان يوصف بها في سلوكه وعمله.. ووصف الله الأسوة ب(الحسنة) دليل على علو شأن الخلق النبوي، وكمال سيرته وسلوكه العام والخاص، فهو لذلك كان أرقى نموذج بشري للتأسي والتخلق. أليس هو (رسول الله) المصنوع على عين الله، والمتأدب بأدب الله؟ بلى والله. فإذن من ههنا يبدأ التأسي والاتباع، ومن أخطأه هذا المدخل للسنة النبوية فقد أخطأها كلها؛ إذ أتى البيوت من غير أبوابها...([2])

تلك إذن هي أول سبيل من سبل تحقيق هدايات هذه الآيات من سورة النور في تعظيم مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وطاعته قولا وفعلا، والتحذير من مخالفته أمراً ونهياً ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[النور:51،52]

وسياق هذه الآيات بما قبلها يبين أن النجاة في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة، لا يكون إلا بطاعة النبي صلى الله عليه وسلم، واتباع أوامره، والسير على طريقه ومنهاجه، ذلك أن الآية

---

1 مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، حديث رقم: 1773

2 بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق، 98 فريد الأنصاري

الكريمة عرضت موقف المؤمنين وصفاتهم الإيمانية تجاه الحق ودعوته، في مقابلة بما قبلها من الآيات التي عرضت موقف المنافقين وصفاتهم من الإعراض عن الحق واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الحكم بهذا الحق والتحاكم إليه: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ [النور47-50]

وهكذا يتبين لنا بوضوح من خلال هذه الآيات من سورة النور أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، والاستجابة لأوامره، واتباع هديه، من أعظم سبل تحقيق هداياتها في واقع الأمة.

المبحث الثالث

أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة

تمهيد:

إن سر الإنسان وحقيقته هي في هذه الروح التي يحملها جسده: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 85] إذ الروح هي المدبّرة لأمر هذا الجسد، فهي سر حياته، وسر إدراكه وشعوره، وسمعه وبصره، وإحساسه، ومعرفته، وتعقله.. بل وما قيمة هذا الجسد إذا هو فَقَدَ روحه؟ ولذلك بخروجها يذهب كل آثارها، ومنها الإبصار، والإحساس.. ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم: ((إِذَا خَرَجَتِ الرُّوحُ تَبِعَهَا الْبَصَرُ))(1)

ولذلك لما كان (الوحي) مدبِّراً لأمر الروح على المستوى النفسي، سمّاه الله تعالى روحاً كذلك: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: 52] لأنه يدبر أمر الروح، فهو سر حياتها، وسر إدراكها، وسر إبصارها النفسي، فبه تُبصر الحقائق الغيبية، وبه تشعر بالحلاوة الإيمانية، واللذة التعبدية، لأن روحه (أي الوحي) تنعكس حياةً في القلب، ونوراً في العقل، والنفس، ولذلك قال بعدها مباشرة: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ ﴾ فلا يموت قلبٌ خالطت نبضَه روحُ القرآن، ولا تعمى بصيرةُ نفسٍ أصابها شعاع نوره.

وإن قيمة هذا الإنسان وحقيقته، هي في تحقيق وجودِه المعنوي النفسي، الذي هو سر وجوده الحقيقي، وإنما وجود الإنسان المعنوي يكمن في هذه الحقيقة، حقيقة الهُدَى القرآني الذي هو حياةُ قلبه وروحُ نفسه، ونور بصيرته، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال: 23]

وهكذا فإن الإنسان بما هو مخلوق خاص لله تعالى، يتميّز عن باقي المخلوقات بأن جعل الله له وجودَيْن: وجوداً مادياً، ووجوداً معنوياً، وسره وقيمته وشرفه، إنما هو في الوجود الثاني، أي الوجود المعنوي، الذي هو نفخة من روح الله جل وعلا، وهذا الوجود متوقف على هدايات الوحي، إذ هي روحه ومادة حياته، وسر وجوده وإبصاره، وكذلك وصفها الله ووصف وظيفتها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

1 مسلم، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضِر، حديث رقم: 2169

وإن تطبيق هدايات القرآن في واقع الأمة، أفراداً وجماعات، هو الكفيل بإحياء الإنسان، حياة روحية، وإخراجه من الضلال والهلاك، إلى طريق الهداية والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: 122] ذلك إذن من أعظم آثار تطبيق هدايات القرآن في واقع الأمة، وفي الحديث: عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه قال: ((خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أبشروا.. أبشروا.. أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا))(1)

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم آثار تطبيق هدايات القرآن والعمل بها، في حياة الإنسان، حيث قال: ((مَثَلُ الَّذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّة طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ وَالَّذي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالتَّمْرَة طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَة رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَة طَعْمُهَا مُرٌّ وَلاَ رِيحَ لَهَا))(2)

وقد كان هدي السلف رحمهم الله في التعامل مع القرآن الكريم هو البحث عن هداياته في كل أمر، ونهي، ونداء، قصد التحقق بها وتطبيقها، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فارعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه)(3)

وقال الحسن البصري: -يصف أحوال الصحابة رضي الله عنهم مع هدايات القرآن- (إن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار) (4)

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (إنّا صَعُب علينا حِفْظُ ألفاظ القرآن وسهُل علينا العمل به، وإن مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به، وقال: ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف، ولكن إقامة حدوده)(5)

---

1 رواه ابن أبي شيبة في مصنه، 6/ 125، باب التمسك بالقرآن، حديث رقم: 30006 وعبد بن حميد في منتخبه، 1/ 175، حديث أبي شريح الخزاعي برقم: 483، وصححه الألباني في الصحيحة، 2/ 330 برقم: 713.

2 البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام حديث رقم: 5020، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن، حديث رقم: 1896 كلاهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

3 رواه ابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير في تفسيره، 1/ 374

4 التبيان في آداب حماة القرآن، للنووي، 40

5 أخرجه ابن المبارك في الزهد، 274

إن القرآن الكريم أنزله الله ليكون منهجاً للحياة، وطريقاً للسير إلى الله سبحانه، ليهتدي العبد بهداياته، ويستنير بنوره، فالمؤمن العاقل هو الذي يهتدي بهداياته، (فإذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حَسُن من فعله وما قَبُح فيه، فما حذَّره مولاه حذره، وما خوّفه به من عقابه خافه، وما رغّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه.

فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وحِرْزاً، ومن كان هذا وصفه نفع نفسه، ونفع أهله، وعاد على والديْه وعلى ولده كل خير في الدنيا والآخرة)([1])

وإن سورة النور وما اشتملت عليه من الهدايات العظيمة، الكلية منها والجزئية، والتي سبق ذكرها في المباحث السابقة، كفيلة -بإذن الله تعالى- بأن تحدث آثاراً عظيمة في واقع الأمة وأحوالها كلها، إن هي قامت بتطبيقها، والتحقق بها.

هذا، ويمكن إبراز أهم تلك الآثار من خلال الجوانب الآتية:

أولا: أثر الالتزام بالآداب الشرعية في صلة المسلمين لبعضهم، في تحقيق الطمأنينة والثقة والمحبة فيما بينهم:

لا شك أن الالتزام بالآداب الشرعية، وتطبيق أحكام الاستئذان والتزاور، في صلة المسلمين فيما بينهم، له آثار عظيمة في تحقيق الأمن والأمان، والثقة والاطمئنان، لأن في ذلك حفظاً، للعورات، وستْراً للخصوصيات، وتحصيناً لحرمات البيوت، وسداً لذرائع الشيطان وأهل الأهواء، وأصحاب النفوس المريضة، ولذلك فقد عدل سبحانه وتعالى في هذه الآيات (عما يتصل بالرمي والقذف وما يتعلق بهما من الحكم إلى ما يليق به، لأن أَهْلَ الْإِفْكِ إِنَّمَا وَجَدُوا السَّبِيلَ إِلَى بُهْتَانِهِمْ مِنْ حَيْثُ اتَّفَقَتِ الْخَلْوَةُ، فَصَارَتْ كَأَنَّهَا طَرِيقٌ لِلتُّهْمَةِ، فَأَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ لا يَدْخُلَ الْمَرْءُ بَيْتَ غَيْرِهِ إِلا بَعْدَ الِاسْتِئْذَانِ وَالسَّلامِ، لأَنَّ فِي الدُّخُولِ لا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ وُقُوعَ التُّهْمَةِ وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْمَضَرَّةِ مَا لا خَفَاءَ بِهِ)([2])

ومن هنا جعل الإسلام مبدأ الوقاية وتضييق سبل المعصية، من أعظم وسائل التربية، والتي متى التزم العباد بها وطبقوها ظهرت آثارها في حياتهم ومجتمعهم، حياءً واحتراماً، ومودة ورحمة، وأمْناً وإيماناً. فتطمئن القلوب وتتزكّى النفوس، ويسود المجتمع المسلم الأنس والطمأنينة والمحبة والأخوة.

---

1 ينظر: أخلاق حملة القر آن، للإمام الآجري، 40-39

2 ينظر مفاتيح الغيب، 23/197

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن من آثار تطبيق هذه الآداب، حصول الخير لأهلها في الدنيا والآخرة: ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النور: 27] وإن من الخير لهم: طهارة قلوبهم وسلامتها، وتزكية نفوسهم وطمأنينتها: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النور: 28] وتلك هي غاية التربية الإيمانية والاستقامة الإسلامية، التي جاءت سورة النور لترسخها، ومنها هذه الآيات، ذلك أن تطبيق هذه الآداب، سبب لتقوية روابط المحبة والألفة بين أفراد المجتمع المسلم، وصيانته عن كل ما يسبب تفكُّكه، أو يوجِد العداوة والبغضاء فيما بين أفراده وأُسَره.

ثانياً: أثر غض الأبصار وحفظ الفروج، في تزكية النفوس، وتطهير القلوب:

جعل الله تعالى زكاة النفوس، وطهارة القلوب، وصلاح المجتمع، نتيجة لغَضّ الأبصار وحفظ الفروج، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور: 30] وهذا من أعظم وأجَلّ الآثار لتطبيق هذه الهدايات القرآنية، من سورة النور، على واقع الأمة، أفراداً وجماعات، ذلك أن غاية العبادات كلها هي: تطهير القلوب، وتزكية النفوس، وعلى ذلك يقوم صلاح الأمة في شأنها كلها.

ولهذا كان من آثار غض البصر عن المحارم أنه يوجب ثلاث فوئد، عظيمة الخطر، جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذّ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى، فإن من ترك شيئاً عوضه الله تعالى خيراً منه.

الفائدة الثانية: في غض البصر نور القلب وصحة الفراسة، قال أبو شجاع الكرماني([1]):(من عمر ظاهره بإتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغضّ بصره عن المحارم واعتاد أكل الحلال، لم تخطئ له فراسة) وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر: 75] وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة، ولذا قال الله عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور: 35]

وسر هذا: أن الجزاء من جنس العمل، فمن غض بصره عما حرم الله تعالى عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره و لم يغضه عن محارم الله تعالى. وهذا أمر يحسه الإنسان

1 مضت ترجمته.

من نفسه، فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه، وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع الله له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه، كما في الأثر: (إن الذي يخالف هواه يفْرق الشيطان من ظله)

فهذا كله من أعظم آثار تطبيق هذه الهداية العظيمة في الواقع، والمقصود أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور: 21]

فذكر سبحانه ذلك عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك، وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النور: 28] فإنهم إذا أمروا بالرجوع لئلا يطلعوا على عورة لم يحب صاحب المترل أن يُطَّلَع عليها كان ذلك أزكى لهم، كما أن رد البصر وغضّه أزكى لصاحبه، وأطهر لشرفه، وأحفظ لقلبه.([1])

ثم إن من أعظم آثار تطبيق هذه الآداب والهدايات كذلك، هو نيل رضى الله تعالى، والفوز بجنته، وتلك غاية الغايات، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((اضْمَنُوا لِي ستًّا مِنْ أَنْفُسكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّة: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا ائْتُمِنتم وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُم))([2])

ثالثاً: أثر التزام المرأة بضوابط اللباس الشرعي في صلاح المجتمع واستقامته.

إن حياء المرأة المسلمة يتجلى في سترها وحجابها، وحجابها وحياؤها يدلان على استقامتها؛ واستقامة المرأة المسلمة رمز لحياء المجتمع واستقامته وصلاحه، ومن ثم حفظه من الانحراف والتردي نحو الهاوية، والسقوط في مستنقع الرذيلة، وذلك لما تمثله المرأة من فتنة في المجتمع،

---

1 ينظر إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، 57/1 – 60 لابن قيم الجوزية (بتصرف)

2 رواه أحمد في مسنده، مسند عبادة بن الصامت، 323/5، والحاكم في مستدركه، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: 1470، وكذا في صحيح الجامع، برقم: 1029.

وخصوصاً إذا لم تلتزم الستر والحياء، وفضلت الفتنة والإغراء، وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِي النَّاسِ فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ))([1])

وإن من آثار التزام المرأة بلباسها الشرعي وحيائها الإيماني، تحقيق العفة، بصيانة النسل وحفظ العرض، اللذين بهما يُحفَظ شرف المرأة، وتُحفَظ كرامة المجتمع وعزته، وكذلك حفظ الدين ككل، بحفظ الخلق، ووقاية المجتمع من الانحراف، وتحقيق طهارة القلوب وتزكية النفوس.

ومن هنا جعل الإسلام لباس المرأة المسلمة رمزاً للعفة والكرامة، وموْرِداً تربوياً للأجيال المؤمنة، ومسلكاً أدبياً للتقوى والصلاح: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ٢٦﴾ [الأعراف: 26] وذلك بما فرضه الله تعالى عليها من جمالية الستر والحياء، الذي هو من المقتضيات الفطرية لأنوثتها، والمتمثل في التستر الجسمي، في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ٣١﴾[النور: 31] والتستر الحركي، في قوله سبحانه بعدها: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ والتستر الصوتي، في قوله تعالى -في سورة الأحزاب-: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب: 32]

فإذا تحققت هذه الأنواع من الستر الحيائي لدى المرأة المسلمة، أنتج ذلك عفة في النفوس، وسلامة في القلوب، واستقامة في المجتمع، وأثمر ذلك كله؛ صلاح المجتمع النفسي، والأخلاقي، والاجتماعي، وتلك من أعظم آثار تطبيق هذه الهداية الربانية في واقع الأمة.

رابعاً: أثر إقامة شعيرة الزواج في المجتمع في تحقيق العفاف وتحصينه من الانحراف.

لقد صور القرآن الكريم العلاقة الزوجية تصويراً يشع منه العطف، ويفوح منه العبير، ويشيع فيه الندى، فقال جل شأنه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: 21]

فهي علاقة النفس بالنفس، وهي صلة السكن والقرار، والمودة والرحمة، والستر والتجمل. وإنك لتحس في هذه الألفاظ:

---

1 رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، حديث رقم: 5096، ومسلم، كتاب الرقاق، باب أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْفُقَرَاءُ وَأَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءُ وَبَيَانُ الْفِتْنَةِ بِالنِّسَاءِ، حديث رقم: 7121. كلاهما عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

﴿ أَنفُسِكُمۡ ﴾ ﴿ لِّتَسۡكُنُوٓاْ ﴾ ﴿ مَّوَدَّةً ﴾ ﴿ وَرَحۡمَةً ﴾ حنوّاً، ورفقاً، وتستروح من خلالها نداوةً وظلاً، فهي تعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها الإسلام لذلك الرابط الإنساني المقدس.([1])

ولذلك كان من آثار تطبيق هدايات هذه المعاني الجميلة لشعيرة الزواج: أن به يتحقق كمال الإنسان وصلاحه في دينه ودنياه.([2]) فهو أغض للبصر، وأحصن للفرج، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجَاءٌ))([3])

فبالزواج تقضى الشهوة الإنسانية في طاعة الله تعالى، وينال بها العبد أجراً وثواباً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: ((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ))([4])

وبالزواج تسكن النفس عن دواعي الزنا، فيكون الزواج سبيل لطهارة النفس وحفظها من الانحراف، وبالزواج تُبنى الأسرالصالحة، ومن ثم المجتمع الصالح، ويحفظ من الانحراف، وبالزواج يتحقق غنى المجتمع؛ الغنى النفسي، والمادي، ذلك أن الزواج من الأسباب التي يلتمس بسببها الغنى، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: (التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآية: ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور: 32] وقد روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه قوله: (عجبي ممن لا يطلب الغني في النكاح، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾ ﴾ وروي هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا)([5]) وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ))([6])

---

1 ينظر منهج القرآن في إصلاح المجتمع، 353، محمد السيد يوسف.

2 مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، 272، عبد الكريم حامدي

3 البخاري، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج، لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج)) وهل يتزوج من لا أَرَبَ له في النكاح. حديث رقم:5065

4 مسلم، كتاب الزكاة، باب بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ، حديث رقم:2376

5 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 241/12

6 سبق تخريجه.

وبالزواج تتحقق نعمة الولد التي جعلها الله سبحانه زينة الحياة الدنيا: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف: 46]

وبالزواج تتحقق قرة عين العبد بالذرية الصالحة التي تعبد الله وتطيعه، فقد جعل الله هذا الرجاء صفة من صفات عباد الرحمن، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: 74] قال الحسن البصري: (أن يرى العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه طاعة الله، والله لا شيء أَقَرّ لعين المسلم من أن يرى ولداً، أو ولد ولد، مطيعاً لله عز وجل)([1])

وقال الإمام القرطبي: (فإذا ثبت هذا، فالواجب على الإنسان أن يتضرع إلى خالقه في هداية ولده، وزوجه بالتوفيق لهما، والهداية، والصلاح، والعفاف، والرعاية، وأن يكونا معينين له على دينه، ودنياه؛ حتى تعظم منفعته بهما في أُولاه وأخراه، ألا ترى قول زكرياء عليه السلام: ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم: 5] ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران38](2)

ويكفي في ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))([3])

وهكذا، فكل هذه المعاني الجليلة، والثمرات العملية العظيمة، هي من آثار تطبيق هدايات آيات شعيرة الزواج، والتي يجنيها الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة.

خامساً: أثر ضرب مثل (النور) في استشعار نور الإيمان وظلام الكفر، من خلال نور الوحي وتشريعاته، وانعكاسات ذلك في حياة العبد وعمله.

ما من حقيقة أصدق ولا أدق من التعبير عن الإيمان بالنور، والتعبير عن الكفر بالظلمة، فالإيمان نور يشرق به كيان المؤمن، فتُشرق به روحه فتشفّ وتصفو وتشع من حولها نوراً ووضاءةً ووضوحاً: نوراً يكشف حقائق الأشياء والقيم والتصورات، فيراها قلب المؤمن واضحةً بيّنةً، نوراً يكشف الطريق إلى الناموس الكوني فيطابق المؤمن بين حركته وحركة الناموس الكوني من حوله ومن خلاله؛ ويمضي في طريقه إلى الله هيّناً ليّناً لا يعتسف ولا يضطرب ولا يتخبّط هنا

1 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن 19/ 319

2 الجامع لأحكام القرآن، 4/ 73

3 رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم: 4310

وهناك.. فالطريق في فطرته مكشوف معروف.. فنور الله تعالى هدىً في القلب، وتفتّح في البصيرة.([1])

ذلك أن النور هو سر إبصارِ القلوب، وإنما تبصر القلوب بنور القرآن الكريم، ومحل نور القرآن هو قلب المؤمن، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما عن آية النور: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٣٥ ﴾ [النور: 35] (مَثَلُ نُورِهِ): مثل هداه في قلب المؤمن. وقال الحسن: (مَثَلُ نُورِهِ) مثل هذا القرآنِ في القلب كمشكاة)([2])

ويؤيد هذا المعنى حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه (القلوب أربعة: قلب أجْرَد فيه سراج يُزْهِر فذلك قلب المؤمن، وقلب أغْلَف فذلك قلب الكافر، وقلب مَنْكُوس فذلك قلب المنافق، عَرَف ثم أنكر وأبصر ثم عَمِي، وقلب تمده مادتان، مادة إيمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما)([3])

وأثر هذا النور في تطبيق هدايات آيات النور، أنّ مَنْ آمن به واستهدى بهداياته كان له حظّ من الاستقامة والسعادة العاجلة والآجلة بمقدار انتفاعه واستفادته من النور، ومن كفر به وتولّى عنه لم يكن له نور يوصله إلى ما يُحقّق له هدىً في حياته وغاية سعيدة حقيقيّة في عاجل أمره وآجله.([4])

إن ذكر هذا المثل القرآني في هذا السياق ينطوي على هدف تربويّ عظيم، غرضه الترغيب في الإيمان باالله تعالى، والاستهداء بكتابه، والاقتباس من نوره، والتنفير من الكفر وأهله، والتخويف من ضلالات الكفر وظلماته وعواقبه، وتقريب المعنى لذهن المخاطب والسامع، من خلال رسم صورة لمعالم الإيمان وأعمال المؤمنين، ورسم صورة أخرى للكفر وأعمال الكافرين، وتراكم الظلمات فيها والتخبّط والضلال، ثمّ توضيح جزاء المؤمنين والكافرين.([5])

---

1 ينظر في ظلال القرآن، 18/ 2521

2 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 17/19

3 سبق تخريجه.

4 ينظر أمثال القرآن، عبد الرحمن حبنكة الميداني 530.

5 ينظر الأمثال في القرآن، لابن القيم، 198.

ومن هنا فإن الإنسان بدون نور القرآن في ظلمات وموات: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: 122]

وبنور القرآن ينقذ العبد نفسه من ظلمات هذه الحياة: ظلمات القلب، من الكفر والكبر والرياء والغرور والحسد والضغينة، وظلمات الفكر، وظلمات القول، وظلمات العمل. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ ﴾ [البقرة: 257]

فذكر سبحانه الظلمات بالجمع، (فهي أشكال وألوان، وتدل على أن صور الضلال، وصور الفساد، وصور الفسق، وصور الكفر، وصور الإلحاد، وصور التيه.. أشكال وألوان لا عد لها ولا حصر، ولكن طريق الحق واحد، ومصدره واحد، ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فالله نور السموات والأرض، وهذا الكتاب هو نور من الله عز وجل.)([1]) هذه هي طبيعته وهذه هي وظيفته، ولا نور للعبد في سيره إلى الله عز وجل إلاَّ من نوره سبحانه، وهذا من أعظم آثار الاهتداء بهدايات القرآن، كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [االنور: 40] وشأن النور أن يعطي الآمان، وأن يوضح الرؤية، وأن يبرز الأشياء على حقيقتها.

وهكذا فإن هذا القرآن كما تلخص طبيعته ووظيفته آية النور، (هو نور للقلوب ونور للعيون، ونور للجوارح، ونور للفرد، ونور للأسرة، ونور للجماعة، ونور للأمة، ونور للبشرية. حين يحضر تحضر كل خصائص النور ومزايا النور، وحين يغيب تحضر كل مصائب الظلام وأخطار الظلام. ولا سبيل إلى حضوره والانتفاع به إلا باتباع رضوانه: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴿١٦﴾﴾ [االمائدة: 15-16])([2])

سادساً: أثر التذكر بآيات الله وآثار قدرته في الكون، في تحقيق الإيمان وزيادته، والحث على طاعة الله وعبادته وتعظيمه:

إن التأمل في ملكوت الله تعالى وبديع صنعه، والتفكر في عظيم مخلوقاته وأنواعها ووظائفها، له أثر عظيم في الشعور بعظمة الله تعالى وآثار قدرته، وجميل حكمته، فالمؤمن حينما يسبح بفكره في جنبات الكون وما في فيه من مخلوقات عظيمة مسبِّحة عابدة، ثم يجول بفكره ونظره، في تقلبات وتغيُّرات أحوال هذا الكون، ليْلِه الساكن، ونهارِه المبصر، وسحابه الْمُتَلَبِّد، وبَرْقه الخاطف، وبَرْده

1 ينظر القرآن الكريم طبيعته ووظيفته، الشاهد البوشيخي 24.

2 ينظر القرآن والإنسان، الشاهد البوشيخي 22-21.

الناقر، ومطره النازل... كل ذلك يجعل العبد يشعر بعظمة الله الواحد القهار، وتأخذه الرهبة من جلال ملكه، وعظمة سلطانه؛ فيسرع هارباً إلى مساكن رحمته، وجمال غفرانه. لعلمه أن كل شيء إلى زوال: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النور: 42] (فدوام الحال من المحال، وهذه الأيام والليالي إنما هي مطايا للارتحال، وخزائن للأعمال، وتذكر بتقليبها بأن مآل هذه الدنيا إلى زوال: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾[النور: 42])([1])

وهكذا فإن من آثار تطبيق هدايات هذه الآيات أن يبصر العبد حقائق الآيات الكونية، فيزداد إيماناً وخشوعاً وخضوعاً، ذلك (أن التدبر في الآيات القرآنية، والتفكر في الآيات الكونية، كليهما بمثابة الضوء، أو الشعاع المسلط على الأشياء، تماماً كما تسلط الشمس أشعتها المشرقة –في اليوم الصحو– على الموجودات، فتبصرها العين الناظرة. فكذلك التدبر يكشف حقائق الآيات القرآنية، والتفكر يكشف حقائق الآيات الكونية، حتى إذا استنارت هذه وتلك؛ أبصرها المتدبرون والمتفكرون. وكانت لهم فيها مشاهدات، لا تكون لغيرهم. ولذلك قال الله سبحامه:﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام: 104])([2])

تلك إذن هي البصيرة العملية لآثار هدايات آيات النور، في التذكر بآيات الله وآثار قدرته في الكون، تحقيقاً للإيمان وزيادته، وحثاً على تعظيم الله وطاعته وعبادته: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور: 42]

سابعاً: في التحذير من صفات المنافقين وخصالهم السيئة، ومقابلتها بصفات المؤمنين الصادقة أثر عظيم في التحقق بصفات المؤمنين واجتناب خصال المنافقين:

إن المؤمن حقاً وصدقاً هو الذي يخاف على نفسه النفاق، ويحرص دائماً على عَرْض أعماله وأقواله على ميزان الوحي، قالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ([3]): (أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

---

1 ينظر انشراح الصدور في تدبر سورة النور، 277

2 ينظر بلاغ الرسالة القرآنية من إجل إبصار لآيات الطريق، 27

3 عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، زهير بن عبد الله بن جدعان بن عمرو التابعي الإمام الحجة الحافظ أبو بكر وأبو محمد القرشي التيمي المكي وقد ولي القضاء لابن الزبير، والأذان أيضا، ولد في خلافة علي أو قبلها وحدث عن عائشة أم المؤمنين، وأختها أسماء، وأبي محذورة، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو السهمي، وابن عمر، وابن الزبير، وغيرهم من الصحابة قال البخاري وجماعة: مات سنة سبع عشرة ومائة (ينظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر 307/5)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ)([1])

وتحذير آيات سورة النور من النفاق وخصال المنافقين، من خلال مواقف عملية، كالقول باللسان مع مخالفته لما في القلب، والإعراض عن حكم االله ورسوله ورفضه ما لم يوافق هوى النفس ومصلحتها، والشك والظن السيء بالإسلام، والخوف من جوره، وكثرة الأيمان الكاذبة وغير ذلك..، كل ذلك إنما من أجل أن يكون المؤمن دائماً على حذر دائم من الوقوع في أي صفة من هذه الصفات، فيجتهد ويجاهد نفسه من أجل تحقيق الإخلاص والصدق مع الله، وخصوصاً في مواطن الشدة والامتحان، مع الاستعانة بالله وطلب العون منه والثبات. وقد قال خادم رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: (كَانَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: ((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دينكَ)) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، آمَنَّا بكَ، وَبِمَا جِئْتَ به، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))([2])

وهكذا فيكون من آثار هدايات هذه الآيات، خوف المؤمن على نفسه من الوقوع في خصلة من خصال المنافقين، واجتهاده في الإخلاص والصدق مع الله تعالى، وكثرة الدعاء والاستعانة به سبحانه في المواقف الشديدة، مع الاهتمام بطهارة قلبه، ودوائه من علله التي هي آفته وسبب انحرافه، وقد حذّر صلى الله عليه وسلم، من إهمال القلب، وتركه مفتوحاً على الشهوات، أو الشبهات، دون حماية له بالصدق والإخلاص والتقوى، التي هي صفات عملية مضادة لصفات أهل النفاق والمنافقين، فقال عليه الصلاة والسلام: ((أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ))([3])

ثامناً: التمكين في الأرض وأثره في تحقيق مهمة الاستخلاف وإقامة العبودية لله تعالى، فرداً وجماعة وأمة:

من آثار تطبيق هدايات آيات سورة النور على واقع الأمة، تحقيق وعد الله بالتمكين، والاستخلاف في الأرض، والتمكين لدين الله تعالى، وتبديل الخوف بالأمن والاطمئنان، وإقامة

---

1 أورده البخاري معلقاً في كتاب الإيمان من صحيحه، باب خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ.

2 رواه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، حديث رقم: 2140، وأحمد في مسنده، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، حديث رقم: 12107، وصححه الألباني في صحيح الترمذي حديث رقم: 2140

3 البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم: 52، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم: 4178.

منهج الله كاملاً، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ٥٥﴾ [النور: 55]

(فهذا وعد عام لكل مَن اتصف بهذا الوصف، فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله تعالى كما وعد، وقد اتصف بعدهم به قومٌ بحسب إيمانهم وعملهم الصالح، فمن كان أكمل إيماناً وعمل صالحاً، كان استخلافه المذكور أتم، فإن كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص، وذلك أن هذا جزاء هذا العلم، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء)([1])

وهكذا فهو وعد مقيَّد لا مطلق، لأنه مرتبط بأمرين اثنين: الأمر الأول: الإيمان، والأمر الثاني: العمل الصالح.. وقد نصر الله عبده، وأنجز لرسوله وللمؤمنين الصالحين وعده، فقامت لدين الحق دولة كبرى لا تغيب عنها الشمس، فقد مكّن الله لهم وفتح بهم العباد والبلاد، وفي عهدهم انتشر الإسلام في أصقاع الأرض، ودانت لهم الأمم.

وهذا الدين قادر بما فيه من طاقات كامنة على أن يقيم اليوم دولة أخرى كما أقامها بالأمس، فالوعد الإلهي مستمر وقائم على الدوام، لكل من آمن بالله ثم استقام، وبقدر ما يتحقق من هذين الشرطين، أو من أجزائهما يكون من حق المؤمنين انتظار وعد الله كلياً أو جزئياً، لكن بقدر ما يطرأ من إهمالهما يتخلف عنهم وعد الله، فتنحط مترلتهم، بعد ما رفعهم الله مكانا علياً)([2])

فهذه حقيقة واقعية تاريخية، لا يستطيع أحد إنكارها، وهي سنة ربانية، وقاعدة قرآنية، فكل مرحلة مرت بها الأمة وحققت هذه الشروط: عبادة الله وحده، والخضوع له وحده، والاحتكام له وحده، في الحكم والتشريع، وطاعة الرسول والرضا بأحكامه، مع إقامة شعائر الإسلام، وعلى رأسها الصلاة والزكاة، إلا وتحقق وعد الله بالتمكين والاستخلاف، وما من مرحلة خالفت فيه الأمة هذه الشروط، إلا وذلت وخضعت للأمم الأخرى.

وقد بينت هذه الآيات إلى أن الطريق العملي لإقامة الاستخلاف على أساس من العدل والاستقامة والاتصال بالله تعالى، ومن ثم تحقيق آثاره؛ يكون بثلاثة أمور مذكورة في هذه الآية الكريمة نفسها:

---

1 مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، 18/ 302، نقلا عن الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 2/862- 863.

2 ينظر التيسير في أحاديث التفسير، 4/ 299 -288

الأمر الأول: إقامة الصلاة كما يريد الله تعالى، وقد أمر بها سبحانه في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور: 56] أي صلوا صلاة مقومة تستشعر فيها جلال الله تعالى وكبرياءه، وتحس فيها أنك في حضرة الله تعالى وكأنك تراه في مثولك بين يديه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذه تربية روحية، واتصال بالله سبحانه وتعالى فيكون امرا يألف ويؤلف.

والأمر الثاني: إيتاء الزكاة، أي إعطاؤها لولي الأمر، وهو يصرفها في مصارفها، وهذا الأمر ذكره بقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور: 56] عبر سبحانه بقوله: (وآتوا) دون (أدوا) للإشارة إلى أنها عطاء يعطى، يعطيها المزكي على أنها مغنم لا على أنها مغرم، وهي تعاون اجتماعي لا مذلة فيه لفقير، ولا استطالة لغني.

والأمر الثالث: طاعة الرسول في كل ما يأمر به وينهى عنه، وينظم به الدولة الإسلامية، ويقيم دعائم الحكم على أساس من العدل، وتنسيق الأمور، وهذا هو الأمر الثالث، وقد ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور: 56] وطاعته في حياته باتباع أوامره في تنظيم الدولة، وتوزيع قواها كلها، بحيث يتبع في توسيد الأمور للقائمين بها، في الحرب والسلم على سواء، وبعد مماته تكون طاعته باتباع ما أثر عن سنته فهي المحجة الواضحة.([1])

وهذا من أعظم آثار تطبيق هدايات هذه الآية عملياً لارتباط نتائجها وثمراتها، بالأسباب التي يقوم بها المؤمنون أنفسهم، حسب وعد الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴿٥٥﴾ ... ﴾ [النور: 55، 56] وإن الله تعالى لا يخلف الميعاد...

فهذه الأمور الثلاثة العظيمة هي أركان المجتمع المسلم، وقواعده الإيمانية العملية التي يقوم عليها، وبها يتحقق الاستخلاف، ومن خلالها يتم التمكين لدولة الإسلام، وهي أسباب وآثار في نفس الوقت، فهي أسباب من حيث كونها وسيلة لتحقيق الاستخلاف والتمكين للإسلام في مفهومه العام والشامل. وهي آثار من حيث كونها نتائج وثمرات للتمكين الحقيقي لعقيدة الإسلام.

تاسعاً: أثر التزام الأسرة المسلمة بتطبيق آداب البيوت، في تربية النشء، وحمايته من الانحراف الأخلاقي:

إن ذهن الطفل هو أشبه ما يكون بالصفحة البيضاء، قابلة لكل نقش.. فإن أنت نقشت فيها جميلاً وجدت جميلاً.. وإن أنت نقشت فيها قبيحاً وجدت قبيحاً.. وقد قال صلى الله عليه وسلم:

---

1 ينظر زهرة التفاسير، 10/ 2223

((ما مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ)). ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: 30](1)

إن الطفل أقرب ما يكون إلى التأثر بما يشاهده وبما يسمعه من أبويه وأسرته، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، (ونحن إذا ما وضعنا هذا الأمر تحت مجهر الواقع، نجد أن كل أمراضنا الاجتماعية تتكوّن أصلها في بيت الأسرة التي تتكون نواتها الأولى من الأبوين، فالطفل إذا كان يرى أبويه دائماً في خصومة وشجار وتلاعن وسباب، فلا شك أنه واقع هو في سباب الناس وملاعنتهم. إذ كيف يتخلق بالخلق الحسن مع الناس، وقد فقَدَه في محضنه وبيت أبويه...؟ وكيف يتعلم الصدق وهو يبصر أبويه يكيد لبعضهما البعض من خلال الركوب على قنطرة الكذب والخداع..؟ ومن هنا فإن تأثير الوسط الأسري على الطفل قوي وقوي جداً..

ومن هنا تتجلى آثار التزام الأسرة المسلمة بتطبيق هدايات هذه الآيات، في تربية النشء وتعليمه آداب البيوت، وأخلاق الإسلام في ذلك، وتكون هي القدوة والأسوة في ذلك.

وإن القرآن الكريم حينما يأمر الأسرة المسلمة بتربية أولادها، ومَنْ تحت حضانتها ومسؤوليتها، فإنه يرشدها إلى ما فيه قُرّة عينها، وصلاح أمرها، وعظيم أجرها، واستمرار ثوابها بعد وفاتها، وهذا من أعظم آثار تطبيق هديات هذه الآية، ذلك أن الولد من عمل والديه، وآثارهما الطيبة التي تستمر بعدهما، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))(2)

عاشراً: أثر توقير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيم مقامه، في التزام طاعته قولا وفعلا، والحذر من مخالفته أمراً ونهياً.

إن من من أعظم الآثار العملية التطبيقية لهدايات تعظيم مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والتزام طاعته واتباع أمره، حصول الهداية الكاملة لمن عظّمه والتزم أمره، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: 158] وقد علق سبحانه الهداية في آية سورة النور بتحقيق الطاعة فجعلها شرطاً لها فقال: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور: 54]

1 رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، حديث رقم: 1358، ومسلم كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، حديث رقم: 6926.

2 رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم: 4310

ولقد دلّت هذه الآية من سورة النور على أن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم سبب للهداية التي يتحصل عليها المرء، فيفهم من هذا: أن من لم يطع النبي صلى الله عليه وسلم حرمها، فجعل سبحانه الاهتداء مقروناً بطاعته.

والسياق القرآني لهذه الآية الكريمة يبين دلالة أكيدة أن الفلاح في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة، لا يكون إلا بطاعة النبي صلى الله عليه وسلم، واتباع أوامره، والسير على منواله وطريقه، فقد جاءت عقب الحديث عن موقف طائفتين من طاعة النبي صلى الله عليه وسلم: المنافقين، والمؤمنين.

ففي المنافقين يقول سبحانه مبيناً تناقضهم وإعراضهم عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور:47- 50]

وفي المؤمنين يقول تعالى –تزكية في استجابتهم للرسول عليه الصلاة والسلام، واتباع أوامره: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور51- 54](1)

وهكذا فحصول الهداية الحقيقية الكاملة بتحقق آثارها في الواقع، لا يكون إلا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته، وتعظيم مقامه، والحذر من مخالفته،كما أنه لا طهارة للقلوب، ولا زكاة للنفوس، ولا صلاح للأعمال، إلا باتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم، والتحقق به قولا وعملا، ولذلك حذر الله تعالى هنا بأشد أنواع التحذير كلَّ مَن يعرض عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته، وتعظيم أمره وهديه، وبيّن أن المؤمنين الحقيقيين، الصادقين في إيمانهم، هم الذين يسمعون قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويطيعون أمره في كل أمورهم وجميع أحوالهم ومواقفهم.

1 ينظر الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، 2/ 712 - 713

إذ لا عصمة ولا نجاة من الضلال والفتن إلا بتعظيم مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتطبيق أمره، والاهتداء بهديه، والحذر من مخالفته، ولقد ورد في الحديث: ((تركتُ فيكم أمرَيْن لن تضلُّوا ما إنْ تمسَّكتُم بهما: كتاب الله وسنَّتي))([1])

وقد حكى القاضي ابن العربي عن الزبير بن بكار قال: (سمعت مالك بن أنس –وأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله من أين أُحْرِم؟ قال: من ذي الحليفة من حيث أَحْرَم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إني أريد أنْ أُحْرِم من المسجد فقال: لا تفعل، قال: فإني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر، قال: لا تفعل فإني أخشى عليك الفتنة. فقال: وأي فتنة هذه؟ إنما هي أميال أزيدها. قال: وأي فتنة أعظم مِنْ أنْ ترى أنك سبقت إلى فضيلة قَصّر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إني سمعت الله يقول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: 62] (2)

فدل كل هذا على أن تحقيق أثر هذه الهداية عملياً، إنما يكون بتعظيم مقام النبي صلى الله عليه وسلم، واقتفاء أثره، قولا وفعلا، والحذر من مخالفته، أمراً ونهياً.

1 أخرجه مالك في موطئه بلاغاً، 1395، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته: 2937

2 ذكر هذه القصة الإمام الشاطبي في الاعتصام، 1/ 132

القسم الثاني

الهدايات القرآنية في سورة الفرقان إلى الآية (20) ويتكون من بابين

الباب الأول

مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات سورة الفرقان،

ويتكون من فصلين

الفصـــل الأول

اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.

المبحث الأول: اسم السورة

المبحث الثاني: فضائل السورة

المبحث الثالث: أحوال نزول السورة

المبحث الأول

اسـم السـورة

تمهيد حول سورة الفرقان ومنزلتها:

سورة (الفرقان) من عظائم سور القرآن الكريم، إذ هي السورة المعرِّفة بالله المنَزِّل للقرآن، ولا يعرف عظمة القرآن، إلا من عرف مُنزِّل القرآن سبحانه، ولذلك لما أراد الله تعالى أن يتكلم عن نعمة تَنَزُّل القرآن، ومقاصد تَنْزيله الموجودة في وظيفة هداياته، بدأ بقوله: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ أي تعالى وتعاظم: ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ [الفرقان: 1] ثم قال سبحانه بعد مباشرة، على سبيل التعريف بعظمة منزِّل القرآن جل في علاه: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ [الفرقان: 2]

ثم هي كذلك السورة (المعرّفة بالقرآن، وبرسالة القرآن، القرآن بما له من الأوصاف التعريفية الجامعة المانعة: (الفرقان) هذا الوصف الفصل، الذي يميز الوحي الإلهي عن سائر ضروب الخطاب، ويعطيه صبغته الفرقانية التي تقهر وتبهر. وتشق للبشرية الحائرة في ظلمات الضلال طريق النور الواضح المبين..

ولذلك تعتبر هذه السورة بمثابة البوابة العظيمة للقرآن الكريم، بوابة لمعارج الروح نحو منازل الأسرار والأنوار.. والداخل منها إلى فضاء القرآن يكتسب مسلكاً فريداً في تلقي رسالاته.. إنها تعرض خلاصة المنهاج القرآني العملي في السير إلى الله ديناً ودعوة، بما لا تجده في غيرها بهذا التركيز وبهذا الشمول! ففيها المنهاج، وفيها البرنامج، وفيها التقويم)([1])

اسم السورة وعدد آياتها:([2])

- تسمى هذه السورة ب(**سورة الفرقان**) بإجماع المفسرين، بل هو اسم توقيفي لها، سميت به على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبمسمع منه، لما ورد في الصحيحين عن سيدنا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رضي الله عنه قال: (سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَقُلْتُ مَنْ أَقْرَأَكَ

---

1 مجالس القرآن، 155، و158(بتصرف)

2 مر معنا في القسم الأول من هذا البحث الحديث عن: (علاقة الاسم بالمسمى) و (هل أسماء السور القرآنية توقيفية أم اجتهادية) والراجح من الأقوال في ذلك... وذلك في مبحث: (اسم السورة) من سورة النور.

هَذه السُّورَةَ الَّتي سَمعْتُكَ تَقْرأُ. قَالَ أَقْرَأَنيهَا رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ كَذَبْتَ فَإنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَدْ أَقْرَأَنيهَا عَلَى غَيْر مَا قَرَأْتَ، فَانْطَلَقْتُ به أَقُودُهُ إلَى رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إنِّي سَمعْتُ هَذَا يَقْرأُ بسُورَة الْفُرْقَان عَلَى حُرُوف لَمْ تُقْرئنيهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: ((أَرْسلْهُ اقْرَأْ يَا هشَامُ)) فَقَرَأَ عَلَيْه الْقرَاءَةَ الَّتي سَمعْتُهُ يَقْرأُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ :((كَذَلكَ أُنْزلَتْ)). ثُمَّ قَالَ: ((اقْرَأْ يَا عُمَرُ)). فَقَرَأْتُ الْقرَاءَةَ الَّتي أَقْرَأَني، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: ((كَذَلكَ أُنْزلَتْ، إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزلَ عَلَى سَبْعَة أَحْرُف فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ منْهُ))([1])

هكذا إذن يصرّح عمر رضي الله عنه بقوله للرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا) فيُقرُّه الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه التسمية، بل لولا سماع عمر رضي الله عنه ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سَمّاها بهذا الاسم كما يقتضيه سياق القصة.

ويوجد في القرآن الكريم سورتان يبتدئان بهذا اللفظ الجليل: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ سورة الفرقان هذه، وسورة الملك، ومن التناسق العجيب بين هذا اللفظ ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وما بعده، أن الحديث بعده في سورة الفرقان جاء عن الكتاب المسطور (القرآن): ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ [الفرقان: 1] ثم فصلت آيات السورة -بعد ذلك- الحديث عن القرآن وخصائصه ومقاصده ودوره ووظائفه..

وفي سورة الملك جاء الحديث بعد هذا اللفظ ﴿ تَبَارَكَ ﴾ عن الكتاب المنظور: (الكون) ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ﴾ [الملك:1-3] ثم فصلت السورة كذلك الهدف من ذكر آيات الله في الكون وعجائب صنع الله فيه وجليل قدرته...

أما عدد آيات سورة الفرقان فهو: سبع وسبعون آية باتفاق القُرّاء.([2])

---

1 البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرءن على سبعة أحرف حديث رقم: 4992، ومسلم كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، حديث رقم: 1936

2 ينظر منار الهدى، للأشموني، 198.

علاقة اسم السورة بمضامينها ومقاصدها: ([1])

لا شك أن لأسماء السور القرآنية –عموماً– وجه اختصاص بما سميت به، وذلك غالباً ما يكون بما تختص به السورة من خصائص وسمات، وتتميز به من مقاصد وأغراض وأحكام وغايات.

قال الإمام البقاعي رحمه الله تعالى: (وقد ظهر لي أن اسم كل سورة مترجِم عن مقصودها، لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه.)(2)

وقال الإمام الزركشي رحمه الله تعالى: (ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز، كتسمية سورة البقرة لذكر قصة فيها، وتسمية سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من أحكام النساء)(3)

وجه تسمية سورة (الفرقان) بهذا الاسم:

وقد سميت سورة الفرقان بهذا الاسم لافتتاحها به: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ [الآية: 1] وكذا ما لهذا الاسم من دلالة، وما له كذلك من صلة وثيقة بموضوعات السورة وأغراضها الأساسية.

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: (ووجه تسميتها "**سورة الفرقان**" لوقوع لفظ الفرقان فيها ثلاث مرات في أولها، ووسطها، وآخرها)([4])

والفرقان اسم من الأسماء الأعلام على القرآن الكريم، كما هو واضح من مطلعها، وكما هو في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ ۝٤ ﴾ [آل عمران: 3،4]

وهو –أي الفرقان– مصدر مفخّم للدلالة على بلوغ الغاية في التفريق وبيان الفَرْق، على وزن فعلان وملآن. وقيل: الفرقان هو النجاة، وهو قول عكرمة والسدي.([1]) وذلك لأن الخلق في

---

1 مر معنا في القسم الأول من هذا البحث؛ الحديث عن علاقة: الاسم بالمسمى، في مبحث: اسم السورة (سورة النور)

2 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 1/ 11

3 البرهان في علوم القرآن، 340/1

4 التحرير والتنوير، 18/ 313

ظلمات الضلالات، فبالقرآن الكريم وجدوا النجاة، وعليه حَمَلَ المفسرون قوله: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [البقرة: 53]

وفي تسمية السورة بهذا الاسم الجامع دلالة وأي دلالة؛ ولذلك كانت متفردة –من بين سور الكتاب– في شمولها لرسالة القرآن! وفي تعريفها بطبيعة القرآن، وعرضها لقضية القرآن، بما جعلها في طليعة السور التي لا بد للمؤمن الرباني أن يتلقى رسالاتها كلمةً كلمةً. ويهتدي بهدايات آياتها هداية هداية، وحكمة حكمة؛ ولذلك فقد كانت من الشطر المكي الأول من القرآن العظيم، ثم صارت من المحفوظ المتداول لدى كبار الصحابة رضوان الله عليهم –كما مر معنا في قصة عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم رضي الله عنهما– وذلك حتى تعلم الجماعة المؤمنة الأولى طبيعة هذا الدين الذي آمنت به، وحتى يعلم الناس المخاطبون بالقرآن طبيعة هذا الوحي الذي يدعوهم للإيمان.([2])

وهكذا فإن تسمية هذه السورة ب (**سورة الفرقان**) له دلالة خاصة، وذلك لما اشتملت عليه من التعريف بطبيعة القرآن (الفرقانية) ورسائله البلاغية، وقضاياه الكبرى، مع عرض لنماذج حية مِن حُمّال رسائل القرآن، الذين أدلجوا بها إلى ربهم، عبر منازلها ومقاماتها، تلقياً، وترتيلا، من خلال سيرهم إلى الله تعالى تحققاً بهداياتها، تزكية وترقية، حتى استحقوا ذلك الوسام الرباني تشريفاً وتخصيصاً وتكريماً: (**عباد الرحمن**)

---

1 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (1/ 98)

2 مجالس القرآن،1/ 158، (بتصرف)

المبحث الثاني

فضائل السـورة

إن لسورة الفرقان مترلة عظيمة، تتجلى في اسمها وما له من دلالات على موضوعها ومضمونها، -كما مر في تمهيد المبحث السابق- وذلك بما اجتمع فيها من الحديث عن: الله وأسمائه وصفاته، والحديث عن رسوله صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته، والحديث عن كتابه (القرآن) وطبيعته، وخصائصه، ووظائفه، ومقاصده. ثم ما ختمها به سبحانه من ذكر لصفات عباده المخلصين، الموقنين بذلك كله، المتحققين به على وجهه، المستحقين بسبب ذلك للانتساب الرحماني، والتشريف الرباني، الموجب للفوز والرضوان.

وتلك هي قصة الوجود البشري والغاية منه، وذلك هو المقصد الأعظم من تحميل هذا الإنسان أمانة الوحي والرسالة ومسؤولية الخلافة.

و لم يصح في فضل سورة الفرقان شيء مخصوص بها، إلا أنها تدخل ضمن (**سور المثاني**) التي أُعْطِيَها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكان الإنجيل، فعن واثلة بن الأسقع([1]) رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ؛ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ؛ الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ؛ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ؛ بِالْمُفَصَّلِ))([2])

وبناء على هذا الحديث قسم العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام، وهي: الطوال، والمئين، والمثاني، والمفصل. فالطوال سبع سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، فهذه ستة، واختلفوا في السابعة أهي الأنفال وبراءة معاً، لعدم الفصل بينهما بالبسملة، أم سورة يونس؟ والمئون: هي السور التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها .والمثاني: هي التي تلي

---

1 واثلة بن الأسقع بن كعب بن عامر، من بني ليث بن عبد مناة، وصحح ابن أبي خيثمة: أنه واثلة بن عبد اللّه بن الأسقع، كان ينسب إلى جدّه، ويقال الأسقع لقب، واسمه عبد اللّه. أسلم قبل تبوك، وشهدها. وروى عن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، وعن أبي مرثد، وأبي هريرة، وأم سلمة، وعنه ابنته فسيلة. وهو من أهل الصّفة. وقد نزل الشّام. وشهد فتح دمشق وحمص وغيرهما. ومات في خلافة عبد الملك سنة ثلاث وثمانين. (ينظر الإصابة، 6 / 462)

2 أخرجه الطيالسي في مسنده (1112)، وأحمد في (مسنده) حديث رقم: (169820) والطحاوي في (مشكل الآثار) حديث رقم: (1180) الطبراني في (الكبير) حديث رقم: (22/75) و لم يذكر (الطوال)، وأبي نعيم في (معرفة الصحابة) حديث رقم: (5885)، والبيهقي في (الشعب) حديث رقم: (24159) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: 1059.

المئين في عدد الآيات والمفصل: هو آخر القرآن، واختلفوا في تعيين أوله على اثني عشر قولا، وهو ثلاثة أقسام: طوال وأوساط وقصار...([1])

وسور المثاني هي: الأنفال، والرعد، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والحج، والنور، والفرقان، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس، وص، والزمر، وغافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، ومحمد، والفتح، والحجرات.([2])

وسميت هذه السور بالمثاني لأنها أَثْنَتِ السَّبْعَ، أو لكَونِها قَصُرتْ عنِ المِئينَ وزادت على المُفصَّلِ. وقيل لأنها تثنى أكثر مما يثني الطوالَ والمئون. وقيل لتثنية الأمثال فيها بالعبر والخبر، وقيل هي التي تثنى فيها القصص.

وورد عن ابن عباس وسعيد ابن جبير: أنها سميت بالمثاني لأنها السور التي ثَنَّى الله فيها الفرائض، والحدود، والقصص، والأمثال.([3])

وهذا الذي قاله ابن عباس وابن جبير رضي الله عنهما في تعليل تسميتها، هو ما تشهد له مواضيع هذه السور التي صنفت ضمن هذا القسم، ومنها سورة الفرقان موضوع هذا البحث كما سيتجلى ذلك في مقاصدها وموضوعاتها وهداياتها الجزئية والكلية.

---

1 مناهل العرفان: الزرقاني 1 / 352.

2 ينظر، البرهان للزركشي، 1/ 244، والإتقان للسيوطي، 62/1

3 جامع البيان في تأويل القرآن، 17/ 179

المبحث الثالث

أحـوال نـزول السـورة

نـوع السورة ومكان نـزولها:

سورة الفرقان مكية كلها عند جمهور المفسرين، وقال ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات منها، فإنها نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠ ﴾ [الفرقان: 68-70](1)

لكن انسجام هذه الآيات الثلاث مع سياق السورة وأسلوبها، وعرض موضوعاتها، ثم بروز الطابع المكي عليها، مما يحمل على التوقف في قبول هذه الرواية والتسليم بما ذكرتْه. بل الثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما في صحيح البخاري أنها -أي هذه الآيات- مكية كما سنرى ذلك إن شاء الله، وقد أورد الإمام الطبري رحمه الله بسنده روايات متعددة في سياق تفسير هذه الآيات تؤكد مكيتها، منها ما رواه بسنده عن سعيد بن جُبير، قال لي سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى: سل ابن عباس عن هاتين الآيتين، عن قول الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ... إلى قوله تعالى: إِلَّا مَن تَابَ﴾ وعن قوله: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾ [النساء: 93] قال: فسألت عنها ابن عباس، فقال: أنزلت هذه الآية في الفرقان بمكة إلى قوله: ﴿ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ فقال المشركون: فما يغني عنا الإسلام، وقد عَدَلْنا بالله، -أي سوّينا به غيره- وقتلنا النفس التي حرّم الله، وأتينا الفواحش، قال: فأنزل الله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا... ﴾ إلى آخر الآية، قال: وأما من دخل في الإسلام وعقَله، ثم قتل، فلا توبة له. -وفي رواية- قال سعيد ابن جبير رحمه الله: فذكرته لمجاهد، فقال: إلا من ندم.(2)

وأصل هذه الروايات في صحيح البخاري؛ فعَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَالَ: قَالَ ابْنُ أَبْزَى: سَلِ ابْنَ عَبَّاس عَنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ وَقَوْله: ﴿ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: (لَمَّا

1 ينظر المحرر الوجيز، 4/ 199، والجامع لأحكام القرآن، 13/ 1.

2 ينظر جامع البيان، 19/ 306

نَزَلَتْ قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: فَقَدْ عَدَلْنَا بِاللَّهِ وَقَتَلْنَا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَتَيْنَا الْفَوَاحِشَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَلِحًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ([1])

وهكذا يتبيّن لنا أن سورة الفرقان كلها مكية وبدون استثناء أي آية منها، على الصحيح.

ترتيبها النزولي:

- سورة الفرقان هي السورة الثانية والأربعون من حيث ترتيب النزول، وقد نزلت بعد سورة يس، وقبل سورة فاطر.([2])

وقد رجّح العلامة محمد عزت دروزة رحمه الله –في دراسة موثقة له في تفسيره– أنها نزلت بعد سورة يس،([3]) مع ما يوجد بين السورتين من التشابه والتساوق الحاصل بين موضوعاتهما، مما يمكن أن يكون قرينة على صحة ترتيب نزولها بعدها.

فتكون هذه السورة من الشطر المكي الأول، حيث إن ترتيبها هو حسب النزول هو الثاني والأربعون (42) من ست وثمانين (86) سورة نزلت بمكة.(4)

الجو العام لنزول السورة:

إذا كانت سورة الفرقان مكية، ونزولها بعد سورة يس كما سبق ذكره، فإن سورة يس نزلت بعد سورة الجن، –كما ذكر الشيخ محمد عزة دروزة في دراسته المشار إليها سابقاً– ونزول سورة الجن كان في رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف، (وكان قد ذهب إليها سنة عشر من بعثته، فيكون نزول سورة الفرقان في السنة العاشرة من البعثة، وتكون من السور التي نزلت فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء. وهي فترة تميزت بقسوة مشركي مكة وعنفهم ورغبتهم في القضاء على الدعوة بكل سبيل.(5)

---

1 البخاري، كتاب التفسير، سورة الفرقان، باب قوله تعالى: (يضاعف له العذاب يوم القيلمة ويخلد فيه مهاناً) حديث رقم: 4765

2 الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، 1/ 29

3 ينظر التفسير الحديث ترتيب السور حسب أسباب النزول،1/ 16-15

4 ينظر المرجع نفسه، 3/ 47

5 ينظر تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحادة، 9/ 3664

ولذلك تبدو سورة الفرقان وكأنها إيناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية له، وتطمين لقلبه، وتثبيت لنفسه، وهو يواجه مشركي قريش، وعنادهم وتعنتهم معه، وجدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدى وصدهم عنه.([1])

والناظر في موضوعات السورة وسياق أحداثها يتبين له بوضوح أن السورة لم تَنْزِل جملة واحدة، بل نزلت نجوماً حسب الوقائع والحوادث، شأنها في ذلك شأن غالب السور القرآنية، إلا ما دل دليل على أنه نزل جملة واحدة، بل وردت آية في سورة الفرقان نفسها تشير إلى هذا–وإن كانت هي قاعدة عامة تتحدث عن نزول القرآن كله–وهي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ ﴾ [الفرقان: 32]

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قال المشركون: إن كان محمد يزعم نبياً فَلِمَ يعذبه ربه؟ ألا يترل عليه القرآن جُمْلة واحدة؟ يترل عليه الآية، والآيتيْن، والسورة. فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا...٣٤ ﴾ [الفرقان 32-34])([2])

وكذلك قوله تعالى: –الذي مر معنا– ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ٦٨ ﴾ [الفرقان: 68]

فقد روى البخاري بسنده عن سعيد بن جبير، قال: أمرني عبد الرحمن بن أبزي قال: سل ابن عباس عن هاتين الآيتين ما أمرهما: ﴿ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ ٧٠﴾ [الفرقان: 68-70] وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء: 93] فسألت ابن عباس فقال: لما أنزلت التي في الفرقان قال مشركو أهل مكة: فقد قتلنا النفس التي حرم الله، ودعونا مع الله إلها آخر، وقد أتينا الفواحش فأنزل الله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾([3]) وأما

---

1 ينظر في ظلال القرآن، 19/ 2544

2 رواه الحاكم في المستدرك 2/ 530 وقال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه. وأورده ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (المتوفى: 643هـ) في: الأحاديث المختارة، أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، 10/ 119.

3 البخاري، كتاب التفسير، سورة الفرقان، باب قوله تعالى: (يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً) حديث رقم: 4765

التي في النساء الرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ثم قَتَل، فجزاؤه جهنم خالدًا فيها. فذكرته لمجاهد فقال: إلا من ندم.(1)

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ - أَوْ سُئِلَ - رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: أَيُّ الذَّنْب عنْدَ اللَّه أَكْبَرُ، قَالَ: ((أَنْ تَجْعَلَ للَّه ندًّا وَهُوَ خَلَقَكَ)) قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ((ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ)) قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ((أَنْ تُزَانِيَ بحَلِيلَة جَارِكَ)) قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذه الآيَةُ تَصْديقًا لقَوْل رَسُول اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان: 68](2)

وهناك آيات أخرى في السورة يظهر من أسباب نزولها أنها نزلت في وقائع متعددة، وأحداث مختلفة، اقتصرت فقط هنا على ما ذكرت حتى لا أطيل، لأن الغرض هو بيان الجو العام لنزول السورة وكذا وقت نزولها.

1 ينظر جامع البيان، 19/ 306

2 البخاري، كتاب التفسير، باب: سورة الفرقان، حديث رقم: 4761

الـفـصــل الثــاني

معـاني الســورة ومقـاصــدها

المبحث الأول: مقاصد السورة العامة

المبحث الثاني: معاني مفردات السورة من الآية(1- 20)

المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هدايات السورة

المبحث الأول

مقاصد السورة العامة([1])

المقصد العام للسورة

لا شك أن براعة استهلال هذه السورة فيها ما يشير إلى مقصدها العام: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ [الفرقان: 1]

وهذا الاستهلال المجمل المفخّم، هو ما فصلتْه السورة في آياتها. فالفُرْقَان مصدر مفخّم للدلالة على بلوغ الغاية في التفريق وبيان الفَرْق، على وزن فعلان وملآن. وقيل: الفرقان هو النجاة، وهو قول عكرمة والسدي.([2]) وذلك لأن الخلق في ظلمات الضلالات، فبهدى القرآن ونوره وجدوا النجاة.

ولذلك كان المقصد العام الذي تدور عليه هذه السورة هو:

(التعريف بالقرآن بما هو منهاج عملي، ورسالة ذات قضية فرقانية تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والظلمات والنور)([3])

قال الإمام القرطبي: (وَمَقْصُودُ هَذِهِ السُّورَةِ ذِكْرُ مَوْضِعِ عِظَمِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرُ مَطَاعِنِ الْكُفَّارِ فِي النبوة والرد على مقالاتهم فَمِنْ جُمْلَتِهَا قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْقُرْآنَ افْتَرَاهُ مُحَمَّدٌ، وإنه ليس من عند الله)([4])

وقال الطاهر بن عاشور: وأقيمت هذه السورة على ثلاث دعائم:

الأولى: إثبات القرآن مترل من عند الله، والتنويه بالرسول المترل عليه صلى الله عليه وسلم، ودلائل صدقه، ورفعة شأنه عن أن تكون له حظوظ الدنيا، وأنه على طريقة غيره من الرسل، ومن ذلك تلقى قومه دعوته بالتكذيب.

---

1 مر معنا في القسم الأول من هذا البحث الحديث عن: تعريف المقاصد عموماً. والحديث عن: (علم مقاصد السور خصوصاً) ثم الحديث عن المقصود ب:(مقاصد السورة أو السور) والمقصود العام للسورة وغير ذلك ... وذلك في مبحث: (مقاصد السورة العامة) من سورة النور.

2 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 1/ 98

3 ينظر مجالس القرآن، 1/ 158 و161

4 الجامع لأحكام القرآن، 1/13

الدعامة الثانية: إثبات البعث والجزاء، والإنذار بالجزاء في الآخرة، والتبشير بالثواب فيها للصالحين، وإنذار المشركين بسوء حظهم يومئذ، وتكون لهم الندامة على تكذيبهم الرسول وعلى إشراكهم واتباع أئمة كفرهم.

الدعامة الثالثة: الاستدلال على وحدانية الله، وتفرده بالخلق، وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو شريك، وإبطال إلهية الأصنام، وإبطال ما زعموه من بُنُوة الملائكة لله تعالى.

وافتتحت في آيات كل دعامة من هذه الثلاث بجملة: (تبارك) إلخ.([1])

قال العلامة محمد أبو موسى: (وقد رأيتها –سورة الفرقان– تبدأ بأصول ثلاثة:

الأول: التّنْزيه.

الثاني: نزول القرآن على عبده.

الثالث: خبر المخاطبين بهذا القرآن.([2])

وهكذا فإن هذه المحاور التي ذكرها العلماء للسورة تلخص لنا ما سبق ذكره مِنْ أن المقصد العام الذي تدور حوله السورة الكريمة هو:

القرآن الكريم بما هو معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودليل صدقه، ورسالة ربانية (فرقانية) منزلة من عند الله تبارك وتعالى، جاءت لتشق للبشرية الحائرة التائهة في ظلمات الضلال؛ طريق النور الواضح البين، والذي من خلال نذارته وإنارته، تتلقى الإنسانية حقائق الإيمان بالله، واليوم الآخر، وبصائر الآيات في سيرها إلى الله تعالى، ديناً ودعوة، وما سيؤول إليه مصيرها في النهاية.

موضوعات السورة الرئيسة:

انطلاقاً من المقصد العام لسورة الفرقان، فإن موضوعاتها الرئيسة والتي تدخل تحت هذا المقصد الرئيسي يمكن حصرها في المحاور الآتية:

أولاً: تسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم؛ ليكون للعالمين نذيراً بفرقانه المبين، المتجلي في إعلان توحيده تعالى، لأنه المالك لما في السماوات والأرض، المدبر للكون بحكمة وتقدير، ثم نفي الولد والشريك عنه سبحانه، والرد على ادعاء الكافرين وزعمهم

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 314.

2 من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الحزاب، 44

الباطل تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم والرسالة.. ثم تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الرسل جميعاً كانوا بشراً مثله، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. (من الآية: 1 إلى الآية: 20)

ثانياً: بيان تطاول المكذبين بلقاء الله على الله تعالى، وبالقرآن الذي يذكرهم وينذرهم بذلك، وقولهم -تعنتاً- : ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان:21] وتهديدهم وتذكيرهم بمشهد ذلك اليوم العظيم الذي يرون فيه الملائكة ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: 26] ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: 27] ليكون في ذلك تأسية للرسول صلى الله عليه وسلم، تجاه قومه وهم يهجرون القرآن، وهو يشكو لربه هذا الهجران. وهم يعترضون على طريقة تنزيله ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ [الفرقان: 32] (من الآية: 21 إلى الآية: 44)

ثالثاً: عرض بعض المشاهد الكونية؛ تبياناً لمظاهر الإبداع في خلقه سبحانه وتكوينه، كمشهد الظل، وتعاقب الليل والنهار، والرياح المبشرة بالماء المحيي، وخلق البشر من الماء، وجعل الأنساب والمصاهرة بينهم. ومع هذا فإن الكافرين بالله يعبدون من دونه ما لا ينفعهم ولا يضرهم، ويتظاهرون على ربهم وخالقهم، ويتطاولون في قحّة إذا دعوا إلى عبادته سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: 60] وهو الذي ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: 61،62] ولكنهم هم لا يتذكرون ولا يشكرون.. (من الآية: 45 إلى الآية: 62)

رابعاً: وصْف عباد الرحمن الذين يسجدون لله سبحانه ويعبدونه، وبيان مقوّماتهم التي استحقوا بها هذه الصفة الرفيعة. وأن باب التوبة مفتوح لمن يرغب في أن يسلك طريقة عباد الرحمن. وقد صوّر جزاءهم على صبرهم على تكاليف الإيمان والعبادة، ترغيباً في سلوك طريقهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [75،76](1) (من الآية: 63 إلى الآية: 76)

1 ينظر في ظلال القرآن، 19/ 2546- 2547

المبحث الثاني

معاني مفردات السورة من الآية: 1 إلى الآية: 20

تمهيد:

مما هو معلوم أن لكل سورة من سور القرآن الكريم شخصيتها المتميزة، يظهر ذلك في مقصدها العام، وموضوعاتها الرئيسة، ومحاورها الأساسية.

وإن مما يدخل ضمن شخصية السورة ومميزاتها؛ ما اشتملت عليه من مفردات لغوية، ومصطلحات ومفاهيم قرآنية، في سياق موضوعاتها ومضامينها، تحقيقاً لمقاصدها وأغراضها في عرض هداياتها، وفي هذا المعنى يقول يقول ابن عطية رحمه الله: (إذ ترتبت اللفظة من القرآن علم الله بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول... وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد)([1])

وسأعمل في هذا المبحث على بيان معاني مفردات هذه السورة مركزاً على ما هو غريب منها، وما تفردت به، مراعياً أصول معانيها اللغوية، واستعمالاتها القرآنية في سياق موضوعها.

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة، وهي الزّيادة والنّماء، والكثرة والاتّساع، أي البركة التي تكتسب وتنال بذكره. وتكون حسية ومعنوية([2]) وهو في العربيَّة كقولك تقدَّس رَبُّنا. البركة والتقدُّس العظمة وهما بعد سوَاء.([3]) وقيل: تبارك: تعالى وتعاظم، وقيل: المعنى تعالى عطاؤه أي زاد وكثر.

قلت: والمعنيان صحيحان لغة، ومقصداً، وهدايةً. قال الراغب: (وكلّ موضع ذكر فيه لفظ (تبارك) فهو تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكر (تبارك) وقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ [الفرقان: 1] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ ﴾ [الفرقان: 10] ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: 64] ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾ [الملك: 1] كلّ ذلك تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات

---

1 ينظر المحرر الوجيز، 1/ 52

2 التبيان في تفسير غريب القرآن، أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، أبو العباس، شهاب الدين، ابن الهائم (المتوفى: 815هـ) تحقيق: ضاحي عبد الباقي محمد.

3 ينظر معاني القرآن، للفراء، 262/2 .

المذكورة مع ذكر (تبارك)([1]) قال القاضي: (البركة تتضمن معنى الزيادة، وترتيبه على إنزال القرآن لما فيه من كثرة الخير، أو لدلالته على تعاليه)([2])

وهذه اللفظة ﴿ تَبَارَكَ ﴾ لا تُسْتَعْمل إلا لله وَلا تستَعْمل إلا بلَفْظ الْمَاضِي، وَجَاءَت فِي هَذه السُّورَة فِي ثَلاث مَوَاضِع ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [الفرقان: 1] و﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ ﴾ [الفرقان: 10] و﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: 61] تَعْظيمًا لذكر الله تعالى، وخصت هَذه الْمَوَاضِع بالذكر لأن مَا بعْدهَا عظائم، الأول: ذكر الْفرْقَان، وَهُوَ الْقُرْآن الْمُشْتَمل على مَعَانِي جَمِيع كتب الله عز وجل . وَالثَّانِي: ذكر النَّبِي صلى الله عليه وسلم، والله خاطبه بقوله لولاك يَا مُحَمَّد مَا خلقت الكائنات. وَالثَّالث: ذكر للبروج، والسيارات، وَالشَّمْس، وَالْقَمَر، وَاللَّيْل، وَالنَّهَار، ولولاها مَا وجد فِي الأَرْض حَيَوَان وَلا نَبَات وَمثلهَا: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: 64] و ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] و﴿ تَبَرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك: 1]([3])

قوله تعالى: ﴿ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ الفُرْقَانُ: قال ابن فارس: (الفاء، والراء، والقاف، أصل صحيح يدل على تمييز وتنزيل بين شيئين. من ذلك الفرق: فرق الشَّعَر، يقال فَرَقْتُه فَرْقاً.. والفرقان: الصبح، سمي بذلك لأنه به يُفْرق بين الليل والنهار، ويقال: لأن الظلمة تتفرّق عنه)([4])

والفُرْقَانُ: أبلغ من الفرق، لأنه يستعمل في الفرق بين الحقّ والباطل، فرقاً جلياً بغير شبهة، وتقديره كتقدير: رجل قنعان: يقنع به في الحكم، وهو اسم لا مصدر فيما قيل، بينما الفرق يستعمل في ذلك وفي غيره..([5])

والفرقان مصدر فرق بين الشيئين؛ إذا فصل بينهما، والفرقان كلام الله تعالى، سمي بذلك لفرقه بين الحقّ والباطل في الاعتقاد، والصّدق والكذب في المقال، والصالح والطّالح في الأعمال، والحسن والسيء في الأخلاق، وذلك في القرآن، والتوراة، والإنجيل، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 53] وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: 48] وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [الفرقان: 1]

---

1 المفردات، 1/ 119مفردة (برك)

2 ينظر أنوار التنزيل، 4/ 205

3 ينظرأسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، 188/ أبو القاسم برهان الدين الكرماني.

4 ينظر معجم مقاييس اللغة، مادة (فرق)

5 ينظر المفردات، 1/ 633- 634 مفردة (فرق)

وقال سبحانه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة: 185]

قوله تعالى: ﴿ نُشُورًا ﴾ مصدر نشر. نشر الميت نشوراً، وهو أن يبعث ويحيا بعد الموت، قال الأعشى:

حتى يقول الناسُ مما رأوا *** يا عَجَبا للميَّت الناشرِ([1])

و(النُّشُورُ): الحياةُ بعد الموت. وَنَشَرَ اللَّهُ الْمَوْتَى فَنَشَرُوا، وَأَنْشَرَ اللَّهُ الْمَوْتَى أَيْضًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾ [عبس: 22](2) وَنَشَرَتِ الْأَرْضُ: أَصَابَهَا الرَّبِيعُ فَأَنْبَتَتْ، وَهِيَ نَاشِرَةٌ، وَذَلِكَ النَّبَاتُ النَّشْرُ.([3]) وعبر سبحانه هنا عن البعث بعد الموت بالنشر، لأن خروج الناس من قبورهم يشبه خروج النبات من الأرض.

قوله تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ السعير مذكّر، وهو ما تَسعّر من سمار النار، ثم جاء بعده فعل مؤنثة مجازها أنها النار، والعرب تفعل ذلك تظهر مذكراً من سبب مؤنثة، ثم يؤنثون ما بعد المذكر على معنى المؤنثة.([4])

والسعير: شديد اشتعال النار واستعارها وشدة لهيبها وحرها، عبّر به سبحانه عن النار لأنه هو أشد ما يجده الكافر منها. والغرض من هذا التعبير تخويف الكفار وتهديدهم بما ينتظرهم، من خلال هذا التصوير المخيف للنار وهي تشتعل...

قوله تعالى: ﴿ تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي: تغيظًا عليهم. والغيظ: الْغَضَب. وَقيل: هُوَ أشد الْغَضَب. وَقد غاظه، فاغتاظ، وغيظه فتغيظ. ([5])

قَالَ الزّجاج: وَقَوله تَعَالَى: ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ أَراد غَلَيان تَغَيُّظٍ أَي صَوْتَ غَلَيَانٍ.([6])

---

1 ينظر المفردات. 121

2 مجمل اللغة، لابن فارس، مادة (نشر)

3 ينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (نشر)

4 ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة. 121

5 المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، مادة: الغين والظاء والياء

6 ينظر معاني القرآن وإعرابه، 4/ 59

والزَّفِيرُ: تردّد النّفس حتى تنتفخ الضّلوع منه، وازْدَفَرَ فلان كذا: إذا تحمّله بمشقّة، فتردّد فيه نفسه، وقيل للإماء الحاملات للماء: زَوَافِرُ.([1])

ومن ذلك وصف الله تعالى لحال أهل النار وهم فيها: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾ [هود: 106] والزفير: إخراج النفس. والشهيق: ردّه.([2]) قال الفراء: (فالزفير أوَّلُ نَهِيقِ الحمار وشبهه، والشهيق من آخره)([3])

قوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ ١٣﴾ مقرنين مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. من قرّنه بتشديد الراء جَمّعه وشدده، يقال قرّنت الأسارى في الحبال، وفعله الثلاثي: قرن يقرن من باب ضرب يضرب، قرنا الشيء بالشيء شده به ووصل اليه، وقرن الثورين جعلهما في نير واحد، وقرن البعيرين جمعهما في حبل، وهي في قوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ تفيد شيئين: التصفيد أي تقييد الأرجل وجمع الأيدي والأعناق بالسلاسل. وقيل: مقرنين مع الشياطين في السلاسل.([4]) إذ الجزاء من جنس العمل، فكما رضوا لأنفسهم في الدنيا أن يكونوا قرناء للشيطان، مقرنين معه، كذلك كان عذابهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ثُبُورٗا ١٣﴾ قال ابن فارس: (الثَّاءُ، وَالْبَاءُ، وَالرَّاءُ، أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: الْأَوَّلُ السُّهُولَةُ، وَالثَّانِي الْهَلَاكُ، وَالثَّالِثُ الْمُوَاظَبَةُ عَلَى الشَّيْءِ)([5]) والشاهد منها الأصل الثاني، والثالث، ولذلك قال بعدها: وَأَمَّا الْهَلَاكُ فَالثُّبُورُ، وَرَجُلٌ مَثْبُورٌ هَالِكٌ. وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ وَأَمَّا الثَّالِثُ فَيُقَالُ: ثَابَرْتُ عَلَى الشَّيْءِ، أَيْ وَاظَبْتُ. فهم في هلاك دائم، مع دعاء متواصل بالثبور، كما قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾

فالثُّبور: الهلاك والفساد، المَثابر على الإتيان، أي: المواظب، من قولهم: ثَابَرْتُ. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ [الفرقان:14]([6]) قال أبو جعفر: يقال ما ثبرك عن كذا أي ما صرفك عنه، فالمثبور هو المصروف عن الخير، والمعنى يقولون واثبوراه. وروى علي بن زيد عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى حلة من جهنم

---

1 المفردات، 1/ 380 مفردة (زَفَرَ)

2 الكشاف، 2/ 430

3 معاني القرآن، 2 / 28

4 ينظر الكشاف، 741/18، وإعراب القرآن وبيانه، 6/ 676، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش.

5 ينظر معجم مقاييس اللغة، مادة (ثبر)

6 المفردات، 1/ 171 مفردة (ثَبَرَ)

إبليس فيضعها على جبينه ويسحبها يقول: واثبوراه، وتتبعه ذريته يقولون واثبوراه فيقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً))([1])

قوله تعالى: ﴿ قَوْمًۢا بُورَۢا ﴿١٨﴾ ﴾ والبور مصدر واحد وجمع؛ والبائر الذي لا شيء فيه. تقول: أصبحت منازلهم بُوراً أي لا شيء فيها. فكذلك أَعْمال الكفار باطلة. والْبَوَارُ الْهَلَاكُ، تَقُولُ: بَارُوا، وَهُمْ بُورٌ، أَيْ ضَالُّونَ هَلْكَى. وَأَبَارَهُمْ فُلَانٌ، وَقَدْ يُقَالُ لِلْوَاحِدِ وَالْجَمِيعِ وَالنِّسَاءِ وَالذُّكُورِ بُورٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ قَوْمًۢا بُورَۢا ﴿١٨﴾ ﴾([2]) ويقال: رجل بُور وقوم بُور.([3]) ومنه قولهم: نعوذ بالله من بوار الأيم، وبار الطعام وبارت السوق أي هلكت.([4])

قوله تعالى: ﴿ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴿١٩﴾ ﴾ الصَّرْفُ: ردّ الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره، أي: لا يقدرون أن يَصْرِفُوا عن أنفسهم العذاب، أو أن يصرفوا أنفسهم عن النّار. وقيل: أن يصرفوا الأمر من حالة إلى حالة في التّغيير، ومنه قول العرب: (لا يقبل منه صَرْفٌ ولا عدل)([5]) أي لا حيلة ولا نصرة.

وقد يحتمل معنى قوله تعالى: ﴿ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴿١٩﴾ ﴾ أن يكون ذلك في الدنيا، أي لا يستطيعون التوبة والرجوع إلى الله تعالى، بعد ما كذبوا وأصروا على الجحود والكبرياء، وهو ما يفيده سياق الآية: ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورَۢا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ [الفرقان: 18،19]

قال ابن فارس: (وَالصَّرْفُ فِي الْقُرْآنِ: التَّوْبَةُ؛ لِأَنَّهُ يُرْجَعُ بِهِ عَنْ رُتْبَةِ الْمُذْنِبِينَ)([6])

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴿٢٠﴾ ﴾ (فَتَنَ) الْفَاءُ وَالتَّاءُ وَالنُّونُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ابْتِلَاءٍ وَاخْتِبَارٍ. مِنْ ذَلِكَ الْفِتْنَةُ. يُقَالُ: فَتَنْتُ أَفْتِنُ فَتْنًا. وَفَتَنْتُ الذَّهَبَ بِالنَّارِ، إِذَا امْتَحَنْتُهُ([7]) فأصل الفَتْنِ: إدخال الذّهب النار لتظهر جودته من رداءته، وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدّة ورخاء، وهما في الشّدّة أظهر معنى، وأكثر

---

1 ينظر معاني القرآن، للنحاس، 5/ 12

2 ينظر معجم مقاييس اللغة، مادة (بور)

3 ينظر ينظر المفردات، 264/2 .

4 ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة، 121

5 ينظر المفردات، 1/ 482 مفردة (صَرَفَ)

6 معجم مقاييس اللغة، مادة (صرف)

7 معجم مقاييس اللغة، مادة (فتن)

استعمالا، وقد قال الله تعالى فيهما: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء: 35](1) وقوله تعالى هنا: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴿٢٠﴾ ﴾ أي محنة وابتلاء. وهذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قالوه واستبدعوه، من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل، يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض. والمعنى: أنه أبتلى المرسلين منهم بالمرسل إليهم، وبمناصبتهم لهم العداوة، وأقاويلهم الخارجة عن حدّ الإنصاف، وأنواع أذاهم.(2)

1 ينظر المفردات، 1/ 623 مفردة (فَتَنَ)

2 ينظر الكشاف، 18/ 742

المبحث الثالث

المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هداياتها (من الآية 1- 20)

مر معنا في مبحث: (المقاصد العامة لسورة الفرقان) أن موضوعاتها الرئيسة، ومحاورها الأساسية، أربعة. وبالتأمل في تقسيم هذه الموضوعات الأربعة، فإن الموضوع الأول منها يستغرق من أول السورة إلى الآية: 20. وهو الجزء المخصص للدراسة في هذا البحث. وبه يتعلق المعنى الإجمالي من هذا المبحث.

المقطع الأول ومعناه الإجمالي، من الآية:1 إلى الآية: 20:([1])

افْتُتحت سورة الفرقان بالثناء على الله سبحانه الذي تعاظم وتعالى، وتكاثر خيره وتزايد، حتى شمل كلَ شيء، وأعظم هذا الخير وأجله، إنزاله القرآن الكريم الذي هو أشرف الكتب وخاتمتها، على عبده محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو أفضل الرسل وإمامها وخاتَمُها، ومن مظاهر العظمة في هذا الكتاب أنه حياة للعباد ونور لبصائرهم، وفرقان يفرقون به بين الحق والباطل، والهدى والضلال. ثم هو نذير للعالمين من الإنس والجن، ينذرهم بأس الله وعقابه في الدنيا والآخرة لمن أعرض وجاحد أمر الله تعالى، وذلك حتى يسرعوا إلى رضاه ويستجبوا لندائه سبحانه.

ثم بينت الآيات أن لله وحده التصرف في ملكه وملكوته، وكل الخلق هم خلقه وعبيده، خاضعون له، محتاجون لرحمته، وهو غني عن الأنداد والشراء، ليس ولد ولا شريك في ملكه. بل هو خالق لكل شيء، وأعطى كل مخلوق ما يناسب خلقته، وهيأه لما يصلح له وسواه على ما تقتضيه حكمته في ذلك: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢ ﴾ [الفرقان: 2] فقدر له تقديراً من الأجل والرزق، فجرت المقادير على ما خلق.

ولما كان الله تعالى بهذه الصفات الجليلة الظاهرة، اقتضى ذلك أن يكون هو وحده المعبود والمألوه والمحبوب، وليس مَن لا يملك من أمر نفسه شيئاً، فضلا عن أن يملك للآخرين، ولذلك رَدَّ سبحانه على الكفار بقوله: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ۝٣ ﴾ [الفرقان: 3] فكيف يكون هؤلاء آلهة يُعبَدون من دون الله تعالى.

---

1 في صياغة المعنى الإجمالي لهذا المقطع كان الاعتماد على أمهات كتب التفسير، من مثل: (تفسير الطبري، والكشاف للزمخشري، ومعالم التنزيل للبغوي، وتفسيرالقرطبي، والمحرر الوجيز لابن عطية، والتفسير الكبير للرازي، وتفسير ابن كثير.. وغيرها) مع الاستعانة ببعض المراجع المعاصرة.

ولما قرّر الله تعالى أمر هذه الحقيقة بإرجاع الأمور إليه سبحانه، عاد ليؤكد ويفصل أمر هذا القرآن المترل من عنده سبحانه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ورَدّ على مزاعم المشركين وأبطل اتهامهم بادعائهم أن هذا القرآن كذب كذبه محمد وافتراه على الله تعالى، وأعانه على ذلك قوم آخرون. وهذا زور وظلم وبهتان عظيم، إذ أنهم أول من يعرف بطلان هذا القول لمعرفتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ ثم زادوا على ذلك بأن قالوا بأن هذا القرآن هو مجرد قصص الأولين وأساطيرهم التي تتلقاها الأفواه وينقلها كل الناس صباح مساء، استنسخها محمد: ﴿ فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً﴾ [الفرقان: 4] ولذلك رد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦ ﴾ [الفرقان: 6]

ثم حكى الله مقالة المشركين عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وسخريتهم منه، وكيف يكون رسولا وهو لا يتميز عنهم في أكله الطعام، ومشيه في الأسواق، فهلاّ أُنزل ملك من السماء –على زعمهم– ليكون معه يساعده على التبليغ والإنذار، أو يترل الله عليه كنزاً يُنفق منه، أو يكون له بستان يأكل منه. ثم زادوا تعنتاً وظلماً واستكباراً: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورٗا﴾[الفرقان: 8] غلب السحر على عقله فلا هو يدري ما يقول.

ثم جاء الرد الإلهي قوياً، وفاصلاً، وحاسماً، مخاطباً به النبي عليه الصلاة والسلام على سبيل التسرية والتطمين: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٩﴾ [الفرقان:9] تعجيباً من جهلهم وتهافت حجتهم، بمعنى: انظر يامحمد إلى تهافت ما جاؤوا به من كذب وبهتان مما قذفوك به من قولهم: ساحر، مجنون، كذاب شاعر ..، فكلها أقوال باطلة ساقطة، لا ينطلي بهتانها على أحد ممن يعرفك، أو يعرف ما تتكلم به وما تتلوه من قرآن عظيم كلام الله رب العالمين، ولذلك فهم لا يهتدون إلى حقيقة أمرك ولا يستطيعون سبيلا إلى دحض حجتك.

ثم عقب سبحانه بعد ذلك بتمجيد ذاته مرة أخرى بما عَظُمتْ بركاته وكثرت خيراته وتعاظمت: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ ١٠ ﴾ [الفرقان: 10] أيها الرسول مما ضربوه لك مثلاً من مال الدنيا وجاهها، فجعل لك في هذه الأرض الدنيوية –قبل الآخرة– ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠﴾ بساتين كثيرة تتخللها الأنهار، وجعل لك فيها قصوراً عالية فخمة، وكل ذلك سهل يسير على الله تعالى؛ إلا أن حكمته سبحانه في النبوة وطبيعة الرسالة تقتضي أمراً آخر.(1) ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: 11] أي ما كذّب هؤلاء المشركون بالله وأنكروا ما جئتهم به يا محمد من الحقّ، من أجل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، ولكن من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد ولا يصدّقون

1 ينظر مجالس القرآن 172

بالثواب والعقاب، تكذيباً منهم بالقيامة وبعث الله الأموات أحياء لحشر القيامة. وهذا شأن كل معاند وجاحد، وأعددنا لمن كذّب بذلك ناراً تسّعر عليهم وتتقد. إذا رأتهم تغيظت عليهم وذلك بأن تغلي وتفور ﴿ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا ﴾ [الفرقان: 13، 14] فجمع الله على أهل النار أنواع التضييق والإرهاق، حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصاً، ويضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح، وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل، قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع. وقيل: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد. والثبور: الهلاك، ودعاؤه أن يقال: واثبوراه، أي: تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك.([1])

ثم قال الله تعقيباً على هذا المشهد -مستفهماً وموبّخاً-: ﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦ ﴾ [الفرقان: 15،16] قل لهم يا نبيّنا: أذلك الذي ذكرته من صفة النار وأهلها، أم جنة الخلد التي وعدها الله الذين آمنوا من أهل التقوى، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها. وجعل لهم فيها ما يشتهون من مأكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ونحو ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهم فيها خالدون أبداً بلا انقطاع ولا زوال، تفضلاً منه سبحانه، وتحقيقاً لوعده المسؤول الذي سألوه إياه.

ثم لما توعدهم سبحانه بالسعير وما يلاقون من هولها، بيّن لهم حال ما قبل ذلك، وهو حالهم في الحشر مع أصنامهم ومعبوداتهم: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧ ﴾ [الفرقان: 17] فانتصاب(يَوْمَ) على المفعولية لفعل محذوف معلوم في سياق أمثاله، تقديره: اذكر ذلك اليوم، وهذا مظهر من مظاهر الهول لهم في المحشر إذ يشاهدون خيبة آمالهم في آلهتهم فيرون حقارتها بين يدي الله وتبرؤها من عُبّادها وشهادتها عليهم بكفرانهم نعمة الله وإعراضهم عن القرآن، وإذ يسمعون تكذيب من عبدوهم من العقلاء من الملائكة وعيسى عليهم السلام والجن ونسبوا إليهم أنهم أمروهم بالضلالات.(2) ثم يقال لهؤلاء المعبودين: أأنتم دعوتم عبادي إلى الغي والضلال حتى دسوا أنفسهم وهلكوا، أم هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحق، وسلكوا سبيل الهلاك بإعراضهم عن اتباع الرسول؟ فيجيبون: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورَۢا ﴾ [الفرقان: 18] تنزيهاً لله عن باطل شركهم، وتبرئاً

---

1 ينظر الكشاف، 18/ 741

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 337

لأنفسهم مما نُسب إليهم ظلماً وزوراً. وحقيقة أمرهم هي أنك لما أكثرتَ عليهم وعلى آبائهم ياربنا نعمك، ليعرفوا حقها ويشكروك عليها، استغرقوا في الشهوات، وانهمكوا في اللذات وغفلوا عن ذكرك والإيمان بك، فكانوا من الهالكين.

فحينئذ يقال لأولئك العابدين: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾ [الفرقان: 19] والتقدير: إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذبوكم في دعواكم وزعمكم هذا، فما تستطيعون الآن دفعاً للعذاب عن أنفسكم، ولا نصراً لها ولا فداء. ولا حيلة لكم في ذلك. ومن يشرك منكم ويمت على ذلك نذقه عذاباً كبيراً.

ثم قال الله تعالى جواباً عن قول المشركين في الآية السابقة –حيث استبعدوا أن يكون الرسول من البشر– حينما قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ... ٧﴾ [الفرقان: 7] فردّ الله عليهم أن تلك هي سنته في جميع أنبيائه ورسله عليهم السلام، ممَّن يؤمنون هم بهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: 20] فهذه عادة مستمرة من الله في كل رسله فلا وجه لهذا الطعن. فما محمد صلى الله عليه وسلم بدعاً من الرسول في هذا. وجلعنا بعضكم لبعض ابتلاء واختباراً، أي ابتلاء الرسول بالمرسل إليهم والعكس، وفي ذلك تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، والقصد من ذلك هو تحقيق الصبر من عدمه (أتصبرون؟) فيصبر كل واحد منكم على ما ابتُليَ من أجله أم لا. والله تعالى بصير بأحوال الجميع، ويعلم أعمالكم ومقاصدكم وسيجازيكم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

الباب الثاني

دراسات تطبيقية في هدايات سورة الفرقان إلى الآية (20) وربط ذلك بواقع الأمة، ويتكون من ثلاثة فصول

الفصل الأول

الهدايات الجزئية والكلية في السورة

المبحث الأول: الهدايات الخاصة بآيات السورة من الآية (1-20)

المبحث الثاني: الهدايات الكلية في السورة من الآية (1-20)

المبحث الأول

الهدايات الخاصة بآيات السورة (من الآية: 1 إلى الآية: 20)

تمهيد:

إن معجزة هذا الكتاب العظيم تتعدد وجوهها، وتتنوع أساليبها، وتختلف أغراضها، ومقاصدها؛ وإن من أعظم وجوه معجزاته: ما أودع الله فيه من أسرار وهدايات، وأنوار من الحِكم المبصرات، وأنواع من المعاني والفوائد، وغيرها من مقاصد التشريعات الهاديات.

وكل هذه الفوائد البينات، والمعاني النيرات؛ من أسرار التشريعات، وبصائر الهدايات، مما يفتح الله له بصائر أهل القرآن للاطلاع عليه وإبصاره، إنما هي جزء مما أودعه الله تعالى في هذا الكتاب العظيم، ومن ثم فعطاؤه لا ينفد، وأسراره وهداياته لا تنقضي ولا تنتهي، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف: 109]

وإن من أجلّ الوسائل لاستنزال هدايات القرآن الكريم، واستخراج حِكمه وأسراره، بعد الأخذ بقسط من علومه، والتمكن من حظ وافر من لغته وبيانه؛ هو: كثرة تدبره والتوقف مع آياته، وذلك لما تحمله ألفاظه وكلماته، وجمله وآياته، من المعاني الكثيرة والأسرار الغزيرة، لمن تأملها وتدبرها، وهذا من إعجازه وعجائبه التي لا تنقضي.

والوقوف على أسرار آيات القرآن وهداياته، يختلف من متدبر لآخر، وذلك حسب المستوى المعرفي والاستعداد النفسي والتطهر القلبي، (فرؤية النص القرآني من متدبر إلى آخر أكثر منه بصيرة، وإدراكاً للجزئيات، وإدراكاً لظلال النص، وإدراكاً لما بين كلماته وسطوره، وإدراكاً لمقتضياته ولوازمه، وروابطه الفكرية ذات السلاسل المتعددة، تختلف اختلافاً عظيماً، ينتج عنه اختلاف كبير في مقدار الإدراك للدلالات، ومقدار الفهم للمعاني.

كاختلاف رؤية المدينة من ارتفاع عشرين ألف قدم أو أكثر في الطائرة، ودون ذلك، حتى ارتفاع أقدام لا تزيد على المئة، مع بُطْءٍ في السرعة يسمح بالتأمل في الجزئيات، والوقوف عندما يريد منها لإمعان التأمل، وإدراك النظر بغية اكتشاف الدقائق)([1])

1 قواعد التدبر الأمثل، 240-241 عبد الرحمن حبنكة الميداني.

واشتمال القرآن الكريم على كثرة المعاني والدلالات، والتي لا تكاد تنحصر، فيه حث على التدبر والتفهم والاستنباط، للوقوف عليها وإظهارها، واستخراج أسرارها وهداياتها.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: (فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معاني من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم، وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقاً بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات، ليحصل تمام المقصود من الإرشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى)(1)

ثم قال رحمه الله -بعد ذكره لقصة ابن عباس حينما أدخله عمر مع أشياخ بدر رضي الله عنهم ليسألهم وإيّاه عن قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر1] كما في صحيح البخاري.- قال - معقباً على ذلك: (وإنك لتمر بالآية الواحدة فتتأملها وتتدبرها فتنهال عليك معان كثيرة يسمح بها التركيب على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي. وقد تتكاثر عليك فلا تك من كثرتها في حَصَر ولا تجعل الحمل على بعضها منافياً للحمل على البعض الآخر إن كان التركيب سَمْحاً بذلك.

فمختلِف المحامل التي تسمح بها كلمات القرآن وتراكيبه وإعرابه ودلالته، من اشتراك وحقيقة ومجاز، وصريح وكناية، وبديع ووصل ووقف، إذا لم تفض إلى خلاف المقصود من السياق يجب حمل الكلام على جميعها، كالوصل والوقف في قوله تعالى: ﴿ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة2] إذا وُقف على (لاريب) أو على (فيه)(2)

وهدايات القرآن الكريم، ودلالات آياته، واسعة ومتعددة، وذلك بما أودعه الله فيها من المعاني التشريعية الخالدة، والمقاصد التأديبية والتعليمية والتربوية المتجددة، إلى أن تقوم الساعة.

وسأذكر في هذا المبحث بعض ما تيسر لي ذكره وجمعه من هدايات هذه الآيات الكريمة، من سورة الفرقان، من بداية السورة، إلى الآية: 20. مما استفدته واستخرجته من كتب التفسير، وغيرها، أومما فتح الله به علي من خلال التدبر والمدارسة لهذه الآيات.

---

1 التحرير والتنوير، 93/1

2 التحرير والتنوير، 97/1

الآية الأولى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**1**) تفيد في مناسبتها بما قبلها أن الله سبحانه لما ختم سور النور بسعة الملك، وشمول العلم، وتعظيم الرسول، والتهديد لمن تجاوز الحد، افتتح سورة الفرقان بمثل ذلك على وجه هو برهان عليه –مع كونه أضخم منه– فقال: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ أي ثبت ثبوتاً مع اليُمْن والخير الذي به سبقت الرحمة الغضب، والتعالي في الصفات والأفعال، فلا ثبوت يدانيه، ولا يكون ذلك كذلك إلا بتمام قدرته، ولا تتم قدرته إلا بشمول علمه.([1])

(**2**) في مناسبتها بما قبلها أن الله لما بيّن مواقف المنافقين وخذلانهم، وفضح أمرهم في تسللهم من اجتماع الرسول صلى الله عليه وسلم، وحذر المؤمنين من مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم، مع بيان عظيم قدره عليه الصلاة والسلام؛ أتبعه سبحانه بأعظم وصف لهذا الكتاب المنَزّل: (الفرقان) الفارق بين الحق والباطل، والمطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر والكفر: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾

(**3**) يفيد هذا الافتتح إثبات الصانع الحكيم سبحانه، ووصفه بالجلال والكمال، والعظمة والجمال، وتنزهه عن النقصان والمحال جلّ جلاله.

(**4**) تفيد وجوب الثناء على الله تعالى وتعظيمه، وشكره على نعمه لكثرتها وزيادتها وبركتها، والتي لا حد لكثرتها ولا عد لأنواعها. قال الزمخشري: (البركة: كثرة الخير وزيادته ومنها: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ [الأعراف: 54])([2]) وعن عبد الله بن عباس، قال: (تبارك: تَفَاعَلَ من البركة)([3])

(**5**) تدل على عظمة الله تعالى واستعلائه، وكمال عطاءاته، فكلمة (تبارك) تفيد معنيين: أحدهما: تزايد خيره وتكاثر، وهو المراد من قوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ ﴾ [النحل: 18] والثاني: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو المراد من قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى11]([4])

---

1 ينظر نظم الدرر، 13/ 229، 230

2 الكشاف، 18/ 738

3 ينظر الطبري، 19/ 233

4 ينظر مفاتيح الغيب، 4/ 44

(**6**) تدل لفظة ﴿ تَبَارَكَ ﴾ على البقاء كذلك، وهو مأخوذ من بروك البعير، ومن بروك الطير على الماء. وسميت البركة بركة، لثبوت الماء فيها، والمعنى: أنه سبحانه باقٍ في ذاته أزلاً وأبداً ممتنع التغير، وباق في صفاته ممتنع التبدل.([1])

(**7**) إن فِعْل: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ فعل مختص بالله تعالى لم يستعمل في غيره، ولذلك لم يصرف منه مستقبل ولا اسم فاعل، وهو صفة فعل، أي كثرت بركاته ومن جملتها: إنزال كتابه الذي هو: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ بين الحق والباطل.([2])

(**8**) إن حقيقة اللفظة أن البركة: كثرة الخير، ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلا منه تبارك وتعالى. وتفسير السلف يدل على هذين المعنيين.([3])

(**9**) تدل صيغة التفاعل في كلمة: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ على المبالغة. ومعناها راجع إلى ما يفيض سبحانه على مخلوقاته من فنون الخيرات، التي من جملتها: تنزيل القرآن، المنطوي على جميع الخيرات الدينية والدنيوية، أي: تعاظم الذي نَزّل الْفُرقان.([4])

(**10**) تفيد أن لا أحد يستطيع أن يفي بحق حَمْدِ الله تعالى، وغرض الثناء عليه بما هو أهله، إلا هو سبحانه، ومن ثم لا كمال لثناءٍ على الله جل جلاله، إلا بما أثنى هو على نفسه تبارك وتعالى، كما قال صلى الله عليه وسلم: -في مناجاته لله وثنائه عليه- ((لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ))([5])

(**11**) تدل كلمة ﴿ تَبَارَكَ ﴾ كذلك على أن هذا القرآن هو من أعظم البركات وأجلّ الخيرات التي أنعم الله بها على البشرية إلى يوم الدين، لأنه سبب سعادتها وسبيل مجدها، وطريق سيرها إلى الله تعالى، ففيه السلامة والنجاة، وفيه السعادة والفلاح.

(**12**) تشير إلى اعتبار المناسبة في اختيار الألفاظ والمصطلحات في التعبير عن كل أمر ذي بال، ووجه ذلك في الآية؛ أن الله تعالى لما أراد أن يتحدث عن نعمة إنزال الفرقان اختار سبحانه هذه اللفظة: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ فلا يفي بالغرض من الألفاظ في هذه المناسبة إلا هذه اللفظة.

---

1 ينظر اللباب في علم الكتاب، 472/14

2 ينظر المحرر الوجيز، 4/ 199

3 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 19/ 233، وبدائع التفسير لابن القيم، جمع: يسري السيد محمد،2 / 252.

4 ينظر البحر المديد، 4/ 75

5 مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم: 1118 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ...))

(**13**) تشير إلى الاهتمام بحسن الاستهلال عند الحديث عن أمر جليل، لما لذلك من أثر عظيم في السامعين ولفظ أنظارهم لِما سيذكر لهم بعد هذا الاستهلال.

(**14**) في هذا التعبير ﴿ تَبَارَكَ ﴾ الدال على الرفعة والتكثّر والزيادة والاستمرار، دليل على أن بركات الله لن تزال تترى علينا ما دام هذا القرآن يُتلى، وذلك هو الفضل العظيم الذي لا ينقطع خيره أبداً فتبارك الله بما نزل على عبده من بركات.([1])

(**15**) فيها أن أصل العطاء كله من الله تعالى وحده، المادي منه والمعنوي، الدنيوي منه والأخروي، ولذلك كان من أسماء الله وصفاته: المعطي.

(**16**) تفيد الآية أن نعمة نزول القرآن أعظم من أن يحيط بها خيال الإنسان إحصاءً وعدّاً، وأكبر من أن تستنفد البشرية بركاتها وأنوارها، فأي لسان قدير على شكر ما لا ينحصر بلسان؟ ولذلك كان لا كمال لثناء على الله جل جلاله إلا بما أثنى هو على نفسه: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وتعالى.([2]) كما قال صلى الله عليه وسلم: -في مناجاته لله وثنائه عليه- ((لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ))([3])

(**17**) تفيد أن الله تعالى هو وحده مصدر الخير الفيّاض على عباده، وصاحب الكرم والفضل المطلق على خلقه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل53]

(**18**) فيها أن أصل البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركاً، ورسوله مباركاً، وبيته مباركاً، والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة، وما حول المسجد الأقصى مبارك.. وهكذا فهو سبحانه تبارك في ذاته الذي يبارك فيمن يشاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركاً: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر 64]([4])

(**19**) ما أعظم بركاته سبحانه وتعالى، وما أوسعها وأشملها وأكملها وأكثرها، لمن تدبرها في كتابه المبارك، وما أسعد مَن وُفِّق لتدبر هذا الكتاب المبارك فتكون أقواله وأفعاله وكل حياته مباركة.

---

1 ينظر مجالس القرآن، 159/1

2 ينظر مجالس القرآن، 1/ 159

3 سبق تخريجه.

4 بدائع التفسير، لابن القيم، جمع: يسري السيد محمد،2 / 253

(**20**) فيها إن قيل: كلمة ﴿ ٱلَّذِىٓ ﴾ موضوعة في اللغة للإشارة إلى الشيء عند محاولة تعريفه بقضية معلومة، وإذا كان كذلك فالقوم ما كانوا عالمين بأنه –سبحانه– الذي نزل الفرقان. فالجواب: أنه لما ظهر الدليل على كونه من عند الله، فلقوّة الدليل وظهوره أجراه مجرى المعلوم.([1])

(**21**) تفيد إذا أردت أن تعرف عظمة القرآن الكريم، وبركته، وخيره، وقدْره وجلاله؛ فاعرف عظمة قائله ومنزله سبحانه، فإنما قدر الكلام بقدر المتكلم به.

(**22**) يفيد فعل (نزَّل) بالتشديد على وزن فَعَّل، التكرر والتكثّر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء: 136] لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل مُنَجَّماً مُفَرَّقاً، مُفَصَّلا آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سُوَر.

(**23**) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ بعد قوله: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وصف له سبحانه وتعالى، يكشف به عن بعض إحسانه وفضله وكرمه، الذي استحق به التمجيد، والتعظيم.

(**24**) تشير إلى أن تنزيل القرآن الكريم منجماً هو أشد وأبلغ، اعتناءً بمن أنزل عليه صلى الله عليه وسلم، كما قال سبحانه في أثناء هذه السورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقان: 32، 33]([2])

(**25**) في قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ ﴾ بدلا من (أنزل) إشارة إلى أن ما نزل على النبيّ من آيات ربّه، لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل نجوماً مفرّقة.. وذلك لحكم عالية، وغايات سامية، ذكر بعضها سبحانه في آيات هذه السورة.

(**26**) في تنزيل القرآن الكريم نجوماً مفرقاً، حِكَم عظيمة، منها تربية الإنسان، وتكوينه إيمانياً على مهل؛ لبناء النفس المؤمنة، والمجتمع المسلم، وغرس هدايات آيات القرآن، في النفوس والقلوب، هداية هداية، وحكمة حكمة، حتى يصبح المسلم قرآناً يمشي على الأرض اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان كذلك.

(**27**) في تنزيل القرآن الكريم منجماً، رد على كفار قريش، الذين ادّعوا أن هذا القرآن افتراه محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه ليس من عند الله تعالى، فنزوله منجماً مفرّقاً، ردّ على هذه

---

1 ينظر اللباب في علوم الكتاب، 14/ 473، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي النعماني.

2 ينظر تفسير ابن كثير، 6/ 92

المقالة، وهذا الزعم الباطل، إذ كيف يكون كذلك وقد نزل في أوقات متعددة وبعيدة، وظروف مختلفة، ومناسبات متنوعة، ومع ذلك فهو محكم ومنسجم في آياته وأحكامه، وفي أسلوبه وبيانه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء: 82]

(**28**) فيها أنه لما كان تكرار الإنذار -الذي هو مقصود السورة- أنفع، وتفريقه في أوقات متراسلة أصدع للقلوب وأردع، وكان إيضاح المشكلات، في الفرق بين الملتبسات، أعون بما يكون علة، عبّر بما يدل على الفرق وقدمه فقال: ﴿ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ أي الكتاب الذي نزل إلى سماء الدنيا فكان كتاباً، ثم نزل مفرقاً بحسب المصالح، فسمي لذلك فرقاناً.([1])

(**29**) في ذكر القرآن بعد: (تبارك) الذي معناه كثرة الخير والبركة، دليل على أن القرآن منشأ الخيرات وأصل البركات، فمن أراد خير الدنيا والآخرة، فعليه بهذا القرآن، ومن أراد البركة في العمر والعمل والرزق والولد.. فعليه بهذا القرآن.

(**30**) فيها كما أنه سبحانه تبارك، فكذلك كتابه مبارك، كما قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ ﴾ [الأنبياء:50]، والبركة فيه من ثمانية أوجه([2]) وهي من هدايات اقتران هاتين الكلمتين المباركتين: ﴿ تَبَارَكَ ـ ٱلْفُرْقَانَ ﴾

(**31**) الهداية الأولى: دوامه؛ فإن كل آية أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم، انقضت بانقضاء عمره، والقرآن لا ينقضي مدى الأيام، فآياته مستمرة؛ علماً وحِكمة وهداية، وهي من معجزاته الباقية إلى أن تقوم الساعة.

(**32**) الهداية الثانية: أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتطرق إليه نقض ولا نقص. مهما حاول المبطلون والجاحدون ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:41- 42]

(**33**) الهداية الثالثة: كثرة علومه؛ فإنها متنامية متطاولة، لا نهاية لها، فكلما تدبره متدبر إلا وأخذ منه من العلوم والحِكَم على قدر تدبره، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:29]

---

1 ينظر نظم الدرر، 330/13

2 ينظر سراج المريدين، للإمام ابن العربي: 4/ 64-65. ذكرت هذه الأوجه وجعلتها سبع هدايات، بِجَعْل السابعة والثامنة هداية واحدة.

(**34**) الهداية الرابعة: اكتفاء حامله به عن الدنيا بأسرها، واستغناؤه به عنها، كما قال الله تعالى لنبيه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر:87-88]

(**35**) الهداية الخامسة: كثرة ثوابه وعِظَم أجره؛ فإنه ما أعطي قط لأمة ما أعطي لهذه الأمة من الأجر والثواب في كتابها، والأحاديث كثيرة دالة على هذا المعنى، منها: حديث: ((مَنْ قَرَأَ حَرْفًا منْ كتَاب اللَّه فَلَهُ به حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ))([1])

(**36**) الهداية السادسة: من هدايات هذه البركة القرآنية كذلك: الاستشفاء بآياته، والاسترقاء بها عن كل مكروه. ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: 82]

(**37**) الهداية السابعة التي هي من أوجه بركة هذا الكتاب، أنه دائم؛ لا ينسخه كتاب، وسائر الكتب قبله منسوخة، ومن ثم دوام بركته ودوام هديه، فدوام بركته وهدايته باقية ما بقي هذا الكتاب يتلى بين الناس، وكل عبد يأخذ من بركته وهدايته بقدر درجات تدبره، وما سبق له من هداياته.

(**38**) في مجيء ذكر الفرقان بعد لفظة (تبارك) كذلك، إشارة أن هذا الكتاب هو منبع العلوم والحِكَم والمعارف، وذلك لما دل عليه في آيات كثيرة من تشريف وتعظيم للعلم وأهله، فدل ذلك على أن العلم من أشرف المخلوقات وأعظم الأشياء خيراً وبركة.

(**39**) تشير كذلك إلى أن هذا القرآن هو أصل الهداية وأساسها، وطريقها ومنهجها، إذ لا خير ولا بركة إلا في الاهتداء لهدايات الله التي جاء بها هذا القرآن.

(**40**) في وصف القرآن ب﴿ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ لأنه الفارق بين ملتبس، فلا يدع خفاء إلا بيّنه، ولا حقّاً إلا أثبته، ولا باطلاً إلا نفاه ومحقه، فيه انتظام الحياة الأولى والأخرى، فكان قاطعاً على علم مترله جل جلاله. ([2])

(**41**) في وصف القرآن ب﴿ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ كذلك إشارة إلى أن هذه هي وظيفته الجوهرية، وهي التفريق بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والهدى والضلال والغي والرشاد، والخير والشر؛ والكتاب الذي هذا شأنه، وتلك طبيعته ووظيفته، فلن يكون إلا غَيْبِيّاً إلهياً، ومن ثم يجب على المؤمن أن يقرأه بهذا البُعد الغيبي، وبهذه الدلالة الإيمانية.

---

1 رواه الترميذي في سننه بسند صحيح، في أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر، رقم: 2910.

2 ينظر نظم الدرر، 13/ 330

(**42**) يفيد إيثار اسم (الفرقان) بالذكر هنا، للإيماء إلى أن ما سيذكر من الدلائل على الوحدانيَّة وإنزال القرآن دلائل قيمة تفرّق بين الحق والباطل، وتبين الرشد من الغي.

(**43**) في وصف القرآن الكريم ب﴿ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ رسالة مهمة جداً مقتضاها أن هذا الكتاب هو البرنامج العملي الذي وجب على المسلم أن يعتمده في تَبَيُّن طريق السير إلى الله تعالى، وفي تلقي حقائق الإيمان الدالة على سبيل الرشاد. ففيه يجد المؤمن المتبصر معالم كل شيء، مما هو في حاجة إليه من أدوات الكشف عن الصراط المستقيم؛ إنه بوصلة الخروج من حال الحيرة إلى حال اليقين، ومن ظلمات الفتن إلى نور الحق المبين.([1])

(**44**) في وصفه ب﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ رسالة أيضاً مفادها أن ابتغاء الهدى من غيره ضلال. وليس عبثاً أن يكون ذلك من آخر وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة، وهو قوله البَيِّن المليح لأصحابه: ((أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا))([2])([3])

(**45**) إن هذا القرآن نور مبين، إذ مقتضى وصفه ب﴿ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ أن يكون نوراً مبيناً، فبنوره وبيانه يفرق العبد بين الحق والباطل، والضلال والهدى، والغي والرشاد.. وبنوره يهتدي إلى الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ ﴾ [الشورى52]

(**46**) في تسميته فرقاناً لأن فيه بيان ما شرعه سبحانه من الحلال والحرام، وبيّنه من الطيب والخبيث، والحسن والقبيح، وأظهره من طريق الطاعة وسُبُل المعاصي في التعامل مع ما شرعه وبيّنه.

(**47**) فيها أن القرآن الكريم يفرق بين الحق والباطل في كل شيء؛ في عالم الأفكار، والأحوال، والأشياء، والمعاني، والمعارف، والمناهج..، فما أهدى من اتبع هذا الكتاب العظيم والنور المبين، وما أضل مَن أعرض عنه إلى غيره.

---

1 ينظر مجالس القرآن، 1 / 159-160.

2 مصنف ابن أبي شيبة، في التمسك بالقرآن، 6/ 125، وعبد بن حميد في المنتخب من المسند، 1/ 175 وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: 713.

3 ينظر مجالس القرآن، 1 / 162.

(**48**) في تخصيصه بهذا الاسم (الفُرْقَانُ) هنا: لأنه أبلغ من الفرق، إذ يستعمل في الفرق بين الحقّ والباطل، فرقاً جلياً بغير شبهة، وتقديره كتقدير: رجل قنعان: يقنع به في الحكم، وهو اسم لا مصدر فيما قيل، بينما الفرق يستعمل في ذلك وفي غيره..([1])

(**49**) يشير هذا الوصف (الفرقان) إلى أنه لا طريق لمعرفة القرآن وعظمته؛ إلا من خلال القرآن نفسه، فليس هناك من عرف القرآن وبين قيمته وعظمته ووظيفته وغايته؛ من القرآن نفسه، وذلك في عشرات؛ بل المئات من الآيات في كثير من السور وفي سياقات متعددة ومختلفة، ومنها (سورة الفرقان) هذه.

(**50**) في تخصيص القرآن في افتتاح هذه السورة بالتّنْزيل، ووصفه ب(الفرقان): ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ مع أن القرآن كله نزّله الله فرقاناً، أي منجماً، ومفرِّقاً بين الحق والباطل، إشارة إلى ما تدل عليه هذه السورة خاصة، من التعريف بطبيعة القرآن، ومصدريته الغيبية، ووظيفته العملية، وغايته التنزيلية.

(**51**) في تسميته بالقرآن كذلك؛ إشارة إلى أن ما يحمل القرآن من هدى ونور، يفرق به العاملون به حقاً وصدقاً، بين الحقّ والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال..

(**52**) في إيراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا العُنوان: ﴿ عَبْدِهِۦ ﴾ لتشريفه وتكريمه، والإيذان بكونه صلى الله عليه وسلم في أقصى مراتب العُبوديَّةِ والتنبيهِ على أنَّ الرَّسولَ لا يكونُ إلا عبداً للمرسِلِ ردًّا على النَّصارى.([2])

(**53**) في إضافته صلى الله عليه وسلم إلى ضميره الشريف سبحانه، في هذا المقام، لأنه خالص له، لا شائبة لغيره فيه أصلاً، ولم يحز مخلوق ما حاز من طهارة الشيم، وارتفاع الهمم، ولا شك أن الرسول دال على مرسله في مقدار علمه، وكثرة جنده، واتساع ملكه ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: 124]([3])

(**54**) يدل وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالعبودية ﴿ عَبْدِهِۦ ﴾ في هذا الموضع على رفعة هذا المقام، مقام العبودية، وأنه أرفع ما يرتفع إليه بشر من بني الإنسان، ولذلك ما وصف الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلا مقامات تقتضي ذلك؛ مقام نزول القرآن عليه كما في هذه الآية، وفاتحة الكهف، ومقام عروجه إليه في آية الإسراء والمعراج.

---

1 ينظر المفردات، 1/ 633- 634 مفردة (فرق)

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 200.

3 ينظر نظم الدرر، 13/ 331

(**55**) يدل هذا الوصف كذلك ﴿عَبۡدِهِۦ﴾ أن فيه تذكيراً خفياً بأن مقام البشرية حين يبلغ مداه لا يزيد على أن يكون مقام العبودية لله. ويبقى مقام الألوهية متفرداً بالجلالة. متجرداً من كل شبهة شرك أو مشابهة.([1])

(**56**) يفيد وصف النبي صلى الله عليه وسلم ب﴿عَبۡدِهِۦ﴾ كذلك، تقريب له وتمهيد لإبطال طلبهم منه في قوله تعالى -عن قولهم-: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: 7] الذي سيأتي بعدُ.

(**57**) في هذا الوصف ﴿عَبۡدِهِۦ﴾ مدح للنبي صلّى الله عليه وسلم، وثناء عليه، للإشارة إلى كمال عبوديته في مترلة الخلق، فلا أحد أعبد منه صلى الله عليه وسلم، ولا أكمل في مقام العلم بالله سبحانه وتعالى.

(**58**) عبّر بالعبودية في (التنزيل) و (الإسراء)، إشارة إلى أنَّ كل مَن تحقق بالعبودية الكاملة له حظ من تنزيل الفرقان على قلبه، حتى يفرق بين الحق والباطل، وحظ من الإسراء بروحه إلى عالم الملكوت والجبروت، حتى يعاين عجائب أسرار ربه.([2])

(**59**) يستفاد من ذكر الله تعالى في مقام إنزال القرآن (العبودية)، بدل (النبوة أوالرسالة)، إلى أن دور القرآن ووظيفته وغايته هي: تحقيق مقام العبودية لله تعالى عند الإنسان، حتى يكون عبداً لله في كل شيء. وفي كل أمر من أموره.

(**60**) فيها إشارة إلى أن على الداعية إلى الله تعالى أن يقوم في الناس ببيان حقائق الإسلام وبراهينه أولا وقبل كل شيء، لا أن ينشغل عن ذلك بالردود على الشبهات المثارة، فإثبات الحق كما هو كفيل بتبديد الشبهات ودحض كل الترهات.

(**61**) تفيد الآية أن هذا القرآن لن يكون له أثره في البشرية من النذارة والإنارة، إلا من خلال نماذج بشرية حيّة، تشتعل قلوبها هي أولاً بحقائقه الإيمانية، حتى تستنير وتتوهّج ثم تنير. وذلك قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ ([3])

(**62**) في ذكر مقام العَبدية هنا بدل مقام النبوة؛ إشارة إلى أن من شروط تلقي هدايات القرآن تحقيق هذا المقام؛ مقام العبدية، وهو مطلوب من كل عبد، بخلاف مقام النبوة، فهذا من اصطفاء الله واختصاصه، فتحقيق الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب؛ جانب التلقي

---

1 ينظر في ظلا القرآن، 5 / 2548

2 ينظر البحر المديد، 76/4

3 ينظر مجالس القرآن، 1/ 162

القرآني –اهتداء به تلقياً، وهداية إليه تبليغاً– متحقق، وهذا هو السر في التعبير بمقام العبدية، بدل النبوة والرسالة.

(**63**) يفيد قوله تعالى: ﴿ نَذِيرًا ﴾ أي وبشيراً كذلك، على عادة القرآن في الجمع بينهما، وإنما اقتصر على النذارة للإشارة إلى البشارة بلفظ: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ولأن المقام لها، لما ختم به تلك من إعراض المتولين عن الأحكام، ونفى الإيمان عنهم بانتفاء الإسلام، وفيه إشارة إلى كثرة المستحقين للنذارة.([1])

(**64**) في الاقتصار على التصريح بالإنذار دون البشارة –وإن كانت تتضمنها– إشارة إلى كثرة المستحقين للنذارة من المدعويين في كل زمان ومكان.

(**65**) في وصف القرآن بالفرقان، مع ذكر (النذارة) التي هي غاية نزوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ إشارة إلى نوره الفرقاني الذي يخرق حجب الزمان والمكان، ويشق طريق الهدى بقوة كي تستبين سبيلها للبشرية الضاربة في تيه الظلمات.([2])

(**66**) ما أبعد مَن يبحث عن طريق له في غير هذا القرآن، الذي هو نور وفرقان، فماذا بعد النور إلا الظلمات، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

(**67**) تدل على أن أول الواجبات على المؤمن بهذا القرآن هو شكر المنعم بتنزيله، وخير الشكر إنما هو تلقي رسالاته بالدخول في منازله والتخلق بخُلُقه([3]) آية آية، وحكمة حكمة، علماً وعملاً، ودعوة وتزكية، ذلك أن الشكر الحقيقي والكامل هو شكر الفعل والعمل، كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ ﴾[سبأ: 13]

(**68**) في هذه الآية جمع بين التنويه بشأن القرآن وأنه منزل من الله تعالى، وتنويه بشأن النبي عليه الصلاة والسلام ورفعة منزلته عند الله وعموم رسالته.([4])

(**69**) فيها إثبات نبوة محمد صلّى الله عليه وسلم، وتحديد مهمته في الإنذار والتبشير، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار.([5]) فنزول الوحي لا يكون إلا على مَن اصطفاه الله تعالى واختاره، ليكون رسولا من عند الله، إذ النبوة أو الرسالة لا دخْل فيها لأحد من البشر، فلا تُنال بالاجتهاد.

---

1 ينظر نظم الدرر، 13/ 331.

2 ينظر مجالس القرآن، 159/1

3 ينظر مجالس القرآن، 160/1، 161

4 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 317

5 ينظر التفسير المنير، 19/ 13

(**70**) يفيد قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وشموليتها زماناً ومكاناً إلى يوم الدين، وخاتمتها لرسالات الله تعالى، فلا نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا رسالة بعد رسالته.

(**71**) تفيد خصيصة من خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي كونه أرسل بهذه الرِّسَالَةِ إِلَى الناس عامة؛ عربيهم وأعجميهم، أبيضهم وأسودهم، بخلاف من كان من الأنبياء والرسل عليه السلام، فإنهم كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((أُعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ منَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي))، فَذَكَرَ مِنْهُنَّ: ((وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً))([1])

(**72**) ترسم هذه الآية: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الغاية من تنزيل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه سلم، أي ليكون به نذيراً للعالمين، على القول باعتبار الضمير راجعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه أقرب مذكور.

(**73**) تدل كذلك على أن خطاب القرآن الكريم هو خطاب عالمي لكل الناس، ولكل الأجناس، وفي كل زمان ومكان، إلى أن تقوم الساعة، فهو منهج الله لعباده، ودستوره لجميع خلقه من الجن والإنس، يخاطبهم به في كل زمان ومكان على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وألوانهم، وهذا ما تفيده عبارة: ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ في الآية.

(**74**) فيها دلالة على إثبات عالمية الرسالة المحمدية منذ أيامها الأولى، فهي منذ نشأتها رسالة للعالمين، لأن سورة الفرقان مكية كما هو معلوم. وفي هذا رد على من يزعم أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، بدأت قومية، ثم توسعت بسبب طموحات النبي صلى الله عليه وسلم كما زعموا! ففي هذه الآية رد وصريح وتفنيد واضح لهذا الزعم الباطل.

(**75**) فيها أن على الداعية إلى الله تعالى أن يكون خطابه خطاباً عالمياً، وهذا يحتم عليه أن يستحضر في خطابه الدعوي مستجدات العصر وأحداثه، وخصوصية كل مَن يوجِّه إليهم خطابه؛ عقيدة، ودِيناً، وثقافة، وحضارة، وأعرافاً، وتقاليد.

(**76**) فيها إشارة إلى استحضار الداعية في دعوته، ما يتصف به هذا الكتاب من الفرقانية الرحمانية، والنذارة الربانية النورانية، الموجهة للعالمين، للنظر فيها وتأملها، للوقوف على آياتها وبراهنها الدالة على مصدر هذا الكتاب وربانيته وغيبيته.

(**77**) في الآية إشارة إلى فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفضليته، بعموم دعوته وشمول رسالته، ولقد بيّن ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: ((فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ أُعْطِيتُ

---

1 البخاري، كتاب الصلاة، باب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا)) حديث رقم: 438

جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ))([1])

(**78**) في ذكر الإنذار هنا: ﴿ نَذِيرًا ﴾ والذي موجبه الغم والخوف، بعد ذكر ﴿ تَبَارَكَ ﴾ الذي يدل على كثرة الخير والبركة؛ أن الإنذار هنا جرى مجرى تأديب الولد، كما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان الإحسان إليه أكثر، لما يؤديه ذلك في المستقبل إلى المنافع العظيمة، فكذا ههنا كلما كان الإنذار كثيراً كان رجوع الخلق إلى الله أكثر، وكانت السعادة الأخروية أتم وكثر.([2])

(**79**) فيها تنبيه على أنه لا التفات إلى المنافع العاجلة؛ لأنه تعالى لما وصف نفسه بأنه معطي الخيرات الكثيرة، لم يذكر إلا منافع الدين، و لم يذكر منافع الدنيا البتّة.

(**80**) دلت هذه الآية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رسول الله إلى عامة الخلق إلى يوم القيامة، وترتب على ذلك أن يكون خاتم الأنبياء والمرسلين.

(**81**) تشير إلى وجوب حمل الدعوة والرسالة واستمرارها بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، من قِبل خلفائه وورثته من العلماء والدعاة، فهذا من لازم عالمية دعوته، وعموم رسالته عليه الصلاة والسلام.

(**82**) في رجوع الضمير إلى الفرقان في قوله: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أولى، لأن وجود إنذار القرآن مباشرة بنفسه مستمر إلى يوم القيامة، بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان إنذاره المباشر يخص قومه. وقول من قال: جعل الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم أولى، لأن صدور الإنذار منه حقيقة، ومن القرآن مجازاً، والحمل على الحقيقة أولى ولكونه أقرب مذكور.. يرده إنذاره بعد موته فهو مجاز كذلك، لأنه لا يصدر منه مباشرة.

(**83**) في هذه الآية -إجمالا- تنويه بشأن القرآن، وجلال منزِّله سبحانه، وما فيه من الهدى، وتعريض بالامتنان على الناس بهديه، وإرشاده إلى اتقاء المهالك، والتنويه بشأن مَن نزل عليه صلى الله عليه وسلم.([3])

---

1 رواه مسلم، كتاب المساجد، باب أي مسجد وضع في الأرض أول. حديث رقم:1189

2 ينظر اللباب في علوم الكتاب، 14/ 474

3 ينظر التحرير والتنوير، 314/18

الآية الثانية: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**84**) في مناسبة هذه الآية بما سبق في أواخر سورة النور، أن الله لما ذكر في أَوَاخِرِ السُّورَةِ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ۝٦٤ ﴾ [النور: 64] فَكَانَ إِخْبَارًا بِأَنَّ مَا فِيهِمَا مِلْكٌ لَهُ؛ أَخْبَرَ هُنَا أَنَّهُ لَهُ مُلْكُهُمَا أَيْ قَهْرُهُمَا وَقَهْرُ مَا فِيهِمَا، فَاجْتَمَعَ لَهُ الْمِلْكُ وَالْمُلْكُ لَهُمَا، وَلِمَا فيهما.([1]) وفي هذا بيان للمالك الحقيقي، الذي له الملك المطلق سبحانه وتعالى.

(**85**) في مناسبتها بما قبلها كذلك؛ أنه لما تقدم ذكر مترل الفرقان سبحانه، وذكر الفرقان، والمترل عليه، على طريق الإجمال، أتبع ذلك تفصيله على الترتيب، فبدأ بوصف المنَزِّل سبحانه بما هو أدل دليل على إرادة التعميم في الرسالة لكل من يريد، فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

(**86**) في علاقتها بالآية التي قبلها، كأن المتلقي عند ما سمع فاتحة السورة: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ و لم يفصح عن اسم الجلالة: الله؛ تساءل: مَن هذا (الذي) إذن؟ فجاء البيان بأوصاف الربوبية المطلقة، بما تتضمنه من معاني الفردانية في الملك، والتّنزُّه عن الولد والشريك، وشمولية الخلق والتقدير لكل شيء.([2]) فيكون (الذي) بهذا بياناً ل(الذي) الأول، أو نعتاً، أو بدلاً.

(**87**) تدل على دقة التناسب بما قبلها، بأن المترل للفرقان هو هذا الرب العظيم، الرب المالك وحده لكل شيء، الخالق وحده لكل شيء، فما من شيء في هذا الوجود، من ملك السماوات والأرض، إلا وهو صادر عن شؤون ربوبيته، خاضع لعظمة سلطانه، تحت قهره وتدبيره، وحكمة تسخيره وتقديره. ومن هنا صدر عنه جل جلاله هذا القرآن، على موازين حكمته ورحمته، ذلك هو هذا (الذي) نزّل الفرقان، فأبصرْ أيَّ فرقانية عظيمة تحمل كلماتُه للعالمين!([3])

(**88**) تشير هذه الآية، في علاقتها بما في قوله تعالى في الآية قبلها: ﴿عَبۡدِهِۦ﴾ إلى أن فيها حراسة لعبودية النبيّ لربه أن تطغى عليها عواطف الحب والإكبار للنبيّ صلوات الله وسلامه عليه،

---

1 ينظر البحر المحيط، 8/ 80

2 ينظر مجالس القرآن، 160/1

3 ينظر مجالس القرآن، 160/1

من أتباعه، وأوليائه، فيجعلوا له إلى الله نسبا، بولادة أو مشاركة، أو نحو هذا، مما يمليه الحبّ، الذي لا تحكمه بصيرة ولا يضبطه عقل!([1])

(**89**) تشير إلى ما بين الكتاب المسطور والكتاب المنظور من علاقة وتلازم، في الدلالة عظمة الله وقدرته، وعلمه وحكمته، وخلقه وأمره. فذاك (القرآن) أمره، وهذا (الكون) خلقه.

(**90**) في إسناد ملك السماوات والأرض لله، وذكر ذلك مباشرة بعد ذكر تنزيله سبحانه للقرآن على سبيل بيان العلة والحكمة من ذلك؛ ما يفيد أن نزول القرآن مضارع أو مساوٍ لخلق الكون، فدلالة القرآن على الله كدلالة الكون.

(**91**) فيها تمجيد لله سبحانه، وتعظيم لذاته، بإضافة هذا الوجود كلها إليه، في سماواته وأرضه، وما في السماوات والأرض من عجائب المخلوقات، منها ما هو مشاهد ومنها ما هو غيبي.

(**92**) تدل على أن المؤمن إنما يتعرف على عظمة القرآن الكريم عند ما يتعرف على عظمة المتكلم بالقرآن: الله رب العالمين المالك للسموات والأرض، إذ قيمة الكلام إنما هي بقيمة مَنْ تكلم به. فإذا أبصرت هذا السر انكشفت لك كنوز القرآن؛ ووجه ذلك في الآية أن الله سبحانه بعد ما تحدث عن نعمة تنزيل القرآن ومَن نزل عليه وأهدافه، قال –على سبيل التعريف بمنزّل هذا القرآن– ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾([2])

(**93**) فيها أن المالك الحقيقي للسماوات والأرض هو الله تعالى، لما له من القدرة التامة والتصرف الكلي فيهما، وفيما فيهما، إيجاداً وإعاداً، وإحياء وإماتة، وأمراً ونهياً، حسبما تقتضيه مشيئته سبحانه المبنية على الحكم والمصالح.([3])

(**94**) في ذكر ملكه تعالى للسموات والأرض، إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه حال حدوثها واسمرارها، وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء خلقاً وتدبيراً.

(**95**) في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تنبيه للدَّلَالَة عَلَى وُجُوده سُبْحَانَهُ، لِأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى إِثْبَاته إِلَّا بِوَاسِطَةِ احْتِيَاجِ أَفْعَاله إِلَيْهِ، فَكَانَ تَقْدِيمُ هَذِهِ الصِّفَةِ عَلَى سَائِرِ الصِّفَاتِ كَالْأَمْرِ الْوَاجِبِ.([4])

---

1 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1349

2 ينظر مجالس القرآن، 1/ 159، 160

3 ينظر روح المعاني، 423/9

4 ينظر مفاتيح الغيب، 429/24

(**96**) فيها دعوة للتفكر في السماوات والأرض وما فيهما من دلائل وعجائب قدرة الله تعالى الدالة على عظمته ووحدانيته في تدبير أمر الملك والملكوت.

(**97**) في ذكر الله لملك السماوات والأرض -في هذا السياق- تنبيه إلى أن إعمال العقل والنظر في التفكر في دلائل قدرة الله وآثار رحمته وعجيب صنعه وبديع خلقه، من أهم الأسباب المؤدية إلى توحيد الله تعالى وإجلاله وتعظيمه، والاجتهاد في تحقيق منازل عبوديته.

(**98**) تفيد شرف القرآن وعظمته من أن مترله سبحانه هو منشئ هذا الكون العظيم الذي لا يشبه أحداً من الحوادث ولا يشبهه شيء في هذا الوجود سبحانه وتعالى، فكذلك كلامه في عظمته ومترلته وفضله، وفي الحديث الشريف: ((وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى كَلَامِ الْبَشَرِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ))([1])

(**99**) تدل على أن التدبر في آيات القرآن سبيل إلى التفكر في آيات الأكوان، وأن الجمع بينهما سبيل لحصول التذكر والعظة والعبرة.

(**100**) في ذكر أوصاف الربوبية المطلقة، بما تتضمنه من معاني الفردانية في الملك، والتّنزُّه عن الولد والشريك، وشمولية الخلق والتقدير لكل شيء، بعد ذكر إنزال القرآن للدلالة أولاً على شرف القرآن بإضافته إلى من له الملك في السماوات والأرض، ويبين ثانياً أن إنزال القرآن من تدبير صاحب الملك لملكه، لإصلاح عباده وإرشادهم به.([2])

(**101**) في التعريف بوحدانية الله -في هذا السياق- بما هو مترل الفرقان، وبيان عظمته بتَنْزيهه عن الشريك، كل ذلك يستوجب تعظيمَ القرآن المترل من عنده، وتفريده بالمصدرية بحيث لا يُتَلقّى من أي شيء سواه توجيهٌ من التوجيهات المتعلقة بالإرشاد التعبدي والدعوي للإنسان في الأرض.([3])

(**102**) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دليل على وجود الله تعالى، لأنه لا طريق إلى إثباته إلا ببيان احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه في أصل وجودها، وزمان حدوثها، وأثناء بقائها، وتصرفه تعالى فيها كيف يشاء، والحاجة إلى الموجد المتصرف يوجب وجوده، لذا قدمت هذه الصفة على سائر الصفات.([4])

---

1 أخرجه الترمذي في جامعه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أبواب فضائل القرآن، باب26، رقم: 2926 وقال: هذا حديث حسن غريب، وفي سنده مقال (ينظر السلسلة الضعيفة: 1335) لكن له شواهد تعضده.

2 ينظر زهرة التفاسير، 10/ 5245

3 ينظر مجالس القرآن، 162/1

4 ينظر مفاتيح الغيب،24/ 46. والتفسير المنير، 19/ 10

(**103**) فيها تنبيه على افتقار الكل إليه سبحانه في الوجود وتوابعه من البقاء وغيره، وأن كل شيء في هذا الكون هو عبد لله خاضع له طوعاً أو كرهاً مستكين لله تعالى.

(**104**) تدل على عظمة الله تعالى المالك لأمر السماوات والأرض، وأمر ما فيهما ومَن فيهما، فهو الملك الحقيقي لأمر مخلوقاته، وهو القاهر فوق عباده، فلا مالك سواه، وكل خلقه هم عباده، قهراً أو اختياراً، فالعبد عبد والرب رب. وفي الحديث: ((أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ، رَجُلٍ كَانَ يُسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللهُ))([1])

(**105**) فيها الأمر بتوحيد الله تعالى وتعظيمه وتنْزيهه عن الشريك، ذلك أن الله عظّم نفسه في هذه الآية ونزّه ذاته عن شركهم، وادعاءاتهم الباطلة.

(**106**) تفيد أن مَن تدبر فيما خلق الله تعالى، وجد أن كل مخلوق قد أُعطي ما يناسبه من الخلق، وفي هذا ما يدل دلالة قاطعة على علمه تعالى وقدرته وحكمته ومشيئته.

(**107**) تشير الآية إلى أن السماوات والأرض، هما أظهر مخلوقات الله العظيمة في هذا الكون العظيم، لما يحتويان عليه من آيات وعجائب المخلوقات الأخرى، ولذلك يذكرهما الله دائماً في سياق الدلالة على وجوده، ووحدانيته، وعظمته، وكذا في الأمر بتوحيده وعبادته.

(**108**) تشير إلى أن أعظم وسيلة في بيان وحدانية الله تعالى؛ هي الدلالة على عظمة مخلوقاته، وما تشتمل عليه من بديع الصنع، ودقة النظام، وافتقارها لمحدِث ومنظِّم، مما يحكم العقل باستحالة وجودها صدفة، أو في مقدور مخلوق ضعيف.

(**109**) في علاقة قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا... ﴾ بما قبلها؛ أن تنْزيل الفرقان عليه صلى الله عليه وسلم معجزة، مترل مترلته صدق عبدي، ومن شرط المرسِل أن يكون غنياً عن غيره موصوفاً بالملك العام، والعزة عن الولد والشريك والإنصاف بالقدرة والإرادة.([2])

(**110**) فيها دعوة لمحاربة العقائد الفاسدة؛ من الشِّرْكيات الوثنية وغيرها، بالحجة والبرهان من خلال آيات الله المسطورة والمنظورة الدالة على وحدانيته وقدرته وربوبيته لكل شيء.

(**111**) في قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ رد على قريش في قولهم: إن لله شريكاً، وفي ادعائهم أن لله بنات، وفي قولهم في التلبية: إلا شريك هو لك.

---

1 البخاري، كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء إلى الله تعالى رقم الحديث: 6250، ومسلم واللفظ له، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك وملك الملوك، رقم الحديث: 2143.

2 ينظر تفسير ابن عرفة، 231/3.

(**112**) فيها أن العبد إذا اهتدى إلى هداية قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ ﴾ وعرف ذلك، انقطع رجاؤه عن كل ما سواه، و لم يشتغل قلبه إلا برحمته وإحسانه، وفيه رد على الثنوية، والقائلين بعبادة النجوم والأوثان.([1])

(**113**) فيها كيف يكون له ولد، أو شريك، وهو المالك وغيره مملوك، وهو القاهر وغيره مقهور، وهو الغني وكل ما سواه مفتقر إليه؟! إنّ مَن كانت هذه صفاته كيف يُجعَل له ند، ويُتَّخَذ معه معبود؟!

(**114**) تدل على أن وقوع العباد في الشرك بالله -بعد بُعْدِهم عن الوحي- سببه تعطيل عقولهم عن النظر إلى ملك الله، والتأمل في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما من آيات دالة على وحدانية الله وتفرده.

(**115**) في نفي الآية للولد والشريك عن الله تعالى، دليل على أن معضلة البشرية دائماً، كانت في الإشراك مع الله تعالى آلهة أخرى، وليس في نفي وجوده، وفي هذا إشارة إلى أن الحديث مع المشرك عن الله سبحانه، ينبغي أن يختلف عن الحديث مع الملحد الذي ينكر أصل وجود الله، من حيث الوسائل والأسلوب وطريقة الاستدلال.

(**116**) تفيد أن الشرك هو أكبر ظلم مارسته البشرية في حق الله تعالى، وذلك بما تنكرت لحق الخالقية التي هي أعظم صفة لربوبية الله وتعالى. لقوله سبحانه: ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان13]

(**117**) في ذكر قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ بعد نفي الشريك له، دليل على أن هذه الآلهة مخلوقة، لأنها داخلة تحت العموم، ففيها رد على المشركين وتسفيه لعقولهم، إذ كيف يعبدون مخلوقاً، ويتخذونه إلهاً وهو مثلهم في الخلق!

(**118**) في عموم قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ دليل على خلق الله تعالى لأفعال العباد خيراً وشراً، خلافاً للمعتزلة.

(**119**) يدل قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ على أنه تعالى خلق الأعمال من وجهين: الأول: أن قوله: (كل شيء) يتناول جميع الأشياء، ومن جملتها أفعال العباد. والثاني: أنه تعالى نفى الشريك، فكأن قائلاً قال: ههنا أقوام معترفون بنفي الشريك والأنداد ومع ذلك يقولون بخلق أفعال أنفسهم، فذكر الله تعالى هذه الآية رداً عليهم.([2])

---

1 ينظر اللباب في علوم الكتاب، 14/ 474

2 اللباب في علوم الكتاب، 14 / 475

(**120**) تفيد أن خلْق الله تعالى للشيء، هو اختراعه له، وإبداعه وإخراجه من العدم إلى الوجود، وفق الحكمة الإلهية والمشيئة الربانية.

(**121**) تدل على أن الله تعالى هو الخالق وحده لكل شيء، مما نراه ومما لا نراه، من عالمي الغيب والشهادة، وهو الخالق للعباد وأفعالهم، فلا وجود لشيء إلا بخلْق الله تعالى له، فبحق الخالقية استحق العبودية.

(**122**) تدل على أن صفة (الخالقية) هي مفتاح الدلالة على وجود الله ووحدانيته، فهي أعظم صفة لله تعالى، ولذلك لم يدّعها أحد ممن ادعى الألوهية، وهذا هو السر في التذكير القرآني بها عند الأمر بالتوحيد والعبادة، في كثير من الآيات القرآنية، ومنها هذه الآية.

(**123**) يفيد قوله تعالى: ﴿ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ أن الله تعالى سَوَّى كل شيء وَهَيَّأَهُ لِمَا يَصْلُحُ لَهُ، فلا خَلَلَ فِيهِ وَلا تَفَاوُتَ، ثم أعطى كل مخلوق ما يليق به ويناسبه من الخلق وما تقتضيه حكمته من ذلك، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلى2] وقال: ﴿ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه 50]

(**124**) فيها أن مَنْ تدبر في مخلوقات الله تعالى وتأمل فيها، وَجَد أن الله سبحانه أعطى كل مخلوق ما يليق به ويناسبه من الخلق، مما يدل على علمه وقدرته وحكمته سبحانه وتعالى.

(**125**) فيها أن التقدير هو إيجاد الشيء مقدَّراً مسوَّى مهيأ لما يصلح له، لا زائداً على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ولا ناقصاً عن ذلك.([1]) وتلك هي صفة كمال الحكيم سبحانه.

(**126**) فيها أن الله تعالى قدَّر لكل شيء ما يقيمه ويصلحه، وقَدَّرَ لِكُلِّ شَيْءٍ تَقْدِيراً مِنَ الأَجَلِ وَالرِّزْقِ، فَجَرَتِ الْمَقَادِيرُ عَلَى مَا خَلَقَ وقدر سبحانه وتعالى.([2])

(**127**) فيها أن كل شيء بقدر، فلا يخرج شيء في هذا الكون عن قدره وتقديره، حتى العجز والكيس، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ))([3])

(**128**) في قوله تعالى: ﴿ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ كذلك إشارة إلى التقدير الإلهي البديع الذي جعل لكل مخلوق هيأته وخصائصه وأفعاله اللائقة به، لا يقادر قدره، ولا يبلغ كنهه، كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك والنظر والتدبر في أمور المعاد والمعاش، واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة

---

1 ينظر أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها،169، محمد بن أبي بكر الرازي

2 ينظر معالم التنزيل، 6/ 69

3 مسلم، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، رقم الحديث: 2655.

الأعمال المختلفة إلى غير ذلك.([1]) وكذلك باقي المخلوقات وما لها من وظائف تقوم بها حسب هيأتها وخصائصها وأفعالها، فسبحانه من خالق حكيم وقدير عليم.

(**129**) يفيد التعبير ب: "خلق كل شيء" في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ اختراعه وإبداعه، وإخراجه من العدم إلى الوجود. وأنه ما من مخلوق، ظاهر أو خفي عرفه الناس، أو لم يعرفوه؛ فهو من خَلْق الله وإبداعه.

(**130**) وأما تقديره في قوله: ﴿ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ جعْله على قدر الحاجة وفق الحكمة، زماناً، ومكاناً، وهيئة، وشكلا، ونحوه، وذلك حسب تجلياته بمقتضى آثار أسمائه وصفاته.

(**131**) في هذه الآية وصف الله سبحانه ذاته بأربعة أنواع من صفات الكبرياء. الأول: أنه المالك للسموات والأرض، وهذا كالتنبيه على وجوده. الثاني: أنه هو المعبود بحق أبداً. والثالث: أنه المنفرد بالألوهية. والرابع: أنه الخالق لجميع الأشياء مع الحكمة والتدبير...([2])

(**132**) فيها أن على الداعية إلى الله تعالى، أن يبدأ في دعوته بتعريف الناس بربهم من خلال معرفة أسمائه وصفاته، وأفعاله في الكون الدالة على عظمته، فما أكثر آياته التي تدل على ربوبيته وألوهيته، في النفس والآفاق، والملك والملكوت، فالله تعالى في هذه الآية دعا الناس إلى عبادته وتوحيده من خلال تعريفهم بصفات الربوبية والألوهية التي يدل عليها هذا الكون المنظور.

(**133**) تدل هذه الآية على أن التعريف بالله وعظمته وصفاته من خلال كتابه المسطور وكونه المنظور، ينبغي أن يسبق التعرض لتسفيه الآلهة المعبودة من دون الله تعالى، وبيان فساد ألوهيتها وبطلان عبادتها. ولذلك فائدتين: أولهما: أن يكون أول ما يطرق سمع المشرك هو الحديث عن عظمة الإله الحقيقي من خلال صفاته وأفعاله. وثانيهما: أن لا تأخذه العزة بالاثم إن بدأنا بتسفيه آلهته، فيعرض بعد ذلك عن سماع الكلام الحق عن الإله الحق.

---

1 ينظر روح المعاني، 423/9

2 ينظر مفاتيح الغيب، 24/ 46-47.

الآية الثالثة: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**134**) في مناسبتها بما قبلها أن الله تعالى لما بيَّن حقيقةَ الحقِّ في مطلع السورةِ بذكر تنزيله للفُرقان العظيم على رسوله صلى الله عليه وسلم، ووصفه تعالى بصفاتِ الكمال، وتنزيهه عمَّا لا يليقُ بشأنه الجليل، عقَّب ذلك بحكايةِ أباطيلِ المشركين في حقِّ المنزِّلِ سبحانَهُ، والمنزَّلِ، والمنزَلِ عليه على التَّرتيب وإظهار بطلانها.([1])

(**135**) في صلتها بما قبلها كذلك أن الله لما وصف نفسه بصفات الجلال والكمال، والعزة والعلو؛ أردف ذلك: ببطلان مذهب عبدة الأوثان، وبيان نقصانها، وفساد ادعاء ألوهيتها من وجوه متعددة، ككونها ليست خالقة، بل هي مخلوقة، وأنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً...

(**136**) فيها من دقة التناسب بما قبلها أن الله بعد ما قرر أنه: خلق كل شيء: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أردف ذلك بأن ما اتخذه هؤلاء من الآلهة، هي مخلوقات لله تعالى المنعوت بهذه الصفات العظيمة، صفات الكمال والجلال، فكيف جعلها هؤلاء آلهة وهي دون هذا الإله العظيم.

(**137**) فيها استدلال على نفي إلَهيتهم بمخلوقيتهم وعدم خالقيتهم، وأنهم لا يملكون نفعاً ولا ضرّاً. وهذا إفحام ما بعده إفحام لمن كان له عقل يعقل به، إذ كيف يكون إلهاً مَنْ خُلِقَ بعد عدم، وله نهاية، ولا يستطيع هو أن يخلق شيئاً.

(**138**) تفيد إلى طريقة إبطال الباطل في المحاججة وهي: ذكر نقائصه، نقيصة نقيصة، ففي ذلك نسف له من أصله، واعتراف أهله بخلله، وهي طريقة قرآنية عجيبة.

(**139**) يفيد فعل (اتَّخَذَ) في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أن توحيد الله تعالى هو الأصل في العباد، وأن الشرك طارئ عليهم بسبب انحراف في عقولهم وفطرهم، وبُعْدهم عن الوحي باتباع أهوائهم. كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾[الجاثية23]

1 ينظر إرشاد العقل السليم، 201/6

(**140**) تفيد التعجب من حال الكفار إذ كيف قابلوا نعمة إنزال الفرقان، بالجحد والطغيان، وكيف أشركوا بالذي تلك صفاته، آلهةً أخرى صفاتهم على الضد من صفات من أشركوهم به.([1])

(**141**) تدل على أن الإنسان مفطور على التألّه، فمن أخطأ الطريق إلى الألوهية الحقة، اتخذ له آلهة أخرى، من دون الله تعالى، حجراً، كانت أم أصناماً، أم شجراً أم غيرها..، ولذلك جاء الوحي ليرد الناس إلى أصل فطرتهم، وتذكيرهم بعهدهم الأول، وتوجيههم نحو الإله الحقيقي الخالق المالك المدبر لأمر الملك والملكوت سبحانه.

(**142**) تدل على أن من أخطأ الطريق الصحيح نحو الله الواحد الأحد، وقع في اعقاد تعدد الإلهة لهذا الكون، لتصوره فيما يألهه، أن الإله الواحد لا يستطيع تدبير أمر هذا الكون العظيم، قياساً على ضعف العبد بمفرده، وهو قياس فاسد باطل.

(**143**) تدل على أن إصلاح الإنسان يبدأ من إصلاح عقيدته، وأن الإيمان الصحيح بالله تعالى هو أصل الأصول، فما دونه أيسر في الإصلاح، وأسهل في تحقيق النتائج والثمرات. إذ القاعدة أن من عرف الآمر تقبل الأمر وأسرع إلى تنفيذه.

(**144**) في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ دليل على عجز هذه الآلهة، وعجزها دليل على أنها ليست بآلهة، لأن الإله لا بد أن يكون قادراً، إذ القدرة من كماله، ومن ثم فهذا العجز الذي اتصفت به هذه الآلهة يمنع أن تكون آلهة عقلا لو كانوا يفقهون.([2])

(**145**) فيها أن صفة (الخالقية) هي مفتاح التعرف على الله تعالى المستحق للعبادة، كما قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة20] إذ صفة الخلق هي من أخص خصائص الربوبية المقتضية لصفات الألوهية.

(**146**) تشير إلى أن فِعْل الخَلْق هو أعظم فِعْل تتجلى فيه صفة الربوبية، وتظهر من خلاله نعوت وأسماء الألوهية، ولذلك بدأ الله به في نفي الألوهية المزعومة للآلهة، وإبطالها. ففعل الخلق من أخص أفعال الله الدالة عليه وعلى عظمته سبحانه.

(**147**) فيها ذكر ل"دليل الخلق والإيجاد"، والمقصود به ما يقتضيه حدوث الأشياء المشاهدة من ضرورة أن يكون لها موجد؛ لاستحالة أن يكون وجودها وانتقالها من العدم إلى الوجود ذاتياً من غير سبب، مما يعلم بالعقل بطلانه ضرورة.

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 319.

2 ينظر تفسير ابن العثيمين، تفسير سورة الفرقان، 27،28 .

(**148**) فيها إشارة إلى الاستدلالات العقلية على وجود الله تعالى ووحدانيته، وأن العقل والنقل يتعاضدان في إثبات الحقائق الإيمانية والاستدلال عليها، فإذا قامت الحجة على العقل بالعقل وجب عليه أن يستسلم للوحي، فيصبح العقل تابعاً والوحي متبوعاً. ذلك أن إثبات الوحي أولا يكون بالعقل الذي هو مناط خطاب الوحي والتكليف، ثم بعد ذلك يصير العقل متبعاً للوحي فيما يثبه من تفاصيل الغيب ودقائقه.

(**149**) في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ إيذانٌ بغايةِ جهلهم وسَخافةِ عقولِهم كأنَّهم غيرُ عارفين بانتفاء ما نُفي عن آلهتِهم من الأمورِ المذكُورةِ مفتقرون إلى التَّصريح بذلك.([1])

(**150**) في ذكر أنفسهم: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ﴾ دليل على غاية عجزهم، وبيان ضعفهم، لأن من لا يقدر على ذلك في حق نفسه، فلأن لا يقدر عليه في حق غيره من باب أولى.

(**151**) تفيد بطلان عبادة من اتخذ آلهة لا تتصف بصفات الجلال والكمال. أو تعجز عن الخلق والتقدير، وعن الإحياء والإماتة والبعث بعد الموت. ([2])

(**152**) فيها أن صفات الله تعالى التي هي باب معرفته، دائرة بين معنَيْن عظيمَيْن، هما: الجلال، والكمال، وهما منتفيان عن غيره قطعاً، شرعاً، وعقلا.

(**153**) في تقديمُ ذكرِ الضُّرِّ على النفع: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ لأنَّ دفعَه مع كونِه أهمَّ في نفسه أوَّلُ مراتبِ النَّفعِ وأقدمُها.([3])

(**154**) فيها أنه لا شبهة لأحد من العقلاء في اتخاذ غير الله تعالى إلهاً، ولا عذر له في جعْل ذلك المألوه مع الله معبوداً؛ لأن مَن عقل لن يعبد ما لا يملك شيئاً من خصائص الربوبية.

(**155**) فيها إشارة للقاعدة الفقهية والمقاصدية المشهورة وهي: أن دفع المفسدة مقدم على جلب المنفعة، ووجه ذلك في الآية: أن الله تعالى قدم دفع الضر على جلب النفع، فيما لا يستطيعه هؤلاء المخلوقون: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي لا يقدرون على أن يدفعوا عن أنفسهم ضرراً، ولا أن يجلبوا لها نفعاً، فقدم دفع الضرر لأنه أهمّ من جلب النفع، بل هو أول مراتب النفع، فلا تحقيق للمنفعة الكاملة إلا بدفع المفسدة أولا.

---

1 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 202.

2 التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم،6/ 272

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 202

(**156**) تشير إلى أن حياة العباد دائرة بين: الضر والنفع، أو المفاسد والمصالح، وما دام أن الإنسان عاجز عن تحقيق ذلك لنفسه فضلا عن غيره، اقتضى ذلك أن يتعلق بالذي يملك ذلك وأسبابه، وهو الله تعالى الذي أنزل الوحي لهذه الغاية: جلب المصالح ودفع المفاسد.

(**157**) تدل على ضعف الإنسان وحاجته إلى لخالقه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فمهما ادعى من القوة والاستغناء، فهو في حاجة لدفع الضر عن نفسه، وجلب النفع لها، فهو يمرض ويجوع، ويخاف ويضعف..، ولن يكون هذا الدفع وهذا الجلب إلا بربه سبحانه وتعالى.

(**158**) فيها أنه لما كان لأمر الموت والحياة ما ليس لغيرهما من عظيم الشأن وجلال القدر، أعاد العامل فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ عطفاً على قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ تدرجاً معهم في الخطاب والتفكير، فإذا سلَّموا بالأولى، فبالثانية من باب أولى وأحرى، فهي أعظم منها وأخطر.

(**159**) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ تنبيه على أن الإله الحق هو الذي يكون قادراً على البعث والجزاء، تحقيقاً ليوم العدل يوم الحساب والجزاء، ليجزي كل نفس بما عملت.

(**160**) في تنكير ﴿مَوْتًا– و– حَيَوٰةً﴾ في سياق النفي للعموم، أي موت أحد من الناس ولا حياته. وفي تقديم الموت على الحياة لمناسبة الضر المقدم. أو لأن الحياة أكثر.

(**161**) في تكرار واو العطف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ وإن كان بعضها مسبباً عما قبله، إشارة إلى أن كل واحدة منها كافية في سلب الإلهية عنهم بما ثبت من العجز.([1])

(**162**) في الآية الكريمة إشارة إلى أن المعبود الحق هو الذي يكون قادراً على إيصال الثواب إلى المطيعين، والعقاب إلى العاصين، فمن لا يكون كذلك يجب أن لا يصلح لأن يكون إلهاً. يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَانُشُورًا﴾

(**163**) في هذه الآية دلالة على البعث، لأنه تعالى ذكر النشور، ومعناه أن المعبود يجب أن يكون قادراً على إيصال الثواب إلى المطيعين والعقاب إلى العصاة، فمن لا يكون كذلك وجب أن لا يصلح للإلهية.([2])

---

1 ينظر نظم الدرر، 13/ 338

2 ينظر مفاتيح الغيب، 24/ 49

(**164**) في قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا نُشُورًا ﴾ تكميل لقرع المشركين نفاة البعث لأن نفي أن يكون الآلهة يملكون نشوراً يقتضي إثبات حقيقة النشور في نفس الأمر، إذ الأكثر في كلام العرب أن نفي الشيء يقتضي تحقق ماهيته.([1])

(**165**) عبر سبحانه هنا عن البعث بعد الموت بالنشر، لأن خروج الناس من قبورهم يشبه خروج النبات من الأرض. وَنَشَرَتِ الْأَرْضُ: أَصَابَهَا الرَّبِيعُ فَأَنْبَتَتْ، وَهِيَ نَاشِرَةٌ، وَذَلِكَ النَّبَاتُ النَّشْرُ.([2])

(**166**) فيها أنه إذا تقرر أنه لا بد من الموت، وأن بعد الموت حياة أخرى، فإنه لا يكون إلهاً إلا من يتوفى الأنفس، ويملك الحياة الدنيا والحياة الأخرى.

(**167**) تدل على أن صفتي: الخلق، والملك، هما من أعظم الصفات الدالة على الربوبية الحقة، ولذلك نعى الله على المشركين عقولهم لاتخاذهم آلهة تفقد هاتين الصفتين: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ ﴾ فكيف يكون إلهاً من لا يخلق ولا يملك؟!

(**168**) تدل أن السبب الأعظم الذي أدى بالعباد إلى الانحراف عن التوحيد والوقوع في الإشراك، هو جهلهم بعظمة الله وصفاته، فمن أدرك كمال صفاته سبحانه، عرف عظمته، ومن أدرك عظمة الله جل جلاله، خضع له وأفرده بالربوبية والعبودية.

(**169**) إن أعظم باب لمعرفة الله تعالى حق المعرفة، هو باب الأسماء والصفات، مع ربط ذلك بآثارها في الخلق، وهي طريقة القرآن في الدلالة على الله وعظمته وقدرته، بذكر صفاته مع مقارنتها بآثارها في الخلق.

(**170**) في هذه الآية الكريمة بيان على أن الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله، متّصفة بستّة أشياء كل واحد منها برهان قاطع، على أن عبادتها مع اللَّه لا وجه لها بحال، بل هي ظلم متناه، وجهل عظيم، وهي أولاً: أنها لا تقدر على خلق شيء. ثانياً: أنها مخلوقة كلّها، أي: خالقها خالق كل شيء. ثالثاً: أنها لا تملك لأنفسها ضرًّا ولا نفعًا. رابعاً وخامساً وسادساً: أنها لا تملك موتًا، ولا حياة، ولا نشوراً.([3])

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 320/18

2 ينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (نشر)

3 ينظر أضواء البيان، 6 / 268- 269

(**171**) تشير الآية الكريمة إلى طريقة جميلة في المناظرة مع المخالف والرد عليه، وذلك بإبطال حجته وبيان فسادها من خلال النظر في مظمونها وآثارها، بالمنطق الذي يُسلّم به هو: أي تميز الآلهة عن الإنسان وتفردها عنه بالنفع والضر، وهو هنا منعدم باعتراف العابدين لها.

(**172**) تفيد الآية الكريمة أن من صفات الله تعالى؛ الكمال المطلق في الأسماء والصفات، والقدرة المطلقة في الإرادة والأفعال.

(**173**) أظهر الله تعالى في هذه الآية زَيْفَ آلهة الكفار المزعومة من جميع الوجوه التي يمكن أن يتوهموا فيها أنها تصلح للعبادة؛ منها: أنها ليست خالقة للأشياء، والإله يجب أن يكون قادراً على الخلق والإيجاد، ومنها: أنها مخلوقة، والمخلوق محتاج، والإله يجب أن يكون غنياً. ومنها: أنها لا تملك لأنفسها ضراً، ولا نفعاً، ومن كان كذلك لا يملك موتاً، ولا حياةً، ولا نُشُوراً. أي: لا يقدر على الإحياء والإماتة لا في زمن التكليف، ولا في زمن المجازاة، ومن كان كذلك كيف يسمى إلهاً، وكيف يستحق العبادة؟

(**174**) تفيد هذه الآية أن مَن لا يقدر على نفع نفسه، فهو عن نفع غيره أعجز، فكيف يُدْعَى إلهاً مَن صفته هذه؟ وكيف يُعبَد مَن شأنه هذا؟

(**175**) تشير هذه الآية إلى أن كل مَن ركن إلى غير الله، أو مال بمحبته إلى شيء سواه، فقد اتخذ من دونه إلهاً يعبده من دون الله. وكل من رفع حاجته إلى غير مولاه، فقد خاب مطلبه ومسعاه لأنه تعلق بعاجز ضعيف، لا يقدر على نفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟

(**176**) تشير إلى أن من اعتمد على غير الله فهو في غرور لأن الغرور ما لا يدوم، ولا يدوم شيء سواه، وهو الدائم القديم، لم يزل ولا يزال، وعطاؤه وفضله دائمان، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء، في كل نفس وحين وأوان وزمان.([1])

(**177**) في هذه الآية ربط بين صفات الله تعالى كونه رباً خالقاً، مالكاً للحياة ومتعلقاتها في هذه الحياة الدنيا، وبين كونه مالكاً للحياة بعد الموت ومتعلقاتها، وفي ذلك تنبيه إلى أن الإيمان بالله حق الإيمان لا يكون إلا بالبعث بعد الموت، لأن البعث بعد الموت من صفاته وعدْل أفعاله، ولذلك قرن الله بينهما (الإيمان بالله واليوم الآخر) في كثير من الآيات القرآنية، بأساليب متعددة.

(**178**) تشير هذه الآية كذلك، إلى ذلك الربط الوثيق بين الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، فلا يصح إيمان بالله إلا إذا اكتمل بالإيمان باليوم الآخر، ولذلك كل من أنكر الإيمان باليوم الآخر دل ذلك على خلل عنده في إيمانه بالله تعالى.

---

1 ينظر البحر المديد، 77/4

الآية الرابعة: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**179**) تفيد في مناسبتها بما قبلها أن الحق سبحانه بعد أن تحدث عن صفات ربوبيته وتوحيده وتفرده بالخلق والتدبير، والرد على عبدة الأوثان، تكلم هنا عن النبوة، وذكر مطاعن المشركين في القرآن وفي نبوة النبي محمد صلّى الله عليه وسلم الذي نزّل عليه هذا القرآن.

(**180**) في علاقتها بما قبلها كذلك أن الله تعالى لما عرض تطاول الكفار على مقام الخالق جل وعلا، عرض هنا تطاولهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رد عليه عقب عرضه بما يظهر سخفه وكذبه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ... ﴾

(**181**) فيها من دقة التناسب أن الله تعالى لما وصف مترل الفرقان بما لا يحيط به علم أحد غيره من الشؤون، فاتضح بذلك إعجاز المترل الذي أبان ذلك، وهو هذا القرآن، وأنه وحده الفرقان، عجب من حال المكذبين به فقال مَوْضِعَ (وقالوا) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ مظهراً الوصف الذي حملهم على هذا القول، وهو ستر ما ظهر لهم ولغيرهم كالشمس والاجتهاد في إخفائه وعدم إظهاره.

(**182**) فيها أن الله تعالى لما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده، قرر صحة الرسالة وبطلان قول من عارضها واعترضها فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ.. ﴾([1])

(**183**) فيها تعليم لطريقة التعامل مع الشبهات بأن يبدأ المحاور، أو المناظِر، أو الداعية إلى الله عموماً؛ بنقض أصل الشبهة، ثم يتدرج من الشبهات الكبيرة، إلى الصغيرة، وهكذا، فقد تُنسَف جميع الشبهات وتسقط بمجرد نقض أصل الشبهة، وهذا يعتمد على حكمة الداعية وعلمه بهدايات مثل هذه الآية.

(**184**) في إسناد هذا القول إلى جميع الكفار لأنه واقع بين ظهرانيهم وكلهم يتناقلونه. وهذه طريقة مألوفة في نسبة أمر إلى القبيلة كما يقال: بنو أسد قتلوا حجرا. ([2]) وفي ذلك تنبيه إلى أن مَن وُجِد في بيئة يُعصَى فيها الله تعالى، ولم ينبس ببنت شفة، ينسحب عليه من الأوصاف ما انسحب عليهم، لعدم قيامه بالتغيير.

---

1 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 577

2 ينظر التحرير والتنوير، 322/18

(**185**) في الآية انتقال من ذكر كفرهم في أفعالهم إلى ذكر كفرهم بأقوالهم الباطلة.([1]) إذ ما من فعل إلا وهو ناتج عن قول ومترجم له. وإذا تقرر في الإسلام: أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، فكذلك الكفر هو اعتقاد وقول وعمل. وهذا من الدقة القرآنية في سبر أغوار النفس الإنسانية وما ينتج عنها من أقوال وأفعال.

(**186**) في ذكرهم باسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ ثم الاكتفاء بذكر الصفة ﴿كَفَرُوٓاْ ﴾ دون الموصوف، ك: (كفار مكة، أو قريش، أو فلان...) تعليم للداعية بأن يترفّع بدعوته عن شخصنة المدعوين، أو ذكرهم بأوصافهم، أو نسبهم، أو قبائلهم... لأن الواجب هو محاربة الأفكار والأفعال الخاطئة، وعلاج العقائد الفاسدة، بغضّ النظر عَنْ مَنْ يحملها، فقد يستجيب وتنتهي المعركة معه كشخص، أو نسب أو قبيلة، فلا ينبغي جرحه أو تعييره بوصف من الأوصاف يكون له حرجاً بعد التوبة، وهذه من طرائق القرآن الجميلة في الدعوة أو الحوار.

(**187**) فيها اعتراف منهم بإعجاز القرآن؛ لأنهم يعترفون بأن النبي صلّى الله عليه وسلّم أفصحهم أو من أفصحهم، ثم مع ذلك اعتقدوا أنه لم يستقل بالقرآن حتى أعانه عليه قوم آخرون، فاقتضى أنهم كانوا يرونه معجزاً للفصيح الواحد، فإذا ادعوا أنه استعان عليه بقوم آخرين؛ قيل لهم: فاستعينوا أنتم على معارضته بمثله بقوم آخرين، وقد أطلقتم في الجن والإنس تستعينون بهم، فإذا عجزتم دل على أنه معجز على الإطلاق باعترافكم.([2])

(**188**) فيها أنه لما كان الإنسان مطبوعاً على أنه يتكثر بأدنى شيء من المحاسن، فيحب أن تظهر عنه ولا ينسب شيء منها إلى غيره، كان أعجب من ذلك وأظهر عواراً قولهم هذا: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ﴾([3])

(**189**) تفيد أن وسيلة الكفار التي لا تتغير قديماً وحديثاً هي محاولة إبطال المصدر السماوي للقرآن الكريم وربطه بالنسبية البشرية حتى يتسنى لهم الطعن في حقيقته وشريعته، وردّ دعوته على صاحبه، لبث الشك في نفوس أتباعه وصدهم عنه.([4]) وما القراءات الحديثة للقرآن الكريم إلا تجلّ واضح لهذه الوسيلة الماكرة والخاسرة.

(**190**) تفيد أن الكفار والمنافقين لن يزالوا أبداً –اليوم وغداً– يثيرون الشبه والفتن، أمام قوافل السائرين إلى الله والدعاة إليه؛ ما دام هذا الحق نوراً يمشون به في الناس..([5])

---

1 ينظر التحرير والتنوير،18/ 322

2 ينظر الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، 64/3

3 ينظر نظم الدرر، 13/ 339

4 ينظر مجالس القرآن، 1/ 167

5 ينظر مجالس القرآن، 167/1

(**191**) فيها افتراء الكفار وأهل الباطل دائماً على الوحي والرسول صلى الله عليه وسلم بالاتهامات الباطلة، لعلمهم أن ذلك هو أصل الحق وأساس الدين، ومن ثم يكون تركيزهم عليه واتهامهم حوله، حتى يسهل عليهم ما دونه، ولكن هيهات، فحربهم له وافتراؤهم عليه يزيده قوة.

(**192**) فيها دليل على عجزهم، وأنهم غير صادقين فيما اتهموا به النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لو كان هذا القرآن إفكاً افتراه محمد صلى الله عليه وسلم من عنده وأعانه عليه البشر كما يزعمون، لأمكنهم أن يعارضوه، وهم النهاية في الفصاحة، وقد بلغوا في الحرص على إبطال أمره كل غاية، ولكان ذلك أقرب إلى أن يبلغوا مرادهم فيه مما أوردوه في هذه الآية وغيرها.([1])

(**193**) فيها بطلان دعوى استعانة النبي صلى الله عليه وسلم بغيره في الإتيان بهذا القرآن، عقلا وعرفاً، ووجه ذلك في الآية أن يقال لهم: لو استعان محمد عليه السلام في ذلك بغيره لأمكنكم أيضاً أن تستعينوا أنتم بغيركم، لأنكم تعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم مثلكم في معرفة اللغة، وفي المكنة من الاستعانة، فسقطت بذلك هذه الدعوى، و لم تبق لها قيمة، وظهر بذلك إعجاز القرآن الكريم.

(**194**) تفيد أن العناد والجحود يلجئ صاحبه إلى أن يقع في التناقضات، ذلك أن كفار قريش يعلمون صدق النبي صلى الله عليه وسلم ثم يتهمونه بالكذب باختلاق هذا القرآن من عنده، ويعلمون أنه لم يقرأ و لم يكتب، ثم يتهمونه بتعلمه وكتابته عن الأعجمين.

(**195**) تفيد وجوب الثبات على الحق، والعض على هذا القرآن بالنواجذ والتمسيك بآياته بقوة، فذلك هو طريق النجاة، وسبيل الهداية.

(**196**) تدل على وجوب عدم التأثر بما يقوله الكفار والمنافقون من الترهات والأباطيل التي يلقون بها في وجه المؤمنين لعرقلة السير وقطع الطريق إلى الله والتشويش على دعوته جل جلاله.([2])

(**197**) الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة يقع أحدهما عقيب الآخر أو يحصل بسببه، بل على أن الثاني عين الأول حقيقة، وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري، و(قد) لتحقيق ذلك المعنى، فإن ما جاءه من الظلم والزور هو عين ما حكى عنهم، لكنه لما كان مغايراً له في المفهوم وأظهر منه بطلاناً رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلاً لأمره.([3])

---

1 ينظر مفاتيح الغيب، 50/24

2 ينظر مجالس القرآن، 167/1

3 ينظر روح المعاني، 9/ 425

(**198**) يفيد التنوين في قوله: ﴿ظُلْمًا﴾ التفخيم، أي جاؤا بما قالوا ظلماً هائلاً عظيماً لا يقادر قدره، حيث جعلوا الحق البحت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إفكاً مفترى من قبل البشر، وهو من جهة نظمه الرائق وطرازه الفائق بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته، ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية والأحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والأمور الغيبية، بحيث لا تناوله عقول البشر ولا تحيط بفهمه القوى والقدر.([1])

(**199**) يفيد التنوين في: ﴿ وَزُورًا﴾ كذلك التفخيم، أي وكذباً عظيماً لا يبلغ غايته حيث قالوا ما لا احتمال فيه للصدق أصلاً، وسمي الكذب: زوراً لِ زوراره أي ميله عن جهة الحق والصواب والحقيقة.([2])

(**200**) في وصفه تعالى لكلامهم بأنه ظلم وزور، فلأنهم نسبوا هذا الفعل القبيح إلى من كان مبرأً عنه، وهم يعرفون ذلك، وبهذا فقد وضعوا الشيء في غير موضعه وذلك هو الظلم، وأما الزور فلأنهم كذبوا فيه.([3])

(**201**) في تنكير هذين الوصفين: -ظلماً وزوراً- للإشارة إلى عظمة هذا الكذب الذي يبهت السامع لأنه غريب لا أصل له، وكِبَر هذا الزور، إذ إنه غير معقول في ذاته بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم إذ عاش بينهم أربعين سنة قبل الرسالة، واشتهر بالصدق والأمانة، حتى كان الصادق الأمين.

(**202**) فيها أن (الظلم) (والزور) هما من أقبح الذنوب وأشنعها، لما فيهما من قلب للموازين، فالأول فيه اعتداء بغيرحق، إما بالقول أو الفعل، أو هما معاً، والثاني هو الكذب المحسَّن المموَّه بحيث يشتبه بالصدق، وهما أصل كل فساد حسّاً ومعنىً.

(**203**) ليس هناك أظلم من ظالم يتهم البريء بالظلم، كحال هؤلاء المشركين يشركون ويفترون على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم يرمون غيرهم بالافتراء.

(**204**) تدل على أن من أصحاب المعتقدات الباطلة والفاسدة، تخرج الدعاوى الباطلة، والاتهامات الفاسدة، وفي المثل الحكيم: كل إيناء بما فيه ينضح.

---

1 ينظر روح المعاني، 9/ 425

2 ينظر روح المعاني، 9/ 425

3 ينظر مفاتيح الغيب، 24/ 50

(**205**) تدل هذه الآية على عدل القرآن وأمانته حتى مع أهل الباطل في باطلهم، وذلك أن الله تعالى قبل أن يرد عليهم بإظهار الحق كما أراده، ذكر كل شبههم الباطلة، ومقالاتهم الفاسدة، كما هي، وكما خرجت منهم، ثم بعد ذلك فنّدها وأبطلها بالحق وبالحجة والبرهان.

(**206**) يستفاد من هذه الآية كذلك أن المؤمن في مجادلته ومحاججته للخصم، قصد الرد عليه وإبطال أدلته؛ أن يذكر أدلته كما هي ثم ينقضها دليلا دليلا، لا أن يتجاوزها، أو يكتمها، حتى لا يتظاهر عليه هذا الخصم، بأنه أخفى أدلته لقوتها.

(**207**) فيها بيان لسنة التدافع بين الحق والباطل، والتي على الداعية إلى الله تعالى أن يستحضرها، حتى لا يستسلم لأهل الباطل، أو يستكين ويضع سلاح مقارعة الباطل بالحجة والبرهان.

(**208**) تشير إلى أن الباطل جند من جنود الحق، فبسببه يقبل الناس على الحق حينما يحاربه أهل الباطل، فكم من الناس دخلوا هذا الدين بسبب محاربته ومحاولة تشويهه من أهل الباطل من أعدائه ومحاربيه.

(**209**) تدل هذه الآية على أن الإفك هو أسوأ الكذب، لأنه قلب للكلام عن الحق إلى الباطل، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَفَكَهُ بِمَعْنَى قَلَبَهُ، ومنه قوله تعالى في قوم لوط: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ ﴾ [التوبة:70] وقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ [النجم:53] وإنما قيل لها مُؤْتَفِكَاتٌ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ أَفَكَهَا، أَيْ: قَلَبَهَا؛ كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿ جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود: 82] ([1])

(**210**) في هذا الآية تطمين لأهل الحق والدعاة إليه، وتثبيت لهم في كل زمان ومكان؛ بأن الحق منصور متى ما ثبتوا عليه وعملوا بأسباب نصره، مهما حاربه المحاربون، واتهمه المبطلون، فدولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة.

(**211**) فيها تنبيه لأهل الحق: بأنه إذا كان أهل الباطل لا يعييهم الانتقال من شبهة إلى أخرى، ومن أسلوب إلى آخر؛ قصد محاربة الحق، مع أن حبلهم قصير، وباطلهم زائل، فكيف يليق بأهل الحق أن يصابوا بالفشل، أو يتوقفوا في نصف الطريق، وهم منصورون عاجلا، أو آجلا، مع ما ينتظهم من حسن الجزاء، وعظم الثواب والنعيم في جنة الخلد.

(**212**) في ختم الآية بهذين الوصفين: ﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ بعد ذكر أباطلهم، من دقة التناسب مع مضمونها ما يبهر المتدبر، ذلك أن الذي ألجأهم إلى قول هذه الأقاويل الباطلة، في

---

1 ينظر أضواء البيان، 6/ 15

حق الله تعالى وحق كتابه وحق رسوله صلى الله عليه وسلم، إنما هو الجحود والعناد بعد ما تبين لهم الحق، فظلموا بذلك أنفسهم، بل وقعوا في أبشع أنواع الظلم والزور، لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ [الزمر: 32]

(**213**) فيها التحذير من الظلم والزور كيف ما كان نوعهما، وفي أي مجال كانا، وذلك لما لهما من نتائج وخيمة، وعواقب مدمرة للفرد، والمجتمع، إذ أمرهما متعد إلى الغير، ولا يقصر على من صدر منه، وأصل دمار كل المجتمعات راجع إلى الظلم والزور، كما ذكر الله في كثير من الآيات القرآن.

الآية الخامسة: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**214**) في مناسبتها بما قبلها، أن الله سبحانه وتعالى لما بيّن تناقضهم أولاً في ادعائهم في القرآن ما هو واضح المنافاة لوصفه، وثانياً بأنه أُعين عليه بعد ما أشعرت به صيغة الافتعال من الانفراد، أتبعه تعالى تناقضاً آخر لهم، لا يقل سفاهة وتفاهة عن الذي قبله بقوله معجباً: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ... ﴾ ([1])

(**215**) في علاقتها بما قبلها، أنهم بعد ما جعلوا هذا الحق الواضح البين الذي لا محيد عنه، إفكاً مختلقاً بإعانة البشر للنبي صلى الله عليه وسلم، بيّنوا هنا على زعمهم الفاسد الكاسد كيفية هذه الإعانة: وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه...

(**216**) تدل على تناقض أهل الباطل الذي هو سبب لحيرتهم تجاه الحق وكيف يردونه، مما يوقعهم في نقض شبهة بأخرى، أو بيان شبهة بنقيضها، إذ كيف يكون هذا الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إفك افتراه من عنده، وفي نفس الوقت أعانه عليه قوم آخرون، ثم هو أساطير الأولين اكتتبها؟!

(**217**) تدل على تذبذب أهل الباطل في مواقفهم، وعدم ثباتهم على قول بعينه في رد الحق، وهو دليل على ضعف موقفهم ووهن شبههم، بل وعدم اقتناعهم هم بما يقولونه، وفي هذا بشرى لأهل الحق لما هم عليه من الحق وقوته ووضوحه ونصرته.

(**218**) في استعمالهم لكلمة (الأساطير) ما يدل على تأثير البيئة والعرف على عقلية الإنسان وثقافته، فالأسطورة هي الخبر المكتوب المسطور، وقد اشتهرت في الدلالة على ما سطره الأولون من أساجيع الخرافات والترهات، ومن هنا فاستعمال أهل الجاهلية لهذه الكلمة كان انطلاقاً من ذهنيتهم وثقافتهم التي كانت تستبعد فكرة البعث والنشور والجنة والنار، ما قد يجعل الحديث عن ذلك لديهم حديثاً عن فكرةٍ خرافية بعيدة.

(**219**) إنّ كل مَن يريد أن يعترض على أخبار الحق، ولا يريد التصديق بها، يلتجئ لاستبعادها من خلال إلصاقها بالزمن الغابر، وذلك لا عتقاده بأن القِدم قادح في صحة الخبر، وهي شبهة كل معترض قديماً وحديثاً، يتحصنون من ورائها لرد الحق وعدم قبوله، كالذي يرد

---

1 ينظر نظم الدرر، 339/13

التراث الإسلامي في عصرنا ويطعن فيه بشهبة القِدم، وأنه لا تصح له النسبة، ومن ثم فهو خرافات وأساطير الأولين، وأين الأدلة الحقيقية؟ أم أنهم يهربون منها لأنها حجة عليهم؟!

(**220**) فيها من آيات الله تعالى أن الحق ثابت مستقر ولا يزيده الزمن إلا ثباتاً ووضوحاً وانتشاراً، وأن أهل الباطل يتواطأون على نفس الوسائل في محاولة الطعن فيه ورده، وإن اختلف الأساليب، فيذهبون وتنتهي محاولاتهم وتبوأ بالفشل، ويبقى الحق كما كان، بل ويزداد قوة وانتشاراً، وفي هذا برهان من الله على أن الحق من عنده.

(**221**) فيها اعتراف كفار قريش بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقرأ ولا يكتب، فمدحوه من حيث أرادوا الإساءة، وهذا من تمام إعجازه، ودليل على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم. ووجه ذلك في الآية قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ ٱكۡتَتَبَهَا ﴾ فلم يقولوا كتبها، بل قالوا: اكتتبها يعني أمر غيره أن يكتبها له.

(**222**) كم مِن محارب لوجه من وجوه الحق، يُظهِر الله وجوهه الأخرى على يديه للآخرين، فينصر الله به الحق من حيث أراد هو محاربته، وقد قيل: الكفر جند من جنود الله تعالى.

(**223**) إن لفظة: (اكْتَتَبَ) في قوله تعالى: ﴿ ٱكۡتَتَبَهَا ﴾ تكون لكتابة ما هو مختلق لا أصل له، فالاكْتِتَابُ متعارف في المختلق([1]) فتكون في كلمة (اكْتَتَبَ) اتهام رابع له صلى الله عليه وسلم بالافتراء والاختلاق، بعد ما اتهموه بأنه إفك مفترى، وأنه أساطير الأولين، وأنها تملى عليه فيكتبها، أو تملى على النبي صلى الله عليه وسلم إملاء فيحفظها. وهذا من فرط استهانتهم وسخافة عقولهم. وهو شأن كل مَنْ ركب رأسه وسلّم عقله لهواه.

(**224**) فيها أن المتنقّل بين الشبهات، وعدم استقراره على شبهة محددة، دليل على عجزه وانهزامه، وحيرته تجاه الحق وقوته وانتصاره.

(**225**) في قولهم: ﴿ فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ دليل على أنهم كذبة، فلو كان ذلك لكانوا يراقبونه، ويحافظونه سراً ليعرفوا ذلك، ويشاهدوه. فإذا لم يفعلوا ذلك دلّ أنهم كانوا يعرفون صدقه وأنهم كذبة في زعمهم. لكنهم كابروه، وعاندوه في ذلك.([2])

(**226**) فيها تنبيه للمؤمن بأن الميزان الحقيق لمعرفة صحبة وصدق مواقف أهله وعشيرته وإخوانه وأصدقائه، إنما هو عند عرضه للحق عليهم وطلبه نصرتهم له، وإلا كانت هذه الصحبة والمعاملة، إنما هي لأمور دنيوية، ومصالح نفسية؛ ووجه ذلك في الآية، أن من أهل النبي صلى الله

---

1 المفردات في غريب القرآن، مادة (كتب)

2 تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)8 /7. محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: 333هـ)

عليه وسلم وعشيرته، مَن كان يقف معه ويدافع عنه ويمدحه، فلما جاء الحق وعرضه عليه؛ أعرض عنه وبل ونصبه العداء.

(**227**) إن من المعلوم الذي لا يخفى على عاقل، أن إنساناً ما، لو لازم شيئاً عشرة أيام بكرة وعشياً، لم يبق ممَّن يعرفه ويطلع على أحواله أحدٌ حتى يعرف ذلك منه، فلو أنكره بعدُ لَافْتَضَحَ فضيحة لا يغسل عنه عارها أبداً، فكيف والبلد صغير (مكة) والرجل عظيم شهير(محمد) صلى الله عليه وسلم، فدل ذلك على أن قولهم: ﴿ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ كلام لا يصدر ممَّن له مسكة في عقل ولا مروءة. ولكنه العناد والسفة والجحود، وهذا شأن كل معاند وجاحد للحق في كل زمان ومكان.([1])

(**228**) فيها دليل على أن حبل الباطل قصير، وأن أهل الكفر يغلب عليهم الغباء والسذاجة، مهما ادعوا من المعرفة والذكاء، إذ كيف يقول من له مسكة في عقل، أو مروءة: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا..﴾ وهو يدعوهم إلى المعارضة ولو بسورة من مثله، وفيهم الكتّاب، والشعراء، والبلغاء والخطباء، وهم أكثر منه مالاً، وأعظم أعواناً، ولا يقدرون على شيء منه.([2])

(**229**) فيها دليل على أن رد الحق وعدم قبوله، ليس لعدم وضوحه ومعرفته، بل قد يكون رده بعد وضوحه وبيانه، جحوداً وإعراضاً، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: 33]

(**230**) تفيد أن افتعال العداوة قد تحمل صاحبها على إنكار ما كان عنده من البدهيات، وما كان يوقن به من المسلمات، ووجه ذلك في الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى يوم بعثته، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، وأمانته، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بُعث إلا الأمين، فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، ورَموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، ولكنه الكبر والحسد اللذان يعميان البصيرة.

(**231**) تدل هذه الآية على أن من وسائل أهل الباطل في رد الحق ومحاربته وتشويه صاحبه، التحصن وراء الألفاظ والمصطلحات والنفخ فيها، من مثل: (أساطير، إفك، افتراء...) محاولة منهم لإحباط الحق، أو إيقافه وثَنْيِ صاحبه عن مواصلة الطريق، وهذه الوسائل هي نفسها

---

1 ينظر نظم الدرر، 340/13

2 ينظر السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير،648/2 شمس الدين، الشربيني الشافعي (المتوفى: 977هـ)

التي تستعمل الآن لمحاربة الإسلام ودعاته، وخصوصاً حينما تستغل من أجلها وسائل الإعلام المتنوعة، من مثل: (الرجعية، الإرهاب، التخلف، التشدد...)

(**232**) فيها أن اتهام أهل الباطل للحق وأهله بشتى أنواع الاتهامات، دليل على قوة الحق وصدق دعوته، إذ الدعوات الباطلة تهدم نفسها بنفسها، وتفضح ذاتها بذاتها، فلا تحتاج إلى هذه الاتهامات التي ينقض بعضها بعضاً.

(**233**) إن اتهامات المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الوحي، تفضح ما هم عليه من الزور والبهت، والظلم والحقد، إذ كيف يصح أن يقال عن القرآن إنه أساطير الأولين، وهو أول مَن يهدمها بالحجة والبرهان؟ وكيف يقال عمن جاء به إنه من المفترين، وهم أول أعترفوا بصدقه وأمانته، ويعلمون علم اليقين أنه الصادق الأمين؟

(**234**) تدل على عمى البصيرة عند هؤلاء المشركين، لأن المفروض فيهم -لو أبصرت قلوبهم- أنهم أول مَنْ ينبغي أن يوقن بصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، لاعتبارات متعددة، منها: معرفتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم منذ نشأته. ومنها: أن ما جاءهم به يخالف ما عاهدوه من البشر جملة وتفصيلا.. وغيرها من الاعتبارات.

(**235**) تدل على تفاهة وسخافة الاتهامات المختلقة تجاه الحق، وكما قيل: الحق أبلج والباطل لجلج. ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها، ولو كان عليه الصلاة والسلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد، لكان من الواجب عليهم أيضاً أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحي الله الصادق، وكلامه الحق الواضح.

(**236**) فيها أن على الداعية إلى الله أن لا تثنيه الشبهات عن مواصلة السير، وإعلان الحق وتبليغه، فقد يجعل الله هذه الشبهات سبباً للنظر في هذه الدعوة بعين البصيرة والاستجابة إليها مِن قِبَل كثير مِنْ محاربيها، كما هو ملاحَظ في كل زمان ومكان، فكم من شبهة أُثيرت حول الحق فكانت سبباً، لدخول الناس فيه أفواجاً.

(**237**) فيها أن على أهل الحق أن يفنّدوا الأفكار المنحرفة، والأقوال الضالة، بالحجة والبرهان، دون التعرّض للقائلين بالأسماء والألقاب، فقد يؤمن هؤلاء بالحق وتنتهي المعركة، دون

أن يبقى ما يجرح أشخاصهم، ويؤثر على نفسياتهم، وهذا منهج القرآن، فقد ذكر في هذه الآية والتي قبلها، أقوال المشركين واتهاماتهم، دون أن يسمي أحداً منهم، من مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ...﴾ وقوله: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ ولولا معرفة أسباب النزول لما عرفنا القائل، ولا في أي زمان ولا أي مكان كان ذلك.

(**238**) تفيد أن من جهل شيئاً عاداه، وقد قيل: الإنسان عدو ما يجهل، فلو علم أهل الباطل جناية ما يقعون فيه من محاربة الحق الموافق لفطرتهم، المحقق لسعادتهم في الدنيا والآخرة، لما حاربوه، بل لحاربوا دونه، ولقدموا أرواحهم وأنفسهم وأموالهم فداء له.

(**239**) تدل على أن المشركين إنما قالوا ما قالوه عن القرآن، بسبب عدم استماعهم وتدبرهم له، وبسبب عدم تفكرهم فيما يقولون فيه، إذ لو تدبروا القرآن، وتفكروا فيما يقولون فيه، لذابوا حياء من أنفسهم لما صدر منهم من التناقض والجراءة.

(**240**) تدل على ضعف حجتهم، وضآلة تفكيرهم فيما قالوه عن القرآن الكريم، ولذلك انتقلوا بعد ذلك للوقوع فيمَن نزل عليه القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا شأن كل ضعيف، ولو كان ما قالوه قوياً لظلوا متشبثين به، لعلمهم أنه يكفي في تحقيق ما يريدون، وما انتقلوا منه إلى غيره.

(**241**) تدل هذه الآية على الأمانة العلمية في نقل الأقوال ونقدها، ولو كانت من الباطل، فقد نقل الله لنا كل الأقوال الباطلة، والاتهامات المغرضة، التي قيلت عن الوحي وعن النبي صلى الله عليه وسلم، بل وعن ذاته العلية سبحانه، ثم نقضها وردها بالبراهين القطعية.

(**242**) تشير إلى أن الحق لا مانع عنده من محاورة أهل الباطل والاستماع لأباطيلهم، ثم مناقشتها بالبراهين العقلية، فتلك طريقة من طرق عرض الحق عليهم، إذ إن صاحب الباطل إن لم تستمع له، قد تحمله مكابرته على محاربة الحق ولو علم أنه الحق.

(**243**) تشير إلى أن الداعية إلى الله تعالى عليه أن يكون صدره رحباً، ولا يضيق صدره بما يقوله أهل الباطل فيه، أو في الحق الذي يحمله، وإلا وقف في نصف الطريق. فسنة الله أن طريق الحق مملوء بالمتاعب والمشاق اختباراً لأهله، وإلا ادعى الحق كل من ليس أهله حقاً وصدقاً.

(**244**) تشير إلى أهمية الصبر وعدم الاستعجال، فالصبر وعدم الاستعجال هو سلاح أهل الحق في دعوتهم وجهادهم، وإلا أصيبت نفوسهم بما يسمعون من همز ولمز وسخرية وتثبيط، فما نصر الله دعوة، إلا بصبر أهلها وتضحياتهم، وعدم استعجالهم، ولذلك لما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر ذكّره بأولى العزم والصبر. فقال: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل ﴾ [الأحقاف: 35]

(**245**) تشير إلى عدم اليأس والقنوط مِمَّن يحارب الحق، والاجتهاد في استمالته إليه مهما كانت عداوته، فقد تأتي لحظة يصيبه من هداية الله ما يكون عوناً وقوة لأهل الحق ودعاته، ووجه ذلك في الآية؛ أن كثيراً مِمَّن كان يحارب النبي صلى الله عليهوسلم ودعوته، بقي النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم حتى كانوا هم حماته وأهل نصرته، أمثال عمر، خالد، وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم.

(**246**) تشير إلى أن للحق ربّاً يحميه، وإنما جعل الله طريق تبليغه شاقاً، للتمحيص والاختبار: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: 141]

الآية السادسة: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**247**) في مناسبتها بما قبلها أنهم لما رموه بتلك الأقوال التي هم فيها في خبط عشواء، وكانت مع كونها ظاهرة العوار، عند من له أدنى استبصار، وقد تروج على بعض العرب بعض الرواج، لشبه واهية مكنهم فيها التقليد، وشدة الإلف لما هم عليه من الزمن المديد، أمره سبحانه وتعالى بجوابهم الدال على بطلان ما قالوه مستأنفاً ومهدداً لهم: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾(1)

(**248**) في علاقتها بما قبلها جواب عن شبههم، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام تحداهم بالمعارضة، وأظهر عجزهم عنها، ولو كان صلى الله عليه وسلم أتى بالقرآن من عند نفسه، أو استعان بأحد، لكان من الواجب عليهم هم أيضاً أن يستعينوا بأحد، فيأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا عن ذلك ثبت أنه وحي الله وكلامه، فلهذا قال: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾(2)

(**249**) فيها ردّ على من زعم من المشركين أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم يتلقى القرآن من أهل الكتاب، فكيف يكون ذلك وهذا القرآن أفحمهم في إعجازه، وتضمّن أخباراً عن مغيبات مستقبلة، وأشياء لا يعلمها أحد من البشر، وهم يعلمون ذلك، ويعلمون أن كلامهم عنه زور وبهتان.

(**250**) فيها إرشاد إلى أن قيمة الشيء ومكانته؛ تعرف من مصدره، ووجه ذلك في هذه الآية، أن الله لما أمر نبيه عيه الصلاة والسلام بأن ينقض مقالتهم ويفند شبههم حول القرآن، طلب منه بأن يذكرهم بأصل هذا الكتاب ومصدره، وهو الله الخالق العليم الذي يعلم السر في السماوات والأرض...

(**251**) فيها كذلك توجيه منهجي لطريقة التعامل مع الشبهات، والإجابة عن الإشكالات، ووجه ذلك أن الله أمر رسوله بأن يذهب بهم إلى الإشكال الأصل عندهم، وهو: قضية توحيد الله ومعرفة صفاته العظيمة، فإذا أيقونوا ذلك علموا أن هذا الكتاب لا يكون إلا من عند الله العظيم المتصف بهذه الصفات الجليلة.

---

1 ينظر نظم الدرر 13 / 341

2 ينظر اللباب في علوم الكتاب، 481/14

(**252**) فيها تبكيت لهم وتسكيت، وزجر لافتراءاتهم وقرع لكذبهم وزورهم وكل من يمشي على أثرهم السيء هذا، إذ كيف يقول عاقل هذا الكلام والقرآن ناطق بمصدره الإلهي ومعجزته الربانية التي تدل على أن منزله يعلم السر في السموت والأرض وحقائقهما.

(**253**) تدل على أن الله سبحانه يَعْلَمُ كُلَّ سرّ خَفِيَ فِي السماوات وَالْأَرْضِ، وَمِنْ جُمْلَته مَا تُسرُّونَهُ أَنْتُمْ منَ الْكَيْد لرَسُوله مَعَ علْمكُمْ بأَنَّ مَا يَقُولُهُ حَقٌّ ضَرُورَةً، وَكَذَلكَ بَاطنُ أَمْرَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ وَبَرَاءَتُهُ مِمَّا تَتَّهِمُونَهُ بِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُجَازِيكُمْ وَمُجَازِيهِ عَلَى مَا عَلِمَ منْكُمْ وَعَلِمَ منْهُ.([1])

(**254**) تدل على إحاطة علمه سبحانه بجميع المعلومات الجليَّة والخفيَّة، وفي ذلك إيذان بانطواءِ ما أنزله على أسرارٍ مطويَّةٍ عن عقول البشر، مع ما فيه من التَّعريضِ بمجازاتهم بجناياتهم المحكيَّةِ التي هي من جُملة معلوماتهِ تعالى.([2])

(**255**) فيها أن القادر على تركيب ألفاظ هذا الكتاب العظيم الذي أعجز البشر، لا بد وأن يكون عالماً بكل المعلومات ظاهرها وخفيها، ومحيطاً بأسرار هذا الكون.

(**256**) فيها رد على الشاكين في الوحي الذي بهرتهم آياته البينات، بما تحتوي عليه من حقائق كونية، ومبادئ أخلاقية، وتشريعات مثالية، فلم تستطع عقولهم القاصرة لهذه الظاهرة القرآنية الفريدة من نوعها تحليلا ولا تفسيراً، وأوسعوها بجهلهم وعنادهم طعناً ونكيراً، وهذا شأن أهل الباطل مع الحق في كل زمان ومكان، يعجزهم رد حقائق الأمور لوضوحها، فيسعون للطعن فيها ومن جاء بها من خارجها.([3])

(**257**) تدل على أَنَّ الْقرآن الكريم مشتَمل عَلَى الإخْبَارِ عَنِ الْغُيُوب، وَذلكَ لا يَتَأَتَّى إلاّ منَ العالِمِ بكل الْمَعْلُومات، الخبير بأسرار السماوات والأرض، العليم بدقائق وتفاصيل الغيب والشهادة.

(**258**) تشير هذه الآية إلى أن مشكل الكفار والمشركين في كل زمان ومكان، هو في التعامل مع الغيب وعلاقه بعالم الشهادة، حينما يُخْضِعونه لعقولهم، فيرفضون كل ما لا تقبله عقولهم، أو لا تستوعبه، من مثل: كيف يكون لشخص يعرفونه مثلهم يتلقى وحياً من الغيب..

---

1 ينظر مفاتيح الغيب، 434/24

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 6 / 203

3 ينظر التيسير في أحاديث التفسير، 4/ 309

(**259**) في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ﴾ دليل على أنه ليس للنبي صلى الله عليه وسلم من هذا الوحي إلا التلقي والتبليغ، فهو كلام الله ووحيه أنزله لهداية البشرية، والنبي عليه الصلاة والسلام أول المتهتدين بهدايات هذا القرآن.

(**260**) فيها أن صلاح الإنسان وهدايته إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، لن يكون إلا عن طريق هذا القرآن الذي أنزله الله من عنده، فالإنسان بما هو خلق الله صناعة غيبية، ولا يصلح هذه الصناعة الغيبية وإعادتها إلى فطرتها وصبغتها؛ إلا الهداية الربانية الغيبية التي هي أمر الله: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: 54]

(**261**) تشير إلى أن أعظم خصيصة من خصائص هذا الكتاب العظيم هي: أنه كتاب غيبي، ولذلك لا يتذوق أسراره، ولا يبصر أنواره؛ إلا مَن أتاه من هذا الباب، وهو بعده الغيبي، ومصدره الرباني.

(**262**) تدل على أن القرآن الكريم مشتمل عَلَى الْأَحْكام والحِكَم والمقاصد الَّتِي هِيَ مُقْتَضِيَةٌ لِمَصَالِحِ الْعَالَمِ وَنِظَامِ الْعِبَادِ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ الْعَالِمِ بِكُلِّ الْمَعْلُومَاتِ.([1])

(**263**) تشير إلى أن اشتمال القرآن الكريم على الأحكام والتشريعات، والأوامر والنواهي والإرشادات، والتي هي مقتضية لنظام العالم ومصالح العباد في العاجل والآجل، لا يكون إلا من العالم بكل المعلومات الظاهرة والباطنة.

(**264**) تدل على وجوب الدفاع عن القرآن الكريم ضد أقوال المغرضين والطاعنين فيه وفي مصدره، والذين يريدون تشويه القرآن الكريم والحط من عظمته وهدايته. ووجه ذلك في هذه الآية أن الله تعالى بعد ما عرض أقوال المشركين عن القرآن الكريم بأنه إفك من محمد صلى الله عليه وسلم اختلقه من عنده، مع إعانة قوم آخرين له، أوأنه أساطير الأولين اكتتبها وأُمليت عليه؛ رد الله عليهم وأبطل زعمهم وفند اتهاماتهم بهذه الآية: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾

(**265**) إن تدبر القرآن وما فيه من آيات، لدليل وسبيل لمعرفة مصدره، ووجه ذلك في الآية أنهم لو تأملوا هذا القرآن العظيم لأدركوا أنه لا أحد يستطيع أن يعرف سر الكون، بما فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان، وأرض وسماء، كما عرضها القرآن الكريم أكثر من خالقه، ولا أحد يستطيع أن يصف أسرار الكون وعَوالِمه، بأصدق وأبلغ مما يصفه به كتاب الله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ [النساء87]

---

1 ينظر مفاتيح الغيب/ 434/24

(**266**) تفيد أن عمق القرآن الكريم يمتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ولذلك فأسراره لا تنتهي أبداً، ومن هنا فهو يتضمن الهُدى الذي تحتاجه البشرية في مجموعها، والهدى الذي تحتاجه كل نفس في نفسها...([1])

(**267**) تفيد أن المتكلم بهذا القرآن إنما هو الله رب العالمين، فلا يغب عنك هذا عند تلقي رسالاته؛ فتُحْجَبَ عن أنواره وأسراره، ثم لا تكون من الداخلين في جمال رحمته، المشمولين بلطفه وغفرانه، فاقرأ القرآن وتلقَّ الهدى والنور عن الله مباشرة تكن من المبصرين.([2])

(**268**) تدل على أن القرآن الكريم مُحمَّلٌ بكل شيء من أسرار السماوات والأرض، مما تحتاجه البشرية لتدبير حياتها وبناء عمرانها، في علاقتها بنفسها، وبمحيطها، وفي سيرها إلى ربها والتعرف إلى خالقها.([3]) ووجه ذلك في الآية قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾

(**269**) في التعبير -عن متزِّل هذا القرآن- باسم الموصول: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى﴾ دون التصريح باسم الجلالة (الله) تنبيه للمتلقي إلى التركيز على ما تتضمنه صلة الموصول من معان وصفات، وهو عِلْمُه تعالى بأسرار السماوات والأرض، فصاحب ذلك العلم المحيط بأسرار الكونً كله هو المتكلم الآن، وهو متزل هذا الفرقان، وهو سبحانه فوق سماواته، محيط بكل مخلوقاته علماً وتدبيراً.([4])

(**270**) في ذكره سبحانه وتعالى (السرّ) دون الجهر لأنّ من علم السر فهو بالجهر أعلم، فهو من باب التنبيه بالأولى، أو ذكر الباطن الخفي للدلالة على الظاهر الجلي، فإذا كان يعلم سبحانه سر السماوات والأرض، فهو من باب الأولى يعلم جهرهما.

(**271**) تفيد لو كان القرآن مأخوذاً عن أهل الكتاب، -كما زعم الكفار- لما كان فيه زيادة عمّا عندهم، في حين أنّ فيه من العلوم والمعارف ما لا يخطر حتى على البال ولو لم يكن كذلك لقدروا على الإتيان بسورة من مثله.([5])

(**272**) تفيد أن الله سبحانه أنزل هذا القرآن على مقتضى علمه ببواطن الأمور، وما يصلحها ويصلح لها حالاً ومآلاً، عاجلا وآجلا.

---

1 ينظر مجالس القرآن، 168/1

2 ينظر مجالس القرآن، 1/ 168

3 ينظر مجالس القرآن، 167/1

4 ينظر مجالس القرآن، 167/1

5 ينظر أيسر التفاسير، 3/ 600

(**273**) في اشتمال القرآن الكريم على علم الغيوب، التي يستحيل عادة أن يعلمها محمد صلى الله عليه وسلم من غير تعلم إلهي، دلالة على أنه من عند علام الغيوب سبحانه وتعالى.

(**274**) فيها أن الله يعلم سر ما يسره أهل السماوات وأهل الأرض، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو علام الغيوب المطلع على الضمائر، العالم بالسرائر.

(**275**) تدل على أن الغيب موجود حتى في عالم الشهادة، أي في عالم الأرض التي يعيش عليها الإنسان، ومع ذلك لا يعلمه، والله وحده يعلمه، وفي هذا دليل على ضعف الإنسان وضعف علمه مهما بلغ فيه، فهو يعيش مع غيبيات لا يعلمها ولا يدرك حقيقتها، ووجه ذلك في الآية أن الله وصف نفسه بالتفرد بعلم السر في السموات والأرض، وكما قال تعالى في صريح الآية الأخرى: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ [النمل: 65]

(**276**) فيها إشارة إلى ما يحتوي عليه القرآن الكريم من علوم ومعارف، وأسرار عالم الغيب والشهادة وحقائق الإيمان، فكيف يقال عنه أساطير الأولين! فأين أساطير الأولين من هذا العلم الشامل المحيط، والأسرار الربانية العجيبة.

(**277**) فيها أن هذا الكتاب العظيم ليس مما يُفْتَرَى ويختلق، بإعانة قوم، وكتابة آخرين، بل هو أمر سماوي، أنزله الذي لا يعزب عن علمه شيء، في الأرض ولا في السماء، عالم بأسرار الغيب والشهادة، محيط بكل شيء علماً، كما تنطق بذلك آياته.

(**278**) فيها أن الله تعالى أودع في هذا الكتاب العظيم من فنون الحِكَم والأحكام، على وجه بديع، لا تحوم حوله الأفهام، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته، وأخبركم بأمور مغيبات، وأسرار مكنونات، لا يهتدي إليها ولا يوقف عليها إلا بتوقيف العليم الخبير سبحانه.([1])

(**279**) فيها إشارة إلى علمه تعالى بحالهم بالأولى، ومن مقتضاه رحمته إياهم بإنزاله، لزيادة حاجتهم وافتقار أمثالهم إلى إخراجهم من الظلمات بأنواره.([2])

(**280**) فيها ترهيب لهم بأن ما يسرونه من الكيد للنبي عليه الصلاة والسلام، مع ما يتقولونه ويفترونه، لا يعزب عن علمه. فسيجزيهم عليه بزهوق باطلهم ومحو أثرهم، وسموق حقه وظهور أمره عليه الصلاة والسلام.([3])

---

1 ينظر البحر المديد، 79/4

2 ينظر محاسن التأويل، 7/ 418

3 ينظر محاسن التأويل، 7/ 418

(**281**) في ذكر علمه تعالى العام، تنبيههم وحضهم على تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروا لرأوا فيه من علمه وأحكامه، وأسراره، ما يدل دلالة قاطعة على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة.([1])

(**282**) إن معرفة السر في السماوات معناه السر في ارتباط أجزائها، وبنائها من غير عمد، وذلك وحده دليل القدرة الباهرة، وإشارة إلى التكوين العجيب في صنعه سبحانه.([2])

(**283**) تفيد أن رحمة الله سبحانه وتعالى سبقت غضبه، ولولا ذلك لأهلك من كفر به، وأشرك به سواه، ولذلك كان: ﴿ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ يستر زلات من تاب إليه ويرحمه مهما كانت ذنوبه.([3])

(**284**) في تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ تنبيه على أنهم استوجبوا العذاب على ما هم عليه من الجنايات المحكية، لكن أخر عنهم لما أنه سبحانه أزلاً وأبداً مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعتين للتأخير، فكأنه قيل: إنه جل وعلا متصف بالمغفرة والرحمة على الاستمرار فلذلك لا يعجل عقوبتكم على ما أنتم عليه.([4])

(**285**) في ختم الآية بهذين الاسمين: ﴿ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ دقة التناسب؛ ذلك أنه لما ذكر تعالى أقوال الكفار الشنيعة عن الرسول والقرآن، أعقبها بذكر هذين الاسمين لبيان أنه غفور رحيم في كونه جل وعلا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلهم، لأنهم إذا أسلموا تاب عليهم وغفر لهم ما مضى من أفعالهم، فسبحانه من رب غفور رحيم.

(**286**) فيها كناية عن الاقتدار العظيم على عقوبتهم، لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة، وفي إيثارها تعيير لهم ونعي على فعلهم؛ يعني أنكم فيما أنتم عليه بحيث يتصدى لعذابكم من صفته المغفرة والرحمة.([5]) مما يدل على بلوغهم الغاية القصوى في الجهل والظلم والسفاهة ...

(**287**) فيها مع ما قبلها دقة التناسب: إذ المتبادر من تذييل الآية بهذه الجملة: ﴿ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ في هذا المقام –بعد وصف انحرافهم وفساد اعتراضم على الرسول والرسالة– أنها أريد بها تقرير كون الله تعالى باتّصافه بالغفران لعباده والرحمة بهم، أرسل إليهم عبده محمداً صلى الله عليه وسلم لينذرهم ويهديهم.

---

1 ينظر تيسير الكريم الرحمن، 578

2 ينظر زهرة التفاسير،10/ 5250

3 ينظر أيسر التفاسير، 3/ 600

4 ينظر روح المعاني، 9/ 426

5 ينظر روح المعاني، 427/9

(**288**) فيها تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة عنهم، لأنه كان أزلاً وأبداً مستمراً على المغفرة والرحمة، فلذلك لم يعاجلكم بالعقوبة على ما تقولون في حقه وفي حق رسوله، مع كمال اقتداره.([1])

(**289**) تدل كذلك على سعة رحمة الله سبحانه وتعالى، فهؤلاء مع ما اتصفوا به من الكذب والافتراء والفجور، وقولهم عن الرسالة والرسول ما قالوا من الأوصاف الشنيعة؛ يدعوهم سبحانه وتعالى إلى التوبة والإقلاع عما هم عليه والدخول إلى الإسلام.

(**290**) إن ذكر المغفرة والرحمة في هذا الموضع، دليل على أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لأجل الإنذار به فاقتضى ذلك أن يكون غفوراً رحيماً، غير مستعجل بالعقوبة.

(**291**) فيها دعوة لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم -سبحانه- إلى التوبة والإقلاع عما هم عليه من كفر إلى الإسلام والهدى.([2])

(**292**) فيها دليل على كمال قدرته سبحانه، فلا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا من له القدرة على العقاب والانتقام، فغفر لمن أخطأ وتاب، ورحم من استحق الرحمة.

(**293**) فيها دعوة لهم إلى التوبة والإنابة، فإن الله تعالى غفور لمن طلب المغفرة وقام بأسبابها بصدق، رحيم بمن التجأ إليه وقصده بقبول توبته وأوبته.

(**294**) تدل على سعة حلم الله تعالى وسعة رحمته، حيث يدعو سبحانه هؤلاء المشركين المفترين إلى التوبة والإنابة، حتى ينالوا رحمته وغفرانه، فما تظنه فاعلا بأهل طاعته إن هَفَوا أو قصروا؟

(**295**) ذكر الله المغفرة والرحمة ﴿ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ في هذا الموضع من الآية لوجهين: أحدهما: أنه لما أنزل كتابه لأجل الإنذار وجب أن يكون غفوراً رحيماً، غير مستعجل بالعقوبة. الثاني: أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العقاب صبًّا، ولكن صرف عنهم كونه غفوراً رحيماً، يمهل ولا يعاجل.

(**296**) تدل على أنه ليس لإمهالهم ووعظهم بما نزّله إليهم سبب، إلا رحمته وغفرانه، وعلمه بأن كتابه صلاح لأحوالهم في الدارين، فسبحانه من حكيم عليم غفور رحيم.

---

1 ينظر البحر المديد، 79/4

2 ينظر تفسير ابن كثير، 6/ 94

(**297**) من أسرار مغفرة الله وجمال رحمته في خَتْم هذه الآية بقوله جل جلاله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أنه سبحانه وتعالى ستر وصفهم بوصفه، ونعتهم بنعته، فوصلهم بما منه إليهم، لا بما منهم إليه.([1])

(**298**) تشير إلى أن على المؤمن عموماً، والداعية إلى الله خصوصاً، أن يتصف بالرحمة والرأفة مع مَن يدعوهم، وأن يغفر زلاتهم، ويتجاوز عن أخطائهم، فذلك حري باستجابتهم ورجوعهم، ولو طال الأمر.

(**299**) تشير إلى أنه لا ينبغي للداعية أن يغضب لنفسه، أو ينتقم لشخصه، إلا إذا انتهكت حرمات الله تعالى، وحتى إذا انتهت حرمات الله كما يظهر له، عليه أن يفقه الواقع وحالة هذا المنتهِك.

(**300**) فيها الدعوة إلى عدم اليأس والقنوط من أحوال الناس مهما انحرفوا وابتعدوا عن منهج الله، فقد تأتي نفحات الله فيصيبهم بمغفرته ورحمته، ويسعهم بفضله وكرمه، ويشملهم بتوفيقه، فيكونوا من المهتدين.

(**301**) يدل ختام هذه الآية الكريمة على جود الله تعالى وكرمه، وسعة فضله وإحسانه، قال الحسن البصري رحمه الله: (انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة)([2])

(**302**) تشير إلى أن التعريف بالله في مقام الرجاء؛ أي رجاء مَنْ تدعوهم إليه بأن يستجيبوا له؛ ينبغي أن يكون بالتركيز على ذكر صفات الوعد؛ من المغفرة، والرحمة، والتوبة، والكرم.. فذلك أدعى للاستجابة ولين القلب...

---

1 ينظر البحر المديد، 80/4

2 تفسير ابن كثير، 6/ 94

الآية السابعة: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**303**) كلام مستأنف، مسوق للشروع في بيان قبائحهم التي أرجفوا بها في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي ستة([1]) كما جاء في هذه الآية والتي بعدها: أكله الطعام، ومشيه في الأسواق.. إلى آخر هذه الفِرَى (جمع فِرْيَة)

(**304**) في مناسبتها بما قبلها؛ أن الله تعالى لما فرغ من ذكر ما طعنوا به على القرآن الكريم، ذكر هنا ما طعنوا به على الرسول صلى الله عليه وسلم([2])

(**305**) في علاقتها بما قبلها كذلك أن المشركين لما رأوا أن ما اعترضوا به على الوحي من اعتراضات لا تثبت أمام حقيقته، ولا يصدقها ذو عقل سليم، وذلك لما احتوى عليه هذا القرآن من أسرار ربانية وعوالم غيبية، وحقائق لا تدركها العقول، مع بلوغه الغاية في البيان إلى حد أعجزهم عن محاكاته.. انتقلوا للاعتراض على الموحى إليه وهو شخصية النبي صلى الله عليه وسلم.

(**306**) في انتقالهم إلى الطعن في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ما يدل على انهزامهم في الشبهة السابقة، وتهافت رأيهم، وفي ذلك إشارة منهم إلى التسليم بصحة الرسالة، وأنها آتية من عالم الغيب.

(**307**) تفيد أن استفهامهم ووصفهم له صلى الله عليه وسلم بالرسالة: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾ تَهَكُّم وسخرية، وهي وسيلة يستعملها أهل الباطل تجاه كل داعية للخير لمزاً واستهزاء، لا حقيقة واعترافاً. كأنهم يقولون: ما لهذا الزاعم أنه رسول، إنْ صح أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا ﴿ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ ولا يتميز عنا بشيء.

(**308**) فيها دليل ضعفهم وفساد حجتهم، ذلك أنهم لما عجزوا عن معارضته فيما يخص القرآن، أخذوا يعيبونه بكونه بَشَراً من جنسهم، يَمْشي في الأسواق، ويأكل الطعام، وهذا شأن كل جاحد ومعاند ضعيف، فكلما فشل في وسيلة لمعارضة الحق انتقل إلى أخرى، وهكذا..

---

1 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 670

2 ينظر فتح القدير، 73/4

(**309**) تدل على أن المعاندين للحق يبحثون عن أي دليل أو شبهة تصرفهم عن الحق والإيمان به، فهم يُعرضون عنه لكون الرسول بشراً، ولو جاءهم ملَكاً لقالوا: هلاّ كان بشراً مثلنا لنقتدي به وهكذا..!

(**310**) تشير إلى سنة متَّبَعة وعادة مُطَّرِدة عند أهل الباطل في كل زمان ومكان، وهي أنهم حينما يعجزون عن مناقشة الفِكرة أو القضية المطروحة، ويشعرون بقوتها وأصالتها، ينتقلون إلى شخصنة الموضوع بانتقاد الشخص والبحث عما يرونه عيباً في شخصيته.

(**311**) فيها بيان لعناد أهل الباطل وجحودهم للحق مع علمهم أنه حق، ذلك لأن قريشاً يعلمون يقيناً أن الأنبياء والرسل من قبله صلى الله عليه وسلم كلهم كانوا من البشر، و لم يكونوا ملائكة، وهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي بنى الكعبة التي يطوفون حولها لم يكن ملكاً من الملائكة، وإنما كان بشراً، وهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، الذي كان رسولا، لكنه العناد والجحود.

(**312**) تدل على أن دأب المكذبين والجاحدين دائماً، وفي كل زمان ومكان: الاستهزاء والسخرية، والنيل من الدعاة إلى الله تعالى، اتباعاً للهوى، وطمعاً في الأغراض الدنيوة التي يرون أنهم يُزاحَمون عليها.

(**313**) على الداعية إلى الله تعالى ألا يلتفت إلى مَن يقع في شخصه بالسب والشتم، أو يعيره بما يراه فيه من نقص، أو يتهمه في أمور حياته البشرية.. فذلك سلاح الضعفاء من المغرضين والمحاربين للإصلاح والتبليغ عن الله تعالى. ومن ثم فعلى الداعية أن يثبت على ما هو عليه من الحق لأنه منصور لا محالة.

(**314**) فيها أن جهل الكفار عموماً بطبيعة الدين والدعوة، -إلا ظواهر شكلية- لا تنفعهم في شيء؛ ولذلك فإنهم لا يفلحون في محاصرة الحق أبداً. فما أخلص عبد لله في دعوته إليه إلا كان منصوراً.([1])

(**315**) فيها أن الموازين الربانية، مختلفة عن موازين البشر، فالاصطفاء الرباني لرسله عليهم السلام يكون للكمالات الروحية والخلقية، أما المقاييس البشرية فتعتمد على كثرة المال والأتباع والمنصب.([2])

---

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 173

2 ينظر التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، 5/ 280

(**316**) تشير إلى أن للعقل حداً يجب أن يقف عنده، فليس كل ما يأتي من عالم الغيب، مما لا يستوعبه العقل، خاضع للمقاييس العقلية حتى تناقشه، أو تدخل في الموازنة: لم لا يكون هذا الاختيار أولى من هذا.. وهكذا.

(**317**) تشير إلى أن على الداعية إلى الله تعالى أن يتواضع، ويخالط الناس في حياتهم وشؤونهم العامة، فإن ذلك أدعى للاستماع له، والإقبال على ما يدعوا إليه، وهذه هي الحكمة في أن جعل الله الرسل من البشر، و لم يكونوا من الملائكة.

(**318**) فيها أن تَمَيُّز الرسل عليهم الصلاة السلام عما عداهم ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأمور نفسانية أي ما جبلهم الله تعالى عليه من الكمال الروحي والنفسي، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف : 110]

(**319**) في إنكارهم وجود الخصوصية مع وصف البشرية، ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ جهل ومغالطة، لأنه لا يلزم من وجود الخصوصية عدم وصف البشرية.([1]) إذ لا تناقض بينهما عند ذوي العقول السليمة.

(**320**) تدل على أن ديدن أهل الباطل في كل زمان ومكان، هو محاولة البحث عن التناقض المزعوم، في شخصية الداعية ليشوهوه، فإذا أعياهم البحث انتقلوا إلى البحث عن التناقضات في مضمون الدعوة في زعمهم. وهيهات أنّى لهم ذلك.

(**321**) تشير إلى أن ميزان التفاضل الرباني لا يكون في متعلقات هذا الجسم، وإنما في الروح والنفس الإنسانية، وأن قيمة هذا الجسد بقيمة ما يحمل من نفس طاهرة، وروح نَيِّرة.

(**322**) تفيد أن سنة الله في الرسل والرسالات، وما جاء على منهاجها من الدعوات، أن تحاصرها الألسنة بالاتهامات الباطلة والإشاعات المغرضة، وأنواع من السخرية اللاذعة، وسائر ضروب الحرب النفسية، كما تصنع كثير من وسائل الإعلام اليوم –من صحف وفضائيات– بالدعاة المخلصين. فلا بد من توطين النفس على تحمل الأذى النفسي والصبر على الابتلاء..([2])

(**323**) تشير إلى أن من أعظم ما يعين الداعية إلى الله على التواضع، وخفض الجناح واللين؛ هو مخالطة الناس ومعايشتهم في كل أحوالهم المعيشية، فإن الذي يبتعد عن أحوال الناس وأوضاعهم المختلفة، لا يصبر عليهم في أحوال الشدة والمواجهة.

(**324**) تشير إلى أن من سمات صدق الداعية وإخلاصه؛ التواضع والواقعية مع الناس، في كل تصرفاته، وأفعاله وأقواله، وإلا أعرضوا عنه وعن دعوته.

---

1 ينظر البحر المديد، 80/4

2 ينظر مجالس القرآن، 1/ 272

(**325**) تفيد وجوب الصبر على فتنة الاتهامات الباطلة، والإشاعات المدمرة، والأراجيف القاتلة، وهو من أشد أنواع الابتلاء، فلا بد من شدة الصبر على جهل الجاهلين وكيد الظالمين، وألا تكون هذه الفتن عائقاً عن مواصلة السير إلى الله ديناً ودعوةً، فتلك سنة الله في دعوته.

(**326**) فيها أن الصبر على المحن والدخول فيها لمن أشد مواطن الامتحان لمقامات الإيمان، وأن النجاح في ذلك لبشارة للمؤمنين بالفتح والنصر المبين.([1]) كما قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت2،3]

(**327**) فيها تنبيه المؤمن إلى أن غالب طرق الحصار الإعلامي قديماً وحديثاً قائم- بالإضافة إلى أسلوب الاتهام والسباب وغيرهما- على أسلوب التعجيز: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾

(**328**) إنّ مَن لم يتأثر بعقل مجرد وقلب طاهر بأقوال النبي صلّى الله عليه وسلم، وبرسالته لذاتها، لما فيها من هداية إلى الحق والخير والتوحيد، لم تنفعه إنذارات الملائكة، فما وراء الإنذار إلا العذاب.([2])

(**329**) فيها إشارة إلى فساد قياس عمل الله تعالى وتصرفه على عمل البشر وتصرفاتهم، ووجه ذلك في الآية أنهم قالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ فقاسوا قياساً فاسداً؛ فرأوا أن رسول الملك من ملوك الأرض إذا ورد بلد رسالته يحتجب حشمه فلا يُرى آكلا ولا في سوق؛ فقالوا: رسول الله أولى بذلك؛ لأن الله أعظم الملوك.([3])

(**330**) في اقتراحهم نزول الملك ليكون معه صلى الله عليه وسلم نذيراً ما يدل على فساد رأيهم، وتناقض طلبهم، إذ لو أنزل هذا الملك لما فهموا عنه كل ما يريدون، حتى يكون رجلا، وإذا كان رجلا، لم يؤمنوا به أيضاً إلا بتأويل.

(**331**) في طلبهم واقتراحهم نزول الملك إليه عليه صلى الله عليه وسلم، ما يدل على اعترافهم برسالته الغيبية عليه الصلاة والسلام، ولكنه العناد والجحود، فاعترافهم بعالم الملائكة الذي هو عالم الغيب، وطلبهم نزول الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، هو ما يتم في عملية نزول الوحي عليه لو كانوا يعقلون.

---

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 270

2 التفسير المنير، 19 / 25

3 ينظر الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، 3/ 64. نجم الدين الطوفي.

(**332**) إن الحكمة الإلهية هي أن يكون رسول البشر من البشر، يحس إحساسهم، ويتذوق مواجدهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم.. ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم، ويرجو في قوتهم واستعلائهم، ويسير بهم خطوة خطوة، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم، لأنه في النهاية واحد منهم، يرتاد بهم الطريق إلى الله، بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق![1]

(**333**) إن من الحكمة الإلهية في جعل الرسول بشراً كذلك، أن يكون بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم. وتكون حياته صفحة معروضة لكل الناس ينقلونها سطراً سطراً، ويحققونها معنى معنى، وهم يرونها بينهم، فتهفو نفوسهم إلى تقليدها، لأنها ممثلة في إنسان؛ ولو كان ملكاً ما فكروا في عمله ولا حاولوا أن يقلدوه؛ لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم.. فهي حكمة الله البالغة أن جعل الرسول بشراً ليؤدي دوره على قيادة البشر.[2]

(**334**) فيها أن مَن ظن أن النبوة لا يمكن أن تكون لبشر؛ فقد جهل قيمة الإنسان وكرامته عند الله تعالى، ألم يأمر الله الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام.؟

(**335**) فيها إباحة دخول الأسواق للعلماء والدعاة، وكل أهل الدين والصلاح خلافاً لمن كرهها لهم[3] وقد كان صلى الله عليه السلام يدخل الأسواق قبل النبوة، وكان يدخل بعدها لتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته، ويعرض نفسه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق.

(**336**) تدل على أن بشرية الرسول عليه الصلاة والسلام تقتضي أن يجري عليه من أحوال البشر وعاداتهم وأحوالهم وطبائعهم، ما يجري على جميع البشر، وليس ذلك مناقضاً للنبوة ما دام في المعروف، ولا يكون إلا في المعروف قطعاً، ولذلك تكلم علماء الأصول في باب التشريع، عما يصدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم كونه نبياً مبلغاً عن الله تعالى، وما يصدر عنه كونه بشراً، أي بمقتضى بشريته وعاداته، وما يكون من خصوصيته.. ولكل نوع نظر خاص به في الشرع، تأصيلا وتطبيقاً.

---

1 ينظر في ظلال القرآن، 5/ 2553.

2 ينظر في ظلال القرآن، 5/ 2553.

3 قال القاضي ابن العربي في أحكام القرآن: (لَمَّا كَثُرَ الْبَاطِلُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَظَهَرَتْ فِيهَا الْمَنَاكِرُ، كَرِهَ عُلَمَاؤُنَا دُخُولَهَا لِأَرْبَابِ الْفَضْلِ، وَالْمُهْتَدَى بِهِمْ فِي الدِّينِ، تَنْزِيهًا لَهُمْ عَنْ الْبِقَاعِ الَّتِي يُعْصَى اللَّهُ فِيهَا) أحكام القرآن، 3/ 434

(**337**) فيها أن من أعظم صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم تواضعه، فقد كان يقضي حوائجه بنفسه، فيذهب إلى السوق ويشتري ويبيع، وكان يقوم على أموره وحوائجه التي يحتاجها بنفسه عليه الصلاة والسلام، في البيت والسوق وغيرهما من مرافق الحياة.

(**338**) فيها أن على الداعية إلى الله تعالى أن يخالط الناس، ويذهب بنفسه إليهم ليعرض عليهم دعوته، في أسواقهم، ونواديهم، وأمكان سعيهم ومعاشهم؛ وأن يصبر على أذاهم، ويرحم ضعفاءهم، وينصت لكبرائهم، فذلك مدعاة لاستماعهم له، واهتمامهم بما يدعوهم إليه.

(**339**) في هذه الآية: ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء من مخالطة الناس وفعل ما يفعلون، وعدم الترفع عما هم عليه من ملبس ومأكل ومشرب ومكسب، وأنه لا يجوز لمن سلك طريق الأنبياء أن يتخذ من الدين سلما إلى دنياه، فيتخذ جاها ومالا وسلطاناً لنفسه.

(**340**) فيها أن الله لم يجعل النبي صلى الله عليه وسلم عالياً في ماله وسلطانه عليهم؛ لأنهم سيؤمنون طمعاً لا صدقاً، وخوفاً ورهبة لا رغبة ويقيناً، ثم إن دلك سيتخذ سنة من بعده لأتباعه؛ أن يطلبوا الدنيا والعلو والسلطان بالدين، فيصبح الدين سلماً لمبتغي الدنيا لا لمبتغي الآخرة، ويدخله كل صاحب طمع، ويحرف الدين لِتُحقَّقَ الغايات.

(**341**) تفيد إلى أن على أتباع النبي صلى الله عليه وسلم من الدعاة المبلغين لرسالات وهداياته؛ ألاّ يطلبوا الدنيا بالدين، فيصبح الدين مطية وسلماً لكل من يريد الدنيا لا الآخرة.

(**342**) تشير هذه الآية إلى أن النفس إن امتلأت من الدنيا لم يبق للدين شيء، ف﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: 4]

(**343**) تفيد أن على العلماء والدعاة إلى الله ألاّ يخرجوا عن عادات الناس وعوائدهم، ما لم تخالف أمر الله تعالى، فيكونون مثلهم في ملبسهم ومشربهم ومأكلهم ومسكنهم وممشاهم وقضاء حوائجهم.

(**344**) فيها كذلك أن على العلماء والدعاة إلى الله ألاّ يتكلّفوا حالا تميزهم عن غيرهم، فلا يوجد في الإسلام زي يسمى زي العلماء، ولا لباس يسمى لباس الصالحين؛ وإنما الذي فيه زي المسلمين ولباسهم، فهم فيه سواء، ومن خرج عن هذا اللباس هو الذي امتاز عن المسلمين بالمخالفة؛ كمَن يلبس الحرير والذهب من الرجال، ولباس الشهرة والمسبل من الثياب، وهذا هو المستفاد من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ومروياته الصحيحة.

(**345**) تدل هذه الآية، وما يروى في الصحيح مما يفسرها؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلبس كما يلبس قومه: عمامة وإزاراً ورداء، وربما ثوباً وقميصاً وجبة، ويتخذ لوناً كألوانهم، وحذاء كأحذيتهم، ومركباً كمراكبهم، ومسكناً مثلهم، ويقضي حاجته وحاجة أهله كما يقضي الناس حاجتهم، وهذا هدي جميع الأنبياء من قبله؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ ﴾ [الفرقان: 20](1)

(**346**) على الداعية إلى الله ألا يلتفت لأقوال الناس فيه، لأن مهمته هي أن يبلغهم، لا أن يقف مع أقوالهم للدفاع عن شخصه، فالله تعالى يكفيه ذلك، إن أخلص في التبليغ عنه، وصدق في القول عن ربه تبارك وتعالى.

(**347**) تدل هذه الآية على أن المعاند لا تنفع معه الآيات لأنه لا يطلبها، للإقناع وإنما للهروب من الآية الأولى وهكذا، فألف آية عنده كآية، ولذلك لا يبالي بالوقوع في التناقضات.

(**348**) تشير هذه الآية كذلك إلى أن على الداعية إلى الله تعالى، ألا ينشغل كل وقته بالتفكير فيما يطرحه الأعداء، لأنهم ما أن تجيبهم عن شبهة، حتى ينقلبوا عليك، ويبحثوا لك عن شبهة أخرى، وهكذا حتى يشغلوك عن الأهم بما دونه.

1 ينظر التفسير والبيان لأحكام القرآن، 4/ 1887

الآية الثامنة: ﴿ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية

(**349**) في علاقتها بما قبلها -عطفاً، أو تخييراً- في قولهم: ﴿ أَوۡ ﴾ بيان لتهافت تلك الاقتراحات التي طرحوها، وعجزهم في البحث عما يعترضون به على شخصية محمد صلى الله عليه وسلم إلا التعنت والروغان. ذلك أن الذي يعترض بحجة قوية لا ينتقل منها نزولا إلى غيرها.

(**350**) فيها لما كان الإلقاء دالاً على العلو، عدلوا عن أداة الاستعلاء التي تقدم التعبير بها في هود عليه السلام من الإنزال إلى حرف النهاية فقالوا: ﴿ إِلَيۡهِ ﴾([1])

(**351**) تفيد تخبط الكفار بانتقالهم من ادّعاء إلى آخر، ومن شبهة إلى أخرى، بحثاً عن أوجه الاعتراض على نبوته صلى الله عليه وسلم، وعدم الإذعان لرسالته ودعوته، وهذا شأن كل معترض على الحق قديماً وحديثاً، فهو يصطاد كل الشبه مهما كانت سخيفة ومهينة لعقل صاحبها.

(**352**) في التعبير عن إعطاء الكنز بكلمة ﴿ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ ﴾ للإشارة إلى أن هذا العطاء لا يكلف من أرسله شيئاً، لأنه إلقاء من خزائن الله تعالى، وهذا يدل على أنهم كانوا يعرفون الله ولا يعبدونه، فيعرفون أن معه خزائن السماوات والأرض.([2])

(**353**) في التعبير بالفعل المضارع في: (يُلْقَى) و (تَكُونُ) و (يَأْكُلُ) دليل على تكالبهم على الدنيا وأنها أكبر همهم: ﴿ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا ﴾ أي يوجد له هذا الأمر ويتجدد له إلقاؤه غير مكترث ولا معبوء به، برفعه عن مماثلتنا العامة من كل وجه.([3])

(**354**) تفيد قراءة: ﴿ يَأۡكُلُ مِنۡهَا ﴾([4]) بالياء بعودة الضمير على النبي صلى الله عليه وسلم، أن الكفار اقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم ليصدقوه، أن تكون له جنة، أي بستان يطعم نفسه منه، ويستغني به عن طلب الكسب والمعاش.

---

1 وذلك في قوله تعالى: {لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [هود12] ينظر نظم الدرر، 13 / 344

2 ينظر زهرة التفاسير، 10/ 5253

3 ينظر نظم الدرر، 13/ 343

4 قرأ حمزة والكسائي وخلف ۘ نَأْكُلُ مِنْهَا ۘ بالنون، وقرأ الباقون ۘ يَأْكُلُ مِنْهَا ۘ بالياء. (ينظر النشر، 2/ 333)

(**355**) تفيد قراءة: ﴿ نَأْكُلُ مِنْهَا﴾ بنون الجماعة، أن تكون لمحمد صلى الله عليه وسلم جنة نأكل منها نحن، فننتفع بها في دنيانا ومعاشنا، فتكون له علينا مزيّة في الفضل، بأكلنا من جنته.([1])

(**356**) يستفاد من الجمع بين القراءتين: (نَأْكُلُ – يَأْكُلُ) أنهم ما أرادوا إلا التفنن في التعنت والعناد، إذ لو كان من أهل الأموال والبساتين، لطلبوا منه شيئاً آخر، ولاتّهموه: كيف يكون نبياً وهو لا يتميز عنهم فيما يملكون من أمور الدنيا... وتلك هي نتيجة الجحود والعناد.

(**357**) تدل على أن عادة أهل العناد والمكابرة دائماً، أنهم إذا رأوا داعية من أهل المال والثروة، قالوا: كيف يكون من أهل العلم والدعوة، وهو يزاحم الناس على الدنيا، وإذا كان العكس قالوا: إنما يريد من دعوته المال والثروة! وهي سنة مطردة في أهل الضلال تجاه أهل الحق، تبين حقيقة أمرهم تجاه الحق ودعوته.

(**358**) إن من تمام معجزته صلى الله عليه وسلم أن الأموال لم تفتح عليه في زمنه؛ لئلا يقول قائلٌ: قد جرت العادة بأن إقامة الدول، وقهرَ الأعداءِ بكَثرة الأَمْوَال.([2]) ولذلك تمت المعجزةُ بغلبة الحجة وبيان المحجة مِنْ غَيْرِ مالٍ.. ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: 33]

(**359**) فيها لو كان الغنى محموداً لذاته، لاختاره الله تعالى لجميع خيرة خلقه، فسَلِموا به من نبز أعدائهم لهم بفقده.

(**360**) ليس من شرط الهداية أن يكون داعيها غنياً، أو ملكاً، ولو كان كذلك لتبعه بعض الناس من أجل غناه أو ملكه، لا من أجل دعوته وهديه.

(**361**) فيها أن النظرة المادية تجعل أصحابها لا يؤمنون بالروح، ولا بالمعاني الإنسانية العالية، وإنما يؤمنون بالمادة وحدها، والعلو عندهم بالسيطرة الممكنة من لذائذ هذه الحياة، إما بملك قاهر، أو بِمُتَع يلقيها إليهم ملوك قاهرون([3]) وهذا ما طلبه الكفار من النبي صلى الله عليه وسلم.

(**362**) إن الانغماس في أوحال المادة، والاهتمام فقط بالظواهر المحسوسة، سبب لحجاب المعاني الروحية والعقلية، فيصبح الإيمان منحصراً في الماديات والمحسوسات، فتكون هي المقياس والمعيار لقبول الحق، وهو ما تجلى في شروطهم لصحة النبوة.

---

1 ينظر زاد المسير في علم التفسير، 3 / 313.

2 ينظر روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي) 37/2، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله.

3 ينظر زهرة التفاسير، 10/ 5253

(**363**) تفيد أن المؤمن لا ينبغي أن ينهزم أمام الحرب النفسية، وألا يرهبه شيء من هذه الاتهامات والإشاعات، مهما كثرت وتواترت لسبب واحد، هو: أنها جميعها ستسقط مندحرة مهزومة؛ لأنها هي تحارب الله رب العالمين، فلا يبتئس الداعية إلى الله بشيء من ذلك أبداً.([1])

(**364**) في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾ إظهار في موضع إضمار، وذلك لوصفهم بالظلم أولا، ولبيان ظلمهم، وعدم إرادتهم الحق هو الذي رفعهم إلى رمي النبي صلى الله عليه وسلم بالسحر، وهو يتكلم عن الله تعالى.([2])

(**365**) في وصف المشركين بالظلم: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ تنبيه على أن في هذا القول اعتداء على الرسول صلى الله عليه وسلم بِنَبْزِهِ بما هو بريء منه، وهم يعلمون أنه ليس كذلك، فظلمهم له أشد ظلم وأقبحه.([3])

(**366**) إن الاتهامات الرخيصة والأوصاف المرذولة زائفة باطلة عند أهل الحكمة والاتزان، والحصافة والعقل. فمن يصدّق أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم الذي عرف بالفطنة ورجاحة الرأي والعقل وسداد التفكير، ساحر مسحور، وشاعر مأفون، ومجنون مختل العقل؟ إن الواقع خير شاهد على تكذيب تلك المزاعم وسقوطها.([4])

(**367**) في الآية الكريمة إشارة إلى أنه كان من أهل مكة مَن يريد اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وقد اتبعه من اتبعه حقاً ممن آمنوا برسالته في بدايتها، كأبي بكر، وياسر وأسرته، وعثمان بن عفان، وعلي، وغيرهم وبلال رضي الله عنهم جميعاً. وهو ما يفيده قولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾([5])

(**368**) تدل على أن من وسائل أهل الباطل لمحاربة الحق والوقوف في وجهه؛ في كل زمان ومكان؛ لَمْز أتباعه، والطعن فيهم والحط من قدرهم وتسفيه عقولهم، لاتباعهم الحق، ووجه في الآية قولهم للمؤمنين: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾

(**369**) في ذكرهم هنا لكلمة (رجل) ﴿ رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾ تمهيداً منهم لاستحالة أن يكون رسولا في زعمهم لأنه رجل من الناس. وهذا الخطاب منهم خاطبوا به المسلمين الذين اتبعوا النبيء صلى الله عليه وسلم.

---

1 ينظر مجالس القرآن، 173/1

2 ينظر زهرة التفاسير، 10/ 5253

3 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 329

4 التفسير المنير، 19 / 25

5 ينظر زهرة التفاسير، 10/ 5253

(**370**) في قولهم: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ دليل على بطلان السحر عندهم، وأنه من أعمال الباطل، ووجه ذلك في الآية: أنهم جعلوه وصف قدح للرسول صلى الله عليه وسلم.

(**371**) فيها دليل على إثبات السحر وتأثيره في المسحور، بأنواع من التأثير، ووجه ذلك في الآية؛ أن الله تعالى لم يخطئهم في كون أن السحر لا وجود له، ولا أثر له أصلا، حتى يؤثر في محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما خطأهم في وصفه بهذا الوصف وهو منه بريء.

(**372**) فيها دليل على تناقضهم لأنهم يعلمون أنهم يكذبون، إذ كيف يكون مسحوراً من يأتي بمثل هذا الكلام البالغ من الإحكام والإتقان؛ نظماً ومعنى، ما يعجز عنه كل عقلائهم، فالمسحور باعترافهم هو مَن اختبط واختل عقله وأتى بِمموهات الوهم وتسويلات الخيال وتصويراته، فهلا يصدق هذا الوصف على ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؟ إنه التناقض المفضوح والكذب المعلَن.

(**373**) تشير إلى أن جميع ما أتى به الكفار لا يصلح أن يكون قادحاً فى نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا مطعناً في شخصه، فإن استطاعوا أن يكون لهم مطعن فى المعجزات التي أتى بها فليفعلوا، ولكن أنّى لهم ذلك؟

(**374**) فيها أن أهل الباطل دائماً عند ما يبوء طعنهم في الدعوة بالفشل الذريع، ويعود عليهم بالسلب والهزيمة، يتحولون إلى الطعن في حاملها، والبحث عن نواقصه الموهومة، وتلك حالة المنهزم أمام الحق.

(**375**) تدل على أن الانشغال بشخصية الداعي عن الدعوة، وبشخصية العالم عن العلم، من علامة خفة العقل، وقصور النظر، وانكماش الفكر، وضآلة التفكير، ذلك أن العاقل اللبيب هو الذي ينظر إلى الحق فيعرف أهله، فللحق علامات وأنوار لا تخطئها بصائر العقول النيرة.

الآية التاسعة: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٩ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**376**) في علاقتها بما قبلها أن الله لما أتَمّ ما ذكر من أقوالهم الناشئة عن ضلالهم، التفت سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم مُسَلّياً له قائلا: ﴿ ٱنظُرۡ ﴾ ثم أشار إلى التعجب منهم بأن ما قالوه يستحق الاستفهام بقوله: ﴿ كَيۡفَ ضَرَبُواْ ﴾ وقدم ما به العناية فقال: ﴿ لَكَ ﴾([1])

(**377**) في مناسبتها بما قبلها أنهم لما كانت هذه الأقوال منهم في غاية الغرابة والتعجب، لعلمهم بكمال عقله وسداد حديثه، وحسن خلقه، وسلامته من جميع المطاعن. قال تعالى –مشيرا إلى هذا التعجب– ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾

(**378**) في توجيهه سبحانه وتعالى الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ﴾ في الإنكار عليهم، ما لا يخفى من العناية والتأييد له وتثبيته وتطمينه. وفيه دليل على أن الله تعالى ولي الذين آمنوا وناصرهم.

(**379**) فيها أن الله تعالى يتولى بنفسه الدفاع عن أهل الحق، متى ما دافعوا عنه ونصروه، ومن هنا فلا ينبغي للمؤمن الداعي إلى الله سبحانه أن يلتفت إلى ما يقال عنه من محاولات التشويه والسخرية واللمز والهمز، فإن الله تعالى يتولاه، ويصرف عنه كل ما يقال في حقه.

(**380**) تفيد استعظاماً للأباطيل التي اجترؤوا على التفوه بها وتعجيباً منها، أي: انظر كيف قالوا في حقك الأقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الأمثال.([2])

(**381**) الاتهامات الباطلة لا تؤثر على أهل الحكمة والصلاح والحصافة والعقل، لأن واقعهم يكذب تلك الاتهامات والافتراءات، ولا تحتاج إلى جواب، لذا جاء الرد الإلهي: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾([3]) أي لا تستحق أن نقف معها لتهافتها.

(**382**) فيها إذا رأيت خصمك متخرِّصاً في كلامه، متناقضاً في حديثه وحُججه، فلْتَطْمئِن إلى صحة طريقك وسلامة منهجك، فالحق أبلج والباطل لجلج.

(**383**) في ذكر ضرْبهم "الأمثال" للنبي صلى الله عليه وسلم بالجمع: ﴿ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ ما يدل على أنهم بحثوا عن كل مثل له صلى الله عليه وسلم علّهم يجدوا مثلا يصلح للطعن في شخصه عليه الصلاة والسلام ورد دعوته، لكنهم لم يفلحوا وأنَّى لهم ذلك.

---

1 ينتظر نظم الدرر، 13/ 346

2 ينظر روح المعاني، 9/ 428

3 ينتظر نظم الدرر، 347/13

(**384**) فيها أن شأن أهل الباطل دائماً أنهم يبحثون عن الأمثال التافهة والساقطة، يضربونها للدعاة، لعلمهم أن ضرب الأمثال طريق مختصر لبيان ما يريدون، مع ما في ضرب الأمثال من التأثير على السامعين، لربطها بما يدركونه ويشاهدونه.

(**385**) تفيد أن الإصرار على الضلال بمحاربة الحق وأهله، ومناصرة الباطل وأصحابه، سبب لحرمان الهداية إلى الحق والاهتداء به. ووجه في الآية، أن الكفار بعد إصرارهم في اتهام النبي عليه الصلاة والسلام، وردهم لدعوته، بضربهم لتلك الأمثال والأوصاف الغريبة، والأقاويل العجيبة، عقب الله عليهم بقوله: ﴿ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴾ أي بضربهم هذه الأمثال..

(**386**) يفيد حرف الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ الترتيب، أي ترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي بسبب زعمهم هذه المشابهات ضلوا الطريق، وبعدوا عن الحق وأوغلوا في ذلك، فشبهوا رسالة الله برسالة البشر، في الشروط والموانع.

(**387**) في استعمال كلمة ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ إشارة إلى أن إنكار الكفار ومكابرتهم وتساؤلهم وتحدّياتهم، ناتجة عن ضعف إدراكهم الذي أدّى بهم إلى الظنّ بأن الرسل يجب أن يكونوا من غير البشر، أو أن تكون لهم مواهب تفوق مواهب البشر.([1]) ولو أبصروا الحكمة لاستبعدوا أن يكونوا من غير البشر.

(**388**) يستفاد من وصفهم بالضلال كذلك: ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ أن من الضلال: أن يُظنّ أن دعوة الناس إلى دين الله وطريق الحق، تقتضي أن يقوم بها شخص فوق البشر؛ في حين أن الخصائص التي يقتضي أن يمتاز بها الرسول ليست مما يخرجه من الطبيعة البشرية وإنما هي في الخلق والنفس والروح والعقل.([2])

(**389**) في هذا التعجيب إخبار عنهم بأنهم ضلوا في تلفيق المطاعن في رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، فسلكوا طرائق لا تصل بهم إلى دليل مقنع على مرادهم.([3]) ولذلك فهم في تخبط واضح، وهذا هو شأن المعانيدين والمكابرين.

(**390**) فيها بيان لحيرة أهل الباطل إزاء دعوة الحق في كل زمان ومكان، وتخبطهم في ضَرْب الأمثال الواهية السخيفة للصَّدِّ عن سبيل الله ودعوته، وقد باءت كل محاولاتهم بالفشل والخسران.

---

1 ينظر التفسير الحديث، ترتيب حسب ترتيب النزول، 3/ 66

2 ينظر المرجع نفسه، 3/ 66

3 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 330

(**391**) إن الذي يتميز الرسول به عن غيره هو المعجزة، وهذه الأشياء التي ذكروها لا يقدح شيء منها في المعجزة فلا يكون شيء منها قادحاً في النبوة. فكأنه تعالى قال انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الأمثال التي لا فائدة فيها لأجل أنهم لما ضلوا وأرادوا القدح في نبوتك لم يجدوا إلى القدح فيه سبيلا البتة.([1])

(**392**) فيها دليل على حيرة أهل الباطل مع الحق حينما يقصدون ضربه، فهم متحيرون بسبب ضلالهم، فلا يجدون في القدح في هذا الحق قولاً يستقرون عليه وإن كان باطلاً في نفسه، فتجدهم يتناقضون بين قول وآخر...

(**393**) يفيد حرف الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ العطف على ما سبق، أي من اتبع هذا الضلال بضرب هذه الأمثال الباطلة والفاسدة، صار في عماية من أمره، فلا يستطيع الهداية، ولا يعرف سبيلا للنجاة من الضلال.

(**394**) في تنكير "سبيلا" في سياق النفي؛ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ما يدل على عدم اهتدائهم، لسلوك أي سبيل من سبل الهداية، لا في الحال ولا في المآل، بل هم سائرون في مجاهل موحشة وفيافي مهلكة.

(**395**) فيها إشارة تحذيرية مفادها: أنَّ مَن اعتاد استعمال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدي إلى استعمال المقدمات الموصلة إلى الرشد والصواب.([2]) وهذا كشأن بعض الفلسفات المادية في عصرنا هذا، فرغم وضوح الحقيقة في كثير من اليقينيات الكونية، إلا أن أصحابها تاهوا وضلوا في ضرب الأمثال الباطلة والأقاويل الفاسدة رداً للحق وعدم الانصياع للحقيقة.

(**396**) تفيد الآية تلقينات جليلة مستمرة المدى في تقبيح المكابرة والشذوذ وعدم تدّبر الأمور، والانحراف عن مقتضى الحق والمنطق، وعدم التسليم بهما عند ظهور حجتهما والتمحّل فيما لا طائل من ورائه بسبيل هذا الانحراف.([3])

(**397**) فيها أن من زاغ قلبه عن الحق، وضل عن سواء السبيل، لا يبقى فيه استطاعة قبول النظر في هذا الحق، ولا يجد سبيلا لهداية ولا يطيقها، لتلبسه بضدها من الضلال.

(**398**) فيها إشارة وتحذير لمن يريد معرفة الحق والوصول إليه، من خلال المقاييس العقلية والمادية، أو مقارنته بما يَعْظُمُ عند الناس أو يعظمونه من أمور الدنيا.

---

1 ينظر مفاتيح الغيب،24/ 435

2 ينظر البحر المديد، 4 / 80

3 التفسير الحديث، مرتب حسب ترتيب النزول، 66/3.

(**399**) فيها أن الحق إنما يُعرَف بأماراته والتي ما أكثرها وأوضحها، لا بأمارات يضعها الإنسان لنفسه والتي ما أوهنها وأضعفها، بل وأضلها. والحق إنما يطلب بالحق.

(**400**) تفيد أن كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ، فَإِنَّهُ ضَالٌّ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ وَمَنْهَجٌ مُتَّحِدٌ، يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا.([1])

(**401**) تفيد أن طريق الهدى هو اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء قد سُدّ عليهم بما خُلِق في نفوسهم من القياس الفاسد المانع من اتباعه، في ضرب هذه الأمثال.

(**402**) فيها أن من اعتاد محاربة الحق بضرب الأمثال الباطلة، والشُّبه الساقطة، يُخشى أن يطبع على قلبه، فلا يرى الحق ولا يهتدي إليه.

(**403**) تشير إلى نعمة العقل التي مَن استخدمها، أبصر الحق، ومن عطّلها عَمِي عنه، فلا يليق بالعبد أن يستخدم هذه النعمة في أمور الدنيا، ويعطلها في أمور الحق والآخرة.

(**404**) تشير إلى أنه ليس كل ما جاء من عند الله تعالى يخضع للعقل البشري المادي، وإلا لو أراد الإنسان أن يدرك ماهية كل الحقائق الغيبية، ويعرف كيفياتها وتفاصيلها، لَمَا بقي لإيمانه معنى، ذلك أن من مقتضى الابتلاء الإلهي لمقاصد الإيمان؛ التسليم لأمره واختياره، ولو جهلت ماهيته، وتفاصيله وحدوده.

(**405**) في هذه الآية تحذير شديد لمن استرسل في محاربة الحق، وأصر على العناد، رغم أمارات هذا الحق الواضحة؛ فإن مَن وقع في ذلك فمآله السقوط في هاوية الضلال، فلا يستطيع بعد ذلك ورود السبيل الصحيح والطريق المستقيم. نسأل الله السلامة والعافية.

(**406**) تدل هذه الآية على أن العبرة بالخواتم، ووجه ذلك فيها؛ أن هؤلاء الكفار فعلوا كل ما في وسعهم لتشويه صورة النبي صلى الله عليه وسلم واتهامه بكل الاتهامات، ومحاربته ومحاربة أتباعه، لكن في النهاية ظهر عليهم وانكسروا، وانتصر وانهزموا، و بل دخل معظمهم في دينه، وأصبحوا من أتباعه ومناصريه.

---

1 ينظر تفسير ابن كثير، 96/6

الآية العاشرة: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**407**) في مناسبتها بما قبلها أن الله لما حكى شبههم ومطاعنهم، وأثبت أنهم لا علم لهم، ولا قدرة، ولا يُمْن ولا بركة؛ مدح نفسه بما يلجمهم ويفحمهم، وأثبت لنفسه سبحانه وتعالى ما يستحق من الكمال الذي يفيض به على من يشاء من عباده ما يشاء فقال: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ أي ثبت ثباتاً مقترناً باليمن والبركة لا ثبات إلا هو.

(**408**) في علاقة هذه الآية بما قبلها كذلك، أنها استئناف واقع موقع الجواب عن قولهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا.. ﴾ فجاء الجواب: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ أي إن شاء جعل لك خيراً مما اقترحوه، وأفضل منه، فهو سبحانه ذو الخير الكثير. وما عند الله خير وأبقى.

(**409**) فيها من دقة التناسب بما قبلها من الآيات؛ أن التحاور والمناظرة مع المخالف يقتظي من الحكمة أن تدع المخالف يطرح كل ما عنده من الشبهات، لا يدع شبهة يراها إلا ويطرحها، فإذا انتهى منها؛ أتيتَ عليها أنت تنقضها واحدة تلو الأخرى. ووجه ذلك في هذه الآية في علاقة بما قبلها؛ أن الله تعالى عرض كل شبه المشركين عن الرسول صلى الله عليه وسلم، من قولهم: يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، وطلبهم أن يترل إليه ملك ليعينه في الإنذار، أو يلقى إليه كتر من السماء، أو يكون له بستان يأكل منه، ثم اتهموه في النهاية بالسحر والجنون. فلما بثوا كل ما عندهم من الشبه؛ أتى الله عليها بالنقض والإبطال، مع بيان حقيقة أمرهم في كل ذلك.

(**410**) تفيد الثناء على الله تعالى في عطائه ومنعه، فله الحكمة في كل منهما، فعطاؤه سبحانه عطاء، ومنعه عطاء، كما أن عطاءه رحمة، ومنعه حكمة.

(**411**) في دخول (إنْ) على فعل المشيئة تنبيهاً على أنه لا ينال ذلك إلا برحمته تعالى، وأنه معلق على محض مشيئته سبحانه، وليس لأحد من العباد على الله عز وجل حق، لا في الدنيا ولا في الآخرة.([1])

(**412**) في التعبير عن جوابهم بالجملتين الماضويتين لفظاً: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ لزيادة تبكيت الكفار فيما اقترحوا من جنسه، ولما لم يقترحوا ما هو من جنس جعل القصور، لم يسلك فيه ذلك المسلك، بل عدل عنه إلى المضارع ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ ﴾ فتدبر.

---

1 ينظر روح المعاني، 9 / 429

(**413**) في توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أثناء الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ ما لا يخفى من عناية الله وتأييده لرسوله صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك ما فيه من تثبيته وتطمينه. وفيه دليل على أن الله تعالى ولي الذين آمنوا وناصرهم.

(**414**) نبّه تعالى بقوله: ﴿ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ على أنه تعالى يعطي العباد على حسب المصالح، فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسد عليه أبواب الدنيا، ويفتح آخر أبواب الرزق، ويحرمه لذة الفهم والعلم، ولا اعتراض عليه لأنه فعّال لما يريده.([1])

(**415**) في قوله تعالى: ﴿ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ تنبيه وتذكير للمؤمن على أن عطاء الله تعالى هو أحسن العطاء وأكمله، في الدنيا والآخرة، فما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا.

(**416**) فيها أنهم طلبوا أن تكون للنبي صلى الله عليه وسلم، جنة في الدنيا الفانية، لكن الله أجابهم بأن له جنات، وليس جنة واحدة، وأنها خالدة لأنها في الحياة الأخرى الأبدية، وليست في الأولى الفانية، وأنها تجري من تحتها أنهار.

(**417**) فيها تذكير للمؤمن بأن النعيم الحقيقي الذي يجب عليه أن يطلبه، ويعمل من أجله؛ إنما هو نعيم الآخرة، أما نعيم الدنيا فهو قاصر وفانٍ مهما كان، فلاينبغي أن ينشغل بالقاصر الزائل، عن المطلق والكامل والخالد الذي هو نعيم الآخرة.

(**418**) في عدم تعرضه سبحانه وتعالى لجواب الاقتراحيْن الأولَيْن، وهو إنزال الملك، وإلقاء الكنز، لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية، وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير فإنه غير مناف للحكمة بالكلية، فإن بعض الأنبياء- عليهم السلام- قد أوتوا مع النبوة مُلكاً عظيماً، لكنه نادر.([2])

(**419**) فيها الدعوة إلى حسن الظن بالله تعالى، ومعرفة حكمته في المنع والعطاء، فليس كل منعٍ هو منعٌ، وليس كل عطاءٍ هو عطاءٌ، بل كم من منع هو عين العطاء، وكم من عطاء هو عين المنع.

(**420**) تشير إلى أن ميزان المنع والعطاء من قِبَل الله تعالى، يجب أن يربط بميزان الله تعالى نفسه كما في وحيه، لا بموازين البشر، وأن من العطاء ما لا يأخذه العبد إلا يوم القيامة في دار الجزاء والخلود.

---

1 ينظر صفوة التفاسير، 328/2

2 ينظر البحر المديد، 81/4

(**421**) فيها إشارة إلى وعد الله له صلى الله عليه وسلم بجعل تلك القصور في الآخرة، ولذا عدل عن الماضي إلى المضارع الدال على الاستقبال، ﴿ وَيَجۡعَل لَّكَ...﴾ أو هو استئناف بياني كأن قائلاً يقول: وكيف الحال في الآخرة؟ فقيل: يجعل لك فيها قصوراً.([1])

(**422**) تفيد قراءة الجزم في قوله تعالى: ﴿ وَيَجۡعَل لَّكَ ﴾([2]) العطف على موضع (جعل) لأنه جواب الشرط في موضع جزم، فيكون: ﴿ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورٗا ﴾ داخلا في المشيئة، أي: إن شاء الله فعل ذلك بك يا محمد صلى الله عليه وسلم وهو فاعله بلا شك. وأما قراءة الرفع: (يَجْعَلُ لَكَ) فتفيد الاستئناف والقطع، وفيه معنى الحتم ليس بموقوف على المشيئة، أي: لا بد أن يجعل لك يا محمد صلى الله عليه وسلم قصوراً.([3])

(**423**) يستفاد من الجمع بين القراءتين في: (يَجْعَل لَّكَ- يَجْعَلُ لَكَ) أن قراءة الاستئناف بَيّنت قراءة الجزم، فالله عز وجل لو شاء لجعل لمحمد صلى الله عليه وسلم ما طلبه له المشركون في الدنيا من قصور وجنات مع قدرته جل وعلا الكاملة على ذلك، ولكنه حتماً وقطعاً سيجعل له جنات وقصوراً في الآخرة تنفيذاً لوعده جل وعلا.([4])

(**424**) تفيد أن الله سبحانه قادر على أن يعطي رسوله صلى الله عليه وسلم كل ما ذكروه وخيراً منه، ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب الصالح، أو على وفق المشيئة ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله.([5])

(**425**) قَضَى الله بحكمته أن يكون إقبال الناس على الحق مَبْنِياً على النظر والاستدلال، لا على ما يلهي المشاعر والخيال بأنواع من التشغيب والجدال.

(**426**) تشير إلى أنه لا يجوز للعبد الاعتراض على مشيئة الله تعالى، فلا اعتراض لأحد عليه سبحانه في شيء من أفعاله، إذ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

(**427**) تدل على أن اختيار الله تعالى لعبده المؤمن هو أفضل وأكمل، من اختياره لنفسه، لعلمه سبحانه بمصالح العباد في العاجل والآجل، بعكس اختار العبد لنفسه فقد يكون هو عين الشر، ولذلك قال الله تعالى في بصيرة قرآنية: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ ﴾ [البقرة: 216]

---

1 ينظر روح المعاني، 9 / 430

2 قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر (يَجْعَلُ لَّك) برفع اللام، وقرأ الباقون (يَجْعَلْ لَّك) بسكون اللام. (ينظر النشر، 333/2)

3 ينظر الكشاف، 3 / 266، والمحرر الوجيز، 4 / 201. وتفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر، 8 / 67، 68.

4 ينظر تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر، 8 / 67، 68.

5 ينظر مفاتيح الغيب، 24/ 435

(**428**) تدل على أن فضل الله ونعمه كثيرة لا تعد ولا تحصى، وقدرته شاملة لكل شيء، إذا أراد شيئاً قال له: كُنْ فَيَكُونُ، لكنه تعالى لا يريد لأنبيائه وأوليائه أن يكونوا أهل غنى وثروة ودنيا، فأهل الغنى والثروة تنتهي سمعتهم بموتهم، ولا يبقى لهم ذكر أو شهرة، وإنما أراد الله تعالى لأنبيائه تخليد آثارهم وذكراهم في الحياة الإنسانية بالقيم الخالدة، والمعاني السامية، وبما قدموه للبشرية من عطاء تذكره لهم الأجيال، ويحتكم إلى أصالته الحكماء، ويظل أثرهم الخالد مضرب الأمثال، وقدوة لكل إنسان، وأمل الحيارى، وحلم المعذبين في الأرض.([1])

(**429**) فيها بشرى من الله تعالى لكل مؤمن صابر محتسب في طريق دعوته وعباده، بأن له عند الله ما لا يخطر على بال أهل الدنيا وشهواتها القاصرة وملذاتها الفانية، فما طلبه الكفار من الرسول صلى الله عليه وسلم من جنات وقصور.. جعله الله له ولأتباعه في الآخرة نعيماً مقيماً.

(**430**) تشير إلى أن عظمة الناس ومنزلتهم عند الله لا تقاس بالمال والجاه، وإنما تقاس بالتقوى وصالح الأعمال، وأن الجزاء الحقيقي لهم هو النعيم المقيم في الآخرة، حيث المتعة الحقيقة والنعيم الأبدي، أما هذه الحياة فهي أهون عند الله من أن يجعلها ثواباً لأوليائه، ونعيماً لأهل طاعته، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى مِنْهَا كَافِراً شَرْبَةَ مَاءٍ))([2])

(**431**) فيها تنبيه إلى أنه ليس من الضرورة أن يرد المؤمن على كل شبهة طُرحت عليه، إذ من الشُّبَه ما لا قيمة له عقلا وشرعاً، فلا ينبغي تضييع الوقت معه؛ ووجهه في الآية أن الله تعالى لم يتعرض (للجواب على الاقتراحيْن الأولْين -نزول الملك وإلقاء الكنز- للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل، واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية، وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير فإنه غير مناف للحكمة بالكلية فإن بعض الأنبياء عليهم السلام قد أوتوا في الدنيا مع النبوة ملكاً عظيماً.)([3])

(**432**) فيها لو كانت الجَنَّات والقصور خيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأعطاها له، لكنّ اصطفاءه بالنبوة واختياره للرسالة ورعايته وهدايته، وتوفيقه لحلاوة مناجاته، والانشغال بطاعاته هي الخير والفضل الذي خصه الله تعالى به.

---

1 التفسير المنير، 19 / 25، 26

2 رواه الترميذي في كتاب الزهد، باب: هوان الدنيا على الله، برقم: 2320، وقال حديث حسن صحيح، ورواه البيهقي في الشعب: 7/ 325. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: 940

3 ينظر روح المعاني، 9 / 429

(**433**) تفيد مترلة الأنبياء والرسل عليهم السلام، ومَنْ على آثارهم مِنْ ورثتهم من العلماء، فقد تكفل الله بالدفاع عنهم، وحفظ مكانتهم، والرد على أعدائهم، ونصرهم، ووعدهم بالحسنى، وهذا من أعظم ما يثبتهم على الطريق وينسيهم شدائده وبلاءه.

(**434**) فيها أن أهل الحق محفوظون منصورون مهما طال الوقت، فالله تعالى يحمي الحق وأهله، وحاشاه أن يتخلى عنهم، إنما يريد سبحانه أن يَبْتَلِيَ بهم ويبتليهم لُيعلي مترلتهم في الآخرة.

(**435**) تشير إلى أن أسلوب الترغيب بذكر ما عند الله تعالى من أنواع النعيم المقيم؛ مما أعده الله لأوليائه؛ وسيلة من وسائل نشر هذه الدعوة، لما فيه من تيسير الطريق واستسهال عقباته، فإن النفس تهفو إلى التشويق بذكر الجزاء، و"مَن عرف ما قصد هان عليه ما وجد"

(**436**) تشير إلى أن المؤمن عليه أن يكون أُخْرَوِياً في عمله في هذه الحياة، فلا يميل إلى الدنيا ميلا ينسيه هدفه فيها، ويغفل عن الحياة الحقيقية، ووجه ذلك في الآية أن الله تعالى رد على جميع شبهات المشركين المتعلقة بالدنيا؛ بما عنده سبحانه لأهل طاعته في الآخرة. إذ فيها تتجلى الحياة الحقيقية، وتتجلى حقيقة النعم.

الآية الحادية عشرة: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**437**) في علاقتها بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر شُبَهَهم الاعتراضية، أضرب عن كلامهم قائلاً: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ ﴾ أي ما منعهم من الإيمان أكْلُك الطعام ولا مشيك في الأسواق، بل منعهم تكذيبهم بالساعة، هذه هي حقيقتهم، وتلك هي مشكلتهم.

(**438**) تدل في علاقتها بما قبلها على تلك الثنائية العقدية العظيمة التي تقوم عليها كل الحقائق الإيمانية الأخرى في الإسلام –ثنائية الإيمان بالله واليوم الآخر– لما لها في ميزان الله من موقع عظيم في أمره الكوني القدري، وفي أمره الشرعي التكليفي معاً.([1]) ووجه ذلك في الآية أن الله تعالى لما أثبت توحيده وتدبيره لأمر الملك الملكوت، ورد على باطلهم وشركهم، وكذا زعمهم بعدم ألوهية القرآن.. انتقل هنا إلى إثبات أمر الآخرة التي يكذبون بها، وما فيها من حقائق وما ينتظرهم فيها من جزاء عادل وعقاب أليم.

(**439**) فيها إضراب عن الجواب إلى بيان العلة الداعية لهم إلى التكذيب، وهي قصور أنظارهم على الحظوظ الدنيوية، وظنوا أن الكرامة ليست إلا بالمال وجعلوا خلو يدي محمد صلى الله عليه وسلم عنه ذريعة إلى تكذيبه.([2]) وتلك مشكلة العقول المادية المنحرفة في كل زمان ومكان.

(**440**) تفيد بأن الذي حملهم على التكذيب برسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو تكذيبهم بالساعة استثقالا للاستعداد لها بالعمل الذي يقتضي مخالفة ما هم عليه من اتباع الهوى.

(**441**) فيها إلتفات جميل، بالانتقال إلى حكاية نوع آخر من أباطيلهم متعلق بأمر المعاد، وما قبلها كان متعلقاً بأمر التوحيد وأمر النبوة، للعلاقة الوثيقة بين هذه القضايا: –عقدياً– الإيمان بالله واليوم الآخر، فمن كذّب بهذه كذّب بتلك.

(**442**) تشير إلى أن الداعية إلى الله تعالى عليه أن ينظر إلى مقاصد أهل الباطل في ردهم الحق والتي تظهر في أقوالهم وأفعالهم، ووجه ذلك في الآية أن الله تعالى، لما أجابهم عن شبههم واعتراضاتهم، بين أن حقيقة أمرهم في طرح هذه الشبهات، وإيراد هذه الاعتراضات؛ هي كونهم يكذبون بالساعة، لما في الإيمان بها من تنغيص لشهواتهم التي غرقوا فيها، وما هم عليه من الهوى.

---

1 ينظر مجالس القرآن، 1 / 175، 176

2 ينظر روح المعاني، 9 / 431

(**443**) إن منشأ إنكار المشركين لوحدانية الله، وتكذيبهم برسالة النبي صلّى الله عليه وسلم، وطعنهم بالقرآن وبالنبوة، هو إنكار يوم القيامة وعدم الإيمان باليوم الآخر؛ لأن من آمن به تبصر وتدبر، و لم يكن متهوراً في سوء الاعتقاد.([1])

(**444**) فيها أن ما يطلبه هَؤُلَاءِ إنما يطلبونه تَكْذِيباً وَعِنَاداً، لَا تَبَصُّراً وَاسْتِرْشَاداً، فَتَكْذِيبُهُمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ هو الذي حَمَلَهُمْ عَلَى قَوْلِ مَا يَقُولُونَهُ وطلب ما يطلبونه.

(**445**) تفيد أنهم حينما لم يؤمنوا بالغيب وبالساعة الآتية؛ قصرت أنظارهم على الحظوظ المادية والدنيوية، فظنوا أن الكرامة ليست إلا في نيلها، ولذلك لما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم من تلك الأعراض كذبوه، وهذا شأن كل نظر مادي.

(**446**) في الآية تقرير لواقع أمر الكفار وبواعث مكابرتهم وعنادهم، وهو تكذيبهم اليوم الآخر، حيث أدّى ذلك إلى عدم مبالاتهم بما ينذرون ويوعدون، وإنذار لهم ولأمثالهم المكذبين المنكرين بالنار التي أعدّها الله لهم.([2])

(**447**) تفيد أن أمر هؤلاء الكفار هو أعجب من كونهم كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم ووصفوه بما وصفوه، بل كذبوا الله تعالى وأنكروا قدرته على الإعادة والإحياء مرة أخرى. وفي صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((قَالَ اللَّهُ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ))([3])

(**448**) تدل الألف واللام في كلمة: ﴿بِٱلسَّاعَةِ﴾ على الكمال والحقيقة، فهي الساعة الكاملة الحقيقية، لكثرة ما يكون فيها من أحداث تتعلق بمصير البشرية، وهي الساعة الجديرة بأن تسمى الساعة، فهي ساعة الفصل والحكم النهائي.([4])

(**449**) تفيد أن محور الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل في شأن الرسائل السماوية، وما تحمله من بلاغات، يدور حول قضية الإيمان بالبعث والجزاء، ذلك هو أعظم البلاغ القرآني بعد قضية الإيمان بالله تعالى.

(**450**) تفيد بأن الكفار مشكلتهم الكبرى والأساسية ليست في تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، بقدر ما هي في التكذيب بالساعة، والحياة بعد الموت للحساب والجزاء.

---

1 التفسير المنير، 19 / 32

2 التفسير الحديث، مرتب حسب ترتيب النزول 67/3

3 البخاري، كتاب بدء الوحي باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، رقم الحديث: 3193.

4 ينظر زهرة التفاسير،10/ 5256

(**451**) في التعبير بنون العظمة: ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا ﴾ ما يدل على عظمة الله وقدرته وجبروته، التي اقتضت أن يعد لهؤلاء الكفرة المعاندين؛ ما ينتظهم من سعير جهنم ولهيبها الذي ينتظهم. وفي ذلك من التهديد والتخويف ما يردع أهل الباطل، ويوقظ كل غافل.

(**452**) تفيد (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ العموم، فلم يقل سبحانه (وأعتدنا لهم) وهو إظهار في موضع الإضمار الذي يفيد العموم، أي أعتدنا لكل مَن كذب بالساعة ناراً مسعرة تنتظره.

(**453**) يدل قوله تعالى: ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ على أن النار مخلوقة الآن وموجودة، كما أن الجنة مخلوقة وموجودة أيضاً، لقوله تعالى:﴿ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [آل عمران، 133]

(**454**) في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ دلالة على أن التكذيب بالساعة كفر مستوجب لنار جهنم، والعياذ بالله، فلا يكفي العبد في خروجه من دائرة الكفر إلى دائرة الإيمان؛ أن يؤمن بالله فقط، مع إنكاره للساعة وما فيها، كما يدعي مَن يسمون الآن في عصرنا ب"الربوبيون" أي يكفي عندهم في الإيمان أن تؤمن بأن لهذا الكون ربّاً، فأنت بذلك مؤمن، ويغنيك ذلك عن الإيمان بالكتب والرسل واليوم الاخر.

(**455**) تشير إلى بيان مركزية (الآخرة) في الخطاب الدعوي القرآني، باعتبارها أهم قضية وجب أن يتمحور حولها المنهاج الدعوي بلاغاً للدين في العالمين، وتجديداً له بين المسلمين.([1])

(**456**) فيها أن قضية (الساعة) تحمل رسالة للإنسان ببيان حقيقته ووظيفته، وبيان مقامه الذي وجب أن يدخله متواضعاً لله رب العالمين: مقام العبدية، تلك الوظيفة التي من أجلها جعل الله له في هذه الدنيا ما جعل من تسخير وتيسير؛ حتى تسلس له رحلته العمرانية الابتلائية إلى الآخرة، فكل ما في هذه الدنيا يُطْوَى والساعة جامعة.([2])

(**457**) فيها أن هذه الحياة لها ساعة تنتهي فيها وينهار هذا الكون، فلا يبقى إلا الله تعالى، تلك حقيقة قرآنية، وهي حقيقة فطرية كذلك صارخة في عمق الوجود النفساني للإنسان، لكنها سر من أسرار قضاء الله الكوني، فلا يعلم وقتها وحقيقتها إلا هو تعالى.

---

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 178

2 ينظر المرجع نفسه، 1/ 179

(**458**) تفيد أن طبيعة هذه الرسالة، وطبيعة هذا الدين هي طبيعة أخروية بالقصد الأول، فوعوده الأساسية للإنسان إنما هي هناك، وإن كل ما عدا ذلك من صلاح المعاش إنما تابع لصلاح المعاد، ولا عكس.([1])

(**459**) تفيد أن نعمة الإيمان باليوم الآخر؛ بما هو منقذ للبشرية من الخسران المبين، ونجاة لها من المصير الرهيب لهي من أجلّ النعم، فلا يملك المؤمن إزاءها إلا الحمد لله كل الحمد، والشكر الدائم له جل جلاله؛ بما أنعم على عباده الصالحين من الإيمان بالساعة وإنها لمن أعظم النعم حقاً وصدقاً. ([2])

(**460**) تفيد أن الإيمان ب(الساعة) واليقين بها يستفيد العبد منه من جمال الأمان وتمام الاطمئنان ما يجعله يحلق من مقام الشوق إلى مولاه، ضارباً في الفضاءات بجناحي الخوف والرجاء في جمال رائق لا يوازيه من زخرف الدنيا شيء البتة.([3])

(**461**) إن يقين المؤمن بالساعة وما بعدها؛ من مصير النعيم والرضوان، لمن أعظم المحفزات، وذلك بما يتيحه هذا اليقين للمؤمن، من الرغبة والاجتهاد في الاصطفاف مع قوافل المحبين، وجماعات العابدين الذاكرين، السائرين إلى رب العالمين: ﴿ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: 29]

(**462**) في تكرار لفظ (الساعة) ووضعها موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع، وإعداد السعير لهم، وإن لم يكن لخصوص تكذيبهم بالساعة، بل لأي تكذيب بشيء من الشريعة، لكن الساعة لما كانت هي العلة القريبة لدخولهم السعير، اقتصر على ترتيب الإعداد على التكذيب بها([4]) وهذا من خصائص الخطاب القرآني وله نظائر كثيرة.

(**463**) فيها بيان لمشهد النار وهي تشتعل وتلتهب وتشتد حرّاً وهيجاناً، تلتهب الكفار الذين كذبوا بالساعة، وتبتلعهم جزاء لهم على تكذيبهم وإنكارهم لها، فها هي حقيقة تترقبهم وتنتقم منهم، وها هم يرونها ويقيسون عذابها حقاً بعد ما كانوا يكذبون بها.

(**464**) في وصف نار جهنم بالسعير تصوير لمشهدها الملتهب الرهيب، فالسعير في العربية (فعيل) بمعنى (مفعول) أي أنها مُسَعَّرة. والسَّعَار: الاشتعال الشديد والالتهاب العظيم، وهو وصف لِهَيَجان النار واشتداد حرها. وهو أسوأ ما يتصور في جهنم من دركات العذاب الشديد اشتعالاً

---

1 ينظر مجالس القرآن،1/ 178

2 ينظر المرجع نفسه، 179/1

3 ينظر المرجع نفسه، 179/1

4 ينظر فتح البيان في مقاصد القرآن، 9/ 288

والتهاباً وهيجاناً...([1]) وكفى بهذا التصوير تخويفاً وترهيباً لمن عقل وتدبر. فكيف بمن دخلها؟! نسأل الله السلامة والعافية.

(**465**) تفيد أن الكفر باليوم الآخر سبب لكل أنواع البلايا من الكفر والجحود والظلم والفساد، لأن مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضر، والذي لا يصدق بيوم القيامة والبعث والجزاء، لا يرجو خيراً ولا يخاف شراً في ذلك اليوم؛ فهو لا يتزجر عن القبائح، ولذلك كان التكذيب بالبعث من أشنع أنواع الكفر بالله جل وعلا، لأنه يجعل حياة الناس عبثاً.

(**466**) فيها أن على الداعية إلى الله تعالى ألا يفتر عن التذكير بهذا اليوم لما لذلك من آثار عظيم في ترغيب الناس في الاستجابة لله تعالى، وخوفهم من عصيانه، فما عُصي الله تعالى بأنواع المعاصي، إلا بسبب الغفلة عن هذا اليوم، أو الكفر به والعياذ بالله.

(**467**) تدل على أن الكفر باليوم الآخر والبعث بعد الموت؛ ناتج عن عدم الإيمان بالله حق الإيمان، فمَن آمن بالله وأنكر البعث بعد الموت، دل ذلك قطعاً على نقص وخلل في إيمانه بالله، وعدم تصوره للإيمان الصحيح الكامل بالله جل جلاله، إذ الإيمان بالله الحكيم يقتضي طبعاً أن هناك يوماً للبعث والجزاء تتجلى فيه حكمة الله الكاملة وعدله المطلق في جزاء المحسنين والظالمين.

(**468**) فيها أن على الداعية إلى الله تعالى أن يكون التذكير باليوم الآخر في دعوته؛ من أولى أولوياته، لما لذلك من أثر عظيم في حصول الاتعاظ، ذلك أن الغفلة عن هذا اليوم من أعظم أسباب الانحراف والإعراض عن الله الذي يقع فيه الناس.

(**469**) عبّر سبحانه وتعالى عن النار بالسعير والذي هو شدة اشتعال النار واستعارها، وشدة لهيبها وحرها؛ لأنه هو أشد ما يجده الكافر منها. والغرض من هذا التعبير تخويف الكفار وتهديدهم بما ينتظرهم، من خلال هذا التصوير المخيف للنار وهي تشتعل.

(**470**) تفيد أن على الداعية إلى الله أن يفقه مقامي الترغيب والترهيب، فيستعمل كلا حسب مناسبته، كما أنه يمكن الجمع بينهما في مناسبة واحدة، وفي مكان واحد، إذا اقتضى المقام ذلك. ف"لكل مقام مقال" وهي طريقة قرآنية كما في آياتنا هذه وفي غيرها من آيات القرآن.

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18 / 332، ومجالس القرآن، 1/ 177.

الآية الثانية عشرة: ﴿ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**471**) في مناسبتها بما قبلها؛ أن الله سبحانه لما وصف حال الكفار حينما يكونون بالبعد من جهنم، وصف حالهم هنا عند ما يلقون فيها، بالانتقال من مشهد خطير إلى ما هو أخطر منه تفصيلا وتصويراً، حتى كأنهم ينظرون إليه، زيادة في الإنذار والترهيب.

(**472**) فيها تصوير فظيع لحال جهنم وهي تنتظر الكفار وتترقّب وصولهم إليها، وكأنها أعناق وأفواه لاهبة تشرئب إليهم، وعيون مغتاظة غاضبة تنتظر وتترقب، إذ يشتد صوت غليانها وزفيرها، من شدة تغيظها([1]) وفي ذلك ما فيه من إنذار وتخويف للعصاة والكفرة والفجرة.

(**473**) يلاحق البُغضُ الكافرَ في دنياه وآخرته، فليس مكروهاً عند الله وعند أوليائه فحسب، بل تبغضه الأرض التي يمشي عليها، والسماء التي يستظل بها، والنار التي أعدت له.

(**474**) في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم﴾ استعارة، إذ هي في صفة نار جهنّم، ولا تصحّ صفة الرّؤية عليها. وإنما المراد والله أعلم، إذا كانت منهم بمقدار مسافة لو كان بها من يوصف بالرؤية لرءاهم. وقد يجوز أيضا أن يكون معنى ذلك: إذا قربت منهم، وظهرت لهم. من قولهم: دور بني فلان تتراءى. أي تتقارب. وفي الحديث: ((لاَ تَتَرَاءَى نَارُاهُمَا))([2]) أي لا تتدانى.

(**475**) كما أنه لا امتناع في إسناد الرؤية إلى النار حقيقة على ما هو ظاهر الآية، ونسبة التغيظ والزفير بأن يخلق الله تعالى في النار حياة فتنبعث مغتاظة زافرة على الكفار، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠ ﴾[ق: 30] وقول النبي صلى الله عليه وسلم كما في –صحيح البخاري–((اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ))([3])

---

1 ينظر مجالس القرآن، 179/1

2 الحديث بأكمله في (سنن أبي داود) كتاب الجهد، بَابُ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ مَنِ اعْتَصَمَ بِالسُّجُودِ، ونصه: عن جرير بن عبد الله. قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود، فأسرع فيهم القتل قال: فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فأمر لهم بنصف العقل، وقال: ((أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا يا رسول الله لم؟ قال: لا تتراءى ناراهما)) وصححه الألباني في (صحيح أبي داود، 1/ 261) وفي سنن النسائي 2/ 245، جاء هذا الحديث في باب القود بغير حديدة، كتاب القسامة. وأورده صاحب (لسان العرب) وفسره ثم قال: وقال أبو عبيد: معنى الحديث: أن المسلم لا يحل له أن يسكن بلاد المشركين، فيكون معهم بقدر ما يرى كل واحد منهم نار صاحبه.

3 البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة. رقم الحديث: 3260

(**476**) في قوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ إشارة إلى عِظَم جهنم، وما يسمع لها من زفرات وتغيظات من مكان بعيد، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا.))([1])

(**477**) فيها أن الكفار سيُساقون إلى نار جهنم من مكان بعيد نكاية بهم، ليشق عليهم الوصول إليها، ويطول عليهم زمن الرعب في سماع صوتها قبل الاصطلاء بحرها.

(**478**) في قوله تعالى: ﴿ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ إشعارٌ بأن بعد ما بينها وبينهم من المسافة حين رأتْهُم، خارجٌ عن حدود البُعدِ المعتاد في المسافات المعهودةِ وفيه مزيدُ تهويلٍ لأمرها.([2])

(**479**) في التعبير بالفعل الماضي "سَمِعُوا" ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ مع أنه لم يقع بعد، ما يدل على تحقق وقوعه يقيناً وكأنه قد وقع وسمعوه.

(**480**) في قوله تعالى أيضاً: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ استعارة تمثيلية، شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره، لما فيهما من هياج واضطرام، وهو صوت يسمع من جوفه.

(**481**) في التعبير بلفظ: (التغيّظ) ﴿تَغَيُّظًا ﴾ إظهار الغيظ، وهو أشد الغضب، وقد يكون مع صوت كما هنا. فهو صوت المتغيِّظ في تَحرُّقه ونكارته إذل غلا صدره من شدة الغضب.

(**482**) شبهت (السعير) بالإنسان الذي يرمي ويتغيظ ويزفر، ويحس ويشعر، إذا رأى شخصاً يريد عقابه، فإنه يتغيظ ويزفر، والمعنى أن السعير تستعد وتتهيأ هائجة، لمجيء العصاة إليها، ويسمعون ما يشبه التغيظ والزفير من مكان بعيد.

(**483**) تدل على أن العذاب مع التغيظ والزفير يكون أشد وأقسى، فالتغيظ والزفير هما نتيجتان للغضب، فهي تغضب لغضب الله عليهم، ولا شك والحالة هذه أن العذاب يكون أنكى وأخزى وأشد. نسأل الله السلامة والعافية.

(**484**) تفيد أن يوم القيامة هو اليوم الذي يأتمر فيه كل مخلوق بأمر الله جل جلاله، فالكل خاضع لعظمته، فالنار تأتمر بأمر الله، فهي تتغيظ وتزفر على أعداء الله، غضباً منها لغضب الله تعالى عليهم وأمره لها بالتهابهم.

---

1 مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر جهنم وبُعْد قعرها وما تأخذ من المعذبين. رقم: 7343

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 206/6

(**485**) في هذه الآية أسلوب رهيب ولاذع، في وَصْف عذاب المكذبين، ومن شأن ذلك إثارة الرعب في قلوب السامعين وبخاصة للمكذبين منهم، وهو مما استهدفته الآية كما هو المتبادر من سياقها.([1])

(**486**) تدل على أن عذاب جهنم ألوان متنوعة؛ معنوية نفسية، وحسية مادية، من تغيظ النار وغضبها، وزفيرها، وضيقها، وتزاحم أهلها فيها، وتقرينهم بالسلاسل والأغلال، مع تقريعهم إلى غير ذلك، علاوة على شدة الألم.

(**487**) تفيد استعمال التخويف والترهيب في دعوة العصاة والمعاندين ممن لا ينفع معهم الترغيب والتحبيب، فمن القلوب ما لا ينفع معها إلا سياط التخويف، ومعيار ذلك ينظر فيه إلى حال المدعو.

(**488**) فيها أن الترهيب والتخويف أسلوب من أساليب الدعوة القرآنية، ينبغي للداعية إلى الله تعالى أن يلجأ إليه ويستخدمه في دعوة من تجبر وتمادي في غيره وجحوده وطغيانه.

(**489**) تفيد أن التخويف بذكر الجزاء الأليم لا ينبغي أن يُعَيَّن به المدعو، فقد يكون ذلك سبباً في نفوره وعدم استماعه، بل ينبغي أن يربط ذلك بالأعمال والأفعال، وهذه طريقة القرآن كما في هذه الآية والتي قبلها، فإن الله يربط الجزاء بالأوصاف لا بالأسماء والأشخاص مستخدماً أسماء الموصول والضمائر.

(**490**) تفيد أن لِاستعمال التصوير والتمثيل في باب التخويف والترهيب، أثراً نفسياً كبيراً، وتأثيراً على السامع حينما يتخيّل تلك المشاهد المرعبة فيحصل الانزجار والاتعاظ.

(**491**) فيها أن فظاعة العذاب وشدته بالنسبة للكافر، هي لفظاعة ما وقع فيه من الكفر بالله، أو إنكار ربوبيته أو ألوهيته.

(**492**) فيها أن عذاب الكافر يوم القيامة تتعدد أنواعه، من العذاب النفسي (تغيظ النار وزفيرها، وغضب الجبار جل جلاله...) إلى العذاب الجسدي، (ضيق جهنم، وبعد قعرها، وتسلسل أهلها) مع ما يصاحب ذلك من الخلود.

(**493**) تدل على أن أعظم ما يمكن أن يقع فيه العباد من أنواع المعاصي والذنوب على الإطلاق هو الكفر بالله بإنكار البعث والجزاء، لما في ذلك من سلب القدرة الإلهية.

---

1 ينظر التفسير الحديث، ترتيب حسب أسباب النزول، 3 / 67

(**494**) فيها أن إنكار البعث والجزاء؛ هو إنكار للقدرة الإلهية، ومن ثم فهو كفر بالله تعالى، ولو ادعى صاحبه الإيمان بالله، بفصله الإيمان بالله الخالق، عن الإيمان بالله الباعث بعد الموت.

(**495**) فيها دعوة لكل عاقل أن يخشى عذاب النار، فإنه لا يطاق، وذلك باتقائه لأسبابه، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ))([1])

1 البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة من حديث عبد الله بن معقل عن عدي بن حاتم رقم: 1417.

الآية الثالثة عشرة: ﴿ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**496**) في علاقتها بما قبلها أن الله تعالى لما وصف ملاقاة النار لهم، وصف إلقاءهم فيها فقال: ﴿ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا ﴾ أي طرحوا طرح إهانة ومذلة..([1])

(**497**) يفيد هذا التعبير الإلهي: ﴿ وَإِذَآ أُلۡقُواْ ﴾ على أنهم لا يعاملون معاملة رحمة أو شفقة، بل يلقون في النار إلقاءً، ويطرحون فيها طرحاً مهيناً على وجوههم – عياذاً بالله – نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

(**498**) تفيد أنهم لم يدخلوا النار مختارين، بل ألقوا فيها إلقاء كما تلقى الأشياء، وألقوا وهم مصفدون في الأغلال ليس لهم حركة إرادية قط. فيلقون فيها على رؤوسهم، زيادة في الإهانة والعذاب الأليم.

(**499**) أي إهانة يلقاها أهل النار حين يلقون فيها إلقاءً عنيفاً قاسياً، في حين يحشر أهل النعيم إلى الجنة وفداً كريماً شريفاً.

(**500**) يفيد هذا التعبير: ﴿ أُلۡقُواْ ﴾ أنهم يُرمَوْن فيها من مكان بعيد مِن عَلُ، زيادة في النكاية بهم، لأن الإلقاء من عل يقتضي زيادة المشقة في الوصول إلى الأسفل، ويقتضي كذلك طول الرعب في مشهد رهيب مرعِب.

(**501**) نُصِبَ ﴿ مَكَانٗا ﴾ على الظرفية، فهو ظرف منصوب لقوله تعالى: ﴿ أُلۡقُواْ ﴾ أي ألقوا في مكان ضيق من النار قد غُلت أيديهم إلى أعناقهم، وهم في هذه الحالة الأليمة الشديدة المرهقة، يتمنون الهلاك بدلها، لكن هيهات فقد مات الموت، و لم يبق إلا الحياة المؤلمة.

(**502**) فيها كما أن راحة الجنة ونعيمها مقرونان بسعتها، فإن وحشة النار وأليمها مقرونان بضيقها: ﴿ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا ﴾ قال الزمخشري: (الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السماوات والأرض)([2])

(**503**) تفيد قراءة كلمة: ﴿ ضَيِّقٗا ﴾([3]) بالتشديد ضيق المكان، حيث ألقوا في مكان ضيق يتراصون فيه تراصاً. أما قراءة: ﴿ضَيْقاً﴾ بالتخفيف فتفيد ضيق الصدر، أي يضيق عليهم

---

1 ينظر نظم الدرر، 13/ 354

2 الكشاف، 3 / 267

3 قرأ الجمهور: (ضَيِّقاً) هكذا بكسر الياء وتشديدها، وقرأ ابن كثير: (ضَيْقاً) بإسكان الياء وتخفيفها. (ينظر النشر، 197/2)

صدرهم في هذا المكان الموحش. وكلاهما للمبالغة في الوصف مثل: ميّت وميْت، لأن الضيّق بالتشديد صيغة تمكُّن الوصف من الموصوف، والضيْق بالسكون وصف بالمصدر.([1])

(**504**) وبالجمع بين القراءتين: (ضَيِّقاً – ضَيْقاً) يتضح أن الكفار ألقوا في مكان شديد الضيق لا يحدث لهم الانتقال منه، ولا يتغير حالهم فيه، مما يسبب لهم ضيق الصدر فيشعرون بالكرب والحزن والغم.([2])

(**505**) في وصف المكان بالضيق: ﴿ مَكَانًا ضَيِّقًا ﴾ للدلالة على زيادة الشدة وتناهي البلاء عليهم، فهو في عذاب مؤلم من نار جهنم مع ضيق المكان لتنعدم الحركة التي يسببها العذاب.

(**506**) فيها أن شدة الكرب مع شدة ضيق المكان، والرَّوح مع سَعته، ولذلك كان من سعادة المرء المسكن الواسع في الدنيا والآخرة.

(**507**) في قوله تعالى: ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ منْ قرَّنه بتشديد الراء جَمَّعه وشدده، يقال قرّنت الأسارى في الحبال، وفعله الثلاثي قَرَنَ يَقْرِنُ من باب ضرب يضرب قرنا الشيء بالشيء شده به ووصل اليه، وقرن الثورين جعلهما في نير واحد. وقرن البعيرين جمعهما في حبل، وقوله عز وجل: ﴿مُّقَرَّنِينَ ﴾ يفيد شيئيْن: التصفيد أي تقييد الأرجل. وجمع الأيدي والأعناق بالسلاسل.([3])

(**508**) دل قوله تعالى: ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ كذلك على أن أهل النار مع ما هم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد، يكونون مقرنين في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم، وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة.([4])

(**509**) يفيد قوله تعالى: ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أن الجزاء من جنس العمل، فكما رضوا لأنفسهم في الدنيا أن يكونوا قرناء للشيطان، مقرنين معه، كذلك كان عذابهم في الآخرة.

(**510**) في هذا التعبير: ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ إشارة إلى ما يؤخذ به الظالمون من إذلال وهوان، وأنهم إذ يساقون إلى جهنم، وإذ يلقون فيها، فإنما يحزمون كحزم الحطب، ويقرن بعضهم إلى بعض كما يقرن القطيع من الحيوان..([5])

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 334، وتفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر، 8 / 69.

2 ينظر الكشاف، 3/ 267 وتفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر، 8 / 69.

3 ينظر إعراب القرآن وبيانه، 6 / 676، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش.

4 ينظر مفاتيح الغيب، 24/ 438

5 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1364، عبد الكريم يونس الخطيب.

(511) في استعمال اسم الإشارة للبعيد هنا في قوله تعالى: ﴿ دَعَوْاْ هُـنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ إثبات شدة وخطورة ما هم فيه من العذاب الأليم، وبعدهم عن النصير والمغيث. فلا مجيب ولا مغيث ولا نصير.

(512) تفيد الإشارة للبعيد كذلك، أنهم نادوا ثبوراً وهلاكاً، لأن هذا وقته، إذ بلغت الشدة قواها، فرأوا في الهلاك إنقاذاً لهم مما هم فيه، وهذا غاية ما يمكن تصوره وتخيله من قساوة العذاب، أن يصبح الهلاك إنقاذاً.

(513) في التعبير بهذه الصيغة ﴿ ثُبُورًا ﴾ لوصف ضجيج أهل النار؛ تصوير فظيع لأحوالهم وهم في النار، حتى كأنهم أطفال يصرخون من شدة الهلع والفزع، مع ما هم فيه من الضيق والسلاسل والعذاب من كل النواحي.

(514) تفيد هول العذاب وشدته الذي لا يطاق، مما جعل الكفار يدعون على أنفسهم بالهلاك والفناء، للخلاص مما صاروا إليه.

(515) فيها أن نداءهم بالثبور والهلاك، إنما تحسراً على أنفسهم، وعلى ما فرطوا وأساءوا، وقد كان بوسعهم أن يكونوا من الناجين الفائزين، لكن هيهات فقد فات الأوان.

(516) تدل على أن الكفار يتمنون في جهنم الموت والهلاك، للخلاص مما هم فيه من شدة العذاب، ولكن هيهات أن يتحقق لهم ذلك، بل يبقون فيها معذّبين، لا أمل لهم في النجاة، ولا رجاء لهم في الخلاص.

(517) فيها ما ينتقل الكافر من حالة إلا إلى أشد منها، حتى يتمنى بعدها الموت، أو الرجوع إليها، وأما المؤمن فما يزال يترقّى من سعة الأرض إلى فسحة القبر إلى بحبوحة الجنة ورياضها.

(518) في هذا الوصف المفصل الدقيق لحال أهل الكفار وهم في النار، ترهيب وتحذير لكل مَن كان على حالهم وشاكلتهم في الدنيا أن ينقذ نفسه الآن بالإيمان بالله والاستجابة لندائه وهديه، قبل أن يُحال بينه وبين ذلك.

(519) يدل هذا العذاب الذي يلقاه الكفار في النار، على فظاعة الكفر، وشناعة الشرك، الذي استحق أهله هذا العذاب الأليم، وذلك لما فيه من سلب لحقوق الألوهية والربوبية، التي خضعت لها جميع المخلوقات من غير الإنس والجن.

الآية الرابعة عشرة: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**520**) في مناسبتها بما قبلها تصوير بيّن لحال النار وأهلها يوم القيامة، وذلك أنهم قبل أن يدخلوها يسمعون لها تغيُّظاً وزَفيراً، وهذا بلا شك يخلَع قلوبهم ويرعبهم، ثم إذا ألقوا فيها لا يُلقَون على سبيل الكرامة، بل يلقون إلقاءً، ثم إنهم لا يلقون هكذا مطلَقين، ولكن مقرَّنين.. ثم إذا ألقوا على هذا الوصف يدعون بالثبور –والعياذ بالله– فيقال لهم توبيخاً: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً، وادعوا ثبوراً كثيراً.([1])

(**521**) تقييدُ النَّهي والأمر باليوم، في قوله تعالى: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ لمزيد التَّهويل والتَّفظيعِ والتَّنبيهِ على أنَّه ليس كسائر الأيَّامِ المعهُودةِ.([2])

(**522**) تفيد أن استغاثة الكفار ودعاءهم بالهلاك والفناء للخلاص من أليم العذاب، لا يفيدهم في شيء، لأن الأمر قد قضي قضاء لا راد له، فأهل الجنة في الجنة ينعمون خالدين فيها، وأهل النار في النار يعذبون خالدين فيها.

(**523**) فيها إشارة إلى يأس أهل النار، وهو زيادة العذاب النفسي إلى العذاب الجسدي، فيأسهم هذا اقتضى أن يكرروا التمني والتحسّر لكن دون حصول الثبور، بل هو خلود في نار جهنم، وحزن متواصل، ويأس غير منقطع.

(**524**) في قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ دليل على خطورة ما هم فيه من العذاب الأليم المستمر، أي إن هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة. وقال: ثبوراً لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع، وهو كقولك: ضربته ضرباً كثيراً.([3])

(**525**) تفيد أن ثبورهم ثبور متوال عليهم وقتاً بعد آخر؛ لا ينقطع، لأن أسبابه قائمة مستمرة باستمرار حالهم وهي إلقاؤهم في مكان ضيق مصفدين خالدين.

(**526**) انتصب ﴿ثُبُورًا﴾ على المصدر، أي ثبرنا ثبوراً، وهو مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع، وهو كقولك: ضربته ضرباً كثيراً، وقعد قعوداً طويلا، وفي ذلك دلالة على ما هم من شدة الهلاك وطوله فليس له نهاية.

---

1 ينظر تفسير ابن العثيمين، (تفسير سورة الفرقان، 66،67)

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 207

3 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 13/ 9

(**527**) إن حالة الكفار وما هم عليه يوم القيامة من العذاب، لشدته وطول مدته، مستوجب لتكرر الدعاء منهم في كل أوان. وهو يدل على فظاعة العذاب وهوله.

(**528**) فيها لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن. ذلك أن ما أنتم فيه من أهوال العذاب والهلاك أكبر من ذلك وأعظم.

(**529**) فيها لا تدعوا على أنفسكم بالثبور واحداً وادعوه أدعية كثيرة، فإن ما أنتم فيه من سوء العذاب أشد من ذلك لطول مدته، وعدم تناهيه، وتزايد قسوته، واشتداد ألمه.

(**530**) إن المراد إقناطهم عما علقوا به أطماعهم من الهلاك، وتنبيههم على أن عذابهم الملجئ لهم إلى ذلك أبدي لا خلاص لهم منه على أبلغ وجه، حيث أشار إلى أن المخلص مما هم فيه من العذاب عادة غير مخلص، وما يخلص غير ممكن، فكأنه قيل: لا تدعوا اليوم هلاكاً واحداً فإنه لا يخلصكم وَادْعُوا ثُبُوراً وهلاكا كَثِيراً لا غاية لكثرته لتخلصوا به وأنى بالهلاك الكثير.([1])

(**531**) تفيد أن عذاب الكفار أنواع كثيرة كل نوع منها ثبور لشدته، فتعدد الدعاء وتجدده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانه، أو لتعدده بتجدد الجلود، كما لا يخفى، لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء56] أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثبور.([2])

(**532**) فيها أن على أهل النار تتجدد ألوان العذاب ولا تخفف، وتدوم ولا تنقطع، ولهم في كل لون منها ثبور ما أشده وما أفظعه.

(**533**) فيها إشارة إلى خلود الكفار في نار جهنم والعياذ بالله، كما دلت عليه آيات صريحة في عدد من سور القرآن الكريم، ووجه ذلك في الآية: أنهم لما دعوا ثبوراً، قيل لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي ثبوركم لا ينقطع، واليوم هو اليوم المعهود الموعود يوم جهنم، فهذا يومكم ولا يوم بعده.

(**534**) فيها دَلَالَةٌ عَلَى خُلُودِ عَذَابِهِمْ، وَإِقْنَاطِهِمْ عَنْ حُصُولِ مَا يَتَمَنَّوْنَهُ مِنَ الْهَلَاكِ الْمُنَجِّي لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ.

---

1 ينظر روح المعاني، 9 / 434

2 ينظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 4 / 119. وروح المعاني، 9 / 433

(**535**) تشير إلى خلود النار وعدم فنائها، ولذلك قيل لهم: لا تدعوا اليوم على أنفسكم بالهلاك مرة واحدة فحسب، بل ادعوا به مرات كثيرة، فلا فائدة! ولا نجاة لكم ولا فناء! فقد صرتم جزءاً من جهنم، تُسَعَّر بكم ولكم! فلا خلاص لكم أبداً.([1])

(**536**) إن الكافر لا ينتقل من دار إلا إلى أشد منها، حتى يتمنى بعدها الموت أو الرجوع إليها، وأما المؤمن فما يزال يترقّى من سعة الأرض إلى فسحة القبر إلى بُحبوحة الجنة.

(**537**) في تصوير عذاب جهنم وفضاعته وحال أهل النار فيه وهم يتضاغون ويتعاوون، مزيد ترهيب وتخويف لكل جبار عنيد، وفي ذلك عبرة ودعوة لكل ذي عقل سليم بأن يفكر في هذا المصير، ويحسب له ألف حساب.

(**538**) تدل على أن المعذّبن في جهنم يتمنون الموت والهلاك، للخلاص مما هم فيه من شدة العذاب وأليمه، ولكن هيهات أن يتحقق لهم ذلك، بل يبقون فيها معذّبين، لا أمل لهم في النجاة، خالدين لا خلاص لهم مما هم فيه.

(**539**) تدل على أن الجزاء يكون على العمل ونية صاحبه، فرغم أن الكافر إنما عاش عمراً محدوداً، إلا أنه يخلد في العذاب، ذلك أن نية الكفر بالله قائمة في نفسه ولو عاش مخلداً في الدنيا لكان كفره مخلداً.

(**540**) تشير إلى أنّ مَن قامت عليه الحجة في الدنيا، ثم أعرض عنها جاحداً متكبراً، لا أمل له في الآخرة، فقد مضى وقت الاعتذار، وانتهى زمن الاعتبار، وما بقي إلا الجنة أو النار، ولذلك سمي يوم القيامة بيوم التغابن.

---

1 ينظر مجالس القرآن، 1 / 177، 178.

الآية الخامسة عشرة: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**541**) في مناسبتها بما قبلها، أن الله تعالى لما وصف حال العقاب الذي أعده للمكذبين بالساعة، أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة، وقارن بينه وبين ثواب المؤمنين المتقين، فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم -قل لهم-: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

(**542**) في علاقتها بما قبلها كذلك، ترهيب المكذبين ليرعووا عن ضلالهم، وترغيب المؤمنين المتّقين ليطمئنوا ويثبتوا على طريق الحق والهدى الذي اختاروه وسلكوا فيه.([1])

(**543**) في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ ﴾ تقريعاً لهم وتهكُّماً بهم وتحسيراً على ما فاتَهم، حينما آثروا الضلالة على الهداية، واستحبوا الكفر على الإيمان.

(**544**) في اسم الإشارة: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ إشارة إلى ما ذُكر من السَّعير باعتبار اتِّصافها بما فُصِّل من الأحوال الهائلة، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بكونها في الغاية القاصيةِ من الهول والفظاعةِ.([2])

(**545**) فيها دعوة لجميع العقلاء من أهل الكفر والباطل بأن يقارنوا منازل النعيم، ومدارك الجحيم، ليدركوا الفرق الذي تظهر ثمرته في عِظَم الإيمان، وخطورة الكفر، فمنازل النعيم العظيمة جعلها الله لأهل الإيمان، ومدارك الجحيم الأليمة جعلها الله لأهل الكفر.

(**546**) في التعبير بهذا السؤال: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ ؟ وَلاَ خَيْرَ فِي النَّارِ؟ قيل: إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لأَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ قَدْ دَخَلَتَا فِي بَابِ الْمَنَازِلِ، فَقَالَ ذَلِكَ لِتَفَاوُتِ مَا بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ.([3])

(**547**) في السؤال كذلك زيادة التوبيخ والتقريع لهم، لزيادة الحسرة، ووجه ذلك إن قيل: كيف يقال: العذاب خير أم جنة الخلد؟ وهل يجوز أن يقول العاقل: السكر أحلى أم العلقم؟ قلنا: هذا يحسن في معرض التقريع، كما إذا أعطى السيد عبده مالا، فتمرد واستكبر فضربه ضرباً موجعاً وهو يقول له على سبيل التوبيخ: هذا أطيب أم ذاك؟([4])

---

1 ينظر التفسير الحديث، 3/ 68

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 6/ 207

3 ينظر الجامع لأحكام القر آن، 13/ 9

4 ينظر مفاتيح الغيب، 24 / 439

(**548**) يفيد هذا السؤال كذلك معنىً تَبْكِيتِياً لمن يسخف فيختار بتكذيبه وكفره وفجوره السعير على جنة الخلد.([1])

(**549**) فيها أنه لا مجال أصلا للمقارنة بين عذاب النار ونعيم الجنة، فلا خير في النار، وإنما يقال للكفار: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ﴾ للتنبيه على التفاوت بين المترلتين، وللتهكم بهم والتحسير لهم، وتفادي ما يؤدي بهم إلى النار. وهذا رحمة من الله عز وجل بهم، وإنذار مسبق، ولقد أعذر من أنذر.

(**550**) في هذا السؤال: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ..﴾ ينطوي جواب إيجابي بأن جنة الخلد هي الأفضل، وأن الإيمان والتقوى هما اللذان يستحق بهما أصحابهما هذا النعيم الخالد.

(**551**) فيها أن (خَيْرٌ) هُنَا لَيْسَتْ تَدُلُّ عَلَى الأَفْضَلِيَّة، بَلْ هِيَ عَلَى مَا جَرَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي بَيَانِ فَضْلِ الشَّيْءِ وَخُصُوصِيَّته بِالْفَضْلِ دُونَ مُقَابِله كَقَوْلِه: فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ. وَكَقَوْلِ الْعَرَبِ: الشَّقَاءُ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمِ السَّعَادَةُ. وَكَقَوْلِه تعالى على لسان يوسف: ﴿ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾ [يوسف: 33] وَهَذَا الاسْتِفْهَامُ عَلَى سَبِيلِ التَّوْقِيفِ وَالتَّوْبِيخِ.([2])

(**552**) في إضافة الجنة إلى الخلد للمدح، أو الدلالة على خلودها، وتمييزها عن جنات الدنيا، التي كانوا يطلبونها ويفتخرون بها، ويجلونها معياراً للفضل والخيرية.

(**553**) فيها: إِنْ قِيلَ: الْجَنَّةُ اسْمٌ لِدَارِ الثَّوَابِ وَهِيَ مُخَلَّدَةٌ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي قَوْلِه: جَنَّةُ الْخُلْدِ؟ قُلْنَا الْإِضَافَةُ قَدْ تَكُونُ لِلتَّمْيِيزِ وَقَدْ تَكُونُ لِبَيَانِ صِفَةِ الْكَمَالِ، كَمَا يُقَالُ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ، وَمَا هُنَا مِنْ هَذَا الْبَابِ.([3])

(**554**) لما كانت حقيقة الساعة -كما وصف الله وأخبر- ساعة الفصل بين أهل السعير وبين أهل جنة الخلد، في مشهد رهيب حملتْه كلمات الله نذارة للعالمين، كان الخوفُ واقعاً على المؤمن من جهتيْن: الأولى: خوف الوقوع في الخسران المبين! والثانية: خوف فقدان النعيم المقيم، فوجب على الكيس الفطن أن يعيش في دينه على حذر واحتياط، وذلك هو معنى التقوى.([4])

(**555**) تفيد فضيلة التقوى وأنها سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، لأن صاحبها جعلها في الدنيا وقاية بينه وبين كل ما يغضب الله تعالى، فكان جزاؤه أن وقاه الله من دخول النار وجعل مترلته في الجنة مع الأبرار، فالجزاء من جنس العمل.

---

1 ينظر التفسير الحديث، مرتب حسب ترتيب النزول، 68/3.

2 ينظر البحر المحيط، 8/ 88

3 ينظر مفاتيح الغيب، 439/24

4 ينظر مجالس القرآن، 179/1

(**556**) ما أحسن التقوى طريقاً إلى الله تعالى وإلى جنته التي يُجزي بها المتقون على صالح أعمالهم ويصيرون إليها في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

(**557**) في قوله تعالى: ﴿ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ ﴾ العائد محذوف أي وعدها المتقون، والآية تدل على أن الوعد الصادق بالجنة، يحصل بسبب التقوى.([1])

(**558**) في التعبير بفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴾ أن ما وعد الله به عباده المؤمنين في تحققه كأنه قد كان. أو أنه كان مكتوباً في اللوح قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم.([2])

(**559**) جمع الله سبحانه تعالى في هذه الآية بين الجزاء والمصير، فمدح الثواب ومكانه، كقوله تعالى: ﴿ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١ ﴾ [الكهف، 31] وكذلك في الذم: ﴿ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٢٩ ﴾ [الكهف، 29] فذم العذاب ومكانه؛ لأن النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة، وإلا تنغص، وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء.([3])

(**560**) جاء قوله تعالى: ﴿ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴾ تذييلاً لما سبق، لتذكير النعمة بما خولهم الله تعالى وطيب عيشهم في ذلك المكان الرافع على وجه يتضمن ضد ذلك لأضدادهم فكأنه قيل: كانت لهم جزاء موفوراً لا يدخل تحت الوصف، ومصيراً أي مصيراً لا يقادر قدره وليس كمصير الكفرة المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا ﴾ ويعلم منه فائدة ذكر المصير مع ذكر الجزاء فتأمل.([4])

(**561**) في التعبير عن جنة الخلد التي وُعِدها المتقون بقوله: ﴿ كَانَتۡ لَهُمۡ ﴾ ما يفيد الاختصاص، أي أن هذه الجنة العظيمة وما فيها من النعيم؛ هي لهم، يملكون ما فيها من أنواع النعيم الذي أعده الله لهم. وفي ذلك تشويق ما بعده تشويق، وترغيب في الصفات التي استحق بها هؤلاء جنة الخلد حتى كانت لهم.

(**562**) تشير إلى أن النعيم الأكمل لا يتحقق إلا بجمال المكان (المصير: جنة الخلد) وجمال التنعّم في هذا المكان، (الجزاء: الثواب المقيم) وهو ما يستفاد من قوله: ﴿ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي

---

1 ينظر أضواء البيان، 6/ 31

2 ينظر مفاتيح الغيب، 440/24

3 ينظر السراج المنير، 2 /652 شمس الدين، الشربيني الشافعي.

4 ينظر روح المعاني، 9 / 435.

وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا﴾ ولذلك نجد في كثير من الآيات القرآنية، أن الله تعالى مرة يصف الجنة (المكان والمصير) ومرة يصف النعيم الذي يتنعم به أهلها. فهما شيآن مختلفان.

(**563**) في الآية استطراد بلاغي بأسلوب الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بسؤال الناس عمّا إذا كان المصير الرهيب الذي سيكون للمكذبين خيراً أم جنة الخلد التي وعد المؤمنون المتقون بعملهم الصالح والتي يكون لهم فيها ما يشاءون من النعيم الخالد.([1])

(**564**) في ذكر المقارنة بين حال أهل الجنة وحال أهل النار، وسيلة من وسائل الدعوة والتربية، لما في ذلك من الرغبة والطمع في نعيم الجنة والاجتهاد في العمل الصالح من أجل ذلك، والرهبة والخوف من عذاب النار، والاجتهاد في الابتعاد عن ذلك.

(**565**) فيها أن أحق ما يُطلَب وأعظم ما يُتَنافس فيه، ويُعمَل من أجله؛ هو ما يبقى ويخلد، وليس ما يفنى وينتهي، وذلك هو الجنة ونعيمها، أما ملذات الدنيا وشهواتها فهي فانية منتهية.

(**566**) تدل على أن الجنة استحقها أهلها جزاء لأعمالهم الحسنة، وهي مصيرهم ومآلهم الذي كان لهم نهاية، وغاية المتقين الأطهار.

(**567**) تشير إلى أن غاية المؤمن في هذه الدنيا هي الفوز بالجنة، والنجاة من النار، وذلك كله لا يحصل إلا بالنجاح في امتحانها واختبارها، فهي دار بلاء واختبار يترتب عنه إما الجنة أو النار.

(**568**) تشير إلى أن المصير هو ما يصار إليه للاستقرار والخلود، وهذا لا يكون إلا بعد الموت، فإما في الجنة وإما في النار.

---

1 ينظر التفسير الحديث، مرتب حسب ترتيب النزول، 68/3.

الآية السادسة عشرة: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**569**) في علاقتها بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر فوز المتقين كما وعدهم بالجنة جزاء ومصيراً، ذكر هنا تنعمهم فيها فقال: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ ﴾ ليكتمل النعيم.

(**570**) فيها تنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لا يكون إلا في الجنة فأما في غيرها فلا يحصل ذلك، بل لابد في الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات.([1])

(**571**) في قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ ﴾ تنويه بشأن أهل التقوى ومكانتهم عند الله تعالى، فكل ما في الجنة من نعيم هو لهم يخصهم، جزاء لهم على ما حققوا في الدنيا من تقوى الله تعالى.

(**572**) يدل قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ ﴾ على أن في الجنة من أنواع النعيم وكثرته، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد من الناس، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنَ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة17]))([2]) لكن أعظم هذا النعيم هو رضوان الله تعالى والنظر إلى وجه الله الكريم.

(**573**) في قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ ﴾ أيضاً دليل على أن أهل الجنة مُخَيَّرون في أنواع ما يخطر ببالهم من الخير والنعيم.([3])

(**574**) يفيد حذف العائد في قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ ﴾ أي ما يشاءونه، وحذف العائد المنصوب بالفعل أو الوصف كثير في القرآن الكريم. وهذا التعبير يدل على أن أهل الجنة يجدون كل ما يشاءونه من أنواع النعيم، يتخيرون من أصنافه ما يشاءون حسب ما يشتهون.

(**575**) لا يقتضي (مَا) في قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ ﴾ عموم الموصول كما هو الظاهر لأنه يكون معناه: إذا شاء أحد رتبة من فوقه كالأنبياء، نالها فلم يبق بين الناقص والكامل تفاوت، ويقتضي أيضا أنه إذا شاء أحدهم الشفاعة لأحد من أهل النار، كابنه، أو أبيه، فإن شفاعته سوف تقبل، وذلك يتنافى مع العلم بأن عذاب الكافر مخلد، ولعل المعنى هو: أن يقصر

---

1 ينظر مفاتيح الغيب، 440/24.

2 البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم: 3244.

3 درج الدرر في تفسير الآيات والسور، 3 / 1309 عبد القاهر الجرجاني.

همم كل طائفة على ما يليق برتبتها وأنه تعالى لا يلقي في خواطرهم أن ينالوا أكثر ما نالوه أو يطلبوا المزيد على ما يسبحون فيه من أمواه النعيم المترقرقة عليهم.([1])

(**576**) تفيد أن كلَّ فريقٍ منهم يقتنعُ بما أُتيح له من درجات النَّعيم ولا تمتدُّ أعناقُ همِمهم إلى ما فوق ذلك من المراتبِ العاليةِ فلا يلزم الحرمانُ، ولا تساوي مراتبِ أهلِ الجنانِ.([2])

(**577**) في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ دليل على أن الخلود نفسه نعمة، ولذلك كان شرط نعيم الجنة أن يكون دائماً، إذ لو انقطع لكان مشوباً بضرب من الغم، فكل لذة منتهية أو منقطعة، لا تصلح أن تكون نعيماً في الجنة.

(**578**) فيها أن من أعظم النعم أن ينال العبد كل ما يروم، وذلك غير متحقق في الدنيا، ولكنه حظ مما يلقاه المتَّقي في الجنة، فهنالك يحصل على ما يشاء من نعم الله وأفضاله.

(**579**) تشير إلى أن من نال نعمة تامة خاف زوالها وانتقالها، وذلك مما يكدِّر عليه التلذذ بها، لكن أهل الجنة في نعيمهم التام خالدون، وهم على زواله لا يقلقون ولا يخافون.

(**580**) تفيد أن الله جعل للؤمنين في الجنة، تحقيق كل الرغبات والمطالب، وحصول كل الشهوات والملذات، ففيها ما لا تتصوره عقولهم في الدنيا، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما جاء في الحديث الصحيح.

(**581**) إن في التعرض لعنوان الربوبية؛ مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم؛ ﴿رَبِّكَ﴾ من تشريفه والإشعار بأنه صلى الله عليه وسلم هو أول الفائزين بمغانم هذا الوعد الكريم ما لا يخفى على متدبر.([3])

(**582**) يدل قوله تعالى: ﴿وَعْدًا﴾ على أن الجنة حصلت لهم بحكم الوَعْد لمن اجتهد طاقته وجاهد نفسه في طاعة الله والسير على طريقه، لا بحكم الاستحقاق، فهي فضل الله ورحمته، وَعَدَه لمن أحسن من عباده.

(**583**) إن تعبير: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ من التعابير القرآنية الحاسمة التي تقرّر أن جزاء الآخرة ونعيمها وعذابها هو رهن بأعمال الناس وسلوكهم واختيارهم. فقد وعد الله من آمن واتّقى بالنعيم الخالد، ومن كذّب وفجر بالسعير وهو موف وعده.([4])

---

1 ينظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 4 / 120، وإعراب القرآن وبيانه، 6 / 679، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش

2 ينظر إرشاد العقل السليم، 207/6

3 ينظر إرشاد العقل السليم، 6 / 207.

4 ينظر التفسير الحديث، ترتيب حسب أسباب النزول، 3 / 68

(**584**) في قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ مسوق مساق المبالغة في تحقيق الوعد والكرم كما يشكرك شاكر على إحسان فتقول: ما أتيت إلا واجباً، إذ لا يتبادر هنا غير هذا المعنى، إذ لا معنى للوجوب على الله تعالى سوى أنه تفضل وتعهد به، ولا يختلف في هذا أهل الملة وإنما اختلفوا في جواز إخلاف الوعد.([1])

(**585**) في التعبير بقوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ إشارة إلى أنه من فضل الربوبية ورحمة المنعم القادر على كل شيء، فالمسؤولية ليست مسؤولية إلزام، إنما هي مسؤولية إنعام يسألها المؤمنون من ربهم الكريم المتفضل بالإنعام والإكرام على عباده.

(**586**) في تحقيق الوعد المسؤول إشارة إلى أن المؤمنين سألوه سبحانه بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران194] أو أنهم سألوه بلسان الحال لأنهم لما تحملوا المشقة الشديدة في طاعته كان ذلك قائماً مقام السؤال، أو لأن الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ [غافر8](2)

(**587**) تفيد وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم، ووعده حق وصدق ومنجز لا محالة، فسألوه ذلك الوعد، وقالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾

(**588**) تدل على أن الله تعالى رب جواد كريم؛ فهو سبحانه يَعِد عباده المؤمنين بالنعيم المقيم، والثواب العظيم، فضلا وتكرماً منه وهو في ذلك غير مخلف لهم وعده.

(**589**) تشير إلى أن الوفاء بالوعد، من شيم المؤمن وصفاته، وأن عليه أن لا يخلفه مع الله تعالى في عهوده بالإيمان والطاعات، ليوفي الله له وعده وعهده بالفضل والمكرمات، فإن الله سبحانه لا يخلف الميعاد.

(**590**) تفيد مطلق جُودِ الله وسعة كرمه، فسبحانه من جواد كريم يعد عباده المؤمنين بالنعيم المقيم، والثواب العظيم، فضلا منه وكرماً، وهو في ذلك غير مخلف لوعده سبحانه.

(**591**) فيها دعوة للمؤمنين للوفاء بالعهود، والمحافظة على المواثيق والعقود، لأن ذلك من عرى الإسلام الوثقى، وذلك لما للوفاء بالعهود من نشر الأمان والاطمئان بين الناس، فالوفاء بأمانات العهود من الإيمان.

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18 / 336

2 ينظر مفاتيح الغيب، 441/24

(**592**) فيها كذلك دعوة إلى حفظ الوعود وعدم مخالفتها، فالحفاظ على الوعود من الإيمان، ومخالفتها من النفاق، فالمؤمن لا يخلف وعده، ولا ينقض عهده.

(**593**) تشير هذه الآية إلى أن علاقة المؤمن بالله، هي علاقة عقد ووفاء، فإيمان المؤمن بربه يقتضى منه أن يفي بعهد الإيمان الذي يتجلى في امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهذا من أسباب تفضل الله على عبده بكرمه، إذ قد وعد الله تعالى من آمن واتّقى بالنعيم الخالد. ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾

الآية السابعة عشرة: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**594**) بعد بيان ما أعد الله للكافرين من شدة العذاب يوم القيامة، ومقارنته بنعيم أهل الجنة، ذكر الله تعالى مشهداً من مشاهد القيامة؛ وهو حال العابدين مع المعبودين من غير الله الذين يحشرهم الله تعالى، ويسألهم: أهم الذين أوقعوا عابديهم في الضلال عن طريق الحق، أم هم ضلوا عنه بأنفسهم؟([1])

(**595**) في مناسبتها بما قبلها كذلك أن الله تعالى لما ذكر لهم حالهم في الساعة معه سبحانه، أتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من دونه، فقال بالالتفات إلى مظهر العظمة على قراءة الجماعة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾([2])

(**596**) في علاقتها بما قبلها أن الله تعالى بعد أن بيّن ما أعده للكافرين من شدة العذاب، ومقارنته بنعيم أهل الجنة، ذكر سبحانه هنا مشهداً آخر من مشاهد القيامة، ألا وهو حال العابدين مع المعبودين من غير الله حيث يجمعهم الله تعالى في هذا اليوم، ويسألهم: أهم الذين أوقعوا عابديهم في الضلال عن طريق الحق، أم هم ضلوا عنه بأنفسهم؟

(**597**) في انتصاب (يَوْمَ) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ على المفعولية لفعل محذوف تقديره: اذكر ذلك اليوم، لأنه لما توعدهم بالسعير وما يلاقون من هولها، بيّن لهم حال ما قبل ذلك وهو حالهم في الحشر مع أصنامهم. وهذا مظهر من مظاهر الهول لهم في المحشر إذ يشاهدون خيبة آمالهم في آلهتهم حين يرون حقارتها بين يدي الله وتبرؤها من عُبّادها وشهادتها عليهم بكفرانهم نعمة الله وإعراضهم عن القرآن الكريم.([3])

(**598**) في تعليق التذكير باليوم ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة والتأكيد، كما نقول: سيأتي يومك وسترى، زيادة في التخويف والتهديد.

(**599**) تفيد قراءة: ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾([4]) بالياء بضمير الغيبة، لأنه حديث عن جلال الله تعالى وعظمته، وما يكون يوم القيامة من خطاب له سبحانه، وبذاته العلية لمن يشاء أن يكلمهم، وهم الأبرار الذين يسعدهم رب البرية بكلامه معهم، ونظره إليهم سبحانه نظرة تقريب وإيناس،

---

1 ينظر التفسير المنير، 34/19

2 ينظر نظم الدرر، 13/ 359

3 ينظر التحرير والتنوير، 337/18

4 قرأ أبو جعفر وابن كثير ويعقوب وحفص: (يَحْشُرُهُمْ) بالياء .وقرأ الباقون: (نَحْشُرُهُمْ) بالنون. (ينظر النشر 2 / 250)

وما لا يشاء لا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، وما يجري يوم القيامة في هذا الحديث هو للذين ينكرون البعث ويشكون فيه، فكانوا غير جديرين لأن يخاطبهم بذاته العلية لأنه لا يكلمهم ولا ينظر إليهم، فناسب ذلك ضمير الغياب.(1)

(**600**) أما قراءة: ﴿ نَحْشُرُهُمْ ﴾ بالنون بضمير المتكلم، الدالة على العظمة والقهر، بطريقِ الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى التَّكلمِ، فهي لإلقاء الهيبة في نفوسهم، وليس خطابهم إلا للوم والتأنيب.

(**601**) يستفاد من الجمع بين القراءتين: ﴿**نَحْشُرُهُمْ** - **يَحْشُرُهُمْ** ﴾ أن الله تعالى أخبر عن نفسه بأنه الذي يحشر الناس منفرداً يوم القيامة دون حاجة منه جل وعلا إلى شريك أو معين، فرغم شدة العمل وعظمته فهو يتصرف فيه بمفرده. وهذا دليل عظمته وقدرته، وتنزهه عن الشريك والنظير، فقراءة التكلم بالنون تفيد العظمة. وقراءة الياء بالغيبة تفيد التفرد والوحدانية.(2)

(**602**) فائدة ذكر قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ ﴾ و﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ لأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه وفاعله، فلا بد من ذكره، وإيلائه حرف الاستفهام ليعلم أنه المسؤول عنه.

(**603**) فيها إن قلت: إن الله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه، فما فائدة هذا السؤال؟ قلت: فائدته أن يجيبوا بما أجابوا به، حتى يبكت عبدهم بتكذيبهم إياهم، فيبهتوا وينخذلوا وتزيد حسرتهم، ويكون ذلك نوعاً مما يلحقهم من غضب الله وعذابه، ويغتبط المؤمنون ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك، وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفاً للمكلفين.(3)

(**604**) في التعبير بكلمة (الحشر) دلالة عميقة، وذلك لما تدل عليه هذه الكلمة من معنى الجمع الشامل الكامل، لكل من قدر الله جمعه في هذا اليوم بعد البعث والنشور. مما ذكره تعالى في كتابه من الإنس والجن والوحوش وما شاء الله تعالى.(4)

(**605**) في دلالة (الحشر) كذلك خضوع المحشورين، واستسلامهم لمن يحشرهم ويزجرهم إلى ساحة المحشر العظيم خاضعين مترقبين للوقوف بين يدي ربهم، وهو من أعظم حقائق الإيمان ومقاصده في القرآن مما يجب على المؤمن استحضاره في دينه ودعوته.(5)

---

1 ينظر زهرة التفاسير، 10 / 5260

2 ينظر تفسير القرآن بالقراءات العشر، 8 /72 .

3 ينظر الكشاف، 268/3

4 ينظر مجالس القرآن، 1 / 182

5 ينظر المرجع نفسه، 1 /183

(**606**) في حشر المعبودات مع مَن عبدوها مِن دون الله تعالى، إفحام وتبكيت لهؤلاء العابدين المشركين المكذبين وتسفيههم وإنذارهم، وبيان عجز المعبودات عن تحقيق ما يؤمّله المشركون فيهم، مع ما في ذلك من زايدة الإهانة والإذلال للعابدين.

(**607**) تفيد إلى أن كل من عشق شيئاً وأحبه من دون الله، فهو عابد له، فرداً أو متعدداً، فيُحشر معه يوم القيامة.([1])

(**608**) تفيد أن الجزاء لا يكون إلا بعد عرض ومناقشة وحساب، ليعلم المظلوم لم ظُلِم والظالم لم ظَلَم، والمعبود من البشر والحجر لم عُبِد، والعابد من الكفرة والمشركين لم عَبَدَ. حتى تقام الحجة وتُقْطع المعذرة.

(**609**) تفيد أن يوم الحشر يوم الجمع للبشرية كلها من آدم إلى آخر مخلوق من البشر، للفصل والقضاء العادل وإعلان النتائج، بعد الابتلاء الدنيوي الذي مضى وانقضى.

(**610**) تشير كلمة الحشر إلى هول ذلك اليوم الذي تنكشف فيه الحقائق، ويظهر المستور، إلا مَن ستره الله من العباد المؤمنين ممن عفا الله عنهم لأعمال عملوها له سبحانه وتعالى. ولذلك كان من دعاء المؤمنين الصالحين في الدنيا: اللهم استرنا فوق الأرض، واسترنا تحت الأرض، واسترنا يوم العرض، ولا تفضحنا بين الخلق.

(**611**) في التعبير ب (مَا) الموصولة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡبُدُونَ ﴾ يريد به كل شيء عبد من دون الله تعالى، فهي شاملة لأصناف المعبودات التي عبدوها، ولذلك أوثرت على (مَنْ) لأنها تصدق على العقلاء وغيرهم، وتغليبها هنا عما لا يعقل من الأوثان لأنها كانت الأغلب وقت المخاطبة.([2])

(**612**) فيها أن يوم القيامة يوم سيُحاكم فيه بين يدي الله تعالى كل عابد وما عبد، وكل تابع ومن اتبع من دون الله، وعندها تنكشف الحقائق وتسقط الدعاوى، وهذا من معاني الحساب.

(**613**) تتضمن هذه الآية الخبر عن أن الله يوبّخ الكفار في القيامة بأن يوقف المعبودين على هذا المعنى ليقع الجواب بالتبري من الذنب فيقع الخزي على الكافرين.([3])

(**614**) في توجيه السؤال للمعبودين: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ تقريع للعابدين، وإلزامهم الحجة لزيادة حسرتهم، وتبرئة ساحة المعبودين من عبادتهم، ولذلك سمي هذا اليوم بيوم

---

1 ينظر البحر المديد، 84/4

2 ينظر المحرر الوجيز، 4/ 203 والتحرير والتنوير، 18 / 337

3 ينظر المرجع نفسه، 4/ 203

الحساب، ومن معانيه السؤال والمناقشة. و((مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ)) كما قال صلى الله عليه وسلم. ([1])

(**615**) في تقديم الضميريْن على الفعلين ﴿ ءَأَنتُمۡ ﴾ و ﴿ أَمۡ هُمۡ ﴾ بحيث لم يقل: أضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل، لأن السؤال ليس عن نفس الفعل، وإنما هو عن متوليه والمتصدي له، فلابد من ذكره، وإيلائه حرف الاستفهام. ليعلم أنه المسئول عنه.([2])

(**616**) في فائدة سؤالهم، مع علمه سبحانه وتعالى بالمسئول عنه، وذلك لأن يجيبوا بما أجابوا به حتى يُبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم، فتزيد حسرتهم.

(**617**) فيها بيان قدرة الله تعالى، حيث يخلق في كل ما عبد من دونه تعالى صفة الحياة والعقل ولو كان صنماً، حسب ما تحتمله الآية من تفسير والتي تشمل في خطابها كفار مكة حيث كانوا يعبدون الأصنام.

(**618**) فيها التخويف من يوم القيامة وما فيه من أهوال عظام، ومنها تبرؤ المعبودين من العابدين، وبراءة المتبوعين من التابعين.

(**619**) فيها أن الشرك بالله هو فيصل الولاء والبراء في الدين. فهو الذنب الذي لا يغفره الله جل جلاله لمن مات عليه أبداً؛ لأنه خرم وخيانة لأعظم حق من حقوق الله تعالى بما هو رب العالمينالخالق للجِنة والناس أجمعين.([3])

(**620**) تشير إلى أن المؤمن وجب عليه في أصول إيمانه أن يتبرأ من الشرك والشركاء، ومن هنا جاءت سورة (الكافرون) في القرآن، بما فيها من نفي مكرر بصيغ شتى، لأي صورة من صور التداخل بين الشرك والإيمان، براءة لقارئها المؤمن بها من الشرك، كما في الحديث النبوي([4])

(**621**) تدل هذه الآية على كمال عدل الله تعالى، الذي يتجلى في هذا اليوم العظيم حيث يحشر الله ويجمع كل عابد ومعبوده، -حتى ولو كان من الأحجار والأصنام، فضلا عن الذي فيه الروح من الملائكة وكل مَن عُبد من دون الله- وذلك إقامة للحجة على المشرك، وبياناً لبراءة مَن عُبِدوا ظلماً وزوراً، حيث يتبرؤون من عابديهم.

---

1 البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، من حديث عائشة رضي الله عنها، حديث رقم: 6536.

2 ينظر البحر المديد، 84/4

3 ينظر مجالس القرآن، 183/1

4 ينظر مجالس القرآن، 183/1

الآية الثامنة عشرة: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورَۢا ١٨﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**622**) في مناسبتها بما قبلها أن الله تعالى بعد ما أخبر عما يُوجَّه للكفار من تقريع وتبكيت بسبب اتخاذهم آلهة من دون الله، بيّن هنا ما يُجيب به المعبودون عن السؤال الموجه لهم من الله تعالى -في الآية السابقة- حيث برأوا أنفسهم وتبرأوا ممَّن عبدوهم وأعلنوا ولايتهم لله وتنزيهه عز وجل مما نسبه إليه هؤلاء المشركون مع تعجبهم مما قيل.

(**623**) في مناسبتها بما قبلها كذلك استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية السؤال، كأنه قيل: فماذا قالوا في الجواب؟ -في توجيه السؤال للمعبودين: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي﴾- فقيل: قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾

(**624**) فيها أن المؤمن عليه أن ينَزّه الله تعالى تسبيحاً له وتقديساً، حينما يُفَاجَأ بأمر عجيب، فيه تنقيص لحق الألوهية، دَلّ على ذلك قول المعبودين هنا- ظلماً وزوراً-: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ وهي كلمة تنزيه لله تعالى كني بها هنا عن التعجب من قول فظيع في حق الله تعالى.

(**625**) في قولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ إما للتعجب مما قيل لهم، لأنهم جمادات لا قدرة لها على شيء، أو لأنهم ملائكة، أو أنبياء معصومون؛ وإمّا هو كناية عن كونهم موسومين بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم إضلال عباده، وإمّا هو على ظاهره من التنزيه، والمراد تنزيهه تعالى عن الأضداد.([1])

(**626**) في العدول عن المضارع إلى الماضي في جوابهم: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ للدلالة على تحقق التنزيه والتبرئة وأنه حالهم في الدنيا، وقيل: للتنبيه على أن إجابتهم بهذا القول هو محل الاهتمام، فإن بها التبكيت والإلزام فدل بالصيغة على تحقق وقوعها.

(**627**) فيها من أسرار اللغة وبلاغة البيان، ما يهدي كل جنان، وذلك أنك إن قلت: ما يفعل زيد كذا، نفيت الفعل، فإن قلت: ما كان لزيد أن يفعل كذا، نفيت القابلية للفعل، وإذا

1 ينظر روح المعاني، 9 / 437

قلت: ما ينبغي له أن يفعل كذا، نفيت الفعل وجعلته محالا، وإذا قلت: ما كان ينبغي لزيد أن يفعل كذا، فهو أشد المحال وأبلغه، لأنك جعلت فعله كالمحال.([1])

(**628**) تفيد تَبَرُّؤَ المعبودين من ضلال عابديهم، وتوبيخهم على جحودهم لنعم الله تعالى وعلى عبادتهم لغيره، وتَنْزِيههم لخالقهم عز وجل بأنه لا معبود بحق سواه.

(**629**) تشير إلى أن يوم القيام القيامة هو اليوم الذي سَتَتَقَطَّع فيه الأسباب بين المشركين ومعبوداتهم، والتابعين ومتبوعيهم كما قال تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة166] ولا يبقى هناك من سبب قائم إلا سبب حبل الله عز وجل لمن اتخذ توحيده وطاعته لله سبباً.

(**630**) أفادت قراءة: ﴿ نَّتَّخِذَ ﴾([2]) بفتح النون، تبرؤ المعبودين من أن يكون لهم أولياء غير الله تعالى، قال الإمام الطبري: فذهب الذين فتحوها إلى المعنى الذي بَيَّنَّاه في تأويله من أن الملائكة وعيسى، ومن عُبِد من دون الله من المؤمنين، هم الذين تبرّءوا أن يكون كان لهم وليّ غير الله تعالى ذكره.

(**631**) وأما قراءة: ﴿ نُّتَّخَذَ ﴾ بضم النون فأفادت أن المعبودين في الدنيا إنما تبرّءوا إلى الله أن يكون كان لهم أن يُعبَدوا من دون الله جل ثناؤه.([3]) ويرى ابن الجزري أن المعنى على هذه القراءة: ما كان لنا أن نُعبَد من دونك ولا نَستحق الولاء ولا العبادة.([4])

(**632**) يستفاد من الجمع بين القراءتين: ﴿ نَّتَّخِذَ ﴾ و ﴿ نُّتَّخَذَ ﴾ أن المعبودين من دون الله تعالى، كعيسى والملائكة عليهم السلام وغيرهم، تبرؤوا من اتخاذهم أولياء من دون الله تعالى، أومِنْ أن يكونوا هم الذين دعوا الناس إلى عبادتهم مع الله تعالى.

(**633**) تفيد أن الإسراف في متع الدنيا والانغماس في شهواتها من شأنه أن ينسي العبد -شيئاً فشيئاً- حقيقة عبديته لربه جل جلاله؛ فينقطع عن ذكره وتلاوة كتابه.

---

1 ينظر تفسير ابن عرفة، 231/3

2 قرأ بضم النون وفتح الخاء: (نُّتَّخَذُ) أبو جعفر، وهي قراءة زَيْد بْنِ ثَابِت، وَأَبِي الدَّرْدَاء، وَأَبِي رَجَاء، وَزَيْد بْنِ عَلِيٍّ، وَجَعْفَرٍ الصَّادِق، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَحَفْصِ بْنِ عُبَيْدٍ، وَمَكْحُولٍ. وقرأ الباقون ﴿ (نَّتَّخِذَ) بفتح النون وكسر الخاء (ينظر النشر، 2/ 250)

3 ينظر جامع البيان في تأويل القرآن، 19/ 248، 249

4 ينظر النشر، 2 / 250

(**634**) فيها أن الغفلة عن الله وعن ذكره وتوحيده، سبب للوقوع في غفلة شاملة ونسيان روحي عميق يتيه العبد من خلاله في ظلمات الشركيات بما تزينه له الأهواء والشهوات، إلى أن يصل إلى درك الانحراف الكامل والضلال المبين ويكون من الهالكين.([1])

(**635**) تفيد أن يوم القيامة هو يوم براءة الملائكة والأنبياء، وكل من عُبِد من دون الله، مِن عبادة مَن عبدوهم، لأنه يوم انكشاف الحقائق، وتبلى فيه السرائر.

(**636**) تشير إلى أن الانشغال بمتع الحياة الدنيا وشهواتها، والانغماس في نعيمها وملذاتها، سبب نسيان ذكر الله وعبادته، المؤدي بالإنسان إلى الخسران المبين في الدنيا والآخرة.

(**637**) في الآية تحذير ببيان سبب من أسباب ضلال الناس وانصرافهم عن واجباتهم وعن التدبّر في آيات الله وحكمته، يضاف إلى السبب الذي ذكرته الآيات السابقة -أي إنكار الآخرة- وهو استغراقهم في متع الحياة الدنيا وشهواتها استغراقاً يميت ضمائرهم ويعمي أبصارهم وينسيهم ذكر الله وواجباتهم نحوه ونحو الناس.([2])

(**638**) فيها إذا كان أئمة الخير والهدى لم يكونوا متخذين من دون الله أولياء، أفيدعون الناس لاتخاذهم من دون الله شركاء؟ فهذا لا يقبله عاقل.

(**639**) تشير إلى أن دوام العافية قد يلهي وينسي ويشغل صاحبه، وفي البلايا لأقوام مِنَحٌ وعطايا، وذلك إذا حثّتهم على الذكر وقادتهم إلى التذكرة.

(**640**) في قول المعبودين: ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ إنكار على المشركين كيف قابلوا النعمة بالكفران، فهو مستعمل في الثناء على الله بسعة الرحمة، وفي الإنكار على المشركين مقابلة النعمة بالكفران غضباً عليهم.([3])

(**641**) في قوله تعالى: ﴿ مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ إشارة إلى الجهة التي جاء منها الضلال إلى هؤلاء الضالين.. إنه البطر بنعم الله، والكفر بإحسانه وفضله عليهم.

(**642**) يفيد قوله تعالى: ﴿ مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ... ﴾ تعريض بشناعة الإشراك ولو قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم. لأن نسيان الذكر إنما حصل من المشركين الذين بلغتهم الدعوة المحمدية ونسوا الذكر أي القرآن، مع الإشارة إلى أن كفران النعمة قد انجرّ لهم من آبائهم الذين سنّوا لهم عبادة الأصنام.([4])

---

1 ينظر مجالس القرآن، 1 /184

2 ينظر التفسير الحديث، ترتيب حسب أسباب النزول، 3 / 70

3 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 340

4 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 340

(643) تدل على أن الانشغال بالدنيا وشهواتها، والانغماس في مُتَعها وملذاتها، من أعظم أسباب الغفلة عن الذكر، والتفكر، والاعتبار، أو عن الشهود والاستبصار.

(644) فيها دلالة على تَنْزِيه الله تعالى، بإسناد الخير إليه، وصرف الشر عنه لغيره، ووجه ذلك في الآية: أنهم أضافوا إليه سبحانه التفضل بالنعمة والتمتيع بها، ثم أسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار، إلى الكفرة.

(645) في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ إشارة إلى أن تطاول العهد عليهم بالعافية، من غير أن تحل بهم النقم، أو يشتمل عليهم البلاء- قد أنساهم ذكر الله، وأبعدهم عن مواطن اللجأ إليه.. فإن المحن والشدائد، هى التي تشدّ المرء إلى الله، فيكثر من ذكره، والغياث به.

(646) تشير إلى أن من الإيمان أن يذكر الإنسان ربّه في السراء الضراء، وأن يدعوه لما نزل به من مكروه، إذ هو سبحانه وحده غياث المستغيثين، وحمى اللاجئين، وقد أمرنا سبحانه وتعالى أن ندعوه، ووعدنا الإجابة لما ندعوه به.([1])

(647) في وصف القرآن بالذكر ﴿ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ ﴾ لأنه ذكر من الله تعالى لعباده، يذكرهم بنعمه وآلائه، ويعرفهم تكاليفه وأوامره ويذكّرهم بما يجب عليهم أن يتجنّبوه ليتّقوا سخطه وعقابه؛ ويذكّرهم بما ينفعهم في دينهم ودنياهم وآخرهم، ويذكرهم بحقيقة الدنيا، وبما ينتظرهم بعد الموت من أهوال يوم القيامة والوقوف بين يدي الله للحساب والجزاء.

(648) إن المتأمل في أحوال الأُمم اليوم وهي غرقى في أنواع من النعم، وألوان من الشهوات والملذات، مع ما يصاحب ذلك من الغفلة عن الله، واحتقار الخلق، يتضح له بعمق معنى هذه الآية في كيفية غرق هذه الأُمم في بحر من الفساد الأخلاقي، وكيف اجتثت الفضائل الإنسانية من واقعهم البائر نتيجة للغفلة والاستغناء عن المنعِم سبحانه.

(649) تشير إلى أن خير الناس مَن طال عمره وحسن عمله، وأن شر الناس مَن طال عمره وساء عمله، إذ العمر نعمة من الله، والخسارة كل الخسارة أن يمضيه العبد في الجحود والبعد عن الله ونسيانه.

(650) تفيد شدة حسرة الكفار يوم القيامة، حينما يتبَرَّأُ منهم مَن كانوا يعبدونهم ويعتقدون فيهم النصرة والغوث، فإذا بهم هم السبب في دخولهم النار.

(651) فيها أن دوام السلامة والعافية قد يُلهي وينسي، وفي البلايا لأقوام مِنَح وعطايا، وذلك إذا حثَّتهم على الذكر، وكانت سبباً لهم في الذكرى.

---

1 ينظر التفسير القرآني للقرآن، 9 / 1368

(**652**) تَدُلُّ هذه الآية عَلَى أَنَّهُ لَا تَجُوزُ الْوِلَايَةُ وَالْعَدَاوَةُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّه، فَكُلُّ وِلَايَةٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَى مَيْلِ النَّفْسِ وَنَصِيبِ الطَّبْعِ فَذَاكَ عَلَى خِلَافِ الشَّرْعِ.([1])

(**653**) تفيد أن العاقل هو من اتعظ بغيره، وحرص على اجتناب ما قد يكون سبباً في حسرته، ذلك أن الهلاك والبوار إذا وقعا لم ينفع معهما الندم ولا الحسرة، بل الحسرة والندم يتحولان إلى عذاب يوم القيامة، كما أخبر الله في القرآن الكريم.

1 ينظر مفاتيح الغيب، 444/24

الآية التاسعة عشرة: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**654**) فيها دقة التناسب والتناسق مع ما قبلها، فبعد ذكر أحوال المشركين وما هم فيه من خزي أمام تبرؤ المعبودين منهم، وأنهم لم ينفعوهم بشيء، ولم ينقذوهم من هذا الموقف المخزي، فكأن سؤالا ما تبادر إلى الذهن: كيف لا يكون هؤلاء شفعاء لهم في هذا الموقف وهم الذين كانوا يقولون عنهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ [يونس: 18] فجاءت هذه الآية لتجيب عن هذا السؤال، وتبين أن معبوداتهم قد تبرؤوا منهم.

(**655**) فيها الْتفات رائع، إلتفات إلى العَبَدة بالاحتجاج والإلزام على حذف القول، والمعنى: فقد كذب المعبودون العابدين وانكشف الحال، وانتهت الحكاية وظهر أمركم. وفي ذلك ما فيه من الخزي والخذلان لهؤلاء، نسأل الله السلامة والعافية.

(**656**) في احتجاج الله سبحانه وتعالى على العبدة، مبالغة في تقريعهم وتبكيتهم؛ فهو على تقدير قول مرتب على الجواب، أي: فقال الله جل جلاله عند ذلك للعبدة: فقد كذبكم المعبودون أيها الكفرة.([1])

(**657**) تفيد مع ما قبلها كذلك أن فضيحة المشركين مع معبوداتهم ستكون على مرأى ومسمع من المؤمنين، وفي ذلك زيادة لطمأنة المؤمنين، ونكاية للمشركين وزيادة غبنهم وندمهم أمام الخلق حيث لا ينفع الندم.

(**658**) الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم ﴾ تدل على شرط مقدر كأنه قال: إن زعمتم أنهم آلهتكم فقد كذبوكم بقولكم إنهم آلهة. أو بقولهم: -أي المعبودون- سبحانك ما كان ينبغي لنا على اختلاف قراءتي الخطاب والغيبة.([2])

(**659**) في صرف الخطاب عن المعبودين وتوجيهه إلى العبدة، مبالغة في تقريعهم، وتبكيتهم، على تقدير قول مرتب على الجواب، أي فقال الله تعالى عند ذلك: قد كذبكم المعبودون أيها الكفرة([3]). فأي تقريع أكبر من هذا؟! إنه تقريع دال على سخطه وعذابه.

---

1 ينظر البحر المديد، 84/4

2 قرأ قنبل: (يَقُولُونَ) بالغيب، بعود الضمير على المعبودين، وقرأ الباقون: (تَقُولُونَ) بالخطاب، أي بعود الضمير على العابدين. (ينظر النشر، 2/ 250)

3 ينظر روح المعاني، 9 / 241

(**660**) تسمى الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم ﴾ فاء الفصيحة، أي إفصاح عن حجة بعد تهيئة ما يقتضيها، وفي الكلام حذف فعل قول يدل عليه المقام. والتقدير: إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذبوكم، فماذا بقي لكم بعد هذا التكذيب منهم.

(**661**) في حذف فعل القول استحضار لصورة المقام كأنه مشاهد غير محكي وكأن السامع آخر الآية قد سمع لهذه المحاورة مباشرة دون حكاية فقرع سمعه شهادة الأصنام عليهم ثم قرع سمعه توجه خطاب التكذيب إلى المشهود عليهم، وهو تفنن بديع في الحكاية يعتمد على تخييل المحكي واقعاً.([1])

(**662**) فيها إقامة الحجة على الكافرين بطريقة تخرس ألسنتهم، وتجعلهم أهلا لكل ما يقع عليهم من عذاب أليم.([2]) فلا يظلم ربك أحداً، وإنما يظلم الإنسان نفسه، حينما أقيمت عليه الحجة وظهرت المحجة ثم ركب نفسه واتبع هواه.

(**663**) تفيد ذكر الخزي الذي ينتظر المشركين يوم الحشر في عبادتهم لمن سيتبرأ منهم وجهاً لوجه، وأمام الملأ بعد ما كانوا يزعمون بأنهم الذين أمروهم بعبادتهم.

(**664**) عاقبة من أشرك بالله وتعلق بغيره؛ الخزي والندامة، والتقريع والملامة، والتكذيب والإهانة، والعذاب الأليم فوق ذلك، فيالها من عاقبة أليمة، وياله من خسران مبين.

(**665**) فيها إبطال لإلهية معبوداتهم، إذ كيف يزعمون أن هؤلاء آلهتهم، وهم لا يستطيعون دفع العذاب عنهم، بوجه من الوجوه، لا بالذات ولا بالواسطة، ولا يستطيعون نَصْر أنفسهم ولا إنقاذ غيرهم.

(**666**) تشير إلى أن الناصر الحقيقي هو الله تعالى، فلا ناصر إلا هو سبحانه، وأن المحروم من حُرِم هذا النصر، والمخذول من خُذِل في يوم يحتاج فيه العباد إلى ناصر ومغيث، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾

(**667**) أفادت قراءة: ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾([3]) بالتاء على الخطاب، عَجْز المشركين عن دفع الضر عن أنفسهم أو نصرها، حيث الخطاب موجه لهم. وأما قراءتها بالياء: ﴿ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ فأفادت عجز الآلهة عن دفع الضر أو نصر مَنْ عَبَدَها من المشركين، حيث الضمير يعود على الآلهة.

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 342/18

2 ينظر التفسير الوسيط، 10/ 183

3 قرأ حفص بتاء الخطاب: (تَسْتَطِيعون) وقرأ الباقون: (يَسْتَطِيعُونَ) بالياء على الغيب (ينظر النشر، 2/ 250)

(**668**) في الجمع بين القراءتيْن: ﴿ يَسْتَطِيعُونَ - تَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي: الخطاب، والغيبة، خزي وتبكيت وتيئيس لهم، أي: فسواء أكان التكذيب بقول المعبودين، أم كان بقول العابدين، فلن يستطيعوا صرف العذاب عن أنفسهم، لا بواسطة المعبودين ولا بواسطة أنفسهم.

(**669**) ومما يفيده قوله تعالى: ﴿ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ كذلك؛ أن يكون ذلك في الدنيا، أي أن هؤلاء الكفار لا يستطيعون التوبة والرجوع إلى الله تعالى، بعد ما كذبوا وأصروا على الجحود والكبرياء، وهو ما يفيده سياق الآية: ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفرقان: 18،19]

(**670**) ما أشقى الكافر في دار ليس له فيها ناصر! بل العذاب عليه واقع ما له من دافع، فلا يملك صرفه عن نفسه، ولا دفعه بالاستنصار بغيره.

(**671**) ذكر الظلم في هذا السياق مع التهديد والوعيد الشديد لمن يقع فيه، دليل على خطورة الظلم وعاقبته الوخيمة عند الله تعالى؛ وأعظم الظلم أن يشرك العبد بالله معه آلهة أخرى.

(**672**) في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَظْلِم ﴾ مظهر أقيم مقام المضمر، تنبيهاً على توغلهم في الكفر وتجاوزهم حد الإنصاف والعدل إلى محض الاعتساف والجدل فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم([1]) من الباطل والزور، وهم يعلمون أنه بريء من ذلك. ثم ما طلبوه منه مما هو غير معقول.

(**673**) تدل على أن الشرك بالله هو الذنب العظيم الذي لا يغفره الله جل جلاله لمن مات عليه أبداً، لأنه خرم وخيانة لأعظم حق من حقوق الله تعالى بما هو رب العالمين، الخالق للجِنة والناس أجمعين.([2])

(**674**) التنكير في قوله تعالى: ﴿ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ لبيان هَوْله وشدته، وأنه لا يقادر بقدر، ولا يغيا بغاية يعلمها أحد البشر، فلا يعلم شدته إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى.

(**675**) في وصف العذاب بالكبير مع التنكير، ما يدل على أنه عذاب لا يطاق، ولا يبلغ وصفه واصف مهما أوتي من الفصاحة والبلاغة، وفي ذلك ما فيه من تهويله، ترهيباً وتخويفاً لكل ظالم وكافر.

---

1 ينظر روح المعاني، 9 / 443

2 ينظر مجالس القرآن، 1 / 183

(**676**) في هذه الآية الكريمة بيان لما يجري على الكفار والظلمة من الأهوال والنكال يوم القيامة، وهذا هو السر في تسمية الله ليوم القيامة ب(الحاقة) أي التي يحق فيها الموعود من هول عذاب الله عز وجل لمن يستحقه.

(**677**) في تفصيل الله تعالى وتصويره لأحوال يوم القيامة وما سيقع فيه، – في هذه الآية وما قبلها– إقامة الحجة وبيان المحجة منه لعباده، ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْۢ بَيِّنَةٍ ۗ ﴾ [الأنفال: 42]

(**678**) في مآلات الكافرين الأليمة، عبر لذوي القلوب السليمة، والفطر القويمة؛ فمن رام أن ينجو منها فليعتبر الآن بها عند سماعها، قبل غد غير مضمون، فباب الخلاص مفتوح غير مسدود، والرب غفور مهما بلغت الذنوب.

الآية العشرون: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠ ﴾

من الهدايات التي تؤخذ من هذه الآية:

(**679**) في مناسبتها بما قبلها من الآيات؛ أن الله تعالى لما أبطل ما وصموا به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر ما جزاهم عليه. وما أعد لهم وله ولأتباعه، ونفى ما زعموه في معبوداتهم وختمه بتعذيب الظالم، ذكر ما ظلموا فيه من قولهم: ما لهذا الرسول.. ونحوه، فبين أن ما جعلوه من ذلك وصمة في حقه هو سنته سبحانه في الرسل من قبله أسوة لنوعهم البشري، وأتبعه سره فقال زيادة في التسلية والتعزية والتأسية: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا ﴾([1])

(**680**) في علاقتها بما قبلها أنه لما تقدم الطعن على الرسول صلى الله عليه وسلم بأكل الطعام والمشي في الأسواق أخبر تعالى هنا بأنها عادة مستمرة في كل رسالة.([2])

(**681**) دلت هذه الآية على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم كباقي البشر فيما عدا إنزال الوحي عليهم، وتخلقهم بالأخلاق العالية، وقيامهم بالأعمال الطيبة بدرجة تفوق غيرهم، فهم يأكلون ويشربون ويتاجرون في الأسواق.

(**682**) فيها أن السنة الإلهية الثابتة في إرسال الرسل؛ إنما هي قائمة على كونهم بشراً بالقصد الأول، لما تقتضيه الرسالة من صاحبها، من الدخول في تكاليفها التعبدية، هو بذاته أولا؛ حتى يكون مبلغاً بأسوته وقدوته البشرية، ومترجماً بصورة عملية ما يبلغه للناس بلسانه من الوحي.([3])

(**683**) فيها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عن قولهم السابق: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان : 7] بأن لك في سائر الرسل عليهم السلام أسوة حسنة فإنهم كانوا كذلك، ولذلك لم يرد عليهم سبحانه مباشرة في كلامهم السابق هذا إعراضاً عنه لسفاهته وعدم معقوليته، وإنما توجه هنا للرسول صلى الله عليه وسلم مِن أن يكون بقي في نفسه شيء من كلامهم تسلية له، بعد ما رد عليهم شبهاتهم الأخرى.

---

1 ينظر نظم الدرر، 13/ 365

2 ينظر البحر المحيط في التفسير، 8/ 94

3 ينظر مجالس القرآن، 186/1

(**684**) تفيد هذه الأدوات التوكيدية اللغوية والسياقية في الآية: ﴿ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ أن سنة الله تعالى المستمرة والمطردة في جميع الرسل هي كونهم بشراً، يجري عليهم ما يجري على جنس الإنسان، غير أنهم يوحى إليهم، وذلك هو مناط ابتلاء الناس بهم وبما جاءوا به من الدين الذي يوجههم في كل شؤونهم المعشية والمعادية.

(**685**) فيها أن الله تعالى أبقى الرسل على الحالة المعتادة للبشر، فيما يرجع إلى أسباب الحياة المادية، إذ لا حكمة في تغيير حالهم عن ذلك، وإنما يغير الله حياتهم النفسية، لأن في تغييرها إعداد نفوسهم لتلقي الفيوضات الإلهية.

(**686**) فيها أن لله تعالى حِكَماً في الحِفَاظ على نواميس نظام الخلائق والعوالم، لأنه ما خلقها عبثاً، فهو لا يغيرها لرغبة قوم، أو طلب آخرين، إلا بمقدار ما تتعلق به إرادته تعالى من تأييد الرسل بالمعجزات ونحو ذلك.([1])

(**687**) تفيد أن الداعية الحق هو الذي يقود الناس بتدينه من وسط الابتلاء الاجتماعي، قدوةً صادقةً حقيقةً. والذي يدخل تحت ربقة الشريعة عبداً لله، مع عامة الناس، إذ هو إمام العامة والخاصة جميعاً كلهم عنده سواء.([2])

(**688**) فيها دليل على فضل هداية الخَلْق بالعلم، وبيان شرف العالم على الزاهد المنقطع؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كالطبيب، والطبيب يكون عِنْدَ المرضى، فلو انقطع عنهم هلكوا.([3])

(**689**) تدل على أن الداعية إلى الله تعالى لا يكون على القدوة السوية الكاملة، حتى يكون إماماً في الدين لكل مَن يدعوهم، ولا يكون كذلك إلا إذا عاش بينهم، وصلى في مساجدهم، وأكل من طعامهم، ومشى في أسواقهم، وعرف أحوالهم الخاصة والعامة.

(**690**) تشير إلى أن من التلبيس الشيطاني الذي قد ينحرف بالداعية عن المنهج القرآني، أن يتوهم بأن عليه أن يحتجب عن الخلق، أو أن ينعزل في بُرْج عالِمِيَّتِه بعيداً عن هموم الناس، بعيداً عن آلامهم وآمالهم، متفرّغاً للتوجيه والنصح عن بُعد، أو من وَراء حجاب، محاطاً بخاصة من أهل المال أو أصحاب الوجاهة الاجتماعية والسياسية..([4])

---

1 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 344

2 ينظر مجالس القرآن، 1 /189

3 ينظر روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي) 2/ 43، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله.

4 ينظر مجالس القرآن، 1 /190

(**691**) فيها أن الداعية إلى الله تعالى، لكي يقوم بواجب الرسالة، وبحق النذارة، وجب عليه أن يخالط عامة الناس بذاته خاصتهم وعامتهم، ليتعرف على أدوائهم وأهوائهم، فيعطي كل ذي حق حقه.

(**692**) هذه الآية أصل في تناول الأسباب، وطلب المعاش بالتجارة، والصناعة، وغير ذلك.([1])، ووجهه في الآية أن الله تعالى وصف الرسل عليهم السلام، بأنهم يذهبون إلى الأسواق، والذاهب إلى السوق إما أن يذهب بائعاً أو مشترياً. وهو مما تقوم به الحياة.

(**693**) تشير إلى أن الحكمة في فقر الرسل عليهم الصلاة والسلام من المال: تحقيق الإخلاص لمن تبعهم، وإظهار المزية لهم حيث تبعوهم بلا حرف.([2])

(**694**) تشير إلى أن الطريق الجادة التي درج عليها الأنبياء والأولياء هي سلوك طريق الفقر والتخفيف من الدنيا، إلا قدر الحاجة، بعد التوقف والاضطرار، ابتداءً وانتهاء، حتى تحققوا بالله. ومنهم من أتته الدنيا بعد التمكين فلم تضره.([3])

(**695**) يفيد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أنه سبحانه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم ومناصبتهم لهم العداوة وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف وأنواع أذاهم، وطلب منهم الصبر الجميل.([4])

(**696**) فيها أن حياة الأنبياء والمرسلين -وهم أفضل العباد- لم تكن محفوفة بالسلامة والراحة والرخاء، بل كانت مملوءة بالشدة والابتلاء، لكنهم صبروا على كل ذلك حتى صاروا قدوة حسنة لكل داع للحق بعدهم، مناراً يهتدي بحياتهم وأحوالهم في تحمل عناء الدعوة إلى طريق الهدى.

(**697**) في قوله تعالى كذلك: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ تقرير كون الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك لاختبار الناس في صبرهم على الابتلاء، واستعمال قابليتهم للتمييز بين الخير والشرّ، والهدى والضلال، والطيب والخبيث، لتقوم الحجة عليهم من أعمالهم واختيارهم.([5])

---

1 ينظر الجامع لأحكام القرآن، 13/ 14

2 ينظر البحر المديد، 86/4

3 ينظر المرجع نفسه، 87/4

4 ينظر البحر المحيط في التفسير، 8/ 95

5 ينظر التفسير الحديث، 3/ 76

(**698**) فيها أن الله جرت سنته على ابتلاء العباد واختبارهم ببعضهم ليرى مقدار صبرهم على ذلك وهو البصير بكل شيء. وذلك لِيُعْلِيَ الصابر على قَدْر صبره، فللصبر مدارج، ولأهله منازل.

(**699**) تشير إلى أن الله قد جعل هذا التفاضل بين الخلق: رفيع ووضيع، وقوي وضعيف، وغني وفقير، ومملك ومملوك، وسيد وعبد – فِتْنَةً، ليست بذاتها حقاً ولا باطلا، وإنما الذي يميز الحق من الباطل تمييزهما بنفسيهما؛ فالحق حق بنفسه؛ فقد يكون مع عبد، وقد يكون مع سيد، وقد يكون مع رفيع، وقد يكون مع وضيع..

(**700**) تشير إلى أن الحكمة من فتنة الابتلاء التمايز، وتحقيق سنة التدافع، وتركيب منظومة الكون ليستقيم أمره؛ فإنه لا يصح كون الخلق فيه من جنس ونوع واحد.([1])

(**701**) تدل على أن أن الدنيا بالنسبة للمؤمن دار بلاء وامتحان، وأن الابتلاء فيها على قدر إيمان العبد، فكل زاد إيمان العبد اشتد بلاؤه، فيبتلى الرجل على قدر إيمانه.

(**702**) تدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، والتسليم والرضى بما قضاه الله وقدّره في هذه الحياة، فهو خير للمؤمن في الدنيا والآخرة، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)).([2])

(**703**) فيها أن الله تعالى لو شاء جعل الدنيا مع رسله عليهم السلام فلا يخالفون لفعل، ولكنه أراد سبحانه أن يبتلي العباد بهم، ويبتليهم بهم وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله: ((إِنِّي بَعَثْتُكَ، لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ..))([3])

(**704**) تشير إلى أن الله جعل الأغنياء فتنة للفقراء، أو الزعماء فتنة للضعفاء لينظر هل يصبر الناس على حكمته في إغناء أُناس وإفقار أُناس، أو جعل أُناس أقوياء وآخرين ضعفاء.([4])

(**705**) فيه أن الله تعالى دبَّر خلقه، وخص كلّاً بما شاء، من غِنى أو فقر، أو علم أو جهل، أو نبوة أو غيرها. وكذا سائر الخصوصيات ليظهر من يسلّم له حُكمه وقسمته، ومن ينازعه في ذلك، ومن يؤدي حق ما توجه عليه من ذلك فيكون شاكراً صابراً، ومن لا، وهو أعلم بحكمته في ذلك.([5])

---

1 ينظر التفسير والبيان لأحكام القرآن، 4/ 1887

2 مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم الحديث: 7692

3 مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم: (2865).

4 ينظر التفسير الحديث، 3/ 76

5 ينظر البحر المديد، 86/4

(**706**) في قوله تعالى: ﴿ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ تَصَبُّرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قالوه واستبعدوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعدما احتج عليهم بسائر الرسل، يقول: جرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض.([1])

(**707**) في الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن إعراض بعض قومه عن الإسلام، ولذلك عقب بقوله: ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ وهو استفهام مستعمل في الحث والأمر كقوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة : 91]([2])

(**708**) في قوله تعالى: ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ استفهام بمعنى الأمر، فمن قارنه التوفيقُ صبر وشكر، ومن قارنه الخذلان أبى وكفر.([3])

(**709**) فيها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم كذلك بأن الله عالم بالصواب فيما يبتلي به وبغيره، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ فلا يضيقن صدرك، ولا تستخفنك أقاويلهم، فإن في صبرك عليهم سعادة، وفوزك في الدارين.([4])

(**710**) في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ وعدٌ كريم للرسول صلى الله عليه وسلم بالأجرِ الجزيلِ لصبرِه الجميلِ، مع مزيدِ تشريفٍ له صلى الله عليه وسلم بالالتفاتِ إلى اسمِ الربِّ مضافاً إلى ضميره صلى الله عليه وسلم.([5])

(**711**) وَقَعَ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ موقع الحث على الصبر المأمور به، أي هو عليم بالصابرين، فهو إيذان بأن الله لا يضيع جزاء الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه وأنه ناصره عليهم.([6])

(**712**) فيها تطمين للنبى صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، وربط على قلوبهم، حتى يصبروا على أذى المشركين، فالله سبحانه وتعالى بصير، عالم بما يحتملون من مكروه في سبيل الحق، وفي الثبات على الإيمان، وسيجزيهم عليه، ويرفع به مقامهم عنه.

(**713**) في الآية ترغيب وحث لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم بأن يتصفوا بهذه الصفة في الدعوة والتبليغ، اقتداء به عليه الصلاة والسلام، إذ الصبر مفتاح الفرج، والله تعالى ناصر الصابرين إذا ثبتوا كما نصر رسوله صلى الله عاليه وسلم، وكما هي سنته سبحانه.

---

1 ينظر البحر المحيط في التفسير، 8/ 95

2 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 345

3 ينظر البحر المديد، 87/4

4 ينظر البحر المحيط في التفسير، 8/ 95

5 ينظر إرشاد العقل السليم، 210/6

6 ينظر التحرير والتنوير، 18/ 345

(**714**) تقرر الآية أن الدنيا دار ابتلاء، فعلى أولى الحزم أن يعرفوا هذا ويخلصوا منها بالصبر والتحمل في ذات الله تعالى حتى يخرجوا منها ولو كفافاً لا لهم ولا عليهم.([1])

(**715**) استُدل بهذه الآية على القضاء والقدر، فإنها أفادت أن أفعال العباد كعداوة الكفار، وإيذائهم، بجعْل الله تعالى وإرادته، والفتنة بمعنى الابتلاء وإن لم تكن من أفعال العباد إلا أنها مفضية ومستلزمة لما هو منها.([2])

1 ينظر أيسر التفاسير، 3/ 606

2 ينظر روح المعاني، 9 /444

المبحث الثاني

الهدايات الكلية في السورة، من الآية: (1-إلى الآية: 20)

تمهيد: ([1])

لما كانت هذه السورة الكريمة مشتملة على أصول العقائد والفضائل، والأخلاق القرآنية في طبيعتها العملية؛ رسالةً، ودعوة، وتزكية وتربية، وذلك بما رسمه الله تعالى فيها من معالم (فرقانية) ربانية، تشق طريق النور للبشرية الحائرة في الظلمات، وتفرق بأنوارها المنهاجية العملية، بين الحق والباطل، والهدى والضلال، سماها الله ب:(سورة الفرقان) والفرقان اسم من الأسماء الأعلام على القرآن العظيم -كما مر معنا- وكما هو واضح من مطلع هذه السورة الكريمة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[الفرقان:1] وكما في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ...۝٤﴾ [آل عمران: 3،4]

وإذا كان الله تعالى وصف القرآن الكريم ب"الفرقان" وجعله من أسمائه، فإن افتتاح هذه السورة الكريمة بتمجيد الله تعالى الذي نزّل هذا الفرقان، وتسميتها بهذا الاسم: (سورة الفرقان) له دلالات خاصة، وذلك لما اشتملت عليه من التعريف بطبيعة القرآن (الفرقانية)، وحقائقه الإيمانية، ورسالاته الكبرى، مع عرض لنماذج حيّة من حُمّال رسائل القرآن، الذين أدلجوا بها إلى ربهم عبر منازلها ومقاماتها؛ تلقياً، وترتيلا، سُجّداً، وقياماً، عبر منازلها، تحققاً بهداياتها؛ تربية، وتزكية، حتى استحقوا ذلك الوسام الرباني تشريفاً وتخصيصاً وتكريماً: (عباد الرحمن)

وهذه الدلالات الخاصة التي تعبر عنها طبيعة هذه السورة الكريمة، في أصولها الأخلاقية، ومعالمها الإيمانية والدعوية والتربوية، هي موضوع هداياتها الكلية، هذا، وإن من أبرز هذه الهدايات التي يمكن أن نستلهمها من خلال موضوعاتها، واستقراء لهداياتها الجزئية، ما يأتي:([2])

---

1 مر معنا في مبحث (الهدايات الكلية لسورة النور) من القسم الأول من هذا البحث: الحديث عن الفرق بين الهدايات الكلية والجزئية، وتعريف كل منهما، وذلك في تمهيد خاص بذلك.

2 تبدأ الدراسات التطبيقية في هدايات هذه السورة، الجزئية منها والكلية، من الآية:1 إلى الآية: 20، حسب تقسيم البحث ضمن مشروع الموسوعة العالمية للهدايات القرآنية. وكما هو في عنوان الأطروحة.

الهداية الأولى: في أن نزول القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم، هو أعظم النعم الربانية التي تستوجب شكر المنزِّل سبحانه؛ بتلقي هداياها تربية وتخلقاً:

وهذه الهداية الكلية دلت عليها مجموعة من الآيات القرآنية في سور عدة، منها -على سبيل المثال- قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87] فالله تعالى هنا يَمْتنّ على نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه النّعمة العظيمة -نعمة نزول القرآن- ويذكره بها ليطمئن وتسعد نفسه، ويقوم بشكرها تلاوة وتبليغاً. ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر، 23] ومنها قوله تعالى كذلك: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه: 1- 3] إلى غير ذلك من الآيات.

أما ما يدل على هذه الهداية الكلية في سورة الفرقان -محل الدراسة- هو افتتاحها بهذه الكلمات الجليلة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴿١﴾﴾ [الفرقان: 1] فتبارك سبحانه الذي أفاض على عباده هذا الخير الكثير المبارك، بما نزّل من آيات بينات على نبيّه الكريم.

وإن كل كلمة من هذه الكلمات الأربع: (تبارك – الذي – نزّل – الفرقان) تدل على أن الله تعالى هو وحده مصدر الخير الفيّاض على عباده، وصاحب الكرم والفضل المطلق تجاه مخلوقاته، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: 53]

ومن هنا فإن أعظم نعمة، وأجلّ مِنّة، مَنَّ الله بها على عباده، هي نعمة: نزول القرآن الكريم، فهو أصل النعم والمنن كلها، وذلك لما انطوى عليه من أصول الخيرات والسعادات، الدينية، والدنيوية، ولهذا كان القرآن الكريم من أعظم البركات، وأجلّ الخيرات، التي أنعم الله بها على البشرية إلى يوم الدين، لأنه سبب سعادتها وسبيل مجدها، وطريق سيرها إلى الله تعالى، ففيه السلامة والنجاة، وفيه السعادة والفلاح. وتلك هي أعظم الهدايات الكلية لهذا القرآن عموماً، ولسورة الفرقان خصوصاً.

ولذلك كانت (نعمة نزول القرآن أعظم من أن يحيط بها خيال الإنسان إحصاءً وعدّاً، وأكبر من أن تستنفد البشرية بركاتها وأنوارها، فأي لسان قدير على شكر ما لا ينحصر بلسان؟ ولذلك كان لا كمال لثناء على الله جل جلاله إلا بما أثنى هو على نفسه: ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى)([1]) كما

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 159

قال صلى الله عليه وسلم -في مناجاته لربه وثنائه عليه-: ((لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ))([1])

وهكذا فكل النعم إنما هي ببركات هذا القرآن المبارك، فلا نزول لنعمة، ولا استمرار لها، ولا دوام لبركتها، إلا ببركات هذا الكتاب العظيم، ولن تزال نعم الله تترى على هذه الأمة، مادية ومعنوية، ما دام هذا القرآن يُتلى ويُتَدَبَّر، وتلك أول مترلة من منازل شكر هذه النعمة، ذلك أن لكل نعمة شكرها، وشكر نعمة القرآن إنما هو بتلاوته وتدبره، والدخول إلى منازل آياته، آية أية، وحكمة حكمة، لاسترزال هداياها الفرقانية، واستمطار أسرارها الرحمانية.

الهداية الثانية: في أن من وظائف القرآن الكريم النذارة للعالمين، باعتباره فرقاناً بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد..، تخليةً، وتزكيةً:

تلك غاية من أعظم غاياته، ووظيفة من أجَلّ وظائفه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:1] وهذه الهداية الكلية، لا تحتاج إلى دليل إذ هي الدليل عينه، فلا يستدل لها بل يستدل بها، فالقرآن كله شاهد لها وعليها، فما أنزل الله هذا القرآن إلا نذيراً للعالمين، (نذارة رحمانية مباركة، تَنَزَّلت لتشق طريق النور للعالمين.. ورسالة عالمية، يخرق نورها حجب الزمان والمكان، ليشق طريق الهدى بقوة؛ كي تستبين سبيلها للبشرية الضاربة في تيه الظلمات)([2])

وإن هذه الأمة لم يكن لها وجود قبل هذه النذارة الربانية، والرحمة الإلهية، التي جعلها الله غاية نزول القرآن الكريم، ووظيفة الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم قياماً بحقه؛ تلاوة، وتعليماً، وتزكية، وهي وظيفة أتباعة صلى الله عليه وسلم، في الدعوة بالقرآن وللقرآن؛ وببركة هذه النذارة الفرقانية، والنعمة القرآنية، خرجت تلك الفئة المؤمنة التي ذكرت في آخر هذه السورة -سورة الفرقان- الفئة التي ارتقت في صفاها العبْدية ومنازلها الربانية، حتى استحقت ذلك الوسام الرباني، والشرف الرحماني، بأن أضافها سبحانه إلى نفسه؛ إضافة تخصيص، وإضافة تشريف وتكريم: (عباد الرحمن) ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا... ٦٣﴾ [الفرقان: 63] إلى آخر ما ذكرت الآية من جليل أوصافهم الربانية، وجميل صفاهم العبدية، في منازل سيرهم، ومدارج مسالكهم.

---

1 مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم: 1118 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ...))

2 مجالس القرآن، 1/ 159

هذا وإن نذارة القرآن الكريم هي نذارة عالمية، زماناً، ومكاناً، إلى يوم القيامة، وذلك بما اشتمل عليه من هدايات نورانية مطلقة، ومن فرقانية تشريعية ربانية شاملة، في العقيدة، والشريعة، والعبادة، والأخلاق..، إلى غير ذلك، وتلك من أعظم هداياته الكلية عموماً، وفي هذه السورة خصوصاً: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:1]

الهداية الثالثة: في أن توحيد الله تعالى، ونفي الشريك عنه باعتباره المالك لما في السماوات والأرض، والمدبر لأمر الملك والملكوت بحكمة وتقدير، هو أول مقتضى القرآن وهدف دعوته.

وهي من أبرز الهدايات الكلية لسورة الفرقان، باعتبارها من السور المكية التي ترتكز موضوعاتها على قضية العقيدة والإيمان بالغيب، وترسيخ أصول الأخلاق التربوية، وقواعد السير إلى الله تعالى؛ من خلال منازل الإيمان، ومدارج الإحسان.

وإن مما يدل على هذه الهداية الكلية في السورة افتتاحها بتسبيح الله تعالى، وتقديسه لنفسه، وبيان مظاهر توحيده، لأنه المالك لأمر السماوات والأرض، الخالق لهما وما فيهما، المدبر للكون كله بحكمة وتقدير ورحمة، مع نفي ما ادعاه المشركون له من الولد والشريك وإبطاله، وتنزيه ذاته العلية من أن يكون لها شريك في الخلق، أو مثيل في الصفات سبحانه جل جلاله.

ومن حكمة ذلك ومقصده؛ أنه سبحانه أنزل القرآن المبيِّن لذلك: آيات ورحمة، وهدايات وحكمة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان،2،1]

(فكأن المتلقي عندما سمع فاتحة السورة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ولم يفصح عن اسم الجلالة: الله؛ تساءل: من هذا (الذي) إذن؟ فجاء البيان بأوصاف الربوبية المطلقة، بما تتضمنه من معاني الفردانية في الملك، والتّنزُّه عن الولد والشريك، وشمولية الخلق والتقدير لكل شيء.)([1])

ولقد فصلت السورة بعد ذلك هذه الهداية الكلية بعَرْض بعض المشاهد الكونية؛ تبياناً لمظاهر الإبداع في خلقه سبحانه وتكوينه، الدالة على وحْدانيّته الفَرْدانيته، وكمال قدرته الظاهرة في آثار خلقه، كمشهد الظل، وتعاقب الليل والنهار، والرياح المبشرة بالماء الذي به الحياة، وخلق البشر من الماء، وجعل الأنساب والمصاهرة بينهم، ثم تسبيحه سبحانه لنفسه بما جعل في هذه السماء من

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 160

بروج وسراج وقمر منير، وما ينتج عن ذلك من اختلاف الليل والنهار، تذكيراً لمن أراد أن يتذكر، وتنبيهاً لمن أراد أن يحمد ربّه ويشكر..، ونحو ذلك.

ثم ختمت السورة الكريمة بذكر نماذج حيّة وعملية، من العباد المؤمنين الموحِّدين، تجلت فيهم صفات التوحيد وآثارها، حتى صارت جزءاً من تَدَيُّنهم وأخلاقهم في الدعوة، والذكر، والدعاء، تضرعاً إلى الله تعالى وتقرباً إليه سبحانه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤... وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ٦٨ ﴾ [الفرقان: 63 - 68]

وهكذا خلّد الله ذكرهم في هذه السورة، وجعلهم قدوة، ومناراً هادياً لمن أراد أن يهتدي في طريقه إلى الله تعالى؛ توحيداً وتفريداً، تعبُّداً وتخلُّقاً، وتلك من أعظم هدايات هذه السورة.

الهداية الرابعة: في أن وسائل أهل الكفر والباطل لا تتغير قديماً وحديثاً في محاولة إبطال المصدر السماوي للقرآن الكريم:

وهذه الهداية الكلية دلت عليها آيات كثيرة، وفي عدد من سور القرآن الكريم، وخصوصاً السور المكية، بحيث يصعب ذكرها وحصرها هنا، وهي في هذه السورة كما في غيرها تترجم لنا مقالة الكفار في كل زمان ومكان: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ ﴾ [الفرقان: 4،5] فهذه وسيلتهم الخبيثة أبداً: محاولة إبطال المصدر السماوي، والأصل الغيبي لهذا الكتاب، وذلك قصد ربطه بالنسبية البشرية، حتى يتسنى لهم الطعن في حقيقته وشريعته، ورد دعوته على صاحبه، لبث الشك في نفوس أتباعه وصدهم عنه، قديماً قالها كفار قريش وكثير من أهل الكتاب، واليوم يقولها كثير من أصحاب (القراءات الجديدة) للقرآن الكريم، بالتأويلات الباطلة، والتحريفات الفاسدة، التي تسعى إلى تحقيق غرض واحد وهو: نفي ربانية هذا الكتاب، بإسكات نداءاته القوية الصادعة، وخنقها في قارورة التاريخ الذي كان، باتهام النبي صلى الله عليه وسلم بذلك كذباً وظلماً وزوراً.([1])

وهي من الحقائق القرآنية عامة، وفي هذه السورة خاصة، وهداية من هداياته الكلية، إذ ما فتئ القرآن يذْكرها، ويذكِّر بها أهله وعباده المؤمنين الداعين له عند كل مناسبة، حتى لا يضعفوا، أو يستسلموا أمام هذه المحاولات البائسة، من قبل هؤلاء الجاحدين والمنكرين للحق، والمحاربين له

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 167

ولأهله، وهي سنة من سنن الله تعالى في التدافع بين الحق والباطل في كل زمان ومكان، ليحق الحق ويبطل الباطل، تحقيقاً لسنة الابتلاء، وإظهاراً لمعادن الناس، باختبارهم بالبأساء والضراء.

الهداية الخامسة: في أن أول حقيقة من حقائق هذا القرآن الكريم هي كونه كلام الله رب العالمين جاء لهداية البشرية وتذكيرها بأصلها وحقيقتها:

وهذه أصل الهدايات الكلية في هذه السورة، بل هي كلية قرآنية كبرى، وحقيقة ربانية عظمى، وذلك أن إثبات هذه الحقيقة، -أي كون هذا القرآن كلام الله- هو إثبات لأصول الهدايات كلها، وذلك لما يتضمنه هذا الكتاب من أسرار عالم الغيب والشهادة: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾ [الفرقان: 6]

وفي مطلع هذه الأسرار: نوره الإلهي، وفرقانه الرباني، الذي يدل على مصدره، وإعجازه، ونور آياته، ولذلك جعله الله سبباً للاهتداء به إليه، لأنه عين الهدى الرباني، لمن أراد الهداية من الناس عامة، كما جعله هداية توفيق وتثبيت للمؤمنين خاصة، لأنه نور رباني، وهدى إلهي، لا شك فيه لمن تدبر وأبصر، كما قال تعالى في بداية سورة البقرة -التي هي بداية جواب تفصيلي عن معنى الهداية الوارد في سورة الفاتحة إجمالاً: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: 6]- فجاء الجواب عن ذلك: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: 2] أي لا شك أنه كلام رباني ونور إلهي، ولا شك كذلك أنه هدى للمتقين هداية توفيق وتثبيت، وهداية للناس هداية دلالة وإرشاد وبيان.

الهداية السادسة: في أن الادعاءات الباطلة، والإشاعات المغرضة، هي ديدن أهل الباطل في كل زمان ومكان، للتشويش على الحق، ومحاولة صرف الناس عنه:

ومن ثم فلا ينبغي للمؤمن أن ينهزم أمام هذه الادعاءات الباطلة، والإشاعات المغرضة، أو يستسلم لأصحابها وأقاويلهم. وتلك هي أجلّ الهدايات الكلية، وأعظم المقاصد الدعوية لهذه السورة، مفادها: أن المتصدر لدعوة الناس إلى الله تعالى، وإقامة الحجة عليهم، وبيان ما هم عليه من الانحراب والباطل؛ معرَّض لاتهاماتهم وادعاءاتهم، وإشاعاتهم، ومعارضاتهم، وعنادهم، وتعنتهم..، وكذلك لتشويه صورته، ولربما الوقوع في عرضه، وذلك سنة الله تعالى في مَن يبلغ عنه رسالته، ويحمل للناس دعوته وهدايته، وتلك من أعظم البلاغات القرآنية، دلت عليهم عشرات الآيات القرآنية، وهي في هذه السورة من أوضح الآيات، وذلك من مثل قوله تعالى-حاكياً عنهم مقالاتهم الفاسدة- : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً

وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: 4-5] وقوله سبحانه أيضاً: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: 7] إلى غير ذلك من الآيات البينات. وهي محاولات يائسة منهم للنيل من الدعوة، والوقوف في طريقها، ثم الطعن في صاحبها، ومحاولة تشويهه بكلام غاية في السفاهة والسماجة.

كل هذه المحاولات البائسة واليائسة، إنما الغرض منها هو صرف الناس عن هذه الدعوة، وعن اتباع صاحبها، لكن هيهات هيهات، فالحق الهادي إلى نور الحق أحق أن يتبع، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾ [يونس: 35]

وهكذا فإن مثل هذه الادعاءات الباطالة، والإشاعات المغرضة، هي ديدن أهل الباطل في كل زمان ومكان، للتشويش على الحق وأهله، ومحاولة صرف الناس عنه، لما يقوم به من فضحهم، وتأنيب ضميرهم، وتنغيص حياتهم فيما هم عليه من الضلال والهوى، واتباع الشهوات والملذات.

الهداية السابعة: في أن محور الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل يدور حول قضية الإيمان بالبعث والجزاء، ذلك هو أعظم البلاغ القرآني بعد قضية الإيمان بالله تعالى.

دل على كلية هذه الهداية في السورة، أن إنكار الساعة وعدم الإيمان بالبعث والجزاء، هو الدافع الحقيقي لإثارة كل الشبهات السابقة، والبحث عن جميع الاعتراضات المفتعلة، تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالته. وهو شأن جميع الكفار وأهل الباطل عبر تاريخ الرسالات السماوية، مع جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما عرضه الله تعالى في عشرات الآيات القرآنية وفي عدد من سور القرآن الكريم، وهو شأن أهل الباطل والجحود في كل زمان ومكان، ولذلك قال سبحانه في هذه السورة -مُضْرباً ومقرراً لحقيقة من حقائق أمر الكفار وأهل الجحود دائماً-﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ ۝١١﴾ [الفرقان: 11] تقريراً لحقيقتهم وواقعهم، وبواعث مكابرتهم وعنادهم؛ وهو تكذيبهم باليوم الآخر، ذلك هو محور الصراع بينهم وبين الحق وأهله، لاستثقالهم هذا اليوم وما فيه من حساب يقتضي منهم ترك شهواتهم وأهوائهم، واتباع طريق الحق وهم لا يريدون ذلك، ولذلك: ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ ۝١١﴾ لِيَفْجُرُوا أماهم، ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ۝١١٣﴾ [الأنعام: 113]

وتلك هداية من الهدايات الكلية للقرآن عموماً ولهذه السورة خصوصاً.

الهداية الثامنة: في أن الإيمان باليوم الآخر أمان للمؤمن في الدنيا؛ من الهم والغم، وسبب لثباته باصْطفافه مع قوافل السائرين إلى رب العالمين، رغباً ورهباً.

ولقد دل على كلية هذه الهداية في السورة -وفي غيرها من سور القرآن الكريم- ذلك التقابل بين الحديث عن النار وأهوالها وما لأصحابها فيها..، والحديث عن الجنة ونعيمها، وما أعد الله فيها لأهلها، ترغيباً لهم في العمل لها، وأماناً لهم من هَمّ الدنيا وغمِّها، وعوناً لهم على الثبات، والاصطفاف ضمن قوافل المحبين من المؤمنين، السائرين إلى رب العالمين رغباً ورهباً، عبر مدارج السالكين ومنازل السائرين.

وتلك قاعدة مطردة في القرآن الكريم، إذ كلما تحدث القرآن عن وعيد الكفار وإنذارهم وتخويفهم بما ينتظرهم من أهوال يوم القيامة، والبعث والنار وأهوالها؛ قابل ذلك بالحديث عن وعْد المؤمنين، وترغيبهم وذكر ما ينتظرهم من الجنة ونعيمها، وكرم الله لهم فيها، جزاء لهم على ثباتهم وصبرهم وجهادهم.

ولذلك لما وصف الله تعالى في هذه السورة حال العذاب وأنواعه، وأهوال العقاب الذي أعده للمكذبين بالساعة، أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة لهم، وزيادة الهم والغم، مع أمان المؤمنين من ذلك ووعْدهم بما يُطَمْئن نفوسهم ويشوق قلوبهم إلى ما عند الله تعالى، فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم -قل لهم-: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان: 15،16] ترغيباً للمؤمنين المتّقين، ليطمئنوا ويثبتوا على طريق الحق والهدى الذي اختاروه وسلكوا سبيله، ويجتهدوا في العمل بهذا الهدى والتُّقى.

الهداية التاسعة: في أن الداعية إلى الله حقاً وصدقاً، هو الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، ويقودهم بخلقه وتدينه قبل كلامه ودعوته، قدوةً صادقةً حقيقيةً.

وهذه هداية من هدايات القرآن الكريم عموماً، وفي هذه السورة -سورة الفرقان- خصوصاً، إذ هي صفات جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، في التبليغ والدعوة، بل هي من مقتضى طبيعة الدعوة إلى الله تعالى، فلا يكون الداعية داعية إلى الله، إلا في ميادين الحياة، ومعترك المعاش، ومناكب الأرض، مخالطاً لأصناف الناس، صابراً على ما يبدر منهم، قصداً، أو خطأ، ولذلك رد الله تعالى على المعترضين الذين اعترضوا على مخالطة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم لدعوتهم في أسواقهم ومعاشهم وجميع أحوال حياتهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً

أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [النور: 20] هكذا بهذا العموم الذي يدل على الاطراد كما يفيده (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وبهذه الأدوات التوكيدية لتقرير هذه الحقيقة.

وهذه الهداية الكلية فيها دليل على أن الداعية إلى الله تعالى لكي يقوم بواجب الرسالة، وبحق النذارة، وجب عليه أن يخالط عامة الناس بذاته، خاصتهم وعامتهم، ليتعرف على أدوائهم وأهوائهم، ويستمع لهمومهم ومشاكلهم، لأن القدوة السوية، والأسوة الحسنة، تقتضي منه أن يكون إماماً في الدين لكل مَن يدعوهم، ولا يكون كذلك إلا إذا عاش بينهم، وصلى في مساجدهم، وأكل من طعامهم، ومشى في أسواقهم، وعرف أحوالهم الخاصة والعامة.

ولا ينبغي للداعية إلى الله تعالى أن يترك للشيطان بأن يلبّس عليه في هذا الباب، مما قد ينحرف به عن هذه الهداية القرآنية الكلية، والمنهج القرآني الواضح، بأن يتوهم أن عليه أن يحتجب عن الخلق لمبررات وأسباب ما، أو أن ينعزل في (بُرْج عالميَّته) بعيداً عن هموم الناس وأحوالهم، وآلامهم وآمالهم، متفرّغاً للتوجيه والنصح عن بُعد، موهماً نفسه بأن ذلك يعفيه من المسؤولية، ويكفيه في القيام بواجب الدعوة والتبليغ والبيان، فمفهوم الدعوة والتربية قائم أساساً على القدوة أولا، ثم بيان ما يجب بيانه ثانياً، ولا يتأتى ذلك إلا بالمخالطة والانتقال من مكان إلى مكان.

ومن هنا يجب على الداعية إلى الله تعالى أن يقود المدعوين بخلقه وتدينه قبل كلامه ودعوته، وهذا يقتضي منه أن يخالط الناس ويترل إليهم نزول الأب لابنه، ويسأل عن أحوالهم، ويصبر على أذاهم، كما كان شأن الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثـاني

مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها

المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة

المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة

المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها

المبحث الأول

المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة(1)

أولا: المناسبة بين سورة الفرقان وسابقتها (سورة النور)

لا شك أن لسورة الفرقان صلة وثيقة بالسورة التي قبلها، من جهات متعددة. ومن دقق النظر، وتأمل في موقع سورة الفرقان بعد سورة النور، على وجه الإجمال، لا يصعب عليه أن يكتشف هذه المناسبة الموجودة بين السورتين. ومن ذلك:

أ- المناسبة بين الاسمين: هناك علاقة بين اسمي: (**النور**) و(**الفرقان**) فإذا كانت تسمية القرآن بالفرقان لأنه يفرق يين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، فإن مقتضى ذلك أن يكون نوراً، ولذلك وصفه الله تعالى في آيات كثيرة بالنور، إذ بهذا النور يفرق العبد بين الحق والباطل، والضلال والهدى، والغي والرشاد.. وبهذا النور يهتدي إلى الصراط المستقيم، فلا يكون النور إلا فرقاناً، كما قال سبحانه تعالى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: 52] والعكس صحيح أي إذا كان هذا النور القرآني كاشفاً للظلمات، وهادياً إلى سبيل الرشاد، فإن "**الفرقان**" هو الطريق العملي، والبرنامج التطبيقي لآياته النورانية في السير إلى الله تعالى.

قال الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله تعالى -في سياق حديثه عن علاقة سورة الفرقان بسورة النور-: (وبين كلمتي: (**النور**) و (**الفرقان**) صلة وأي صلة، تتجلى في ترتيب وارتباط سورتَيْهما اسماً، ومضموناً: سورة النور، فسورة الفرقان، ذلك أنه إذا كان (النور) كاشفاً بطبيعته للشبه والظلام، داحضاً للشكوك والأوهام، مجلّياً لكل ضلال بما هو نور؛ فإن (الفرقان) هو البرنامج العملي الذي يَقهر ويُبهر، ويشق للبشرية الحائرة في ظلمات ذلك الضلال، طريق هذا النور الوضح البين، ومن ثم يجب على المسلم أن يعتمده في تبين طريق السير إلى الله تعالى برنامجاً عملياً فرقانياً، فيفرق من خلاله بين الحق والباطل والهدى والضلال، والغي والرشاد والظلمات والنور.)([2])

---

1 مر معنا في القسم الأول من هذا البحث الحديث عن: تعريف المناسبة، وأنواعها وأقسامها، وأقوال العلماء في ذلك. وذلك ضمن مبحث (المناسبات المتعلقة بهدايات آيات سورة النور)

2 مجالس القرآن، 1/ 158و 162 (بتصرف)

ب: المناسبة بين موضوع السورتين:

ومن أوجه هذه المناسبة:

ذُكر في سورة النور الدلائل على توحيد الله سبحانه وتعالى من الآيات الكونية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور: 43]

وجاء مثله في سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان: 48،49]

جاء في سورة النور : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور: 45]

وجاء مثله في سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان: 54]

جاء الحديث في سورة النور عن مصير أعمال الكفار يوم القيامة: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور: 39]

وجاء مثله في سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: 23]

إلى غير ذلك من الموضوعات المتشابهة والمترابطة في السورتين، فالمذكور منها هنا على سبيل المثال فقط، وهو من الواضح البين.

فهذه المناسبة بين موضوعات السورتين، تبين لنا أهمية النظر الكلي لتدبر آيات القرآن وسوره، واستخراج هداياتها الجزئية والكلية، وأن سور القرآن الكريم في مجال الهدايات الكلية، هي حلقات متماسكة مترابطة.

ثانياً: المناسبة بين خاتمة سورة النور، وفاتحة سورة الفرقان:

لما ختم الله سبحانه تلك بسعة الملك، وشمول العلم، وتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم، والتهديد لمن تجاوز الحد، افتتح هذه بمثل ذلك على وجه –مع كونه أضخم منه– هو برهان عليه فقال: ﴿ تَبَارَكَ ﴾([1])

قال الله تعالى في آخر سورة النور: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النور: 64]

وقال في أول سورة الفرقان: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان: 1،3]

فذكر في آية (**النور**) أن له ما في السماوات والأرض. وذكر في آيَتَيْ (**الفرقان**) أن له ملكهما وملك ما فيهما، فقد يملك الفرد شيئاً ولا يملك ما فيه. فقد يملك داراً ويؤجرها فتكون له الدار، وما للمستأجر. أما الله سبحانه فله ملكهما وملك ما فيهما وقد كملت إحدى الآيتين الأخرى.

وقال في أواخر سورة النور: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: 63] وهذا تحذير وإنذار.

وقال في أول سورة الفرقان: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ فكلتا الآيتين إنذار، فقوله: ﴿ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ هو مناسب لقوله: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ ﴾ فكلاهما إنذار يحمل من الهدايات الربانية، ما لو صادف قلباً يقظاً أو ألقى صاحبه السمع وهو شهيد، لاقْشعر جلده، ولخشعت جوارحه، ولان قلبه.

ختم سبحانه سورة النور بذكر حقوق الرسول عليه الصلاة والسلام ووجوب طاعته، وأثبت في فاتحة سورة الفرقان رسالته صلى الله عليه وسلم بالدلائل الواضحة، وإزاحة الشبهات المثارة.

قال في آخر سورة النور: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٤﴾ ﴾

وقال في أول سورة الفرقان: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾ فالذي خلق كل شيء وقدره تقديراً هو بكل شيء عليم.

---

1 ينظر نظم الدرر، 13/ 329، والتناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، 120، فضل صالح السامرائي.

ثالثاً: المناسبة بين فاتحة سورة الفرقان وخاتمتها:

افتتحت السورة بالحديث عن تسبيح الله تعالى وبعض صفاته، وقدرته وتدبيره لأمر الملك والملكوت، ونفي الشريك عنه، مع إبطال الآلهة الْمُزيّفة التي اتخذها الكفار معبودات من دون الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾ [الفرقان: 1- 3]

وجاء في خاتمة السورة الحديث عن توحيد الله تعالى بعبادته ودعائه وحده، والثناء على عابديه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۝٦٨ ﴾ [الفرقان: 68]

وهناك وجه آخر للمناسبة بين فاتحة سورة الفرقان، وخاتمتها، وهو أدق وأبلغ، وأجمع لمقصود افتتاح السورة بذكر نزول القرآن، وما كان من شأن الكفار تجاهه.

قال العلامة محمد أبو موسى: (وقد عكفت زمناً على سورة الفرقان أستجلي مسيرة المعنى، ورحلته بين شاطئي السورة اللذين يلتقيان، وينعقدان، وتصير بهما السورة كأنها دائرة مغلقة، بدأت بنزول الفرقان على عبده: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وانتهت ب﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ۝٧٧ ﴾ وبذلك التقت حلقتا الْبِطَان كما يقولون، والْبِطَان الحزام الذي يُجعل تحت بطن البعير، وحلقتاه طرفاه، ويضرب به مثلاً للشد..)(1)

رابعاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لا أجد أبلغ في وصف هذه المناسبة، في علاقة اسم السورة بمحورها، مما ذكره العلامة فريد الأنصاري رحمه اللهن في حديثه عن دلالة تسمية سورة الفرقان بهذا الاسم، فقد قال رحمه الله تعالى: (وفي تسمية السورة بهذا الاسم الجامع دلالة وأي دلالة؛ ولذلك كانت متفردة – من بين سور الكتاب – في شمولها لرسالة القرآن! وفي تعريفها بطبيعة القرآن، وعرضها لقضية القرآن، بما جعلها في طليعة السور التي لا بد للمؤمن الرباني أن يتلقى رسالاتها كلمةً كلمةً. وأن يدخل في ابتلاءاتها مترلة مترلة، ولذلك فقد كانت من الشطر المكي الأول من القرآن العظيم، ثم صارت من المحفوظ المتداول لدى كبار الصحابة رضوان الله عليهم –كما مر معنا في قصة عمر بن الخطاب

1 من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، 43

وهشام بن حكيم رضي الله عنهما- وذلك حتى تعلم الجماعة المؤمنة الأولى طبيعة هذا الدين الذي آمنت به، وحتى يعلم الناس المخاطبون بالقرآن طبيعة هذا الوحي الذي يدعوهم للإيمان.)([1])

خامساً: المناسبة بين خاتمة سورة الفرقان وفاتحة سورة الشعراء:

إن مما يستخرج من أوجه المناسبة بين أواخر سورة الفرقان، وفاتحة الشعراء ما يأتي:

ختم الله تعالى سورة الفرقان بقوله: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان: 77]

وافتتح سورة الشعراء بما يناسب ذلك فقال: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الشعراء: 1- 6]

ذكر تعالى عباد الرحمن في أواخر الفرقان: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴿٦٣﴾... خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾[الفرقان: 76]

وذكر المكذبين في أوائل الشعراء فكانت استكمالا للمكلفين من العباد.

ذكر سبحانه اسم (الرحمن) في الموضعين، فقد ذكر عباد الرحمن في الفرقان. وقال في الشعراء: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ ﴾ فالرحمن يريد أن يرحم عباده وذلك بإنزال الذكر عليهم.

توعد جل وعلا المكذبين بالعذاب في آخر الفرقان وذلك قوله سبحانه: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

وكذلك في الشعراء فقد قال: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾

ذكر سبحانه المكذبين في الموضعين: فقد قال في سورة الفرقان: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ وقال في الشعراء: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ ([2])

ذكر سبحانه في خاتمة سورة الفرقان الوعيد على التكذيب، وذكر في سورة الشعراء تفصيل جزاء المكذبين السابقين.([3])

---

1 مجالس القرآن،1/ 158، (بتصرف)

2 ينظر التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم. 122، فاضل صالح السامرائي (بتصرف)

3 ينظر سبق الغايات في نسق الآيات، 305. العلامة أشرف علي التهانوي.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن الزبير([1]) وجهاً دقيقاً ولطيفاً من أوجه المناسبة بين خاتمة سورة الفرقان، وفاتحة سورة الشعراء، -يُضاف إلى ما ذُكر- فقال رحمه الله تعالى: (لما عرفت سورة الفرقان بشنيع مرتكب الكفرة المعاندين، وختمت بما ذكر من الوعيد، كان ذلك مظنة لإشفاقه عليه الصلاة والسلام وتأسفه على فوات إيمانهم، لما جبل عليه من الرحمة والإشفاق، فافتتحت السورة الأخرى بتسليته عليه الصلاة والسلام، وأنه سبحانه لو شاء لأنزل عليهم آية تبهرهم وتذل جبابرتهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾ [الشعراء: 3،4]([2])

سادساً: المناسبة بين خاتمة سورة الفرقان وخاتمة سورة الشعراء:

وأما مناسبة خاتمة سورة الفرقان لخاتمة سورة الشعراء، فإن خاتمة كلتا السورتين متشابهة، ذلك أن سورة الفرقان ختمت بوعيد المكذبين، ووصف المؤمنين بأنهم يقولون: سَلاماً للجاهلين، وأنهم إذا مروا باللغو مروا مرور الكرام، وختمت الشعراء بتهديد الظالمين المكذبين، والرضا عن الشعراء المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويذكرون الله كثيراً، وينتصرون ممن ظلمهم.([3])

---

1 هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر: محدث مؤرخ، من أبناء العرب الداخلين إلى الأندلس. انتهت إليه الرياسة بها في العربية ورواية الحديث والتفسير والأصول. ولد في جيان سنة 627 للهجرة، ثم غادرها إلى غرناطة فطاب بها عيشه وأكمل ما شرع فيه من مصنفاته إلى أن توفي بها رحمه الله سنة 708 للهجرة. ومن أشهر مصنفاته: ملاك التأويل في المتشابه اللفظ في التنزيل، والبرهان في ترتيب سور القرآن. (ينظر الأعلام للزركلي، 1 / 86)

2 البرهان فى تناسب سور القرآن، 1 / 262

3 ينظر التفسير المنير، 118،119/19

المبحث الثاني

خصائص هدايات آيات السورة ([1])

تمهيد:

سورة الفرقان من السور المكية -كما مر- ومن ثم فشأنها شأن كل السور المكية، في الاهتمام بالجانب العقدي الإيماني، في عرض آياتها، وما تهدي إليه من هدايات، والذي يتلخص في ثلاثة محاور:

1. **محور الإيمان بالله وتوحيده وتعظيمه من خلال عرض صفاته وآياته في خلقه.**
2. **محور الدعوة إلى الإيمان بالوحي والرسالة المحمدية.**
3. **محور الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وعرض للأعمال وحساب وجزاء.**

هذا وإن من أعظم خصائص هدايات سورة الفرقان -عموماً- هو ما اجتمع فيها من الحديث عن الله تعالى، وأسمائه وصفاته العظيمة، والحديث عن رسوله صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته، وما أثبته الله له من أوصاف بشرية، وخصال نبوية خاصة، والحديث كذلك عن كتابه (القرآن) وما له من خصائص، ووظائف، ومقاصد. ثم ما ختمها به سبحانه من ذكر لصفات عباده المخلصين، الموقنين بذلك كله، المتحققين به على وجهه، المستحقين بذلك للانتساب الرحماني، والتشريف الرباني، الموجب للفوز والرضوان.

وتفصيل هذه الخصائص الهداياتية في سورة الفرقان يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

أولا: تعتبر سورة الفرقان -عموماً- بمثابة إيناس للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتسرية وتطمين له وتقوية، وهو يواجه مشركي قريش، وعنادهم له، وتطاولهم عليه، وتعنتهم معه، وجدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدى وصدهم عنه.

فهي في لمحة منها تصور الإيناس اللطيف الذي يحيط به الله عبده ورسوله، وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحاً رفيقاً ويهدهد قلبه، ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة، وينسم عليه من أنسام الرعاية واللطف والمودة،([2]) وهذه العناية الربانية -كما تصورها هذه السورة عملياً- هي لكل من اتبعه صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى ربه وسبيل هدايته، فالكريم لا يتخلى عن أهله.

---

1 مر معنا في القسم الأول من هذا البحث الحديث عن: تعريف الخصائص، وذكر الفرق بين الخصائص العامة للقرآن الكريم، والخصائص الخاصة بكل سورة منه مع ذكر الأمثلة، وذلك ضمن مبحث (خصائص هدايات آيات السورة-سورة النور)

2 ينظر في ظلال القرآن، 5/ 2544

ثانياً: افتتاحها: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ فهذا الافتتاح له دلالة خاصة فيما عرضته السورة من تعريف للقرآن؛ من حيث مصدره، وطبيعته، وخصائصه، ووظائفه، وغاياته. كما مر في هداياتها الخاصة.

ثالثاً: ذكرها لصفتيْن من صفات الرسل عليهم السلام البشرية، والتي يشتركون فيهما مع عامة البشر ولا يتميزون عنهم فيهما، وهما: أكل الطعام، والمشي في الأسواق، وهاتان الصفتان لا يتناقضان مع الصفات الأخرى التي اختُصّوا بها، واختيروا من أجلها للتبليغ عن الله تعالى.

رابعاً: ذكرها لمقاصد تَنزل القرآن نجوماً، نجماً، نجماً، مفرقاً حسب الحوادث والوقائع، سورة سورة، وآية آية، وترتيله ترتيلا مبنىً ومعنىً، بما جعله الله فيه من نظام جميل جليل، ونظْم عالٍ رفيع، بسبك عباراته، ورتْلٍ مقاصده ومعانيه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان: 32]

خامساً: ذكرها لشكوى الرسول صلى الله عليه وسلم لربه من قومه الذين تركوا القرآن، وأعرضوا عنه، وهجروه قال تعالى -على سبيل الحكاية-: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾[الفرقان: 30]

سادساً: ذكرها وبيانها لمجموعة من الآيات الكونية الدالة على توحيد الله وعظمته وقدرته ودعوة العباد إلى النظر فيها: من مثل:

مَدّ الظل: ولو شاء سبحانه لجعله ساكناً، ولكنه جعله يمتد ويتقلص إلى أمام وخلف حسب حركة الشمس، ومنه ظل الإنسان وهو يتحرك تحت الشمس.

حركة الليل والنهار: وانتظام هذه الحركة ذهاباً ومجيئاً، يخلف الليل النهار، والنهار الليل، وما في ذلك من تذكير لذوي الألباب الذين يدركون أنهم محمولون على هذيْن الجناحيْن من الزمن إلى مصيرهم: جناح الليل وجناح النهار، إذ تعريف الإنسان من حيث الوجود إنما زمن بليله ونهاره، فما الإنسان إلا مجموع الليل والنهار.

حركة الرياح: وما تحمله من سُحب ثقال بالماء، وتوزيعها شرقاً، وغرباً، وشمالا، وجنوباً، لإنزال المطر، وما ينتج عن ذلك من إحياء الأرض وإنبات للنبات ...

خلْق الإنسان من الماء: وجعْله نسباً وصهراً، وكان ربك قديراً في تحويل الماء إلى بشر ذي خصائص خلْقية وخُلُقية.

ما جعلَه الله في السماء من بروج، وسراج، وقمر منير، وما في ذلك من آيات وفوائد للبشر.

خلق العالمَيْن العلوي والسفلي وما بينهما في ستة أيام، وما لذكر هذه المدة الزمنية من حكم وأسرار، وآيات وهدايات.

سابعاً: ذكرها ل:(**عباد الرحمن**) وتفصيلها لصفاتهم، وذكر خصائصهم وأوصافهم الإيمانية والتعبدية والخلقية، والتي اكتسبوها من تربية القرآن وهداياته، خلقاً، وعبادة، ودعوة، وقدوة، وما في ذلك من دلائل عملية لتأثير القرآن الكريم في النفوس.

ثامناً: تفردها ببعض المفردات والجمل والمصطلحات، الدالة على خصائص الهدايات فيها، من مثل:

(**فقدره تقديراً**) (**أعانه**) (**اكتتبها**) (**تُمْلى**) (**يمشي في الأسواق**) (**يمشون في الأسواق**) (**حِجْراً مَحْجوراً**) –**وردت مرتين في السورة**– (**أحسن مَقيلاً**) (**يَعَضّ الظالم على يديه**) (**ياوَيْلتى**) – **ذكرت مرتين**– (**فلاناً**) (**خَذُولاً**) (**مهجوراً**) (**جُمْلة واحدة**) (**ورَتَّلْناه**) (**تفسيراً**) (**دليلاً**) (**قبضناه إلينا قبضاً**) (**وأَنَاسِيَ**) (**وجاهدهم به**) (**صِهْراً**) (**خِلْفة**) (**غَراماً**) (**يُقْتِرُوا**) (**قَوَاماً**) (**مُهاناً**) (**يَعْبَؤُا**) إلى غير ذلك من المصطلحات والألفاظ، فهذه من باب التمثيل لا الحصر.

فهذه أهم المفردات والمصطلحات التي انفردت بها سورة الفرقان، ومن تدبرها في سياقها يجد فيها من الهدايات، والمعاني والأسرار، ما يدل على خصائص هداياتها في السورة، كما مر في مبحث (**الهدايات الخاصة بآيات السورة**)

المبحث الثالث

أساليب السورة في عرض هداياتها (من الآية :1 إلى الآية : 20) (1)

لقد تعددت أساليب القرآن الكريم، وتنوعت في عرض معانيه وهداياته، بتعدد أغراضه، وتنوع مقاصده وأهدافه، واختلاف مخاطبيه ومتلقيه وسامعيه. فمن أسلوب الاستفهام بمعانيه، إلى أسلوب التوكيد بأنواعه، إلى أسلوب التكرار بأقسامه، إلى أسلوب التقديم والتأخير بصُوَرِه، إلى أسلوب الالتفات بأضربه.. وهكذا، إلى أساليب: الطباق، والمقابلة، والحوار، والأمثال، والأخبار، والقصص، والتحدي والتعجيز، والترغيب والترهيب، إلى غير ذلك مما يزخر به البيان القرآني في عرض أحكامه ومعانيه وأسراره وهداياته.

وسأعرض إلى نماذج وأمثلة من هذه الأساليب، مما ورد في سورة الفرقان في عرض هداياتها، من بداية السورة إلى الآية: 20. تمثيلا لا حصراً، على جهة الإجمال لا التفصيل.

الأساليب اللغوية والبلاغية الواردة في هذه الآيات:

لقد تضمنت سورة الفرقان في عرض هداياتها أساليب متعددة، كل أسلوب له من المعاني والدلالات الشيء الكثير، ومن هذه الأساليب:

براعة الاستهلال:

ويتجلى هذا الأسلوب في افتتاح السورة: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ فهذا افتتاح بديع لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب، لأن غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء مجردة، أو مقترنة بحرف غير منفصل، مثل قول طرفة:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ...

أو بأفعال المضارعة ونحوها كقول امرئ القيس:

قِفَا نَبْكِ... الْبَيْتَ

1 مر معنا في القسم الأول من هذا البحث الحديث عن: تعريف الأساليب عموماً، وأساليب القرآن خصوصاً، وذلك ضمن مبحث (أساليب السورة في عرض هداياتها – سورة النور–) مع إعطاء تعريف موجز لكل أسلوب بلاغي استخدمته السورة في عرض هداياتها.

أو بحروف التأكيد أو الاستفهام أو التنبيه مثل: (إن) و (قد) والهمزة و (هل). ومن قبيل هذا الافتتاح قول الحارث بن حِلِّزَة([1]):

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ...

وَقَوْلُ النَّابِغَةِ:

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِالْجَمُومَيْنِ سَاهِرًا ... وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرَا

وبهذه الندرة يكون في طالع هذه السورة براعة المطلع، لأن الندرة من العزة، والعزة من محاسن الألفاظ وضدها الابتذال.([2])

والفائدة البلاغية لهذا الافتتاح، لفت أنظار السامعين لما سيذكر بعده، لأن ما سيذكر بعده له شأن وأي شأن، ذلك هو الفرقان، وأي فرقان..؟ إنه الفرقان الرباني الذي بالنذارة الرحمانية المتضمنة في هذه الافتتاحية: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وتعاظم وتعالى وتقدس، وكثرت بركته التي أعظمها على الإطلاق نزول الفرقان النوراني: ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾

الإضافة التخصيصية التشريفية:

في قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ۝١ ﴾ أي على عبده الأخلص، ونبيه الأخص، وحبيبه الأدنى، وصفيه الأولى.([3]) فأضافه سبحانه إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف، ولم يذكره صلى الله عليه وسلم باسمه بل ذكره بمقامه عنده، ومنزلته (**العبْدية**) تشريفاً له وتكريماً، وهي تدل على شرف العبودية ومنزلة صاحبها عند الله تعالى.

---

1 هو الحارث بن حِلِّزَة بن مكروه بن يزيد بن عبد الله بن مالك بن عبد بن سعد بن جشم بن ذبيان بن كنانة بن يشكر بن بكر بن وائل. شاعر جاهلي مشهور وصاحب إحدى المعلقات في الجاهلية هو يقابل عمرو بن كلثوم الشاعر الآخر ينتميان إلى وائل. والحلزة لقب والده وشهر به وهو في أحد معنيين إما البخيل، أو دويبة معروفة وقيل: إنه ضرب من النبات وبه سمي الحارث بن حلزة. (ينظر شرح المعلقات التسع، 352)

2 التحير والتنوير، 315/18، 314

3 تفسير التستري، 1/ 113، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري (المتوفى: 283هـ) جمعه أبو بكر محمد البلدي، بتحقيق محمد باسل عيون السود

الاكتفاء بذكر أحد الوصفين لدلالة أحدهما على الآخر:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ أي ليكون بشيراً ونذيراً، إذ لا تذكر النذارة في القرآن إلا مقرونة بالبشارة، وهذا من الأساليب القرآنية، لكن القرآن هنا اكتفى بذكر الإِنذار فقط لمناسبته للكفار.

أسلوب المطابقة

والمطابقة أن تجمع بين متنافيَيْن، أو متضادَيْن، ويسمى ب(**الطباق، والتضاد، والتكافؤ**)([1]) وهي تكون بين فعلين، كما تكون بين اسمَيْن، كما في قوله تعالى هنا : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾ فبَيْنَ: (**ضراً .. و.. نفعاً**) و(**موتاً.. وحياة.. و..نشوراً**) مطابقة، أو تضاد، وهذا الأسلوب البلاغي له تأثير عجيب في الإقناع والإفحام، أي لا يملكون لأنفسهم لا هذا ولا ضده، فهما متكافئتان في العجز، فهذا الأسلوب في الجمع بين المتناقضَيْن يزيد المعنى تأكيداً ووضوحاً وإفحاماً للخصم.

أسلوب الاستفهام التهكمي:

في قوله تعالى: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ۝٧ ﴾ [الفرقان: 7] أسلوب تهكمي، لأنهم لا يؤمنون بأنه رسول أصلا، وهو أسلوب يستعمله أهل الباطل تجاه كل داعية للخير لمزاً واستهزاء، لا حقيقة واعترافاً. كأنهم يقولون: ما لهذا الزاعم أنه رسول، إنْ صح أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا ﴿ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ ولا يتميز عنا بشيء.

اللَّفُّ والنشر:

في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان: 4] لف ونشر مرتب، واللف والنشر فن بلاغي يتضمن ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من المتعدد، من غير تعيين متعلق بواحد وآخر بآخر، اعتماداً على العقل، وثقة بأن السامع يميز ما لكل واحد منها ويرده إلى ما هو له، فقوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ فيه جعل الكلام المعجز إفكاً مختلقاً متلقفاً من اليهود أو غيرهم من أهل الكتاب، وزوراً بنسبة ما هو بريء منه إليه.([2])

---

1 ينظر الفوائد الغياثية للكرماني،1/ 798، تحقيق: علي بن دخيل الله العوفي.

2 ينظر الفوائد الغياثية 1/ 798.وإعراب القرآن وبيانه، 6 / 667، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : 1403هـ)

كنايتان بديعتان:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ [الفرقان: 7] كناية عن الحدث لأنه ملازم أكل الطعام.

والثانية: في قوله: ﴿ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ۝٧ ﴾ فيمشي في الأسواق كناية عن طلب المعاش. وانظر بعد هاتين الكنايتين البديعتين إلى حكاية خطراتهم الملتاثة، وهواجسهم المحمومة، كيف اقترحوا أولا بأن يكون مَلَكاً، إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك، حتى يتساندا في الإنذار والتخويف، ثم نزلوا أيضا فقالوا: وإن لم يكن مرفوداً بملك، فليكن مرفوداً بكنز يلقى إليه من السماء، يستظهر به، ولا يحتاج الى تحصيل المعاش، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه، ويرتزق كما يرتزق المياسير، فانظر كيف صور خطرات النفس الملتاثة، وحالات ترددها.([1])

وضع الظاهر موضع المضمر:

في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٨ ﴾[الفرقان: 8] وضع الظاهر موضع الضمير، فقد أراد بالظالمين إياهم بأعيانهم فهم القائلون الأولون، وإنما وضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بوصف الظلم وتجاوز الحد.([2])

أسلوب الالتفات:

وهو أسلوب بلاغي مشهور، ومعناه انتقال الكلام من أسلوب إلى آخر، في سياق واحد، وأحياناً في جملة واحدة، ويكون بنقل الكلام من أحد طرق التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة، إلى طريق آخر منها.. وله تأثير عجيب على السامع.

وقد قال الإمام الزركشي عنه: (وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر؛ تطرية واستدراراً للسامع، وتجديداً لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر؛ بدوام الأسلوب الواحد على سمعه كما قيل:

لا يصلح النفس إن كانت مصرفة = إلا التنقل من حال إلى حال)([3])

---

1 إعراب القرآن وبيانه، 6/ 672

2 إعراب القرآن وبيانه 6 / 672.

3 البرهان في علوم القرآن، 3/ 314

وقد تميز به القرآن الكريم وكثر استعماله فيه، بحسب أغراض الخطاب، ودلالات البيان.

ومن أمثلته هنا قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الفرقان: 9] وهو التفات من الغيبة بذكر أقوالهم الباطلة، واعتراضاتهم الفاسدة، الناشئة عن ضلالهم، إلى مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم تسلية له. وفي هذا الأسلوب زيادة في التشنيع عليهم، وتوبيخهم، ومبالغة في ذمهم وذم أقوالهم الشنيعة. وفيه كذلك زيادة تثبيت للرسول صلى الله عليه وسلم مع ما فيه من تسليته وتطمينه عليه الصلاة والسلام.

ومن أمثلة أسلوب الالتفات أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان: 13-15] وهو التفات من ضمير الغيبة، إلى الخطاب، وفي هذا الالتفات زيادة في التوبيخ لهم، وزيادة في حسرتهم على ما ضيعوه وفَوّتوه على أنفسهم من النجاة والفلاح الذي أُعْطِيه المتقون جزاء ومصيرا.

ومن أمثلة أسلوب الالتفات كذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفرقان: 19-20] فيها الْتفات رائع، وتلوين خطابي جميل، بصرف الخطاب عن المعبودين عند تمام جوابهم، وتوجيهه إلى العَبَدة، بالاحتجاج والإلزام، مبالغةٌ في تقريعهم وتبكيتهم، على حذف القول، والمعنى: فقد كذب المعبودون العابدين وانكشف الحال، وانتهت الحكاية وظهر أمركم. وفي ذلك ما فيه من الخزي والخذلان لهؤلاء، نسأل الله السلامة والعافية.

الاستعارة:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الفرقان: 12] وهو في صفة نار جهنّم، نعوذ بالله منها، ولا تصحّ صفة الرّؤية عليها. وإنما المراد، والله أعلم، إذا كانت منهم بمقدار مسافة لو كان بها من يوصف بالرؤية لرءاهم. وهذا من لطائف التأويل، وغرائب التفسير.

وقد يجوز أيضاً أن يكون معنى ذلك: إذا قربت منهم، وظهرت لهم. من قولهم: دور بني فلان تتراءى. أي تتقارب. وفي الحديث: ((لاَ تَتَرَاءَى نَاراهُمَا)) ([1]) أي لا تتدانى.

والاستعارة الثانية: في قوله سبحانه: ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ وهي استعارة تمثيلية، شبَّه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره، وهو صوت يسمع من جوفه، وهو تمثيل وصف النار بالاهتياج والاضطرام.

وإنما المراد بهاتين الصفتين؛ المبالغة في وصف النار بالاهتياج والاضطرام، على عادة المغيظ والغضبان. ([2])

أسلوب الترغيب والترهيب:

والترغيب: تحبيب الإنسان وتشويقه إلى الاستجابة للحق وقبوله، والاستقامة عليه، بذكر أنواع من الجزاء وحسن المثوبة عليه في الدنيا والآخرة.

أما الترهيب: فهو تخويف الإنسان وتهديده بأنواع من العقاب العظيم والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، جزاء لإعراضه عن الحق ورفضه وعدم قبوله، أو مخالفته بالانحراف عنه وانتهاك حرماته.

(والترغيب والترهيب في القرآن الكريم؛ أسلوبان دالان على صفات الكمال لله تعالى، كقدرته، وقوته، وملكه، وعلمه، وتدبيره؛ فلا يرغب ولا يرهب إلا من اتصف بذلك، وهو محقق للهداية مع أكثر الناس الذين لا يتبعون الحق إلا بترغيب بنتائج إيمانهم، أو ترهيب من عواقب كفرهمن كما أنه يزيد المؤمنين إيماناً، وإصلاحاً لأعمالهم، فيحملهم على زيادة حسناتهم، وتقليل سيئاتهم.

وأسلوب الترغيب والترهيب من أكثر الأساليب وروداً في القرآن الكريم، وهو يمتزج مع غيره من الأساليب)([1])

---

1 الحديث بأكمله في (سنن أبي داود) باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود، برقم: 2645 ونصه: عن جرير بن عبد الله. قال: (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود، فأسرع فيهم القتل قال: فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فأمر لهم بنصف العقل، وقال: ((أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا يارسول الله لم؟ قال: لا تتراءى ناراهما)) وفي سنن النسائي 2/ 245، جاء هذا الحديث في باب القود بغير حديدة كتاب القسامة. وصححه الألباني في (صحيح أبي داود 261/1) وجاء هذا الحديث في (لسان العرب) وفسره صاحب اللسان ثم قال: وقال أبو عبيد: معنى الحديث أن المسلم لا يحل له أن يسكن بلاد المشركين، فيكون معهم بقدر ما يرى كل واحد منهم نار صاحبه.

2 ينظر الموسوعة القرآنية خصائص السور، 170/6-169، (جعفر شرف الدين، تحقيق عبد العزيز بن عثمان التويجزي)

ومن أمثلة أسلوب الترغيب في آيات سورة الفرقان مما نحن بصدده:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان: 15،16] تذييلاً لما سبق، لتذكير النعمة بما خولهم الله تعالى وطيب عيشهم في ذلك المكان الرافع على وجه يتضمن ضد ذلك لأضدادهم، فكأنه قيل: كانت لهم جزاء موفوراً، لا يدخل تحت الوصف، ومصيراً، أي مصيراً لا يقادر قدره، وليس كمصير الكفرة المشار إليه قبل هذا بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا ﴾ ويعلم منه فائدة ذكر المصير مع ذكر الجزاء فتأمل.([2]) وفي قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ على أن في الجنة من أنواع النعيم وكثرته، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]))([3])

ففي هذا الأسلوب من الترغيب والتشويق فيما عند الله من أنواع النعيم ما لا ينتهي تعقلا، ولا يخطر على البال تخيّلا.

أما أسلوب الترهيب

فمن أمثلته في هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾[الفرقان: 11-13] ففي وصف نار جهنم بالسعير تصوير لمشهدها الملتهب الرهيب، فالسعير في العربية (فعيل) بمعنى (مفعول) أي أنها مُسعَّرة. والسَّعَار: الاشتعال الشديد والالتهاب العظيم، وهو وصف لهَيَجان النار واشتداد حرها. وهو أسوأ ما يتصور في جهنم من دركات العذاب الشديد اشتعالاً والتهاباً وهيجاناً([4])... وكفى بهذا التصوير تخويفاً وترهيباً لمن عقل وتدبر. وهو تصوير فظيع لحال جهنم وهي تنتظر الكفار وتترقّب وصولهم إليها، وكأنها أعناق وأفواه لاهبة تشرئب إليهم، وعيون مغتاظة غاضبة تنتظر وتترقب، إذ يشتد صوت غليانها وزفيرها، من شدة تغيظها، فكيف بمن دخلها وأُلقي فيها إلقاء مسلسلا مقرونة يداه إلى عنقه؟! نسأل الله السلامة والعافية.

---

1 ينظر الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 1/ 356، 357

2 ينظر مفاتيح الغيب، 24/ 440

3 البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وانها مخلوقة، رقم: 3244.

4 ينظر التحرير والتنوير، 18 / 332، ومجالس القرآن، 1/ 177.

ففي هذا الترهيب المفصل والمصور ما فيه من إنذار وتخويف للعصاة والكفرة والفجرة. وكفى به أسلوباً للاهتداء والاستجابة.

أسلوب التوكيد:

وهو من الأساليب البلاغية التي استخدمها القرآن الكريم في عرض حقائقه وقضاياه، وغرضه تقرير المعنى الحاصل قبله وتقويته، بأدوات التوكيد اللفظية والمعنوية.

وينقسم التوكيد إلى قسمين: قسم يكون بنفسه ويسمى التوكيد اللفظي، أي يكون بتكرار اللفظ. وأمثلته في القرآن كثيرة معروفة، من مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: 5،6] وقسم يكون بغيره، ويكون بألفاظه المعروفة، ككل، وجميع، وإنّ، والنون واللام وغيرها، كما يكون بأسلوب الحصر، وأسلوب القسم.

(والتوكيد حاصل بكل تعبير يكسب المعنى قوة، وثباتاً في النفس، ويكون ذلك بالمفردات والجمل، وبالألفاظ والمعاني)([1])

ومن أمثلة أسلوب التوكيد فيما نحن بصدده قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 20] فقد اشتملت هذه الآية على مجموعة من أدوات التوكيد وأساليبه مثل: أسلوب الحصر في النفي (وما) مع إبطاله (إلاّ) حرف (إنَّ) في (إنهم) لام القسم في (ليأكلون) ففي هذه التوكيدات الربانية ما يقرر هذه الحقيقة -حقيقة كون الرسل عيهم الصلاة والسلام يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق- ويكسبها قوة وثباتاً في النفس، ويبطل ويدحض كل الشبهات المثارة حولها.

1 ينظر الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 1/ 304

الفصـــل الـثـالث

واقع الأمة في ضوء هدايات السورة، وأثر ذلك عليها

المبحث الأول: واقع الأمة من هدايات آيات السورة

المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة

المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة

المبحث الأول

واقع الأمة من هدايات آيات السورة (1)

لا شك أن هناك علاقة بين القرآن؛ الخطاب الإلهي، والإنسان المخاطَب به: فرداً، وجماعة، وأمة، إذ الإنسان هو موضوع هذا القرآن، فإذا كان القرآن إلهي المصدر، فهو إنساني الموضوع، أي فما نزل القرآن إلا لهذا الإنسان، الإنسان بما هو كيان عقلي، وروحي، وجسدي: ﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠ ﴾ [الأنبياء: 10] هكذا: ﴿ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي لك أيها الإنسان، ﴿ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ ﴾ أي شرفكم وعزكم وفلاحكم، إن اتبعتم هداياته، وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلقيه لهذا القرآن، إلا واسطة لهذا النزول علينا باعتباره رسولا موحى إليه بهذا القرآن.

وإن هذا الشرف الرباني، وهذه العزة القرآنية، وهذا الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة..، إنما هو في الاهتداء بهدايات القرآن في واقع الأمة، وفي حياتها كلها، الاهتداء للتي هي أقوم في كل شيء، فتلك هي وظيفته ووظيفة من يتلقاه وحياً وروحاً ونوراً: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ٩ ﴾ [الإسراء: 9]

وإن واقع الأمة اليوم من هدايات القرآن الكريم، يدعو إلى وقفة تأمل ومراجعة، فيما يخص علاقتها بالقرآن الكريم وهداياته، فتلك أول خطوة للعودة إلى القرآن مرة أخرى، بعْثاً لروحه ونوره في النفوس، وتجديداً لهداياته في القلوب، لتعود الأمة إلى سابق عهدها، وسالف مجدها؛ حين تلقت روح هذا الكتاب وهداياته: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣ ﴾ [الشورى 52]

هذا، ويمكن وصف أهمّ ما يتعلق بواقع الأمة -أفراداً وجماعات- من خلال أهمّ الهدايات الكلية لسورة الفرقان([2]) وفي ضوئها، وذلك من خلال الجوانب الآتية:

---

1 مر معنا في القسم الأول من هذا البحث الحديث عن: أهمية العمل بالقرآن وهدي الصحابة والسلف الصالح في ذلك، مع ذكر أمثلة وشواهد على ذلك من خلال تعاملهم مع القرآن الكريم، وذلك في تمهيد خاص ضمن مبحث: (واقع الأمة من هدايات السورة - سورة النور-)

2 من بداية السورة إلى الآية: 20.

أولا: إذا كان القرآن الكريم هو أصل الهداية الأول، ومصدر السعادة الأساس في الدنيا والآخرة، لمن اتبع هداه، فما واقع الأمة من هذه الحقيقة؟

إن هذه الحقيقة هي من أعظم الحقائق القرآنية، فما نزل القرآن فرقاناً ونذيراً، إلا ليحقق هذه الغاية في حياة البشرية: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:1] لإخراجها من الظلمات إلى النور، ومن الضنك والشقاء، إلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

والناظر في واقع الأمة اليوم يرى من أنواع الوهن، والضنك، والشقاء، ما يدل على أن الأمة قد ابتعدت -إلا من رحم الله- عن أصل هدايتها ومصدر سعادتها، وسر حياتها، ونور بصيرتها، الذي هو القرآن الكريم.

ولا تغيير لواقع هذه الأمة، إلا بالعودة إلى الهدايات القرآنية، للاهتداء بها في حياتها كلها، فهي طريق نجاحها، وسبيل سعادتها في الدنيا والآخرة، كما بينت ذلك سورة الفرقان.

وذلك من خلال الخطوات التالية:

تلاوة القرآن الكريم وقراءته:

وذلك بأن ترتبط الأمة -أفراداً وجماعات- بالقرآن ارتباطاً يومياً من خلال تخصيصها للورد اليومي للقرآن الكريم، لا تتنازل عنه مهما كانت الظروف، فتلاوة القرآن الكريم في حد ذاتها مقصد من مقاصد تنزّله، ووظيفة من وظائفه العملية، وقد أمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلن في الناس أن وظيفته -بعد كونه مسلماً لله تعالى- هي: أن يتلو القرآن، فقال تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝٩٢ ﴾ [النمل: 92،91] وذلك لما لكثرة التلاوة من أثر عظيم في ربط المسلم بالله سبحانه الذي هو مصدر الهداية، ذلك أن التلاوة ذكرٌ ومناجاة، وأي مناجاة، إنها مناجاة العبد لله بكلامه، وهذا من أعظم أسباب اسْتِنْزال هداياته، كما جاء في حديث أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ((مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي ومَسْأَلَتِي أَعْطيتُهُ أَفضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلينَ))(1)

1 رواه بهذا اللفظ الإمام الترميذي، وتتمته: وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِه. وقال عنه: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. بَابُ مَا جَاءَ كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم: 2926.

مع ما للتلاوة من بركات وفضائل كثيرة، دلت عليها أحاديث نبوية صحيحة، وقد خصصها العلماء بالتأليف، ولها آداب وأحكام، وشروط كذلك، ليس هذا محل ذكرها.([1])

حفظ القرآن الكريم، أو أجزاء منه حسب الاستطاعة:

ولحفظ القرآن أهميته، ولصاحبه منزلته ومكانته عند الله تعالى، ولقد وردت في ذلك أحاديث وآثار ليس هذا محل ذكرها كذلك، وإنما القصد أن حفظ القرآن الكريم من أعظم وسائل الارتباط به والرجوع إليه، وذلك من خلال مراجعة المحفوظ، وقراءته، والقيام به في الصلاة، والاستشهاد به في الأحكام، والدروس والمواعيظ وغيرها...

فالحافظ مقدم على غير الحافظ في كل شيءٍ، وهو حجة. ومن لم يستطع الحفظ لكبر سنه، أو شغلته عبادات ومسؤوليات أخرى، عليه أن ينال شرف الحفظ بتشجيع الآخرين وخدمتهم وحثهم على الحفظ والإنفاق عليهم واحتضانهم، وبناء معاهد القرآن، ومؤسسات لتحفيظه... ولا ننسى أن شرف هذه الأمة بشرف حفظها للقرآن الكريم، والذي يحقق خصوصيتها وخصوصية هذا الكتاب وإعجازه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: 9]

مدارسة القرآن وفهمه من خلال تدبره:

وهو المقصود من تنزيله، لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩ ﴾ [ص: 29] فتدبر القرآن وفهمه ومعرفة مراد الله تعالى منه هو أول خطوة للعمل به والاهتداء بهداياته، وتطبيق أحكامه وقيمه وآدابه في الحياة، ففيه العقيدة الصحيحة ومقاصدها، وفيه العبادة ومفهومها ومجالاتها، وفيه المعاملات، والأخلاق والأداب، وفيه العلوم والمعارف، والأحكام والقواعد والحِكَم، وكل ما يتعلق بشؤون الدنيا والآخرة، فهو أصل الهدايات كلها، ومصدرها في معرفة طرقها كما قال تعالى: في سورة الفرقان: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣ ﴾ [الفرقان 33] وكل ذلك لا سبيل إليه إلا بفهمه من خلال مدارسته وتدبره. وكما قال عز وجل: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ۝٨٩ ﴾ [النحل: 89]

قال الإمام الشافعي رحمه الله: (ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها)([2])

---

1 ينظر التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، وفضائل القرآن للنسائي، وكتب علوم القرآن وغيرها، وكذا أبواب فضائل القرآن من كتب الحديث.

2 الرسالة، 20

العمل بالقرآن الكريم والاهتداء بهدايات آياته عملياً:

وهذا هو المقصد الأعظم من نزول القرآن الكريم، وهو ثمرة كل الخطوات السابقة، وإن ضاع العمل بهدايات القرآن الكريم، ضاعت كل الجهود وبارت، فالعمل بالهديات القرآنية هو الأساس الذي يدور عليه التعامل مع القرآن الكريم قصد الاهتداء به.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به، وقال ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف، ولكن إقامة حدوده)([1])

وقال أبو عبد الرحمن السلمي([2]): (حدثنا الذين يقرئوننا القرآن أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها العمل، -قالوا- فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً.)([3])

ويلخص لنا الإمام الآجري([4]) مفهوم العمل بالقرآن والاهتداء بهداياته فيقول رحمه الله: (فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حَسُن من فعله وما قبح فيه، فما حذّره مولاه حذره، وما خوّفه به من عقابه خافه، وما رغّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه. فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وحرزاً، ومن كان هذا وصفه نفع نفسه، ونفع أهله، وعاد على والديْه وعلى ولده كل خير في الدنيا والآخرة)([5])

---

1 أخرجه ابن المبارك في الزهد، 274

2 أبو عبد الرحمن السلمي مقرئ الكوفة الإمام العلم عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفي من أولاد الصحابة، ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، قرأ القرآن وجوده ومهر فيه وعرض على عثمان فيما بلغنا وعلي وابن مسعود وحدث عن عمر وعثمان وطائفة، أخذ عنه القرآن عاصم بن أبي النجود ويحيى بن وثاب وعطاء بن السائب وعبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وخلق كثير، قال أبو إسحاق كان أبو عبد الرحمن السلمي يقرئ الناس في المسجد الأعظم أربعين سنة.. توفي في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي. (ينظر سير أعلام النبلاء، 153/5)

3 أخرجه الطبري بسنده، جامع البيان، 1/ 36

4 هو أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري البغدادي، و(الآجُرِّي) بفتح أوله ممدوداً، وضم الجيم، وكسر الراء المشددة، نسبة إلى قرية من قرى بغداد يقال لها (الآجُرّ) كان مولده سنة: 280 هـ) ببغداد، ومات بمكة في المحرم سنة 360 هـ (ينظر السير (135/16) من أشهر مؤلفاته: أخلاق حملة القرآن، وأخلاق العلماء، والأربعين في الحديث، و كتاب الشريعة، وغيرها من الكتب.

5 ينظر أخلاق حملة القرآن، 39، 40

وبهذه الخطوات واتباعها يتبدل واقع الأمة -أفراداً وجماعت- مع القرآن الكريم، فتهتدي بهداياته بإذن الله تعالى، وتنجو الأمة من شكوى الرسول الله عليه وسلم، كما وردت في هذه السورة: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان: 30]

(وهذه الآية الكريمة وقعها على النفس شديد، وأثرها في القلب عظيم، فالشاكي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي يُشكى إليه هو رب العالمين جل جلاله، والشكوى: هجر القرآن)([1]) (وَهَذه شَكْوَى عَظِيمَةٌ، وَفِيهَا أَعْظَمُ تَخْوِيف لِمَنْ هَجَرَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، فَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْآدَابِ وَالْمَكَارِمِ، وَلَمْ يَعْتَقِدْ مَا فِيهِ مِنَ الْعَقَائِدِ، وَيَعْتَبِرْ بِمَا فِيهِ مِنَ الزَّوَاجِرِ وَالْقَصَصِ وَالْأَمْثَالِ)([2])

ثانياً: واقع الأمة من وظيفة القرآن في البشارة والنذارة، والترغيب والترهيب، بما هو فرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والسعادة والشقاوة:

إن هذه الوظيفة بها يتحقق التوازن في حياة العباد وواقعهم -أفراداً وجماعات- توازن على مستوى الفرد؛ روحاً، ونفساً، وعقلاً، وجسداً، بإعطائه كل ذي حق حقه.. وتوازن على مستوى كيان الأمة؛ عقيدة، وعبادة، وأخلاقاً، ومنهج حياة. ومن ثم تحقيق التوازن بين الروحية والمادية، والعقلانية والوجدانية، والمثالية والواقعية، والفردية والجماعية... وهذا هو الطريق الأقوم الذي يدعو إليه القرآن الكريم، وهو ما تجلى فيما عرضته سورة الفرقان من آيات البشارة، والنذارة، والترغيب، والترهيب.

ولا شك أن وقع الأمة؛ أفراداً وجماعات، لا يستقيم إلا بالسير على جناحي الخوف والرجاء، وهذا إنما يتحقق بتحقق وظيفتي البشارة والنذارة، والترغيب والترهيب.

والناظر في واقع الأمة اليوم يرى أنها فقدت هذا التوازن، أو كادت -إلا من رحم الله- فهي إما واقعة في غلو وإفراط، اعتماداً على الإنذار والترهيب؛ أو انحلال وتفريط، اعتماداً على البشارة والترغيب.

ومن هنا يجب على الأمة ودعاتها النظر إلى هذه الوظيفة القرآنية؛ -وظيفة التبشير والإنذار والترغيب والترهيب- بهذا الميزان، فمن غلبت على قلبه القَسْوة، وانغمست نفسه في الشهوات والملذات، عليه أن يتدبر في المواعظ القرآنية، وما فيها من إنذار، وترهيب وتخويف، وذكر لأحوال

---

1 ينظر كتاب: الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية، 1/ 234

2 أضواء البيان، 6/ 48

أهل الشقاء، وما يُذكر لله عز وجل في سياق ذلك من صفات الجلال، والقهر، والعظمة، والجبروت وهكذا..، ومن كان حاله عكس ذلك، عليه أن ينظر إلى التبشير والترغيب في الهدايات القرآنية، حتى يتحقق له التوازن بين جناحي الخوف والرجاء، والترغيب والترهيب.

كما أن على الداعية إلى الله تعالى كذلك، ألا يغفل عن هذا الميزان في دعوته وتربيته؛ ميزان الترغيب والترغيب، متى يستعمل الترغيب، ومتى يستعمل الترهيب، ومتى يستعملهما معاً، كل بقَدَره، وفي مناسبته، وتأخير البيان هنا -البيان الدعوي- عن وقت الحاجة لا يجوز.

وهذا ما احتوت عليه سورة الفرقان في هداياتها الخاصة والعامة، ابتداء من فاتحتها: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ [الفرقان:1] وانتهاء بخواتمها: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ ﴾ [الفرقان: 56] وما تخلل ذلك من ترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، في صور شتى من الدعوة إلى الإيمان، وذكر مآل أهله، والتشنيع على الكفار وذكر عاقبتهم، وعرض أحوال المؤمنين وصفاتهم، والثناء عليهم، وذكر مقامهم عند الله في الجنة .. إلى غير ذلك.

كل هذا من أجل ألا تذهب بالعبد مطالب الحياة عن واهب الحياة سبحانه، وألا يشغله حق الجسد عن حق الروح، وألا تشغله رغائب الدنيا العاجلة، عن حقائق الآخرة الباقية.

فما أحوج الأمة إذن أن تربط واقعها بهدايات هذه السورة؛ هدايات البشارة، وهدايات النذارة، والترغيب والترهيب، لتتحقق بها على المستوى الفردي، والجماعي، تحقيقاً لهذا التوازن.

ثالثاً: واقع الأمة من تحقيق توحيد الله تعالى ونفي الشريك عنه تحقيقاً لأعظم مقصد من مقاصد القرآن الكريم:

إن تحقيق توحيد الله تعالى، ونفي الشريك عنه، عملياً في الواقع، في فعل العبد وأقواله، وأحواله، من أعظم مقاصد القرآن الكريم، وقد كثر الحديث عن هذا المقصد في سورة الفرقان بأساليب متعددة، وصور متنوعة، كالحديث عن أوصاف الربوبية، بما تتضمنه من معاني الفردانية في الملك والتدبير، والتّنزّه عن الولد والشريك والمثيل، وشمولية الخلق والتقدير لكل شيء. وكذلك عَرْض بعض المشاهد الكونية؛ تبياناً لمظاهر الإبداع في خلقه سبحانه وتكوينه، الدالة على وحدانيته وكمال قدرته.

والناظر في واقع الأمة اليوم يرى أن هذا المقصد القرآني قد غُيِّب، أو ضعف، وأصبحت الأمة تقتصر على هذا الجانب نظرياً من خلال الكتابة والتأليف والدروس والخطب.. لكن حظ الواقع من ذلك قليل أو ضعيف -إلا من رحم الله تعالى-.

ومن هنا كانت رسالة التوحيد، وإخلاص الدين لله وحده، ودعوة الناس إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، من أعظم رسائل سورة الفرقان، وأجل هداياتها الفرقانية في هذا السياق. التوحيد من حيث هو مجاهدة النفس على التحقق بمقام الإخلاص لله الواحد القهار، وإفراده تعالى بالعبادة؛ رَغَباً وَرَهَباً، والتحقق من ذلك على مستوى الوجدان، خَطْرَةً خَطَرَةً؛ حتى يصفو قصدك لله، ولله وحده، وتلك هي القضية الأولى للقرآن عبر جميع الأجيال، فلا يضيعن منك ميزان الحق في ترتيب أولويات الدين والدعوة.([1]) وأنت تنظر في آيات سورة الفرقان وواقعك من هداياتها.

وهذا ما أعلنه الرسول صلى الله عليه وسلم في بيانه القرآني الدعوي: فعَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ: ((يَا مُعَاذُ)). (قُلْتُ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: ((يَا مُعَاذُ)). قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: ((يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ)). قُلْتُ :لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: ((هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّه عَلَى عِبَادِه؟)) قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ) :حَقُّ اللَّه عَلَى عِبَادِه أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا به شَيْئًا)). ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: ((يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ. (قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: ((هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟)) قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ((حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ)) ([2])

هذا وإن سورة الفرقان من السور التي تعرضت لذكر هذا الحق الإلهي على عباده، في عرض هدايات آياتها، ابتداء من مفتتحها بإعلان تمجيد الله تعالى، وتعظيمه والثناء عليه، ووصفه بصفات الإلهية والوحدانية. مع بيان أن الطريق العملي للتحقق بذلك؛ إنما هو هذا القرآن، وما فيه من الهدى، والإرشاد إلى اتقاء المهالك، وتحقيق المعالي من خلال منازل التوحيد العملية في مقامات العبودية، كما حققها (عباد الرحمن).

فما أحوج الأمة إذن إلى دراسة هذه السورة لتحقيق هدايات هذا الحق العظيم -حق التوحيد علماً وعملا- في واقع الناس وأقوالهم وأفعالهم.

---

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 163

2 البخاري، كتاب الرقاق، باب من جاهد نفسه في طاعة الله، حديث رقم: 6500 ومسلم كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار، حديث رقم: 152.

رابعاً: واقع الأمة من محاولات أهل الكفر والباطل لمحاربة الحق وأهله بشتى الوسائل:

إن الادعاءات الباطالة والإشاعات المغرضة، هي ديدن أهل الباطل، في كل زمان ومكان، للتشويش على الحق، ومحاولة صرف الناس عنه، بكل ما أُوتوا من وسائل وأساليب.

فما دور الأمة تجاه هذه المحاولات؟ وهل الأمة في واقعها اليوم تقوم بواجبها في هذه المعركة، تحقيقاً لسنة التدافع؟ أم أنها مستسلمة وخاضعة، وتنتظر معجزة الإسلام ليدافع عن نفسه بنفسه؟ وما هي أولوياتها العملية في هذا الطريق؟

لا شك أن واقع الأمة اليوم مع هذه المحاولات المتزايدة من قِبل أهل الباطل تجاه الحق وأهله، يحتاج منها إلى أن تكون على مستوى أعلى مما هي عليه الآن، في مقارعة الباطل ورد شبهاته، بالحجة والبرهان، كما جاءت بذلك هدايات سورة الفرقان.

ولقد كان نزول القرآن الكريم -كما صورتْه فاتحة سورة الفرقان- فاتحة حياة جديدة تطرأ على الكون، وتطوي صفحة مظلمة من حياة البشرية، التي تاهت بين دروب الحياة، وعلى تشابكات من العقائد الفاسدة، والنِّحَل الباطلة، كما صرحت بذلك سورة الفرقان في مفتتحها وموضوعاتها، فجاء هذا القرآن فأظهر انحراف المنحرفين؛ من المشركين وأهل الديانات السابقة؛ يهودية أو مسيحية، وبين حقيقتها كما نزلت، جاء فاعلا لا منفعلا، ومؤثراً لا متأثراً، فصحح العقائد المنحرفة، وصوب المفاهيم والأفكار الخاطئة، ورد على الجاحدين والمشركين وأهل الكتاب وغيرهم، بالحجة والبرهان، من خلال بصائر كلماته وهدايات آياته.([1])

فما أحوج الأمة في واقعها اليوم أن تعود إلى هذا الهدي القرآنين وذلك من خلال عرض هدايات هذه السورة الكريمة -سورة الفرقان- لما اشتملت عليه في هذا الخصوص من أدلة وبراهن، وحجج وآيات، سواء فيما يتعلق بالله عز وجل ووحدانيته وقدرته، أو فيما يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته ودلائل نبوته، أو ما يتعلق بالقرآن الكريم ومصدره، وخصائصه، ووظائفه، ومقاصده، مما مَرّ معنا في هداياتها الخاصة، والعامة. لتستثمر ذلك كله في إصلاح واقعها؛ أفراداً وجماعات، وأسراً ومجتمعات، لتنتقل من هذا الواقع الذي تعيش فيه، إلى موقعها الذي أراده الله لها، فواقعها ليس هو موقعها.

---

1 ينظر كيف نتعامل مع القرآن الكريم، 25، يوسف القرضاوي.

خامساً: واقع الأمة من استشعار حقيقة كون هذا القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المُنَزَّل من عنده، وكفى بها حقيقة عظمى:

إن مما عرضته سورة الفرقان من قضايا إيمانية عامة، وهدايات ربانية كلية؛ إثبات أن هذا الكتاب العظيم هو تنزيل من عليم حكيم خبير: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: 6] وإثبات هذه الحقيقة وتأكيدها -رغم طبيعة القرآن نفسه الذي يشهد بذلك في إعجازه، وإثبات مصدره- إنما لتبقى حاضرة في ذهن المتعامل مع القرآن الكريم، لما لذلك من أثر عظيم في الاستهداء بهداياته.

فما هو واقع الأمة إذن من هذه الحقيقة وهي تتعامل مع القرآن الكريم؟

لا شك أن هناك فرقاً عظيماً على المستوى النفسي، وكذا في الواقع العملي، بين مَن يستحضر هذه الحقيقة في تعامله مع القرآن الكريم، فينظر إليه بوصفه كلام الله تعالى المنزل من عنده لأنه العالم بِسِرِّ السماوات والأرض، وسِرِّ هذا الإنسان وما يصلح له وما لا يصلح؛ وبين من يتعامل مع القرآن الكريم وهو غافل عن هذه الحقيقة، فضلا عن أن يجهلها أو يتجاهلها.

ولذلك يجب على القارئ المتدبر أن ينظر إلى القرآن الكريم بوصفه كلام تعالى، المعبر عما يحبه ويرضاه من خلقه، الداعي إلى حياتهم وسعادتهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾[الأنفال: 24]

فالقرآن الكريم روح رباني تحيا به العقول والقلوب، ونور تستنير به النفوس، وتبصر حقائقه الإيمانية وأسراره الربانية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى:52]

فما أحوج الأمة في واقعها الحاضر إلى استحضار هذه الحقيقة وهي تتعامل مع هدايات آيات سورة الفرقان، لتوقن وتشعر أن عمق هذا القرآن يمتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وأن أسراره لا تنتهي أبداً، ومن هنا فهو يتضمّن الهدى الذي تحتاجه البشرية في مجموعها، والهدى الذي تحتاجه كل نفس في نفسها، فهو المسلك الجامع لكل المسالك، والمشرب الذي يرفد كل المشارب من موارد الخير والصلاح على امتداد الزمان.([1])

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 168

فبقدر تعظيمك لله تعالى، يعظم القرآن الكريم في صدرك، فتشعر بعطاءاته، وأنوار هداياته، قال الحارث المحاسبي رحمه الله: (..فلو ذاب أهلُ السماوات، وأهلُ الأرض حين يسمعون كلام الله عز وجل، أو ماتوا خموداً أجمعون لكان ذلك حق لهم، ولما كان ذلك كثيراً، إذ تكلم الله عز وجل به تكليماً من نفسه من فوق عرشه، من فوق سبع سمواته. فإذا عَظُمَ في صدرك تعظيم المتكلم به، لم يكن عندك شيء أرفعَ ولا أشرفَ ولا أنفعَ ولا ألذَّ ولا أحلى من استماع كلام الله جل وعز، وفهْمِ معاني قوله، تعظيماً وحباً وإجلالا إذْ كان تعالى قائلَه، فحُبُّ القول على قدر حب قائله.. قال عبد الله بن مسعود (من أراد أن يعلم أنه يحب الله عز وجل فلينظر هل يحب القرآن)([1])

فلا تستهن بعطاءات القرآن الكريم، من هذا الجانب، بأن تنسى هذه الحقيقة الربانية الغيبية، فتكون من المغبونين حقاً: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان:27]

سادساً: واقع الأمة من قضية الإيمان بالبعث والجزاء، واستحضار هذا البلاغ القرآني في واقع حياتها:

إن الإيمان بالبعث والجزاء، واليقين باليوم الآخر، أمان للمؤمن في الدنيا من الهم والغم، وسبيل لركوب منازل السائرين إلى رب العالمين، المسارعين في الخيرات؛ رغباً ورهباً، وسبب كذلك للثبات على الحق والاستقامة على الدين.

والناظر في واقع الأمة يرى أن هذا الأصل المتين، قد وقع فيه من الضعف والوهن، أوالغفلة والنسيان، ما كان سبباً، في كثرة الهموم والغموم، وانتشار الأزمات والمعاصي والانحرافات... إذ إن من أعظم أسباب المعاصي، وكثرة الانحرافات في واقع الأمة، والوقوع في أنواع من الهموم والغموم نتيجة لذلك؛ الغفلة عن هذا الأصل العظيم، واستبعاد الوقوف بين يدي الله تعالى، وهو ما عابه الله تعالى في سورة الفرقان على الكفار والمشركين، وأوعدهم بسوء العاقبة وأليم العذاب، فقال: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان: 11- 16]

---

1 الحارث المحاسبي، فهم القرآن ص302 بتصرف-

فلقد استهدفت هذه الآيات فيما استهدفته؛ ترهيب المكذبين وتخويفهم، ليرعووا عن ضلالهم، وترغيب المؤمنين المتّقين، ليطمئنوا ويثبتوا على طريق الحق والهدى، الذي اختاروه وسلكوا فيه.

وإن الإيمان بالبعث والجزاء، أو (اليوم الآخر) بتعبير القرآن الكريم، معناه أن تعيش ذلك واقعاً في كل حياتك اليومية، فتشعر بحقيقته في كل لحظة في عمق نفسك، وإحساس وجدانك، وأنت تسير إلى الله تعالى، فتلك هي هداية من أعظم هدايات آيات سورة الفرقان، فيحصل لك من الأمان ما يجعلك تبصر حقيقة هذه الحياة القصيرة الفانية، مع ما يدعوك الله سبحانه إليه من حياة باقية خالدة سالمة سليمة سعيدة: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾

فتحصل لك الهداية إلى الصراط المستقيم، فلا جنة ولا سعادة هناك، بلا هداية هنا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: 24،25]

سابعاً: واقع الدعاة إلى الله من مخالطة الناس والعيش بينهم ومعرفة همومهم والصبر على أذاهم، وقيادتهم بأخلاقهم وتدينهم قبل كلامهم ودعوتهم بالقول:

الداعية إلى الله حقاً وصدقاً، هو الذي يعيش بين الناس، ويعيش همومهم، ويخالطهم، ويستمع لمشاكلهم، وينظر في أحوالهم، وما تقتضيه من علاج وحل..، وهي صفة المسلم عموماً، والدعية إلى الله تعالى على وجه الخصوص، كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))([1])

لكن الناظر إلى واقع كثير من الدعاة اليوم، يجدهم قد تركوا هذا الموقع -إلا من رحم الله- مما سبب في نفور كثير من الناس منهم، ومن دعوتهم، وخصوصاً الشباب.

إن الدعوة إلى إلى الله تعالى تكون أول ما تكون؛ بحال الداعي وقدوته، قبل قوله وكلامه وخطبه، هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهكذا كان صحابته رضي الله عنهم،

1 رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: 6751

والتابعين لهم بإحسان، وكم من أناس دخلوا الإسلام بسبب أخلاق أهله، وأئمته من الدعاة الربانيين.

ومن التلبيس الشيطاني الذي قد ينحرف بالداعية عن المنهج القرآني، أن يتوهم بأن عليه أن يحتجب عن الخلق، أو أن ينعزل في بُرْج عالِميَّتِه بعيداً عن هموم الناس، بعيداً عن آلامهم وآمالهم، متفرّغاً للتوجيه والنصح عن بُعد، أو من وراء حجاب، محاطاً بخاصة من أهل المال أو أصحاب الوجاهة الاجتماعية والسياسية، أو نحو ذلك. ثم يتوهم أنه بذلك مؤدٍّ لحق النذارة، بل وجب عليه أن يخالط عامة الناس بذاته خاصتهم وعامتهم، مثقفيهم ودهمائهم، ليتعرف على أدوائهم وأهوائهم. فالطبيب الذي لا قدرة له على التشخيص لا يمكنه أبداً أن يصف الدواء.([1])

فهذا ما يجب أن يكون عليه الداعية إلى الله سبحانه وتعالى، إذا أراد تغيير الواقع بدعوته، ليكون بذلك في الموقع الحقيقي للدعوة إلى الله تعالى، موقع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من الدعاة المصلحين، تحقيقاً وتحققاً بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان:20]

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 190.

المبحث الثاني

سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة

إن تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة، والتحقق بها في حياتها، والتخلق بآثارها وأنوارها عملياً، هو الغاية من دراسة القرآن الكريم وتدارس آياته، وتدبرها وتفسيرها، وذلك بما تمثله هذه الهدايات من (الهدى المنهاجي) من أجل (إبصار لآيات الطريق)، كما قال الله تعالى عن هُدَى القرآن ووظيفته: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: 52] وخاصة في عصرنا هذا الذي كثرت فيه الفتن والانحرافات -إلا من رحم الله تعالى- بسبب البعد عن هدايات القرآن الكريم وأحكامه وتوجيهاته.

وإن سورة الفرقان من السور القرآنية التي تزخر بالهدايات الربانية في مجال العقيدة، والدعوة، والتربية، والعبادة، والأخلاق والسلوك..، بحيث لو تحققت بها الأمة لخرجت -بفضل الله تعالى- مما تتخبط فيه في هذا الجانب.

ومن هنا كان لا بد من البحث عن سبل لتحقيق هدايات هذه السورة في واقع الأمة، وسأحاول أن أذكر بعضها مما له علاقة بسياق هداياتها الكلية والجزئية، مع التعليق عليها بإجمال، فمن هذه السبل:

أولا: الإيمان بالله وتعظيمه:

إن الإيمان بالله تعالى وتعظيمه؛ هو أصل الاهتداء بهدايات القرآن الكريم في جميع جوانبها، ومن ثم فهو أعظم سبيل من سبل الاهتداء بهدايات القرآن الكريم.

وإذا نظرنا إلى هذه السورة الكريمة نجد أن الله افتتحها بقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان: 1،2] تنبيهاً على أن الإيمان بالله الْمُنَزِّل لهذا القرآن، وتعظيمه، باب عظيم لمعرفة حقيقة هذا القرآن، وهي كونه كلام الله تعالى المَنزَّل من عنده، لهداية البشرية بأنواره الربانية، وأسراره الغيبية، وذلك من خلال نذاراته وبشاراته. وكفى بها حقيقة وجودية كبرى، تملأ القلب رغباً ورهباً، فلا يشعر بعظمة القرآن الكريم وجلاله وجماله، وببحر عطائه وأنوار هداياته، إلا من قرأه من هذا الباب، أيْ من باب بُعْده الإيماني الغيبي، المَنزَّل من عند الله تعالى بشيراً ونذيراً، وهذا من أعظم السبل في استنزال وتحقيق الهدايات القرآنية

في واقع الأمة، وقد قال سبحانه وتعالى -في هذا السياق-: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ ﴾[الكهف: 109]

إن القرآن عظيم، لأنه كلام الله العظيم، وعظمة القرآن الكريم من عظمة الله تعالى:﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾[الحشر:21] هكذا ﴿ مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ ومع ذلك فقد جعل -سبحانه- كلامَه مُدْرَكاً لعقول البشر المحدودة، وإلا هو فوق طاقتنا، ولكنه عز وجل جعل كلامه مفهوماً ميسراً: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٤٠ ﴾[القمر: 40] ولولا أن الله جعله مُيسراً ما استطعنا تلاوته، ولا حفظه، ولا فهمه؛ لأنه فوق عقولنا، ولأنه نور من نور، وأنَّى لمخلق ضعيف كالإنسان، أنْ يتحمل أنوار الله تعالى التي اندكَّ لها لها الجبلُ العظيم، لما تجلى الله بنوره على هذا الجبل: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ١٤٣ ﴾[الأعراف: 142] لكن الله سبحانه وتعالى برحمته سهَّله وقرَّبه لنا، ثم جعله بلغة العرب وهي أكمل لغات العالم، ولقد ورد عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (لَوْلاَ أَنَّ اللهَ يَسَّرَهُ عَلَى لِسَانِ الآدَمِيِّين، مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ مِن الْخَلْقِ أنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامِ اللهِ)(1)

فبقدر إيمانك بالله وتعظيمك له سبحانه، يعظم القرآن الكريم في صدرك، فتنفتح لك أنواره، وتتيسر لك سبل هداياته. وعلى هذا يفهم قول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا، وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتَى الإِيْمان قَبْلَ الْقُرآن، وتَنْزِل السُّورَةُ فَيَتَعَلَّم حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا وَزَوَاجِرَهَا ونَواهِيهَا فَيَقِف فيما يَنْبَغِي أنْ يَقِفَ عِنْدَهُ)(2)

ثانياً: تدارس سورة الفرقان وتعلمها لما اشتملت عليه من حقائق إيمانية عظيمة، وآداب نورانية كريمة، وهدايات ربانية جليلة:

وهذا من أعظم السبل لتحقيق هدايات هذه السورة، دلّ على ذلك مطلعها، وافتتاحها الفريد، والذي يُشير إلى فضلها ومنزلتها، وما اشتملت عليه من أسرار وهدايات، وآيات بيِّنات، وأنوار ساطعات: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١ ﴾[الفرقان: 1]

فاستفتحت بتمجيد اللّه وتعظيمه، الذي أفاض على عباده هذا الخير الكثير المبارك، بما نزّل من آيات بينات، على نبيّه الكريم صلى الله عليه وسلم.. وأي خير أعظم، وأي نعمة أكرم، من

1 تفسير ابن كثير، 4/ 337

2 رواه الحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان، 91/1، رقم: 101، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

هذا الكتاب العظيم الذي نزّله الله فرقاناً بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والنور والظلام، وجعله أصل الهداية الأول، ومصدر السعادة في الدنيا والآخرة.

فلا شك إذن أن من أعظم السبل لتحقيق هدايات آيات سورة الفرقان في واقع الأمة -بعد الإيمان بالله وتعظيمه- تدراس هذه السورة، وسر افتتاحها، ومناسبته بموضوعها ومضمونها، والوقوف عند حقائقها الإيمانية، ومقاصدها التربوية، وذلك بما تتميز به هذه السورة من:

الحديث عن الله وصفاته الجليلة، التي تتجلى آثارها في مخلوقاته العظيمة والتي هي آيات قدرته، وبرهان عظمته من مثل: مَدّ الظل، وحركة الليل والنهار، وانتظامها ذهاباً ومجيئاً، وحركة الرياح وما تحمله من سحب ثقال بالماء، وخلْق الإنسان من الماء، وجعْله نسباً وصهراً، ومرج البحرين، وما جعله الله في السماء من بروج وسراج وقمر منير، وما في ذلك من آيات وفوائد للبشر. وخلق العالمْين العلوي والسفلي وما بينهما في ستة أيام، وما لذكر هذه المدة الزمنية من حكم وأسرار وآيات وهدايات...

ثم الحديث كذلك عن كتابه (القرآن) من حيث طبيعته الربانية، وما له من خصائص ومقاصد، ومن حيث طريقة تنزيله، ومراحل ذلك، وما لذلك كله من أهداف تربوية وإيمانية وتشريعية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان:32،33] ومن حيث وظيفته وتطبيقه: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان:1] وقوله تعالى -في نفس السورة كذلك:- ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [الفرقان: 52] أي جاهدهم تخلية بنذاراته، وتزكية ببشاراته.

ثم ما ختمها به سبحانه وتعالى من ذكر وبيان لخصال عباده المخلصين، الموقنين بذلك كله، المتحققين به على وجهه، المستحقين بذلك للانتساب الرحماني، والتشريف الرباني، الموجب للفوز والرضوان في جنة الخلد: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ إلى أن قال سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ [الفرقان: 75،76]

فالوقوف على هذه الحقائق الربانية القرآنية في التعريف بالله وبعظمته، والقرآن وهداياته، والنظر إلى هذه المواقف الإيمانية العملية عند عباده (عباد الرحمن) وتدبر المقاصد التربوية، والدعوية القرآنية الواردة في هذه السورة وتدارسها، كل ذلك وغيره سبيل عظيم من سبل تحقيق هداياتها في واقع الأمة.

ثالثاً: النظر في مقاصد التبشير والإنذار، في السورة الكريمة:

إن من سبل تحقيق هدايات آيات سورة الفرقان في واقع الأمة -أفراداً وجماعات- النظر في أساليب التبشير والإنذار في السورة، ومقاصدهما الإيمانية والتربوية، (فمما لا شك فيه أن الرغبة والرهبة نزعتان فطريتان في الإنسان، فهو بطبيعته يرغب فيما يحب، ويخاف مما يكره، فلا عجب أن كانت طريقة القرآن -عموماً- وسورة الفرقان خصوصاً، في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، قائمة على مبدأ، أو عقيدة: الثواب والعقاب؛ ثواب الله لمن آمن به، وعمل بطاعته، وعقابه لمن أعرض عنه وعصاه.)([1]) وذلك من خلال أساليب متنوعة من أساليب التبشير والإنذار.

وتحقيقاً لهذا الغرض كان افتتاح السورة بهذا الأسلوب: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾[الفرقان: 1]

ثم ذكر الله في خواتمها -مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم- قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ ﴾ [الفرقان،56] وما بين الآيتيْن من موضوعات كلها حافلة بصور من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار.. تارة بذكر قدرة الله وعظمته، وتارة بذكر مشاهد من أهوال الآخرة، وأحوال أهل الجنة وأهل النار، وما ينتظر المؤمنين من عباد الرحمن من خُلْد ونعيم مقيم في الجنة، وما أعده الله للطغاة من المتكبرين والجاحدين، من عذاب أليم في نار جهنم. مع ما ذكره سبحانه من أساليب أخرى، وصور متنوعة، من الأمر والنهي، وذكر آيات الله في السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وبعض الظواهر الكونية، وذكر أصل الإنسان ومآله، ثم الثناء أهل الطاعة والاستقامة، وما ينتظرهم من النعيم جزاء صبرهم، وذم وتهديد أهل الانحراف والفجور وما ينتظرهم من سوء العاقبة جزاء انحرافهم وإعراضهم...

كل هذا الرَّغَب والرَّهَب، أو الخوف والطمع، أو الحذر والرجاء، إنما هو من أجل تحقيق بواعث الاستجابة لله ولرسوله. وهو سبيل عظيم من سبل تحقيق هدايات سورة الفرقان في واقع الأمة، لمن عقله وتدبره.

ولقد جعل الإمام الطاهر بن عاشور هذا السبيل: -أي النظر في مقاصد التبشير والإنذار، لتحقيق الهدايات القرآنية- جعله من مقاصد القرآن الأصلية التي جاء لتبيانها، فقال رحمه الله:

---

1 ينظر المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري، 1/ 11- 12. يوسف القرضاوي

(المقصد السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.)([1])

رابعاً: التأمل في دعوة السورة الكريمة إلى توحيد الله وعبادته من خلال النظر إلى آياته في السماوات والأرض:

إن سورة الفرقان حافلة بذكر ما يدل على وحدانية الله تعالى، وقدرته، وملكه لأمر السماوات والأرض، وإبطال ادعاء الكفار والمشركين، في زعمهم أن هناك آلهة أخرى، تستحق العبادة مع الله تعالى.

ذلك أن السبب الأعظم الذي أدى بالعباد إلى الانحراف عن التوحيد والوقوع في الإشراك، هو جهلهم بعظمة الله وصفاته، فمن أدرك كمال صفاته سبحانه، عرف عظمته، ومن أدرك عظمة الله جل جلاله، خضع له وأفرده بالربوبية والعبودية.

وإن أعظم باب لمعرفة الله تعالى حق المعرفة، هو باب الأسماء والصفات، مع ربط ذلك بآثارها في الخلق، وهي طريقة القرآن في الدلالة على توحيد الله، وعظمته وقدرته، بذكر صفاته مع مقارنتها بآثارها في الخلق. كما في هذه السورة من مثل:

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾[الفرقان: 2]

وقوله تعالى أيضاً: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الفرقان: 45- 47]

وقوله تعالى كذلك: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان: 53، 54] وكقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان:61، 62] إلى غير ذلك مما ورد في السورة.

---

1 التحرير والتنوير، 1/ 41

ودراسة هذه الآيات من السورة الكريمة، وتدبر ما فيها من الهدايات، هو سبيل عظيم لتحقيق هداياتها في واقع الأمة. ذلك أن طريقة عرض هذه الآيات للتوحيد ودلائله، ومنهجها في تبيان آثاره في الملك والملكوت، كفيل بإخراج الأمة من الضعف الإيماني، والخواء الروحي، إلى أمة عابدة موحدة قائمة بحق العبودية والربوبية، توحيداً، وعبادة، وإخلاصاً، وصدقاً، كما قام بها (عباد الرحمن) الذين استحقوا الثناء من الملك الديان سبحانه وتعالى.

خامساً: إدراك وسائل أهل الكفر والباطل ومحاولاتهم لمحاربة الحق وأهله، والوعي بمقاصدهم حذرا من مكائدهم:

تعرضت سورة الفرقان لذكر أساليب أهل الكفر، ووسائل أصحاب الباطل، لنشر الادعاءات الباطالة، والإشاعات المغرضة، قصد التشويش على الحق وأهله، ومحاولة صرف الناس عنه، وهذا ديدن أهل الباطل في كل زمان ومكان.

وإن من أهم سبل تحقيق هدايات السورة في واقع الأمة، أن يدرك المؤمن المتدبر هذه الوسائل وتلك الأساليب، التي عرضتها آيات سورة الفرقان، ليكون على بينة منها، ويسهل عليه ردها ودحضها وإبطالها.

هذا وإن من عرف هذه الوسائل والأساليب، وتأملها كما عرضتها سورة الفرقان، وأدرك دوافعها عند أصحابها، تبين له بوضوح؛ أن دوافع أهل الباطل في ردهم للحق، ومحاربتهم له، أو تشويه صورة صاحبه، تتلخص في التحصن وراء الألفاظ، والمصطلحات والنفخ فيها، من مثل: (أساطير الأولين، إفك، افتراء...) محاولة منهم لإحباط الحق، أو إيقافه وثَنْيِ صاحبه عن مواصلة الطريق، وهذه الوسائل هي نفسها التي تُستعمَل الآن لمحاربة الإسلام ودعاته، وهي تدل على ضعف أهل الباطل، وفساد حجتهم، إذ كلما فشلوا في وسيلة لمعارضة الحق، انتقلوا إلى أخرى، وهكذا.. وهي سنة متَّبعة وعادة مُطَّردة عند أهل الباطلن في كل زمان ومكان، ذلك أنهم حينما يعجزون عن مناقشة الفكرة، أو القضية المطروحة، ويشعرون بقوتها وأصالتها، ينتقلون إلى شخصنة الموضوع، بانتقاد الشخص والطعن فيه؛ بالبحث عما يرونه عيباً في شخصيته، ووسائل دعوته.

ولذلك لما عجز الكفار هنا في سورة الفرقان عن معارضة القرآن، أخذوا يعيبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، بكونه بَشَراً من جنسهم، يَمْشي في الأسواق، ويأكل الطعام، وهذا شأن كل جاحد ومعاند ضعيف: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦

وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ﴾ [الفرقان: 4-8]

وهي من أوهن الوسائل، وأضعف الأساليب، لو عرف أهل الحق كيف يتعاملون معها بما يملكون من قوة الحجة، وبيان المحجة، وسهولة عرضها، ويسر تبليغها. وهذا من أهم سبل تحقيق الهدايات العملية لسورة الفرقان في واقع الأمة، إذ إن من خصائصها الفرقانية العملية، في الدعوة أنها كشفت عن طبائع أهل الكفر، ووسائلهم وأغراضهم في رد دعوة الحق، مع بيان طريق المحجة في عرض الحُجّة.

سادساً: من حقائق هذا القرآن الكريم هي كونه كلام الله تعالى وكفى بها حقيقة عظمى:

وتلك من أعظم سبل تحقيق هدايات هذه السورة، في واقع الأمة -أفراداً وجماعات- وإنما يتعرف المؤمن على عظمة القرآن عند ما يتعرف على عظمة المتكلم بالقرآن: الله رب العالمين سبحانه، إذ قيمة الكلام وعظمته بقيمة وعظمة مَن تكلم به، هذا على العموم، فكيف إذا كان هذا الكلام، هو كلام رب الكون جل جلاله، الذي نزل من عالم الغيب المطلق بما يحمله من حقائق مطلقة، وأنوار خارقة، فإذا أبصرت هذا السر انكشفت لك كنوز القرآن. وفتحت لك أبواب هداياته.

ولذلك رد الله سبحانه وتعالى على اتهام الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم في تلقيه هذا القرآن من البشر بهذه الحقيقة العظمى الحاسمة العاصمة: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦ ﴾ [الفرقان: 6] أي لو تأملتم هذا القرآن لأدركتم أنه لا أحد يستطيع أن يعرف سر الكون، بما فيه من جماد ونبات، وحيوان وإنسان، وأرض وسماء، كما عرضها القرآن الكريم أكثر من خالقه، ولا أحد يستطيع أن يصف أسرار الكون، وأسرار عالم الغيب والشهادة، بأصدق وأبلغ مما يصفه به هذا الكتاب العظيم، فكيف يقال عنه بعد ذلك: أساطير الأولين؟!

ففي هذا الرد الإلهي بيان لافترائهم بإثبات نقيض الافتراء، وهو أن الذي أنزل هذا الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم هو اللَّه الذي يعلم السر في السماوات والأرض، وفي ذلك دعوة لتدبر القرآن، والنظر إلى عمقه الذي يمتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وما لذلك من أسرار لا تنتهي أبداً.

ومن هنا ومن هذا الباب، كان القرآن الكريم متضمناً للهُدى الذي تحتاجه البشرية في مجموعها، والهدى الذي تحتاجه كل نفس في نفسها، إذا أرادت الحياة الحقيقية، والسعادة الأبدية.

ولذلك كانت أعظم حقيقة يقدمها القرآن في عرض هداياته؛ هي: أنه كلام الله، وكفى بها حقيقة وجودية كبرى، تملأ القلب رغباً ورهباً، فلا يشعر بعظمة القرآن الكريم وجلاله وجماله، وببحر عطائه الرباني النوراني، إلا من قرأه من هذا الباب، أيْ من باب بُعْده الإيماني الغيبي، فالمتكلم بهذا القرآن إنما هو الله رب العالمين: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

وهذا من أعظم سبل تحقيق هدايات سورة الفرقان، فلا ينبغي أن تغيب عنك هذه الحقيقة وأنت تتلقي آياتها لتحقيق هداياتها في واقع الأمة أفراداً وجماعات، بربط العباد بها، حتى يتلوا القرآن حق تلاوته، ويؤمنون به حق الإيمان، تعظيماً لله سبحانه المتكلم به.

سابعاً: استحضار قضية الآخرة والإيمان بالبعث والجزاء، والوقوف بين يدي الله تعالى.

من سبل تحقيق الهدايات القرآنية -عموماً- وهدايات سورة الفرقان خصوصاً، استحضار قضية الآخرة، وما فيها من بعث، وحساب، وجزاء، ووقوف بين يدي الله تعالى، واليقين بهذا الوعد الحق، وتلك الساعة الآتية التي لا ريب فيها، ساعة الفصل بين أهل السعير، وأهل الجنة، وما أعد الله لكل منهما في مشهد عظيم رهيب: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان: 11- 15]

فما أعظمها من حقيقة ربانية كبرى، وهداية قرآنية عظمى، فما من عبد عاقل استحضرها وتذكّرها إلا وكان الخوف واقعاً عليه من جهتين: الأولى: خوف الوقوع في الخسران المبين! والثانية: خوف فقدان النعيم المقيم، فوجب على الكيس الفطن أن يعيش في دينه على حذر واحتياط، وذلك هو معنى التقوى.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول -في هذا السياق-: ((فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ))([1])

1 رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، حديث رقم 4882

إن يقين المؤمن بالساعة وما بعدها من مصير النعيم والرضوان، لَمِنْ أعظم المحفزات بما يتيحه هذا اليقين للمؤمن من الرغبة والاجتهاد في الاصطفاف مع قوافل المحبين، وجُموع العابدين السائرين إلى رب العالمين: ﴿ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح: 29]

وذلك بما يحمله هذا اليقين من رسالة للإنسان، ببيان حقيقته، ووظيفته، وبيان مقامه الذي وجب أن يدخله متواضعاً لله رب العالمين: مقام العبدية، تلك الوظيفة التي من أجلها جعل الله له في هذه الدنيا ما جعل من تسخير وتيسير؛ حتى تسلس له رحلته العمرانية الابتلائية إلى الآخرة، فكل ما في هذه الدنيا يُطْوَى والساعة جامعة.

ذلك أن طبيعة هذا الدين هي طبيعة أخروية بالقصد الأول، فوعوده الأساسية للإنسان إنما هي هناك، وإن كل ما عدا ذلك من صلاح المعاش إنما تابع لصلاح المعاد، ولا عكس.

ومن هنا كانت نعمة الإيمان باليوم الآخر؛ بما هو منقذ للبشرية من الخسران المبين، ونجاة لها من المصير الرهيب، فلا يملك المؤمن إزاءها إلا الحمد لله كل الحمد، والشكر الدائم له جل جلاله؛ بما أنعم على عباده الصالحين من الإيمان بالساعة وإنها لمن أعظم النعم حقاً وصدقاً.([1])

وهكذا يتبن إذن أن هذا السبيل -استحضار يوم القيامة واليقين باليوم الآخر- لمن أعظم سبل تحقيق هدايات هذه السورة في واقع الأمة، بما يسكبه على قلب العبد من أمان، وانتظار لليوم الموعود، الذي وعد فيه أحبابه بما وعد من نعيم وأمن ورضوان خالدين مخلَّدين.

ثامناً: مخالطة الناس في معاشهم، والصبر على أذاهم، والتخلق بأخلاق القرآن، اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم في حياته ودعوته:

من سبل تحقيق هدايات هذه الآيات في واقع الأمة -أفراداً وجماعات -: معرفة العبد أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الحياة ابتلاءً اجتماعياً، وميداناً للعبادة بمفهومها العام -تديناً، وعلماً، وعملاً، ودعوة- لاختبار الناس في صبرهم على الابتلاء، واستعمال قابليتهم للتمييز بين الخير والشرّ، والهدى والضلال، والطيب والخبيث، والمعصية والطاعة..، لتقوم الحجة عليهم من أعمالهم واختيارهم.

ولذلك قال الله تعالى هنا في السورة -تقريراً لكلية من كلياتها العظيمة، ضمن هداياتها العامة- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: 20]

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 78، 79

فلقد احتوت هذه الآية تقريراً لحكمة من حكم الله تعالى، وهي جعله بعض الناس وسيلة لامتحان البعض الآخر، ليرى سبحانه –وهو العليم الخبير– مَنْ منهم الصابر على الابتلاء، الناجح عند الاختبار، وينطوي في ذلك تقرير كون الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك لاختبار الناس في صبرهم على الابتلاء، واستعمال قابلياتهم للتمييز بين الخير والشرّ، والهدى والضلال، والطيب والخبيث، لتقوم الحجة عليهم من أعمالهم واختيارهم.([1]) وفي هذا ترغيب وحث لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم، بأن يتصفوا بهذه الصفة في أعمالهم، وعباداتهم، ودعوتهم..، اقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام، فالصبر مفتاح الفرج، وسبب النجاح في الحياة الدنيا، وحبل النجاة من الفتن، ولذلك كان مقامَ أولي العزم عليهم الصلاة والسلام، في عبادتهم ودعوتهم.

فالدنيا دار ابتلاء واختبار، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ [الملك: 2] وهذا لا يتحقق إلا بمخالطة الناس في معاشهم، ومعرفة أحوالهم وهمومهم، والصبر على أذاهم. وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((المؤمنُ الَّذي يُخالطُ النَّاس ويَصبرُ عَلى أَذاهُم أعظم أجراً مِن الَّذِي لَا يُخالِطُ النَّاسَ ولا يَصبرُ عَلى أذَاهُم))([2])

وهكذا، فمعرفة هذه الحقيقة القرآنية، يعين المؤمن على تحقيق هداياتها في الواقع العملي للفرد والمجتمع، ويعلم أنه لا تحقيق لعَبْدِيَّتَه الحقيقية لله تعالى؛ إلا إذا تحقق بالعبادة الاجتماعية –في الوسط الاجتماعي– كتحققه بالعبادة الفردية في خاصة نفسه، وذلك لن يكون إلا بممارسة هذه العبادة على المستوى الاجتماعي؛ دعوة وجهاداً، وإرشاداً، وتعليماً، وتربية..

---

1 ينظر التفسير الحديث، 73/3

2 أحمد في مسنده، 64/9، عن عبد الله بن عمر، برقم: 5022 قال عنه محققه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. وأخرجه الطيالسي (1876)، والبخاري في "الأدب المفرد" (388)، والترمذي (2507)، والبيهقي في "السنن" 89/10 وفي "شعب الإيمان" (8102)

المبحث الثالث

أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة(1)

لقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم ومثّل لآثار القرآن على واقع الأمة، في علاقتها به، وتلقيها لهداياته، وتفاعلها معه، في صور، أو مستويات ثلاثة، لكنها في النهاية تؤول إلى صورتيْن، أو مستويين، من حيث الانتفاع بهذا القرآن وما لذلك من آثار حسنة، أو عدم الانتفاع به وما لذلك من آثار سيئة. فقال صلى الله عليه وسلم -كما في الصحيح- : ((مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ))(2)

هذا عن القرآن عموماً، وإن سورة الفرقان وما اشتملت عليه من الهدايات العظيمة، الكلية منها والجزئية، والتي سبق ذكرها في المباحث السابقة، كفيلة بأن تحدث آثاراً عظيمة في واقع الأمة، تأثراً وتأثيراً، إن هي قامت بتطبيقها، والتحقق بها، ويمكن إبراز أهم تلك الآثار من خلال الجوانب الآتية:

أولا: نعمة نزول القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأثرها العظيمة على الأمة، إلى أن تقوم الساعة

إن أعظم نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة، والتي تستوجب شكر مُنَزِّلها سبحانه وتعالى: هي نعمة نزول القرآن الكريم، على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هداية للعالمين، وهدى ورحمة للمؤمنين، فما من نعمة نزلت على هذه الأمة، وما من نقمة رُفعت، إلا ببركة هذا الكتاب العظيم الذي هو أصل كل النعم، ومصدر كل المنن، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: 164]

---

1 مر في القسم الأول من هذا البحث الحديث عن: أهمية تطبيق هدايات القرآن الكريم في واقع المسلم، مع الإشارة إلى هدي السلف في ذلك، وذلك في تمهيد خاص ضمن مبحث: (أثر تطبيق هدايات آيات السورة -سورة النور- على واقع الأمة)

2 البخاري، كتاب العلم، بَابُ فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ، حديث رقم: 77.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (فلم تُمْس بنا نعمةٌ ظَهَرَتْ ولا بَطَنَتْ، نِلْنَا بها حظّاً في دِينٍ ودنيا، أو دُفِع بها عنا مكروه فيهما وفي واحد منهما: إلا ومحمد صلى الله عليه سببها، القائد إلى خيرها، والهادي إلى رشدها، الذائد عن الْهَلَكَة وموارد السَّوْء في خلاف الرُّشد، الْمُنبِّه للاسباب التي تُورد الْهَلَكة، القائم بالنصيحة في الإرشاد والإنذار فيها.)([1])

وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب ذلك بهذا القرآن العظيم، كما قال الله تعالى له: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ ﴾ [الشورى: 52] مَا كُنْتَ تَدْرِي يَا مُحَمَّدُ أَيُّ شَيْءٍ الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ اللَّذَيْنِ أَعْطَيْنَاكَهُمَا، توقيف على مقدار النعمة.([2])

ولذلك كان من آثار تطبيق هذه الهداية؛ حصول نعمة التوفيق إلى الصراط المستقيم، التي هي الغاية من نزول القرآن الكريم، ومن وفقه الله هذا التوفيق، فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ ﴾ [طه: 123]

وفي الحديث: عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه قال: (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ((أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّه؟))، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: ((فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا))([3])

فالتمسك بهذا الكتاب، تلاوة، وتدبراً، وعملا، وجهاداً للنفس به تربية وتزكية، من أعظم شكره، الذي هو أثر من آثار الاهداء بهداياته. ذلك أنه إذا كان الله تعالى وحده مصدر الهدى، فإن الوصول إليه لا يكون إلا بما دلَّ عليه في هذا الكتاب من هدايات: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ [العنكبوت: 69]. ولذلك أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم في سورة الفرقان بأن يجاهد قومه بهذا القرآن: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ

---

1 الرسالة، 16، 17

2 ينظر جامع البيان، 542/20، والمحرر الوجيز، 44/5.

3 رواه ابن أبي شيبة في مسنده، 125/6 باب التمسك بالقرآن، حديث رقم: 30006. ورواه عبد بن حميد في المنتخب من المسند 58/1. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: 713.

وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢ ﴾ [الفرقان: 52] وذلك لِمَا لكلماته وآياته من وقْع على النفوس بما تحمله من الزواجر والقوارع والمواعظ الفرقانية.

كما أن من آثار تطبيق هذه الهداية؛ حصول السعادة في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ [طه: 123] وهذه من أعظم آثار تطبيق هدايات القرآن على الإطلاق. فعن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما، قال: تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ (1)

ومن آثار تطبيق هذه الهداية كذلك؛ حصول البركة؛ البركة في العبادة، والبركة في العلم، والبركة في العمل، والبركة في العمر، والبركة في الذرية..، إذ القرآن كله مبارك، ف﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ... ﴾ فتلاوته بركة، وتدبره بركة، ومدارسته بركة، والاستماع إليه بركة، والاهتداء بهداياته بركة..، وهكذا تتحول حياة المؤمن بهذا القرآن، إلى بركة في كل مجال من مجالاتها.

والناظر لحياة السلف رضي الله عنهم يجد أن الله تعالى بارك حياتهم، بسبب تمسكهم بهذا الكتاب، وتطبيقهم لهداياته، فتجلت هذه البركة في أعمارهم، وأعمالهم، وعلمهم، وجهادهم، ودعوتهم، ولا زالت آثار هذه البركة إلى الآن، وذلك من خلال ما تركوه لنا من تراث علمي عظيم مبارك، وخصوصاً ما يتعلق بهذا الكتاب المبارك؛ تدبراً، وتفسيراً، وفقهاً، ورسماً، وتجويداً وقراءات، وهدايات...

ثانياً: أثر النذارة القرآنية في تربية الأمة وتزكيتها:

إن سورة الفرقان، سورة النذارة الرحمانية للعباد، كما يوحي بذلك اسمها، وما يظهر من طبيعة موضوعاتها، بل هو ما صرحت به في افتتاحها، وما فصّلتْه في عرض هداياتها: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ [الفرقان: 1] فجعل سبحانه علة نزول القرآن، وعلة بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم به؛ الإنذار.

1 أخرجه الطبري بسنده في جامع البيان، بروايات، 18/ 389

وقال الله تعالى في أواخر السورة: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ ﴾[الفرقان: 56،57] أي وما أرسلناك يانبينا بهذا القرآن إلا مبشراً لمن أطاعك وآمن بالله واليوم الآخر، ونذيراً لمن عصاك وأعرض عن الإيمان بالله واليوم الآخر. وما بين الافتتاح والخاتمة، مما عرضته السورة الكريمة، كله سائر في هذا المعنى، ولذلك كانت آيات هذه السورة (من أوقع كلمات القرآن على النفس، وكانت رسالاتها من أشد المسالك ابتلاءً للعباد! ومن ثم كانت زبدة مَخيضها أن تَخَرَّج من محنتها: (عباد الرحمن) بما ذُكِروا به من مقامات ربانية، ومنازل رحمانية، لا يدركها إلا من شق مسالكها عقبةً عقبةً)([1])

هذا وإن من وظائف القرآن الكريم -عموماً- باعتباره فرقاناً بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، تخليةً للنفوس وتزكيةً لها: التبشير والإنذار، وإن للنذارة القرآنية آثاراً عظيمة في تربية الأمة وهدايتها، فالنذارة سياط القلوب..، فكم من أحوال للقلوب لا يصلح معها إلا النذارة، ولا يستقيم شأنها إلا بالترهيب والإنذار...

وللنذارة فوائد عظيمة، وآثار جليلة، على واقع الفرد والمجتمع، في تطبيق هدايات القرآن الكريم، وأقتصر من ذلك على ذكر فائدتيْن:

أحدهما: الزجر عن المعاصي، فإن النفس الأمّارة بالسوء، ميّالة إلى الشر، طمّاحة إلى الفتنة، فلا تنتهي عن ذلك إلا بتخويف عظيم، وتهديد بالغ، وليست هي في طبعها حرة يهمها الوفاء، ويمنعها الحياء عن الجفاء..

والثاني: ألا يعجب المرء بالطاعات فيهلك، بل يقمع نفسه بالذم والعيب والنقص، بما فيها من الأسواء والأوزار التي فيها ضروب الأخطار، ونحو ذلك.. ذلك أن مدار أمر العبودية على أمرين: القيام بالطاعة، والانتهاء عن المعصية، وذلك لا يتم مع هذه النفس الأمارة بالسوء إلا بترغيب وترهيب، وترجية وتخويف.([2])

ولهذا لا يحصل للعبد السير المستقيم إلا باستشعار الخوف والرجاء، وذلك لن يكون إلا بتدبر الوعد والوعيد، وصور التبشير والإنذار، كما وردت في القرآن عموماً، وفي سورة الفرقان خصوصاً.

---

1 مجالس القرآن، 1/ 159

2 ينظر المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري، 43، يوسف القرضاوي.

وها هي سورة الفرقان لا زالت كما كانت تخاطب العباد داعية ومنذرة: أَنْ هذه كلمات ربي ورسالاته، فمن يتلقى أنوار هداياها مبشرة ومنذرة؟

ثالثاً: أثر تحقيق توحيد الله تعالى ونفي الشريك عنه، في خضوع العبد واستسلامه لأمر الله تعالى ونهيه:

إن خضوع العبد لله تعالى، واستسلامه لحكمه؛ في أمره ونهيه، هو أثر من آثار توحيده سبحانه وتعالى، ومعرفة مقامه سبحانه، بل ما وقع خلل، أو تقصير، أو تفريط، في أمر الله ونهيه، إلا بسبب الخلل، والنقص، في هذا الجانب؛ جانب مقام الألوهية؛ توحيداً، وإخلاصاً، وتعظيماً، فهناك آمِرٌ، وهناك أَمْرٌ، فلا بد من معرفة الآمِر ثم الأمْر، إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، واستقمت على دينه، فكل تقصير في الأمر إنما هو نتيجة للجهل بمقام الآمر جل جلاله، فلا بد من معرفة الله، من هو الله، وما صفاته، وما الذي عنده لعبده لو أطاعه، وما الذي عنده له لو عصاه..؟

وذلك هو أول مقتضى سورة الفرقان، وهدف دعوتها وهدايات آياتها، من الأمر بالتوحيد، واستحضار عظمة الله تعالى، بالتأمل في ملكه وملكوته، ثم التحذير من الوقوع في الشرك بأنواعه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ [الفرقان:2،3]

ولذلك كان جيل الصحابة رضي الله عنهم –مع ما كانوا عليه قبل الإسلام من الإدمان على الشرك بأنواعه– أسرع العباد إلى أمر الله، والخضوع له، والاستجابة إلى تطبيق أحكامه، والوقوف عند حدوده، وذلك بما علموا لله من عظمة الربوبية المطلقة، وجلال الألوهية الحاكمة، التي تقتضي أن يكون العبد عبداً، والرب ربّاً، وهو ما تجلّى في سورة الفرقان، بل هو من أعظم مقاصدها، أي إخراج العبد الموحِّد لله رب العالمين في كل شيء؛ في التلقي، والمنهج، والقصد، بأن يكون مصدر تلقيه في الحكم والتشريع، تحليلا، وتحريماً هو الله تعالى، ويكون منهاج حياته كلها هو كتابه، فيتخذه فرقاناً في كل صغيرة وكبيرة، ثم يكون قصده من ذلك كله ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده. وهذا هو شأن (عباد الرحمن) الذين ذكرهم الله تعالى في آخر سورة الفرقان، مما كان سبباً لتخليدهم، وإعلاء منزلتهم بذكر صفاتهم والثناء عليهم، وهذا مظهر عظيم من مظاهر آثار تطبيق هدايات آيات السورة في الواقع، وذلك لما يحمله هذا النموذج الحي العملي من دافع قوي للمؤمن بأن يقتفي آثارهم ويسلك طريقتهم في السير إلى الله تعالى، من خلال تلك المنازل والصفات التي اتصفوا بها. فاستحقوا بذلك الثناء الرباني المخلد في القرآن الكريم.

رابعاً: في إثارة الشبه والفتن من قبل أهل الكفر والنفاق، تجاه الحق وأهله أثر عظيم في ثبات أهل الحق عليه والاستقامة على منهجه، لعلمهم أن هذه سنة مطردة:

ذلك أن التدافع بين الحق والباطل، سنة الله تعالى في شرعه وكونه، ومجال ذلك إنما هو ساحة الدعوة، وميدان التبليغ عن الله تعالى، ومن هنا وجب على المؤمن الداعي إلى الله تعالى الثبات على الحق والعض على هذا القرآن بالنواجذ، والتمسك بآياته بقوة؛ علْماً، وعملاً، ودعوة وجهاداً، وعدم التأثر بما يقوله أهل الباطل والنفاق، من التراهات والأباطيل، التي يلقون بها في وجه الدعاة إلى الله، والمؤمنين بدينه وكتابه؛ لعرقلة السير وقطع الطريق إلى الله تعالى، والتشويش على دعوته جل علاه. ولذلك قص علينا القرآن الكريم قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم، وما دار بينهم من صراع وتدافع، وما ابتلى الله به الأنبياء والمرسلين والدعاة والمصلحين، من الأذى المادي والمعنوي ليبلي عزمهم، ويعلي مقامهم، من خلال منازل الصبر في الدعوة والجهاد. والآيات في ذلك أكثر من أن تحصى في هذا المقام ومنها آيات سورة الفرقان.

ولذلك لم يكن الدعاة الصادقون، يثنيهم عن الدعوة إلى الله تعالى، ومواصلة السير إليه سبحانه، دعوة، وجهاداً؛ ما يُثار من الشبه والفتن، من قبل أهل الكفر والنفاق تجاه الدعوة والرسالة، بل وما يمارسونه من الأذى المادي والمعنوي عليهم، بل ما كان يزيدهم ذلك إلا إصراراً وثباتاً، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى في هذا السياق، ذلك أن الله ما أرسل الرسل وأمرهم وأتباعهم بالدعوة إليه؛ إلا ابتلاء لهم، وابتلاء لمن يدعونهم، لإعلاء منزلة الداعين إليه، وإقامة الحجة على المدعوين لدينه ودعوته. وهذا ما قصدت إليه آيات سورة الفرقان، وهو من أعظم آثار تطبيق هداياتها عملياً، تحقيقاً لعبادة الابتلاء عملا ودعوة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: 20]

خامساً: أثر استحضار ربانية القرآن الكريم، وكونه كلام الذي يعلم السر في السماوات والأرض في الاستهداء بهداياته:

إن من أعظم آثار تطبيق هدايات هذه السورة على واقع الأمة، أفراداً وجماعات؛ استحضار هذه الحقيقة، حقيقة ربانية هذا الكتاب ومصدره الغيبي: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾ [الفرقان: 6] ولقد ورد في الحديث الشريف: ((وفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى كَلَامِ الْبَشَرِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ))([1])

وإن أعظم حقيقة في هذا القرآن العظيم، هي أنه كلام الله، وكفى بها حقيقة وجودية كبرى، تملأ القلب رغباً ورهباً، ومن آثار تطبيق هداياته أن تشعر بعظمته: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ ﴾ [الحشر: 21] هكذا ﴿ مُّتَصَدِّعًا ﴾ ومع ذلك فقد جعل -سبحانه- كلامَه مُدْرَكاً لعقول البشر المحدودة، وإلا هو فوق طاقتنا، ولكنه عز وجل جعل كلامه مفهوماً ميسراً: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠ ﴾ [القمر: 40] ولولا أن الله جعله مُيسراً ما استطعنا تلاوته، ولا حفظه، ولا فهمه؛ لأنه فوق عقولنا، ولأنه نور من نور، وأنَّى لمخلق ضعيف كالإنسان أنْ يتحمل أنوار الله تعالى التي اندكَّ لها لها الجبلُ العظيم، لما تجلى الله بنوره على هذا الجبل: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ ۝١٤٣ ﴾ [الأعراف: 143] لكن الله سبحانه وتعالى برحمته سهَّله وقرَّبه لنا، ثم جعله بلغة العرب وهي أكمل لغات العالم، ولقد ورد عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله)([2])

فبقدر تعظيمك لله تعالى، يعظم القرآن الكريم في صدرك، فتشعر بجلاله وأنوار هداياته، وجمال أسراره، قال الحارث المحاسبي([3]) رحمه الله: (..فلو ذاب أهلُ السماوات، وأهلُ الأرض

---

1 أخرجه الترمذي في جامعه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أبواب فضائل القرآن، باب 26، حديث رقم (2926) وقال: هذا حديث حسن غريب، وغيره، وله شواهد تعضده.

2 تفسير ابن كثير، 4/ 337.

3 أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، من أكابر الصوفية. كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد، والرد على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد سنة 243هـ من أشهر مصنفاته المطبوعة:=

حين يسمعون كلام الله عز وجل، أو ماتوا خمودا أجمعون لكان ذلك حق لهم، ولما كان ذلك كثيراً، إذ تكلم الله عز وجل به تكليماً من نفسه من فوق عرشه، من فوق سبع سمواته. فإذا عَظُمَ في صدرك تعظيم المتكلم به، لم يكن عندك شيء أرفعَ ولا أشرفَ ولا أنفعَ ولا ألذَّ ولا أحلى من استماع كلام الله جل وعز، وفهْمِ معاني قوله، تعظيماً وحباً وإجلالا إذْ كان تعالى قائلَه، فحُبُّ القول على قدر حب قائله)([1])

ولذلك على القارئ المتدبر أن يستحضر هذا المعنى وهو يقرأ القرآن الكريم، ليشعر في قلبه عظمة المتكلم، وهو الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان: 6] ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرعد: 32] والتقدير: لكان هذا القرآن. وتلك بصيرة من بصائر آثار هداياته.

سادساً: أثر الإيمان باليوم الآخر في حياة العبد المؤمن، وأمانه من الخوف من هموم الدنيا ولَأْوائها.

إن الإيمان باليوم الآخر، أمان للمؤمن في طريقه إلى الله تعالى، وهو البلسم الشافي لألم المحن والإحن في ابتلاءات هذه الحياة، إذ من خلاله يعلم العبد أن حقيقة الحياة إنما هي عند الله تعالى في دار الخلود والنعيم، فيستسهل كل الصعاب من أجل ذلك في سيره إلى الله تعالى؛ علماً وعملاً، وعبادة ودعوة، ومن هنا كانت طبيعة هذا الدين (طبيعة أخروية بالقصد الأول، فوعوده الأساسية للإنسان إنما هي هناك، وأن كل ما عدا ذلك من صلاح المعاش إنما تابع لصلاح المعاد، ولا عكس! تلك هي طبيعة الرسالة؛ وطبيعة هذا الدين)([2]) ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان: 15،16]

ولذلك كان هذا من أعظم آثار هذه الهداية، ذلك أن نعمة الإيمان باليوم الآخر بما هو منقذ للبشرية من الخسران المبين، ونجاة لها من المصير الرهيب، لهي من أجَلّ النعم، فلا يملك المؤمن إزاءها إلا الحمد لله كل الحمد، والشكر الدائم له جل جلاله؛ بما أنعم على عباده الصالحين من

=(المسائل في أعمال القلوب والجوارح) (الرعاية لحقوق الله عز وجل) (رسالة المسترشدين) (المسائل في أعمال القلوب والجوارح) (كتاب التوهم).

1 الحارث المحاسبي، فهم القرآن، ص، 302 (بتصرف)

2 ينظر مجالس القرآن، 1/ 178

الإيمان بالساعة وإنها لمن أعظم النعم حقاً! وذلك بما تتيحه للمؤمن من الاصطفاف مع قوافل العابدين السائرين إلى رب العالمين: ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:29] وبما يستفيده العبد من ذلك كله، من جمال الأمان، وتمام الاطمئنان، وهو يحلّق من مقام الشوق إلى مولاه، ضارباً في فضاءات الحياة بجناحي الخوف والرجاء، في جمال رائق لا يوازيه من زخرف الحياة الدنيا شيء البتة.([1])

فما أعظمها من آثار حينما تحوّل حياة المؤمن؛ إلى حياة الأمان والاطمئنان، وهو يسير إلى الله تعالى عابداً وداعياً، غير آبهٍ بما يراه من اضطراب مضطرب، وخوف خائف على هذه الحياة وفتنها، لأنه يعلم أنها دار ابتلاء، وميدان عمل، استعداداً لدار الجزاء، وحياة الخلود، وصدق الله العظيم إذ يقول –تطميناً لأهله في هذه الحياة، ووعداً لهم– : ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [الفرقان: 15،16]

سابعاً: أثر استحضار مكانة الصابرين عند الله تعالى، في التحقق بمنزلة الصبر في مخالطة الناس ودعوتهم:

إن من مقاصد الابتلاء، بل ومن نعمه على العبد، تحقيق العَبْدية الخالصة لله تعالى، فلا يبلغ العبد مقام العَبْدية الحقيقية، حتى ينجح في عبودية الابتلاء ليخلص لله وحده، ولقد جرت سنة الله تعالى في ابتلاء العباد واختبارهم ببعضهم البعض، ليرى مقدار صبرهم على ذلك، وهو البصير بكل شيء، وذلك ليُعْلِيَ قدر الصابر على مقدار صبره، فللصبر مدارج، ولأهله منازل، ولذلك كان الصبر مقام الأنبياء والمرسلين الأول، في دعوتهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: 20]

وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ))([2])

---

1 ينظر مجالس القرآن، 1/ 179

2 أحمد في مسنده، عن عبد الله بن عمر، برقم: 5022 قال عنه محققه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. وأخرجه الطيالسي (1876)، والبخاري في "الأدب المفرد" (388)، والترمذي (2507)، والبيهقي في "السنن" 89/10 وفي "شعب الإيمان" (8102)

ومن هنا كان من أعظم آثار تطبيق هذه الهداية استحضار هذه الحقيقة، حقيقة العبدية لله تعالى، وذلك من خلال التحقق بها في مجال العبودية النفسية، والاجتماعية، والتي لا تحصل إلا بمجاهدة النفس والتجرد عن أطماع الدنيا وشهواتها، مع الدخول إلى وسط الابتلاء الاجتماعي، في الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وخصوصاً إذا كان العبد في مقام الدعوة إلى الله تعالى، ذلك أن الداعية إلى الله سبحانه وتعالى لا يكون على القدوة الحسنة السوية الكاملة، حتى يكون إماماً في الدين لكل مَن يدعوهم، ولا يكون كذلك إلا إذا عاش بينهم وخالطهم في حياتهم، ودخل تحت ربقة الشريعة عبداً لله تعالى ديناً ودعوة، وهذا كله إنما يتحقق بالصبر في الله ومن أجل دعوة الله لما يتعرّض له الداعية من أجل ذلك من فتنة الابتلاء، كما قال تعالى في سورة السجدة: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[السجدة: 24]

وهذا من أعظم آثار تطبيق هذه الهداية الكلية من سورة الفرقان في واقع الفرد والأمة، إذ الصبر نفسه شرط لتحقيق الاهتداء بالهدايات القرآنية عموماً كما صرحت به آية السجدة هذه.

الخاتمة

في ختام هذا البحث أحمد الله تعالى أولا وأخيراً، على فضله عليّ بالعيش مع كتابه الكريم؛ تدبراً، ومدارسة، ووقوفاً على بعض أسراره وأنواره وهداياته، من خلال هذا البحث المتواضع، كما أحمده سبحانه على توفيقه لي وإعانتي علَى إكماله في حدود ما تيسر لي بحثه ومدارسته ضمن أبوابه وفصوله ومباحثه المخصصة لذلك، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ثم أشكر كل من كان له الفضل على -بعد الله- في إقامة هذا البحث وإتمامه، من أساتذتي ومشايخي، وعلى رأسهم المشرف عليه؛ شيخي الفاضل وأستاذي الكريم **فضيلة الدكتور المكرّم إبراهيم رضا** متعه الله برضاه.

هذا، وإن أهم ما خلص إليه البحث من النتائج والتوصيات هي كالآتي:

أولاً: أبرز النتائج:

(القسم الأول الهدايات القرآنية في سورة النور من الآية 27 إلى آخر السورة)

1. تظهر أهمية هذا الموضوع -موضوع الهدايات القرآنية- في كونه يتعلق بأعظم مقصد من مقاصد القرآن الكريم العملي في هذه الحياة، ألا وهو: هداية العباد للتي هي أقوم.

2. إن كلمة (**الهداية**) تأتي في أصلها اللغوي بمعانٍ، منها: التقدم، الإرشاد، البيان، الدلالة بلطف، العطاء، التعريف بالشيء، القصد والوجهة، السيرة، البحث والتحري... لكنها ترجع عند أهل اللغة إلى معنيين أساسيين هما:

المعنى الأول: يدل على الدلالة، والإرشاد، والبيان؛ وهو الذي يضاف إلى الله تعالى، والقرآن، والرسل، والعباد.

المعنى الثاني: يدل على اللطف، والتوفيق، والثبات، والتأييد؛ وهذا المعنى تفرد الله به سبحانه وتعالى.

وهذان المعنيان هما اللذان ينبني عليهما المعنى الاصطلاحي لكلمة: (**الهداية**)

3. أجمعت كتب (الوجوه والنظائر) في القرآن الكريم أن لفظ (**الهدى**) وما اشتق منه، أكثر الألفاظ وجوهاً في كتاب الله عز وجل، أوصلها بعضهم إلى سبعة وعشرين وجهاً.

4. يرجع الفرق بين ألفاظ: (**الهدى**) و (**الاهتداء**) و (**الهداية**) في اللغة والقرآن الكريم، إلى أن: (الهدى) و(الهداية): يأتيان بمعنى واحد، فهما مصدر لفعل: (**هَدَى**) كما قال الراغب

الأصفهاني: (والهدى والهداية في موضوع اللغة واحد)([1]) وأما لفظ (الاهتداء) فيأتي غالباً لما تحراه الإنسان وطلبه عن طريق الاختيار..

5. التعريف الاصطلاحي للهدايات القرآنية هو: الدلالات المبينة لإرشادات القرآن الكريم، التي توصل لكل خير وتمنع من كل شر.

6. تتجلى أهمية الهدايات القرآنية في كون موضوعها هو القرآن الكريم الذي وصفه الله من حيث هداياته بأنه: روح، ونور، وبصائر، وموعظة، وشفاء، ورحمة، وبركة، وذكر... وهي أوصاف تتضمن لمن تأملها كل الخصائص التي تحيي بها القلوب والنفوس، وتستنير ببصائرها العقول والأرواح، وتسعد بسببها الإنسانية في الدنيا والآخرة.

7. للعلماء منهج واضح في استخراج الهدايات القرآنية، فهو ميزان ومعيار يقي صاحبه من الخطأ والزلل، في التعامل مع القرآن الكريم، لأنه مستخرج ومستقرأ من القرآن نفسه، من مثل: الاعتماد على دلالات الألفاظ، والالتفات إلى تنوع الأساليب، والنظر في اختلاف القراءات، والتأمل في مجموع أدلة الكتاب والسنة، واستحضار حكم التشريع وأسراره، والنظر في أوجه الإعراب، وفهم الآيات من خلال أحوال النزول، والنظر في المناسبات، واستحضار السياق بنوعيْه.. وهكذا.

8. للعلماء إطلاقات يعبرون بها عن الهدايات القرآنية، ولهم طرق يتناولونها، اتسمت هذه الإطلاقات بالضبط والدقة، ووضوح العبارة؛ لأنهم يعبرون بها عن مراد الله تعالى من آياته. من مثل: الدلالة، والإرشاد، والإفادة، والبيان، والإشارة، والفهم، والأخذ...

9. القول الراجع في أسماء السور أنها توقيفية، وذلك لما بين أسمائها وموضوعاتها من الارتباط والتناسق المنظوم؛ كلياً، وجزئياً، وبينها وبين سابقها ولاحقها من دقة التناسب، وهو ما يُعبِّر عن بلاغة الإعجاز البياني الرباني لهذا الكتاب. هذا بالإضافة إلى الأدلة الخارجية الأخرى مما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في مناسبات عدة.

10. سميت سورة النور بهذا الاسم الجليل الجميل، لما فيها من الأنوار الربانية العظيمة، والأسرار والحِكَم الإلهية الجميلة، التي تجلت في مقاصدها التشريعية، وآدابها التربوية، وأخلاقها الاجتماعية، فهي نور للفرد، ونور للأسرة، ونور للمجتمع، بل ونور للبشرية.

11. موضوع سورة النور ومحورها الأساس الذي تدور عليه هو: محور **التربية** (التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وترقى إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة، التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة.)

---

1 المفردات في غريب القرآن، 519.

12. لسورة النور مترلة عظيمة، وفضائل كريمة دل على ذلك مطلع السورة وافتتاحها الفريد الذي يُشير إلى فضلها ومترلتها، ومكانة ما تتضمّنه من أحكام وحِكم وهدايات، وآداب بيِّناتٍ، وأسرار وأنوار هاديات. مع ما ورد من أحاديث وآثار تؤكد ذلك وتبينه.

13. سورة النور من السور المدنية، كما تفصح عن ذلك طبيعة موضوعاتها التشريعية المفصلة والدقيقة، ودروسها التربوية العميقة، فيما يخص أخلاق الأسرة والمجتمع، وعلاقة كل منهما بالآخر، أفراداً وجماعات، وقد أجمع المفسرون على ذلك، وأن جميع آياتها مدنية.

14. علم مقاصد السور من العلوم الجليلة التي لها تعلق بالقرآن الكريم وتدبره، وذلك لما له من دور عظيم في بيان وتحقيق الغاية والمقصد من نزول القرآن الكريم، ألا وهو الاهتداء بهديه، من خلال تدبره، الذي يعني النظر إلى مقاصده وما تهدي إليه في كل المجالات.

15. ومقاصد السورة، أو السور هي: محاورها الأساسية، ومعانيها الرئيسة، التي تعالجها وتدور حولها من خلال أساليب متعددة([1]) ومواضيع متنوعة([2]) للوصول إلى الغرض الأكبر، والمقصد العام الجامع لكل هذه الموضوعات والمعاني.

16. المقصد العام للسورة هو: موضوعها الرئيسي الجامع الكلي، والذي ترجع إليه كل معانيها ومضامينها، وموضوعاتها التفصيلية، فإليه مجرى الكلام، وهو المحصول والمقصود منه، فليس من أجزائه الترتيبية، ولكنه يسري فيه كالروح والسر، والكلام شرحه وتفصيله، وإنتاجه وتعليله.

17. والمقصد العام لسورة النور هو: ذكر أحكام العفاف والستر بإقامة المجتمع المسلم من الداخل، وبنائه على الطهر والستر والعفاف، لحفظ كرامة الأسرة من خلال بناء أسس الإيمان وقواعده التربوية والخُلقية والاجتماعية النظيفة، التي يجب أن يقوم عليها المجتمع الإسلامي لوقايته من الانحراف الخارجي والتفكك الداخلي.

18. تتميز سورة النور بمفردات ومصطلحات خاصة بها، تدل على تفرد أحكامها ومضامينها، ومقاصد موضوعاتها، وبلاغة رسالاتها، وأسرار وهداياتها.

19. اشتمال سورة النور على كثرة المعاني والدلالات التشريعية، والمقاصد الإيمانية والتربوية، جعل آياتها تحمل من الهدايات الربانية والأنوار الإلهية ما لا ينتهي، وقد اجتهدت في استخراج بعضاً من هذه الهدايات بما يسّر الله لي استخراجه، (وقد وصلت إلى: **1625** هداية.

---

1 مما يتعلق بطريقة البيان والأساليب المستعملة، لغوياً وبلاغياً، وكذا ترغيباً، وترهيباً، وقصصاً، وتمثيلا...

2 عقدية، وخلقية، وتعبدية، وغيرها...

من الآية: 27 إلى نهاية السورة الآية: 64) وقد تصل ضعف هذا العدد أو تزيد، فعطاء الآي القرآنية لا ينتهي.

20. لقد اشتملت سورة النور على من مجموعة من الهدايات الكلية، مما يتعلق بأصول الإيمان، وأصول الأخلاق والفضائل؛ النفسية، والأسرية، والاجتماعية. والتي تهدف إلى بناء المجتمع المسلم وصيانته من الفساد والانحراف العقدي والأخلاقي. وقد استخلصت من ذلك: إحدى عشرة هداية كلية. (من الآية: 27 إلى الآية: 64)

21. لعلم المناسبات أثر عظيم في تذوق جمالية النص القرآني في انسجامه وتناسقه، مما يعين على استنباط هداياته، ذلك أن أعظم الهدايات القرآنية وأكثرها مودعة في مناسبات آياته وسوره، كما قال الإمام الرازي رحمه الله: أكثرِ لطائفِ القرآن مودعة في الترتيباتِ والروابط ([1])

22. مما يعين على استخراج الهدايات القرآنية: معرفة خصائص السور، وما تتفرد به في عرض آياتها وموضوعاتها، وما تتميز من أساليب بلاغية، ووسائل تربوية في عرض هداياتها. وقد كان لسورة النور القدح المعلى في هذا الجانب.

23. إن منهج الصحابة رضي الله عنهم في التعامل مع هدايات القرآن أنهم تلقّوها رسائل وبصائر من ربهم، يستبصرون بها واقعهم ويهتدون بها في حياتهم، كما قال عبد الله بن عمر: (كان أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها زواجرها ونواهيها فيقف فيما ينبغي أن يقف عنده) (2)

24. إن واقع الأمة اليوم من هدايات القرآن الكريم عموماً وهدايات سور النور خصوصاً، يدعو إلى وقفة تأمل ومراجعة، فيما يخص علاقتها بالقرآن الكريم وهداياته، فتلك أول خطوة للعودة إلى القرآن مرة أخرى، بعْثاً لروحه ونوره في النفوس، وتجديداً لهداياته في القلوب، لتعود الأمة إلى سابق عهدها، وسالف مجدها.

25. إن سبل تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة قصد التحقق بها، والتخلق بآثارها وأنوارها عملياً، هو الغاية من دراسة القرآن الكريم وتدارس آياته، وتدبرها وتفسيرها، وذلك بما تمثله هذه الهدايات من (الهدى المنهاجي من أجل إبصار لآيات الطريق)

26. إن سورة النور من السور القرآنية التي اختصها الله تعالى بهدايات نورانية: إيمانية، وتربوية، وأُسرية، واجتماعية.. لو تحققت بها الأمة لخرجت -بفضل الله تعالى- مما تتخبط فيه، من أنواع الانحراف والشقاء والخلاف.

---

1 مفاتيح الغيب، 4/ 122

2 رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، حديث برقم: 101، 91/1

27. إن الحياة الروحية للإنسان متوقفة على روح القرآن ونور هداياته، وإن من آثار تطبيق هدايات القرآن الكريم عموماً، وهدايات سورة النور خصوصاً في واقع الأمة، إحياء هذا الإنسان، حياة روحية، وإخراجه من الضلال والهلاك، إلى نور الهداية والفوز والفلاح، كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام: 122]

28. إن القرآن الكريم أنزله الله ليكون منهجاً للحياة، وطريقاً للسير إلى الله سبحانه، ليهتدي العبد بهداياته، ويستنير بنوره، فالمؤمن العاقل هو الذي يهتدي بهداياته، (فإذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حَسُن من فعله وما قَبُح فيه، فما حذَّره مولاه حذره، وما خوّفه به من عقابه خافه، وما رغّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه...)([1])

29. إن سورة النور وما اشتملت عليه من الهدايات العظيمة، الكلية منها والجزئية، كفيلة بأن تحدث آثاراً عظيمة في واقع الأمة، على جميع المستويات، إن هي قامت بتطبيقها، والتحقق بها.

(القسم الثاني الهدايات القرآنية في سورة الفرقان إلى الآية 20)

30. سورة الفرقان من عظائم سور القرآن الكريم، إذ هي السورة المعرِّفة بالله المَنزِّل للقرآن، ولا يعرف عظمة القرآن، إلا من عرف مُنزِّل القرآن سبحانه. دل على ذلك افتتاحها.

31. سميت سورة الفرقان بهذا الاسم لأنها السورة المعرّفة بالقرآن، وبرسالة القرآن؛ وبطبيعة القرآن؛ القرآن بما له من الأوصاف التعريفية الجامعة المانعة: (الفرقان)

32. وجه تسمية سورة الفرقان بهذا الاسم لافتتاحها به: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الآية: 1] وما لهذا الاسم من دلالة، وما له كذلك من صلة وثيقة بموضوعات السورة وأغراضها الأساسية.

33. إن المقصد العام لسورة الفرقان هو: التعريف بالقرآن بما هو منهاج عملي، ورسالة ذات قضية فرقانية تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والظلمات والنور.

34. تفردت سورة الفرقان بمفردات ومصطلحات خاصة بها، في سياق عرض موضوعاتها وأحكامها، دلت على مقاصد رسالاتها، وأسرار هداياتها.

35. اشتملت سورة الفرقان على كثير من الحقائق الإيمانية العظيمة، حقائق تتعلق بالله تعالى وبآياته، وبالقرآن وطبيعته، وبالكون وعظمته.. كل ذلك جعل آياتها تحمل من الهدايات

---

1 ينظر: أخلاق حملة القرآن، للإمام الآجري، 40-39

الربانية والأنوار الإلهية ما لا ينتهي، وقد اجتهدت في استخراج بعضاً من هذه الهدايات بما يسّر الله لي استخراجه، (وقد وصلت حوالي **715** هداية. من الآية: 1 إلى الآية: 20) وقد تصل ضعف هذا العدد أو تزيد، فعطاء الآي القرآنية لا ينتهي.

36. لقد اشتملت سورة الفرقان على من مجموعة من الهدايات الكلية، مما يتعلق بأصول العقائد والفضائل، والأخلاق القرآنية في طبيعتها العملية؛ رسالةً ودعوة، وتزكية وتربية، وذلك بما رسمه الله فيها من معالم (**فرقانية**) ربانية تشق طريق النور للبشرية الحائرة في الظلمات، وتفرق بأنوارها المنهاجية العملية بين الحق والباطل، والهدى والضلال. وقد استخلصت من ذلك تسع هدايات كلية. (من الآية: 1 إلى الآية 20)، وقد تزيد على ذلك، أو تنقص حسب النظر الاستقرائي الكلي لآياتها.

ثانياً التوصيات:

لا شك أن السر كل السر كامن في منهج التعامل مع القرآن الكريم وذلك هو سؤال العصر، ولقد أجمع السابقون واللاحقون على أن المنهج إنما هو ما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أمر القرآن.. وما كان محمد صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضوان الله عليهم يتعاملون مع القرآن، إلا بمنهج القرآن نفسه، مما ذكرتْه عشرات الآيات القرآنية وأَمَرت به،([1]) من استحضار لخصوصيته الغيبية، ومصدريته الإلهية؛ وتذكير بوظائفه ومقاصده، وبيان لطريقة تلقيه وحْياً؛ آية، آية، وحكمة، حكمة، على سبيل التخلق الوجداني، والتمثل التربوي لحقائقه الإيمانية وأنواره الربانية.

ومن هنا يرى الباحث أن من أهم التوصيات التي ينبغي أن تذكر في هذا الصدد:

1) الدعوة إلى اعتماد القرآن الكريم منطلقاً للأبحاث، وميداناً للدراسات في هذا السياق، وذلك في مختلف المجالات؛ الفقهية، والفكرية، والعقدية، والتربوية، مع إبراز الجهود المبذولة في هذا الصدد من قبل علمائنا السابقين وإخراجها للاستفادة منها، هذا ويمكن اعتبار كتاب: (الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية) لنجم الدين الطوفي (توفي716هـ) من البوادر الأولى ضمن دراسة مستقلة التي لامست هذا الموضوع؛ موضوع الهدايات القرآنية، في مجالي: أصول الدين، وأصول الفقه، -رغم خصوصية مباحثهما- وقد سماها هو رحمه الله ب"الإشارات

1 ينظر مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ، 9. فريد الأنصاري رحمه الله.

الإلهية" لكنه لم يستوعب طرق الاستنباط في هذه الإشارات.. كما أنه لم يستوعب كل آيات السور القرآنية.

2) تعميق الدراسة أكثر في المجال البياني والبلاغي للقرآن الكريم، باعتباره مجالا خصباً لاستخراج الهدايات والمقاصد القرآنية، والاهتمام بكتب التفسير التي نحت هذا النحو في تفسير القرآن الكريم ودراستها ضمن بحوث تخصص لهذا الجانب.

3) دراسة الهدايات القرآنية ضمن علم المناسبات القرآنية ضمن هذا الترتيب:

أ- الهدايات الكلية للقرآن الكريم، باستحضار السياق العام لنزول القرآن، ب- الهدايات الخاصة بسور القرآن الكريم، باستحضار الأسباب والسياقات الخاصة لنزولها، ج -الهدايات الجزئية المتعلقة بالآيات القرآنية، بالنظر في نظمها، وترتيبها، وموضوعاتها الخاصة والعامة. د- الهدايات الخاصة بالألفاظ والكلمات القرآنية.

4) تصنيف الهدايات القرآنية ضمن مجالات متعددة يسهل الرجوع إليها، كالمجال العقدي، والتعبدي، والتربوي، والتشريعي، والدعوي، والعلمي، والاجتماعي، والاقتصادي والسياسي...

5) إعطاء عناية خاصة لمجال آيات الأحكام الفقهية، -مع توسيع هذا المجال ليشمل القصص والأمثال- واستخراج هداياتها الإيمانية، والتربوية، نظراً لارتباطها اليومي بحياة الناس العملية التعبدية، وذلك قصد ربطها بالمجال الإيماني، التربوي، لما لذلك من آثار وأبعاد روحية وأخلاقية في صلاح الفرد والمجتمع.

هذا فما كان من توفيق وصواب فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو زلل أو نسيان، -وهو كثير- فمني ومن نفسي. فأسأل تعالى الله عفوه، وأعوذ بالله أن أُذَكِّرَ به وأنساه، وحسبي الله ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العلمين.

الفهارس العامة

وتشمل

(1) فهرس الآيات القرآنية موضوع البحث.
(2) فهرس الأحاديث والآثار.
(3) فهرس أسماء الأعلام الواردة في البحث.
(4) فهرس المصادر والمراجع.
(5) فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية موضوع البحث

طرف الآية ورقمها في السورة **الصفحة**

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا﴾ [النور: 27] 132

﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا﴾ [النور: 28] 145

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا﴾ [النور: 29] 153

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [النور: 30] 157

﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ [النور: 31] 166

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النور: 32] 181

﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: 33] 188

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ [النور: 34] 197

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: 35] 202

﴿بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [النور: 36].....215

﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 37] 223

﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم﴾ [النور: 38].....230

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ [النور: 39].....234

﴿كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ﴾ [النور: 40].....240

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: 41].....246

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [النور: 42].....251

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ [النور: 43].....254

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [النور: 44].....259

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ﴾ [النور: 45].....363

﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ﴾ [النور: 46].....268

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾ [النور: 47].....272

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النور: 48].....277

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾ [النور: 49].....282

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ [النور: 50].....285

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النور: 51].....291

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ﴾ [النور: 52].....297

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [النور: 53].....300

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ [النور: 54].....305

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النور: 55].....311

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: 56].....321

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ﴾ [النور: 57].....326

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾ [النور: 58].....329

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾ [النور: 59].....340

﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ [النور: 60].....346

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ﴾ [النور: 61].....352

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: 62].....365

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ ﴾ [النور: 63].....374

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [النور: 64].....383

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: 1].....531

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الفرقان: 2].....543

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [الفرقان: 3].....550

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: 4].....556

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا ﴾ [الفرقان: 5].....562

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۚ ﴾ [الفرقان: 6].....568

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: 7].....576

﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾ [الفرقان: 8].....583

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ ﴾ [الفرقان: 9].....587

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا﴾ [الفرقان: 10].....591

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾ [الفرقان: 11].....596

﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [الفرقان: 12].....601

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان: 13].....605

﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا ﴾ [الفرقان: 14].....608

﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [الفرقان: 15].....611

﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ﴾ [الفرقان: 16].....615

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الفرقان: 17].....619

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ [الفرقان: 18].....623

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: 19].....628

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الفرقان: 20].....632

فهرس الأحاديث والآثار

طرف الحديث .....الصفحة

أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ..... 537-484, 689
أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين 87
أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِه..... 494
ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ..... 226
إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي عَرَبِيَّةٍ مِنْ عَرَبِيَّةِ الْقُرْآنِ، فَاكْتُبُوهَا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ..... 60
إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاَثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ 92,140, 393
إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى مَجْلِسٍ فَلْيُسَلِّمْ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ..... 137,142
إذا حدثت عن الله؛ فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده..... 57
إِذَا خَرَجَتِ الرُّوحُ تَبِعَهَا الْبَصَرُ 483
إذا سلم أحدكم ثلاثاً فلم يجب فليرجع 92
إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ 490, 497
اذْهَبْ إليه فَقُل له إنّك لستَ من أهل النار ولكنك من أهل الجنة..... 462
اذهبي فابغينا شيئاً فأنزل الله 93
ارْجِعْ فَقُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ..... 140
اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا، أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟..... 143
اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا 601
اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّة:..... 487
أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ؛ السَّبْعَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ؛ الْمَئِينَ..... 507
أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ، رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ..... 546
أفعمياوان أنتما..... 166
اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ 73
أَكُلَّ ولَدِكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَه؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْهَد عَلَى حَيْفٍ 113
أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ 225
أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ..... 220
ألا لا تغلوا صدق النساء، ألا لا تغلوا صدق النساء..... 454
أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ..... 494
أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، 288
البَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ..... 462
الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ 87
التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآية..... 489
التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآية..... 184
الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا..... 222
الْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا 96
القلوب أربعة: قلب أجْرَد فيه سراج يُزْهر 491,35
الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، 301
الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب 87

اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ 206
أَنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي أُنَاسٍ كَانُوا إِذَا خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ 411
إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ 287,475
إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ 74
إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا 451
إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ 231
أَنَّ أُنَاساً كَانُوا إِذَا خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يَعْنُونَ فِي الْجِهَادِ 353
إن جارية لعبد الله بن أبى ابن سلو 93
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا سَلَّمَ، سَلَّمَ ثَلاَثًا 393
إن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل 484
إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ 108
أن يرى العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه طاعة الله 490
إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به 669
إنّا صَعُب علينا حِفْظُ ألفاظ القرآن وسهُل علينا العمل به 484
إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ 179
إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ 142
أنه سئل عن المتلاعنين أيفرق بينهما؟ 86
أنه فسر سورة النور لو سمعها الروم والترك والديلم لأسلموا 428
أنه قال: ذُكر التلاعن عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ 86
إِنَّهُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي 75
إِنِّي بَعَثْتُكَ، لِأَبْتَلِيكَ وأَبْتَلِيَ بِكَ 635
أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى حلة من جهنم إبليس فيضعها على جبينه 521
إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ بِالطُّرُقَاتِ 450,179
بَلْ هِيَ الْفَاضِحَةُ مَا زَالَتْ تَنْزِلُ، وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ 75
بلى والله إني لأُحب أن يغفر الله لي 91
بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ آخِرَةُ الرَّحْلِ 672
بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ 73
تركتُ فيكم أمرَيْن لن تضلُّوا ما إنْ تمسَّكتُم بهما: كتاب الله وسنَّتي 499
تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه أن لا يضلّ في الدنيا 446
تعلموا سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة المائدة، 80
تعلّموا سورة براءة، وعلّموا نساءكم سورة النور 81
تنكح المرأة لأربع: لمالها، وجمالها 183
تهادوا تحابوا 64,16
ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَوْنُهُمُ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالنَّاكِحُ 190,185.119,
ثم خطب ابن عباس وهو على الموسم، فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسّر 467,81
جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى 401
جئت أسْتَعْدِي رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل لي عليه شطر تمر 279
حدثنا الذين يقرئوننا القرآن أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا إذا تعلموا عشر آيات 669
خَيْرُ الصَّدَاقِ أَيْسَرُهُ 454
دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن، 392
سل لي يا عاصم عن ذلك رسول الله 85
صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ 452,225,174

عجبي ممن لا يطلب الغني في النكاح، 184
علِّمُوا رِجَالَكُمْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ، وَعَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّور 467,427,181
فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ 218
فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ 503
فأشار على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالذي يعلم من براءة أهله 89
فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي 450
فأمسك رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يردَّ عليَّ شيئاً 84
فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى اللَّه تاب اللَّه عليه 90
فإن لم يكن أحد فعلى نفسه ليقل السلام علينا من قبل ربنا 361
فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات في سورة النور 76
فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ 86
فتلكأت ونكصت، حتى ظننا أنها ترجع 87
فرّق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أخويْ بني العجلان 87
فسكت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يجبه. 86
فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ 542
فقال: يا أبا عبد الله من أين أُحْرِم؟ قال: من ذي الحليفة 499
فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ 685
قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر، وأنا الدهر 260
قَالَ اللَّهُ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ 597
قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ 663
قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ 615
قال المشركون: إن كان محمد يزعم نبياً فَلِمَ يعذبه ربه 511
قال: سل ابن عباس عن هاتين الآيتين 511
قذف امرأته عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بشريك بن سحماء 87
قلت: لبيك يا رسول الله وسَعْديك 316
كان أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة فيتعلم حلاله 447
كَانَ إِذَا سَلَّمَ، سَلَّمَ ثَلاَثًا 141
كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ 481
كان رجل يُقال له مرثد بن أبي مرثد 84
كان رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه 88
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم، لم يستقبل الباب 141
كَانَ رسولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمْلَكَكُمْ لإِرْبِه 105
كان عبد الله بن أُبي بن سلول يقول لجارية له: اذهبي 192
كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن تعلّموا سُوْرَةَ النِّسَاءِ والأَحْزَابِ والنور 427
كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى 308
كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ 548
كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، 478
كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ، إِذْ جَاءَ أَبُو مُوسَى كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ 392
لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ 532, 640
لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ 160,118
لاَ تَتَرَاءَى نَاراهُمَا 662,601
لا تَدْخُلنّ امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ الحَمَّامَ إلاّ مَنْ سَقم، وَعَلِّمُوْا نِسَاءَكُم سُورَةَ النُّور 467

لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا 362
لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد 175
لتأتين على ما تقول ببينة وإلا لأفعلن بك كذا وكذا 92
لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها 149
لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا، وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتَى الْإِيمان قَبْلَ الْقُرآن 679
لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة وآواهم الأنصار 312
لَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ النُّورِ عَمَدْنَ إِلَى حُجَزٍ أَوْ حُجُوزِ مَنَاطِقِهِنَّ فَشَقَقْنَهُ 77
لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: فَقَدْ عَدَلْنَا بِاللَّهِ وَقَتَلْنَا النَّفْسَ 510
لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ 232
لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس 303
لو رجمتُ أحدًا بغير بينة رجمتُ هذه 86
لو علمت أن هذا ينظرني حتى آتيه لطعنت بالمِدْرى 147
لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ 594
لَوْأَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ لَطَعَنْتُ به في عَيْنِكَ إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ 138
لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله 465
لولا ما مضى من كتاب اللَّه لكان لي ولها شأن 88
ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله 192
مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِي النَّاسِ فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ 488,168,
ما مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَة 497
مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ 344,497
مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ 484
مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ 676,449
مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا 688
مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ مَثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ 218
مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ 74
مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ إِذَا الْتَجَّ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ 110
من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد 378
مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ 74
مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ 622
مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْه وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنُ لَهُ الْجَنَّةَ 471
من يكفل لي ما بين لَحْيَيه وما بين رجليه 163
نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ 494
نهى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن كسب الإماء 193
هِيَ هَذِهِ الْمَسَاجِدُ، أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، بِبِنَائِهَا وَرَفْعِهَا، وَأَمَرَ بِعِمَارَتِهَا وَتَطْهِيرِهَا 218
وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً 177
والله لا أُنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة 91
وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفُّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ 189
واهدوا هدْي عمَّار 64,16
وَدِدت أنّ الله تعالى نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول إلينا 83
وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ 229
وفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى كَلَامِ الْبَشَرِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ 694,545
وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ 183,473,

وَلاَ إِيَّايَ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَلَكِنْ سَدِّدُوا 232
وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلاَمِي 194
وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ 475
يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟ 143
يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنَكّساً رأْسَه 462
يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ 176
يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ 119
يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج 181, 190, 453, 489
يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ 494
يارسول الله أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام؟ 92
يارسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها 92
يرحم الله نساء المهاجرات الأول 171
يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ 74
يَقُولُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالكَهْفِ، وَمَرْيَمَ، وَطه، وَالأَنْبِيَاءِ: 75
يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا 602

فهرس أسماء الأعلام الواردة في البحث

اسم العلم	الصفحة
ابْنُ أَبْزَى	509
ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ	493
ابن الجوزي	22, 78, 106
ابن العربي	64, 136, 381, 410, 461
ابن القيم	20, 28, 33, 37, 43, 52, 65, 66, 72
ابن أم مكتوم	166
ابن تيمية	23, 57, 474
ابن جني	48
ابن دقيق العيد	56
ابن عاشور	44, 67, 505
ابن عباس	35, 38, 39, 87,130, 361, 410, 489, 508, 511
ابن عطية	19, 26, 160
ابن عمر	76, 279
ابن فارس	15, 19, 28, 50, 103, 106, 115, 518
ابن قتيبة	114
ابن كثير	18, 21, 24, 37, 38, 64, 425
ابن مسعود	184, 484, 489, 669
ابن منظور	17, 18, 49, 108
ابن منظور:	107
أبو البقاء الكفوي	29, 30
أبو السعود	207,34,
أبو الفتح القشيري	50
أبو بكر ابن العربي	53
أبو بكر الباقلاني	41
أبو بكر الصديق	91
أبو جعفر الطبري	36
أبو جعفر بن الزبير	653
أَبو حَنِيفَةَ:	112
أبو حيان	66-137
أبو داود	141, 393
أبو زهرة	100
أبو عبد الرحمن السلمي	669
أَبُو مُوسَى	140
أبو موسى الأشعري	92
أَبُو هُرَيْرَةَ	177
أَبِي الدَّرْدَاءِ	74
أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيّ	73
أبي بكر النيسابوري	51

أبي بن كعب ..... 110, 203, 141، 312
أبي سعيد الخدري 92-303-140
أبي شريح الخزاعي 689
أبي هريرة 175, 194, 260
الأزهري 26
البخاري 86, 87, 91, 260, 511, 597,509
البغوي 32
البقاعي 98, 505
البيهقي 81, 427, 467
الترمذي 84
الجرجاني 19
الجصاص 65, 279
الجوزي 106
الجوهري 16
الحارث المحاسبي 694
الحاكم 80, 427
الحسن 37
الحسن البصري 447, 484, 490
الرازي 53, 67, 96
الراغب الأصفهاني 17, 18,,29 49, 104, 415
الزبير بن بكار 499
الزجاج 25, 109, 174
الزرقاني 447
الزركشي 18, 45, 50, 51, 52, 57, 469, 505
الزمخشري 26, 30, 44, 49, 65, 153, 531
السّرخسي 66
السعدي 33, 44
السيوطي 53,22, 73, 81, 427
الشاطبي 32, 47, 60, 479
الشافعي 56, 57, 432, 689
الشنقيطي 32, 40, 67
الطاهر بن عاشور 54,21, 75,83,61, 130, 424
الطبري 32, 53, 397, 425
الطبري: 73
الغرناطي 98
الغزالي 66
القاضي ابن العربي 499
القرطبي 34, 39, 83, 98, 100, 461, 490
الكفوي 20
المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ 80, 427
النحاس 170
أم المؤمنين عائشة 91, 481

أم سلمة 166
أنس بن مالك ..... 401,494 ,462,60
جابر 192
جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ 450
حَارِثَةَ بْنَ مُضَرِّبٍ ..... 467 ,427
حذيفة بن اليمان ..... 491 ,35
سعد بن معاذ 90
سعيد ابن جبير 508,511,75
سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ..... 450 ,392
سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ 411
سعيد بن منصور 81
سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ 503
سهل بن سعد 85
سهل بن سعد الساعدي 147
عاصم بن عدي الأنصاري 85
عائشة ..... 171 ,166 ,88
عبادة بن الصامت 487
عبد الباقي بن قانع 279
عبد الحميد ابن باديس 61
عبد الحميد الفراهي 52
عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ 60
عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَزِيدَ بْنِ قَيْسٍ 75
عبد الرزاق الصنعاني ..... 467 ,427 ,81
عبد الرؤوف المناوي 20
عبد اللهُ بن أُبي ابنُ سلول 93
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ 60
عبد الله بن أنيس 92
عبد الله بن عباس ..... 679 ,531 ,477 ,428 ,375 ,81
عبد الله بن عمر 447
عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ..... 61،218
عدي بن ثابت 92
عمر بن الخطاب ..... 503,651 ,447 ,427 184, ,81 ,80
عمرو بن شعيب 84
عويمراً العجلانيَّ 85
فخر الدين الرازي 52
قَتَادَةُ 106,149
كلدة بن حنبل 392,140
الزمخشري 61
الفراء 106
مالك بن أنس ..... 381،411
مالك بن دينار 34
محمد بن الحسن 65

محمد عبد الله دراز 97
مُدْلج بن عمرو 83
مرثد بن أبي مرثد 84
مسروق بن الأجدع 58
مسلم بن يسار البصري 57
مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ 672
مقاتل بن سليمان البلخي 22
هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ 74
هلال بن أُمية 87
يحيى بن سلام 22

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم. (مصحف المدينة للنشر الحاسوبي)
- الإتقان في علوم القرآن، 4/1: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: 1394ه/ 1974 م
- الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، 13/1: ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (المتوفى: 643هـ) دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الثالثة، 1420 هـ - 2000 م
- إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، 2/1: ابن دقيق العيد الناشر: مطبعة السنة المحمدية الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ
- أحكام القرآن: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: 370هـ) المحقق: محمد صادق القمحاوي – عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت تاريخ الطبع: 1405 هـ
- أحكام القرآن، 4/1: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: 543هـ) راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م
- أحكام القرآن، 4/1: عماد الدين بن محمد الطبري، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (المتوفى 504هـ) دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، 1403هـ - 1983م
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 8/1: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
- أساس البلاغة، 2/1: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري (المتوفى: 538هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط:1، 1419 هـ 1998 م
- الأساس في التفسير، 1/ 10: سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة.
- أسباب نزول القرآن: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ) المحقق: كمال بسيوني زغلول الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، 1411 هـ

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 4/1: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ) المحقق: علي محمد البجاوي الناشر: دار الجيل، بيروت الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م
- أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (المتوفى: نحو 505هـ) المحقق: عبد القادر أحمد عطا، دار النشر: دار الفضيلة
- أسوار العفاف قبس من سورة النور: عصام بن صالح العويد، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1432هـ - 2011م الرياض المملكة العربية السعودية.
- الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية: نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي ابن عبد الكريم الطوفي. (توفي سنة716 هـ) تحقيق أبو عاصم حسن بن عباس بن قطب، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر. الطبعة الثانية: 1429هـ- 2008م
- الإصابة في تمييز الصحابة، 8/1: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى - 1415 هـ
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 8/1: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: 1393هـ) الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان سنة النشر: 1415 هـ - 1995 م
- الاعتصام: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: 790هـ) تحقيق: سليم بن عيد الهلالي نشر: دار ابن عفان، السعودية الطبعة: 1، 1412هـ - 1992م
- إعجاز القرآن للباقلاني، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، (توفي403ه) تحقيق السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف/ مصر. الطبعة الخامسة: 1995م
- إعراب القرآن وبيانه، 10/1: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: 1403هـ) الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت) الطبعة: الرابعة، 1415 هـ
- إعراب القرآن: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: 338هـ) وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، 1421 هـ

- إعراب القرآن: إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: 535هـ) تحقيق: فائزة بنت عمر المؤيد. الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1995 م الناشر: مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، 4/1 محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751هـ تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1991م
- الأعلام للزركلي، 8/1: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي (بكسر الزاي والراء) الدمشقي، الناشر: دار العلم للملايين، سنة النشر: 2002م الطبعة:15
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، 2/1: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) المحقق: محمد حامد الفقي الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية
- الإكليل في استنباط التنزيل: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت 1401 هـ - 1981 م
- الأمثال في القرآن: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) الناشر: مكتبة الصحابة – مصر- طنطا – بجوار محطة القطار – خلف المعهد الأزهرى شارع الجنبية الغربي المحقق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد الطبعة: الأولى 1406 هـ - 1986 م
- إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، للحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/2، ت/ 1406هـ،
- انشراح الصدور في تدبر سورة النور: سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1426هـ - 2005م
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، 5/1: أبو بكر جابر بن موسى الجزائري الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: الخامسة، 1424هـ/2003م
- الإيضاح في علوم البلاغة، 3/1: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: 739هـ) المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي الناشر: دار الجيل – بيروت الطبعة: الثالثة

- باهر البرهان فى معاني مشكلات القرآن، 3/1: أبو الحسن علي بن الحسين النيسابوري الغزنوي، أبو القاسم، الشهير ب (بيان الحق) (المتوفى: بعد 553هـ) تحقيق: سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي، الناشر: جامعة أم القرى، سنة النشر: 1419هـ1998م
- بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: 373هـ)
- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ) المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: 1420 هـ أصول السرخسي، 236/2
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، 6/1: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ) المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة الطبعة: 1419 هـ
- البرهان في علوم القرآن، 4/1 أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957م دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز 16/1: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: 817هـ) المحقق: محمد علي النجار الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
- بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق: فريد الأنصاري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، سنة 1423- 2002
- البلاغة العربية، 2/1: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: 1425هـ) الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1996م
- البيان والتبيين، 3/1: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ) الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: 1423 هـ
- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، 11/1: محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ) (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى: 369هـ) الناشر: دار التراث – بيروت الطبعة: الثانية - 1387 هـ
- التبيان في آداب حملة القرآن: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ) حققه وعلق عليه: محمد الحجار الطبعة: الثالثة مزيدة ومنقحة، 1414 هـ - 1994 م الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت – لبنان.

- التبيان في تفسير غريب القرآن: أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، أبو العباس، شهاب الدين، ابن الهائم (المتوفى: 815هـ) تحقيق: ضاحي عبد الباقي محمد الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت الطبعة1 – 1423 هـ
- التحرير والتنوير: = تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) 12/1 محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ) الناشر الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: 1984 هـ
- تذكرة الأريب في تفسير الغريب، (غريب القرآن الكريم) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) تحقيق: طارق فتحي السيد الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م
- تذكرة الحفاظ،4/1: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ) الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان الطبعة: الأولى، 1419هـ- 1998م
- تربية الأولاد في ضوء القرآن والسنة: خالد عبد الرحمن العك :ط1، بيروت:دار المعرفة، 1998م.
- التربية القرآنية في سورة النور: أنور أحمد داود أعمير، طبعة 1425هـ - 2004م غزة/ فلسطين.
- التسهيل لعلوم التنزيل: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: 741هـ) المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت الطبعة: الأولى - 1416 هـ
- التضمين النحوي في القرآن الكريم، 2/1 محمد نديم فاضل، الناشر دار الزمان، المدينة/ المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1426هـ/ 2005م
- التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ) ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ط:1 1403هـ -1983م
- تفسير أسماء الله الحسنى، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: 311هـ) المحقق: أحمد يوسف الدقاق الناشر: دار الثقافة العربية. بدون سنة الطبع.
- تفسير الإمام ابن عرفة، 2/1: محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: 803هـ) المحقق: د. حسن المناعي، الناشر: مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس الطبعة: الأولى، 1986 م
- التَفسير البسيط: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت 468هـ) المحقق: أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت

لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه الناشر: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة: الأولى، 1430 هـ

- تفسير التستري: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري (المتوفى: 283هـ) جمعها: أبو بكر محمد البلدي المحقق: محمد باسل عيون السود الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – 1423هـ
- تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى: 864هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: 911هـ)، دار الحديث – القاهرة الطبعة: الأولى
- التفسير الحديث:15/1 (مرتب حسب ترتيب النزول): دروزة محمد عزت الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة الطبعة: 1383 هـ
- تفسير الشعراوي – الخواطر، 20/1: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ) الناشر: مطابع أخبار اليوم، 1997م
- تفسير القرآن العزيز: 5/1 أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: 399هـ) المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة – محمد بن مصطفى الكنز الناشر: الفاروق الحديثة – مصر، القاهرة الطبعة: الأولى، 1423هـ – 2002م
- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: 327هـ) تحقيق: أسعد محمد الطيب الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية الطبعة: الثالثة – 1419 هـ
- تفسير القرآن العظيم، 6/1: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م
- تفسير القرآن الكريم: لعبد الله شحاتة، (توفي 1424هـ) الطبعة الثانية: دار غريب القاهرة سنة الطبع: 2000م
- تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر، 10/1: هدى رشيد جاد الله. ضبط ومراجعة: مروان محمد أبوراس. منشورات: الجامعة الإسلامية ورابطة علماء فلسطين: غزة –فلسطين. سنة النشر: 1427هـ - 2006م
- التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد 1390هـ) الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة

- تفسير القشيري = لطائف الإشارات، 4/1: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ) المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الثانية، 2007م
- التفسير القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت الطبعة: الأولى – 1410 هـ
- تفسير الماتريدي = (تأويلات أهل السنة) 8/1 محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي (المتوفى: 333هـ) بتحقيق: فاطمة يوسف الخيمي، الناشر: مؤسسة ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى: 1425هـ - 2004م
- التفسير المأمون على المنهج التنزيل والصحيح المسنون 8/1: مأمون حمّوش، الطبعة الأولى 1428هـ - 2007م دمشق، سوريا.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج:15/1 د وهبة بن مصطفى الزحيلي الناشر: دار الفكر المعاصر – دمشق الطبعة الثانية: 1418 هـ.
- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، 7/1 إعداد فريق من العلماء بإشراف مصطفى مسلم، الناشر: كلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، 1431هـ / 2010م
- تفسير النسفي = (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) 3/1: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: 710هـ) حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998
- التفسير الوسيط للزحيلي، 3/1: وهبة بن مصطفى الزحيلي الناشر: دار الفكر – دمشق الطبعة: الأولى 1422 هـ
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، 3/1: محمد سيد طنطاوي الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة الطبعة: الأولى: 1997م
- تفسير سورة النور: أبو الأعلى المودودي، طبعة مؤسسة الرسالة، دون سنة الطبع.
- تفسير سورة النور: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، راجع نصوصه وخرج أحاديثه عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: الدار السلفية بومباي الهند، الطبع الأولى 1408هـ - 1987م

- تفسير سورة النور: عبد الهادي التازي. طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية –المملكة المغربية– طبعة: 1405هـ– 1984م
- تفسير سورة النور: محمد صالح العثيمين، إصدار مؤسسة الشيخ بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة الأولى: 1436هـ
- تفسير مقاتل: مقاتل بن سليمان أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: 150هـ) المحقق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت الطبعة: الأولى– 1423هـ
- التفسير والبيان لأحكام القرآن، عبد العزيز الطريفي، 5/1 الطبعة الثالثة، 1439ه، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض.
- تقريب التهذيب: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ) المحقق: محمد عوامة الناشر: دار الرشيد – سوريا الطبعة: الأولى، 1406 – 1986
- تلخيص المستدرك = المستدرك وبذيله تلخيص المستدرك للحافظ الذهبي، الطبعة الأولى: مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة بالهند بمحروسة حيدر سنة (1340) هجرية.
- التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم: فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار ابن كثير للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، 1439هـ–2018م
- التنشئة الاجتماعية في سورة النور والأحزاب: نسرين إسماعيل حسن. الطبعة الأولى 1430هـ – 2009م غزة/ فلسطين.
- التنصيص على شواهد التخصيص (بحث في خصائص النبي صلى الله عليه وسلم التي تميز بها عن باقي الأنبياء): إدريس ابن الضاوية، منشورات المجلس العلمي الأعلى– المملكة المغربية. الطبعة الأولى: 1433هـ–2012م.
- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، 2/1: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) الناشر: المكتبة التجارية الكبرى –مصر عام النشر: 1389 – 1969 هـ
- تهذيب اللغة، 8/1: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ) المحقق: محمد عوض مرعب الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى، 2001م
- التوقيف على مهمات التعاريف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: 1031هـ الناشر: عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت–القاهرة الطبعة: الأولى، 1410هـ–1990م

- تيسير البيان لأحكام القرآن،4/1: الإمام الفقيه محمد بن علي اليمني الشافعي، المشهور بابن نور الدين، (ت 825هـــ) بعناية عبد المنعم الحرش، دار النوادر،ط الأولى: 1433هـ – 2012م
- تيسير التفسير: إبراهيم القطان، (توفي 1405) الطبعة الأولى: عمان 1982/1402، بمراجعة وضبط: عمران أحمد أبو حجلة.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، مؤسسة الرسالة ط: الأولى 1420هـ–2000 م
- التيسير في أحاديث التفسير، 6/1: المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1405هـ – 1985م
- جامع البيان في تأويل القرآن، 24/1: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 2000 م
- الجامع لأحكام القرآن، 10/1: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، 1384هـ – 1964 م
- جهود العلماء في استنباط مقاصد القرآن الكريم: الدكتور مسعود بودوخة، ص، 4 بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه. بالشارقة.
- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي (وهو شرح مختصر المزني) 19/1: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ) المحقق: الشيخ علي محمد معوض – الشيخ عادل أحمد عبد الموجود الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1419 هـ –1999 م
- الخصائص، 3/1: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: 392هـ) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الرابعة.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، 11/1: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: 756هـ) المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط الناشر: دار القلم، دمشق
- الدر المنثور، 8/1: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) الناشر: دار الفكر – بيروت

- درج الدرر في تفسير الآيات والسور، 4/1: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (المتوفى: 471هـ) تحقيق: وليد بن أحمد بن صالح الحسين- إياد عبد اللطيف القيسي، الناشر: مجلة الحكمة/ بريطانيا –مانشستر، الطبعة الأولى 1429هـ- 2008م
- دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، 6/1: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ) ت: محمد السيد الجليند الناشر: مؤسسة علوم القرآن – دمشق الطبعة: الثانية، 1404
- دلالة سورة النور على مقصد حفظ النسل: أحمد حسن الربابعة، محمد مجلي الربابعة، منشور على الشبكة العنكبوتية (بي دي إف) دون دار النشر ولا تاريخ الطباعة.
- دلائل الإعجاز، 3/1: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: 471هـ) المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة 1413هـ - 1992م
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، 7/1: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى - 1405 هـ
- دلائل النظام، عبد الحميد الفراهدي الهندي، (توفي: 1349هـ) الناشر: المطبعة الحميدية، سنة الطبع: 1388هـ الطبعة الأولى.
- الرد المفحم على من خالف العلماء وتشدد وتعصب وألزم المرأة أن تستر وجهها وكفيها وأوجب ولم يقنع بقولهم: إنه سنة ومستحبة،2/1: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: 1420هـ) الناشر: المكتبة الإسلامية - عمان – الأردن الطبعة: الأولى – 1421
- الرسالة: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: 204هـ) المحقق: أحمد شاكر الناشر: مكتبه الحلبي، مصر الطبعة: الأولى، 1358هـ/1940م
- روائع البيان تفسير آيات آيات الأحكام من القرآن، 2/1 محمد علي الصابوني، الطبعة الأولى، 1421ه/2001م المكتبة العصرية- صيدة، بيروت.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط: 1403هـ/1983م
- زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) المحقق: عبد الرزاق المهدي نشر: دار الكتاب العربي – بيروت ط1: - 1422 هـ

- زاد المعاد في هدي خير العباد، 5/1: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت الطبعة: السابعة والعشرون , 1415هـ /1994
- الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ) المحقق: مسعد عبد الحميد السعدني الناشر: دار الطلائع
- الزهد والرقائق: ابن المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: 181هـ) المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. دون سنة الطبع.
- زهرة التفاسير: 10/1: محمد أبو زهرة، طبعة دار الفكر العربي، دون سنة الطبع
- سبق الغايات في نسق الآيات: العلامة المفسر أشرف علي التهانوي، المعروف بحكيم الأمة (توفي1362هـ) تحقيق: محمد بن عبيد الله الأسعدي. مطبعة دار الكلمة للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى: 1441هـ-2020م
- سراج المريدين في سبيل الدين، 4/1 الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي المعافري، (ت543هـ) تحقيق عبد الله التوراتي، الناشر دار الحديث الكتانية، مطبعة دار الأمان –المغرب–ط1، 1437هـ/ 2017م
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، 4/1 المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: 977هـ) الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة عام النشر: 1285ه
- سنن ابن ماجه، 2/1: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: 273هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء الكتب العربية –فيصل عيسى البابي الحلبي.
- سنن أبي داود، 4/1: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو السِّجِسْتاني (ت: 275هـ) المحقق: محيي الدين عبد الحميد، نشر:المكتبة العصرية، صيدا، بيروت
- سنن الترمذي، 5/1: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ 1، 2) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ 3) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ 4، 5) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، 1395 هـ-1975م

- سنن سعيد بن منصور: 2/1 أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (المتوفى: 227هـ) المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي الناشر: الدار السلفية – الهند الطبعة: الأولى، 1403هـ -1982م
- السيرة النبوية لابن هشام، 2/1: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213هـ) المحقق: طه عبد الرؤوف سعد الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة
- سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة: فريد الأنصاري، منشورات ألوان مغربية، الطبعة الأولى: 1425هـ - 2004م
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 11/1: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: 1089هـ (حققه: محمود الأرناؤوط وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط الناشر: دار ابن كثير، دمشق –بيروت الطبعة :الأولى،1406هـ 1986
- شرح السنة، 15/1: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: 516هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط–محمد زهير الشاويش الناشر: المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت الطبعة: الثانية، 1403هـ - 1983م
- شرح المعلقات التسع، منسوب لأبي عمرو الشيباني (ت 206 هـ) تحقيق وشرح: عبد المجيد همو، الناشر: م الأعلمي للمطبوعات، بيروت– لبنان، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 6/1: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار (دار العلم للملايين –بيروت ط:4 1407هـ - 1987 م)
- صحيح البخاري= الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، 9/1: المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، 1422هـ
- صحيح الجامع الصغير وزياداته، 2/1: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: 1420هـ) الناشر: المكتب الإسلامي.
- صحيح المنقولات في أسباب نزول السور والآيات: فخر الدين بن الزبير بن علي المحسي. دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى: 1428هـ- 2008م

- صحيح مسلم= المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
- صفوة التفاسير، 3/1 : محمد علي الصابوني الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م
- طبقات الصوفية للسلمي، محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي، (المتوفى: 412هـ) بتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1419هـ 1998م.
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 3/1: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللَّه (المتوفى: 745هـ) الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، 1423 هـ
- علم المناسبات في السور والآيات: ويليه مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للإمام السوطي: محمد بن عمر بن سالم بازمول. الناشر: المكتبة الوقفية، الطبعة الأولى: 1423هـ- 2002م
- علم مقاصد السور: محمد بن عبد الله الربيعة، الطبعة الأولى 1432هـ 2011 م ردمك الرياض.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، 2/1: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: 463 هـ) المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: دار الجيل ط: 5، 1401 هـ - 1981 م
- غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب: محمد بن عُزير السجستاني، أبو بكر العُزيري (المتوفى: 330هـ) المحقق: محمد أديب عبد الواحد جمران الناشر: دار قتيبة – سوريا الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1995 م
- غريب القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ) المحقق: أحمد صقر الناشر: دار الكتب العلمية السنة: 1398 هـ - 1978 م
- فتح الباري شرح صحيح البخاري 13/1: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة – بيروت، 1379 رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، بإخراج وتصحيح وإشراف على الطبع: محب الدين الخطيب، بتعليقات الشيخ: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
- فتح البيان في مقاصد القرآن، 6/ 346 للقنوجي صديق خان، (توفي 1304هـ)
- فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ) الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت الطبعة: الأولى – 1414 هـ

- فضائل القرآن للقاسم بن سلام: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: 224هـ) تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين الناشر: دار ابن كثير (دمشق – بيروت) الطبعة: الأولى، 1415 هـ -1995 م
- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، 1: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) (المتوفى 597 هـ) دار النشر: دار البشائر -بيروت- لبنان الطبعة: الأولى - 1408 هـ - 1987 م
- الفوائد الغياثية، 2/1: شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني (توفي: 786هـ) تحقيق: علي بن دخيل الله بن عجيّان العَوفي، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، الطبعة الأولى: 1436هـ
- الفوائد: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، 1393 ه - 1973 م
- في ظلال القرآن، 6/1: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385هـ) الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة. الطبعة: السابعة عشر - 1412 هـ
- القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: 817هـ) تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الثامنة، 1426 هـ - 2005 م
- القرآن الكريم طبيعته ووظيفته: الشاهد البوشيخي. منشورات المحجة، الطبعة الرابعة: 2001م
- القرآن والإنسان أية علاقة: الشاهد البوشيخي، الناشر: أنفو برانت، مطبعة النجاح - الدار البيضاء: 2009م
- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل: عبد الرحمن حبنكة الميداني. دار القلم، الطبعة الخامسة: 1433هـ- 2012م
- القواعد الحسان لتفسير القرآن، 1: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: 1376هـ) الناشر: مكتبة الرشد، الرياض ط: 1، 1420 هـ / 1999م
- القواعد الفقهية: عبد العزيز محمد عزام. دار الحديث – القاهرة سنة الطبع 1426هـ - 2005م
- الكامل في اللغة والأدب: 4/1 محمد بن يزيد المبرد أبو العباس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم سنة النشر: 1417 – 1997 الطبعة الثالثة.
- كتاب العين، 8/1 أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، (المتوفى: 170هـ) المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار مكتبة الهلال.

- كتاب دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون: عبد الله بن عبد القادر التليدي. دار ابن حزم، الطبعة الأولى: 1420هـ- 1999م
- كتاب شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، بلقاسم الغالي، الناشر: دار بن حزم، الطبعة الأولى، بتاريخ: 1يناير 1996م
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 4/1: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ) الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة: الثالثة 1407 هـ
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: 1094هـ) المحقق: عدنان درويش – محمد المصري (الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت بدون سنة النشر)
- لباب النقول في أسباب النزول: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) ضبطه وصححه: الاستاذ أحمد عبد الشافي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان لطائف الإشارات، للإمام القشيري، 2/ 375
- اللباب في علوم الكتاب، 20/1: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ) المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998م
- لسان العرب 15/1: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ) الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة – 1414 هـ
- لسان الميزان، 7/1: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ) المحقق: دائرة المعرف النظامية – الهند الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، 1390هـ /1971م
- المبسوط، 30/1: محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: 483هـ) الناشر: دار المعرفة – بيروت الطبعة: بدون طبعة تاريخ النشر: 1414هـ-1993م
- مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري (المتوفى: 209هـ) المحقق: محمد فواد سزگين الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة الطبعة: 1381 هـ
- مجالس التذكير من حديث البشير النذير: عبد الحميد بن باديس الجزائري، الناشر: وزارة الشؤون الدينية، سنة النشر: 1403هـ 1983م دار البعث للطباعة والنشر، قسطنطينة الجزائر.
- مجالس القرآن، للشيخ فريد الأنصاري، 3/1 فريد الأنصاري. دار السلام للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى، 1430هـ / 2009م

- المجتبى من السنن= السنن الصغرى للنسائي،8/1: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة: الثانية، 1406 – 1986
- المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، 3/1: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ) المحقق: محمود إبراهيم زايد الناشر: دار الوعي – حلب الطبعة: الأولى، 1396هـ
- مجمل اللغة لابن فارس، 2/1: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ) دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية – 1406 هـ – 1986 م
- مجموع الفتاوى، 16/1: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ) المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية عام النشر: 1416هـ/1995م
- محاسن التأويل، 10/1: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: 1332هـ) المحقق: محمد باسل عيون السود الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – 1418 هـ
- محتويات سور القرآن الكريم: أحمد بن عبد الله الطويل. مدار الوطن للنشر –المملكة العربية السعودية: الرياض– الطبعة الأولى 1434هـ – 2013م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 6/1 أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ) المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – 1422 هـ
- المحكم والمحيط الأعظم، 11/1: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: 458هـ) المحقق: عبد الحميد هنداوي نشر: دار الكتب العلمية – بيروت ط:1، 1421 هـ – 2000 م
- مختار الصحاح: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ) المحقق: يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت صيدا الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م
- مختصر شعب الإيمان للبيهقي: عمر بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد، إمام الدين، أبو القاسم الكرخي التميمي القزويني الشافعيّ (المتوفى: 699هـ) المحقق: عبد القادر الأرناؤوط الناشر: دار ابن كثير – دمشق الطبعة: الثانية، 1405

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، 2/1: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة، 1416 هـ – 1996م
- المدخل إلى السنن الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ) المحقق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي – الكويت
- مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب التنزيل: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. راجعه وأشرف على تحقيقه أبو عبد الله مصطفى بن العدوي. الناشر: مكتبة فياض للتجارة والتوزيع، 1428هـ- 2007م
- المستدرك على الصحيحين، 4/1: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، 1411 – 1990
- المستصفى من علم الأصول: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ) تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، 1413هـ – 1993م
- مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)4/1: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: 255هـ) تحقيق: حسين سليم أسد الداراني الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، السعودية الطبعة: الأولى، 1412 هـ – 2000 م
- مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور: عادل بن محمد أبو العلاء الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الطبعة: العدد129 – السنة 37 – 1425هـ
- مصاعد النَّظر للإشراف على مقاصد السورِ. ويُسمى: "المَقْصِدُ الأَسْمَى في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّى"3/1: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ) دار النشر: مكتبة المعارف – الرياض الطبعة: الأولى 1408 هـ – 1987م
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، 2/1 أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو 770هـ) نشر: المكتبة العلمية – بيروت.
- المصنف، 11/1: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: 211هـ) المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي نشر: المكتب الإسلامي– بيروت ط: الثانية، 1403

- معالم التنزيل في تفسير القرآن، 5/1: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: 510هـ) المحقق: عبد الرزاق المهدي الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت الطبعة: الأولى، 1420 هـ
- معاني القرآن للأخفش، 2/1: أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (المتوفى: 215هـ) تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الأولى، 1411 هـ - 1990م
- معاني القرآن وإعرابه، 5/1: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: 311هـ) الناشر: عالم الكتب – بيروت الطبعة الأولى 1408 هـ - 1988 م عدد الأجزاء: 5 مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، 12/ 471
- معاني القرآن: أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: 338هـ) المحقق: محمد علي الصابوني الناشر: جامعة أم القرى – مكة المرمة الطبعة: الأولى، 1409 ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 67. وغريب القرآن، لليزيدي: 273.
- معاني القرآن، 2/1: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: 207هـ) المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر الطبعة1:
- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) الناشر: دار الدعوة، تاريخ النشر 8 ذو الحجة 1431هـ
- معجم مقاييس اللغة، 6/1: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر، 1399هـ - 1979م.
- مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني: أبو العلاء أحمد الكرماني الحنفي (ت بعد 563هـ) تحقيق: عبد الكريم مصطفى مدلج، الناشر: دار ابن حزم، سنة النشر: 1422هـ-2001م
- مفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة - 1420 هـ
- مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ) ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، 1407 هـ - 1987م

- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي (دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت)
- المفصل في صنعة الإعراب: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ) المحقق: د. علي بو ملحم الناشر: مكتبة الهلال – بيروت الطبعة: الأولى، 1993
- مفهوم التفسير بين صلب التفسير وتوابعه. محمد صالح محمد سليمان، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، بتاريخ: 10– 12 جمادى الأولى: 1432ه/ 14–16 أبريل: 2011م
- مقاصد القرآن من تشريع الأحكام: عبد الكريم حامدي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى: 1429هـ– 2008م
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (المتوفى: 708هـ) وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان
- من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب: محمد أبو موسى. مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة: 1433هـ– 2012م
- مناهل العرفان في علوم القرآن، 2/1: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (المتوفى: 1367هـ) الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة: الطبعة الثالثة
- المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري: يوسف بن عبد الله القرضاوي. الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة: 1421هـ– 2000م
- منهج القرآن في إصلاح المجتمع: محمد السيد يوسف. دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الأولى: 1422هـ – 2002م
- المنهج القرآني الفاصل بين أصول الحق وأصول الباطل، 2/1: طه حامد الدليمي، تم إعداد ملف هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة، دون سنة الطبع ولا دار النشر.
- الموافقات، 7/1: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: 790هـ) المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان الناشر: دار ابن عفان الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م
- الموسوعة القرآنية: إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (المتوفى: 1414هـ) الناشر: مؤسسة سجل العرب الطبعة: 1405 هـ

- الموسوعة القرآنية، خصائص السور: جعفر شرف الدين، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت الطبعة الأولى: 1420 هـ
- موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، 12/1: إعداد مجموعة من المؤلفين بإشراف: صالح بن عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملّوح، مؤسِّس دار الوسيلة للنشر والتوزيع، الناشر: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، سنة النشر: 1418هـ-1998م.
- موطأ الإمام مالك: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: 179هـ) صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان عام النشر: 1406 هـ - 1985 م
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم: محمد بن عبد الله دراز (المتوفى: 1377هـ) اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع الطبعة: طبعة مزيدة ومحققة 1426هـ- 2005م
- نتائج الفكر في النحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (توفي: 581هـ) تحقيق: محمد إبراهيم البنا، الناشر: دار السلام للنشر والتوزيع، سنة: 2019م.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (المتوفى: 577هـ) المحقق: إبراهيم السامرائي الناشر: مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن – الطبعة: الثالثة، 1405 هـ - 1985 م
- نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز: الإمام أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني، (ت330هـ) تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، طبعة خاصة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية/ قطر. 1434هـ - 2013م
- نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، للإمام أبي بكر محمد بن عزيز السجستاني، (ت330هـ) تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي.
- النشر في القراءات العشر، 2/1: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: 833 هـ) المحقق: علي محمد الضباع (المتوفى 1380 هـ) الناشر: المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية]
- نظرات في التفسير (آراء الإمام الغزالي في لمعاني بعض الآيات والحاديث والمسائل): متولي محمد متولي، الناشر: غراس للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى: 1429هـ-2008م.

- نظرات في الهدى المنهاجي في القرآن الكريم، من خلال السور حسب ترتيب النزول: الشاهد البوشيخي. الطبعة1: 1436هـ-2015م مطبعة أنفو- برانت، فاس، المغرب.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 12/1: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، 4/2 أحمد محمد بن علي بن محمد الكَرَجي القصَّاب (ت نحو 360هـ) تحقيق: علي بن غازي التويجري، و إبراهيم بن منصور الجنيدل. دار النشر: دار القيم - دار ابن عفان، الطبعة: الأولى 1424 هـ - 2003 م
- النكت والعيون= تفسير الماوردي، 6/1: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ) المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان
- النهاية في غريب الحديث والأثر، 5/1: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ) الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي
- نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، 4/1: محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي (المتوفى: نحو 320هـ) المحقق: عبد الرحمن عميرة الناشر: دار الجيل - بيروت
- الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية، 2/1 إعداد: د. طه عابدين طه حمد. د. ياسين بن حافظ قاري. د. فخر الدين الزبير علي. مكتبة دار المتنبي، الطبعة الأولى: 1438هـ - 2017
- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، 13/1: أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: 437هـ) المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ.د: الشاهد البوشيخي الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة الطبعة: الأولى، 1429 ه - 2008 م
- الوجوه والنظائر: الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهدل، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة: 1983م
- الوحدة الموضوعية في القرآن 40-42 : أحمد أبو زيد. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط. مطبعة النجاح، الدار البيضاء ط:.1 1992

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 7/1: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ) المحقق: إحسان عباس الناشر: دار صادر – بيروت.
- ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الزاهد المطرز الباوَرْدي، المعروف بغلام ثعلب (ت 345هـ) حققه وقدم له محمد بن يعقوب التركستاني، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – السعودية/ المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، 1423هـ – 2002م

فهرس الموضوعات

شكر وتقدير.....2

مقدمة 3

التمهيد.....14

المبحث الأول التعريف بالهدايات القرآنية.....15

المبحث الثاني :أهمية الهدايات القرآنية.....32

المبحث الثالث:منهج العلماء في استنباط الهدايات القرآنية 42

المبحث الرابع: إطلاقات العلماء للهدايات القرآنية وطرق تناولهم لها.....63

القسم الأول: الهدايات القرآنية في سورة النور من الآية 27 إلى آخر السورة.....69

الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات سورة النور.....70

الفصل الأول: اسم السورة وفضلها وأحوال نزولها.....71

المبحث الأول: اسم السورة.....72

المبحث الثاني: فضائل السورة.....80

المبحث الثالث: أحوال نزول السورة.....83

الفصل الثاني: معاني السورة ومقاصدها.....95

المبحث الأول: مقاصد السورة العامة.....96

المبحث الثاني: معاني مفردات السورة من الآية 27 إلى آخر السورة.....103

المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هداياتها من الآية 27 إلى آخر السورة.....117

الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة النور من الآية 27 إلى آخر السورة وربط ذلك بواقع الأمة.....127

الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية السورة.....128

المبحث الأول: الهدايات الخاصة بآيات السورة من الآية 27 إلى آخر السورة.....129

المبحث الثاني: الهدايات الكلية في السورة من الآية 27 إلى نهاية السورة.....390
الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها.....414
المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة.....515
المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة.....422
المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها.....431
الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات السورة وأثر ذلك عليها.....445
المبحث الأول: واقع الأمة من هدايات آيات السورة.....446
المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة.....464
المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة.....483
القسم الثاني: الهدايات القرآنية في سورة الفرقان إلى الآية 20.....500
الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات سورة الفرقان.....501
الفصل الأول: اسم السورة وفضلها واحوال نزولها.....502
المبحث الأول: اسم السورة.....503
المبحث الثاني: فضائل السورة.....507
المبحث الثالث: أحوال نزول السورة.....509
الفصل الثاني: معاني السورة ومقاصدها.....513
المبحث الأول: مقاصد السورة العامة.....514
المبحث الثاني: معاني مفردات السورة من الآية 1 إلى الآية 20.....517
المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هداياتها من الآية 1 إلى الآية 20.....523
الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة الفرقان إلى الآية 20 وربطها بواقع الأمة.....527
الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في السورة.....528

المبحث الأول: الهدايات الخاصة بآيات السورة من الآية 1 إلى الآية 20.....529
المبحث الثاني: الهدايات الكلية في السورة من الآية 1 إلى الآية 20.....638
الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها.....647
المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة.....648
المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة.....654
المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها من الآية 1 إلى الآية 20.....657
الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات السورة وأثر ذلك عليها.....665
المبحث الأول: واقع الأمة من هدايات آيات السورة.....666
المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة.....678
المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة.....688
الخاتمة.....698
الفهارس العامة للبحث.....705
فهرس الآيات القرآنية موضوع الدراسة.....706
فهرس الأحاديث والآثار.....709
فهرس أسماء الأعلام الواردة في البحث.....714
فهرس المصادر والمراجع.....718
فهرس المحتويات.....740